الباب

صحيفة

صحيفه

ابن

صحيفة

صحيفة

تمت فهرسة الجزء الاول من كتاب نفح الطيب

الجزء الاول من كتاب نفح الطيب
من غصن الاندلس الرطيب
وذكر وزيرها لسان
الدين بن الخطيب
تأليف العلامة
المقري رحمه
الله
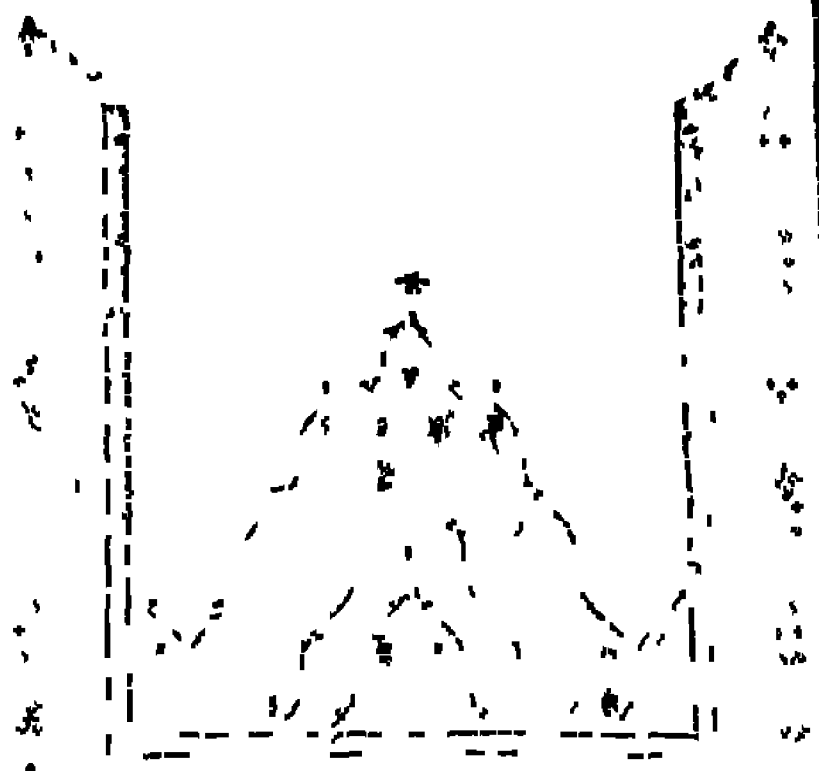
* (بسم الله الرحمن الرحيم) *

يقول العبد الفقير * الدليل المضطر الحقير * من هو من صالح الأعمال عري * أحمد بن محمد
الشهير بالمقري * المغربي المالكي الأشعري * أصلح الله تعالى حاله * وجعل في مرضاته
حله وترحاله * وشابعث الطاعة والرضوان اشغاله * وانجح بطلوع آماله انجاءه وانجاله
* (أحمد) من عرف من حلى الأمصار وحلى الأعيان * على تداول الأعصار وتطاول
الأحيان * ما فيه ذكرى لأولي الأبصار وإرشاد إلى معرفة الديان * واعتبار
بأخبار راق وصفها وأورق * (وسرح من صرف المطامع والمطامح * إلى تفصيل
ما أفاد لسان الدين من كلم جوامع * وتحصيل ما أجاد من حكم بوالغ حب لاعيها
هوامع * وإنشاء ذخائر المهتدين إلى تشنيف بدررها اللوامع الآذان والمسامع *
من كل خطاب بزته البراعة أوراق * (حتى توج المطلب المحمود روس المنار
بفرائد الكلام * وحلى الكتاب الأدب المحمود صدور المرار من فوائد الأعلام * وتكلل
المكلم الطيب الأرب المفدى أعد المحابر بفرائد الأقلام * عيون أوراق * (وأشهد
أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له الذي ابتدأ الخلق من غير مثال وبرا * وعمّ العباد إلى
حاضر وباد وظاهر وخامل وحاضر وكمل بشر الله بالأنامل أبدى الكرا * وأبدى
في اختلاف ذواتهم وأعراضهم وشأن أدوائهم وأغراضهم وتفاوت ألسنتهم وأمكنتهم
وأزمنتهم وألوانهم أكوانهم ومناصبهم ومناسبهم عبرا * وجعل الرسالة انج

صغرا

صغيرا أو كبيرا * والبس منهم مسوحا أو حبرا * أو أخلد الى الارض أو صعد منبرا * جسرا
الى الآخرة ومعبرا * وحكم وهو الفاعل المختار على الجميع بالموت فكان لمستداهم خبرا *
فياله من داء أعيا كل معالج أو راق * (فسبحانه من اله انفرد بوجوب القدم والبقا
واختص بفضله من شاء فارتقى وعم تعالى ذوى السعادة والشقا بالحدوث والفنا *
وأذاق من فراق الدنيا كل من فيها بلا ثنيا من وفق فنفى عن جفنه وسنا * او خذل
فجرى في ميدان الاغترار رسنا * وزين له عياذا بالله سوء عمله فرآه حسنا * طعم شعوب
المر الجنى * فلم يغن منه غنى دوى الغنى والغنا * واهل السناء والسنا * من
استظهروا به من ارباب الصوارم والقنا * وأصحاب النظم والنثر والجدال والفخر
والمدح والثنا * فأولئك ألقوا السلاح مذعنين مستبصرين موقنين انجلاء الحق وزهق
الباطل وولى الامترا * وهؤلاء تركوا الاصطلاح معلنين عالمين أنهم لم يكونوا في التمويه
محسنين وكيف لا وقد اضمحل الغرور والاجترا * وذهب والله الجور والافترا *
وبدل مدق الاطراء بصدق الاطراق * (وأشكره جل وعلا على أن علم بالقلم مالم نعلم *
ونبه بآثاره الدالة على اقتداره الى سلوك الطريق الاقوم الواضح المعلم * وأرشد من
أشرق فكره وأضا الى التفويض لاحكام القضا ومن ذا يرد ما امضى أو ينقض
ما أبرم والتسليم على كل حال أسلم * وأمر جل اسمه بالتدبر في أنباء من مضى والنظر
في عواقب احوال الذين زال امرهم وانقضى من صنوف الامم * ووبخ من دخا قلبه
بالاعراض عن ذلك وأظلم * وشتان ما بين اللاهى والمتذكر والساهى والمتفكر
والناجى والهالك المتحير والداجى الحالك والمشرق النير * ومايستوى الظل والحرور
والحزن والسرور والظلمات والنور دوالبهجة والاشراق * (وأصلى ازكى الصلاة
والسلام هدية لحضرة سيد الانام ولبنة التمام من زويت له من الارض المغارب
والمشارق * وتم به نظام انبياء الله ورسله العظام وأزاح نوره الضلال والظلام حتى اضاءت
بوسمه المساجد وازدانت باسمه المهارق * وألقى الموفق الموافق لدعوته يد الاستسلام
وذلك شأن ذوى العقول الراجحة والاحلام غير خائف من عتب ولا مترقب لملام فأمن
من الطوارئ والطوارق * وتمت كلمة الاسلام الذى اتضح برهانه لذى بصر وبصيرة
لايحتاج الى زيادة الاعلام وعلت سيوف توحيد الملك العلام * من المعاند المارق
المفارق * وحصبتها بجماء الغفير الرقراق * (النبى الامى الامين الداعى جميع
العالمين الى سلوك منهاج ماله من هاج دى أضواء شوارق * سيد الرسل الغر الميامين
ملجأ الائمة جعلنا الله ممن نجا بالالتجا اليه آمين الذى أنزل عليه القرآن هدى للناس وبينات
من الهدى والفرقان وانشق له الزبرقان ونبع الماء من بين أصابعه زيادة فى الايقان *
وسلمت عليه الاحجار وانقادت لامره الاشجار متفيئة ظلاله الشريفة وخطت فى الارض
أسطرا مبدعة الاتقان الى غير ذلك من معجزاته الخوارق * فهو صاحب الدعوة الجامعة
والبراهين اللامعة والادلة التى سقت الشجرة الطيبة عيونها النافعة الصيبة الهامية
الهامعة الصادقة البوارق * فأثمرت النجاة والفوز والفلاح وأورقت بالهدى أحسن

أبان * (أشرف رسول بعث إلى الأرض وأبسطهم جلالة * وأكثرهم باعا
في الطول منهما والعرض ولم لا وقد طهر به الحق من أمة مسترشد أو ضلاله * وأسمى من
حاز شيئي السنة والفرض وأعمهم دلاله * منقذ الرائين في الدنيا ويوم العرض الآخذ
بحجزهم عن النار والضلاله * الداعي إلى مقدم الخير وحسن الغرض الحريص على
هداية الخلق المبلغ لهم أحكام الحق من غير تحريف ولا إزاله * ذو الفضل العظيم الذي
لم يختلف فيه من أهل العقول اثنان والمجد الصميم الثابت الأصول النامي الأفنان
النبي من محتد معد بن عدنان المنتخب في خير عنصر وأطهر سلاله * شفيعنا وملاذنا
وعصمتنا ومعاذنا وعائلنا الذي نجحت به آمالنا وزكت أقوالنا وأعمالنا *
ووسيلتنا الكبرى وعمدتنا العظمى في الأولى والأخرى وكنزنا الذي أعددناه لإزاحة
الغموم ذخرا * وغياثنا وغوثنا وسندنا ونبينا ومولانا محمد الطيب الأنساب والأعراق
* (صلى الله وسلم عليه ووجه ورود التعظيم إليه من مفرد في جماله صار لجمع الأنبيا
عاما * وفذ في كماله تقدم في حضرة التقديس إلى أن سبق على الشرف أعظم
ناسخ بالمرسلين إماما * وتصدر على كمل الأوصاف كالوفا والعفاف والصدق
والإنصاف وزكى أعماله وبلغ الراجي منتهى آماله ولم يخلف وعدا ولم يخفر ذماما *
وتبدى بحلل العصمة من كل نقيصة ودنس ووصمة ولم يصرف لغير طاعة مولاه
الذي أولاه من التفضيل ما أولاه اهتماما واغتناما * وعلى آله وعترته السائرين
بأثره أنصار الدين والمهاجرين المهتدين وأتباعه وذريته الطالعين نجوما في سما
شريعته وأتباعهم التابعين بحقوق شرعته * أرباب العقل الرصين الساعين بسيوف دعوته
أبواب الفضل الحصين حتى نابت أحكام ملته وأعلام نعمته من بالأندلس والصين فضلا
عن الشام والعراق * (ورضي الله تعالى عن علماء أمته المصنفين في جميع العلوم والفنون
وعظماء سنته المرشدين للطلاب بالآراب المحققين لهم الظنون * وحيا مربعه المنتصرين
يغدون بمر عليه الأيام والشهور وتكر عليه الآنا والدهور والأعوام
والسنون * المندرجين في عداد من كان بعد النشأة من السكان المتذكرين على
قدر الإمكان عن طبيعة رحى المنون * من أملاك العصور الخالية وملوك الدهور
الماضية وذوي الأحوال التي هي بسلوك الأخلاق حاليه * من نصر وأعلى ونشر
وذي نعما ومختال بذي نكته باته ومختال على ما بأيدي الناس بنعمه وزيانه *
وعامل أحسن العمل وعامل اعتبر بالأمثال * وكارع من حياض الشريعة ورافع رايات
الآداب المرتفعة وذي ورع سد عن أرائه الذريعة وأخي طمع في أن تدرك آرائه من الدنيا
الوشيكة الزوال السريعة * ومقتبس من نبراس الروايه وملتبس بلباس الغوايه *
وشاعر هام في كل واد وقال ما لم يفعل فكان للغاوين من الرواد * وسائل غمر الحراب
وخدع بالسراب عن أعذب الشراب * ومحقق علم أنه إذا جاء القدر عمي البصر مهما كان
أحذر من غراب ومروٍ يقين أن غير الله فان وكل الذي فوق التراب تراب * ومن مخلق
بمجرد نسوق ومغلق تردد شوق إلى مائسة رضا الرب وشوق وما ذكرنا تمام الله

ووعظ

روعنا وخوف * ولاداعتز بالباطل فهو بالحق مماطل وطالما أسره وسوف * وأبعد الانتجاع ثم أوى من باطنه الى بيت قعيد نه لكاع نفس أمارة بعد ما طوف * ومن مادح نظم اللآلئ نظم اللآل وكادح طمس لألاء العز بظلمة ذل السؤال * فجعل القصائد مصايد والرسائل وسائل والمقطعات مرقعات فآل أمره الى ما آل * ومن مخبر بما سمع ورأى حين اغترب عن مكانه ونأى أو أقام فى أوطانه فلم ماقدر ورأى * ومن مجازف لا يفرق بين الغث والسمين والامرار والاحلاء * وعارف ثقة أمين نظم درر الصدف الثمين فى أسلاك الكتابة والاملاء * وعاشق حسناء مكرر ذات الصدار من الشجون والشعار تبكى على صخر قلب المحبوب * وتذكره كلما طلعت شمس أو كان للصبا هبوب ويأتى بما يطفئ وقود الجوى المشبوب * من بحار الاشعار * وليلى شوقه العفيفة عن العار ترفل فى ثوب من التصبر معار وقيس توقه من ثوب السلو عار * قد تولّه واشتاق خصوصا عند انتشاق البشام والعرار * ووقاق لما أرق فلم يقر به قرار * فاعتراه ما براه وألف البكاء بحكم الاضطرار * ولبس ثياب النحول والاصفرار وأسر لما هزمت جيوش صبره وأزمعت الفرار * فتحير مما شجاه وسأل النجاة من أسر الفراق

سبحان من قسم الحظو * ظ فلا عتاب ولا ملامه

أعمى وأعشى ثم ذو * بصر ورزقاء اليمامه

ومسدد أو جائر * أو حائر يشكو ظلامه

لولا استقامة من هدا * ه لما تبينت العلامه

ومجاور الغرر المحيـف له البشارة بالسلامه

وأخو النجا فى سائر الانفاس مرتقب حمامه

وكما مضى من قبله * يمضى ولم يقض التزامه

والجاهل المغتر من * لم يجعل التقوى اغتنامه

فليرفض العصيان من * يخشى من الله انتقامه

وليعتبر بسواه من * لصلاحه صرف اهتمامه

فالعيش فى الدنيا الدنيـة غير مرجو الاقامه

من أرضعته ثديها * فى سرعة تبدى فطامه

من عز جانبه بها * تنوى على الفور اهتضامه

واذا نظرت فأين من * منعته أو منحت مرامه

ومن الذى وهبته وصـــلا ثم لم يخش انصرامه

ومن الذى مدت له * حبلا فلم يخف انفصامه

كم واحد غرته اذ * سرته مخفية الدمامه

قعدت به من حيث لم * يعلم ولم يملك قيامه

أين الذين قلوبهم * كانت بها ذات استهامه

يصمى القلوب اداري * عن قوس حاجبه سهامه
ويروق حسنا ان رنا * ويروق آراما راسه
أبى لها ثغر حلا * ذوقا لمن رام التئامه
أنى لها وجه يشب * بقلب مبصره ضرامه
أستغفر الله للعـــــو ولا يرى الشرع اعتيامه
بل أين أرباب العلو * م أولو التصدر والامامه
وذوو الوزارة والحجا * بة والكتابة والعلامه
كانّ ثمة سكنوا بأنــــدلس فلم يشكوا سآمه
هى جنة الدنيا التى * قد أذكرت دار المقامه
لا سيما غرناطة الـــغرّاء رائقة الوسامه
وهى التى دعيت دمشـــق وحسبها هذا فخامه
لنزول أهليها بها * اذ أظهر الكفر انهزامه
وأتت جيوش الشام من * باب نبى الفتح انبهامه
فسلوا بها عن جلق * اذ أشبهتها فى الفخامه
وبدا لهم وجه المنى * وأراهم الثغر ابتسامه
وتبوءوها حضرة * تبرى من المضنى سقامه
بروائهـــا وبمائها * وهوائها النافى الوخامه
وربا ضها المهتزة الاعطاف من شدو الحمامه
وبمرجها النضر الذى * قد زين الله ارتسامه
وقصورها الزهر التى * يأبى بها الحسن انقسامه
ياليت شعرى أين من * أمضى بها الملك احتكامه
وأنيح فى حمـــرائها * عزا به زان اتسامه
أين الوزير ابن الخطيــــب بها فما أحلى كلامه
فلكم أبان العدل فى * أرجائها وبها أقامه
ولكم أجار عدا وكم * أجرى ندى والى انسجامه
راعت صروف الدهر دو * لته وما راعت ذمامه
حتى ثوى اثر النوى * فى حفرة نثرت نظامه
من زارها فى أرض فا * س أذهبت شجوا امامه
اذ بهته لكل شمـــــل شتت الموت التئامه
هذا لسان الدين أســــكته وأسكنه رجامه
ومحا عبارته فمن * حياه لم يردد سلامه
فكأنه ما أمسك الـــقلم المطاع ولا حسامه
وكأنه لم يعل متــــن مطهم بارى النعامه

برحلتي من بلادى * ونقلتي عن محل طارفي وتلادى * بقطر المغرب الاقصى * الذى تمت محاسنه لولا أن سماسرة الفتن سامت بضائع أمنه نقصا * وطما به بحر الاهوال فاستعملت شعراء العيث في كامل رونقه من الزحاف اضمارا وقطعا ووقصا

قطر كأن نسيمه * نفحات كافور ومسك
وكأن زهر رياضه * در هوى من نظم سلك

وذلك أواخر رمضان من عام سبعة وعشرين بعد الالف * تاركا المنصب والاهل والوطن والالف

بلد طاب لي به الانس حينا * وصفا العود فيه والابداء
فسقت عهده العهاد وروت * منه تلك البوادى الانداء

وما عسى أن اذكر في اقليم * تعين لحبه وصله التسليم

أصواؤه طبق المنى وهواؤه * يشتاقه الولهان في الاسحار
والطبع معتدل فقل ما شئته * في الظل والازهار والانهار

محل فتح الكمائم * ومسقط الرأس وقطع التمائم

به كان الشباب اللدن غضا * ودهرى كله زمن الربيع
ففرق بيننا زمن خؤون * له شغف بتفريق الجميع

لم أنس تلك المواسم * التي أيامها للعمر مواسم * وثغورها بالسرور بواسم * فصرت أشير اليها وقد زمت للرحيل القلص الرواسم

ولما بها تيك الديار مواسم * كانت تقام لطيبها الاسواق
وأبانها عني الزمان بسرعة * وغدت تعللنا بها الاشواق

وأنشد قول غيلان

أمنزلتي مي سلام عليكما * هل الازمن اللاتي مضين رواجع

وأتمثل في تلك الحدائق التي حمائمها سواجع * بقول من جفونه من الهوى غير هواجع

تشدو بعيدان الرياض حمائم * شدو القيان عزفن بالاعواد
ماد النسيم بقضبها فتمايلت * مهتزة الاعطاف والاجياد
هذي تودع تلك توديع التي * قد آذنت منها بوشك بعاد
واستعبرت لفراقها عين الندى * فاستل منثور عطفها المياد

وأحدق الطرف الى روض * لانسان العين من فراقه في بحر الدموع سبح وخوض

روض به أشياء ليست في سواه تؤلف
من الهزار ترنم * ومن القضيب تقصف
ومن النسيم تلطف * ومن الغدير تعطف

وألتفت كالمستريب * والحي اذ ذاك قريب * وحديث العهد ليس بمنكر ولا غريب

أهذا ولما تمض للبين ساعة * فكيف اذا مرت عليه شهور

والآثار لائحة * والشمال غادية ورائحة

وأربع أحباب اذا ماذكرتها * بكيت وقد يبكيك ما أنت ذاكر
بطاح وأدواح يروقك حسنها * بكل خليج تمتمه الازاهر
فما هو الافضة في زبرجد * تساقط فيه اللؤلؤ المتناثر
بحيث الصبا والترب والماء والورى * عبير وكافور وراح وعاطر
وما جنة الدنيا سوى ما وصفته * وما ثم منه الحسن نجد وحاجر
بلادي التي أهلي بها وأحبتي * وروحي وقلبي والمنى والخواطر
تذكرني أعيادها ووهادها * عهودا مضت لي وهي خضر نواضر
اذ العيش صاف والزمان مساعد * فلا العيش ممطول ولا الدهر جائر
بحيث ليالينا كغض شبابنا * وأيامنا سلك وهي جواهر
ليال كانت للشبيبة دولة * بها ملك اللذات ناه وآمر
سلام على تلك العهود فانها * موارد أفراح تلتها مصادر

وأتذكر تلك الايام * التي مرت كالاحلام * فأتمثل بقول بعض الاكابر الاعلام

يا ديار السرور لازال يبكي * فيك اذ تضحك الرياض غمام
رب عيش صحبته فيك غض * وعيون الفراق عنا نيام
في ليال كأنهن أمان * في زمان كأنه أحلام
وكأن الاوقات فيك كؤس * دائرات وأنسهن مدام
زمن مسعد وألف وصول * ومنى تستلذها الاوهام

وبقول الحائك الامي * عندما يكثر شجوي وغمي

لم أنس أياما مضت ولياليا * سلفت وعيشا بالصريم تصرما
اذ نحن لانخشى الرقيب ولم نخف * صرف الزمان ولانطيع اللوما
والعيش غض والحواسد نوم * عنا وعين السين قد كحلت عمى
في روضة أبدت ثغور زهورها * لما بكى فيها الغمام تبسما
مد الربيع على الخمائل نوره * فيها وأصبح كالخيام مخيما
تبدو الاقاحي مثل ثغر أشنب * أضحى المحب به كئيبا مغرما
وعيون نرجسها كأعين غادة * ترنو فترمي باللواحظ أسهما
وكذلك المنثور منثور بها * لما رأى ورد الخدود منظما
والطير تصدح في فروع غصونها * سحرا فتوقظ بالهديل النوما

وأميل * الى بلاد محياها جميل

كساها الحيا برد الشباب فانها * بلاد بها عق الشباب تمائمي
ذكرت بها عهد الصبا فكأنما * قدحت بنار الشوق بين الحيازم
ليالي لا ألوي على رشد ناصح * عناني ولا أنثيه عن غي لائم
أنال سهادي من عيون نواعس * وأجني مرادي من غصون نواعم
وليل لنا بالسد بين معاطف * من النهر ينساب انسياب الاراقم

وأنجمها هيبة وأرحبها * اذراها السرى وفرط الكلاله
لاتطل سيرها العنيف فقد برح بالصب فى سراها الاطاله
وارث لنازح الذى ان رأى ربعا ثوى فيه نادبا أطلاله
يسأل الربع عن ظباء المصلى * ما على الربع لو أجاب سؤاله
ومحال من المحيل جواب * غير أن الوقوف فيه علاله
هذه سنة المحبين يبكو * ن على كل منزل لا محاله
يا ديار الاحباب لازالت الاعين فى ترب ساحتيك مذاله
وتمشى النسيم وهو عليل * فى معانيك ساحبا أذياله
أين عيش مضى لنا فيك ما أسرع لما تقضى ذهابه وزواله
حيث وجه الزمان طلق نضير * والتدانى غصونه مياله
ولنا فيك طيب أوقات أنس * ليتنا فى المنام نلقى مثاله

وأردد قول الذى سحر الالباب منادياً من له من الاحباب

أحبابنا لو لقيتم فى اقامتكم * من الصبابة ما لاقيت فى الظعن
لاصبح البحر من أنفاسكم يبسا * كالبر من أدمعى ينشق بالسفن

وقوله

وما تغيرت عن ذاك الوداد ولا * حالت بى الحال فى عهدى وميثاقى
دينى غرامى بكم دهرى أكرره * وقد تعمقت فى وجدى وأشواقى

وقول المجد بن شمس الخلافه معلما أنه لا يريد بدل معهده وحلاوه

يا زمان الهوى عليك السلام * وعلى السلو عنك حرام
أى عيش قطعته فيك لودا * م وهل يرتجى لطل دوام
كنت حلما والعيش فيك خيالا * وسريعا ما تنقضى الاحلام
لهف نفسى على ليال تقضت * سلبتنى برودها الايام
وطمتنى الاقدار عنها وليدا * وشديد على الوليد الفطام
لا تلمنى على البكاء عليها * من بكى شجوه فليس يلام

وقول أبى طاهر الخطيب الموصلى

حى نجدا عنى ومن حل نجدا * أربعا هجن لى غراما ووجدا
واقرعنى السلام آرام ذاك الشعب والاجرع الخصيب اعدى
وابك عنى حتى ترنح بالوجد أراكا به وبانا ورندا
فلكم وقفة اطلت على الضا * ل بدمع اذاع سرى وأبدى
وعلى البان كم من الدين اذريت لاكى للدمع مثنى ووحدا
آه والهمتى على طيب عيش * كنت قطعته وصالا وودا
حيث عود الشباب غض نضير * ويد المكرمات بالجود تندى
والخليل الودود ينعم اسعا * فا وصرف الزمان يزداد بعدا

ما كان أحلاك يا أيام وصلهم * وباليالي الرضا ما كان أصوالك
يا بدر تم تناءت عنه أربعنا
ولم تزل تحتويه الدهر أضلعنا
ما للنوى بضروب البين توجعنا
اذا تذكرت دهرا كان يجمعنا * تعطرت كبدي شوقا لمرآك
أحباب أنفسنا كم ذا النوى وكم
ويا معاهد نجوانا بذي سلم
تالله ماشبت دمعا للأسى بدم
ولا لثمت تراب الارض من كرم * الا مراعاة خل طل يرعاك
على التعلل يدني منهم وعسى
فيعمر القرب ما بالبين قد درسا
كم ذا أنادي ربع بالنوى طمسا
يا قلب صبرا فان الصبر عاد أسى * ويا منازل سلمى اين سلماك
وقول بعض من اشتد به الهيام مخاطب حيرته مادحا ليالي القرب ودا ما تنقلب الايام
أيام أنسي قد كانت بقربكم * بيض فحين نأيتم أصبحت سودا
ذممت عيشي مذ فارقت أرضكم * من بعد ما كان مغبوطا ومحسودا
وقول صاحب مصارع العشاق وقد شاقه من الهوى ما شاق
بانوا فادمع مقلتي * وجدا عليهم تستهل
وحدا بهم حادي الفرا * ق عن المنازل فاستقلوا
قل للذين ترحلوا * عن ناظري والقلب حلوا
ما ضرهم لو أنهلوا * من ماء وصلهم وعلوا
وقوله حين زحزحته يد الفراق عن أوطان العراق
قد قلت والعبرات تسفحها على الخد المآقي
حين انحدرت الى الجزيرة وانقطعت عن العراق
وتحطمت أيدي الرفا * ق مهامه البيد الرقاق
يا بؤس من سل الزما * ن عليه سيفا للفراق
وقوله أيضا
يا صبر الحي بذات النقا * سقاك دمع سح نأوا مارقا
هل سلوة هيهات لا سلوة * قد بلغ السيل الربى وارتقى
وأنت يا يوم النوى عاجلا * أدال منك الله يوم اللقا
وقولي مواطنا للثالث وقد تعين لي فيمن تعين حادث
لم أنس عهدا والشمل مجتمع * والعيش غض وروض الانس معطار
فها أنا بعد بعدكم في قلق * وقد نبت بي أرجاء وأقطار

وهو بالحب مدنف وعليل

ورب حمامة في الدوح باتت * تجيد النوح فنا بعد فن

أقاسمها الهوى مهما اجتمعنا * فمنها النوح والعبرات مني

ولا غرو ان طهر سر بائح فما مثلي من الشجو بائح

فرجعت بعد فراق أيام الهوى * أصف الصبابة للمحب المولع

دامي الجفون اذا الحمامة غردت * من فوق حوط البانة المترعرع

أسقي الديار وقد تباعد أهلها * عنها عزالي الدموع الهمع

ورواعب الاطلال ليس يجيبني * ما بينهن سوى الصدى شوجع

وهواتف فوق الغصون يجيبني * منهن تغريد الحمام السجع

ناحت على عذب الفروع والمها * منها عرأى فوقها ويسمع

مافارقت الفا كما فارقته * كلا ولا أجرت سواكب أدمعي

على أوان عيون سعوده روان وزمان معمور بأماني وأمان وآمال دوان وتهاني ماتي تكرر عوان وفي عذر من طال ليله فاضطرب فيه لوعه وسكن جواه بجوانحه وصلوعه

ان طال ليلي بعدهم فلطوله * عذر وذا لما أقاسي منهم

لم تسر فيه نجومه لكنها * وقفت لتسمع ما أحدث عنهم

فأرقني الرائد في حرق أظهر المكنون وأبان ووجدي بين نأي وبان لم يجد فيه تعلل رند وبان

تنهى يا عذبات الرند * كم ذا الكرا هب نسيم نجد

فلست مثلي في حوى أو أرق * وحرقة من فرقة أو صد

عوفيت مما حل بي من جيرة * في الغرب لم يرثوا لفرط وجدي

أعلل القلب ببان عهم * وهل يموت غصن عن قد

بانوا فلا معنى السرور بعدهم * مغنى ولا عهد الرضا بعهد

آها من البعد ومن لم يدره * لم يشجه تأوهي للبعد

وفي شغل من ابكته الربوع والطلول وذهبت برهة من زمانه بين الترحل والحلول فركب من الاخطار الصعب والذلول وحافظ على العهود ولم يسلك سبيل الغادر الملول

سقاها الحيا من أربع وطلول * حكت دنفي من بعدهم ونحولي

ضمنت لها أجفان عيني قريحة * من الدمع مدرار الشؤن همول

ومن الغريب الذي ينكره غير الاريب أن الحادي ان سر القلب بكشف رين فقد تسبب في اجتماع أمرين متنافيين متنافرين

ترنم حاد بالصريم فشاقني * الى ذكر من باتت ضلوعي تضمه

فسر وساء العيس شجوا فربما * كلفت به من حيث صرت أذمه

وارتحلت حين ملت من طول السرى مضمنا ذكر ما أروم له تيسرا وقد أكثر الرفاق عند

فالدر ينظم عند عقد بحاره * بجميل أجياد الحسان عقودا

وقول غيره

فعسى الليالى أن تمن بنظمنا * عقدا كما كنا عليه وأكملا
فربما نثر الجمان تعمدا * ليعاد أحسن فى النظام وأجملا

وأرغب لمن أطال ذيول الغربة أن يقلصها وأطلب ممن أجال النفوس فى سيول الكربة أن يخلصها

فنلتقى وعوادى الدهر غافلة * عما نروم وعقد البين محلول
والدار آنسة والشمل مجتمع * والطير صادحة والروض مطلول

وأضرع اليه سبحانه فى تيسير العود الى أوطانى ومعهدى الذى حطا بالعز أوطانى وأن يلحقنى بذلك الافق الذى خيره موفور وحق من فيه معروف لا سكر ولا مكفور

اذا طفرت من الدنيا بقربهم * فكل ذنب جناه الدهر مغفور

وكأنى بعاتب يقول ما هذا التطويل فأقول له جوابى قول ابن أبى الاصبع الذى عليه التعويل

أكثرت عذلى كأنى كنت أول من * بكى على مسكن أوحن للسكن
لا تلح ان من الايمان عند ذوى الايمان منا حنين النفس للوطن

على أنى أقول اللهم يسر لى ما فيه الخيرة لى بالمشارق أو المغارب وجد لى من فضلك حيث حللت بجميع ما فيه رضاك من المآرب بجاه نبينا وشفيعنا المبعوث رحمة للاحمر والاسود والاعاجم والاعارب عليه أفضل صلاة وأزكى سلام وعلى آله وأصحابه الاعلام والتابعين لهم باحسان ما ذر شارق وتعاقب طالع وغارب ثم جدّ بنا السير فى البر أياما وأيناعن الاوطان التى أطنبنا فى الحديث حبالها وهياما وكاعن تفاعيل فصلها نياما الى أن ركبنا البحر وحللنا منه بين السحر والنحر وشاهدنا من أهواله وتنائى أحواله ما لا يعبر عنه ولا يبلغ له كنه

البحر صعب المرام جدا * لا جعلت حاجتى اليه
أليس ماء ونحن طين * فما عسى صبرنا عليه

وكم استقبلتنا أمواجه بوجوه بواسر وطارت الينا من شراعه عقبان كواسر قد أزعجتها أكف الريح من وكرها كأنما نبهت اللجج من سكرها فلم تبق شيأ من قوتها ومكرها فسمعنا للعمال صفيرا وللرياح دويا عظيما وزفيرا وتيقنا أنا لا نجد من ذلك الا فضل الله مجيرا وخفيرا واذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون الا اياه وأيسنا من الحياة لصوت تلك العواصف والمياه فلا حيا الله ذلك الهول المزعج ولا بياه والموج يصفق لسماع أصوات الرياح فيطرب بل يضطرب فكأنه من كأس الجنون يشرب أو شرب فيبتعد ويقترب وفرقه تلتطم وتصطفق وتختلف ولا تكاد تتفق فتخال الجو يأخذ بنواصيها وتجذبها أيديه من قواصيها حتى كاد سطح الارض يكشف من خلالها وعنان السحب يخطف فى استقلالها وقد أشرفت النفوس على التلف من خوفها واعتلالها واذنت الاحوال

بعد ما خطبا بها ما خلالها وشابت الطيور وراءنا في صورها الموت والنزاع
في نزاع ع حروف الامواج الى أمد منها الافواج بالارواح وعن معود كدود
على عود ماس مرادي وارواح وقد ساس الفلى أمكنها وحرس من الفرق
السما ووهما أنه ليس في الوجود أعوار ولا عود الا السما والما وذلك السمس
ومن في درجونه دون مع ترب هجوم العدو في الرواح والعدو لا احسار على عد ن
لردالحرب دمرالله سبحانه من فيها واذهب عنهما عن المسلمين الكرب لا سيما الطم
الملعونه الى تعدوا في حلص من معرتها امدنا سد الهي ومعونه فمدا عرض
في لهوات البحر الساحي بها وقد في ركبه فأناب من كمدها وبحا فراد بأذلك
الحذر الذي لم يسر ولم يدر على ما وصفنا في هول البحر فلما واخر شاالدالى سدان
الالبا بالسدالى الهلكه ظلما وسبب افكار بأمرها وتساسي وبدما وفرها اذالبحر
وحده لا كي فارعه ولا قوى تصارعه ولا شكل تصارعه لا يومن على كل حال
ولا يفرق بين عاطل وحال ولا بين اعزل وشاكي وشاك وباكي

ملا به ليس لها امان * الصبر والسلطان والزمان

لكمت وقد انضم اليه حرف العدو والغادر والجاني والكافر الجاني الى ان قضى الله بالنجا
وكل ما أراده فهو الكائن وان نهى عنه واخطا الناس قراسا الغرو كما فاصل لم ير وسعيه
اعنيا في المره وحصل بعد الشدة الفرج وعمامن السلامه أطيب الارج فالها
من نعمه كشفت عن وجوهنا النقاب فل سكر الهامو مالاحساب وعن الرقاب جعلنا
الله بآلائه معترفين وعلى طاعته مصطرفين ولم تحل في البر من معانا خطوب وهدا راه
وحر لمساعي ذات بينهم وخطوب فكم خاصمه فيها ه ومعها وسمعنا بالخطا منها أثرا
صحيحا ولشا الفجاج وقرانا من الطرق خطوطا ذات اسمامه واعوجاج وملوك الرتبه
من الفرقه في اضطراب وارتجاج وربما عسف على المحمد الادله التي تحمل بها على المذهب
الاحتجاج فيرى الانسان يعترى زمر الاسواق والاحسام قد ربت عليها من التعب
الاطواق هذا والليل تصحبه المدرسيات وقد سدت رحال وأقتاب وزمر ركاب
وربعت احداج وقرنت من الدعه عند به المصبا اوداج وتساوى في السير ازمر سرب
ولدلل مصر أوداج وادم النأوب والاسساد وحل العرنه هذا تصل وادم ووصلنا بعد
حروص عار بذهن فيها الفكر وبحار وحروب فات تحافل بصل منها القطاع الماهل
الى مصر المحروسه فسما روُ سها من الاوجاع وساهدنا كبراس تحاسنها التي تعرعن
وصفها السواق والسحاع وعلقان فدا نعها التي لا ستوعبها مول ان ناهض فيها

ساطي مصر جنه * ما مثلها في بلد
لا سيما مذ زخرفت * بنيلها المطرد
وللرياح فوقه * سوابغ من زرد
مسرود ما مسها * داود فيها عرد
سائله وهو بها * يرعد عاري الجسد

والفلك كالافلاك بين حادر ومصعد

ويقول اخر

انظر الى النيل الذى * ظهرت به آيات ربى
فكانه فى فيضه * دمعى وفى الخفقان قلبى

ويقول أبى المكارم الخطير المعروف بابن مماتى فى جزيرتها

جزيرة مصر لاعدتك مسرة * ولازالت اللذات فيك اتصالها
فكم فيك من شمس على غصن قامة * يميت ويحيى هجرها ووصالها
معانيك فوق النيل أضحت هوادجا * ومختلفات الموج فيك جمالها
ومن أعجب الاشياء أنك جنة * تمد على أهل الضلال ظلالها

لعله أراد بأهل الضلال اليهود والنصارى المستولين اذ ذاك على الدولة وتذكرت فى مصر

قول القاضى الفاضل

بالله قل للنيل عنى اننى * لم أشف من ماء الفرات غليلا
وسل الفؤاد فانه لى شاهد * ان كان طرفى بالبكاء بخيلا
يا قلب كم خلفت ثم بثينة * وأعيذ صبرك أن يكون جميلا

وقول احمد بن فضل الله العمرى

لمصر فضل باهر * بعيشها الرغد النضر
فى سفح روض يلتقى * ماء الحياة والخضر

وقول آخر

كأن النيل ذو فهم ولب * لما يبدو لعين الناس منه
فيأتى حين حاجتهم اليه * ويمضى حين يستغنون عنه

وقول اخر

ولله مجرى النيل منه اذا الصبا * أرتنا به من مرها عسكرا مجرا
بشط يهز السمهرية ذبلا * وموج يهز البيض هندية بترا
اذا مد حاكى الورد لونا وان صفا * حكى ماءه لونا ولم يحكه مرا

وقول آخر

واها لهذا النيل أى عجيبة * بكر بمثل حديثها لا يسمع
يلقى الثرى فى الماء وهو مسلم * حتى اذا ما مال عاد يودع
مستقبل مثل الهلال فدهره * أبدا يزيد كما يزيد ويرجع

وقول ابن النقيب

الصب من بعدهم مفرد * ودمعه النيل وتعليقه
وخده لما بكاهم دما * مقياسه والدمع تخليقه

وقول الصفدى

سقيا لمصر وما حوت * من أنسها وأناسها

شوق الفؤاد الى معالك متصل * شوق الرياض الى طل وأنداء

ثم أنشدت عند ما بدت أعلام البيت الحرام قول بعض من غلب عليه الشوق والغرام وقد بلغ من أمانيه الموحبة بشائره ونهاية المرام

وافى الحجيج الى البيت العتيق وقد * محا الدجى فرأوا نورا به رغا
عجوا عجيجا وقالوا الله أكبرما * للحق مؤتلقا بالنور قد صدعا
قال الدليل ألا هاتوا بشارتكم * هى نوى كعبة الرحمن قد بلغا
نادوا على العيس بالاشواق وانحوا * وحن كل فؤاد نحوها وصعا
وكل من دم وعلا نال محمدة * فى مكة ومحا ما قد جنى وبغى

ولما وقع بصرى على البيت الشريف كدت أغيب عن الوجود واستشعرت قول العارف بالله الشبلى لما وفد الى حضرة الجود

قلت للقلب اذ تراءى لعينى * رسم دارلهم فهاج اشتياقى
هذه دارهم وأنت محب * ما احتباس الدموع فى الآماقى
والمغانى للصب فيها معانى * فهى تدعى مصارع العشاق
حل عقد الدموع واحلل رباها * واهجر الصبر وارع حق الفراق

ثم أكملت العمرة ودعوت الله أن أكون ممن عمر بطاعة ربه عمره وذلك أوائل القعدة من عام ثمانية وعشرين وألف من الهجرة السنية وأقمت هنالك منتظرا وقت الحج الشريف ومتفيأ ذلك الظل الوريف ومقتطفا ثمار القرب الجنية الى أن جاء الاوان فأحرمت بالحج من غير توان وحين حلت مما به أحرمت نويت الاقامة هنالك وأبرمت فحال من دون ذلك حائل وكنت حريا بأن أنشد قول القائل

هذى أباطح مكة حولى وما * جمعت مشاعرها من الحرمات
أدعو هنالك تلبية امرئ * يرجوا الخلاص بها من الازمات
نلت المنى بمنى لانى لم أخف * بالخيف من ذنب أحال سماتى
وعرفت فى عرفات أنى ناشق * للعفو عرفا عاطر النسمات

وأن أتمثل فى المطاف اذ حمتنى الالطاف بقول من ربعه بالتقوى مشيد البغدادى الشهير بابن رشيد

على ربعهم لله بيت مبارك * اليه قلوب الناس تهوى وتهواه
يطوف به الجانى فيغفر ذنبه * ويسقط عنه جرمه وخطاياه
وكم لذة أو فرحة لطوافه * فلله ما أحلى الطواف وأهناه

ثم قصدنا بعد قضاء تلك الاوطار طيبة الشريفة التى لها الفضل على الاقطار واستشعرت قول من أنشد وطير عزمه عن أوكاره قد طار

حمدت مرادى اذ بلغت مرادى * بأم القرى مستمسكا بعمادى
وقد رويت من ماء زمزم غلتى * فلست محتاجا لماء ثماد

والله سبحانه المحمود على نعمه التي جلب وبه الى بلوغ المنى من مواطن التشريف وجلب

من يهده الرحمن جل هداته * يجعل بمكة كي يشاهد المقصدا
وإذا انقضى من حجه الفرض الذي * يسعى بروضة طيبة ذا المقصدا

وكان خطي في هذا الحال بشكر ونظم بعض الوساحين من الاندلسيين الذين كان لهم ارتحال الى تلك المعاهد الطاهرة والمشاهد الزاهرة التي شد اليها الرحال

يا من لعبد الله اشمار الى أدائه حسام فصل مدين حرمين حل بهما سيد الانام

لم يهو فلبي حب ليلى * ولا سعاد ولا الرباب
لا في سهوبا ونال وبلا * من هام في ذلك الجناب
بل مال مني الفؤاد ميلا * لمن له الحب لا يعاب

فاني والله مستطار مدخل في بيته الحرام ذي الحجر والركن حيث زكى وزمزم الحجر والمقام

ذات قلوب المطي عشقا * وركبها واسوى المراد
الى حبيب اهلون حقا * الحي والميت والجماد
الى الذي ليس منه نسى * من حبه داخل الفؤاد

شكوا وقد طال السفار هم ومطاياهم السقام بهي فنى من التبني والقوم من فوقها سهام

وليت من شكري مصفا * حتى أرى تحت الرسول
فان سهل لي الطريقا * فذاك اقصى مني وسول
من يرى عيني العقيقا * ومرح الطلب بالوصول

كم فلب والصبر مستعار للركب ادعادروا المنام ونسمة الشوق حركتني ووادي الوجد والغرام

نور واسد طال ذا الحلوس * وبادروا زورة الحبيب
باب الى طيبة النفوس * لا عيش من دونها يطيب
لا حبذا دونها العروس * والما والبارد الرطيب

وحبذا الرمل والقفار والعرب في تلكم الخيام وأم عامر وطلحي والاثل والايك والثمام

ياطيبة حزت كل طيب * بسيد فيك ذي حلول
فداه مستعصم غريب * في عزه امداحه يقول
وهو من السامع المجيب * لمدحه نائل القبول

انت العلي في دار اقتدار وانت عزي في دار اقتدار وانت عزي ... مع حسن طي بفرعه مالها مقام

يا سيد العالمين أجمع * يا محمد الملتجى الرسول
ومن هو الشافع المشفع * في موقف الحشر المهول
ادلا كلام هناك يسمع * لا شعر والناس في ذهول

اذ السما لها انفطار والشهب مسود الظلام كذا الجبال انت كعهن ... من يبعثه المركا الغمام

يا اول الرسل في الفضيلة * وان تأخر في الزمن
شفاعة لك مع وسيلة * حسن تناهى عام ...

علت بك الرتبة الجليلة * وطبت في السر والعلن
وأنت من خيرهم خيار من يضاهيك في المقام والرسل بالت بك التحي وأنت بدر لهم تمام
الوجد قد قر في فؤادي * فما لصبري قرار
ولا بجسمي ساعد اتقاد * ودمع عيني له انهمار
وها أنا جئت من بلادي * لطيبة أبتغي الجوار
حيث ادكم الديار والمصطفى مسكة الختام عليه أزكى الصلاة مني وصحبه الغر والسلام
وقول أبي جعفر الرعيني الغرناطي رحمه الله تعالى وهو من التشريع أحد أنواع البديع

يا راحلا يبغي زيارة طيبة * نلت المنى بزيارة الاخيار
حي العقيق اذا وصلت وصف لنا * وادي منى يا طيب الاخبار
واذا وقفت لدى المعرف داعيا * زال العنا وظفرت بالاوطار

ولما من الله تعالى علينا بالحلول في المشاهد التي قام الدين بها وظهر والمعاهد التي بان الحق فيها واشتهر والمواطن التي هزم الله تعالى حرب الشيطان فيها وقهر ونصرت الدعوة وعضدت وقطعت غصون الكفر وحصدت ورصت قواعد التوحيد ونضدت وقرت العيون وقضيت الديون أنشد لسان الحال قول بعض من جيده بمحاسن طيبة حال

يا من به طيبة طابت حلى وعلا * ومن بتشريفه قد شرف العرب
يا أحمد المصطفى قد جئت من بلد * قاص ولي خلد قاس ولي أرب
وقد دهتني ذنوب قلت اذ عظمت * لله منها وطه المرتجى الهرب

ونسينا مشاهدة ذلك الجناب ما كان فيه وسبق الدمع الذي لا يعارض الفرح ولا ينافيه

أيها المغرم المشوق هنيئا * ما أنالوك من لذيذ التلاقي
قل لعينيك تهملان سرورا * طالما أسعدا بيوم الفراق
واجمع الوجد والسرور ابتهاجا * وجميع الاشجان والاشواق
وأمر العين أن تفيض انهمالا * وتوالي بدمعها المهراق
هذه دارهم وأنت محب * ما بقاء الدموع في الآماق

ولما نأى عن الاكوار وقمنا من عرب تلك الاعجاز والاعرار وقلنا من هاتيك الانوار وتخلينا عن الاغيار وتحلينا بحلى الاحيار وكيف لا وطيبة مركز للزوار

اذا لم تطب في طيبة عند طيب * به طيبة طابت فأين تطيب
وان لم يجب في أرضها ربنا الدعا * ففي أي أرض للدعاء يجيب
أيا ساكني أكناف طيبة كلكم * الى القلب من أجل الحبيب حبيب

وما أحسن قول عالم الاندلس المالكي اللبيب عبد الملك السلمي المشهور بابن حبيب

لله در عصابة صاحبتها * نحو المدينة تقطع الفلوات
ومهامه قد جبتها ومفاوز * مازلت أذكرها بطول حياتي
حتى أتينا القبر قبر محمد * خص الاله محمدا بصلات

فيا أزكى الورى شرفا * وشافيهم من العلل
ويا أندى الانام يدا * وأكرم ناصر وولى
نداء مقصر وجل * بثوب الفقر مشتمل
على حد والى معتمدى * فأنقذنى من الدخل
وألحقنى بجنات * لدى درجاتها الاول
بصديق وفاروق * وعثمان الرضى وعلى
فأنت ملاذ معتصم * وأنت عماد متكل
عليك صلاة ربك جل فى العدوات والاصل

ومذ شممنا من أرج تلك الارجاء الذاكية واستصأنا بسرح تلك الاضواء الزاكية طهر من الشوق ما كان بطن ولم يخطر بالبال سكن ولا وطن ويا سعادة من أقام بتلك البقاع الشريفة وقطن

مرّ النسيم بربعهم فتلبد ذا
حتى كأن الشر صارله عدا
فصحا وصح وصاح لا أشكو أذى
قل للصبا ماذا حملت من الشذا * أمسست طيبا أم علاك عبير
يا أيها الحادى الذى من وسمه
قصد الحبيب وأن يلم بربعه
هدى منازله ورمرم باسمه
بأبى الذى لم تذورهرة جسمه * لكنه غض الجمال نضير
لله شوق قد تجاوز حده
أوفى على الصبر المشيد فهده
يا ناشق الكافور لا تتعده
طوبى لمشتاق يعفر خده * فى روضة الهادى اليه بشير
فهناك يبذل فى التوسل وسعه
ويصيخ نحو خطيب طيبة سمعه
ويريق فوق حصى المصلى دمعه
ويرى معالم من يحب وربعه * ومحمد للعالمين بشير
صلى عليه الله خير صلاته
وحباه مع اليه جليل صلاته
ما حن ذو الاشواق فى حالاته
وأتى مغانيه على علاته * فأتيح حسن الختم وهو قرير

ووقفنا بباب طلب الآمال خاشعين وتوسلنا الى الله بذلك المقام العلى خاضعين وغبطنا قوما سكنوا هنالك فكانوا الخدود بهم متى شاءوا على تلك الاعتاب واضعين

وأبان فى السمع العلا أنواره
فقفت ملائكة السما آثاره
وأراه جنته هنالك وناره * فنوبد ومخلد لخلد
كم ذاد من وجل وجلى ظلمة
وامتن بالرحمى ومتن حرمة
لما دجا أفق الضلالة دهمة
بعث الاله به ليرحم أمة * لولاه كانت بالضلالة ترتدى
حاز الشفوف فكل خلق دونه
فالغيث يسأل اذ يسيل يمينه
والشمس تستهدى الشروق جبينه
والله فضله وأظهر دينه * ووفى لسانيه بصدق الموعد
نطق يعادى ذكره ويراوح
وبه ينافح مسكه وينافح
تعيى اللسان محامد وممادح
طوبى لمن قد عاش وهو يكافح * عنه يناضل باللسان وباليد
هو صفوة العرب الاولى أحسابهم
أسيافهم قرنت بها أسبابهم
فهم لباب المجد وهو لبابهم
من آل بيت لم تزل أنسابهم * تنبى لهم عن طيب عنصر مولد
شرف النبوة قد رسا فى أهلها
وسما على الزهر العلا محلها
ساق السوابق للفخار برسلها
نطق الكتاب كما أتى بفضلها * وقضى به نص الحديث المسند
فوق السماك توطنت وتوطدت
وتفردت بالمصطفى وتوحدت
فهى الخلاصة صفيت فتجردت
من معدن فيه الرسالة قد بدت * من عصر آدم ناالعصر محمد
طالوا فلم يبقوا المجد مصعدا
صالوا ففى أيمانهم حتف العدا
سئلوا فهم لعفاتهم غيث الجدى
أهل السقاية والرفادة والندى * والكعبة البيت الحرام المقصد
المطعمون وقد طوى ألم الطوى
الناصرون اذا الصريخ لهم نوى

ولئن مدحت محمدا بقصيدتي * فلقد مدحت قصيدتي بمحمد

يا خير خلق الله دعوة حائر
يشكو اليك صروف دهر جائر
والله يعلم في هوالك سرائري
وهو الذي ارجو لعسر حرائري * متوسلا بجنابك المتأطد

لولا حقوق عنت عن غاربه
لمكثت عندك كي تتاح مآربي
ويكون في الرفقاء عذب مشاربي
حتى احلي من ترابك ترائبي * وانال دفنا في بقيع الغرقد

وعليك من رب تعالى صلاته
وسلامه وهباته وصلاته
ما ام بابك من هدته فلاته
لعلاك حتى زحزحت علاته * وأتيح حسن الختم دون تردد

ثم ودعته صلى الله عليه وسلم والقلب من فراقه سقيم ووقفت من البعد عن تلك المعاهد في المقعد المقيم وأنا أرجو أن يكون شكل منطقي غير عقيم وأن أحشر في زمرة من سلك الصراط المستقيم

يا شفيع العصاة أنت رجائي * كيف يخشى الرجاء عندك خيبه
واذا كنت حاضرا بفؤادي * غيبة الجسم عنك ليست بغيبه
ليس بالعيش في البلاد انتفاع * أطيب العيش ما يكون بطيبه

ثم عدت الى مصر وقد زال عني ببركته صلى الله عليه وسلم الاصر وذلك في محرم سنة ١٠٢٩ ثم قصدت زيارة بيت المقدس في شهر ربيع من هذا العام وقد شملتني بفضل الله جوائز الانعام وتذكرت عند مشاهدة تلك المسالك الصعبة قول حافظ الحفاظ ابن حجر العسقلاني رحمه الله تعالى وهو مما زادني في هذه الزيارة رغبة

الى البيت المقدس جئت ارجو * جنان الخلد نزلا من كريم
قطعنا في مسافته عقابا * وما بعد العقاب سوى النعيم

فلما دخلت المسجد الاقصى وابصرت بدائعه التي لا تستقصى بهرني جماله الذي تجلى الله به عليه وسألت عن محل المعراج الشريف فأرشدت اليه وشاهدت محلا أم فيه صلى الله عليه وسلم الرسل الكرام الهداة * وكان حقي أن أنشد هنالك ما قاله بعض الموفقين وهو مما ينبغي أن ترمزم به الحداة

ان كنت تسأل اين قد * رجح النبي الانام
فأصخ الى آياته * تظفر بريك في الاوام
اكرم بعبد سيد * تقديه الرسل الكرام
في حضرة القدس وا * فاها بعز واحترام

ببعض ما من الله به على فى ذلك الجوار وامليت الحديث النبوى بمرأى منه عليه الصلاة والسلام ومسمع وابت بذلك وغيره ولله المنة مالم يكن لى فيه مطمع ولا مطمع ثم أبت الى مصر مفوضا لله جميع الامور ملازما خدمة العلم الشريف بالازهر المعمور وكان عودى من الحجة الخامسة بمصر سنة سبع وثلاثين وألف للهجرة فتحركت همتى أوائل رجب هذه السنة للعود للبيت المقدس وتجديد العهد بالمحل الذى هو على التقوى مؤسس فوصلت أواسط رجب وأقمت فيه نحو خمسة وعشرين يوما بدالى فيها من فضل الله وجه الرشد وما احتجب وألقيت عدة دروس بالاقصى والصخرة المنيفة وزرت مقام الخليل ومن معه من الانبياء ذوى المقامات الشريفة وكنت حقيقا بأن أنشد قول ابن مطروح فى ذلك المقام الذى فضله معروف وأمره مشروح

خليل الله قد جئناك نرجو * شفاعتك التى ليست ترد
أنلنا دعوة واشفع تشفع * الى من لايخيب لديه قصد
وقل يارب أضياف ووفد * لهم بمحمد صلة وعهد
أتوا يستغفرونك من ذنوب * عظام لاتعد ولا تحد
اذا وزنت بيذبل اوشمام * رجحن ودونها رضوى واحد
ولكن لايضيق العفو عنهم * وكيف يضيق وهو لهم معد
وقد سألوا رضاك على لسانى * الهى ما أجيب وما أرد
فداموا لاهم عطفا عليهم * فهم جمع أتوك وأنت فرد

ثم استوعبت أكثر تلك المزارات المباركة كمزار موسى الكليم على نبينا وعليهم وعلى سائر المرسلين والانبياء أجمعين أفضل الصلاة والتسليم ثم حدث لى منتصف شعبان عزم على الرحلة الى المدينة التى ظهر فضلها وبان دمشق الشام ذات الحسن والبهاء والحياء والاحتشام والادواح المتنوعة والارواح المتضوعة حيث المشاهد المكرمة والمعاهد المحترمة والغوطة الغناء والحديقة والمكارم التى يبارى فيها المرء شانئه وصديقه والاظلال الوريفة والافنان الوريقه والزهر الذى تخاله مبسما والندى ريقه والقضبان الملد التى تشوق رائيها جنة الخلد

بحيث الروض وضاح الثنايا * انيق الحسن مصقول الاديم

وهى المدينة المستولية على الطباع المعمورة البقاع بالفضل والرباع

تزيد على مر الزمان طلاوة * دمشق التى راقت بحلو المشارب
لها فى أقاليم البلاد مشارق * منزهة اقمارها عن مغارب

ودخلتها أواخر شعبان المذكور وحمدت الرحلة اليها وجعلها الله من السعى المشكور

وجدت بها ما يملأ العين قرة * ويسلى عن الاوطان كل غريب

وشاهدت بعض معانيها الحسنة ومبانيها المستحسنة

نزلنا بها ننوى المقام ثلاثة * فطابت لنا حتى اقمنا بها شهرا

ورأينا من محاسنها مالا يستوفيه من تأنق فى الخطاب وأطال فى الوصف وأطاب وان

قلت ماذا أقول فى وصف قطر * هو فى وجنة المحاسن شامه

وقلت أيضا

قال لى صف دمشق مولى رئيس * جل الله خلقه واحتشامه
قلت كل اللسان فى وصف قطر * هو فى وجنة البسيطة شامه

وقلت أيضا

واذا وصفت محاسن الدنيا فلا * تبدأ بغير دمشق فيها أوّلا
بلد اذا أرسلت طرفك نحوه * لم تلق الا جنة أو جدولا
ذا وصف بعض صفاتها وهى التى * يعيا المليح وان اجاد وطوّلا

والغاية فى هذا الباب من الوصف لبعض محاسنها الفاتنة الالباب قول أبى الوحش سبع ابن خلف الاسدى يصف أرضها المشرقة ورياضها المورقة ونسيمها العليل وزهرها البليل

سقى دمشق الشام غيث ممرع * من مستهل ديمة دفاقها
مدينة ليس يضاهى حسنها * فى سائر الدنيا ولا آفاقها
تودّ زوراء العراق أنها * تعزى اليها لا الى عراقها
فأرضها مثل السماء بهجة * وزهرها كالزهر فى اشراقها
نسيم رياروضها متى سرى * فك أخا الهموم من وثاقها
قد ربع الربيع فى ربوعها * وسيقت الدنيا الى أسواقها
لا تسأم العيون والانوف من * رؤيتها يوما ولا انتشاقها

وقول شمس الدين الاسدى الطيبى

اذا ذكرت بقاع الارض يوما * فقل سقيا لجلق ثم رعيا
وقل فى وصفها لا فى سواها * بها ما شئت من دين ودنيا

وكأن لسان الدين ذا الوزارتين بن الخطيب عناها بقوله المصيب

بلد تحف به الرياض كأنه * وجه جميل والرياض عذاره
وكأنما واديه معصم غادة * ومن الجسور المحكمات سواره

وكنت قبل رحلتى اليها ووفادتى عليها كثيرا ما أسمع عن أهلها اد الله فى ارتقائهم مايشوقنى الى رؤيتها ولقائهم وينشقنى على البعد أريج الادب العائق من تلقائهم حتى لقيت بمكة المعظمة أوحد كبرائها الذين فرائدهم بلبة الدهر منظمة عين الاعيان وصدر أرباب التفسير بها والبيان صاحب القلم الذى طبق الكلى والمفاصل والفتاوى التى حكمها بين الحق والباطل فاصل والتآليف التى وصفها بالاجادة من باب تحصيل الحاصل وارث العلم عن غير كلاله ذو الحسب المشرق بدره فى سماء الجلاله صاحب المعارف التى رانت خلاله وساحب أذيال العوارف التى أبانت عن فضله دلاله مفتى السلطان فى تلك الاوطان على مذهب الامام النعمان مولانا الشيخ عبد الرحمن ابن شيخ الاسلام عماد الدين لازال سالكا سبيل المهتدين وكان جمل الله به عصرا وأوانا لقضية هذا

دامت معاليهم على طول الزمن * يروى حديث الفضل عنها عن حسن

وثابت وقرة وسعد * وأسعفوا بنيل كل وعد

وهم الذين توحدوا بتدبير الحامل وطوامح تقضى أن يحرموقى وافر كامل حسبما اقتضاه طبعهم العالى ولو شريت بعمرى ساعة دهمت من عيشى معهم ما كان بالغالى فتعين حقهم لا يترك وسهم لا يخالط بغيره ولا يشرك وان أطلت الوصف فالغاية فى ذلك لا تدرك

يزداد فى سمعى ترداد ذكرهم * طيبا ويحسن فى عينى مكرره

واذا كان المديح الصادق لا يزيدهم رفعة قدر فهم كما قال الاعرابى الذى صلت ناقته فى مدح البدر والبليغ وذو الحصر فى ذلك سيان والحق أبلج والباطل لجلج وليس الخبر كالعيان

دع الروض لا يثنى على الغيث نشره * أتحسبه تخفى مآثره الحسنى

وقد تذكرت بلادى النائيه بذلك المرأى الشامى الذى يبهر رائيه فاشتقت من أنهار ذات انسجام أترع فيها من جريال الانس جام وازهار متوجة للادواح مروحة للنفوس بعاطر الارواح وحدائق تعشى أنوارها الاحداق وعيانها للخبر عنها مصداق وأى مصداق

فهى التى ضحك النهار صباحها * وبكت عشيتها عيون النرجس

واخضر جانب نهرها فكأنه * سيف يسل وغمده من سندس

وجنان أدواحها فى الحسن ذوات أفنان

صافحتها الرياح فاعتنق السمر * ومالت طواله للقصار

لا ثنى بعضه ببعض كقوم * فى عتاب مكرر واعتذار

وبطاح راق سناها وكمل حسنها وتناهى كما قلت مضمنا فى ذلك المنحى لقول بعض من نال فى البلاغة مناه ومنحا

دمشق لا يقاس بها سواها * ويمتنع القياس مع النصوص

حلاها راقت الابصار حسنا * على حكم العموم أو الخصوص

بساط زمرد نثرت عليه * من الياقوت ألوان الفصوص

ولله در القائل فى وصف تلك الفضائل

ان تكن جنة الخلود بأرض * فدمشق ولا يكون سواها

أو تكن فى السماء فهى عليها * قد أمدت هواءها وهواها

بلد طيب ورب غفور * فاغتنمها عشية أوضحاها

وعند رؤيتى لتلك الاقطار الجليلة الاوصاف العظيمة الاخطار تفاءلت بالعود الى أوطان لى بها أوطار اذ التشابه بينهما قريب فى الانهار والازهار ذات العرف المعطار وزادت هذه بالتقديس الذى همعت عليها منه الامطار وتمثلت بقول الاصفهانى وان غيرت يسيرا منه لما اسفرت وجوه التهانى

لما وردت الصالحيـة حيث مجتمع الرفاق

العز والنصر لديه وما * لعروة الاسلام عنه انفصام
من أولياء الله كم قد حوى * ركنا ثراه يطيب المقام
وهو مقر الانبياء الأولى * والاصفياء الاتقياء الكرام
كم من شهيد في حماه وكم * من عالم فرد وكم من امام

ولذلك اعتنت الجهابذة بتخليد أخباره في الدواوين وابتنت الاساتذة بيوت افتخاره المنيفة الاواوين وتناقلت أبناء المدينة ألسن الراوين وهامت بأماكنه المريعة هداة الشريعة فضلا عن الشعراء الغاوين ومع ذلك فهم في التعبير عن محاسنه غير متساوين أولا يرى أنهم يأتون من مقولهم على قدر رأيهم وعقولهم ولم يبلغ جمع منهم ما كانوا له ناوين

على قدرك الصهباء تعطيك نشوة * بها بين أعداء وسر أصحاب
ولو أنها تعطيك منها بقدرها * لضاقت بك الاكوان وهي رحاب

وكان في خلال الاقامة بدمشق المحوطه وأثناء التأمل في محاسن الجامع والمنازل والقصور والغوطه كثيرا ما انظم في سلك المذاكرة درر الاخبار الملقوطه وتفيأ ظلال التبيان مع أولئك الاعيان في مجالس معوطه تحادث فيها أهداب الآداب ونشرب من سلسال الاسترسال ونتهادى لباب الالباب وعقد بساط الانبساط وتسدل أطناب الاطناب ونقضي أوطار الاقطار ونستدعي اعلام الاعلام فيجرنا الكلام والحديث شجون وبالتفنن يبلغ المستفيدون ما يرجون الى ذكر البلاد الاندلسية ووصف رياضها السندسية التي هي بالحسن منوطه وقصاياها الموجهة التي لا يستوفيها المنطق مع أنها ضرورية وممكنة ومشروطه والفطر السليمه والافهام المستقيمه بتسليم براهينها قاضية لا سيما ان كانت بالانصاف مربوطه فصرت أورد من بدائع بلغائها ما يجري على لساني من الفيض الرحماني وأسرد من كلام وزيرها لسان الدين بن الخطيب السلماني صب الله عليه شآبيب رحماه وبلغه من رضوانه الاماني ما تثيره المناسبة وتقتضيه وتميل اليه الطباع السليمة وترتضيه من النظم الجزل في الجد والهزل والانشاء الذي يدهش به ذاكره الالباب ان شاء وتصرفه في فنون البلاغة حالى الولاية والعزل اذ هو أعنى لسان الدين فارس النظم والنثر في ذلك العصر والمنفرد بالسبق في تلك الميادين بأداة الحصر وكيف لا ونظمه لم تستول على مثله ايدي الهصر ونثره تزري صورته بالخريدة ودمية القصر فلما تكرر ذلك غير مرة على أسماعهم لهجوا به دون غيره حتى صار كأنه كلة اجماعهم وعلق بقلوبهم وأضحى منتهى مطلوبهم ومنية آمالهم وأطماعهم وصاروا يقطفون بيد الرغبة فنونه ويعترفون ببراعته ويستحسنونه ويستنشقون من أزهاره كل ذلك فطلب مني المولى أحمد الشاهيني اذ ذاك وهو الماجد المذكور ذو السعي المشكور أن أتصدى للتعريف بلسان الدين في مصنف يعرب عن بعض أحواله وأنبائه وبدائعه وصنائعه ووقائعه مع ملوك عصره وعلمائه وأدبائه ومفاخره التي قلدها جيد الزمان ولبته ومآثره التي أرج بها سرى الشمال وهبته وبعض ماله من النثار والنظام والمؤلفات الكبار العظام الرائقة للابصار الفائقة على كلام كثير من

واية شعرى علام يحسد من ابدل الاغتراب شارته وأضعف الاضطراب اشارته وأنهل بالدموع أنواءه وأقل أضواءه وكثر علله وأدواءه وغير عند التأمل رواءه وثنى عن المأمول عنانه وأرهف بالجول سنانه حتى قدح الذكر جنانه وملأ الفكر جاشه وجنانه فهو فى ميدان النزوح مستبق ومن راحة التعب مصطبح ومغتبق

له أنة المشتاق فى كل ساعة * تمر وما للثاكلات من الحزن
ومن مرسلات الدمع واقعة الاسى * ومن عاديات البين قارعة السن

تثير الذكرى منه كوامن الشجون وتدير عليه جام الهيام ولو كان بين الصفا والحجون

وتحت ضلوع المستهام كآبة * يخاف على الاحشاء منها التفطرا
ولو أن أحشاء تبوح بما حوت * لغادرت الارض كتبا وأسطرا

وشتان ما بين الاقتراب والاغتراب والسكون فى الركون والنزوع عنها والاضطراب فذلك تسهل غالبا فيه الاغراض والمآرب وهذا تتعسر فيه المقاصد وتتكدر المشارب

وما أنا عن تحصيل دنيا بعاجز * ولكن أرى تحصيلها بالدنية
وان طاوعتنى رقة الحال مرة * أبت فعلها أخلاق نفس أبية

وكما قلت عند ما صرت الى الاغتراب وألت

تركت رسوم عزى فى بلادى * وصرت بمصر منسى الرسوم
ورضت النفس بالتجريد زهدا * وقلت لها عن العلياء صومى
مخافة أن أرى بالحرص ممن * يكون زمانه أحد الخصوم

وكما قال بعض الاكابر من أهل الزمان الغابر

لا عار ان عطلت يداى من الغنى * كم سابق فى الخيل غير محجل
صان اللئيم وصنت وجهى ماله * دونى فلم يبذل ولم أتبذل
أبكى لهم صافنى متأوبا * ان الدموع قرى الهموم النزل
لا تنكروا شيبا ألم بمفرقى * عجلا كأن سناه سلة منصل
فلقد دفعت الى الهموم تنوبنى * منها ثلاث شدائد جمعن لى
أسف على ماضى الزمان وحيرة * فى الحال منه ووحشة المستقبل
ما ان وصلت الى زمان آخر * الا بكيت على الزمان الاول
لله عهد بالحمى لم أنسه * أيام أعصى فى الصبابة عذلى

ويرحم الله ابن قلاقس الاسكندرى اذ قال فى معنى التمنى المصدرى

لعل زمانى بالعذيب يعود * فيقرب قرب أو يصد صدود
وأبصر كثبانا وهز روادف * عليهن أغصان وهن قدود
وأقطف ورد الخد وهو مضرج * وأجنى أقاح الثغر وهو برود
وأدنى ذراعى للعناق ذريعة * فتنهى عن الافراط فيه نهود
ويسرى الى البدر وهو ممنع * ويغدو الى الظبى وهو شرود
وننكر فى شكوى الفراق كأننا * فوارط هيم راقهن ورود

وا كرمعدارالهوى عن كسره * وأحمى عفاف دونه وأذود

ومن مانى الجوهر والعرض والصحة البينة والمرض والدر والحصا والحسام والعصا والرجوع الى التمواص للاندار فى أمورهـذه الدار الكثير الاكدار هو المنلون والمرحوم من الله سبحانه حسن السلوك

ما رب نفس هوى * وا كسف كروبى جمعا

قد رحوت كرعا * وقد دعوت سمعا

ولم يعمل فى المذكور حفظه الله شيئه ولا مدوحه بعد هذا الاعداد المجرد فى الصدق الممدوحه ولسان حالى وقالى بيان عجزى عن اداء هذا الذى شاهد من هو وارد وقالى ادمن كان بصمه غير ممكنة عما تكون به مصممة واسم معروف مختلفة وارتسم فى غير ذوى الاحوال المؤتلفة كمن يعرف الصنف حوانا أو شئ من الألف صرانا ومن حصة هام شامل وتصور عام شامل كيف بنص بالانامل على ما الحصر الوافر الكامل ومن لبس من الحى ملاءه لا يعرض عن طى مفاصل الكلام وكلا ومن ألبس البلغا عن علا وراس صدور الدواوين حلاه وجمع حلا لاحسانا وكان للدين لسانا وراعت معاصر بالمناكب الكواكب وارداف عرا الموادى والمواكب وبعاب الازهار من آدابه وسحاب الاعصار عطر أدباله وأهدابه والسحر من كاتبه والسحر من كاتبه وروح النسيم من تعرضه والنثر من نثر والشعرى من شعر ودرسه وحلل المجد لباسه وأنوار العلم اقتباسه

له ذهن يغوص بحر علم * فأتى منه بالدر النظيم

معانيه الرياض لاجل هذا * ترى ألفاظه مثل النسيم

ومناقبه النجوم ومصابيحه الغيب النجوم الى آباء بعدهم الغير والشمس وانا لو كان لا سرق لما تحسه لمس وشرف لا مدعى ولا منتحل وهمه لو بالها البدر لا سعدى له زحل ورائعة أرهف بنانه وراعه سارت أمراؤها تحت علمه فكم جمع فكر أمثالها ووسم بذهنه النابت أعمالها وسلك معانيها فى قالب وقلبه اثرا وزهر بيان لسانه برود احسانه بلطفه البديع نظرا فرفع فى ميدان الاجاد لواء وأنبع فى انهار البراعة العذبة ارواءه وقال سماء ونثرا

ومازمن الشباب وأنت عندى * مع الاحباب فى لهو وطيب

ووصل من حبيب بعد هجر * أحلى من كلام ابن الخطيب

فصائده ازهت جواهر الصور المنظومة فى قلائد اللبات والصدور من حسان العقائل الحور

معان وألفاظ نظم بهما * عقود لآل فى نحور السمائل

وزهر كلام كالحدائق نسجه * عبارته عن حسن زهر الخمائل

وكتابته عدت للابداع اطلدا وجمعت طرفا من البلاغة وتلدا

كسون عهدا ابناء العهد * وأحيى لسد لدها بلدا

ومقطعاته ألذ في الاسماع من مطرب السماع وأبهى في الاحداق والنواظر من الحدائق ذوات الاغصان المدالنواضر يعترف بفضلها من انتحل الانصاف دينا وانتخل الاوصاف فاختار العدل منها خدينا

رقيقات المقاطع محكمات * لو ان الشعر يلبس لارتدينا

ورسائله كنقط العروس اللائحة في البياض أو كوشي الربيع أو قطع الرياض برزت أغصانها الحاليه وتبرجت وتصوعت أفنانها العاليه وتأرجت وقد ألبسها القطر زهرا وفجر خلالها نهرا فأخذت زخرفها وازينت ولاحت محاسنها غير محجبة وتبينت فبهرت من لها قابل أستغفر الله لا بل

هي الحديقة الا ان صبها * صوب النهى وجناها زهرة الكلم

وقوافيه ريشت بها قوادم الاتقان وخوافيه بنان مجاريها يستدر الحصر وباع مباريها يستشعر القصر

خطها روضة وألفاظها الا * زهار يضحكن والمعاني ثمار

تبدى لمبصرها وترى ماقاله أبو عبادة البحترى

وكلام كأنه الزهر الناضر في رونق الربيع الجديد
مشرق في جوانب السمع مايخـ * ـلقه عوده على المستعيد
ومعان لو فصلتها القوافي * هجنت ماجرول من نشيد
حزن مستعمل الكلام اختيارا * وتجنبن ظلمة التعقيد

بل هي أجل مما وصف عند التحقيق وأسماء المطر الصحيح والتدقيق

أين زهر الرياض وهو اذا ما * طال عهدا بالغيث عاد هشيما
من قواف كأنها الانجم الزهـ * ـر سناها ارانا الظلام البهيما

وناهيك بمن أطلعته العلوم على جلائلها ودقائقها وأرته الفنون ماشاء من يانعات حدائقها وحبته الحكم الرياضية بأزاهرها وشقائقها وأرضعته الوزارة من ثديها وحلت به الامارة صدر نديها وجعلته المرجوع اليه في تمييز جيد الامور ورديها فغرس في أرض الرياسة من نخل السياسة ووديها وأعلى علم العدل وأغمد سيف الانتقام ودفع تنين الفتنة الذى فغر فاه للالتقام والعهد اذ ذاك قريب في وطن الاندلس الغريب باختلال الحال وتوالى الامحال والتجرى على قتل الملوك والتحرى لقطع الطرق ومنع السلوك حيث أهواء المارقين ذات افتراق وضلوع الصادقين في قلق واحتراق وايدى الاحن باطشه وسيوف المحن الى الدماء عاطشه وعرش الحماية مثلول وصارم الكفاية مفلول ونطاق الرعاية مطلول وجيب النصيحة مملول والسور السلطاني بنار اختلاف الكلمة ملتهب والعدو ينتهز الفرصة ويستلب الانفس والاموال وينتهب وليس له في غير قطع شأفة المسلمين ابتغاء وان عقد المهادنة في بعض الاحيان فهو يسر حسوا في ارتغاء وكلاب الباطل في دماء أهل الحق والبغى والغة ولله سبحانه وتعالى في خلقه ارادة نافذة وحكمة بالغة فرقع لسان الدين ثوب الاندلس ورفاه وأرغم رحمه

منزل كالربيع حلت عليه * حاليات السحاب عقد النطاق
يمتع العين من طرائف حسن * تتجافى بها عن الاطراق

وقلت بها لما راقنا محاسنها

وبتنا والسرور لنا نديم * وماء عيونه الصافى مدام
يسايره النسيم اذا تغنت * حمائمه ويسقيه الغمام

فيا لك من ليلة أربت فى طيب النفح على ليلة الشريف الرضى بالسفح

ونحن فى روضة مفوفة * قد وشيت بالغمائم الوكف
نعكف على زهرها ويحيطنا * وهنا هدير الحمائم الهتف
ودوحها من نداه فى وشح * ومن لآلى الازهار فى شنف
والغصن من فوقه حمامته * كأنها همزة على ألف

وما أقرب قول الوزير ابن عمار من وصف ذلك المضمار الجامع للاقمار

ياليلة بتنا بها * فى ظل أكناف النعيم
من فوق أكمام الريا * ض وتحت أذيال النسيم

وناهيك بمحل قريب من دمشق الغراء خلعت عليه حلل الحبور والسراء وأمدته بضيائها وأودعته رق حياها وماء حيائها فصار ناضر الدوحات عاطر الغدوات والروحات مونق الانفاس والنفحات مشرق الاسرة والصفحات هذا والقلوب من الفراق فى قلق ولسان الحال ينشد

وبى علاقة وجد ليس يعلمها * الا الذى خلق الانسان من علق

ويحث على انتهاز فرصة اللقاء اذ هى غنيمه ويذكر بقول من قال وأكف الدهر موقظة ومنيمه

تمتع بالرقاد على شمال * فسوف يطول نومك باليمين
ومتع من يحبك باجتماع * فأنت من الفراق على يقين

ثم حضر بعد تلك الليلة موقف الوداع والكل ما بين واجم وباك وداع فتمثلت بقول من قلبه لفراق الاحباب فى انصداع

ودعتهم ودموعى * على الخدود غزار
فاستكثروا دمع عينى * لما استقلوا وساروا

وقول آخر

ياوحشة من جيرة قد نأوا * علوّ قدرى فى الهوى انحطا
حكت دموعى البحر من بعدهم * لما رأت منزلهم شطا

وحق لى أن أتمثل فى ذلك بقول الغزارى

لاتسلنى عما جناه الفراق * حملتنى يداه ما لا يطاق
اين صبرى أم كيف أملك دمعى * والمطايا بالظاعنين تساق
قف معى نندب الطلول فهذى * سنة قبل سنها العشاق

أحبابنا مالى على بعد المدى * جلد ومن بعد النوى يتجلد
لله أوقات الوصال ومنظر * نضر وغصن الوصل غض أملد
أنى يطيق أخو الهوى كتمانه * والخد بالدمع المصون مخدد
ما بعد مفترق الركاب تصبر * عمن أحب وهل خليل يسعد
يا سعد ساعدنى بالبكاء أخا هوى * يوم الوداع بكى عليه الحسد

وقول ابن الاثير

لم أنس ليلة ودعوا * صبا وساروا بالحمول
والدمع من فرط الاسى * يجرى فيعثر بالذيول

وقول الارجانى

ولما وقفنا للوداع عشية * وطرفى وقلبى هامع وخفوق
بكيت وأضحكت الوشاة شماتة * كأنى سحاب والوشاة بروق

وقول ابن نباتة السعدى

ولما وقفنا للوداع عشية * ولم يبق الا شامت وغيور
وقفنا ومن باك يكفكف دمعه * وملتزم قلبا يكاد يطير

وقول بعضهم

لما حدا الحادى بترحالهم * هيج أشواقى وأشجانى
وراح يثنى القلب عن غيرهم * مهواهم حادولى ثانى

وقول الصفدى

لما اعتنقنا للوداع النوى * وكدت من حر الجوى أحرق
رأيت قلبى سار قدامهم * وأدمعى تجرى ولا تلحق

وقوله أيضا

تذكرت عيشا مر حلوا بقربكم * فهل لليالينا الذواهب واهب
وما انصرفت آمال نفسى لغيركم * ولا ماعن هذى الرغائب غائب
سأصبر كرها فى الهوى غير طائع * لعل زمانى بالحبائب آئب

وقول ابن نباتة المصرى

فى كنف الله وفى حفظه * مسراك والعود بعزم صريح
لو جاز أن تسلك أجفاننا * كان فرشنا كل جفن قريح
لكنها بالبعد معتلة * وأنت لا تسلك الا الصحيح

وقول الحافظ أبى الحسن على بن الفضل

عجبت لنفسى بعدهم ما بقاؤها * ولم أحظ من لقياهم بمراد
لعمرك ما فارقتهم مذ ودعوا * ولكنما فارقت طيب رقادى
وقد منعوا منى زيارة طيفهم * وكيف يزور الطيف حلف سهاد
وأعجب ما فى الامر شوقى اليهم * وهم فى سوادى ناظرى وفؤادى

ولى فؤاد مذ نأى شخصهم * ظل كئيبا مدنفا موجعا
ومقلة مهما تذكرتهم * تذرف دمعا أربعا أربعا
وليس لى من حيلة كلما * بلت بى الاشواق الا الدعا
أسأل من ألف ما بيننا * وقدر الفرقة أن يجمعا

وقول الرعينى الغرناطى

محاسن ربع قد محا حسنه ما جرى * من الدمع لما قيل قد رحل الركب
تناقض حالى مذ شجانى فراقهم * فمن أضلعى نار ومن أدمعى سكب

وفى معناه قوله أيضا

وقائلة ما هذه الدرر التى * تساقطها عيناك سمطين سمطين
فقلت لها هذا الذى قد حشابه * أبو مضر اذنى تساقط من عينى انتهى

وقول الزمخشرى

لم يبكنى الاحديث فراقهم * لما أسر به الى مودعى
هو ذلك الدر الذى أودعتم * فى مسمعى أجريته من مدمعى

وقول الزعارى

قد بعتهم قلبى يوم بينهم * بنظرة التوديع وهو يحترق
ولم أجد من بعدها الرده * وجها وكان الرد لو لم نفترق

وقول بعض الاندلسيين

ساروا فودعهم طرفى وأودعهم * قلبى فما بعدوا عنى ولا قربوا
هم الشموس ففى عينى اذا طلعوا * فى القادمين وفى قلبى اذا غربوا

وقلت انا مضمنا بديهة

لا كان يوم فراق * ساق الشجون الينا
فكم أذل نفوسا * يا من يعز علينا

وقلت أيضا مضمنا

سلا أحبته من لم يذب كمدا * يوم الوداع وان أجرى الدموع دما
يا من يعز علينا أن نفارقهم * من بعدكم هد ركن الصبر وانهدما
وان نأى الجسم كرها عن منازلكم * فالقلب ثاويها لم يصحب القدما
وما نسينا عهودا للهوى كرمت * نعم قرعنا عليها سن نادما
وأطلمت بالنوى أرجاء مقصدنا * وصار وجدان ألف غيركم عدما

وقلت أيضا مضمنا

لم أنس بالشام أنسا شمت بارقه * جادت معاهده أنواء نيسان
لهفى لعيش قضينا فى مشاهدها * ما بين حسن من الدنيا واحسان

وقلت كذلك

يا حسرة بانوا وأبقوا حسرة * تجرى دموعى بعدهم وفق القضا

حسنك الفرد والبدائع جمع * متناه فيه فعز النظير
أين أيامنا بطالك والشمـ * ـل جميع والعيش غض نضير

ثم أكثرت الالتفات عن اليمين وعن الشمال وقد شبهت البيداء والشوق ببدل الكل والاشتمال وتنسمت من نواحي تلك الارجاء أريج الشمال وصممت في المعنى قول بعض من ثنى الحب عطفه وأمال

تنسمت أرواحا سرت من ديارمن * بهم كان جمع الشمل لحمة حالم
وجاوبت من يلحى على ذاك جاهلا * بقول لبيب بالعواقب عالم
وما أنشق الارواح الا لانها * تمر على تلك الربا والمعالم

وما أحسن قول الآخر

سرت من نواحي الشام لي نسمة الصبا * وقد أصبحت حسرى من السير ظالعه
ومن عرق مبلولة الجيب بالندى * ومن تعب أنفاسها متتابعه

وقلت أنا

حمدت وحق الله للشام رحلة * اتاحت لعيني اجتلاء محياه
وبعد التنائي صرت أرتاح للصبا * لان الصبا تسري بعاطر رياه
ولله عهد قد أتاح بجلق * سرورا حياه الاله وحياه

واستحضرت عند جد السير قول صفوان بن ادريس المرسي ذكره الله تعالى بالخير

أين أيامنا اللواتي تقضت * اذ زجرنا للوصل أيمن طير

ثم قول غيره ممن حن وأن وقلق قلبه وما اطمأن

أحن الى مشاهد أنس الني * وعهدي من زيارته قريب
وكنت أظن قرب العهد يطفي * لهيب الشوق فازداد اللهيب

وربما تجلدت مغالطا متمثلا بقول من كان لا لفه مخالطا

حضرت فكنت في بصري مقيما * وغبت فكنت في وسط الفؤاد
وما شطت بنا دار ولكن * نقلت من السواد الى السواد

وقول غيره

وكن كما شئت من قرب ومن بعد * فالقلب يرعاك ان لم يرعك البصر

وبقول الوداعي

ياعاذلي في وحدتي بعدهم * وأن ربعي ما به من جليس
وكيف يشكو وحدة من له * دمع حميم وأنين أنيس

ثم رددت هذه الطريقه بقول بعض من لم يبلعه السلو ريقه

لا رعى الله عزمة ضمنت لي * سلوة القلب والتصبر عنهم
ما وفت غير ساعة ثم عادت * مثل قلبي تقول لا بد منهم

وبقول ابن آجروم في مثل هذا الغرض المروم

ياغائبا كان أنسي رهن طلعته * كيف اصطباري وقد كابدت بينه

وطني مقصوره والقلب في المغنى مقيم بهما وان كان في غيرهما بالصوره والاشواق اليهما قصاياها موجهة وان كانت غير محصوره

ولله عهد قد تقضى وان بعد * فاني عن الايام أعفو وأصفح
بقلبي من ذكراه ماليس ينقضي * ومن برحاء الشوق ماليس يبرح
اذا سمحت كفي الدموع تسترا * بدت زفرة بين الجوانح تقدح
فان جمعت شمل الليالي بقربهم * تجمع غيلان ومي وصيدح
على أنها الايام جد مزاحها * ورب مجد في الاذى وهو يمزح

وكثيرا مايلهج اللسان بقول من قال

وما تفضل الاوقات احرى لذاتها * ولكن أوقات الحسان حسان

ويردد قول من شوقه متجدد

سقى معهد الاحباب ناقع صيب * من المزن عن مغناه ليس يريم
وان لم أكن من ساكنيه فانه * يحل به خل على كريم

وينشد من يلوم قول من في حشاه وله وفي قلبه كلوم

قد أصبح آخر الهوى أوله * فالعاذل في هوى الدمى وله
بالله عليك خل ما أوله * وارحم دنفا الذي حشاه وله

وقد امتد بنا الكلام وربما يجعله اللاحي ذريعة لزيادة الملام فلنرجع الى ما كنا بصدده من اجابة المولى الشاهيني أمده الله سبحانه بمدده فنقول مستمدا من واهب العقول انى شرعت بعد الاستقرار بمصر في المطلوب وكتبت منه نبذة تستحسنها من المحبين الاسماع والقلوب وسلكت في ترتيبه أحسن اسلوب وعرضت في سوقه كل نفيس غريب من الغرب الى الشرق مجلوب تستحسن الابصار ما عليه احتوى وتعرف الافكار أنه غير مجتوى ثم وقف بي مركب العزم عن التمام واستوى وأخرته تأخير الغريم لدين الكريم وصدتني أعراض عن تكميل مايشتمل عليه من أعراض وأضربت برهة عما له من منحى لاختلاف احوال الدهر نفعا ودفعا ومنعا ومنحا ومرقت عن هدف الاصابة نبال وطرقت في سدف ليالي الكتابة امور لم تكن تخطر ببال فجاءتني من المولى المذكور آنفا رسالة دالة على أنه لم يكن عن انجاز الوعد متجانفا فعدت لقضاء الوطر مستقبلا وللجملة مستأنفا وحدا بي خطابه الجسيم للاتمام وساقني وراقني كتابه الكريم لتلك الايام وشاقني وذكرني تلك الليالي التي لم أنسها وحركني لتلك المعاهد التي لم أزل أذكر أنسها الالف لايصبر عن الفه الا كما يطرف بالعين وقد صبرنا عنهم مدة ما هكذا شأن المحبين فيا له من كتاب كريم أعرب عن ود صميم وذكر بعهد غير ذميم وود طيب العرف والشميم يخجل ابن المعتز بلاغته وابن المعز تميم

ولم تر عينا ناي من قبله * كتابا حوى بعض ما قد حوى
كأن المباسم جمانه * ولاماته الصدغ لما التوى
وأعينه كعيون الحسان * تغازلنا عند ذكر الهوى

كلاهما حسن عندي أسر به * لكن أحلاهما ما وافق النظرا

وقال آخر

لست مستأنسا بشيء اذا غبـ * ـت سوى ذكرك الذي لا يغيب
أنت دون الجلاس عندي وان كنـ * ـت بعيدا فالانس منك قريب

وصلت فيه للماورد مع جملة كتب من تلك الناحيه * وأنوار أهلها ذوي الفضائل الشهيره
أظهر من شمس الظهيره في السماء الضاحيه

قلت لما أتت من الشام كتب * من أجلاء نورهم يتألق
مرحبا مرحبا وأهلا وسهلا * بعيون رأت محاسن جلق

وقلت أيضا

قلت لما وافت من الشام كتب * والليالي تتيح قربا وبعدا
مرحبا مرحبا وأهلا وسهلا * بعيون رأت محاسن سعدى

وكان من فصول هذا الكتاب الوارد من المولى الشاهيني الذي اقتنص بمصله كل شارد ماتصه ومما استخلص قلبي من يدي ترحي وجدد سروري وبه فرحي حديث الكتاب وما حديث الكتاب حديث نسخ بحلاوته مرارة العتاب وأنساني حرارة المصاب في الانسال والاعقاب وقضى به من حق لسان الدين دينه الذي تبرع به غريم ملىء من البلاغة وهو غير مدين حتى كأني يا سيدي بهذه البشرى أحرزت سواري كسرى وكان في مسمعي كل حرف اليها منسوب قميص يوسف في أجفان يعقوب وحتى كدت أهجر أهلي وبيتي وأسرح لاستقبال هذه البشرى أشهبي وكميتي وحتى اني حاربت نومي وقومي وعزمت على أن أرحل ناقتي في وقتي ويومي وان ذلك التغليس والتهجير في جنب ما بشرت به لحقير وان موقعها الذي هذا العبد الحقير لخطير وقد كنت سألت شيخي حين ورد دمشق الشام واشتمّ منها العرار والبشام وشرفني فعرفني وشاهدني فعاهدني على أن يجري ما دار بيننا الذي المجاوره من المسامرة والمحاوره في ديباجة ذلك الكتاب الذي فتن العقول خبره وسحر الالباب وما قصدت الا أن يجري اسمي على قلمه ويرقم رسمي في مطاوي تحريره وورقه ويكون ذكري مختلطا بذكره كما أن سري مرتبط في المحبة بسره فرأيت شيخي لم يتصد في أثناء هذه البشرى لما يهمني بالذكرى لاشطر النجاح في الاخرى ولم يساعدني على ذلك الملتمس وحبس عنان القلم فاحتبس فانكسرت سورة سروري بفتوري وتبين لنفسي عن بلوغ ذلك الامل تخلفي وقصوري انتهى * (ثم قال بعد كلام طويل لم نذكره لعدم تعلقه بهذا الغرض ما صورته

وحسبت أن سيدي وحاشاه نسي من ليس ينساه وظنت به الظنون لامور تكون أولا تكون وهل يكره سيدي وشيخي أن يهدي الدنيا في طبق ثم الاخرى على ذلك النسق ولا شك أن خطه هو الروضة الغنا لا بل جنة المأوى فطوبى لنفسي ان جنت ثمرته طوبى ولعمر شيخي اني بذلك لجدير واني كنت أملك به الخورنق والسدير انتهى ما يتعلق بالغرض من ذلك الرقيم الذي شكل منطقه غير عقيم سلك الله تعالى بي وبه وجهه الصراط المستقيم

ورثته منه والكما * من شاعر وافى الى أشعر
ما الفتى الطائى شوط امرئ * به طاد نسر الجو بالمسر
واسلم لعبد لا يرى سيدا * سوى الذى فى ثوبك الاطهر
فى كرم العصر فردا غدا * طبعك فاشكر كرم العنصر
ماحن مشتاق أخو صبوة * الى خليل فى الهوى مفكر انتهت

فلما وصلنى هذا الخطاب الذى ملأ من الفصاحة الوطاب وحلى فى عينى وقلبى وطاب تحركت دواعى الوجد لذلك المجد الذى ولعت به ولوع ابن الدمينة بصبا نجد وأثار من الهيام والاوار ما يزيد على ما حصل للفرزدق لما فارق النوار وتضاعف الشوق الى تلك الانجاد والاغوار منشدا قول الاول لعل أبي المعوار وتذكرت والذكرى شجون وأطوار تلك الاضواء والانوار المشرقة بشطر أزهر بالمحاسن وجرى نهره غير آسن فلم يذم فيه الجوار

وان اصطبارى عن معاهد جلق * غريب فما أجفى الفراق وأحفانى
سقى الله أرضا لو ظفرت بتربها * كحلت بها من شدة الشوق أجفانى

وحصل التصميم على التكميل للتأليف والتتميم رعيا لهذا الولى الحميم أفاض الله تعالى عليه غيث البر العميم وأبقى ظل عزه ممدودا وحلى سودده مودودا وأناله من الخيرات ما ليس محصورا ولا معدودا وجمعنى واياه وأطلع لى بشر محياه وأنشقنى عرف اجتماعه ورياه وكيف لا أستديم أمد بقياه وأعتقد البشائر فى لقياه وأسقى غروس الود بسقياه وهو الصدر الذى أصفى لى الوداد والركن الذى لى بثبوته اعتماد واعتداد

فعليه من مصفى هواه تحية * كالمسك لما فض عنه ختام
تترى بساحته السنية ما دعت * فوق الغصون هديلهن حمام

ودامت فضائله ظاهرة كالشمس محروسة بالسبع المثانى معوذة بالخمس

ولا انفك ما يرجوه أقرب من غد * ولا زال ما يخشاه أبعد من أمس

وبقى من العناية فى حرم أمين آمين * (ولما حصل لى كمال الاغتباط بما دل على صحة حال الارتباط نشر بساط الانبساط وحدث لى قوة النشاط وانقشعت عنى سحائب الكسل وانجابت وناديت فكرتى فلبت مع ضعفها وأجابت فاقتدحت من القريحة زندا كان شحاحا وجمعت من مقيدانى حسانا وصحاحا وكنت كتبت شطره وملأت بما تيسر هامشه وسطره ورقت من أنباء لسان الدين بن الخطيب حلا لا تلحق جدتها الاعصر وسلكت من التعريف به رحمه الله مهامه تكل فيها واسعات الخطا وتقصر * فحدث لى بعد ذلك عزم على زيادة ذكر الاندلس جملة ومن كان يعتضد به الاسلام وينصر * وبعض مفاخرها الباسقة وما ثر أهلها المتناسقة لان كل ذلك لا يستوفيه القلم ولا يحصر * وجئت من النظم والنثر بعذبة توضح للطالب سبله وتظهر عله ونهله وتترع كاس محاسنه من راح المذاكرة وانآؤه حتى يرى حسن هذا التأليف أبناء هذا التصنيف وأدباؤه وكنت فى المغرب وظلال الشباب صافيه وسماء الافكار من قزع الاكدار صافيه معتنيا بالفحص

وأتى بكل بديعة في نوعها * لم تخترع وغريبة لم تعهد
ماشئت من شعر أرق من الصبا * وكتابة أزهى من الزهر الندي
وبديع قرطاس توشح متنه * بمنمنم من رقمه ومنضد
بهج كأن الحسن حل أديمه * فكساه ريعان الشباب الاغيد
كالبرد في توشيعه والسلك في * ترصيعه والوشي نمق باليد
وكأنما سال العذار عليه أو * خطته أيدي الغانيات بأثمد
يختال بين موصل ومفصل * ومطرز ومنظم ومنضد
قد قيد الابصار والافكار من * ألفاظه بمثقف ومقيد
ما فيه مغمز اصبع الاوفيه * نتيجة لمقترع ومولد
والكل بين حكمة أو ملحة * أو بدعة لمرسل ومقصد
أوليس مثلي قاصراً عن وصفه * والحق نور واضح للمهتدي

وكأنما وقد عجزت عن أداء الواجب وحاولت الممنون وصل الله سبحانه على من يشاء من عباده وليس بممنوع ولا ممنون

ليت شعري أي العبارات توفي * واجب ابن الخطيب مما أروم
وأنا عاجز عن البعض منها * لقصوري وما العيي ملوم
وهو يدعى لسان دين وناهيك افتخاراً به تتم الرسوم
فبأي الحلي أحلي على من * نال فضلا روته عرب وروم
وعلي الفرض ما الذي أنتحي منه لدى الوصف ان يخص العموم
ألحفظ قد ارتوى من معين * اصواب عليه كل يحوم
أم افهم يستخرج الدر غوصاً * من بحار يخشى بها من يعوم
أم لفكر مؤلف في فنون * عن دهاء به تداوى الكلوم
أم لنظم كأنه جوهر السلك غلا قدره على من يسوم
تتباهى به الصدور حلياً * وتروق العيون منه نجوم
أم لنثر وافى بسحر بيان * وهو كالروح والمعاني جسوم
وأطلته للبديع سماء * تتلالا في جانبيها العلوم
فاستزادت منه النفوس رشاداً * واستزانت منه النهى والحلوم
أم لخط منمنم فاق حسناً * مثل وشي تلوح منه الرقوم
أو كزهر في بهجة ورواء * وأريج به تراح الغموم
والغصون الاقلام والطرس روض * ناضر والمداد غيث سجوم
تلك ست أعزن وصفي فاني * بسواها مما يجل أقوم

ولم يكن جمعي علم الله هذا التأليف لرفد أستهديه أو عرض نائل أستجديه بل لحق ودّ أؤديه ودين وعد أقدمه وأبديه ووقوف عند حد لا يجوز تعديه وتلبية داع أحييه وأفديه

ان من يرجو نوالا وندى * من بني الدنيا لذو حظ غبين

ولقد كان على غرر الهدى * من يقتفيهم رب العالمين
ورجى منهم الرزق فهل * خاب الكل فقير أو مسكين
أعلى قصدت مالك * وترى للحلو جهلا قاصدين
ثم إنا من مخلص بانيه * عرضنا المصطفى الهادي الأمين
سيد الخلق العماد المرتجى * للطلاب شفيع المذنبين
فعليه صلوات تنتهي * حصر حمل تمها في كل حين
والرضا عن بعده أربعة * هم ثوى أمراء المؤمنين
وسلالات من يتبعهم * لتكون من أصحاب اليمين
وسطحات نفسه مهما * آنساب فاضراب الطرف عين
بسوار رحمت سريه * وأباروني وكاس من معين
والذي سر فهم عند ا * حبهم والكون معهم أجمعين

فدونك أيها الناظر هذا الكتاب الحاكي عن مذهب القصد والصواب كلمات سوابغ الجلباب مع اشتمال الجوائح وبضاعة الأمور الموانع والموانح وألفاظا بوارح اقتبس من أشعال الجوارح وطرفا أسمت الطرف في مرعاها وكانت هملا غير سوارح وبعضا يحصل بها الناظر الإمتاع ولا زندها بسقط المتاع المتاع وبلهج بها المرتاح ويستأنس المستوحش المرتاع

وبعد أن جمعت عامة هذا التصنيف وأعملت النظر فيما يتصل به اتصال الشرط بالمشروط والتصنيف قسمته قسمين وكل منهما يشتمل على ما المطلوب فصح أن يسمى بما عين

(القسم الأول) فيما يتعلق بالأندلس من الأخبار المنتجة للأفكار والأنباء المصيبة صوب الصواب الزائلة من الإفادة في سوابغ الأثواب وفيه ثمانية أبواب بحسب القصد والاقتصار وتحري التوسط في بعض المواضع دون الاختصار عاشه من الأبواب

(الباب الأول) في وصف جزيرة الأندلس وحسن هوائها واعتدال مزاجها ووفور خيرها وكمالها واستوائها واشتمالها على كثير من المنافع والمحاسن واحتوائها وكرم بقعتها التي سقتها سحائب البركات من سماء بمنافع أنوائها وذكر بعض مآثرها العجيبة والصور وتعداد كثير مما لها من البلدان والكور المستمدة من أضوائها

(الباب الثاني) في إلقاء بلد الأندلس للمسلمين بالقياد وفتحها على يد موسى بن نصير ومولاه طارق بن زياد وصيرورتها ميدانا لسبق الجياد ومحطا لرحال الارتياد والارتياد وما يتبع ذلك من خبر من حل بأرجائها من زياد وما وصل إليه إنعام ومن رعيها أعياد

(الباب الثالث) في سرد بعض ما كان للدين بالأندلس من العز السامي العماد والقهر للعدو في الرواح والغدو والتحرك للهدو السالع عليه الآماد وإعمال أهلها للجهاد بالجد والاجتهاد في الجبال والوهاد بالأسنة المشرعة والسيوف المسلولة من الأغماد

(الباب الرابع) في ذكر قرطبة التي كانت الخلافة بمصرها للأعداء قاهرة وجامعها الأموي ذي البدائع الباهرة والإلماع بحضرتي الملك الزهراء الناصرية والعامرية

الزاهرة

الزاهره ووصف جملة من منتزهات تلك الاقطار ومصانعها ذات المحاسن الباطنة والظاهره وما يجرّ اليه شجون الحديث من أمور تقتضى بحسن ايرادها القرائح الوقادة والافكار الماهره

(الباب الخامس) فى التعريف ببعض من رحل من الاندلسيين الى بلاد المشرق الذاكية العرار والبشام ومدح جماعة من أولئك الاعلام ذوى الالباب الراجحة والاحلام لشامة وجنة الارض دمشق الشام وما اقتضته المناسبة من كلام أعيانها وأرباب بيانها ذوى السودد والاحتشام ومخاطباتهم للمؤلف الفقير حين حلها عام سبعة وثلاثين وألف وشاهد برق فضلها المبين وشام

(الباب السادس) فى ذكر بعض الوافدين على الاندلس من أهل المشرق المهتدين فى قصدهم اليها بنور الهداية المضىء المشرق والاكابر الذين حلوا منها بحلواهم فيها الجيد والمفرق وافتخروا برؤية قطرها الموفق على المشئم والمعرق

(الباب السابع) فى نبذة مما منّ الله تعالى به على أهل الاندلس من توقد الاذهان وبذلهم فى اكتساب المعارف والمعالى ما عزّ أوهان وحوزهم فى ميدان البراعة من قصب البراعة خصل الرهان وجملة من أجوبتهم الدالة على لوذعيتهم وأوصافهم المؤذنة بألمعيتهم وغير ذلك من أحوالهم التى لها على فضلهم أوضح برهان

(الباب الثامن) فى ذكر تغلب العدوّ الكافر على الجزيرة بعد صرفه وجوه الكيد اليها وتضريبه بين ملوكها ورؤسائها بمكره واستعماله فى أمرها حيل فكره حتى استولى دمّره الله عليها ومحا منها التوحيد واسمه وكتب على مشاهدها ومعاهدها وسمه وقرّر مذهب التثليث والرأى الخبيث لديها واستغاثة من بها بالنظم والنثر أهل ذلك العصر من سائر الاقطار حين تعذرت بحصارها مع قلة حماتها وأنصارها المآرب والاوطار وجاءها الاعداء من خلفها ومن بين يديها أعاد الله تعالى اليها كلمة الاسلام وأقام بها شريعة سيد الانام عليه أفضل الصلاة والسلام ورفع يد الكفر عنها وعما حواليها آمين ولم أخل بابا فى هذا القسم من كلام للسان الدين بن الخطيب وان قل مع أن القسم الثانى بذلك كما ستقف عليه قد استقل وهذا آخر ما تعلق بالقسم الاول وعلى الله سبحانه المتكل والمعوّل

(القسم الثانى) فى التعريف بلسان الدين بن الخطيب وذكر أنبائه التى يروق سماعه ويتأرج نفحها ويطيب وما يناسبها من احوال العلماء الافراد والاعلام الذين اقتضى ذكرهم شجون الكلام والاستطراد وفيه ايضا من الابواب ثمانيه موصلة الى جنات أدب قطوفها دانيه وكل غصن منها رطيب

(الباب الاول) فى ذكر أولية لسان الدين وذكر أسلافه الذين ورث عنهم المجد وارتضع درّ أخلافه وما يناسب ذلك مما لا يذهب المنصف الى خلافه

(الباب الثانى) فى نشأته وترقيه ووزارته وسعادته ومساعدة الدهر له ثم قلبه له ظهر المجن على عادته فى مصافاته ومنافاته وارتباكه فى شباكه وما لقى من احن الحاسد

ذي المذهب الفاسد وعن الكائد المبأس وآفاته وذكر صور واله وعود ذلك من احواله في ملبانه عند ما قابله الزمان باهواله في بدء واعادته الى وفاته

•(الباب الثالث)• في ذكر مشايخه الجلة بهذا الساس وعموم الله وما يتصل بذلك من الاخبار السامية للعلة والمواعظ المحتمية من الاهوا المضلة والمناسبات الواضحة البراهين والادلة

•(الباب الرابع)• في مخاطبات الملوك والاكابر الموجهة الى حضرته العلية وثناء غير واحد من اهل عصره عليه وشرف القاصدين نحو التأمل اليه واعلامهم أنوار رياسته الجلية

•(الباب الخامس)• في ايراد جملة من نثره الذي عمن أرح البلاغة من جهاته ونظمه الذي نال نور البراعة من لحماته وصفحاته وما يتصل بذلك من بعض أرجاله وموشحاته ومناسبات رائعة من فنون الادب ومصطلحاته

•(الباب السادس)• في مصنفاته في الفنون ومؤلفاته المحكمة للرواة عليها الآمال والظنون وما تكمل منها أو اخترمته دون اتمامه المنون

•(الباب السابع)• في ذكر بعض تلامذته الآخذين عنه المستدلين به على المنهاج الملقين انواع العلوم منه والمقتبسين أنوار الفهوم من سراجه الوهاج

•(الباب الثامن)• في ذكر اولاده الراقين في حلل الجلالة المقتفين أوصافه الجليلة وخلاله الوارثين العلم والحلم والرياسة والمجد عن كلالة ووصيته لهم المشتملة على ذات الدين والدنيا المشتملة على النصائح الكافية والحكم الشافية من كل مرض للاعمال المعتمدة من انواع الضلالة وما يتبع ذلك من المناسبات القوية والامداح النبوية التي لها على حسن الختام اظهر دلالة (وقد كتب) أولا سميته بعرف الطيب في التعريف بالوزير ابن الخطيب ثم وسمته حين ألحقت أخبار الاندلس به بنفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب وله بالشام تعلق من وجوه عديدة هادية لمتأمله الى الطرق السديدة أولها أن الداعي لتأليفه اهل الشام أبقى الله مآثرهم وجعلها على مر الزمان مديدة ثانيها أن الفاتحين للاندلس هم اهل الشام ذوو النجدة والشوكة الحديدة ثالثها أن غالب اهل الاندلس من عرب الشام الذين اتخذوا بالاندلس وطنا مستأنفا وحضرا جديدة رابعها أن غرناطة نزل بها أهل دمشق وسموها باسمها لشبهها بها في القصر والنهر والدوح والزهر والغوطة الفيحاء وهذه مناسبة قوية الذرى شديدة * هذا واني اسأل ممن وقف عليه أن ينظر بعين الاغضاء اليه كما أطلب ممن كان السبب في تصنيفه والداعي الى تأليفه وترصيفه استنادا الى كرم الشيم واعتمادا على الود والهمم أن يصلح ما فيه من قصور ويسمح ويلاحظه بعين الرضا الكليلة واني اذ ركبت سبيل سطيته والاستعانة عالية ونصبه القريبة وجهة الذكرية ولبعض الآمال سالبة وهو وان لم يوف بكل الغرض ولا يخلو من فائدة وقد يدل على الجوهر بالعرض فان أدب المعترض وذلك المرام الذي أرتضيه ولوجد الود به نصيبه

والاخفى أنى بدأت به جهدى وأنفقت من وجدى على قدر ما عندى وقد توهمت أنى لم اسبق الى مثله فى بابه اذ لم أقف له على نظير أتعلق بأسبابه ورجوت أن يكون هدية مستملحة مستعذبه وطرفة مقبولة مستغربه

هديتى تقصر عن همتى * وهمتى اكثر من مالى
وخالص الود ومحض الاخا * اكثر ما يهديه أمثالى

وأوردت فيه من نظم وانشاء ما يكفى المقتصر عليه ان شاء ومن أخبار ملوك ورؤساء وطبقات من احسن أو أساء ما فيه اعتبار للمتأمل وادكار للراحل المتحمل وزينة للذاكر المتجمل وتبكيت على اهل البطر وتبكيت لمن خرج من دنياه ولم يقض من الطاعة الوطر

أرى أولاد آدم ابطرتهم * حظوظهم من الدنيا الدنيه
فلم بطروا وأولهم منى * اذا نسبوا وآخرهم منيه

وفيه ايقاظ لمثلى من سنة الغفله وحث على عدم الاغترار بالمهله وتنبيه للابس برد الشباب القشيب أنه لا بد من حادث الموت قبل أو بعد المشيب

لله در الشيب من واعظ * وناصح منهاجه واضح
كل امرئ يحسبه شأنه * وحادث الدهر له فاضح

فكم بالله على عصر الشباب وشالله فراق عهد الصبا والاحباب انساه طارق الزمان سلمى والرباب

مضى عصر الشباب كلمح برق * وعصر الشيب بالاكدار شيبا
وما أعددت قبل الموت زادا * ليوم يجعل الولدان شيبا

وما احسن قول بعض الاعلام

مضى ما مضى من حلو عيش ومره * كأن لم يكن الا كأضغاث أحلام

وقول من أرشد سفيها

اغا هذه الحياة متاع * فالجهول الجهول من يصطفيها
ما مضى فات والمؤمل غيب * ولك الساعة التى انت فيها

وفى معناه لغيره

دنياك شيآن فانظر * ماذانك الشيآن
ما فات منها فحلم * وما بقى فأمانى

وما احكم قول ابن حطان مع وقوعه من البدعة فى أشطان

يأسف المرء على ما فاته * من لبانات اذا لم يقضها
وتراه ضاحكا مستبشرا * بالتى امضى كأن لم يمضها
انها عندى كأحلام الكرا * لقريب بعضها من بعضها

ولغيره

والله لو كانت الدنيا بأجمعها * تبقى علينا ويأتى رزقها رغدا

فى وصف جزيرة الاندلس وحسن هوائها * واعتدال مزاجها ووفور خيراتها واستوائها * واشتمالها على كثير من المحاسن واحتوائها * وكرم بقعتها التى سقتها سماء البركات بنافع أنوائها * وذكر بعض ما آثرها الحائزة الصور وتعداد كثير مما لها من البلدان والكور المستمدة من أضوائها * فأقول * محاسن الاندلس لا تستوفى بعباره * ومجارى فضلها لا يشق غباره * وأنى تجارى وهى الحائزة قصب السبق * فى أقطار الغرب والشرق (قال ابن سعيد) انما سميت بالاندلس بن طوبال بن يافث بن نوح لانه نزلها كما أن اخاه سبت بن يافث نزل العدوة المقابلة لها واليه تنسب سبتة (قال) وأهل الاندلس يحافظون على قوام اللسان العربى لانهم اما عرب أو متعربون انتهى (وقال ابن غالب) انه اندلس بن يافث والله تعالى اعلم (وقال الوزير) لسان الدين بن الخطيب رحمه الله تعالى فى بعض كلام له اجرى فيه ذكر البلاد الاندلسية أعادها الله تعالى للاسلام ببركة المصطفى عليه من الله أفضل الصلاة وأزكى السلام مانصه خص الله تعالى بلاد الاندلس من الريع وغدق السقيا ولذاذة الاقوات وفراهة الحيوان ودرور الفواكه وكثرة المياه وتبحر العمران وجودة اللباس وشرف الآنية وكثرة السلاح وصحة الهواء وابيضاض ألوان الانسان ونبل الاذهان وفنون الصنائع وشهامة الطباع ونفوذ الادراك واحكام التمدن والاعتمار بما حرمه الكثير من الاقطار مما سواها انتهى (قال ابو عامر السالمى) فى كتابه المسمى بدرر القلائد وغرر الفوائد الاندلس من الاقليم الشامى وهو خير الاقاليم وأعدلها هواء وترابا وأعذبها ماء وأطيبها هواء وحيوانا ونباتا وهو أوسط الاقاليم وخير الامور أوساطها انتهى (قال ابو عبيد البكرى) الاندلس شامية فى طيبها وهوائها يمانية فى اعتدالها واستوائها هندية فى عطرها وذكائها أهوازية فى عظم جباياتها صينية فى جواهر معادنها عدنية فى منافع سواحلها فيها آثار عظيمة لليونانيين اهل الحكمة وحاملى الفلسفة وكان من ملوكهم الذين آثروا الآثار بالاندلس هرقلس وله الاثر فى الصنم بجزيرة قادس وصنم جليقية والاثر فى مدينة طركونة الذى لا نظير له (قال المسعودى) بلاد الاندلس تكون مسيرة عمائرها ومدنها نحو شهرين ولهم من المدن الموصوفة نحو من أربعين مدينة انتهى باختصار ونحوه لابن اليسع اذ قال طولها من اربونة الى اشبونة وهو قطع ستين يوما للفارس المجد وانتقد بأمرين احدهما أنه يقتضى أن اربونة داخلة فى جزيرة الاندلس والصحيح أنها خارجة عنها والثانى أن قوله ستين يوما للفارس المجد ادعاء وافراط وقد قال جماعة انها شهر ونصف (قال ابن سعيد) وهذا يقرب اذا لم يكن للفارس المجد والصحيح ما نص عليه الشريف من أنها مسيرة شهر وكذا قال الحجارى وقد سألت المسافرين المحققين عن ذلك فعملوا حسابا بالمراحل الجيدة افضى الى نحو شهر ينيف قليل (قال الحجارى) فى موضع من كتابه ان طول الاندلس من الحاجر الى اشبونة ألف ميل ونيف اه وبالجملة فالمراد التقريب من غير مشاحة كما قاله ابن سعيد وأطال فى ذلك ثم قال بعد كلام ومسافة الحاجر الذى بين بحر الزقاق والبحر المحيط أربعون ميلا وهذا عرض الاندلس عند رأسها من جهة الشرق ولعله سميت جزيرة والا فليست بجزيرة على الحقيقة لاتصال هذا القدر

بالارض الكبيرة وعرض جزيرة الاندلس في وسطها عند طليطلة ستة عشر يوما وهذا
على أن جزيرة الاندلس مثلثة الشكل واحد زواياها الركن الذي في الشرق والجوف
في حيز اربونة حيث قال انه في اربونة وان هذه المدينة مقابلة لمدينة برديل التي في الركن
الشرقي الشمالي أحمد بن محمد الرازي وابن حيان وفي كلام غيرهما أنه في جهة اربونة
وحقق الامر الشريف وهو أعرف بتلك الجهة لتردده في الاسفار اليها ونزهته
لهذا الفن (قال ابن سعيد) وقالت جماعة من علماء هذا الشأن فاحرروا ان الصحيح
ما ذهب اليه الشريف وان اربونة وبرشلونة عمرا داخلتين في ارض الاندلس وان الركن
الجوفي على بحر الزقاق بالشرق بين برشلونة وطركونة في موضع يعرف بوادي زيلطو
وهنالك الحاجز الذي فصل بين الاندلس والارض الكبيرة ذات الالسن الكثيرة وفي هذا
المكان جبل البرت الفاصل في الحاجز المذكور وفيه الابواب التي فتحها ملك اليونانيين
بالحديد والنار والخل ولم يكن للاندلس من الارض الكبيرة قبل ذلك طريق في البر وذكر
الشريف ان هذه الابواب تقع في مقابلتها في بحر الزقاق البحر الذي بين جزيرتي ميورقة
ومنورقة وقد اختبر ذلك جمهور المسافرين لتلك الساحة ومسافة هذا الجبل الحاجز بين
الركن الجوفي والركن الشمالي أربعون ميلا قال وشمال الركن المذكور عند مدينة
برديل وهي من مدن الافرنجة مطلة على البحر المحيط في شمال الاندلس قال وشهرة البر
بعد عن هذا الركن الى الشمال في بلاد الافرنجة ولهم به جزائر كثيرة وذكر أن الركن
الشمالي عند شنت ياقو من ساحل الجلالقة في شمال الاندلس حيث تبدى جزيرة برطانية
الكبيرة فهنالك بحر داخل بين ارضين من الناس من يعده بحرا منفردا خارجا من
البحر المحيط لطوله الى الركن المتقدم الذكر عند مدينة برديل (وذكر الشريف) ان
عند شنت ياقو في هذا الركن المذكور على جبل بمجمع البحرين صنما مطلا تشبيها بصنم
قادس والركن الثالث هو غربيه بين جبل الاغر حيث صنم قادس والجبل المذكور يقبل
من غربه مع جنوبه بحر الزقاق من البحر المحيط مارا مع ساحل الاندلس الجنوبي الى جبل
البرت المذكور انتهى والكلام في مثل هذا طويل الذيل *(قال الشيخ احمد بن محمد
ابن موسى الرازي) بلد الاندلس هو آخر الاقليم الرابع الى المغرب وهو عند الحكماء بلد كريم
البقعة طيب التربة خصب الجنان منبجس الانهار الغزار والعيون العذاب قليل الهوام
ذوات السموم معتدل الهواء والجو والنسيم ربيعه وخريفه ومشتاه ومصيفه على قدر
من الاعتدال وسطة من الحال لا يتولد في احدها فصل يتولد منه فيما يتلوه انتقاص يتصل
ثمراتها اكثر الازمنة ويدوم متلاحقة غير مفقودة أما الساحل منه ونواحيه فيبادر
بباكوره واما الثغر وجهاته والجبال المخصوصة ببرد الهواء فيتأخر بالكثير من غلاته
الاثمار بالبلد مادة في كل الاحيان وفواكهه على الجملة غير مفقودة في كل اوان وله
خواص في كرم النبات يوازي في بعضها ارض الهند المخصوصة بكرم النبات وجواهره منها
ان المحلب وهو المقدم في الافاويه والمفضل في انواع الاشنان لا ينبت في شيء من الارض
الا بالهند والاندلس وللاندلس المدن الحصينة والمعاقل المنيعة والقلاع الحريزة والمصانع

الجليلة

الجليلة ولها البر والبحر والسهل والوعر وشكلها مثلث وهي معتمدة على ثلاثة أركان الاول هو الموضع الذي فيه صنم قادس المشهور بالاندلس ومنه مخرج البحر المتوسط الشامي الآخذ بقبلي الاندلس والركن الثاني هو شرقي الاندلس بين مدينة ربونة ومدينة برديل مما بأيدي الفرنجة اليوم بازاء جزيرتي ميورقة ومنورقة مجاورة من البحرين البحر المحيط والبحر المتوسط وبينهما البر الذي يعرف بالابواب وهو المدخل الى بلاد الاندلس من الارض الكبيرة على بلد افرنجة ومسافته بين البحرين مسيرة يومين ومدينة ربونة تقابل البحر المحيط والركن الثالث منها هو ما بين الجوف والغرب من حيز جليقية حيث الجبل الموفي على البحر وفيها الصنم العالي المشبه بصنم قادس وهو الطالع على بلد برطانية قال والاندلس اندلسان في اختلاف هبوب أرياحها ومواقع أمطارها وجريان أنهارها أندلس غربي وأندلس شرقي فالغربي منهما ما جرت أوديته الى البحر المحيط الغربي وتمطر بالرياح الغربية ومبتدأ هذا الجوز من ناحية المشرق مع المنارة الخارجة مع الجوف الى بلد شنترية طالعا الى حور اعريطة المجاورة لطليطلة مائلا الى الغرب ومجاورا للبحر المتوسط الموازي لقرطاجنة الحلفا التي من بلد لورقة والجوز الشرقي المعروف بالاندلس الاقصى وتجري أوديته الى الشرق وأمطاره بالريح الشرقية وهو من حد جبل البشكنس هابطا مع وادي ابرة الى بلد شنت مريه ومن جوف هذا البحر وغربه المحيط وفي القبلة منه البحر الغربي الذي منه يجري البحر المتوسط الخارج الى بلد الشام وهو البحر المسمى بحر تيران ومعناه الذي يشق دائرة الارض ويسمى البحر الكبير انتهى قال ابو بكر عبد الله بن عبد الحكم المعروف بابن النظام بلد الاندلس عند علماء اهلها اندلسان فالاندلس الشرقي منه ما صبت أوديته الى البحر الرومي المتوسط المتصاعد من اسفل ارض الاندلس الى المشرق وذلك ما بين مدينة تدمير الى سرقسطة والاندلس الغربي ما صبت أوديته الى البحر الكبير المعروف بالمحيط أسفل من ذلك البلد الى ساحل المغرب فالشرقي منه ما يمطر بالريح الشرقية ويصلح عليها والغربي يمطر بالريح الغربية وبها صلاحه وجباله هابطة الى الغرب جبلا بعد جبل واعما قسمته الاوائل جزءين لاختلافهما في حال امطارهما وذلك أنه مهما استحكمت الريح الغربية كثر مطر الاندلس الغربي وقحط الاندلس الشرقي ومتى استحكمت الريح الشرقية كثر مطر الاندلس الشرقي وقحط الغربي وأوديته هذا القسم تجري من الشرق الى الغرب بين هذه الجبال وجبال الاندلس الغربي تمتد الى الشرق جبلا بعد جبل تقطع من الجوف الى القبلة والاودية التي تخرج من تلك الجبال يقطع بعضها الى القبلة وبعضها الى الشرق وتنصب كلها الى البحر المحيط بالاندلس القاطع الى الشام وهو البحر الرومي وما كان من بلاد جوفي الاندلس من بلاد جليقية وما يليها فان أوديته تنصب الى البحر الكبير المحيط بناحية الجوف (وصفة الاندلس) شكل مركن على مثال الشكل المثلث ركنها الواحد فيما بين الجوف والمغرب حيث اجتماع البحرين عند صنم قادس وركنها الثاني في بلد جليقية حيث الصنم المشبه صنم قادس مقابل جزيرة برطانية وركنها الثالث بين مدينة بربونة ومدينة برديل من بلد افرنجة بحيث يقرب البحر المحيط من البحر الشامي المتوسط فيكادان يجتمعان

في ذلك الموضع لصار بلد الأندلس جزيرة بينهما لانقسامه ولولا أنه يبقى بينهما ما يدفع ربه
بحرا وعبارة ساعة مسير يوم للراكب منه المدخل إلى الأرض الكبيرة التي يقال لها
الأبواب ومن قبله يتصل بلد الأندلس بتلك البلاد المعروفة بالأرض الكبيرة ذات الألسن
المختلفة قال وأول من سكن بالأندلس على قديم الأيام فيما نقله الأخباريون من بعد عهد
الطوفان على ما يذكره علماء عجمها قوم يعرفون بالأندلش معجمة الشين بهم سمي المكان فعرب
فيما بعد بالسين غير المعجمة كانوا الذين عمروها وتناسلوا فيها وتداولوا ملكها دهرا على دين
التمجس والإهمال والإفساد في الأرض ثم أخذهم الله بذنوبهم فحبس المطر عنهم ووالى
القحط عليهم وأعطش بلادهم حتى نضبت مياهها وغارت عيونها ويبست أنهارها وبادت
أشجارها فهلك أكثرهم وفر من قدر على الفرار منهم فأقفرت الأندلس منهم وبقيت خالية فيما
يزعمون مائة سنة وبضع عشرة سنة وذلك من حد بلد الفرنجة إلى حد بحر الغرب الأخضر
وكان عدة ما عمرتها هذه الأمة البائدة مائة عام وبضع عشرة سنة ثم ابتعث الله لعمارتها
الأفارقة فدخل إليها بعد إقفارها تلك المدة الطويلة قوم منهم أجلاهم ملك أفريقية تخففا
منهم لإمحال توالى على أهل مملكته وتردد عليهم حتى كاد يفنيهم فحمل منهم خلقا في السفن
مع قائد من قبله يدعى أبطريقس فأرسوا بريف الأندلس الغربي واحتلوا بجزيرة قادس
فأصابوا الأندلس قد أمطرت وأخصبت فجرت أنهارها وانفجرت عيونها وحييت أشجارها
فنزلوا الأندلس مغتبطين وسكنوها معمرين وتوالدوا فيها فكثروا واستوسعوا في عمارة
الأرض ما بين الساحل الذي أرسوا فيه بغربيها إلى بلد الإفرنجة من شرقيها ونصبوا من
أنفسهم ملوكا عليهم ضبطوا أمرهم وتوالوا على إقامة دولتهم وهم مع ذلك على ديانة من قبلهم
في الجاهلية وكانت دار مملكتهم طالقة الخراب اليوم من أرض إشبيلية اخترعها ملوكهم
وسكنوها فاتسق ملكهم بالأندلس مائة وسبعة وخمسين عاما إلى أن أهلكهم الله تعالى
وبعث عليهم عجم رومة بعد أن ملك من هؤلاء الأفارقة في مدتهم تلك أحد عشر ملكا ثم صار ملك
الأندلس بعدهم إلى عجم رومة وملكهم إشبان بن طيطش وباسمه سميت الأندلس إشبانية
وذكر بعضهم أن اسمه إصبهان فأحيل بلسان العجم وقيل بل كان مولده بإصبهان فغلب
اسمها عليه وهو الذي بنى إشبيلية وكان إشبانية اسما خاصا للبلد إشبيلية الذي كان ينزله إشبان
هذا ثم غلب الاسم بعده على الأندلس كله فالعجم الآن تسميه إشبانية لآثار إشبان هذا
فيه وكان أحد الملوك الذين ملكوا أقطار الدنيا فيما زعموا وكان غزا الأفارقة بعدما أطلعه الله
عليهم في جموعه ففض عساكرهم وأثخن فيهم ونزل عليهم بقاعدتهم طالقة وقد تحصنوا فيها
منه فابتنى عليهم مدينة إشبيلية اليوم واتصل حصره وقتاله لهم حتى فتحها الله عليه وعليهم
واستوثق له تملك الأندلس بأسرها وأذن لهم فيها فهدم مدينة طالقة ونقل رخامها
وآلاتها إلى مدينة إشبيلية فأتم بناءها واتخذها دار مملكته واستعلى سلطانه
في الأرض وكثرت جموعه فعلا وعظم عتوه ثم غزا إيلياء وهي القدس الشريف من إشبانية
بعد ستين من ملكه فخرب الهيكل الذي فيه وهدمها وقتل فيها من اليهود مائة ألف
واسترق مائة ألف ونقل رخام إيلياء وآلاتها إلى الأندلس وقهر الأعداء وأتى قسطاطانه انتهى

(وذكر بعض المؤرخين) أن العرائب التي اصيبت في مغانم الاندلس أيام فتحها كمائدة سليمان عليه الصلاة والسلام التي ألفاها طارق بن زياد بكنيسة طليطلة وقلادة الدر التي ألفاها موسى بن نصير بكنيسة ماردة وغيرهما من طرائف الذخائر انما كانت مما صار لصاحب الاندلس من غنيمة بيت المقدس اذ حضر فتحها مع بخت نصر وكان اسم ذلك الملك بريان وفي سهمه وقع ذلك ومثله مما كانت الجن تأتى به نبي الله سليمان على نبينا وعليه وعلى جميع الانبياء الصلاة والسلام انتهى (وقال غير واحد من المؤرخين) كان اهل المغرب الاقصى يضرون بأهل الاندلس لاتصال الارض ويلقون منهم الجهد الجهيد في كل وقت الى أن اجتازهم الاسكندر وشكوا حالهم اليه فأحضر المهندسين وحضر الى الزقاق وأمر المهندسين بوزن سطح الماء من المحيط والبحر الشامي فوجدوا المحيط يعلو البحر الشامي بشئ يسير فأمر برفع البلاد التي على ساحل البحر الشامي ونقلها من الحضيض الى الاعلى ثم امر بحفر ما بين طنجة وبلاد الاندلس من الارض فحفرت حتى ظهرت الجبال السفلية وبنى عليها رصيفا بالحجر والجيار بناء محكما وجعل طوله اثني عشر ميلا وهي المسافة التي كانت بين البحرين وبنى رصيفا آخر يقابله من ناحية طنجة وجعل بين الرصيفين سعة ستة أميال فلما كمل الرصيفان حفر من جهة البحر الاعظم وأطلق فم الماء بين الرصيفين فدخل في البحر الشامي ثم فاض ماؤه فأغرق مدنا كثيرة وأهلك امما عظيمة كانت على الشطين وطما الماء على الرصيفين احدى عشرة قامة وأما الرصيف الذي يلي بلاد الاندلس فانه يظهر في بعض الاوقات اذا نقص الماء ظهورا بينا مستقيما على خط واحد وأهل الجزيرتين يسمونه القنطرة وأما الرصيف الذي من جهة العدوة فان الماء حمله في صدره واحتفر ما خلفه من الارض اثني عشر ميلا وعلى طرفه من جهة المغرب قصر الجواز وسبتة وطنجة وعلى طرفه من الناحية الاخرى جبل طارق بن زياد وجزيرة طريف وغيرهما والجزيرة الخضراء وبين سبتة والجزيرة الخضراء عرض البحر انتهى ملخصا وقد تكرر بعضه مع ما جلبناه والعذر بين لارتباط الكلام بعضه ببعض (وقال ابن سعيد) ذكر الشريف أن لا حظ لارض الاندلس في الاقليم الثالث قال ويمر بجزيرة الاندلس الاقليم الرابع على ساحلها الجنوبي وما قاربه من قرطبة واشبيلية ومرسية وبلنسية ثم يمر على جزيرة صقلية وعلى ما في سمتها من الجزائر والشمس مدبرته * والاقليم الخامس يمر على طليطلة وسرقسطة وما في سمتهما الى بلاد أرغون التي في جنوبها برشلونة ثم يمر على رومية وبلادها ويشق بحر البنادقة ثم يمر على القسطنطينية ومدبرته الزهرة * والسادس يمر على ساحل الاندلس الشمالي الذي على البحر المحيط وما قاربه وبعض البلاد الداخلة في قشتالة وبرتقال وما في سمتها وعلى بلاد برجان والصقالبة والروس ومدبره عطارد * ويمر الاقليم السابع في البحر المحيط الذي في شمال الاندلس الى جزيرة انقطرة وغيرها من الجزائر وما في سمتها من بلاد الصقالبة وبرجان قال البيهقي وفيه تقع جزيرة تولى وجزيرتا الجبال والنساء وبعض بلاد الروس الداخلة في الشمال والبلغار ومدبره القمر انتهى (وقال بعض العلماء) ان النصارى حرموا جنة الآخرة فأعطاهم الله جنة الدنيا

نباتاً ممتداً من البحر المحيط بالأندلس إلى خليج القسطنطينية وعندهم عموم شجر البلوط
والبندق والجوز والقسطل وغير ذلك مما يكون أكثر أمكنته في الأقاليم الباردة والتمر
عندهم معدوم وكذا الموز وقصب السكر وربما يكون شيء من ذلك في الساحل لكن هواء
البحر يدفئ انتهى (قال ابن حيان في المقتبس) ذكروا أن الخضر عليه السلام
وقف على إشبان الملك وهو يحرث الأرض بفدان له أيام حراثته فقال له يا إشبان إنك
لذو شان وسوف يحظيك زمان ويعليك سلطان فإذا أنت غلبت على إيلياء فارفق بذرية الأنبياء
فقال له إشبان أساخر بي رحمك الله أنى يكون هذا مني وأنا ضعيف ممتهن حقير فقير ليس مثلي
ينال السلطان فقال له قد قدر ذلك فيك من قدر في عصاك اليابسة ما ترى فنظر إشبان إلى
عصاه فإذا بها قد أورقت فريع لما رأى من الآية وذهب الخضر عنه وقد وقع الكلام بخلده
ووثق في نفسه الفتنة بكونه فترك الامتهان من وقته وداخل الناس وصحب أهل البأس
منهم وسما به جده فارتقى في طلب السلطان حتى أدرك منه عظيماً وكان منه ما كان ثم أتى عليه
ما أتى على القرون قبله وكان ملكه كله عشرين سنة وتمادى ملك الإشبانيين بعده
إلى أن ملك منهم الأندلس خمسة وخمسون ملكاً ثم دخل على هؤلاء الإشبانيين من عجم رومة
أمة يدعون البشتولقات وملكهم طلويش بن بيطه وذلك زمن بعث المسيح عيسى ابن مريم
عليه السلام أتوا الأندلس من جبل رومة وكانوا يملكون إفريقية معها ويبعثون عمالهم إليها
فاتخذوا دار مملكتهم بالأندلس مدينة ماردة واستولوا على مملكة الأندلس واتصل
ملكهم بها إلى أن ملك منهم سبعة وعشرون ملكاً ثم دخل على هؤلاء البشتولقات أمة
القوط مع ملك لهم فغلبوا على الأندلس واقتطعوها من يومئذ من صاحب رومة وتفردوا
بسلطانهم واتخذوا مدينة طليطلة دار مملكتهم وأقروا بها سرير ملكهم وفي أسلمة علم
الإشبانيين ورئاسة أوليهم (وقد كان عيسى المسيح عليه السلام) بعث الحواريين في الأرض
يدعون الملوك إلى ديانته فاختلف الناس عليهم وقتلوا بعضهم واستجاب لهم كثير منهم وكان
من أسرعهم إجابة لمن بادر من هؤلاء الحواريين جسد من ملك القوط قيصر ودعا قومه
إلى النصرانية وكان من ضم أعاظمهم وخيار قياصرة ملوكهم وأجمعوا على أنه لم يكن فيهم
أعدل منه حكماً ولا أرشد رأياً ولا أحسن سيراً ولا أجود تدبيراً فكان الذي أصل النصرانية
في مملكته ومضى أهلها على سنته إلى اليوم وحكموا بها والاختلاف في المذاهب الأربعة
التي يعملون بها من أمانته وحزمه وسنته فتماديت ملوك القوط بالأندلس بعد إلى أن
غلبهم العرب عليها وأظهر الله تعالى دين الإسلام على جميع الأديان (ووقع في تواريخ العجم
المدققة) أن عدة ملوك هؤلاء القوط بالأندلس من عهد أتاناريك ومن الذي ملك في السنة
الخامسة من مملكة فلبس القيصري لمضي أربعمائة وسبع من تاريخ القيصر المشهور عند
العجم إلى عهد لذريق آخرهم الذي ملك في السنة التاسعة والأربعين وسبعمائة من تاريخ
القيصر وهو الذي دخلت عليه العرب فأزالت دولة القوط ستة وثلاثون ملكاً وأن مدة أيام
ملكهم بالأندلس ثلثمائة واثنان وأربعون سنة انتهى (وقال جماعة) إن القوط غير
البشتولقات وإن البشتولقات من عجم رومة وإنهم جعلوا دار ملكهم ماردة واتصل ملكهم

إلى

الى أن ملك منهم سبعة وعشرون ملكا ثم دخل عليهم القوط واتخذوا طليطلة دار مملكة
ثم ذكر تنصير ملكهم خشندش مثل ما تقدم ثم ذكر أن عدة ملوك القوط ستة وثلاثون
ملكا (وذكر الرازي) أن القوط من ولد يأجوج بن يافث بن نوح وقيل غير ذلك انتهى (وذكر
الرازي) في موضع آخر نحو ما تقدم وزيادة ونصه ان الاندلس في آخر الاقليم الرابع من
الاقاليم السبعة التي تقدم ذكرها التي هي ربع معمور الدنيا فهي موسطة من البلدان كريمة
البقعة بطبع الخلقة طيبة التربة مخصبة القاعة منبجسة العيون الثرار منفجرة الانهار الغزار
قليلة الهوام ذوات السموم معتدلة الهواء اكثر الازمان لا يزيد قيظها زيادة منكرة تضر
بالابدان وكذا سائر فصولها في أعم سنيها تأتي على قدر من الاعتدال وتوسط من الحال
وفواكهها تتصل طول الزمان فلا تكاد تعدم لان الساحل ونواحيه يبادر بباكوره كما أن
الثغر وجهاته والجبال التي يخصها برد الهواء وكثافة الجو تستأخر بما فيها من ذلك حتى يكاد
طرفا فاكهتها يلتقيان فمادة الخيرات فيها متصلة كل أوان ومن بحرها بجهة الغرب يخرج
العنبر الجيد المقدم على أجناسه في الطيب والصبر على النار وبها شجر المحلب المعدود في
الافاويه المقدم في انواع الاشنان كثير واسع وقد زعموا انه لا يكون الا بالهند وبها فقط ولها
خواص باقية يكثر تعدادها انتهى (وقد ذكر غيره تفصيل بعض ذلك فقال) يوجد في ناحية
دلاية من اقليم البشرة عود الالنجوج لا يفوته العود الهندي ذكاء وعطر رائحة وقد سيق
منه الى خيران الصقلبي صاحب المرية وان اصل منبته كان بين أحجارها هنالك وبباكشونية
جبل كثيرا ما يصوغ ريحه ريح العود الذكي اذا ارسلت فيه النار وبشرشدونة يوجد
العنبر الطيب الغربي وفي جبل منت ليون المحلب ويوجد بالاندلس القسط الطيب والسنبل
الطيب والجنطيانة تحمل من الاندلس الى جميع الآفاق وهو عقار رفيع والمر الطيب بقلعة
ايوب وأطيب كهرباء الارض بشدونة درهم منها يعدل دراهم من المجلوبة وأطيب القرمز
قرمز الاندلس واكثر ما يكون بنواحي اشبيلية ولبلة وشدونة وبلنسية ومن الاندلس يحمل
الى الآفاق وبناحية لورقة من عمل تدمير يكون حجر اللازورد الجيد وقد يوجد في غيرها
وعلى مقربة من حضرة لورقة من عمل قرطبة معدن البلور وقد يوجد بجبل شيران وهو
شرقي بيرة وحجر الجادي يوجد بناحية مدينة الاشمونة في جبل هنالك يتلألأ فيه ليلا
كالسراج والياقوت الاحمر يوجد بناحية حصن منت ميور من كورة مالقة الا أنه دقيق
جدا لا يصلح للاستعمال لصغره ويوجد حجر يشبه الياقوت الاحمر بناحية بجانة
في خندق يعرف بقرية ناشرة أشكالا مختلفة كأنه مصنوع حسن اللون صبور على النار
وحجر المغناطيس الجاذب للحديد يوجد في كورة تدمير وحجر الشادنة بجبال قرطبة كثير
ويستعمل ذلك في التذاهيب وحجر اليهودي في ناحية حصن الونت وهو أنفع شيء للحصاة
وحجر المرقشيثا الذهبية في جبال ابدة لا نظير لها في الدنيا ومن الاندلس تحمل الى جميع
الآفاق لفضلها والمغنيسيا بالاندلس كثير وكذلك حجر الطلق ويوجد حجر اللؤلؤ بمدينة
برشلونة الا أنه جامد اللون ويوجد المرجان بساحل بيرة من عمل المرية ما لقط منه في أقل
من شهر نحو ثمانين ربعا ومعدن الذهب بنهر لاردة يجمع منه كثير ويجمع ايضا في ساحل

الأشربة ومعادن الفضة في الأندلس كثيرة في كورة تدمير وجبال جيانة وبإقليم
كرتش من عمل قرطبة معدن فضة جليل وباشكونية معدن الصفر لا نظير له يشبه الفضة
وله معادن شاحبة أو زرقة ولون ومعدن الزئبق في جبل البرانس ومن هنالك يتجهز به إلى
الآفاق وعامة معادن الكبريت الأحمر والأصفر بالأندلس كثير ومعدن التوتيا الطيبة
بساحل البحر بقرية تسمى بطرنة وهي أزكى توتيا وأقواها في صبغ النحاس ويقال بقرطبة
توتيا وليست كالطرنية ومعدن الكحل المشبه بالأصبهاني بناحية مدينة طرطوشة
يحمل منها إلى جميع البلاد وعامة معادن الشبوب والحديد والنحاس بالأندلس أكثر من أن
تحصى وما ذكرتها وإن ذكرت بعضه مع ما سبق أو يأتي فهو ولع الخاطر وما لم نذكره أكثر
والله تعالى أعلم (ومن خواص طليطلة) أن حنطتها لا تتغير ولا تسوس على طول السنين
يتوارثها الخلف عن السلف وزعفران طليطلة هو الذي يعم البلاد ويتجهز به الرفاق إلى
الآفاق وكذلك الصبغ السماوي انتهى (وقال المسعودي) في مروج الذهب بعد كلام
ما نصه والعنبر كثير بحر الأندلس يجهز إلى مصر وغيرها ويحمل إلى قرطبة من ساحل لها
يقال له شنترين وشذونة تباع الأوقية منه بالأندلس لأنه مثاقيل ذهبا والأوقية بالبغدادي
وتباع بمصر أوقية بعشرة دنانير وهو عنبر جيد ويمكن أن يكون هذا العنبر الواقع إلى بحر
الروم ضربته الأمواج من بحر الأندلس إلى هذا البحر لاتصال الماء وبالأندلس معدن
عظيم للفضة ومعدن للزئبق ليس بالجيد يجهز إلى سائر بلاد الإسلام والكفر وكذلك
يحمل من بلاد الأندلس الزعفران وعروق الزنجبيل وأصول الطيب خمسة أصناف المسك
والكافور والعود والعنبر والزعفران وكلها تحمل من أرض الهند وما اتصل بها
إلا الزعفران والعنبر انتهى وقد وقع تكرير مع ما ذكرته عن غير فلا يخلو من فائدة والله
تعالى أعلم (وذكر بعضهم) أن في بلاد الأندلس جميع المعادن الكائنات عن
الكواكب السبعة وهي الرصاص من زحل والقصدير الأبيض من المشتري والحديد من
المريخ والذهب من الشمس والنحاس من الزهرة والزئبق من عطارد والفضة من
القمر (وذكر الكاتب إبراهيم بن القاسم القروي المعروف بالرقيق بلاد الأندلس)
فقال أهلها أصحاب جهاد متصل يحاربون من أهل الشرك الجلالقة منهم أمة تدعون
الجلالقة ساكنون جوارهم ما بين غرب إلى شرق وقوم لهم شدة وإنهم جمال وحسن وجو
فأكثر رقيقهم الموصوفين بالجمال والفراهة منهم ليس بينهم وبينهم درب والحرب
متصلة بينهم ما لم تقع هدنة ويحاربون بالأدنى الشرقي أمة يقال لهم الفرنجة هم أشد عليهم
من جميع من يحاربونه من عدوهم إذ كانوا خلقا عظيما في بلاد كثيرة واسعة جليلة متصلة
العمارة أهله تدعى الأرض الكبيرة هم أكثر عددا من الجلالقة وأشد بأسا وأحد شوكة
وأعظم أمدادا وهذه الأمة يحاربون أمة الصقالبة المتصلين بأرضهم لمخالفتهم إياهم
في الديانة فيسبونهم ويبيعون رقيقهم بأرض الأندلس ولهم هنالك كثير ويخصيهم للفرنجة
يهود ذمتهم الذين بأرضهم وفي ثغر المسلمين المتصل بهم فيحمل خصيانهم من هنالك إلى سائر
البلاد وقد تعلم الخصاء قوم من المسلمين هنالك فصاروا يخصون ويستحلون المثلة (قال

ابن سعيد) ويخرج بحر الروم المتصاعد الى الشام هو بساحل الاندلس الغربي بمكان يقال له الخضراء ما بين طنجة من ارض المغرب وبين الاندلس فيكون مقدار عرضه هنالك كما زعموا ثمانية عشر ميلا وهذا عرض جزيرة طريف الى قصر مصمودة بالقرب من سبتة وهنالك كانت القنطرة التي يزعم الناس أن الاسكندر بناها ليعبر عليها الناس من بر الاندلس الى بر العدوة ويعرف هذا الموضع بالزقاق وهو صعب المجاز لانه مجمع البحرين لاتزال الامواج تتطاول فيه والماء يدور وطول هذا الزقاق الذي عرضه ثمانية عشر ميلا مضاعف ذلك الى ميناسبتة ومن هنالك يأخذ البحر في الاتساع الى ثمانمائة ميل وأزيد ومنتهاه مدينة صور من الشام وفيه عدد عظيم من الجزائر (قال بعضهم) انها مائة ن وعشرون جزيرة منها صقلية ومالطة وغيرهما انتهى وبعضه بالمعنى (وقال بعضهم) عند وصفه ضيق بحر الزقاق قرب سبتة ماصورته ثم يتسع كلما امتد حتى يصير الى ما لا ذرع له ولا نهاية (وقال بعضهم) وكان مبلغ خراج الاندلس الذي كان يؤدى الى ملوك بني امية قديما ثلثمائة ألف دينار دراهم اندلسية كل سنة قوانين وعلى كل مدينة من مدائنهم مال معلوم فكانوا يعطون جندهم ورجالهم الثلث من ذلك مائة الف دينار وينفقون في امورهم ونوائبهم ومؤن أهليهم مائة ألف دينار ويدخرون لحادث ايامهم مائة ألف دينار انتهى (وذكر غيره) أن الجباية كانت بالاندلس ايام عبد الرحمن الاوسط ألف ألف دينار في السنة وكانت قبل ذلك لا تزيد على ستمائة ألف حكاه ابن سعيد وقال ان الاندلس مسيرة شهر مدن وعمائر (وقال قاضي القضاة) ابن خلدون الحضرمي في تاريخه الكبير ماصورته كان هذا القطر الاندلسي من العدوة الشمالية من عدوتي البحر الرومي وبالجانب الغربي منها يسمى عند العجم الاندلوش وتسكنه امم من افرنجة المغرب أشدهم واكثرهم الجلالقة وكان القوط قد تملكوه وغلبوا على اهله لمئين من السنين قبل الاسلام بعد حروب كانت لهم مع اللطينيين ماصروا فيها رومة ثم عقدوا معهم السلم على أن ينصرف القوط الى الاندلس فصاروا اليها وملكوها ولما أخذ الروم واللطينيون بملة النصرانية حملوا من وراءهم بالمغرب من امم الفرنجة والقوط عليها فدانوا بها وكان ملوك القوط ينزلون طليطلة وكانت دار ملكهم وربما تنقلوا ما بينها وبين قرطبة واشبيلية وماردة وأقاموا كذلك نحوا من اربعمائة سنة الى أن جاء الله بالاسلام والفتح وكان ملكهم لذلك العهد يسمى لذريق وهو سمة لملوكهم كما أن جرجير سمة لملوك صقلية انتهى (ومن اشهر بلاد الاندلس) غرناطة وقيل ان الصواب اغرناطة بالهمز ومعناه بلغتهم الرمانة وكفاها شرفا ولادة لسان الدين بها (وقال الشقندي) أما غرناطة فانها دمشق بلاد الاندلس ومسرح الابصار ومطمح الانفس ولم تخل من أشراف اماثل وعلماء اكابر وشعراء افاضل ولو لم يكن لها الا ماخصها الله تعالى به من المرج الطويل العريض ونهر شنيل لكفاها (وفي بعض كلام لسان الدين) ماصورته ومالمصر تفخر بنيلها وألف منه في شنيلها يعني أن الشين عند أهل المغرب عددها ألف فقولنا شنيل اذا اعتبرنا عدد شينه كان ألف نيل وفيها قيل

الاسكندر والله اعلم * ومدينة برجة وهي من أعمال المرية معدن الرصاص وهي على واد بهج يعرف بوادي عذراء وهو محدق بالازهار والاشجار وتسمى برجة بهجة لبهجة منظرها وفيها يقول ابو الفضل بن شرف القيرواني رحمه الله تعالى

رياض تعشقها سندس * توشت معاطفها بالزهر
مدامعها فوق خدي ربا * لها نظرة فتنت من نظر
وكل مكان بها جنة * وكل طريق اليها سقر

وفيها ايضا قوله

حط الرحال ببرجه * وارتد لنفسك بهجه
في قاعة كسلاح * ودوحة مثل لجه
فحصنها لك امن * وروضها لك فرجه
كل البلاد سواها * كعمرة وهي حجه

ومالقة التين الذي يضرب المثل بحسنه ويجلب حتى للهند والصين وقيل انه ليس في الدنيا مثله وفيه يقول ابو الحجاج يوسف ابن الشيخ البلوي المالقي حسبما انشده غير واحد منهم ابن سعيد

مالقة حييت يا تينها * الفلك من اجلك يأتينها
نهى طبيبي عنه في علتي * مالطبيبي عن حياتي نهى

وذيل عليه الامام الخطيب ابو محمد عبد الوهاب المنشي بقوله

وحمص لا تنس لها تينها * واذكر مع التين زياتينها

وفي بعض النسخ

لا تنس لاشبيلية تينها * واذكر مع التين زياتينها

وهو نحو الاول لان حمص هي اشبيلية لنزول اهل حمص من المشرق بها حسبما سنذكره (ونسب ابن جزي في ترتيبه لرحلة ابن بطوطة البيتين الاولين للخطيب ابي محمد عبد الوهاب المالقي والتذييل لقاضي الجماعة ابي عبد الله بن عبد الملك فالله اعلم * وقال ابن بطوطة وبمالقة يصنع الفخار المذهب العجيب ويجلب منها الى اقاصي البلاد ومسجدها كبير الساحة كثير البركة شهيرها وصحنه لا نظير له في الحسن وفيه أشجار النارنج البديعة انتهى وقال قبله ان مالقة احدى قواعد الاندلس وبلادها الحسان جامعة بين مرافق البر والبحر كثيرة الخيرات والفواكه رأيت العنب يباع في أسواقها بحساب ثمانية ارطال بدرهم صغير ورمانها المرسي الياقوتي لا نظير له في الدنيا وأما التين واللوز فيجلبان منها ومن أحوازها الى بلاد المشرق والمغرب انتهى (وبكورة اشونة) المتصلة بشنترين معدن التبر وفيها عسل يجعل في كيس كتان فلا يكون له رطوبة كأنه سكر ويوجد في ريفها العنبر الذي لا يشبهه الا الشحري (ومن اشهر مدن الاندلس) مدينة قرطبة أعادها الله تعالى للاسلام وبها الجامع المشهور والقنطرة المعروفة بالجسر (وقد ذكر ابن حيان) أنه بني على امر عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ونصه وقام فيها

ثم هي على النهر الأعظم مدار علمهم قرطبة الجسر الأكبر الذي ما يعرف في الدنيا مثله
انتهى وفيها يقول بعض علماء الأندلس

بأربع فاقت الأمصار قرطبة * منهن قنطرة الوادي وجامعها
هاتان ثنتان والزهراء ثالثة * والعلم أعظم شيء وهو رابعها

(وقال الحجاري في المسهب) كانت قرطبة في الدولة المروانية قبة الإسلام ومجتمع أعلام
الأنام بها استقر سرير الخلافة المروانية وفيها تمحضت خلاصة القبائل المعدية واليمانية
وإليها كانت الرحلة في الرواية إذ كانت مركز الكرماء ومعدن العلماء وهي من الأندلس
بمنزلة الرأس من الجسد ونهرها من أحسن الأنهار مكتنف بديباج المروج مطرز بالأزهار
تصدح في جنباته الأطيار وتنعر النواعير ويبسم النوار وقرطاها الزاهر والزهراء
حاضرتا الملك وأفقا النعماء والسراء وإن كان قد أخنى عليها الزمان وغير بهجة
أوجهها الحسان فبالله عادته وسل الخورنق والسدير وغمدان وقد أعذر بإنذاره إذ لم يزل
ينادي بصروفه لا أمان لا أمان وقد قال الشاعر

وما زلت أسمع أن الملو * ك تبني على قدر أخطارها

انتهى وقال السلطان يعقوب المنصور ابن السلطان يوسف ابن السلطان عبد المؤمن بن
علي لأحد رؤساء أجنادها ما تقول في قرطبة فقال له على ما تضمنه كلام عامة الأندلس
قولهم سوقها حمام وعز بها دام وفيها مدام والخمسة هي والسلام يعني بالحمام
جمال الورد ويعني بالحمام ما يؤكل أشار إلى عجز الكنافة ويعني بالمدام النهر
ولما قال والد السلطان يوسف بن عبد المؤمن لأبي عمران موسى بن سعيد العنسي ما عندك
في قرطبة قال له ما كان لي أن أتكلم حتى أسمع مذهب أمير المؤمنين فيها فقال السلطان
إن ملوك بني أمية حين اتخذوها حضرة مملكتهم لعلى بصيرة الديار المقيمة الكبيرة
والمزارع المتسعة والمباني الضخمة المشيدة والنهر الجاري والهواء المعتدل والخارج
الناضر والمحرث العظيم والشعرى الكافية والتوسط بين شرقي الأندلس وغربها قال فقلت
ما أبقى لي أمير المؤمنين ما أقول (قال ابن سعيد) ولأهلها رياسة ووقار لا تزال سمة العلم
والملك متوارثة فيهم إلا أن عامتها أكثر الناس فضولا وأشدهم تشغبا ويضرب بهم المثل
ما بين أهل الأندلس في القيام على الملوك والتشنيع على الولاة وقلة الرضا بأمورهم حتى إن
السيد أبا يحيى أخا السلطان يعقوب المنصور قيل له لما انفصل عن ولايتها كيف وجدت
أهل قرطبة فقال مثل الجمل إن خففت عنه الحمل صاح وإن أثقلته صاح ما ندري أين
رضاهم فنقصده ولا أين سخطهم فنجتنبه وما سلط الله عليهم حجاج الفتنة حتى كان عامتها شرا
من عامة العراق وإن العزل عنها لما قاسيته من أهلها عندي ولاية وإني إن كلفت العود إليها
لقائل لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين انتهى (وقال أبو الفضل التيفاشي) جرت مناظرة
بين يدي ملك المغرب المنصور يعقوب بن يوسف بين الفقيه أبي الوليد بن رشد والرئيس أبي بكر بن زهر
فقال ابن رشد لابن زهر في تفضيل قرطبة ما أدري ما تقول غير أنه إذا مات عالم بإشبيلية
فأريد بيع كتبه حملت إلى قرطبة حتى تباع فيها وإن مات مطرب بقرطبة فأريد بيع آلاته

حملت

حملت الى اشبيلية قال وقرطبة اكثر بلاد الله كتبا انتهى (وحكى) الامام ابن بشكوال عن الشيخ ابى بكر بن سعادة انه دخل مدينة طليطلة مع احيه على الشيخ الاستاد ابى بكر المخزومى قال فسألنا من اين فقلنا من قرطبة فقال متى عهدكم بها فقلنا الآن وصلنا منها فقال اقربا الى اشم نسيم قرطبة فقربا منه فشم رأسى وقبله وقال لى اكتب

أقرطبة الغراء هل لى اوبة * اليك وهل يدنو لنا ذلك العهد

سقى الجانب الغربى منك غمامة * وقعقع فى ساحات دوحاتك الرعد

لياليك أسحار وأرضك روضة * وتربك فى استنشاقها عنبر ورد

وكتب الرئيس الكاتب ابو بكر بن القبطرنة للعالم ابى الحسين بن سراج بقوله

ياسيدى وأبى هوى وجلالة * ورسول ودّى ان طلبت رسولا

عرج بقرطبة اذا بلغتها * بأبى الحسين وناده تعويلا

واذا سعدت بنظرة من وجهه * أهد السلام لكفه تقبيلا

واذكر له شوقى وشكرى مجملا * ولو استطعت شرحته تفصيلا

بتحية تهدى اليه كأنما * جرت على زهر الرياض ذيولا

وفى باب اليهود بقرطبة يقول ابو عامر بن شهيد

لقد أطلعوا عند باب اليهو * د بدرا ابى الحسن أن يكسفا

تراه اليهود على بابها * اميرا فتحسبه يوسفا

واستقبحوا قولهم باب اليهود فقالوا باب الهدى وسد كرقرطبة والزهراء والزاهرة ومسجدها فى الباب المنفرد بها ان شاء الله تعالى وكذلك القنطرة (ومن اعظم مدن الاندلس اشبيلية) قال الشقندى من محاسنها اعتدال الهواء وحسن المبانى ونهرها الاعظم الذى يصعد المد فيه اثنين وسبعين ميلا ثم يحسر وفيه يقول ابن سفر

شق النسيم عليه جيب قميصه * فانساب من شطيه يطلب ثاره

فتضاحكت ورق الحمام بدوحها * هزأ فضم من الحياء ازاره

وقيل لاحد من رأى مصر والشام ايهما رأيت احسن اهذان ام اشبيلية فقال بعد تفضيل اشبيلية شرفها غابة بلا اسد ونهرها نيل بلا تمساح انتهى (ويقال ان الذى بنى اشبيلية اسمه توليس وانه اول من سمى قيصر وانه لما دخل الاندلس اعجب بساحتها وطيب ارضها وجبالها المعروف بالشرف فردم على النهر الاعظم سكانا وأقام فيه المدينة وأحدق عليها بأسوار من صخر صلد وبنى فى وسط المدينة قصبتين بديعتى الشان تعرفان بالاخوين وجعلها أمّ قواعد الاندلس واشتق لها اسما من رومية ومن اسمه فسماها رومية توليس انتهى (وقد تقدم) شئ من هذا وكان الاولون من ملوك الاعاجم يتداولون بسكناهم اربعة بلاد من بلاد الاندلس اشبيلية وقرطبة وقرمونة وطليطلة ويقسمون ازمانهم على الكينونة بها وأما شرف اشبيلية فهو شريف البقعة كريم التربة دائم الخضرة فرسخ فى فرسخ طولا وعرضا لا تكاد تشمس فيه بقعة لالتفاف زيتونه (واعلم) أن اشبيلية لها كور جليلة ومدن كثيرة وحصون شريفة وهى من الكور المجندة نزلها جند حمص ولواؤهم فى الميمنة بعد لواء جند دمشق

وانتهت جباية اشبيلية ايام الحكم بن هشام الى خمسة وثلاثين الف دينار ومائة دينار ونيف وفي اقليم طالقة من اقاليم اشبيلية وجدت صورة جارية من مرمر معها صبي وكانت بحيث لم يسمع في الاخبار ولا رؤي في الآثار صورة أبدع منها جعلت في بعض الحمامات وعشقها جماعة من العوام * وفي كورة ماردة حصن سنت افرج في غاية الارتفاع لا يعلوه طائر البتة لا نسر ولا غيره (ومن عجائب الاندلس) البلاط الاوسط من مسجد جامع اقليش فان طول كل جائزة منه مائة شبر وأحد عشر شبرا وهي مربعة منحوتة منقوشة الاطراف (وقال بعض من وصف اشبيلية) انها مدينة عامرة على ضفة النهر الكبير المعروف بنهر قرطبة وعليه جسر مربوط بالسفن وبها اسواق قائمة وتجارات رابحة وأهلها ذوو اموال وأكثر متاجرهم الزيت وهو يشتمل على كثير من اقليم الشرف واقليم الشرف على تل عال من تراب احمر مسافته اربعون ميلا في مثلها يمشي فيه السائر في ظل الزيتون والتين ولها فيما ذكر بعض الناس قرى كثيرة وكل قرية عامرة بالاسواق والديار الحسنة والحمامات وغيرها من المرافق (وقال صاحب مناهج الفكر) عند ذكر اشبيلية وهذه المدينة من احسن مدن الدنيا وبأهلها يضرب المثل في الخلاعة وانتهاز فرصة الزمان الساعة بعد الساعة ويعينهم على ذلك واديها النهر ونادمها البهج وهذا الوادي يأتيها من قرطبة ويجزر في كل يوم وبها جبل الشرف وهو تراب احمر طوله من الشمال الى الجنوب اربعون ميلا وعرضه من المشرق الى المغرب اثنا عشر ميلا يشتمل على مائتين وعشرين قرية قد التحفت باشجار الزيتون و[illegible] * ولكورة باجة من الكور الغربية التي كانت من اعمال اشبيلية ايام بني عباد خاصية في دباغة الادم وصناعة الكتان وبها معدن فضة وبها ولد [illegible] وهي متصلة بكورة ماردة وجبل طارق [illegible] الى طارق مولى موسى بن نصير اذ كان اول ما حل به مع المسلمين من بلاد الاندلس عند الفتح ولذا يعرف بجبل الفتح وهو مقابل الجزيرة الخضراء وقد تحزمت العرب هنالك بالتشييد حتى صار كأن هذا الجبل كالناظر للجزيرة الخضراء وفيه يقول مطرف شاعر غرناطة

وأورد قد ألقى على البحر نفسه • فأصبح عن ورد الجبال بمعزل
يعرض عن الآفاق وجها كأنما • يراقب عينا كوكب متنزل

واذا اقبل عليه المسافرون من جهة سبتة في البحر بان كأنه سرج قال ابو الحسن علي ابن موسى بن سعيد اقلعت عليه زمع والدي فنظرنا اليه على تلك الصفة فقال والدي أجز

انظر الى جبل الفتح راكبا من عل   فقلت
وقد نهج مثل الاذان في شكل سرج

(وأما جزيرة طريف) فليست بجزيرة وانما سميت بذلك الجزيرة التي أمامها في البحر مثل الجزيرة الخضراء وطريف الذي نسبت اليه بربري من موالي موسى بن نصير ويقال ان موسى بعثه قبل طارق في اربعمائة رجل فنزل بهذه الجزيرة في رمضان سنة احدى وتسعين وبعده دخل طارق والله اعلم (ومن اعظم كور الاندلس) كورة طليطلة وهي من متوسط الاندلس وكانت دار مملكة بني ذي النون من ملوك الطوائف وكان ابتداء ملكهم صدر المائة الخامسة

وحماها

وسماها قيصر بلسانه بزليطلة وتأويل ذلك انت فارح فعربتها العرب وقالت طليطلة وكانوا يسمونها وجهاتها في دولة بني امية بالثغر الادنى ويسمون سرقسطة وجهاتها بالثغر الاعلى وتسمى طليطلة مدينة الاملاك لانها فيما يقال ملكها اثنان وسبعون انسانا ودخلها سليمان بن داود عليهما السلام وعيسى ابن مريم وذو القرنين وفيها وجد طارق مائدة سليمان وكانت من ذخائر اشبان ملك الروم الذي بنى اشبيلية اخذها من بيت المقدس كما مر وقومت هذه المائدة عند الوليد بن عبد الملك بمائة ألف دينار وقيل انها كانت من زمرد أخضر ويقال انها الآن برومة والله اعلم بذلك ووجد طارق بطليطلة ذخائر عظيمة منها مائة وسبعون تاجا من الدر والياقوت والاحجار النفيسة وايوان ممتلئ من اواني الذهب والفضة وهو كبير حتى قيل ان الخيل تلعب فيه فرسانها بارماحهم لوسعه وقد قيل ان اواني المائدة من الذهب وصحافها من اليشم والجزع وذكروا فيها غير هذا مما لا يكاد يصدقه الناظر فيه * ولطليطلة بساتين محدقة وأنهار مخترقة ورياض وجنان وفواكه حسان مختلفة الطعوم والالوان ولها من جميع جهاتها اقاليم رفيعة ورساتيق مريعة وضياع بديعة وقلاع منيعة وبالجملة فمحاسنها كثيرة ولعلنا نلم ببعض منتزهاتها فيما يأتي من هذا الكتاب ان شاء الله تعالى * وطليطلة قاعدة ملك القوطيين وهي مطلة على نهر باجة وعليه كانت القنطرة التي يعجز الواصفون عن وصفها وكانت على قوس واحد تكنفه فرجتان من كل جانب وطول القنطرة ثلثمائة باع وعرضها ثمانون باعا وخربت ايام الامير محمد لما عصى عليه اهلها فغزاهم واحتال في هدمها وفي ذلك يقول الحكيم عباس بن فرناس

اضحت طليطلة معطلة * من اهلها في قبضة الصقر
تركت بلا اهل تؤهلها * مهجورة الاكناف كالقبر
ما كان يبقي الله قنطرة * نصبت لحمل كتائب الكفر

وسيأتي بعض أخبار طليطلة (ومن مشهور مدن الاندلس المرية) وهي على ساحل البحر ولها القلعة المنيعة المعروفة بقلعة خيران بناها عبد الرحمن الناصر وعظمت في دولة المنصور ابن ابي عامر وولي عليها مولاه خيران فنسبت القلعة اليه وبها من صنعة الديباج ما تفوق به على سائر البلاد وفيها دار الصناعة وتشتمل كورتها على معدن الحديد والرخام ومن أبوابها باب العقاب عليه صورة عقاب من حجر قديم عجيب المنظر (وقال بعضهم) كان بالمرية لنسج طرز الحرير ثمانمائة نول وللحلل النفيسة والديباج الفاخر ألف نول وللاسقلاطون كذلك وللثياب الجرجانية كذلك وللاصفهانية مثل ذلك وللعتابي والمعاجر المدهشة والستور المكللة ويصنع بها من صنوف آلات الحديد والنحاس والزجاج ما لا يوصف وفاكهة المرية يقصر عنها الوصف حسنا وساحلها افضل السواحل وبها قصور الملوك القديمة العريبة العجيبة وقد ألف فيها ابو جعفر بن خاتمة تاريخا سماه مزية المرية على غيرها من البلاد الاندلسية في مجلد ضخم تركته من جملة كتبي بالمغرب والله سبحانه المسؤل في جمع الشمل فله الامر من بعد ومن قبل * ووادي المرية طوله اربعون ميلا في مثلها كلها بساتين بهجة وجنات نضرة وأنهار مطردة وطيور مغردة (قال بعضهم) ولم يكن في بلاد الاندلس اكثر مالا من اهل

المرية ولا أعظم منها تجارة وكان بها من الحمامات والفنادق نحو الألف وهي بين جبلين
بينهما خندق معمور وعلى الجبل الواحد قصبتها المشهورة بالحصانة وعلى الآخر ربضها
والسور محيط بالمدينة والربض وغربيها ربض يسمى ربض الحوض ذو فنادق
وحمامات وخانات وصناعات وقد استدار بها من كل جهة حصون مرتفعة وأحجار
أولية وكأنما غربلت أرضها من التراب * ولها مدن وضياع عامرة متصلة الأنهار
انتهى (وقال ابن اليسع) عند ذكر مدينة شنترين إن من خواصها أن القمح والشعير يزرعان
بها ويحصدان عند مضي أربعين يوما من زراعته وإن التفاح بها دور كل واحدة ثلاثة
أشبار وأكثر قال لي أبو عبد الله البكوري وكان فقيها أشرف عند المعتمد بن عباد
رجل من أهل شنترين أهدى إليه أربعا من التفاح ما يقدر الحامل على رأسه غير واحدة وكل
واحدة خمسة أشبار وذكر الرجل بحضرة ابن عباد أن الفقهاء عندهم أقل من هذا فإذا
أرادوا أن يجنى بهذا العظم وهذا القدر قطعوا أصلها وأبقوا منه غصنا أو اثنين وحملوا
عليها دعامات من الخشب انتهى * ويعمل بشنش على مرحلة من المرية الثوب الكبير ومنها
الحرير والقرمز ويعرف واديها بوادي طرش * ويعرف مالقة بجبل سهيل وهو جبل عظيم
كثير الضياع وفيه جبل سهيل لا يرى نجم سهيل بالأندلس إلا منه (ومن كور الأندلس
الشرقية تدمير) وتسمى مصر أيضا لكثرة شبهها بمصر لأنها أرض يسيح عليها نهر في وقت
مخصوص من السنة ثم ينضب عنها فيزرع كما يزرع أرض مصر وصارت القصبة بعد تدمير
مرسية وتسمى البستان لكثرة جنانها المحيطة بها ولأنها نهر يشق في قلبها * واعلم أن
جزيرة الأندلس أعادها الله للإسلام مشتملة على وسط وشرق وغرب * فالوسط منها من
القواعد المشهورة التي كل واحدة منها مملكة مستقلة أنها أعمال دحام واطار سه
قرطبة وطليطلة وجيان وغرناطة والمرية ومالقة فمن أعمال قرطبة إستجة وبلكونة
وقبرة وغافق والمدور وإستبة وشانة والسانة والقصر وغيرها ومن أعمال طليطلة
وادي الحجارة وقلعة رباح وطلبيرة وغيرها ومن أعمال جيان أبدة وبياسة وبسطة وغيرها
ومن أعمال غرناطة وادي آش والمنكب ولوشة وغيرها ومن أعمال المرية أندرش وغيرها
ومن أعمال مالقة بلش والحامة وغيرهما وبلش من القرى كثيرة وبالحامة العين
الحارة على ضفة واديها * وأما شرق الأندلس ففيه من القواعد مرسية وبلنسية ودانية
والسهلة والثغر الأعلى فمن أعمال مرسية أوريولة ولقنت ولورقة وغير ذلك ومن أعمال
بلنسية شاطبة التي يضرب بحسنها المثل ويعمل بها الورق الذي لا نظير له وجزيرة شقر وغير
ذلك وأما دانية فهي شهيرة وأما أعمال وأما السهلة فإنها متوسطة بين بلنسية وسرقسطة
ولها عدة حصون من كور الثغر الأعلى ولها مدن وحصون ومن أعمال الثغر الأعلى
سرقسطة وهي أم ذلك الثغر وكورة لاردة وقلعة رباح وتسمى بالمصا وكورة تطيلة ودسها
طرسونة وكورة وشقة ومدينتها غرنطة وكورة مدينة سالم وكورة قلعة أيوب ومدينتها البلاطة
وكورة برطانية وكورة باروشة * وأما غرب الأندلس ففيه إشبيلية وماردة وأشبونة وشلب
فمن أعمال إشبيلية قرمونة والجزيرة ولبلة وغيرها ومن أعمال ماردة بطليوس ويابرة

وغيرها

وغيرها ومن أعمال اشبونة شنترين وغيرها ومن أعمال شلب شنترية وغيرها (وأما الجزر البحرية بالاندلس) فمنها جزيرة قادس وهي من أعمال اشبيلية وقال ابن سعيد انها من كورة شريش ولا منافاة لان شريشا من أعمال اشبيلية كما مر قال ويد صنم قادس مفتاح ولما ثار بقادس ابن اخت القائد أبي عبد الله بن ميمون وهو علي بن عيسى قائد البحر بها ظن أن تحت الصنم مالا فهدمه فلم يجد شيأ انتهى وهي اعني جزيرة قادس في البحر المحيط وفي المحيط الجزائر الخالدات السبع وهي غربي مدينة سلا تلوح للناظر في اليوم الصاحي الخالي الجو من الابخرة الغليظة وفيها سبعة أصنام على أمثال الآدميين تشير أن لا عبور ولا مسلك وراءها وفيه بجهة الشمال جزائر السعادات وفيها من المدن والقرى ما لا يحصى ومنها يخرج قوم يقال لهم المجوس على دين النصارى أولها جزيرة برطانية وهي بوسط البحر المحيط بأقصى شمال الاندلس ولا جبال فيها ولا عيون واعا يشربون من ماء المطر ويزرعون عليه (وقال ابن سعيد) وفيه جزيرة شلطيش وهي آهلة وفيها مدينة وبحرها كثير السمك ومنها يحمل مملحا الى اشبيلية وهي من كورة لبلة مضافة الى عمل أونبة انتهى (وقال بعضهم) لما جرى ذكر قرطاجنة من بلاد الاندلس ان الزرع في بعض أقطارها يكتفي بمطرة واحدة وبها اقواس من الحجارة المقربصة وفيها من التصاوير والتماثيل وأشكال الناس وصور الحيوانات ما يحير البصر والبصيرة ومن اعجب بنائها الدواميس وهي أربعة وعشرون على صف واحد من حجارة مقربصة طول كل داموس مائة وثلاثون خطوة في عرض ستين خطوة وارتفاع كل واحد أكثر من مائتي ذراع بين كل داموسين أنقاب محكمة تتصل فيها المياه من بعضها الى بعض في العلو الشاهق بهندسة عجيبة واحكام بديع انتهى (قلت) أظن هذا غلطا فان قرطاجنة التي بهذه الصفة قرطاجنة افريقية لا قرطاجنة الاندلس والله أعلم (وقال صاحب مناهج الفكر) عند ما ذكر قرطاجنة وهي على البحر الرومي مدينة قديمة بقي منها آثارها الخص طوله ستة أيام وعرضه يومان معمور بالقرى انتهى وذكر قبل ذلك في لورقة أن بناحيتها يوجد حجر اللازورد وفي البحر الشامي الخارج من المحيط جزيرتي ميورقة ومنورقة وبينهما خمسون ميلا وجزيرة ميورقة مسافة يوم بها مدينة حسنة وتدخلها ساقية جارية على الدوام وفيها يقول ابن اللبانة

بلد أعارته الحمامة طوقها * وكساه حلة ريشه الطاوس
فكأنما الانهار فيه مدامة * وكأن ساحات الديار كؤس

وقال يخاطب ملكها ذلك الوقت

وغمرت بالاحسان ارض ميورقة * وبنيت ما لم يبنه الاسكندر

وجزيرة يابسة * واستقصاء ما يتعلق بهذا الفصل يطول ولو تتبع لكان تأليفا مستقلا وما أحسن قول ابن خفاجة

ان للجنة بالاندلس * مجتلى حسن وريا نفس
فسنا صبحتها من شنب * ودجى ليلتها من لعس
واذا ما هبت الريح صبا * صحت واشوقي الى الاندلس

وقال بعضهم في طليطلة

زادت طليطلة على ما حدّثوا * بلد عليه نضرة ونعيم
الله زيّنه فوشّح خصره * نهر المجرة والغصون نجوم

ولا حرج أن أوردنا هنا ما خاطب به أديب الأندلس أبو بحر صفوان بن إدريس الأمير عبد
الرحمن ابن السلطان يوسف بن عبد المؤمن بن علي فإنه مناسب (ونصه) مولاي أمتع الله
بمقامك الزمان وأبناءه . كما أمتع على يديك أحسابهم وأنباءه . وأوصل لك ما يشتهي من الأمن
والأمان كما نظم فلا ينخرط على لسانه الدهر بنظم الجمان فإنك الملك الهمام والقمر التمام
الكامل غرره وحجول ونزيه بهام في صفحات الدهر يجول ألست الزعيم برود الثناء
فتسابقك من نشر عرفي وناهيك دعوات تلذّ لها بالنعمى فكم للناس من أياديك
وأيامن وللأنام من لوعة فقد وهيام وللأقطار من لباناتك ندى وأوطار وللبلاد ن
نزاع على مثل لها وجلاد يعتبرون حقك الكريم على الله ويعتبرون وينشرون
في رياض ذكرك العاطر غداة حفل ويصطفون كل حرب عقائدهم ويحبون محبة ن الله
ألسنا نطلك حتى على الجهاد وبغير أمور انطوى به ألسنة السيوف على أفواه الأغماد و ن
ا ر ... ألسنة الله رواداها ومن طوى حسن سنة ندب الله بالجمل أعادها وأبداها
ومن قدم صالحا فلا بد أن يوازيه ومن يعمل المثقال ذرة يجازيه ولما اختص مثل من
الأندلس الأمصار وطال بها الوقوف على حفل والأمصار كلها تفصح قولا وتقول
أنا أحق وأولى ويصغي إلى إجابة دعوته وتلبي وبتلاوة أسرار ذلك ما كان من حزن
حمى غطا وكادت تنفطر وقال ما أوهم يريدون ويبغون ويطمعون ويحرصون
أن يغفروا الأمل وإن هم الأحرصون ألهم السهم الأسد والساعد الأشد والفخر الذي
تعاقب عليه الجزر والمد أنا مصر الأندلس والنيل نهري وبما في الناس والنجوم زهري
إن تحاربهم في ذلك الشرف فحسبي أن أقص في ذلك الشرف وإن تحججتم بأشرف
الدوس فأي أرار ... كيسوس إلى ما يستمن أشبه رحاب ورقص يسعى
بصفرته في السحاب فقلما نرهراني وهاداو نجادا وتوشح بسيف نهري عن أدنى
نجادا فأنا أولاكم بسيدنا الهمام وأحق الآن يختص الحق (فنطر بها وطمه سرا)
وقال لقد كرر برا ونثرت في العصر الأصم درا كلام العدا سرت من الهذيان
وأبى للإيضاح والبيان من استحال المستنبع مستحقا ومن أودع أجفان
المعمور وسنا أدس زيه بنور حلوه أحسنا باعتالمرا كره يقدم على الإسنة
وللأمصار تفضل على الأئمة إن ادعيتم نسبا فعبد الله جدي وأبي لي النسب الطاهر
الشريف والاسم الذي ضربت عليه رواقه العريف في معنى عقل الرجال الأفاضل
ولرغم أنف المناضل وفي جامعي مشاهد أهل البدر فحسبي من ساحة البدر فالأحد
أن يسار على عهد السيد الأعلى ولا أرضى له أن يوطئ غيري أنعلا فأتوا إلى
بالأدو وأنا دوا لي على حكم السوة ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة وكفروا
عن ساريكم ذلكم خير لكم عند بارئكم (فقالت غرناطة) لي المعقل الذي يمنع سكانه

من النجوم ولا تجرى الا تحته جياد الغيث السجوم فلا يلحقنى من معاند ضرر ولا حيف ولا يهتدى الى خيال طارق ولا طيف فاستسلموا قولا وفعلا فقد أفلح اليوم من استعلى لى بطاح تقلدت من جداولها أسلاكا وأطلعت كواكب زهرها فعادت أفلاكا ومياه تسيل على أعطافى كادمع العشاق وبرد نسيم يردّ دماء المستجير بالانتشاق حتى لا يطمع فيه ولا يحتال فدعونى فكل ذات ذيل تختال فأنا أولى بهذا السيد الاعدل ومالى به من عوض ولا بدل ولم لا يعطف على عنان مجده ويثنى وان انشد يوما فاياى يعنى

بلاد بها عق الشباب تمائمى * وأوّل ارض مس جلدى ترابها

فما لكم تعترون لفخرى وتنقون وتتأخرون فى ميدانى وتتقدمون تبرّؤا الى مما تزعمون ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون *(فقالت مالقة) أتتركونى بينكم هملا ولم تعطونى فى سيدنا أملا ولى البحر العجاج والسبل الفجاج والجنات الاثيرة والفواكه الكثيرة لدىّ من البهجة ما تستغنى به الحمام عن الهديل ولا تجنح الانفس الرقاق الحواشى الى تعويض عنه ولا تبديل فمالى لا اعطى فى ناديكم كلاما ولا انشر فى جيش فخاركم أعلاما فكانت الامصار نظرتها ازدراء فلم تر لحديثها فى ميدان الذكر اجراء لانها موطن لا يحلى منه بطائل وبطن البلاد تأوّلت فيها قول القائل

اذا نطق السفيه فلا تجبه * فخير من اجابته السكوت

(فقالت مرسية) أمامى تتعاطون الفخر وبحضرة الدرّ تنفقون الصخر ان عدّت المفاخر فلى منها الاوّل والآخر اين اوشالكم من بحرى وحرزكم من لؤلؤ نحرى وجعجعتكم من نفثات سحرى فلى الروض النضير والمرأى الذى ماله من نظير ورنقاتى التى صار مثلها فى الآفاق وتبرقع وجه جمالها بغرّة الاصفاق فمن دوحات كم الهامن بكور وروحات ومن أرجاء البها عقد أيدى الرجاء وأبنائى فيه فى الجنة الدنيوية مودعون ينعمون فيما يأخذون ويدعون ولهم فيها ما تشتهى أنفسهم ولهم فيها ما يدّعون فانقادوا لامرى وحاذروا اصطلاء جمرى وخلوا بينى وبين سيدنا ابى زيد والا ضربتكم ضرب زيد فأنا أولاكم بهذا الملك المستاثر بالتعظيم وما يلقاها الا ذو حظ عظيم *(فقالت بلنسية) فيم الجدال والقراع وعلام الاستهام والاقتراع والام التعريض والتصريح وتحت الرغوة اللبن الصريح أنا أحوزه من دونكم فاخمدوا نارى تحرّككم وهدوئكم فلى المحاسن الشامخة الاعلام والجنات التى تلقى اليها الآفاق يد الاستسلام ورصافتى وجسرى اعارض مدينة السلام فأجمعوا على الانقياد لى والسلام والا فعضوا بنانا واقرعوا أسنانا وأنا حيث لا تدركون وأنى ومولانا لا يهلكنا بما فعل السفهاء منا (فعند ذلك ارتمت جمرة تدمير بالشرار) واستمدت أسهمها بعود النشار وقالت عش رجبا ترعجبا أبعد العصيان والعقوق تهيأن الرتب ذوى الحقوق هذه سماء المفخر فمن ضمك أن تعرجى ليس بعشك فادرجى لك الوصب والخبل آلآن وقد عصيت قبل ايتها الصانعة الفاعلة من ادراك أن تضربى

وما أنت فاعله ما الذي يحدث للروض والزهر أم ما يصنع الجدول والنهر وهل يصلح العطار ما أفسد الدهر هل أنت إلا خطر بخل الماء ومرمى بالسوق الخصب به من بضاعة مزجاة لا يكتحل الطرف منه بهجوع ومن لا يسمن ولا يغني من جوع فالأمر جرى إلا ما في صفة القائل ولكن أذكرني قول القائل

فتبسمه ينبي عن الملتسلك • فتلك روض لا أحسن زهرك
وكيف يحب المرء دارا تقسمت • على صارمي جوع وفتنة مشرك

بيد أني أسأل الله تعالى أن يوفق بي بوصف ماجد وينقل من نسيت به ماجد ولا يطيل علىّ في الجهالة الأمد وإنا سبحانه يسأل أن يرشد بأمر وله مالي أوصل عوائد ومن ل صارت أعداءه في فوائد ويمكن حسامه من رقاب المعتدين ويسعه ويمد الى الدنيا والآخرة ومن الفرس ويصل له تأييدا وتسديدا ويمهد له الأيام حتى يكون الإسراء أسعد عبد وعبدا ويعد على الدنيا باسعده ويهبه ملكا لا ينبغي لأحد من بعده

آمين آمين لا أرضى بواحدة • حتى أضيف إليها ألف آمينا

ثم السلام الذي يفوق عطرا ونشرا ويأتي ووجهه بشرا على حضرتكم العلية ومطالع أنوارهم السنية الجلية ورحمة الله تعالى وبركاته * (انتهى) ولما ألم الرحالة ابن بطوطة في رحلته بذكر بلاد الأندلس أعادها الله تعالى للإسلام قال فوصلت الى بلد الأندلس حرسها الله تعالى حيث الأجر موفور للساكن والثواب مذخور للمقيم والظاعن الى ان قال ثم سافرت الى غرناطة قاعدة بلاد الأندلس وعروس مدنها وخارجها لا نظير له في الدنيا وهو مسيرة أربعين ميلا يخترقه نهر شنيل المشهور وسواه من الأنهار الكثيرة والبساتين والجنات والرياضات والقصور والكروم محدقة بها من كل جهة ومن عجيب مواضعها عين الدمع وهو جبل فيه الرياضات والبساتين لا مثل له سواها انتهى (وقال ابن سعيد) غرناطة دمشق بلاد الأندلس ومسرح الأبصار ومطمح الأنفس ولم تخل من أشراف أماثل وعلماء أكابر وشعراء أفاضل ولو لم يكن بها إلا ما خصها الله تعالى به من كونها قد نبغ فيها النساء الشواعر كنزهون القلاعية والركونية وغيرهما وناهيك بهما في الظرف والأدب انتهى (ولبعضهم) يشوق الى غرناطة فيما ذكره بعض المؤرخين والصواب أن الأبيات قيلت في قرطبة كما مر والله أعلم

أغرناطة الغرا هل لي أوبة • إليك وهل يدنو لنا ذلك العهد
سقى الجانب الغربي منك غمامة • وقعقع في ساحات روضتك الرعد
لياليك أسحار وأرضك جنة • وترب في استارها عنبر ورد

وقال ابن مالك الرعيني

رعى الله بالحمرا عيشا قطعته • ذهبت به للأنس والليل قد ذهب
ترى الأرض منها فضة فإذا اكتست • بشمس الضحى عادت سبائكها ذهب

وهو القائل

لا تطلبوا أن يرى خدا • بعدكم أو أن دمعي جدا

كيف اسلو عن اناس مثلهم * قل أن تبصر عيني احدا

(وغرناطة) من أحسن بلاد الاندلس وتسمى بدمشق الاندلس لانها أشبه شيء بها ويشقها نهر حدرة ويطل عليها الجبل المسمى بشلير الذي لا يزول الثلج عنه شتاء وصيفا ويجمد عليه حتى يصير كالحجر الصلد وفي أعلاه الازاهر الكثيرة وأجناس الافاويه الرفيعة ونزل بها أهل دمشق لما جاؤا الى الاندلس لاجل الشبه المذكور * وقرى غرناطة فيما ذكر بعض المتأخرين مائتان وسبعون قرية (وقال ابن جزى) مرتب رحلة ابن بطوطة بعد ذكر كلامه ما نصه قال ابن جزى لولا خشية أن انسب الى العصبية لاطلت القول في وصف غرناطة فقد وجدت مكانه ولكن ما اشتهر كاشتهارها لا معنى لاطالة القول فيه ولله در شيخنا أبي بكر محمد بن شبرين السبتي نزيل غرناطة حيث يقول

رعى الله من غرناطة متبوأ * يسر حزينا أو يجير طريدا
تبرم منها صاحبي عندما رأى * مسارحها بالثلج عدن جليدا
هي الثغر صان الله من اهلت به * وما خير ثغر لا يكون برودا انتهى

* وقال ابن سعيد عند ما جرى ذكر قرية نارجة وهي قرية كبيرة تضاهي المدن قد أحدقت بها البساتين ولها نهر يفتن الناظرين وهي من أعمال مالقة انه اجتاز مرة عليها مع والده ابي عمران موسى وكان ذلك زمان صباغة الحرير عندهم وقد ضربوا في بطن الوادي بين مقطعاته خيما وبعضهم يشرب وبعضهم يغني ويطرب وسأل والدي بعض ذلك الموضع فقالوا الطرار فقال والدي اسم طابق مسماه ولفظ وافق معناه

وقد وجدت مكان القول ذا سعة * فان وجدت لسانا قائلا فقل

ثم قال أجز

نارجة حيث الطرار المنمنم فقلت أقم فوق نهر ثغره يتبسم
وقال وسمعك نحو الهاتفات فانها فقلت لما ابصرت من بهجة تترنم
وقال ايا جنة الفردوس لست بآدم فقلت فلا يك حظي من جناك التندم
وقال يعز علينا أن نزورك مثل ما فقلت نزور خيال من سليمى مسلم
وقال فلو أني أعطى الخيار لما عدت فقلت محلك لي عين عراك تنعم
وقال بحيث الصبا والطل من نسماتها فقلت وحيث لسع روض فيه للنهر أرقم
وقال فوا أسفي ان لم تكن لي عودة فقلت فكن مالكا اني عليك متمم
وقال فأحسب هذا آخر العهد بيننا فقلت وقد يلحظ الرحمن شوقي فيرحم
وقال سلام سلام لا يزال مرددا فقلت عليك ولا زالت بك السحب تسجم انتهى

(وقال ابن سعيد) ان كورة بلنسية من شرق الاندلس ينبت بها الزعفران وتعرف بمدينة التراب وبها كمثرى تسمى الاررة في قدر حبة العنب قد جمع مع حلاوة الطعم ذكاء الرائحة اذا دخل دارا عرف بريحه ويقال ان ضوء بلنسية يزيد على ضوء سائر بلاد الاندلس وبها امارة ومسارح ومن أبدعها وأشهرها الرصافة ومنية ابن أبي عامر * وقال الشريف ابو جعفر بن مسعدة الغرناطي من أبيات فيها

طريانة فانها من مدن اشبيلية ومتنزهاتها وكذلك تيطل فقد ذكر ابن سعيد جزيرة تيطل في المتنزهات (وقال ابو عمران) موسى بن سعيد في جوابه لابي يحيى صاحب سبتة لما استوزره مستنصر بني عبد المؤمن وكتب الى المذكور يرغبه في النقلة عن الاندلس الى مراكش مانصه محل الحاجة منه وأما ماذكر سيدي من التخيير بين ترك الاندلس وبين الوصول الى حضرة مراكش فيكفي الفهم العالي من الاشارة قول القائل

والعز محمود وملتمس * وألذه ما كان في الوطن

فاذا نالت بك السماء في تلك الحضرة فعلى من أسود فيها ومن ذا اضاهي بها

لا ارتقت بي همة ان لم اكن * فيك قد أملت كل الامل

وبعد هذا فكيف افارق الاندلس وقد علم سيدي أنها جنة الدنيا عاحماها الله به من اعتدال الهواء وعذوبة الماء وكثافة الافياء وأن الانسان لا يبرح فيها بين قرة عين وقرار نفس

هي الارض لا ورد لديها مكدر * ولا ظل مقصور ولا روض مجدب

افق صقيل وبساط مدبج وماء سائح وطائر مترنم المليل وكيف يعدل الاديب عن ارض على هذه الصفة فياسمو أل الوفاء ويا حاتم السماح ويا جذيمة الصفاء كمل لي آمالك المعممة بتركه في موطنه غير مكدر لخاطره بالتحرك من معدنه متلفتا الى قول القائل

وسولت لي نفسي أن افارقها * والماء في المزن اصفى منه في الغدر

فان اغنى اهتمام مؤمله عن ارتياد المراد وبلغه دون أن يشد قتبا ولا أن ينضي عيسا غاية المراد انشد ناجح المرغوب بالغ المطلوب

وليس الذي يتبع الوبل رائدا * كمن جاءه في داره رائد الوبل

ورب قائل اذا سمع هذا التبسط على الاماني ماله تشطط وعدل عن سبيل التأدب وتبسط ولا جواب عندي الا قول القائل

فهذه خطة ما زلت ارقبها * فاليوم ابسط آمالي وأحتكم

ومالي لا انشد ما قاله المتنبي في سيف الدولة

ومن كنت بحر اله يا على لم يقبل الدر الا كبارا

انتهى المقصود منه (وقال الحجاري) ان مدينة شريش بنت اشبيلية وواديها ابن واديها مااشبه سعدي بسعد وهي مدينة جليلة ضخمة الاسواق لاهلها همم وظرف في اللباس واظهار الرفاهية وتخلق بالآداب ولا تكاد ترى بها الا عاشقا ومعشوقا ولها من الفواكه مايعم ويفضل ومما اختصت به احسان الصنعة في المجبنات وطيب جبنها يعين على ذلك ويقول اهل الاندلس من دخل شريش ولم يأكل بها المجبنات فهو محروم انتهى والمجبنات نوع من القطائف يضاف اليها الجبن في عجينها وتقلى بالزيت الطيب * وفي شلب يقول الفاضل الكاتب ابو عمرو بن مالك بن سيد مير

أشجاك النسيم حين يهب * أم سنا البرق اذ يخب ويخبو

أم هتوف على الاراكة تشدو * أم هتون من الغمامة سكب

سلام كريم عليكم ورحمة الله وبركاته أما بعد حمد الله المرشد المنيب السميع المجيب معود اللطف الخفي والصنع العجيب المتكفل بانجاز وعد النصر العزيز والفتح القريب والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد رسوله ذى القدر الرفيع والعز المنيع والجناب الرحيب الذى به نرجو ظهور عبدة الله على عبدة الصليب ونستظهر منه على العدو بالحبيب ونعده عدتنا لليوم العصيب والرضا عن آله وصحبه الذين فازوا من مشاهدته بأوفى النصيب ورموا الى هدف مرضاته بالسهم المصيب فانا كتبناه اليكم كتب الله تعالى لكم عملا صالحا يختم الجهاد صحائف برّه وتتمحض لان تكون كلمة الله هى العليا جوامع أمره وجعلكم ممن تهنى فى الارض التى فتح فيها أبواب الجنة مسدة عمره من حمراء غرناطة حرسها الله تعالى ولطف الله هامى السحاب وصنعه رائق الجناب والله يصل لنا ولكم ماعوّده من صلة لطفه عند ابتات الاسباب والى هذا أيها المولى الذى هو بركة المغرب المشار اليه بالبنان وواحده فى رفعة الشان المؤثر ما عند الله على الزخرف الفتان المتقلل من المتاع الفان المستشرف الى مقام العرفان من درج الاسلام والايمان والاحسان فاننا المأثوره من برّكم الذى نعده من الامر الاكيد ونصره من ودّكم الذى نحله محل الكنز العتيد ونلتمسه من دعائكم التماس العدة والعديد لانزال نسأل عن احوالكم التى ترقت فى أطوار السعادة ووصلت جناب الحق بهجر العادة وألقت الى يد التسليم لله والتوكل عليه بالمقادة فسرّنا ما هيأ الله تعالى لكم من القبول وبلغكم من المأمول وألهمكم من الكلف بالقرب اليه والوصول والعزوف عن الدنيه والحصول وعندما ردّ الله تعالى علينا ملكنا الرد الجميل وأنالنا فضله الجزيل وكان لغبارنا المقيل خاطبناكم بذلك لمكانكم من ودادنا ومحلكم من حسن اعتقادنا ووجهنا الى وجهة دعائكم وجه اعتدادنا والله ينفعنا بجميل الظن فى دينكم المتين ووصلكم المبين ويجمع الشمل بكم فى الجهاد عن الدين وتعرفنا الآن بنزله بأسائكم اعتناء وعلى جلالكم حمدوثناء ولجنابكم ودّكم اعتراء واعتناء يتحاول عزمكم بين حج مبرور ترغبون من أجره فى ازدياد وتجددون العهد منه بالنف اعتياد وبين رباط فى سبيل الله وجهاد وتوثيرمهاد بين ربا اثيرة عند الله ووهاد يحشر يوم القيامة شهداؤها مع الذين انعم الله عليهم من النبيين والصديقين فرحين بما آتاهم الله من فضله والله اصدق القائلين الصادقين حيث لاغارة لغير عدو الاسلام تتقى الا لابتغاء ما لدى الله ترتقى حيث رحمة الله قد فتحت أبوابها وحور الجنان قد زينت اترابها دار العرب للذين قرعوا باب الفتح وفازوا بجزيل المنح وخلدوا الآثار وأرغموا الكفار وأقالوا العثار وأخذوا الثار وأمنوا من لفح جهنم عملا على وجوههم من ذلك الغبار فكتبنا اليكم هذا نقوى بصيرتكم على جهة الجهاد من العزمين ونهيب بكم الى احدى الحسنيين والصبح غير خاف على ذى عينين والفضل ظاهر لاحدى المنزلتين فانكم ان حججتم أعدتم فرضا أديتموه وفضلا ارتديتموه فائدته عليكم مقصورة وقضيته فيكم محصورة واذا اقمتم الجهاد جلتم الى حسناتكم عملا غريبا واستأنفتم سعيا من الله قريبا وتعدت للمنفعة الى الوف من النفوس المستشعرة لباس البوس ولو كان الجهاد بحيث يخفى عليكم فضله لاطنبنا وأعنة الاستدلال

ارسلنا هذا الوفد منهم على هذا الوطن وصلكم عمل من الاستبصار وفي نية لو توجب استنفاركم
رفيع المقدار فكيف وصلكم امر من شحنا النهار ولعلكم اسمى الآمال وآثر الاوطار
فان قوى عزمكم والله يقويه وتعاضت نيتكم على ما تنويه فالبلاد بلادكم وما فيها طارفكم
وتلادكم وكهولها اخوانكم وأحداثها أولادكم وبرضوان تجدوا الذكر كم انه في زمانها
حلاوة زائد ولا تعدموا من روح الله فيها فائدة وتكيف ... نكمات تصرعها
حلاوات السلوك الى ملك الملوك حتى تحظوا بفضل الله الذي يولكم وتروا أثر رحمته فيكم
وتعلموا اجر هذا الانقطاع الى الله في سبلكم ونيتكم وتحموا العمر الطيب بالجهاد الذي
نعلمكم ومن الله تعالى يا نبيكم نبيكم العربي صلوات الله عليه وسلامه نبي الرحمة والملاحم
ومعمل الصوارم وجهاد الهرج حتم على جهاد والاعمال بالخواتم هذا على بعد بلادهم
في لرد وانهم احق الناس بامضا جهاد والاشتياق الى آماد هذا ما يدعانا حسابكم
عليه ونداكم اليه وانتم في اختيار هذا الجوار ومفارقة ما عندنا بانفذ ومكم على بلادنا
من الاستبصار بحسب ما يخلق عنكم من بعد مقاد الاخبار ويصرف الليل والنهار
وتقلب القلوب واحالة الافكار واذا تعارضت الخواطر فما عند الله خير للابرار والدار
الآخرة دار القرار وخير الاعمال عمل اوصل الى الجنة وباعد من النار ولعلوا ان يوس
اهل الكشف والاطلاع بهذه الارض والاصقاع قد انتشرت اخبارها واعتذب أسرارها
على السنة قرب أوانه واطل زمانه فرجوا الله أن تكونوا ممن يحضر مدعا وتكرم
مسعاه ونسبق منه العمل الذي يشكر الله ورعا والسلام الكريم يخصكم ورحمة
الله وبركاته انتهى * ولما دخل الاندلس أمير المسلمين علي بن أمير المسلمين يوسف بن تاشفين
اللمتوني ملك المغرب والاندلس ورأى من المطر فيها وتأمل وصفها وحالها قال ان انسه عماما
خالية طليطلة وصدر قلعة رياح ورأسه جيان ومنقار غرناطة وجناحه الايمن باسطا الى
المغرب وجناحه الايسر باسطا الى المشرق في خرطوم بل لم تعتبر في الآن ادركه مع كثي
بالمغرب حمى الله بها على أحسن الاحوال * ومع كون أهل الاندلس سابقين حلبة الجهاد
مهتلفين الى داعيه من الجبال والوهاد فكان لهم في الظرف والنعم والخرف ومدارا
الشعرا خوف الهجا محل ورتبة المهاد وسيأتي في الباب السابع من هذا القسم من ذلك
وغيره ما يشفي ويكفي ولكن سنح لي أن اذكرها حكاية أبي بكر المخزومي الهجا المشهور الذي
قال فيه لسان الدين بن الخطيب في الاحاطة انه كان اعمى شديد الشر معروفا بالهجا مسلطا
على الاعراض سريع الجواب ذكي الذهن فطنا للمعارضين سابقا في ميدان الهجا فاذا مدح
ضعف شعره (والحكاية هي) ما حكاه أبو الحسن بن سعيد في الطالع السعيد قال حكاية
عن ابيه لما طن قدوم المذكور نعي المخزومي على غرناطة ايام ولاية أبي بكر بن سعيد ونزل
في ... وكتب اسمع به ... رسلها الله على من يشاء من عباده ثم رأيت أن ابدأ
بالتأنيس والاحسان فاستدعيته بهذه الابيات

يا ثانيا للمعري * في حسن نظم ونثر
وفرط ظرف ونبل * وغوص فهم وفكر

صل ثم واصل حمدا * بكل برّ وشكر
وليس الا حديث * كمازهاعقد درّ
وشادن يتغنى * على رباب وزمر
وما يساعد فيه الشعور من كاس خمر
وبيننا عهد حلف * ليانسر حلف كفر
نعم نجدّده عهدا * بطيب شكر ويسر
والكاس مثل رصاع * ومن كمثلك يدرى

ووجه له الوزير أبو بكر بن سعيد عبدا صغيرا قاده فلما استقربه المجلس وأفعمته روائح الند والعود والازهار وهزت عطفه الاوتار قال

دار السعيدي ذي ام دار رضوان * ماتشتهي النفس فيها حاضر داني
سقت أباريقها للندّ سحب ندى * تحدى برعد لاوتار وعيدان
والبرق من كل دن ساكب مطرا * يحيي به ميت أفكار وأشجان
هذا النعيم الذي كنا نحدّثه * ولا سبيل له الا بآذان

فقال أبو بكر بن سعيد والى الآن لا سبيل له الا بآذان فقال حتى يبعث الله ولدى كلما انشدت هذه الابيات قال انها الاعمى فقال اما انا فلا انطق بحرف فقال من صمت نجا وكانت نزهون بنت القلاعي حاضرة فقالت وتراك يا استاذ قديم النعمة بمجمر ند وغناء وشراب فتعجب من تأتيه وتشبهه بنعيم الجنة وتقول ما كان يعلم الا بالسماع ولا يبلغ اليه بالعيان ولكن من يجيء من حص المدور وينشأ بين تيوس وبقر من أين له معرفة بمجالس النعيم فلما استوفت كلامها تنحنح الاعمى فقالت له ذبحة فقال من هذه الفاضلة فقالت عجوز مقام أمك فقال كذبت ما هذا صوت عجوز انما هذه نغمة قحبة محترقة تشم روائح هنها على فراسخ فقال له أبو بكر يا استاذ هذه نزهون بنت القلاعي الشاعرة الاديبة فقال سمعت بها لا اسمعها الله خيرا ولا أراها الا أيرا فقالت له يا شيخ سوء تناقضت واى خير للمرأة مثل ماذكرت ففكر ساعة ثم قال

على وجه نزهون من الحسن مسحة * وان كان قد أمسى من الضوء عاريا
قواصد نزهون توارك غيرها * ومن قصد البحر استقل السواقيا

فأعملت فكرها ثم قالت

قل للوضيع مقالا * يتلى الى حين يحشر
من المدوّر أنشئت والخرا منه اعطر
حيث البداوة أمست * في مشيها تتبختر
لذاك أمسيت صبا * بكل شئ مدوّر
خلقت اعمى ولكن * تهيم في كل اعور
جازيت شعرا بشعر * فقل لعمرى من أشعر
ان كنت في الخلق انثى * فان شعرى مذكر

فقال لها الأعمى

الا قل لتزهو بما لها * تجرّ من التيه أذيالها

ولو أبصرت فيه شعرة * كما عوّدت في سربالها

حلف أبو بكر بن سعيد أن لا يرد أحدهما على الآخر شيئا (فقال المخزومي) أكون شيخ الأندلس وأكف عن هاذين فقال أنا أشترى منك عرضها فاطلب فقال بالعبد الذي أرسلته فبادرني إلى منزلك فإنه لي السيد وهو المنى فقال أبو بكر لولا كونه صغيرا كنت أطلقته من أجلك وأهبه لك فهو بيده وقال أحضر حلته حتى يكبر ولو كان كبيرا ما آثرت به على نفسك فضحك أبو بكر وقال إن لم يرج بطعامه هوت شرا فقال أيها الوزير لا بد بل تلوى الله وانفصل المخزومي بالعبد بعدما أصلح الوزير بينه وبين نزهون انتهى * وفي كتاب الدر المصدق وفيات أعيان أمة محمد تأليف الإمام صارم الدين إبراهيم بن دقماق قال أبو القاسم ابن خلف كان يعني المخزومي المذكور حيا بعد الأربعين وخمسمائة انتهى * ونقلت من كتاب قلب السرور لابن الرقيق المغربي ما نظمه وممن أدركته وعاشرته عبد الوهاب ابن حسين بن جعفر الحاجب وذكره هنا لأنه يلحق بالأمراء المتقدمين عن خارج منهم ولا مقصر عنهم لأن كان واحد عصره في الغناء الرائق والأدب الرائع والشعر الرقيق واللفظ الأنيق ورقة الطبع وإصابة النادر والسيرة المهذبة والبديهة التي لا تلحق مع شرف النفس وعلو الهمة وكان قد قطع عمره وأفنى دهره في اللهو واللعب والفكاهة والطرب وكان أعلم الناس بضرب العود واختلاف طرائقه وصنعة اللحون وكثيرا ما يقول المعاني الملائمة في الأسباب الحسنة ويصوغ عليها الألحان المطربة البديعة المحكمة اخترعا عامة وجدها وكانت له في ذلك قريحة وطبع وكان إذا لم يرد أحد من إخوانه احتضر مائدته وشرابه عشرين من أهل بيته منهم ولده وعبد الله ابن أخيه وقوم من غلمانه وكلهم يغني ويحسن فلا يزالون يغنون بين يديه حتى يطرب فيدعو بالعود ويغني لنفسه ولهم وكان شارب الراح الذي يزجر عليه من حداثة زمن الصرف وكان بعيد الهمة سمحا بما يحمل عليه ضياعه كل عام أموالا جليلة فلا يحول الحول حتى يفرق جميع ذلك ويسألف غيره فكان لا يطرأ من المشرق مغني الأفاضل من يعتمد هذا الشأن فيدل عليه إن وصله منهم إنسان له يصرف البر والإكرام وكسا وخلطه بنفسه ولم يدعه إلى أحد من الناس ولا يزال معه في صبوح وغبوق وهو يجدد له كل يوم كرامة حتى يأخذ جميع ما معه من صوت مطرب أو حكاية نادرة وجلس يوما وبدراره رجلان من إخوانه وحضر أدرنار فطعموا وشربوا وأخذوا في الغناء فارتج المجلس إذ دخل عليه بعض غلمانه فقال بالباب رجل غريب عليه ثياب السفر ذكر أنه مغن فأمر بإدخاله فإذا رجل أشعر شاطرت الهيئة فسلم عليه فقال أين بلد الرجل قال المصر فرحب به وأمره بالجلوس فجلس مع الغلمان في صفه وأتي بطعام فأكل وسقي أقداحا ودار الغناء في المجلس حتى انتهى إلى آخرهم فلا شك أن المدعو يغني بصوت بديع وطبع حسن

الا يا دار ما الهجر * لسكانك بي شاني

سقيت الغيث من دار * وان هيجت أشجانى
ولو شئت لما استسقيت غيثا غير اجفانى
بنفسى حل أهلوك * وان بانوا بسلوانى
وما الدهر عامون * على تشتيت خلان

فطرب عبد الوهاب وصاح وتبين الحذق فى اشارته والطيب فى طبعه وقال يا غلام خذ بيده الى الحمام ومحل على به فأدخل الحمام ونظف ثم دعا عبد الوهاب بخلعة من ثيابه فالقيت عليه ورفعه فأجلسه عن يساره وأقبل عليه وبسطه فغنى له

قومى امزجى التبر باللجين * واحتملى الرطل باليدين
واغتنمى غفلة الليالى * فربما أيقظت لحين
فقد لعمرى أقر منا * هلال شوال كل عين
ذات الخلاخيل أبصرته * كنصف خلخالها اللجين

فطرب وشرب واستزاده فغناه

من لى على رغم الحسود بقهوة * بكر ربيبة حانة عذراء
موج من الذهب المذاب تضمه * كاس كقشر الدرة البيضاء
والنجم فى أفق السماء كأنه * عين تخالس غفلة الرقباء

فشرب عبد الوهاب ثم قال ردنى فغناه

وأنت الذى أشرقت عينى بمائها * وعلمتها بالهجر أن تهجر الغمضا
وأغرقتها بالدمع حتى جفونها * ليسكر من فقد الكرا بعضها بعضا

فمر يوم من أحسن الايام وأطيبها ووصله وأحسن اليه ولم يزل عنده مقربا مكرما وكان خليعا ماجنا مشتهرا بالنبيذ خلاه وما أحب ثم وصف له الاندلس وطيبها وكثرة خمورها فمضى اليها ومات بها وعلى نحو هذه الحال كان يفعل بكل طارئ يطرأ من المشرق ولو ذكرتهم لطال بهم الكتاب انتهى وغرضى من ايراد هذه الحكاية هنا كونه وصف للمشرقى الاندلس وطيبها وذلك أمر لا يشك فيه ولا يرتاب والله المسؤل فى حسن المتاب * ورأيت فى بعض كتب تاريخ الاندلس فى ترجمة السلطان باديس الصنهاجى صاحب غرناطة ما نصه وهو الذى أكمل ترتيب قصبة مالقة وكان أفرس الناس وأبلهم دامروءة ونجدة وقصره بغرناطة ليس ببلاد الاسلام والكفر مثله فيما قيل انتهى وهذا القصر هو الذى عناه لسان الدين بن الخطيب فى قصيدته السينية المذكورة فى الباب الخامس من القسم الثانى من هذا الكتاب فلتراجع ثمة * وذكر غير واحد من المحدثين والمؤرخين أن مدينة سرقسطة لا يدخلها الثعبان من قبل نفسه واذا أدخله أحد لم يتحرك ونظير هذا المعنى فى بعض الحيوانات بالنسبة الى بعض البلاد كثير وذلك برصد أو طلسم وقد استطرد بعض علماء أصول الدين ذلك عند ما تكلموا على السحر حسبما قرر فى محله والله أعلم هكذا رأيت فى كلام بعض علماء المشارقة والذى رأيته لبعض مؤرخى المغرب فى سرقسطة أنها لا تدخلها عقرب ولا حية الا ماتت من ساعتها ويؤتى بالحيات والعقارب الهائجة فبنفس ما تدخل الى جوف البلد تموت قال ولا يسوس

قوله ومد الله

فيها شيء من الطعام ولا يعفن ويوجد بها القمح من مائة سنة والباقلاء من ستة أعوام
والتين والخوخ وحب الملوك والتفاح والأجاص اليابسة من أربعة أعوام والفول والحمص
من عشر سنين ولا يسوّس ما يخبز ولا يوجد كان صيفا أو خريفا أو كانونا وليس في بلاد
الأندلس أكثر فاكهة منها ولا أطيب طعما ولا أكثر ثمرا والسائر يجد فيها في كل ناحية
عامرة أمثال ولها أعمال كثيرة مدن وحصون وقرى سائرة الى بعض [illegible] وهي تباري
مدن العراق في كثرة الأشجار والأنهار وبالجملة فأمرها عظيم وقد أسلفنا ذكرها واعلم
ان بأرض الأندلس من الخصب والنضرة وعجائب الصنائع وغرائب الدنيا ما لا يوجد
مجموعه في البلاد غيرها في ذلك ما ذكر الحجاري في المسهب ان السمور الذي يعمل من وبر
الفراء الرفيعة يوجد في البحر المحيط بالأندلس من جهة جزيرة برطانية ويجلب الى سرقسطة
ويصنع بها وبلاد [illegible] ذكر ابن غالب وبر السمور الذي يصنع بقرطبة قال هذا السمور المذكور هنا
لم أتحقق ما هو ولا ماهيته ان كان هو ما تعهدهم أو وبر الدابة المعروفة فان كانت الدابة
المعروفة فهي دابة تكون في البحر وتخرج الى البر وعندها [illegible] وقال حامد بن سمجون
الطبيب صاحب كتاب الأدوية المفردة هو حيوان يكون في بحر الروم ولا يصاح منه الا
خصاه فيخرج الحيوان من البحر الى موضع ويقطع خصاه ويطلق [illegible] أرض للقانص
من أخرى فاذا أحس بهم وخشي أن لا ينجو منهم استلقى على ظهره وفرج بين رجليه ليرى
موضع خصييه خاليا فاذا رآه القانصون كذلك تركوه قال ابن غالب ويسمى هذا الحيوان أيضا
الجندبادستر والدواء الذي يصنع من خصيته من الأدوية الرفيعة ومنافعه كثيرة وخاصيته
في العلل الباردة وهو حار يابس في الدرجة الرابعة والسلحفاة حيوان أدنى من الأرنب
وأطيب في الطعم وأحسن وبرا و[illegible] كثيرا ما يلبس فروا وهذا يستعمله أهل الأندلس من
المسلمين والنصارى ولا يوجد في بر البربر الا ما شاء منها الى سبتة [illegible] حوانيها قال ابن
سعيد وقد جلب في هذه المدة الى تونس حين أربعة وتكون بالأندلس من الغزال
والأيل وحمار الوحش وبقر وغير ذلك مما لا يوجد غيرها كثيرا وأما الأسد فلا يوجد فيها
البتة ولا الفيل والزرافة وغير ذلك مما يكون في أقاليم الحرار وبها سبع يعرف بالليث أكبر
بقليل من الذئب في نهاية من القحة وقد يفترس الرجل اذا كان جائعا وبغال الأندلس
فارهة وخيلها ضخمة الأجسام حصون للقتال لحملها الدروع وثقال السلاح والعدو
في حمل البر الجنوبي ولها من الطيور الجوارح وغيرها ما يكثر ذكره ويطول وكذلك حيوان
البحر ودواب بحرها المحيط في نهاية من الطول والعرض قال ابن سعيد ما بت من ذلك
العجب والمسافرون في البحر يخافون منها الا تقلب المراكب فيقطعون الكلام ولها سمع
بالماء من فيها يوم في الجوذا [illegible] وقال ابن سعيد قال المسعودي في مروج
الذهب في الأندلس من أنواع الأفاويه خمسة وعشرون صنفا منها السنبل والقرنفل
والصندل والقرفة وقصب الذريرة وغير ذلك وذكر ابن غالب ان المسعودي قال أصول
الطيب خمسة أصناف المسك والكافور والعود والعنبر والزعفران وكلها من أرض الهند الا
الزعفران والعنبر فانهما موجودان في أرض الأندلس ويوجد العنبر في أرض الشحر قال

ابن

أما

ابن سعيد وقد تكلموا في أصل العنبر فذكر بعضهم أنه عيون تنبع في قعر البحر يصير منها
ما تبلعه الدواب وتقذفه قال الحجاري ومنهم من قال انه نبات في قعر البحر وقد تقدم
قول الرازي ان المحلب وهو المقدم في الافاويه والمفضل في أنواع الاشنان لا يوجد في شئ
من الارض الا بالهند والاندلس قال ابن سعيد وفي الاندلس مواضع ذكروا أن النار اذا
أطلقت فيها فاحت بروائح العود وما أشبهه وفي جبل شلير افاويه هندية قال وأما الثمار
وأصناف الفواكه فالاندلس أسعد بلاد الله بكثرتها ويوجد في سواحلها قصب السكر
والموز ويوجدان في الاقاليم الباردة ولا يعدم منها الا التمر ولها من أنواع الفواكه ما يعدم
في غيرها أو يقل كالتين القوطي والتين السفري باشبيلية قال ابن سعيد وهذان صنفان
لم ترعيني ولم أذق لهما مذ خرجت من الاندلس ما يفضلهما وكذلك التين المالقي والزبيب
المنكبي والزبيب العسلي والرمان السفري والخوخ والجوز واللوز وغير ذلك مما يطول ذكره
وقد ذكر ابن سعيد أيضا أن الارض الشمالية المغربية فيها المعادن السبعة وانها
في الاندلس التي هي بعض تلك الارض وأعظم معدن للذهب بالاندلس في جهة شنت ياقور
قاعدة ابلالقة على البحر المحيط وفي جهة قرطبة الفضة والزئبق والنحاس في شمال الاندلس
كثير والصفر الذي يكاد يشبه الذهب وغير ذلك من المعادن المتفرقة في أماكنها والعين
التي يخرج منها الزاج في لبلة مشهورة وهو كثير مفضل في البلاد منسوب لجبل طليطلة
جبل الطفل الذي يجهز الى البلاد ويفضل على كل طفل بالمشرق والمغرب وبالاندلس عدة
مقاطع للرخام وذكر الرازي أن بجبل قرطبة مقاطع الرخام الابيض الناصع اللون والجزع
وفي باشرة مقطع عجيب للعمد وساغة من مملكة غرناطة مقاطع للرخام كثيرة غريبة موشاة
في حمرة وصفرة وغير ذلك من المقاطع التي بالاندلس من الرخام الخالص والجزع وحصى المرية
يحمل الى البلاد فانه كالدر في رونقه وله ألوان عجيبة ومن عادتهم أن يصفوه في كيزان الماء
وفي الاندلس من الاصباغ التي تنزل من السماء القرمز الذي ينزل على شجر البلوط فيجمعه
الناس من الشعرى ويصبغون به فيخرج منه اللون الاحمر الذي لا تفوقه حمرة قال ابن
سعيد والى مصنوعات الاندلس ينتهي التفضيل وللمتعصبين لها في ذلك كلام كثير فقد اختصت
المرية ومالقة ومرسية بالوشي المذهب الذي يتعجب من حسن صنعته أهل المشرق اذا رأوا
منه شيأ وفي تنتالة من عمل مرسية تعمل البسط التي يغالى في ثمنها بالمشرق ويصنع في غرناطة
وبسطة من ثياب اللباس المحررة الصنف الذي يعرف بالملبد المختم ذو الالوان العجيبة
ويصنع في مرسية من الاسرة المرصعة والحصر الفتانة الصنعة وآلات الصفر والحديد من
السكاكين والامقاص المذهبة وغير ذلك من آلات العروس والجندي ما يبهر العقل ومنها
تجهز هذه الاصناف الى بلاد افريقية وغيرها ويصنع بها وبالمرية ومالقة الزجاج الغريب
العجيب والفخار المزجج المذهب ويصنع بالاندلس نوع من الفصص المعروف في المشرق
بالفسيفسا ونوع يبسط به قاعات ديارهم يعرف بالزليجي يشبه المفصص وهو ذو ألوان عجيبة
يقيمونه مقام الرخام الملون الذي يصرفه أهل المشرق في زخرفة بيوتهم كالشاذروان
وما يجري مجراه وأما آلات الحرب من التراس والرماح والسروج والالجم والدروع

والمفاخر وما كثر فيه أهل الأندلس فيما حكى ابن سعيد كانت مصروفة الى هذا الشأن وقد ع
فيها في بلاد الكفر ما يبهر العقول قال والسور المعروف بالبرذلان مشهور بالجوف وورد على آخر
بلاد الأندلس من جهة الشمال والمشرق والقولاد الذي بأسفله آية النهاية وفي أسئلة
من دقائق الصنائع ما يطول ذكره وقد أفرد ابن غالب في فرحة الأنفس للآثار الأولية
التي بالأندلس من كتابه كتابا فقال فيها ما كان من جلبهم الماء من البحر الملح الى الأرض
التي بطركونة على وزن لطيف وتدبير محكم حتى طلع به وذلك من أعجب ما صنع
ومن ذلك ما صنعه الأول أيضا من جلب الماء من البحر المحيط الى جزيرة قادس في الغرب
التي في إقليم الأصنام جلبوه في جوف البحر في الصخر المجوف ذكر ابن وشنوابه
الجبال فإذا وصلوا به الى المواضع المنخفضة والأودية نظروا على حنايا فإذا جاوزوها واتصل
بالأرض المعتدلة رجعوا الى البنيان المذكور فإذا صادف سبخة بنى له رصيفا
وأجرى عليه هكذا الى أن انتهى به الى البحر ثم دخل به في البحر وأخرج في جزيرة قادس
والبنيان الذي دخل عليه الماء في البحر ظاهر بين قال ابن سعيد الى وقتنا هذا ومنها
الرصيف المشهور بالأندلس قال في بعض أخبار رومية إنه لما ولي يوليس المعروف
بقيصر واشتد أمره بعد أن جمع الأرض وبكسرها كان ابتداء بنيان مدينة رومية الى المشرق
ثم الى المغرب والى الشمال والى الجنوب ثم بدأ بفرش البلاط واتصل بها على وسط دائر
الأرض الى أن بلغ بها أرض الأندلس وركزها شرقي قرطبة بابها المتطامن المعروف
بباب عبد الجبار ثم ابتدأها من باب العطارين في قرطبة الى شقندة الى استجة الى قرمونة
الى البحر وأقام على كل ميل سارية قد نقش عليها اسمه من مدينة رومية وذكر أنه
أراد بتسقيفها في بعض الأماكن راحة الخاطرين من وهج الصيف وهول الشتاء ثم توقع
أن يكون ذلك فسادا في الأرض وتعمير الطرق عند انتشار اللصوص وأهل الشر فيها
في المواضع المنقطعة البائنة عن العمران فتركها على ما هي عليه وذكر في هذه الآثار صنم
قادس الذي ليس له نظير إلا الصنم الذي بأرض جليقية وذكر قنطرة طليطلة وقنطرة السيف
وقنطرة ماردة وغير ذلك من قنطرة (قال ابن سعيد) وفي الأندلس عجائب منها الشجرة التي لولا
كثرة ذكر العامة لها بالأندلس ما ذكرتها فإن خبرها عندهم شائع متواتر وقد رأيت من
يشهد بخبرها ورؤيتها وهم جم غفير وهي شجرة زيتون تصبح الورق والنور والثمر في يوم
واحد معلوم عندهم من أيام السنة الشمسية * ومن العجائب السارية التي بغرب الأندلس
يزعم الجمهور أن أهل ذلك المكان إذا اشتد والمطر أقحطوا فمطر الله جهتهم * ومنها صنم
قادس طول ما كان قائما كان يمنع الريح أن تهب في البحر المحيط فلا تستطيع المراكب الكبار
على الجري فيه فلما هدم في أول دولة بني عبد المؤمن صارت السفن تجري فيه * ويكون ثم
مغارة ذكرها الرازي وحكى أنه قال إنها باب من أبواب الريح لا تدرك لها قعر * وذكر
الرازي أن في جهة لبلة ورد جبل فيه شق في صخر داخل كهف فيه فأس حديد معلق من
الشق الذي في الصخرة تراه العيون وتمسه الأيدي ومن رام إخراجه لم يطق ذلك وإذا رفعته
اليد ارتفع وغاب في شق الصخر ثم يعود الى حالته * وأما ما أورده ابن بشكوال من الأحاد ب

وأن نار

والآثار في شأن فضل الاندلس والمغرب فقد ذكرها ابن سعيد في كتابه المغرب ولم أذكرها أنا والله أعلم بحقيقة أمرها وكذلك ما ذكره ابن بشكوال من أن فتح القسطنطينية انما يكون من قبل الاندلس قال وذكره سيف عن عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه والله أعلم بصحة ذلك ولعل المراد بالقسطنطينية رومة والله أعلم قال سيف وذلك أن عثمان ندب جيشا من القيروان الى الاندلس وكتب لهم أما بعد فان فتح القسطنطينية انما يكون من قبل الاندلس فانكم ان فتحتموها كنتم الشركاء في الاجر والسلام انتهى قلت عهدة هذه الامور على ناقليها وأنا بريء من عهدتها وان ذكرها ابن بشكوال وصاحب المغرب وغير واحد فانها عندي لا أصل لها وأي وقت بعث عثمان الى الاندلس مع أن فتحها بالاتفاق انما كان زمان الوليد وانما ذكرت هذا التنبيه عليه لا غير والله أعلم (قال ابن سعيد) ومن محاسن وصف الاندلس أنها جزيرة قد أحدقت بها البحار فأكثرت فيها الخصب والعمارة من كل جهة فتى سافرت من مدينة الى مدينة لا تكاد تنقطع من العمارة ما بين قرى ومياه ومزارع والصحارى فيها معدومة ومما اختصت به أن قراها في نهاية من الجمال لتصنع أهلها في أوضاعها وتبييضها لئلا تنبو العيون عنها فهي كما قال الوزير ابن الحمارة فيها

لاحت قراها بين خضرة أيكها * كالدر بين زبرجد مكنون

ولقد تعجبت لما دخلت الديار المصرية من أوضاع قراها التي تكدر العين بسوادها وبضيق الصدر بضيق أوضاعها وفي الاندلس جهات تقرب منها المدينة العظيمة المسورة من مثلها والمثال في ذلك أنك اذا توجهت من اشبيلية فعلى مسيرة يوم وبعض آخر مدينة شريش وهي في نهاية من الحضارة والنضارة ثم يليها الجزيرة الخضراء كذلك ثم مالقة وهذا كثير في الاندلس ولهذا كثرت مدنها وأكثرها مسور من أجل الاستعداد للعدو وحصل لها بذلك التشييد والتزيين وفي حصونها ما بقي في محاربة العدو ما ينيف على عشرين سنة لامتناع معاقلها ودربة أهلها على الحرب واعتيادهم لمجاورة العدو بالطعن والضرب وكثرة ما تختزن الغلة في مطاميرها فمنها ما يطول صبره عليها نحوا من مائة سنة قال ابن سعيد ولذلك أدامها الله تعالى من وقت الفتح الى الآن وان كان العدو قد نقصها من أطرافها وشارك في أوساطها ففي البقية منعة عظيمة فأرض بقي فيها مثل اشبيلية وغرناطة ومالقة والمرية وما ينضاف الى هذه الحواضر العظيمة المسورة الرجاء فيها قوي بحول الله وقوته انتهى قلت قد خاب ذلك الرجا وصارت تلك الارجاء للكفر معرجا ونسأل الله تعالى الذي جعل للهم فرجا وللضيق مخرجا أن يعيد اليها كلمة الاسلام حتى يستنشق أهله منه فيها أرجا آمين (ومن غرائب الاندلس البيلتان اللتان بطليطلة صنعهما عبد الرحمن لما سمع بخبر الطلسم الذي بمدينة أرين من أرض الهند وقد ذكره المسعودي وانه يدور باصبعه من طلوع الفجر الى غروب الشمس فصنع هاتين البيلتين خارج طليطلة في بيت مجوف في جوف النهر الاعظم في الموضع المعروف بباب الدباغين ومن عجبهما أنهما يمتلئان وينحسران مع زيادة القمر ونقصانه وذلك أن أول استهلال الهلال يخرج فيهما يسير ماء فاذا أصبح كان فيهما سبعهما من الماء فاذا كان آخر النهار كمل فيهما نصف سبع ولا يزال كذلك بين اليوم والليلة نصف سبع حتى يكمل من

الشهر ستة أيام وسبع ليال ... فيهما نصف سبع ولا يزال كذلك الزياد نصف سبع
في اليوم والليلة حتى يكمل امتلاؤهما بكمال القمر فاذا كان في ليلة خمسة عشر وأخذ
القمر في النقصان نقصا بنقصان القمر كل يوم وليلة نصف سبع فاذا كان تسعة وعشرون
من الشهر لا يبقى فيهما شيء من الماء واذا تكلف أحد حين يمتلئان أن يملأهما وجلب لهما
الماء ابتلعا ذلك من حينهما حتى لا يبقى فيهما الا ما كان فيهما في تلك الساعة وكذا لو تكلف
عند امتلائهما افراغهما ولم يبق فيهما شيئا ثم رفع يده عنهما خرج فيهما من الماء ما يملؤهما في
الحين وهما أعجب من طلسم الهند لان ذلك في نقطة الاعتدال حيث لا يزيد الليل على النهار
وأما هاتان فليستا في مكان الاعتدال ولم تزالا في بيت واحد حتى ملك النصارى دمرهم الله
طليطلة فأراد الفنش أن يعلم حركاتهما فأمر أن يقلع الواحد منهما لينظر من أين يأتي اليهما
الماء وكيف الحركة فيهما فتلف فبطلت حركتهما وذلك سنة ٥٢٨ وقيل ان سبب فسادهما
حنين اليهودي الذي جلب حمام الاندلس كلها الى طليطلة في يوم واحد وذلك سنة ٥٢٧
وهو الذي أعلم الله من أن ولده سيدخل قرطبة ويملكها فأراد أن يكشف حركة الفلكين
فقال له أيها الملك أنا أطلقهما وأردهما أحسن مما كانتا وذلك أني أجعلهما يمتلئان بالنهار
ويجريان في الليل فلما فتحهما لم يقدر على ردهما وقيل انه قلع واحدا ليرى منها الصنعة
فتعطلت ولم يزل الجري يتعلق على حركتها والله أعلم بحقيقة الحال (وقال ياقوت) في اشبيلية
انها قاعدة بلاد الاندلس وحاضرتها ومدينة الادب واللهو والطرب وهي على ضفة النهر
الكبير عظيمة الشان طيبة المكان لها البر المديد والبحر الساكن والوادي العظيم وهي قريبة
من البحر المحيط الى أن قال ولو لم يكن لها من الشرف الا ونصع الشرف المطل لها المطل
على النهر المعروف بالزيتون الكثير المسند فراسخ في فراسخ لكفى وبها منار في جامعها بناها
يعقوب المنصور ليس في بلاد الاسلام أعظم منها وعسل الشرف يبقى حينا لا يترمل
ولا يتبدل وكذلك الزيت والتين وقال ابن مطيع ان اشبيلية عروس بلاد الاندلس لان تاجها
الشرف وفي عنقها سمط النهر الاعظم وليس في الارض أتم حسنا من هذا النهر يضاهي دجلة
والفرات والنيل تسير القوارب فيه للنزهة والسير والصيد تحت ظلال الثمار وتغريد الاطيار
أربعة وعشرين ميلا ويتعاطى الناس السرح من ناحية عشر فراسخ في عمارة متصلة
ومنارات مرتفعة وأبراج مشيدة وفيه من أنواع السمك ما لا يحصى وبالجملة فهي قد حازت
البر والبحر والزرع والضرع وكثرة الثمار من كل جانب وقصب السكر ويجتمع بها القرمز
الذي هو أجل من الهندي وبزيتونها يختزن تحت الارض أكثر من ثلاثين سنة ثم
يعصر فيخرج منه أكثر مما يخرج منه وهو طري انتهى ملخصا * ولما ذكر ابن اليسع الاندلسي
قال لا يرود فيها أحد ماء جب بسلسلة لكثرة أنهارها وعيونها وربما كان في الدار منها بئران اليوم
الواحد أربع مدائن وبين المعاقل والقرى ما لا يحصى وهي بشاطئ حمص وبصور من
قال ابن سعيد وأنا أقول كلاما فيه كفاية قد خرجت من جزيرة الاندلس وطفت
في بر العدوة ورأيت مدنها العظيمة كمراكش وفاس وسلا وسبتة ثم طفت في افريقية
وما جاورها من المغرب الاوسط فرأيت بجاية وتونس ثم دخلت الديار المصرية فرأيت

الاسكندرية والقاهرة والفسطاط ثم دخلت الشام فرأيت دمشق وحلبا ومابينهما لم أر مايشبه رونق الاندلس فى مياهها وأشجارها الامدينة فاس بالمغرب الاقصى ومدينة دمشق بالشام وفى حماه مسحة أندلسية ولم أر مايشبهها فى حسن المبانى والتشييد والتصنيع الامايشيد بمراكش فى دولة بنى عبد المؤمن وبعض أماكن فى تونس وان كان الغالب على تونس البناء بالحجارة كالاسكندرية ولكن الاسكندرية أفسح شوارع وأبسط وأبدع ومبانى حلب داخلة فيما يستحسن لانها من حجارة صلبة وفى وضعها وترتيبها اتقان انتهى ومن أحسن ماجاء من النظم فى الاندلس قول ابن سفر المرينى والاحسان له عادة

فى أرض أندلس تلتذ نعماء * ولايفارق فيها القلب سراء
وليس فى غيرها بالعيش منتفع * ولاتقوم بحق الانس صهباء
وأين يعدل عن أرض تحض بها * على المدامة أمواه وأفياء
وكيف لايبهج الابصار رؤيتها * وكل روض بها فى الوشى صنعاء
أنهارها فضة والمسك تربتها * والخز روضتها والدر حصباء
وللهواء بها لطف يرق به * من لايرق وتبدو منه أهواء
ليس النسيم الذى يهفو بها سحرا * ولا انتثار لآلى الطل أنداء
وانما أرج الند استثار بها * فى ماء ورد فطابت منه أرجاء
وأين يبلغ منها ما أصنفه * وكيف يحوى الذى حازته احصاء
قد ميزت من جهات الارض حين بدت * فريدة وتولى ميزها الماء
دارت عليها نطاقا أبحر خفقت * وجدا بها اذ تبدت وهى حسناء
لذاك يبسم فيها الزهر من طرب * والطير يشدو وللاغصان اصغاء
فيها خلعت عذارى ما بها عوض * فهى الرياض وكل الارض صحراء

ولله در ابن خفاجة حيث يقول

ان للجنة بالاندلس * مجتلى مرأى وريا نفس
فسنا صبحتها من شنب * ودجى ظلمتها من لعس
فاذا ماهبت الريح صبا * صحت واشوقى الى الاندلس

وقد تقدمت هذه الابيات قال ابن سعيد قال ابن خفاجة هذه الابيات وهو بالمغرب الاقصى فى بر العدوة ومنزله فى شرق الاندلس بجزيرة شقر وقال ابن سعيد فى المغرب مانصه قواعد من كتاب الشهب الثاقبة فى الانصاف بين المشارقة والمغاربة أول ماتقدم الكلام على قاعدة السلطنة بالاندلس فنقول انها مع مابأيدى عباد الصليب منها أعظم سلطنة كثرت ممالكها وتشعبت فى وجوه الاستظهار للسلطان اعانتها وندع كلامنا فى هذا الشان وننقل ماقاله ابن حوقل النصيبى فى كتابه لما دخلها فى مدة خلافة بنى مروان بها فى المائة الرابعة وذلك انه لما وصفها قال وأما جزيرة الاندلس فجزيرة كبيرة طولها دون الشهر فى عرض نيف وعشرين مرحلة تغلب عليها المياه الجارية والشجر والثمر والرخص والسعة فى الاحوال من الرقيق الفاخر والخصب الظاهر الى أسباب التملك الفاشية فيها ولماهى

به من أسباب رغد العيش وسعته وكثرة ذلك منهم فيهم وأرباب صنائعهم لطلب
توفيرهم وصلاح معاشهم وبلادهم ثم أخذ في عظم سلطانها ووفور جباياته وعظم
نفقاته وقال في أثناء ذلك ويستدل بالقليل منه على كثير أن سكة دار ضربه على الدراهم
والدنانير دخلها في كل سنة مائتا ألف دينار وصرف الدينار سبعة عشر درهما
هذا إلى صدقات البلد وجباياته وخراجاته وأعشار وضماناته والأموال المرسومة على
المراكب الواردة والصادرة وغير ذلك وذكر ابن بشكوال أن جباية الأندلس بلغت
في مدة عبد الرحمن الناصر خمسة آلاف ألف دينار وأربعمائة ألف وثمانين ألفا ومن السوق
والمستخلص سبعمائة ألف وخمسة وستون ألف دينار ثم قال ابن حوقل ومن أعجب ما في هذه
الجزيرة بقاؤها على من هي في يده مع صغر أحلام أهلها وضعة نفوسهم ونقص عقولهم
وبعدهم من البأس والشجاعة والفروسية والبسالة ولقاء الرجال ومراس الأنجاد
والأبطال مع علم أمير المؤمنين بمحلها في نفسها ومقدار جباياتها ومواقع نعمها ولذاتها قال
علي بن سعيد مكمل هذا الكتاب لم أر بدا من إثبات هذا الفصل وإن كان على أهل بلدي
فيه من الظلم والتعصب ما لا يخفى ولسان الحال في الرد أنطق من لسان البلاغة وليت شعري
إذ سلب أهل هذه الجزيرة العقول والآراء والهمم والشجاعة فمن الذين دبروها بآرائهم
وعقولهم مع مراصدة أعدائها المجاورين لها من جميع جهاتها خمسمائة سنة ونيفا ومن الذين حموها
من سائر الأمم المطلة عليهم في داخلها وخارجها وهي ثلاثة أمم على كلمة واحدة في نصر
الصليب وإني لأعجب منه إذ كان في زمان قد دخلت فيه عباد الصليب إلى الشام والجزيرة
وعاثوا أكثر العيث في بلاد الإسلام حسب الجمهور والعامة العظمى حتى إنهم دخلوا آمد ثم
حلب وما دار بها وفعلوا فيها ما فعلوا وبلاد الإسلام متصلة بها من كل جهة إلى غير
ذلك مما هو مسطور في كتب التواريخ ومن أعظم ذلك وأشنعه أنهم كانوا يسطون على
الحصن من حصون الإسلام التي يتمكنون بها من بسائط بلادهم ينفرون ويأسرون
ولم تجتمع همم الملوك المجاورين على حسم الداء في ذلك وقد يستعين به بعضهم على بعض
فتمكن من ذلك الداء الذي لا يطب وقد كانت جزيرة الأندلس في ذلك الزمان بالضد من البلاد
التي ذكرت وراء ظهر وذلك موجود في تاريخ ابن حيان وغيره وإعادة كتاب القصة
بعد ذلك الإعلام بينة والطريق واضح فلنرجع إلى ما نحن بسبيله كانت سلطنة الأندلس
في صدر الفتح على ما تقدم من اختلاف الولاة عليها من سلاطين إفريقية واختلاف
الولاة داع إلى الاضطراب وعدم تأثل الأحوال وترتيب الفخامة في الدولة ولما صارت
الأندلس لبني أمية وتوارثوا ممالكها وانقاد إليهم كل أبي منها وأطاعهم كل عصي
عظمت الدولة بالأندلس وكثرت الهمم وترتبت الأحوال وترتبت القواعد وكانوا صدرا من
دولتهم يخطبون لأنفسهم بأبناء الخلائف ثم خطبوا لأنفسهم بالخلافة وملكوا ابن [illegible]
لعدة ما خصت به دولتهم وكانت قواعدهم إظهار الهيبة وتمكين الناموس من
قلوب العالم ومراعاة أحوال الشرع في كل الأمور وتعظيم العلماء والعمل بأقوالهم
وإحضارهم في مجالسهم واستشارتهم ولهم حكايات في تاريخ ابن حيان منها ما هو مذكور

من توجه الحكم على خليفتهم أو على ابنه أو أحد حاشيته المختصين وانهم كانوا فى نهاية من الانقياد الى الحق لهم أو عليهم وبذلك انضبط لهم أمر الجزيرة وللمباشرة واهذا الناموس كان أول ما تهتك أمرهم ثم اضمحل * وكانت ألقاب الاول منهم الامراء أبناء الخلائف ثم الخلفاء أمراء المؤمنين الى أن وقعت الفتنة بجهد بعضهم لبعض وابتغاء الخلافة من غير وجهها الذى رتبت عليه فاستبدت ملوك الممالك الاندلسية ببلادها وسموا ملوك الطوائف وكان فيهم من خطب للخلفاء المروانيين وان لم يبق لهم خلافة ومنهم من خطب للخلفاء العباسيين الجمع على امامتهم وصار ملوك الطوائف يتباهون فى احوال الملك حتى فى الالقاب فآل امرهم الى أن تلقبوا بنعوت الخلفاء وترفعوا الى طبقات السلطنة العظمى وذلك بما فى جزيرتهم من اسباب الترفه والفخامة التى تتوزع على ملوك شتى فتكفيهم وتنهض بهم للمباهاة ولاجل توثبهم على النعوت العباسية قال ابن رشيق القيروانى

مما يزهدنى فى أرض اندلس * تلقيب معتضد فيها ومعتمد

ألقاب مملكة فى غير موضعها * كالهر يحكى انتفاخا صولة الاسد

وكان عباد بن محمد بن عباد قد تلقب بالمعتضد واقتفى سيرة المعتضد العباسى أمير المؤمنين وتلقب ابنه محمد بن عباد بالمعتمد وكانت لبنى عباد مملكة اشبيلية ثم انضاف اليها غيرها وكان خلفاء بنى أمية يظهرون للناس فى الاحيان على أبهة الخلافة وقانون لهم فى ذلك معروف الى أن كانت الفتنة فازدرت العيون ذلك الناموس واستخفت به وقد كان بنو حمود من ولد ادريس العلوى الذين توثبوا على الخلافة فى أثناء الدولة المروانية بالاندلس يتعاطمون ويأخذون أنفسهم بما يأخذها خلفاء بنى العباس وكانوا اذا حضرهم منشد لمدح أو من يحتاج الى الكلام بين أيديهم يتكلم من وراء حجاب والحاجب واقف عند الستر يجاوب بما يقول له الخليفة ولما حضر ابن مقانا الاشبونى أمام حاجب ادريس بن يحيى الحمودى الذى خطب له بالخلافة فى مالقة وأنشده قصيدته المشهورة النونية التى منها قوله

وكأن الشمس لما أشرقت * فانثنت عنها عيون الناظرين

وجه ادريس بن يحيى بن على * بن حمود أمير المؤمنين

وبلغ فيها الى قوله

انظرونا نقتبس من نوركم * انه من نور رب العالمين

رفع الخليفة الستر بنفسه وقال انظر كيف شئت وانبسط مع الشاعر وأحسن اليه ولما جاء ملوك الطوائف صاروا يتبسطون للخاصة وكثير من العامة ويظهرون مداراة الجند وعوام البلاد وكان أكثرهم يحاضر العلماء والادباء ويحب أن يشهر عنه ذلك عند مباديه فى الرياسة ومذ وقعت الفتنة بالاندلس اعتاد أهل الممالك المتفرقة الاستبداد عن امام الجماعة وصار فى كل جهة مملكة مستقلة يتوارث أعيانها الرياسة كما يتوارث ملوكها الملك ومرنوا على ذلك فصعب ضبطهم الى نظام واحد وتمكن العبيد منهم بالتفرق وعداوة بعضهم لبعض بتهييج المنافسة والطمع الى أن انقادوا الى عبد المؤمن وبنيه وتلك القواعد فى رؤسهم كامنة والثوار فى المعاقل تثور وتروم الكرة الى أن ثار ابن هود وتلقب بالمتوكل ووجد

الملوك بصرفه عن دولة بر العدوة منها للاستبداد بملكها بأسره وتحاوله مع إهمال الشرط
وضعف الرأي وكان مع العامة كما قال صاحب سعوده يمشي في الأسواق ويجلس
في وجوههم ويبادرهم بالسؤال وما لقي الناس منه ما لم يعتادوه من سلطان فأعجب ذلك
سفهاء الناس وعامتهم العمياء وكان كما قيل

أمور يضحك السفهاء منها * ويبكي من عواقبها الحليم

فآل ذلك إلى قلب القواعد العظيمة وتلف الأمصار الجليلة وخروجها من يد الإسلام والحاصل
فيما قال في شأن أهل الأندلس في السلطان أنهم إذا وجدوا فارساً شجيع الفرسان أو جواداً
شجيع الأجواد بها تهافتوا في نصرته ونصبوه ملكاً من غير تدبير في عاقبة الأمر إلى أن يزول وبعد
أن يكون الملك في مملكة متوارثة متداولة ويكون في تلك المملكة ما يدين من قواعدها
فيستمر عنه ونابغ في العدو وظهر منه كرم ومن الأجداد ومراعاة فيدعوه ملكاً في حصن
من الحصون ويرثوا أعمالهم وأولادهم إن كان ابنه ذلك يكرمي الملك ولم يزالوا
في جهاد وبلاد أمن حتى يظهر صاحبهم بظلمه وأهل المشرق أعرف بأمورهم في مراعاة
نظام الملك والمحافظة على نصابه لئلا يدخل الخلل الذي يفضي بانحلال القواعد وفساد
التربة وخلل الأوضاع ولكن نقل في ذلك ما شاهدناه إن كانت هذه الفتنة الأخيرة
بالأندلس تفتقت عن رجل من حصن يقال له أرجونة ويعرف الرجل بابن الأحمر كان يكثر
مغاورة العدو من حصنه وظهرت له مخايل وشواهد على الشجاعة إلى أن طار اسمه
في الأندلس وآل ذلك إلى أن قدمه أهل حصنه على أنفسهم ثم ملك قرطبة العظمى
و ملك إشبيلية وقتل ملكها الباجي وملك جيان أحصن بلد بالأندلس وأخذ بعد ذلك
في الاتساع وملك غرناطة ومالقة وغيرهما من بلاد المسلمين وهو الآن المشار إليه بالتدبير
والمعتمد عليه. وأما قاعدة الوزارة بالأندلس فإنها كانت في مدة بني أمية مشتركة في جماعة
يعينهم صاحب الدولة للإعانة والمشاورة ويخصهم بالمجالسة ويختار منهم شخصاً لمكان النائب
المعروف بالوزير فيسميه بالحاجب وكانت هذه المراتب لتصلها عندهم كالوراثة في البيوت
المعلومة لذلك إلى أن كانت ملوك الطوائف فكان الملك منهم يعظم اسم الحاجب
في الدولة المروانية وأنه كان يسمى خليفتهم بالحاجب ويرى أن هذه السمة أعظم
ما نودي به وظهر به وهي موجودة في أمداح شعرائهم ووزرائهم وصار اسم الوزارة
عاماً لكل من يجالس الملوك ويختص بهم وصار الوزير الذي ينوب عن الملك يعرف بذي
الوزارتين وأكثر ما يكون فاضلاً في علم الأدب وقد لا يكون كذلك بل عالماً بأمور
الملك خاصة. وأما الكتابة فهي على ضربين أعلاهما كاتب الرسائل وله حظ في القلوب
والعيون عند أهل الأندلس وأشرف سماته الكاتب ومن هذه السمة يخصه من يعظمه
في رسالة وأهل الأندلس كثيرو الانتقاد على صاحب هذه السمة لا يكادون يغفلون عن
عثراته لحظة فإن كان ناقصاً عن درجات الكمال لم ينفعه جاهه ولا مكانه من سلطانه من تسلط
الألسن في المحافل والطعن عليه وعلى صاحبه. والكاتب الآخر كاتب الزمام هكذا يعرفون
كاتب الجهبذ ولا يكون بالأندلس ولا بالعدوة لا نصرانياً ولا يهودياً البتة إذ هذا العمل

نبيه يحتاج الى صاحبه علماء الناس ووجوههم وصاحب الاشغال الخراجية فى الاندلس أعظم من الوزير وأكثر أتباعا وأصحابا وأجدى منفعة فاليه تميل الاعناق ونحوه تمد الاكف والاعمال مضبوطة بالشهود والنظار ومع هذا ان تأثلت حالته واغتر بكثرة البناء والاكتساب نكب وصودر وهذا راجع الى تقلب الاحوال وكيفية السلطان * وأما خطة القضاء بالاندلس فهى أعظم الخطط عند الخاصة والعامة لتعلقها بأمور الدين وكون السلطان لو توجه عليه حكم حضر بين يدى القاضى هذا وصفها فى زمان بنى أمية ومن سلك مسلكهم ولا سبيل أن يتسم بهذه السمة الا من هو وال للحكم الشرعى فى مدينة جليلة وان كانت صغيرة فلا يطلق على حاكمها الا مسدد خاصة وقاضى القضاة يقال له قاضى القضاة وقاضى الجماعة * وأما خطة الشرطة بالاندلس فانها مضبوطة الى الآن معروفة بهذه السمة ويعرف صاحبها فى ألسن العامة بصاحب المدينة وصاحب الليل واذا كان عظيم القدر عند السلطان كان له القتل لمن وجب عليه دون استئذان السلطان وذلك قليل ولا يكون الا فى حضرة السلطان الاعظم وهو الذى يحد على الزنا وشرب الخمر وكثير من الامور الشرعية راجع اليه قد صارت تلك عادة تقرر عليها رضا القاضى وكانت خطة القاضى أوقر وأتقى عندهم من ذلك * وأما خطة الاحتساب فانها عندهم موضوعة فى أهل العلم والفطن وكأن صاحبها قاض والعادة فيه أن يمشى بنفسه راكبا على الاسواق وأعوانه معه وميزانه الذى يزن به الخبز فى يد أحد الاعوان لان الخبز عندهم معلوم الاوزان للربع من الدرهم رغيف على وزن معلوم وكذلك الثمن وفى ذلك من المصلحة أن يرسل المبتاع الصبى الصغير والجارية الرعناء ويستويان فيما يأتيانه به من السوق مع الحاذق فى معرفة الاوزان وكذلك اللحم تكون عليه ورقة بسعره ولا يجسر الجزار أن يبيع بأكثر أو دون ما حدله المحتسب فى الورقة ولا يكاد تخفى خيانته فان المحتسب يدس عليه صبيا أو جارية يبتاع أحدهما منه ثم يختبر الوزن المحتسب فان وجد نقصا قاس على ذلك حاله مع الناس فلا تسأل عما يلقى وان كثر ذلك منه ولم يتب بعد الضرب والتجريس فى الاسواق نفى من البلد ولهم فى أوضاع الاحتساب قوانين يتداولونها ويتدارسونها كما تتدارس أحكام الفقه لانها عندهم تدخل فى جميع المبتاعات وتتفرع الى ما يطول ذكره * وأما خطة الطواف بالليل وما يقال من المغرب أصحاب ارباع فى المشرق فانهم يعرفون فى الاندلس بالدرابين لان بلاد الاندلس لها دروب بأغلاق تغلق بعد العتمة ولكل زقاق بائت فيه له سراج معلق وكلب يسهر وسلاح معد وذلك لشطارة عامتها وكثرة شرهم واعيائهم فى أمور التلصص الى أن يظهروا على المبانى المشيدة ويفتحوا الاغلاق الصعبة ويقتلوا صاحب الدار خوف أن يقر عليهم أو يطالبهم بعد ذلك ولا تكاد فى الاندلس تخلو من سماع دار فلان دخلت البارحة وفلان ذبحه اللصوص على فراشه وهذا يرجع التكثير منه والتقليل الى شدة الوالى ولينه ومع افراطه فى الشدة وكون سيفه يقطر دما فان ذلك لا يعدم وقد آل الحال عندهم الى أن قتلوا على عنقود سرقه شخص من كرم وما أشبه ذلك ولم ينته اللصوص * وأما قواعد أهل الاندلس فى ديانتهم فانها تختلف بحسب الاوقات والنظر الى السلاطين ولكن الاغلب عندهم اقامة

الحدود وإنكار التهاون بتعطيلها وقيام العامة في ذلك وإنكاره إن تهاون فيه أصحاب
السلطان وقد يلج السلطان في ذلك ولا ينكره فيدخلون عليه قصره المسدود ولا يعبؤون
بخيله ورجله حتى يخرجوه من بلدهم وهذا كثير في أخبارهم وأما الرجم بالحجارة للقضاة والولاة
للأعمال إذا لم يعدلوا فكل يوم * وأما طريقة الفقراء على مذهب أهل الشرق في الدورة
التي تكسل عن الكد وتحرج الوجوه للطلب في الأسواق فمستقبحة عندهم إلى النهاية وإذا
رأوا شخصا صحيحا قادرا على الخدمة يطلب سبوه وأهانوه فضلا عن أن يتصدقوا عليه فلا
تجد بالأندلس سائلا إلا أن يكون صاحب عذر * وأما حال أهل الأندلس في فنون العلوم
فتحقيق الإنصاف في شأنهم في هذا الباب أنهم أحرص الناس على التمييز فالجاهل الذي
لم يوفقه الله للعلم يجهد أن يتميز بصنعة ويربأ بنفسه أن يرى فارغا عالة على الناس لأن هذا
عندهم في نهاية القبح والعالم عندهم معظم من الخاصة والعامة يشار إليه ويحال عليه
وينبه قدره وذكره عند الناس ويكرم في جوار أو ابتياع حاجة وما أشبه ذلك ومع هذا
فليس لأهل الأندلس مدارس تعينهم على طلب العلم بل يقرؤون جميع العلوم في المساجد
بأجرة فهم يقرؤون لأن يعلموا لا لأن يأخذوا جاريا فالعالم منهم بارع لأنه يطلب ذلك العلم
بباعث من نفسه يحمله على أن يترك الشغل الذي يستفيد منه وينفق من عنده حتى يعلم
وكل العلوم لها عندهم حظ واعتناء إلا الفلسفة والتنجيم فإن لهما حظا عظيما عند
خواصهم ولا يتظاهر بهما خوف العامة فإنه كلما قيل فلان يقرأ الفلسفة أو يشتغل بالتنجيم
أطلقت عليه العامة اسم زنديق وقيدت عليه أنفاسه فإن زل في شبهة رجموه بالحجارة
أو حرقوه قبل أن يصل أمره للسلطان أو يقتله السلطان تقربا لقلوب العامة وكثيرا ما يأمر
ملوكهم بإحراق كتب هذا الشأن إذا وجدت وبذلك تقرب المنصور بن أبي عامر لقلوبهم
أول نهوضه وإن كان غير خال من الاشتغال بذلك في الباطن على ما ذكر الحجاري والله أعلم
وقراءة القرآن بالسبع ورواية الحديث عندهم رفيعة وللفقه رونق ووجاهة ولا مذهب لهم
إلا مذهب مالك وخواصهم يحفظون من سائر المذاهب ما يباحثون به بمحاضر ملوكهم
ذوي الهمم في العلوم وسمة الفقيه عندهم جليلة حتى إن المسلمين كانوا يسمون الأمير العظيم
منهم الذي يريدون تنويهه بالفقيه وهي الآن بالمغرب بمنزلة القاضي بالمشرق وقد يقولون
للكاتب والنحوي واللغوي فقيه لأنها عندهم أرفع السمات * وعلم الأصول عندهم متوسط
الحال والنحو عندهم في نهاية من علو الطبقة حتى إنهم في هذا العصر فيه كأصحاب عصر
الخليل وسيبويه لا يزداد مع هرم الزمان إلا جدة وهم كثيرو البحث فيه وحفظ مذاهبه
كمذاهب الفقه وكل عالم في أي علم لا يكون متمكنا من علم النحو بحيث لا تخفى عليه الدقائق
فليس عندهم بمستحق للتمييز ولا سالم من الازدراء مع أن كلام أهل الأندلس الشائع
في الخواص والعوام كثير الانحراف عما تقتضيه أوضاع العربية حتى لو أن شخصا من
العرب سمع كلام الشلوبين أبي علي المشار إليه بعلم النحو في عصرنا الذي تقرأ تصانيفه
ويرحل وهو يقرئ درسه لحمل فمه من سوء العربية الذي في لسانه والخاص منهم
إذا تكلم بالإعراب وأخذ يجري على قوانين النحو استثقلوه واستبردوه ولكن ذلك مراعى

عندهم

عندهم فى القرآت والمحاضرات فى الرسائل وعلم الادب المنثور من حفظ التاريخ والنظم والنثر ومستظرفات الحكايات أنبل علم عندهم وبه يتقرب من مجالس ملوكهم وأعلامهم ومن لا يكون فيه أدب من علمائهم فهو غفل مستثقل * والشعر عندهم له حظ عظيم وللشعراء من ملوكهم وجاهة ولهم عليهم حظ ووظائف والمجيدون منهم ينشدون فى مجالس عظماء ملوكهم المختلفة ويوقع لهم بالصلات على أقدارهم الا أن يختل الوقت ويغلب الجهل فى حين ما ولكن هذا الغالب واذا كان الشخص بالاندلس نحويا أو شاعرا فانه يعظم فى نفسه لا محالة ويسخف ويظهر العجب عادة قد جبلوا عليها * وأما زى أهل الاندلس فالغالب عليهم ترك العمائم لاسيما فى شرق الاندلس فان أهل غربها لا تكاد ترى فيهم قاضيا ولا فقيها مشارا اليه الا وهو بعمامة وقد تسامحوا بشرقها فى ذلك ولقد رأيت عزيز بن خطاب أكبر عالم بمرسية حضرة السلطان فى ذلك الاوان واليه الاشارة وقد خطب له بالملك فى تلك الجهة وهو حاسر الرأس وشيبه قد غلب على سواد شعره وأما الاجناد وسائر الناس فقليل منهم من تراه بعمة فى شرق منها أو فى غرب وابن هود الذى ملك الاندلس فى عصرنا رأيته فى جميع أحواله ببلاد الاندلس وهو دون عمامة وكذلك ابن الاحمر الذى معظم الاندلس الآن فى يده وكثيرا ما يتزيا سلاطينهم وأجنادهم بزى النصارى المجاورين لهم فسلاحهم كسلاحهم وأقبيتهم من الاشكرلاط وغيره كأقبيتهم وكذلك أعلامهم وسروجهم * ومحاربتهم بالترسة والرماح الطويلة للطعن ولا يعرفون الدبابيس ولا قسى العرب بل يعدون قسى الافرنج للمحاصرات فى البلاد أو تكون للرجالة عند المصافة للحرب وكثيرا ما تصير الخيل عليهم أو تقلهم لان يوثروها ولا تجد فى خواص الاندلس وأكثر عوامهم من يمشى دون طيلسان الا انه لا يضعه على رأسه منهم الا الاشياخ المعظمون وغفائر الصوف كثيرا ما يلبسونها حمرا وخضرا والصفر مخصوصة باليهود ولا سبيل ليهودى أن يتعمم البتة والذؤابة لا يرخيها الا العالم ولا يصرفونها بين الاكتاف وانما يسدلونها من تحت الاذن اليسرى وهذه الاوضاع التى بالمشرق فى العمائم لا يعرفها أهل الاندلس وان رأوا فى رأس مشرقى داخل الى بلادهم شكلا منها أظهروا التعجب والاستظراف ولا يأخذون أنفسهم بتعليمها لانهم لم يعتادوا ولم يستحسنوا غير أوضاعهم وكذلك فى تفصيل الثياب * وأهل الاندلس أشد خلق الله اعتناء بنظافة ما يلبسون وما يفرشون وغير ذلك مما يتعلق بهم وفيهم من لا يكون عنده الا ما يقوته يومه فيطويه صائما ويبتاع صابونا يغسل به ثيابه ولا يظهر فيها ساعة على حالة تنبو العين عنها * وهم أهل احتياط وتدبير فى المعاش وحفظ لما فى أيديهم خوف ذل السؤال فلذلك قد ينسبون للبخل ولهم مروآت على عادة بلادهم لو فطن لها حاتم لفضل دقائقها على عظائمه ولقد اجتزت مع والدى على قرية من قراها وقد نال منا البرد والمطر أشد النيل فأوينا اليها وكنا على حال ترقب من السلطان وخلو من الرفاهية فنزلنا فى بيت شيخ من أهلها من غير معرفة متقدمة فقال لنا ان كان عندكم ما اشترى لكم فحما تسخنون به فانى أمضى فى حوائجكم وأجعل عيالى يقومون بشأنكم فأعطيناه ما اشترى به فحما فأضرم نارا فجاء ابن له صغير ليصطلى فضربه فقال له والدى لم ضربته فقال يتعلم اغتنام أموال الناس

والبحر المستمد من المغرب لما سماها الروم قال لا يسمه أعط هذا السائب كتبا لد العلطة ردها
على بابه ودوم كتبا الى ثم لما طلع الصباح وحدث الصبي سمها وبدى في الكتب فملك
ذلك الوادي وسال هذه من ولد اهل الاندلس وهذا احتياطهم أخبار الكتب وسلك
على نفسه ثم افكر فيه أبلغ عرب لا يعرف هل أنت منه اولئك فلم نلت له سام حتى بأحد
كتبا حوفا من انصاف لهم اوهو نائم وعلى هذا النبي المعرفة من النبي الجليل انتهى كلام
ابن سعيد في المغرب باختصار يسير ولله در فانه أبدع في هذا الكتاب ما شاء وقسمه الى
اقسام منها كتاب وشي الطرس في حلى جزيرة الاندلس وهو ينقسم الى أربعة كتب الكتاب
الاول كتاب حلى العرس في حلى غرب الاندلس الكتاب الثاني كتاب السمط القعس في حلى
موسطة الاندلس الكتاب الثالث كتاب الانس في حلى شرق الاندلس الكتاب الرابع كتاب
ططاب المرتب في ذكر ما جا من الاندلس عباد الصليب والقسم الثاني كتاب الالحان المسلية
في حلى جزيرة صقلية وهو أنصاد وانواع والقسم الثالث كتاب الغاية الاخيرة في حلى الارض
الكبيرة وهو أنصاد وأقسام وصدر رحمه الله تعالى اجزاء الاندلس في كتاب وشي الطرس
وقال أنها ثلاث ثلاث بين شرق الاندلس وغربها ووسطها ضرب في قدر المسافة بعضه من بعض
وليس فيها جزء يحاور ثلاثة عشر أيام لبعد في التلب في القسمة وهذا دون ما في بأيدي
النصارى وقدم رحمه الله كتاب حلى العرس في حلى غرب الاندلس لكون قرطبة ولت الخلافة
المروانية واسلمه الى ماني الاندلس اجل مباهته وقسمه الى سبعة كتب كل كتاب منها
محتوي على مملكة ممتاز عن الاخرى الكتاب الاول كتاب الحلة المذهبة في حلى مملكة
قرطبة الكتاب الثاني كتاب الذهبية الاصيلية في حلى المملكة الاشبيلية الكتاب الثالث
كتاب خدع المالة في حلى مملكة مالقة الكتاب الرابع كتاب الفردوس في حلى مملكة
بطليوس الكتاب الخامس كتاب الخاب في حلى مملكة شلب الكتاب السادس كتاب
الديباجة في حلى مملكة باجة الكتاب السابع كتاب الرياض المصونة في حلى مملكة اسونة
وقد ذكر رحمه الله تعالى في كل قسم ما ليس به ومصوراتها على مانه في فالله تجاربه جزاء
والكلام في الاندلس طويل عريض وقال بعض المؤرخين طول الاندلس ثلاثون يوما
وعرضها تسعة أيام وبها أربعون نهرا كبارا ومن العيون والحمامات والمعادن ما لا
يحصى وبها ثمانون مدينة من القواعد الكبار وازيد من ثلاثمائة من المتوسطة وفيها من
الحصون والقرى والبروج ما لا يحصى كثرة حتى قيل ان عدد القرى التي على نهر اشبيلية
اثنا عشر ألف قرية وليس في معمور الارض صقع يجد المسافر فيه الانهار والعيون
يومه الا بالاندلس ومن بركتها أن المسافر لا يسافر فيها فرسخين دون ماء اصلا وحيثما سار
من الاقطار يجد الحوانيت في الفلوات والصحاري والاودية ورؤوس الجبال لبيع الخبز
والفواكه والجبن واللحم والحوت وغير ذلك من ضروب الاطعمة * وذكر صاحب المرآة
أن جزيرة الاندلس مسيرة أربعين يوما طولا في ثمانية عشر يوما عرضا وهو مخالف لما سبق *
وقال ابن سعيد أحدقت الاندلس في عرض الاقليم الخامس والسادس من البحر الشامي في
الجنوب الى البحر المحيط في الشمال وبها من الجبال سبعة وعشرون جبلا انتهى ولنعضهم

لله أندلس وما جمعت بها * من كل ما ضمت لها الاهواء
فكأنما تلك الديار كواكب * وكأنما تلك البقاع سماء
وبكل قطر جدول في جنة * ولعت به الافياء والانداء

وقال غيره

في أرض أندلس تلتذ نعماء * ولا يفارق فيها القلب سراء
وليس في غيرها بالعيش متنفع * ولا تقوم بحق الانس صهباء
وأين يعدل عن أرض يحض بها * على الشهادة أزواج وأبناء
وأين يعدل عن أرض تحث بها * على المدامة أمواه وأفياء
وكيف لا تبهج الابصار رؤيتها * وكل أرض بها في الوشي صنعاء
انهارها فضة والمسك تربتها * والخز روضتها والدر حصباء
وللهواء بها لطف يرق به * من لا يرق وتبدو منه أهواء
ليس النسيم الذي يهفو بها سحرا * ولا انتشار لآلي الطل أنداء
وانما أرج الند استثار بها * في ماء ورد فطابت منه ارجاء
وأين يبلغ منها ما أصنفه * وكيف يحوي الذي حازته احصاء
قد ميزت من جهات الارض ثم بدت * فريدة وتولى ميزها الماء
دارت عليها نطاقا أبحر خفقت * وجدا بها اذ تبدت وهي حسناء
لذاك يبسم فيها الزهر من طرب * والطير يشدو وللاغصان اصغاء
فيها خلعت عذاري ما بها عوض * فهي الرياض وكل الارض صحراء

وقد تقدمت هذه القصيدة وقال آخر

حبذا أندلس من بلد * لم تزل تنتج لي كل سرور
طائر شاد وظل وارف * ومياه سائحات وقصور

وقال آخر

يا حسن أندلس وما جمعت لنا * فيها من الاوطار والاوطان
تلك الجزيرة لست أنسى حسنها * بتعاقب الاحيان والازمان
نسج الربيع نباتها من سندس * موشية ببدائع الالوان
وغدا النسيم بها عليلا هائما * بربوعها وتلاطم البحران
يا حسنها والطل ينثر فوقها * دررا خلال الورد والريحان
وسواعد الانهار قد مدت الى * ندمائها بشقائق النعمان
وتجاوبت فيها شوادي طيرها * والتفت الاغصان بالاغصان
ما زرتها الا وحيا نى بها * حدق البهار وأنمل السوسان
من بعدها ما أعجبتني بلدة * مع ما حللت به من البلدان

وحكى بعضهم أن بالجامع من مدينة اقليش بلاطا فيه جوائز منشورة مربعة مستوية الاطراف طول الجائزة منها مائة شبر وأحد عشر شبرا * وفي الاندلس جبل من شرب من مائه

بالجبل المنسوب اليه يوم الاثنين لخمس خلون من رجب سنة اثنتين وتسعين فى اثنى عشر ألفا غير اثنى عشر رجلا من البربر ولم يكن فيهم من العرب الا شئ يسير وانه لما ركب البحر رأى وهو نائم النبى صلى الله عليه وسلم وحوله المهاجرون والانصار قد تقلدوا السيوف وتنكبوا القسى فيقول له رسول الله صلى الله عليه وسلم يا طارق تقدم لشأنك ونظر اليه والى أصحابه قد دخلوا الاندلس قدامه فهب من نومه مستبشرا وبشر أصحابه وثابت نفسه ببشراه ولم يشك فى الظفر فخرج من الجبل واقتحم بسيط البلد شانا للغارة وأصاب عجوزا من أهل الجزيرة فقالت له فى بعض قولها انه كان لها زوج عالم بالحدثان فكان يحدثهم عن أمير يدخل الى بلدهم هذا فيغلب عليه ويصف من نعته أنه ضخم الهامة فأنت كذلك ومنها أن فى كتفه الايسر شامة عليها شعر فان كانت فيك فأنت هو فكشف ثوبه فاذا بالشامة فى كتفه على ما ذكرت فاستبشر بذلك ومن معه * ومن تاريخ ابن حيان لما حرض يليان النصرانى صاحب سبتة للامر الذى وقع بينه وبين صاحب الاندلس موسى بن نصير على غزو الاندلس جهزلها مولاه طارقا المذكور فى سبعة آلاف من المسلمين جلهم البربر فى أربع سفن وحط بجبل طارق المنسوب اليه يوم السبت فى شعبان سنة ٩٢ ولم تزل المراكب تعود حتى توافى جميع أصحابه عنده بالجبل قال ووقع على لذريق صاحب الاندلس الخبر وأن يليان السبب فيه وكان يومئذ غازيا فى جهة البشكنس فبادر فى جموعه وهم نحو مائة ألف ذوى عدة وعدد وكتب طارق الى موسى بأنه قد زحف عليه لذريق بما لا طاقة له به وكان عمل من السفن عدة فجهز له فيها خمسة آلاف من المسلمين فكملوا مع تقدم اثنى عشر ألفا ومعهم يليان صاحب سبتة فى حشده يدلهم على العورات ويتجسس لهم الاخبار وأقبل نحوهم لذريق ومعه خيار العجم وأملاكها وفرسانها وقلوبهم عليه فتلاقوا فيما بينهم وقالوا ان هذا الخبيث غلب على سلطاننا وليس من بيت الملك وانما كان من أتباعنا ولسنا نعدم من سيرته خبالا واضطرابا وهؤلاء القوم الذين طرقوا لا حاجة لهم فى ايطان بلدنا وانما مرادهم أن يملؤا أيديهم من الغنائم ويخرجوا عنا دهلم فلينهزم بابن الخبيثة اذا نحن لقينا القوم فلعلهم يكفوننا أمره فاذا هم انصرفوا عنا أقعدنا فى ملكنا من يستحقه فأجمعوا على ذلك انتهى * وقال ابن خلدون بعد ذكره أن القوطيين كان لهم ملك الاندلس وأن ملكهم لعهد الفتح يسمى لذريق ما نصه وكانت لهم خطوة وراء البحر فى هذه العدوة الجنوبية خطوها من فرضة المجاز بطنجة ومن زقاق البحر الى بلاد البربر واستعبدوهم وكان ملك البربر بذلك القطر الذى هو اليوم جبال غمارة يسمى يليان فكان يدين بطاعتهم وبملتهم وموسى بن نصير أمير الغرب اذ ذاك عامل على افريقية من قبل الوليد بن عبد الملك ومنزله بالقيروان وكان قد أغزى لذلك العهد عساكر المسلمين بلاد المغرب الاقصى ودوخ أقطاره وأثخن فى جبال طنجة هذه حتى وصل خليج الزقاق واستنزل يليان لطاعة الاسلام وخلف مولاه طارق بن زياد الليثى والبا بطنجة وكان يليان ينقم على لذريق ملك القوط لعهده بالاندلس فعلة فعلها زعموا بابنته الناشئة فى داره على عادتهم فى بنات بطارقتهم فغضب لذلك وأجاز الى لذريق وأخذ ابنته منه ثم لحق بطارق وكشف للعرب عورة القوط ودلهم على عورة فيهم أمكنت طارقا فيها الفرصة فانتهزها لوقته

وأجاز البحر سنة اثنتين وتسعين من الهجرة بإذن أميره موسى بن نصير في نحو ثلثمائة من العرب واحتشد معهم من البربر زهاء عشرة آلاف فصيرهما عسكرين أحدهما على نفسه ونزل به جبل الفتح فسمي جبل طارق به والآخر على طريف بن مالك النخعي ونزل بمكان مدينة طريف فسمي به وأداروا الأسوار على أنفسهم للتحصن وبلغ الخبر إلى لذريق فنهض إليهم يجر أمم الأعاجم وأهل ملة النصرانية في زهاء أربعين ألفاً فزحفوا إليه والتقوا بفحص شريش فهزمه الله ونفلهم أموال أهل الكفر ورقابهم وكتب طارق إلى موسى بن نصير بالفتح وبالغنائم فحركته الغيرة وكتب إلى طارق يتوعده إن توغل بغير إذنه ويأمره أن لا يتجاوز مكانه حتى يلحق به واستخلف على القيروان ولده عبد الله وخرج ومعه حبيب بن أبي عبيدة الفهري ونهض من القيروان سنة ثلاث وتسعين من الهجرة في عسكر ضخم من وجوه العرب والموالي وعرفاء البربر ووافى خليج الزقاق ما بين طنجة والجزيرة الخضراء فأجاز إلى الأندلس وتلقاه طارق فانقاد واتبع وأتم موسى الفتح وتوغل في الأندلس إلى برشلونة في جهة الشرق وأربونة في الجوف وصنم قادس في الغرب ودوّخ أقطارها وجمع غنائمها وأجمع أن يأتي المشرق من ناحية القسطنطينية ويتجاوز إلى الشام دروبه ودروب الأندلس ويخوض إليه ما بينهما من أمم الأعاجم النصرانية مجاهداً فيهم مستلحماً لهم إلى أن يلحق بدار الخلافة ونمى الخبر إلى الوليد فاشتد قلقه بمكان المسلمين في دار الحرب ورأى أن ما هم به موسى غرر بالمسلمين فبعث إليه بالتوبيخ والانصراف وأسر إلى سفيره أن يرجع بالمسلمين إن لم يرجع وكتب له بذلك عهده ففت ذلك في عزم موسى وقفل عن الأندلس بعد أن أنزل الرابطة والحامية بثغورها وأنزل ابنه عبد العزيز لسدها وجهاد عدوها وأنزله قرطبة فاتخذها دار إمارة واحتل موسى بالقيروان سنة خمس وتسعين وارتحل إلى المشرق سنة ست بعدها بما كان معه من الغنائم والذخائر والأموال على العجل والظهر يقال إن من جملتها ثلاثين ألف رأس من السبي وولى على إفريقية ابنه عبد الله وقدم على سليمان بن عبد الملك فسخطه ونكبه وثارت عساكر الأندلس بابنه عبد العزيز بإغراء سليمان فقتلوه لسنتين من ولايته وكان خيراً فاضلاً وافتتح في ولايته مدائن كثيرة * وولي من بعده أيوب بن حبيب اللخمي وهو ابن أخت موسى بن نصير فولي عليها ستة أشهر ثم تتابعت ولاة العرب على الأندلس تارة من قبل الخليفة وتارة من قبل عامله بالقيروان وأثخنوا في أمم الكفر وافتتحوا برشلونة من جهة المشرق وحصون قشتالة وبسائطها من جهة الجوف وانقرضت أمم القوط وأوى الجلالقة ومن بقي من أمم العجم إلى جبال قشتالة وأربونة وأفواه الدروب فتحصنوا بها وأجازت عساكر المسلمين ما وراء برشلونة من دروب الجزيرة حتى احتلوا البسائط وراءها وتوغلوا في بلاد الفرنجة وعصفت ريح الإسلام بأمم الكفر من كل جهة وربما كان بين جنود الأندلس من العرب اختلاف وتنازع أوجد للعدو بعض الكرة فرجع الإفرنج ما كانوا غلبوهم عليه من بلاد برشلونة لعهد ثمانين سنة من لدن فتحها واستمر الأمر على ذلك وكان محمد بن يزيد عامل إفريقية لسليمان ابن عبد الملك لما بلغه مهلك عبد العزيز بن موسى بن نصير بعث إلى الأندلس الحر بن عبد الرحمن بن عثمان الثقفي فقدم الأندلس وعزل أيوب بن حبيب وولي سنتين وثمانية أشهر

ثم بعث عمر بن عبد العزيز على الاندلس السمح بن مالك الخولانى على رأس المائة من الهجرة وأمره أن يخمس أرض الاندلس فخمسها وبنى قنطرة قرطبة واستشهد غازيا بأرض الفرنجة سنة اثنتين ومائة فقدم أهل الاندلس عليهم عبد الرحمن بن عبد الله الغافقى الى أن قدم عنبسة ابن سحيم الكلبى من قبل يزيد بن أبى مسلم عامل افريقية فقدمها فى صفر سنة ثلاث ومائة فاستقام أمر الاندلس وغزا الفرنجة وتوغل فى بلادهم واستشهد سنة سبع ومائة لاربع سنين وأربعة اشهر ثم تتابعت ولاة الاندلس من قبل أمراء افريقية فكان أولهم يحيى ابن سلمة الكلبى انفذه بشر بن صفوان الكلبى والى افريقية لما استدعى منه أهل الاندلس واليا بعد مقتل عنبسة فقدمها آخر سنة سبع وأقام فى ولايتها سنتين ونصفا ولم يغزو قدم اليها عثمان بن أبى نسعة اللخمى واليا من قبل عبيدة بن عبد الرحمن السلمى صاحب افريقية وعزله لخمسة أشهر بحذيفة بن الاحوص القيسى فوافاها سنة عشر وعزل قريبا يقال لسنة من ولايته واختلف هل تقدمه عثمان أو هو تقدم عثمان ثم ولى بعده الهيثم بن عبيد الكلابى من قبل عبيدة بن عبد الرحمن أيضا قدم فى المحرم سنة احدى عشرة وغزا أرض مقوشة فافتتحها وتوفى سنة ثلاث عشرة ومائة لسنتين من ولايته وقدم بعده محمد بن عبد الله الاشجعى فولى شهرين ثم قدم عبد الرحمن بن عبد الله الغافقى من قبل عبيد الله بن الحبحاب صاحب افريقية فدخلها سنة ثلاث عشرة وغزا الافرنجة وكانت له فيهم وقائع وأصيب عسكره فى رمضان سنة أربع عشرة فى موضع يعرف ببلاط الشهداء وبه عرفت الغزوة وكانت ولايته سنة وثمانية أشهر ثم ولى عبد الملك بن قطن الفهرى وقدم فى رمضان سنة أربع عشرة وولى سنتين وقال الواقدى أربع سنين وكان ظلوما جائرا فى حكومته وغزا أرض البشكنس سنة خمس عشرة ومائة فأوقع بهم وغنم ثم عزل فى رمضان سنة ست عشرة وولى عقبة بن الحجاج السلولى من قبل عبيد الله بن الحبحاب فأقام خمس سنين محمود السيرة مجاهدا مظفرا حتى بلغ سكنى المسلمين اربونة وصار رباطهم على نهر ردونة ثم وثب عليه عبد الملك بن قطن الفهرى سنة احدى وعشرين فخلعه وقتله ويقال اخرجه من الاندلس وولى مكانه الى أن دخل بلج ابن بشر باهل الشام سنة أربع وعشرين فغلب عليه وولى الاندلس سنة أو نحوها وقال الرازى ثار أهل الاندلس بأميرهم عقبة فى صفر سنة ثلاث وعشرين فى خلافة هشام بن عبد الملك وولوا عليهم عبد الملك بن قطن ولايته الثانية فكانت ولاية عقبة ستة أعوام وأربعة اشهر وتوفى بقرمونة فى صفر سنة ثلاث وعشرين واستقام الامر لعبد الملك ثم دخل بلج بن بشر القشيرى بجند الشام ناجيا من وقعة كلثوم بن عياض مع البربر بطنجة فثار على عبد الملك وقتله وهو ابن تسعين سنة واستوثق له الامر بعد قتل عبد الملك وانحاز الفهريون الى جانب فاجتمعوا عليه وكاشفوه واجتمع اليهم من انكر فعلته بابن قطن وقام بأمرهم قطن وامية ابنا عبد الملك بن قطن والتقوا فكانت الدائرة على الفهريين وهلك بلج من الجراح التى نالته فى حربهم وذلك سنة أربع وعشرين لسنة أو نحوها من امارته ثم ولى ثعلبة بن سلامة الجذامى غلب على امارة الاندلس بعد مهلك بلج وانحاز عنه الفهريون فلم يطيعوه وولى سنتين اظهر فيهما العدل ودانت له الاندلس عشرة اشهر الى أن مالت به العصبية فى يمانيته ففسد

أمير وصاحب الفتنة وقدم أبو الخطار حسام بن ضرار الكلبي من قبل حنظلة بن صفوان
عامل إفريقية ركب البحر من تونس سنة خمس وعشرين ودان له أهل الأندلس وأقبل
إليه ثعلبة وابن أبي نسعة وابنا عبد الملك فلقيهم وأحسن إليهم واستقام أمره وكان شجاعا
كريما ذا رأي وحزم وكثر أهل الشام عنده ولم تحملهم قرطبة ففرقهم في البلاد وأنزل أهل
دمشق البيرة لشبهها بها وسماها دمشق وأنزل أهل حمص إشبيلية وسماها حمص وأهل قنسرين
جيان وسماها قنسرين وأهل الأردن رية ومالقة وسماها الأردن وأهل فلسطين شذونة
وهي شريش وسماها فلسطين وأهل مصر تدمير وسماها مصر وقفل ثعلبة إلى المشرق ولحق
بمروان بن محمد وحضر حروبه وكان أبو الخطار أعرابيا عصبيا أفرط عند ولايته في التعصب
لقومه من اليمانية وتحامل على المضرية وأسخط قيسا وأمر في بعض الأيام بالصميل بن حاتم
كبير القيسية وكان من طوالع بلج وهو الصميل بن حاتم بن شمر بن ذي الجوشن وزعيم
على المضرية فأقيم من مجلسه وتقنع فقال له بعض الحجاب وهو خارج من القصر أقم عمامتك
يا أبا الجوشن فقال إن كان لي قوم فسيقيمونها فسار الصميل بن حاتم إلى قومه يومئذ وعمهم
وألب عليه قومه واستعان بالمنحرفين عنه من اليمانية فخلع أبو الخطار سنة ثمان وعشرين
لأربع سنين وتسعة أشهر من ولايته وقدم مكانه ثوابة بن سلامة الجذامي وهو صاحب
الحرب المشهور وخاطبوا بذلك عبد الرحمن بن حبيب صاحب إفريقية فكتب إلى ثوابة
بعهده على الأندلس مستهل رجب سنة تسع وعشرين وضبط الأندلس وقام بأمره الصميل
واجتمع عليه الفريقان وهلك لسنة من ولايته ووقع الخلاف بإفريقية والتاث أمر بني أمية
بالمشرق وشغلوا عن قاصية المغرب بكثرة الخوارج وعظم أمر المسودة فبقي أهل الأندلس
فوضى ونصبوا للأحكام خاصة عبد الرحمن بن كثير ثم اتفق جند الأندلس على اقتسام
الإمارة بين المضرية واليمانية وإدالتها بين الجندين سنة لكل دولة وقدم المضرية على أنفسهم
يوسف بن عبد الرحمن الفهري سنة تسع وعشرين واستتمت سنة ولايته بقرطبة دار الإمارة
ثم وافته اليمانية لميعاد إدالتهم واثقين بمكان عهدهم وتراضيهم واتفاقهم فبيتهم يوسف بمكانهم
نزولهم من شقندة في قرى قرطبة بممالأة من الصميل بن حاتم والقيسية وسائر المضرية
فاستلحموهم وثار أبو الخطار لذلك فقتله الصميل وشرده وقتله سنة تسع وعشرين واستبد يوسف
وثار العرب بعدوة الأندلس وغلب المسيحية على أمرهم فاستكانوا للغلبة وتربصوا الدوائر
إلى أن جاء عبد الرحمن الداخل وكان يوسف ولى الصميل سرقسطة فلما ظهر أمر المسودة
بالمشرق ثار الحباب الزهري بالأندلس داعيا لهم وحاصر الصميل بسرقسطة واستمد يوسف
فلم يمده رجاء هلاكه لما كان يغص به وأمده القيسية فأفرج عنه الحباب وفارق الصميل
سرقسطة فملكها الحباب وولى يوسف الصميل على طليطلة إلى أن كان من عبد الرحمن الداخل
ما كان. انتهى كلام ولي الدين بن خلدون ببعض اختصار (وقال بعض المؤرخين) أن
عبد الله بن مروان أخا عبد الملك كان واليا على مصر وإفريقية فبعث إليه ابن أخيه الوليد
الخليفة يأمره بإرسال موسى بن نصير إلى إفريقية وذلك سنة ٨٧ للهجرة فامتثل أمره
في ذلك وقال الحميدي في جذوة المقتبس إن موسى بن نصير ولي إفريقية والمغرب سنة ٧٧

يقدمها ومعه جماعة من الجند وبلغه أن بأطراف البلاد من هو خارج عن الطاعة فوجه ولده عبد الله فأتاه بمائة ألف رأس من السبايا ثم ولده مروان الى جهة اخرى فأتاه بمائة ألف رأس * وقال الليث بن سعد بلغ الخمس ستين ألف رأس وقال الصدفي لم يسمع في الاسلام بمثل سبايا موسى بن نصير ووجد اكثر مدن افريقية خالية لاختلاف أيدي البربر عليها وكانت البلاد في قحط شديد فأمر الناس بالصوم والصلاة واصلاح ذات البين وخرج بهم الى الصحراء ومعه سائر الحيوانات وفرق بينها وبين أولادها فوقع البكاء والصراخ والضجيج وأقام على ذلك الى منتصف النهار ثم صلى وخطب الناس ولم يذكر الوليد بن عبد الملك فقيل له ألا تدعو لامير المؤمنين فقال هذا مقام لايدعى فيه لغير الله تعالى فسقوا حتى رووا ثم خرج موسى غازيا وتتبع البربر وقتل فيهم قتلا ذريعا وسبى سبيا عظيما وسار حتى انتهى الى السوس الادنى لايدافعه أحد فلما رأى بقية البربر ما نزل بهم استأمنوا وبذلوا له الطاعة فقبل منهم وولى عليهم واليا واستعمل على طنجة وأعمالها مولاه طارق بن زياد البربري ويقال انه من الصدف وترك عنده تسعة عشر ألفا من البربر بالاسلحة والعدة الكاملة وكانوا قد أسلموا وحسن اسلامهم وترك موسى عندهم خلقا يسيرا من العرب ليعلموا البربر القرآن وفرائض الاسلام ورجع الى افريقية ولم يبق بالبلاد من ينازعه من البربر ولا من الروم ولما استقرت له القواعد كتب الى طارق وهو بطنجة يأمره بغزو بلاد الاندلس فغزاها في اثني عشر ألفا من البربر خلا اثني عشر رجلا وصعد على الجبل المنسوب اليه يوم الاثنين خامس رجب سنة ٩٢ وذكر عن طارق أنه كان نائما في المركب وقت التعدية فرأى النبي صلى الله عليه وسلم وأمره بالرفق بالمسلمين والوفاء بالعهد هكذا ذكر ابن بشكوال وقيل ان موسى ندم على تأخره وعلم أن طارقا ان فتح شيأ نسب الفتح اليه دونه فأخذ في جمع العساكر وولى على القيروان ابنه عبد الله وتبع طارقا فلم يدركه الا بعد الفتح وقال بعض العلماء ان موسى بن نصير كان عاقلا شجاعا كريما تقيا لله تعالى ولم يهزم له قط جيش وكان والده نصير على جيوش معاوية ومنزلته لديه مكينة ولما خرج معاوية لصفين لم يخرج معه فقال له ما منعك من الخروج معي ولي عندك يد لم تكافئني عليها فقال لم يمكني أن اشكرك بكفري من هو أولى بشكري منك فقال من هو فقال الله عز وجل فأطرق مليا ثم قال استغفر الله ورضي عنه * (رجع الى حديث طارق) قال بعض المؤرخين كان لذريق ملك الاندلس استخلف عليها شخصا يقال له تدمير واليه تنسب تدمير بالاندلس فلما نزل طارق من الجبل كتب تدمير الى لذريق انه قد نزل بأرضنا قوم لا ندري أمن السماء هم أم من الارض فلما بلغ لذريق ذلك وكان قصد بعض الجهات البعيدة لغزوه في بعض أعدائه رجع عن مقصده في سبعين ألف فارس ومعه العجل تحمل الاموال والمتاع وهو على سريره بين دابتين وعليه مظلة مكللة بالدر والياقوت والزبرجد فلما بلغ طارقا دنوه قام في أصحابه فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم حث المسلمين على الجهاد ورغبهم ثم قال أيها الناس أين المفر البحر من ورائكم والعدو أمامكم وليس لكم والله الا الصدق والصبر واعلموا أنكم في هذه الجزيرة أضيع من الايتام في مأدبة اللئام وقد استقبلكم عدوكم بجيشه وأسلحته وأقواته موفورة وانتم لا وزر لكم الا سيوفكم

ولا أقوات لكم إلا ما تستخلصونه من أيدي عدوكم وإن امتدت بكم الأيام على افتقاركم ولم
تنجزوا لكم أمراً ذهب ريحكم وتعوضت القلوب من رعبها منكم الجراءة عليكم فادفعوا
عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة من أمركم بمناجزة هذا الطاغية فقد ألقت به إليكم
مدينته الحصينة وإن انتهاز الفرصة فيه لممكن إن سمحتم لأنفسكم بالموت وإني لم أحذركم
أمراً أنا عنه بنجوة ولا حملتكم على خطة أرخص متاع فيها النفوس أبدأ بنفسي واعلموا
أنكم إن صبرتم على الأشق قليلاً استمتعتم بالأرفه الألذ طويلاً فلا ترغبوا بأنفسكم عن نفسي
فما حظكم فيه بأوفى من حظي وقد بلغكم ما أنشأت هذه الجزيرة من الحور الحسان من
بنات اليونان الرافلات في الدر والمرجان والحلل المنسوجة بالعقيان المقصورات في قصور
الملوك ذوي التيجان وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك أمير المؤمنين من الأبطال عرباناً
ورضيكم لملوك هذه الجزيرة أصهاراً وأختاناً ثقة منه بارتياحكم للطعان واستماحكم بمجالدة
الأبطال والفرسان ليكون حظه منكم ثواب الله على إعلاء كلمته وإظهار دينه بهذه الجزيرة
وليكون مغنمها خالصة لكم من دونه ومن دون المؤمنين سواكم والله تعالى ولي إنجادكم على
ما يكون لكم ذكراً في الدارين واعلموا أني أول مجيب إلى ما دعوتكم إليه وأني عند ملتقى
الجمعين حامل بنفسي على طاغية القوم لذريق فقاتله إن شاء الله تعالى فاحملوا معي فإن
هلكت بعده فقد كفيتكم أمره ولم يعوزكم بطل عاقل تسندون أموركم إليه وإن هلكت
قبل وصولي إليه فاخلفوني في عزيمتي هذه واحملوا بأنفسكم عليه واكتفوا الهم من فتح
هذه الجزيرة بقتله فإنهم بعده يخذلون فلما فرغ من تحريض أصحابه على الصبر في قتال لذريق
وأصحابه وما وعدهم من الخير الجزيل انبسطت نفوسهم وتحققت آمالهم وهبت رياح النصر
عليهم وقالوا له قد قطعنا الآمال مما يخالف ما عزمت عليه فاحضر إليه فإنا معك وبين يديك
فركب وأصحابه فباتوا ليلهم في حرس إلى الصبح فلما أصبح الفريقان تكتبوا وعبوا جيوشهم
وحمل لذريق وهو على سرير وقد حمل على رأسه رواق ديباج يظلله وهو مقبل في غابة من
البنود والأعلام وبين يديه المقاتلة والسلاح وأقبل طارق في أصحابه عليهم الزرد من فوق
رؤوسهم العمائم البيض وبأيديهم القسي العربية وقد تقلدوا السيوف واعتقلوا الرماح
فلما نظر إليهم لذريق حلف وقال إن هذه الصور هي التي رأيناها ببيت الحكمة ببلدنا فداخله
منهم الرعب فلما رأى طارق لذريق قال هذا طاغية القوم فحمل وحمل أصحابه معه فتفرقت
المقاتلة من بين يدي لذريق فخلص إليه طارق فضربه بالسيف على رأسه فقتله على سريره
فلما رأى أصحابه مصرع صاحبهم اقتحم الجيشان وكان النصر للمسلمين ولم تقف هزيمة العدو
على موضع بل كانوا يسلمون بلداً بلداً ومعقلاً معقلاً ولما سمع موسى بن نصير بما حصل من
النصر لطارق عبر الجزيرة بمن معه ولحق بمولاه طارق فقال له يا طارق إنه لن يجازيك
الوليد بن عبد الملك على بلائك بأكثر من أن يبيحك الأندلس فاستبحه هنيئاً مريئاً فقال له طارق
أيها الأمير والله لا أرجع عن قصدي هذا ما لم أنته إلى البحر المحيط أخوض فيه بفرسي يعني
البحر الشمالي الذي تحت بنات نعش ولم يزل طارق يفتح وموسى معه إلى أن بلغ إلى جليقية
وهي ساحل البحر المحيط انتهى (وقال الحافظ الحميدي في كتابه جذوة المقتبس) إن موسى

ابن نصير نقم على مولاه طارق ادغزا بغير اذنه وهم بقتله ثم ورد عليه كتاب الوليد باطلاقه
فأطلقه وخرج معه الى الشام انتهى * وقول لذريق ان هذه الصورهى التى رأيناها فى بيت
الحكمة الخ أشار به الى بيت حكمة اليونان وكان من خبره فيما حكى بعض علماء التاريخ أن
اليونان وهم الطائفة المشهورة بالحكم كانوا يسكنون بلاد المشرق قبل عهد الاسكندر فلما
ظهرت الفرس واستولت على البلاد وزاحمت اليونان على ما كان بأيديهم من الممالك انتقل
اليونان الى جزيرة الاندلس لكونها طرفا فى آخر العمارة ولم يكن لها ذكر اذ ذاك ولا ملكها
أحد من الملوك المعتبرة ولم تك عامرة وكان اول من عمر فيها واختطها اندلس بن يافث بن
نوح عليه السلام فسميت باسمه ولما عمرت الارض بعد الطوفان كانت الصورة المعمورة منها
عندهم على شكل طائر رأسه المشرق والجنوب والشمال رجلاه وما بينهما بطنه والمغرب
ذنبه وكانوا يزدرون المغرب لنسبته الى أخس أجزاء الطير وكانت اليونان لاترى فناء الامم
الا بالحروب لما فيه من الاضرار والاشتغال عن العلوم التى كان الاشتغال بها عندهم من أهم
الامور ولذلك انحازوا من بين يدى الفرس الى الاندلس فلما صاروا اليها أقبلوا على عمارتها
فشقوا الانهار وبنوا المعاقل وغرسوا الجنان والكروم وشيدوا الامصار وملؤها حرثا
ونسلا وبناء فعظمت وطابت حتى قال قائلهم لما رأى بهجتها ان الطائر الذى صورت هذه
العمارة على شكله وكان المغرب ذنبه كان طاوسا معظم جماله فى ذنبه (وحكى) أن الرشيد
هرون رحمه الله لما حضر بين يديه بعض أهل المغرب قال الرشيد يقال ان الدنيا بمثابة طائر
ذنبه المغرب فقال الرجل صدقوا يا أمير المؤمنين وانه طاوس فضحك أمير المؤمنين الرشيد
وتعجب من سرعة جواب الرجل وانتصاره لقطره (رجع) قال فاغتبط اليونان بالاندلس
أتم اغتباط واتخذوا دار الحكمة والملك بها طليطلة لانها أوسط البلاد وكان أهم الامور
عندهم تحصينها عمن يتصل به خبرها من الامم فنظروا فاذا هو أنه لا يحسدهم على رغد العيش
الا أرباب الشظف والشقاء والتعب وهم يومئذ طائفتان العرب والبربر فخافوهم على
جزيرتهم العامرة فعزموا على أن يتخذوا لهذين الجنسين من الناس طلسما فرصدوا لذلك
أرصادا ولما كان البربر بالقرب منهم وليس سوى تعدية البحر ويرد عليهم منهم طوائف منحرفة
الطباع خارجة عن الاوضاع ازدادوا منهم نفورا واكثر تحذرهم من نسب أو مجاورة حتى
ثبت ذلك فى طباعهم وصار بعضه مركبا فى غرائزهم فلما علم البربر عداوة أهل الاندلس وبغضهم
لهم أبغضوهم وحسدوهم فلم تجد أندلسيا الا مبغضا بربريا وبالعكس الا أن البربر أحوج الى
أهل الاندلس لوجود بعض الاشياء عندهم وفقدها ببلاد البربر وكان بنواحى غرب الاندلس
ملك يونانى بجزيرة يقال لها قادس وكانت له ابنة فى غاية الجمال فتسامع بها ملوك الاندلس
وكانت الاندلس كثيرة الملوك لكل بلدة أو بلدتين ملك فخطبوها وخشى أبوها ان زوجها من
واحد أسخط الباقين فتحير وأحضر ابنته وكانت الحكمة مركبة فى طباع القوم ذكورهم
واناثهم ولذا قيل ان الحكمة نزلت من السماء على ثلاثة أعضاء من أهل الارض أدمغة
اليونان وأيدى أهل الصين وألسنة العرب فقال لها يا بنية انى أصبحت على حيرة فى أمرك من
يخطبك من الملوك وما أرضيت واحدا الا أسخطت الباقين فقالت له اجعل الامر الى تخلص

فقال وما تقترحين فقالت أن تكون ملكا حكيما فقال نعم ما اخترته لنفسك فكتب في أجوبة
الملوك الخطاب أنها اختارت من الأزواج الملك الحكيم فلما وصل أعلى الجواب ينكشف من لم
يكن حكيما وكان في الملوك الخاطبين حكيمان فكتب كل واحد منهما أنا الملك الحكيم فلما وقفت
على كتابيهما قالت لأبيها نفسي إن الأمر على إشكال وهذان ملكان حكيمان أيهما أرضيت
أسخط الآخر فقالت سأقترح على كل واحد منهما أمرا يأتي به فأيهما سبق إلى الفراغ مما
التمس كنت زوجته قال وما الذي تقترحين عليهما قالت أما أنا أكون بهذه الجزيرة
ومحتاجون إلى أرحى تدور بها وأنا أقترحه على أحدهما أن يبنيها لنا على العذب الجاري
النامي ذلك البر وأقترحه على الآخر أن يعمل طلسما يحصن به جزيرة الأندلس من البربر
فاستطرف أبوها ذلك وكتب إلى الملكين بما قالت ابنته فأجابا إلى ذلك وتقاسماه على
ما اختارا وشرع كل واحد منهما في عمل ما أسند إليه من ذلك فأما صاحب الرحى فإنه عمد
إلى أشكال اتخذها من الحجارة نضد بعضها إلى بعض في البحر المالح الذي بين جزيرة الأندلس
والبر الكبير في الموضع المعروف بزقاق سبتة وسد ذا الفرج التي بين الحجارة بما اقتضت
حكمته وأوصل تلك الحجارة من البر إلى الجزيرة وآثاره باقية إلى اليوم في الزقاق الذي
بين سبتة والجزيرة الخضراء وأكثر أهل الأندلس يزعمون أن هذا أثر قنطرة كان
الإسكندر قد عملها ليعبر عليها الناس من سبتة إلى الجزيرة والله أعلم أي الأمرين أصح غير
أن الشائع إلى الآن عند الناس هو الثاني فلما تم بنيان الحجارة للملك الحكيم جلب
الماء العذب من جبل عال في البر الكبير وسلطه بساقية محكمة وبنى بجزيرة الأندلس رحى
على هذه الساقية * وأما صاحب الطلسم فإنه أبطأ عليه بسبب انتظار الرصد الموافق لعمله
غير أنه عمل أمره وأحكمه وابتنى بنيانا مربعا من حجر أبيض على ساحل البحر في رمل عالج
حفر أساسه إلى أن جعله تحت الأرض بمقدار ارتفاعه فوق الأرض ليثبت فلما انتهى البنا
المربع إلى حيث اختار صور من النحاس الأحمر والحديد المصفى المخلوطين بأحكم الخلط صورة
رجل بربري وله لحية وفي رأسه ذوابة من شعر جعد قائمة في رأسه لجعودتها وهو متأبط
بصورة كساء قد جمع طرفيه على يده اليسرى بألطف تصوير وأحكمه في رجليه نعل وهو قائم
من رأس البنا على مستهدف بمقدار رجليه فقط وهو شاهق في الهواء طوله نحو
ستين أو سبعين ذراعا وهو محدودب الأعلى إلى أن ينتهي ما سعته قدر ذراع وقد مد يده اليمنى
بمفتاح قفل قابض عليه مشيرا إلى البحر كأنه يقول لا عبور وكان من تأثير هذا الطلسم
في البحر الذي تجاهه أنه لم يزل ساكنا ولا كانت تجري فيه قط سفينة بربر إلا سقط المفتاح من
يده وكان الملكان اللذان عملا الرحى والطلسم يتسابقان إلى فراغ العمل إذ بالسبق يستحق
زواج المرأة وكان صاحب الرحى فرغ أولا لكنه أخفى أمره عن صاحب الطلسم لئلا يبطل
عمله فيبطل الطلسم لتحصل المرأة بالرحى والطلسم فلما علم باليوم الذي يفرغ صاحب الطلسم
في آخره أجرى الماء في الجزيرة من أوله وأدار الرحى واشتهر ذلك فاتصل الخبر بصاحب
الطلسم وهو في أعلى القبة يصقل وجهه وكان الطلسم مذهبا فلما تحقق أنه مسبوق ضعف
فسقط من أعلى البنا ميتا وحصل صاحب الرحى على المرأة والرحى والطلسم وكان

من تقدم من ملوك اليونان يخشى على الاندلس من البربر للسبب الذى قدمناذكره فاتفقوا وعملوا الطلسمات فى أوقات اختاروا ارصادها وأودعوا تلك الطلسمات تابوتا من الرخام وتركوه فى بيت بطليطلة وركبوا على ذلك الباب قفلا تأكيدا لحفظ ذلك البيت فاستمر أمرهم على ذلك ولما حان وقت انقراض دولة من كان بالاندلس ودخول العرب والبربر اليها وذلك بعد مضى ستة وعشرين ملكا من ملوكهم من تاريخ عمل الطلسمات بطليطلة وكان لذريق المذكور آنفا هو تمام السابع والعشرين من ملوكهم فلما اقتعد أريكة الملك قال لوزرائه وخواص دولته وأهل الرأى منهم قد وقع فى نفسى من أمر هذا البيت الذى عليه ستة وعشرون قفلا شئ وأريد أن أفتحه لانظر ما فيه لانه لم يعمل عبثا فقالوا أيها الملك صدقت انه لم يصنع عبثا ولم يقفل سدى والرأى والمصلحة أن تلقى أنت أيضا عليه قفلا أسوة بمن تقدمك من الملوك وكان آباؤك وأجدادك لم يهملوا هذا فلا تهمله وسر سيرهم فقال لهم ان نفسى تنازعنى الى فتحه ولا بدلى منه فقالوا له ان كنت تظن أن فيه مالا فقدره ونحن نجمع لك من أموالنا نظيره ولا تحدث علينا بفتحه حادثا لا نعرف عاقبته فأصر على ذلك وكان رجلا مهيبا فلم يقدروا على مراجعته وأمر بفتح الاقفال وكان على كل قفل مفتاحه معلقا فلما فتح الباب لم ير فى البيت شيأ الا مائدة عظيمة من ذهب وفضة مكللة بالجواهر وعليها مكتوب هذه مائدة سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام ورأى فى البيت ذلك التابوت وعليه قفل ومفتاحه معلق ففتحه فلم يجد فيه سوى رق وفى جوانب التابوت صور فرسان مصورة بأصباغ محكمة التصوير على أشكال العرب وعليهم الفراء وهم معممون على ذوائب جعد ومن تحتهم الخيل العربية وهم متقلدون السيوف المحلاة معتقلون الرماح فأمر بنشر ذلك الرق فاذا فيه متى فتح هذا البيت وهذا التابوت المقفلان بالحكمة دخل القوم الذين صورهم فى التابوت الى جزيرة الاندلس وذهب ملك من فيها من أيديهم وبطلت حكمتهم فلما سمع لذريق ما فى الرق ندم على ما فعل وتحقق انقراض دولتهم فلم يلبث الا قليلا حتى سمع أن جيشا وصل من المشرق جهزه ملك العرب ليفتح بلاد الاندلس انتهى * فهذا هو بيت الحكمة الذى أشار اليه لذريق والله أعلم بحقيقة الامر فى ذلك كله على أن فى هذا السياق مخالفة لما سنذكره عن بعض ثقات مؤرخى الاندلس وغيرهم فى شأن المائدة وغيرها وما ذكر فى هذه القصة من جلب الماء من بر العدوة الخ فيه بعد عندى لان بلاد الاندلس اكثر بلاد الله مياها وأنهارا فأى تحتاج الى جلب الماء اليها من العدوة الاخرى الا أن يقال ان المرأة أرادت تعجيز الرجل بذلك أو اختبار حكمته حتى يفعل هذا الامر الغريب وعلم الله من وراء ذلك كله وفوق كل ذى علم عليم ومنتهى العلم الى الله الحكيم (وقال ابن حيان فى المقتبس) ذكروا أن لذريق لم يكن من أبناء الملوك ولا بصحيح النسب فى القوط وأنه انما نال الملك من طريق الغصب والتسور عندما مات غيطشة الملك الذى كان قبله وكان أثيرا لديه مكينا فاستصغر أولاده لمكانه واستمال طائفة من الرجال مالوا معه فانتزع الملك من أولاد غيطشة واستبقاهم فكانوا هم الذين دبروا عليه فيما ذكر عند ما لقى رجال العرب المقتحمين عليه بالاندلس من تلقاء بحر الزقاق وعليهم طارق بن زياد مولى موسى بن نصير طماعة منهم فى أن يودى ويخلص اليهم ملك

اثلا يفتح وقد عهد الاول فى ذلك الى الآخر فكلما قعد منهم ملك أتاه أولئك الموكلون
بالبيت فأخذوا منه قفلا وصيروه على ذلك الباب من غير أن يزيلوا قفل من تقدمه فلما قعد
لذريق هذا وكان متهمما يقظا ذا فكر أتاه الحراس يسألونه أن يقفل على الباب فقال لهم
لا أفعل أو أعلم ما فيه ولا بد لى من فتحه فقالوا له أيها الملك انه لم يفعل هذا أحد من قبلك
وتناهوا عن فتحه فلم يلتفت اليهم ومشى الى البيت فأعظمت ذلك العجم وضرع اليه
اكابرهم فى الكف فلم يفعل وظن أنه بيت مال ففض الاقفال عنه ودخل فأصابه فارغا لا شئ
فيه الا تابوتا عليه قفل وأمر بفتحه يحسب أن مضمونه يقنعه بقناعة فألفاه أيضا فارغا ليس
فيه الا شقة مدرجة قد صورت فيها صور العرب عليهم العمائم وتحتهم الخيل العراب متقلدى
السيوف متنكبى القسى رافعى الرايات على الرماح وفى أعلاها أسطر مكتوبة بالعجمية
فقرئت فاذا فيها اذا كسرت الاقفال عن هذا البيت وفتح هذا التابوت وظهر ما فيه من هذه
الصور فان هذه الامة المصورة فى هذه الشقة تدخل الاندلس فتغلب عليها وتملكها فوجم
لذريق وندم على ما فعل وعظم غمه وغم العجم بذلك وأمر برد الاقفال واقرار الحراس على
حالهم وأخذ فى تدبير الملك وذهل عما أنذر به وقد كان من سير أكابر العجم بالاندلس
وقوادهم أن يبعثوا أولادهم الذين يريدون منفعتهم والتنويه بهم الى بلاد الملك الاكبر
بطليطلة ليصيروا فى خدمته ويتأدبوا بأدبه وينالوا من كرامته حتى اذا بلغوا أنكح بعضهم
بعضا استئلافا لآبائهم وحمل صدقاتهم وتولى تجهيز اناثهم الى أزواجهن فاتفق أن فعل ذلك
يليان عامل لذريق على سبتة وكانت يومئذ فى يد صاحب الاندلس وأهلها على النصرانية
ركب الطريقة بابنة له بارعة الجمال تكرم عليه فلما صارت عند لذريق وقعت عينه عليها
وأعجبته وأحبها حبا شديدا ولم يملك نفسه حتى استكرهها وافتضها فاحتالت حتى أعلمت أباها
بذلك سرا بمكاتبة خفية وأحفظه شأنها جدا واشتدت حميته وقال ودين المسيح لأزيلن ملكه
وسلطانه ولأحفرن تحت قدميه فكان امتعاضه من فاحشة ابنته هو السبب فى فتح الاندلس
بالذى سبق من قدر الله تعالى ثم ان يليان ركب بحر الزقاق من سبتة فى أصعب الاوقات فى صنبر
قلب الشتاء فصار بالاندلس وأقبل الى طليطلة نحو الملك لذريق فأنكر عليه مجيئه فى مثل
ذلك الوقت وسأله عما لديه وما جاء فيه ولم جاء فى مثل وقته فذكر خيرا واعتل بذكر زوجته
وشدة شوقها الى رؤية بنتها التى عنده وتمنيها لقاءها قبل الموت والحاحها عليه فى احضارها وأنه
أحب اسعافها ورجا بلوغها أمنيتها منه وسأل الملك اخراجها اليه وتعجيل اطلاقه للمبادرة
بها ففعل وأجاز الجارية وتوثق منها بالكتمان عليه وأفضل على أبيها فانقلب عنه وذكروا أنه
لما ودعه قال له لذريق اذا قدمت علينا فاستفره لنا من الشذانقات التى لم تزل تطرفنا بها فانها
أثر جوارحنا لدينا فقال له أيها الملك وحق المسيح لئن بقيت لأدخلن عليك شذانقات ما دخل
عليك مثلها قط عرض له بالذى أضمره من السعى فى ادخال رجال العرب عليه وهو لا يفطن
فلم يتلبث يليان عند ما استقر بسبتة عمله أن تهيأ للمسير نحو موسى بن نصير الامير فمضى نحوه
بافريقية وكلمه فى غزو الاندلس ووصف له حسنها وفضلها وما جمعت من أشتات المنافع وأنواع
المرافق وطيب المزارع وكثرة الثمار وثرارة المياه وعذوبتها وهون عليه مع ذلك حال رجالها

ووصفهم بضعف البأس وقلة الغنا فشوّق موسى الى ما هنالك وأخذ بالحزم فعاقد اليه
يليان معاقدة على الانحراف الى المسلمين واستظهر عليه بأن سامه مكاشفة أهل ملته
الاندلس المشركين والانصراف اليهم بالدخول اليها وشن الغارة فيها ففعل يليان ذلك وجمع
جماعة من أهل عمله فدخل بهم في مركبين وحل بساحل الجزيرة الخضراء فأغار وقتل وسبى
وغنم وأقام بها أياما ثم رجع بمن معه سالمين وشاع الخبر عند المسلمين فأنسوا بيليان واطمأنوا
اليه وكان ذلك عقب سنة تسعين فكتب موسى بن نصير الى أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك
يخبره بالذي دعاه اليه يليان من أمر الاندلس ويستأذنه في اقتحامها فكتب اليه الوليد
أن خضها بالسرايا حتى ترى وتختبر شأنها ولا تغرر بالمسلمين في بحر شديد الأهوال فراجعه
انه ليس ببحر زخار وانما هو خليج منه يبين للناظر ما خلفه فكتب اليه وان كان فلا بد من
اختباره بالسرايا قبل اقتحامه فبعث موسى عند ذلك رجلا من مواليه من البربر اسمه
طريف يكنى أبا زرعة في أربعمائة رجل معهم مائة فرس سار بهم في أربعة مراكب فنزل
بجزيرة تقابل جزيرة الاندلس المعروفة بالخضراء التي هي اليوم معبر سفنهم ودار صناعتهم
ويقال لها اليوم جزيرة طريف لنزوله بها وأقام بها أياما حتى التأم اليه أصحابه ثم مضى حتى
أغار على الجزيرة فأصاب سبيا لم ير موسى ولا أصحابه مثله حسنا ومالا جسيما وأمتعة وذلك
في شهر رمضان سنة احدى وتسعين فلما رأى الناس ذلك تسرعوا الى الدخول وقيل دخل
طريف في ألف رجل فأصاب غنائم وسبيا ودخل بعده أبو زرعة شيخ من البربر وليس
بطريف في ألف رجل منهم أيضا فأصابوا أهل الجزيرة قد نفروا عنها فضرموا عامتها بالنار
وحرقوا كنيسة بها كانت عندهم معظمة وأصابوا سبايا وقتلوا ونفروا سالمين وقال
الرازي هو أبو زرعة طريف بن مالك المعافري الاسم طرق الكنيسة بالزقاق وعاود يليان
القدوم على موسى بن نصير محركا في الاقتحام على أهل الاندلس وخبره بما كان من
طريف وأبي زرعة وما نالوه من أهلها وأسروه من طيبها فحمد الله على ذلك واستعجل
في اقتحام المسلمين بها فدعا مولى له كان على مقدمته يسمى طارق بن زياد بن عبد الله فارسيا
همدانيا وقيل انه ليس بمولى لموسى وانما هو رجل من صدف وقيل مولى لهم وقد كان بعض
عقبه بالاندلس ينكرون ولاء موسى انكارا شديدا وقيل انه بربري من نفزة فعقد له موسى
وبعثه في سبعة آلاف من المسلمين جلهم البربر والموالي وليس فيهم عرب الا قليل ووجه معه
يليان فهيأ له يليان المراكب فركب في أربع سفن لا صناعة له غيرها وحط بجبل طارق
المنسوب اليه يوم سبت في شعبان سنة اثنتين وتسعين في شهر أغسطس ثم صرف المراكب الى
من خلفه من أصحابه فركب من بقي من الناس ولم يزل السفن تختلف اليهم حتى توافى
جميعهم عنده بالجبل وقيل حل طارق بجبله يوم الاثنين لخمس خلون من رجب من السنة في
اثني عشر ألفا غير ستة عشر رجلا من البربر ولم يكن فيهم من العرب الا يسير أجازهم يليان
الى ساحل الاندلس في مراكب التجار من حيث لم يعلم بهم أولا أولا وركب آخرهم طارق
آخرهم فقيل وأصاب طارق عجوزا من أهل الجزيرة فقالت له في بعض قولها انه كان لها زوج
عالم بالحدثان فكان يحدثهم عن أمير يدخل الى بلدهم هذا فيغلب عليه ويصف من نعته انه

ضخم الهامة وأنت كذلك ومنها أن فى كتفه الايسر شامة عليها شعرفان كانت بك هذه العلامة فأنت هو فكشف طارق ثوبه فادا بالشامة فى كتفه على ماذكرته العجوز فاستبشر بذلك هو ومن معه * وذكر عن طارق أنه كان نائما فى المركب فرأى فى منامه النبى صلى الله عليه وسلم والخلفاء الاربعة أصحابه عليه الصلاة والسلام يمشون على الماء حتى مروا به فبشره النبى صلى الله عليه وسلم بالفتح وأمره بالرفق بالمسلمين والوفاء بالعهد * وقيل انه لما ركب البحر غلبته عينه فكان يرى النبى صلى الله عليه وسلم وحوله المهاجرون والانصار قد تقلدوا السيوف وتنكبوا القسى فيقول له رسول الله صلى الله عليه وسلم يا طارق تقدم لشأنك ونظر اليه والى أصحابه قد دخلوا الاندلس قدامه فهب من نومه مستبشرا وبشر أصحابه وثابت اليه نفسه ثقة ببشراه فتقويت نفسه ولم يشك فى الظفر فخرج من البلد واقتحم بسيط البلاد شانا للغارة قالوا ووقع على لذريق الملك خبر اقتحام العرب ساحل الاندلس وتوالى غاراتهم على بلد الجزيرة وأن يليان السبب فيها وكان يومئذ غائبا بأرض بنبلونة فى غزاة له الى البشكنس لامر كان استصعب عليه بناحيتهم فعظم عليه وفهم الامر الذى منه أتى وأقبل مبادرا العتق فى جموعه حتى احتل بمدينة قرطبة من المتوسطة ونزل القصر المدعو بها ببلاط لذريق المنسوب اليه وليس لانه بناه أو اخترعه وهو بناء من تقدمه من الملوك اتخذوه لمراهم فى قرطبة اذا أتوها لا أن العرب لما غلبوا لذريق وهذا القصر من مواطنه نسبوه اليه اذ لم يعرفوا من بناه ويزعم العجم ان الذى بناه ملك منهم كان ساكنا بحصن المدور أسفل قرطبة وخرج يوما يتصيد حتى انتهى الى مكان قرطبة وهى يومئذ خراب وكان فى موضع قصرها غيضة عليق ملتفة أشبة فأرسل الملك بازيا له يكرم عليه على حجلة عنت له من ناحية الكدية المنسوبة بعد الى أبى عبيدة فنحت فى ذلك العليق ولج البازى فى الانقضاض عليها فركض الملك خلفه حتى وقف على مكانه ليخرجه فأمر بقطعها لاستنقاذ بازيه ضنا منه به فقطعت وبدا له تحتها أساس قصر عظيم راقه رصه وقد كان ذا همة فأمر بالكشف عنه وتقصى حدوده طولا وعرضا وتتبع أسه وأصله فوجده مبنيا من وجه الماء بصم الحجارة فوق رزجون وضع بينها وبين الماء باحكم صناعة فقال هذا أثر ملك كريم وأنا أولى من جدده فأمر باعادته الى هيأته واتخاذه منزلا من منازل راحاته فكان اذا طاف بعمله أومضى فى متصيده نزل فيه وصار السبب فى بناء قرطبة الى جنبه ونزل الناس فيها وتوارث الملوك قصرها من بعده ونزله لذريق فى زحفه الى العرب أياما والحشود من أعماله تتوالى اليه ثم مضى نحو كورة شذونة يبغى لقاءهم فى حشوده الكثيرة * وقيل ان آخر ملوك الاندلس الذين تلتهم العرب غيطشة وانه هلك عن أولاد ثلاثة صغار لم يصلحوا للملك فضبطت أمهم عليهم ملك والدهم بطليطلة وانحرف لذريق قائد الخيل لوالدهم فيمن تبعه عنهم فصار بقرطبة فلما اقتحم طارق الاندلس نفر اليه لذريق واستنفر اليه أجناد أهل الاندلس وكتب الى أولاد غيطشة وقد ترعرعوا وركبوا الخيل واتخذوا الرجال يدعوهم الى الاجتماع معه على حرب العرب ويحذرهم من القعود عنه ويحضهم على أن يكونوا على عدوهم يدا واحدة فلم يجدوا بدا وحشدوا وقدموا عليه بقرطبة فنزلوا اكناف قرية شقندة بعدوة نهرها قبالة القصر ولم

فطمعوا الى الدخول على لذريق أخذا بالجرم الى أن استخف بها لذريق وخرج فأسمعوا اليه ومضوا أمامه وهم يرصدون له مكروها والاصح والله أعلم ما سبق أن ملك القوط اسمه لذريق واختلف في اسمه فقيل رذريق بالرا أوّله وقيل باللام لذريق وهو الاشهر وقيل ان أصله من أصبهان وسمي الاسبان والله أعلم قالوا وعسكر لذريق في نحو مائة ألف ذوي عدد وعدة فكتب طارق الى موسى يستمده ويعرفه انه فتح الجزيرة الخضرا فرضة الاندلس وملك المجاز اليها واستولى على أعمالها الى البحيرة وأن لذريق زحف اليه بما لا قبل له به الا أن يشا الله وكان موسى مذ وجه طارقا لوجهه قد أخذ في عمل السفن حتى صار عنده منها عدة كثيرة فحمل الى طارق منها خمسة آلاف من المسلمين مددا فكملت بهم عدة من معه اثني عشر ألفا أمدوا على الغنائم حراصا على اللقا ومعهم يليان الشيطان في رجاله وأهل عمله يدلهم على العورات ويتجسس لهم الاخبار وأقبل نحوهم لذريق في جموع العجم وملوكها وفرسانها وأشياعها وقال بعضهم لبعض ان هذا ابن الخبيثة قد غلب على سلطاننا وليس من أهله وانما كان من أتباعنا فلسنا نعدم من سيرته خبالا الى أمرنا وهؤلاء القوم الطارئون لا حاجة لهم في استيطان بلدنا وانما مرادهم أن يملؤوا أيديهم من الغنائم ثم يخرجوا عنا فلنهزم بابن الخبيثة اذا نحن لقينا القوم لعلهم يكفوننا أمره فاذا انصرفوا عنا أقعدنا في ملكنا من يستحقه فأجمعوا على ذلك والقضا يبرم ما أرادوه وكان لذريق ولى ميمنته أحد ابني غيطشة وميسرته الآخر فكانا رأس الذين أداروا عليه الهزيمة وأداهما الى ذلك طمع في ملك والدهما اليهما وقيل لما نازل المسلمين أجمع أولاد غيطشة على الغدر بلذريق وأرسلوا الى طارق يعلمونه ان لذريق كان تابعا وخادما لابيهم فغلبهم على سلطانه بعد مهلكه وأنهم غير تاركي حقهم لديه ويسألونه الامان على أن يميلوا اليه عند اللقاء فيمن يتبعهم وأن يسلم اليهم اذا ظفر ضياع والدهم بالاندلس كلها وكانت ثلاثة آلاف ضيعة فسميت بعد ذلك صفايا الملوك فأجابهم الى ذلك وعاقدهم عليه فلما التقى الفريقان من الغد مال الاولاد الى طارق فكان ذلك أقوى أسباب الفتح وكان الالتقاء على وادي لكه من كورة شذونة فهزم الله الطاغية لذريق ومن معه ونصر المسلمين نصرا لا كفاء له ورمى لذريق نفسه في وادي لكه وقد أثقلته الجراح فلم يعرف له خبر ولم يوجد وقيل نزل طارق بالمسلمين قريبا من عسكر لذريق منسلخ شهر رمضان سنة ٩٢ وخرج لذريق غضبان من أصحابه قد عرف غدرهم ويئس وندب يأسه لشرف على عسكر طارق فحزر عددهم وتعاين هيأتهم ومراكبهم فأول ذلك العلج حتى طلع على العسكر فشد وجوه من استمر به من المسلمين ووثبوا اليه فولى منهزما راكضا فاتهم بسبق فرسه فقال العلج للذريق أتتك الصور التي كشف لك عنها التابوت فخذ على نفسك فقد جاءك منهم من لا يريد الا الموت أو اصابة ما تحت قدميك قد حرقوا مراكبهم اياسا لانفسهم من التعلق بها وصفوا في السهل موطنين أنفسهم على الثبات اذ ليس لهم في أرضنا مكان مهرب فرعب وتضاعف جزعه والتقى العسكران بالبحيرة واقتتلوا قتالا شديدا الى أن انهزمت ميمنة لذريق وميسرته انهزم بهما ابنا غيطشة وثبت القلب بعدهما قليلا وفيه لذريق فعدد أهله حتى ثم انهزموا ولذريق أمامهم فانحرف

هزيمتهم وأذرع المسلمون القتل فيهم وخفى أثر لذريق فلا يدرى أمره الا أن المسلمين وجدوا
فرسه الاشهب الذى فقد وهو راكبه وعليه سرج له من ذهب مكلل بالياقوت والزبرجد
ووجدوا أحد خفيه وكان من ذهب مكلل بالدر والياقوت والزبرجد وقد ساخ الفرس فى
طين وحمأة وغرق العلج فثبت أحد خفيه فى الطين فأخذ وخفى الآخر وغاب شخص العلج ولم
يوجد حيا ولا ميتا والله أعلم بشأنه (وقال الرازى) كانت الملاقاة يوم الاحد لليلتين بقيتا من
شهر رمضان فاتصلت الحرب بينهم الى يوم الاحد لخمس خلون من شوال بعده تتمة ثمانية أيام
ثم هزم الله المشركين فقتل منهم خلق عظيم أقامت عظامهم بعد ذلك بدهر طويل ملبسة
بتلك الارض قالوا وحاز المسلمون من عسكرهم ما يجل قدره فكانوا يعرفون كبار العجم
وملوكهم بخواتم الذهب يجدونها فى أصابعهم و يعرفون من دونهم بخواتم الفضة ويميزون
عبيدهم بخواتم النحاس فجمع طارق الفىء وخمسه ثم اقتسمه أهله على تسعة آلاف من المسلمين
سوى العبيد والاتباع وتسامع الناس من أهل بر العدوة بالفتح على طارق بالاندلس وسعة
المغانم فيها فأقبلوا نحوه من كل وجه وخرقوا البحر على كل ما قدروا عليه من مركب وقشر
فلحقوا بطارق وارتفع أهل الاندلس عند ذلك الى الحصون والقلاع وتهاربوا من السهول
ولحقوا بالجبال ثم أقبل طارق حتى نزل بأهل مدينة شذونة فامتنعوا عليه فشد الحصر عليهم
حتى تملكهم وأضرّ هم فتهيأ له فتحها عنوة فحاز منها غنائم ثم مضى منها الى مدور ثم عطف
على قرمونة فقربعينه المنسوبة اليه ثم مال على اشبيلية فصالحه أهلها على الجزية ثم نازل أهل
استجة وهم فى قوة ومعهم فل عسكر لذريق فقاتلوا قتالا شديدا حتى كثر القتل والجراح
بالمسلمين ثم ان الله تعالى أظهر المسلمين عليهم فانكسروا ولم يلق المسلمون فيما بعد حربا مثلها
وأقاموا على الامتناع الى أن ظفر طارق بالعلج صاحبها وكان مغترا سيئ التدبير فخرج الى النهر
لبعض حاجاته وحده فصادف طارقا هنالك قد أتى لمثل ذلك وطارق لا يعرفه فوثب عليه
طارق فى الماء فأخذه وجاء به الى العسكر فلما كاشفه اعترف له بأنه أمير المدينة فصالحه
طارق على ما أحب وضرب عليه الجزية وخلى سبيله فوفى بما عاهد عليه وقذف الله الرعب
فى قلوب الكفرة لما رأوا طارقا يوغل فى البلاد وكانوا يحسبونه راغبا فى المغنم عاملا على
القفول فسقط فى أيديهم وتطايروا عن السهول الى المعاقل وصعد ذوو القوة منهم الى دار
مملكتهم طليطلة قيل وكان من ارهاب طارق لنصارى الاندلس وحيله أن تقدم الى أصحابه
فى تفصيل لحوم القتلى بحضرة أسراهم وطبخها فى القدور يروهم أنهم يأكلونها فعل من
انطلق من الاسرى يحدثون من وراءهم بذلك فتمتلئ منه قلوبهم رعبا و يجفلون فرارا قالوا
وقال يليان لطارق قد فضضت جيوش القوم ورعبوا فاصمد لبيضتهم وهؤلاء أدلاء من
أصحابى مهرة ففرق جيوشك معهم فى جهات البلاد واعمد أنت الى طليطلة حيث معظمهم
فاشغل القوم عن النظر فى أمرهم والاجتماع الى أولى رأيهم ففرق طارق جيوشه معهم من
استجة فبعث مغيثا الرومى مولى الوليد بن عبد الملك الى قرطبة وكانت من أعظم مدائنهم فى
سبعمائة فارس لان المسلمين ركبوا جميعا خيل العجم ولم يبق فيهم راجل وفضلت عنهم الخيل
وبعث جيشا آخر الى مالقة وآخر الى غرناطة مدينة البيرة وسار هو فى معظم الناس الى كورة

جيان يريد طليطلة وقد قيل إن الذي سار لقرطبة طارق بنفسه لا مغيث والأول أكثر وإنه نزل
بشقندة في غيضة أرز بساحته وأرطاب الدلب فأمسكوا راعي غنم فسئل عن قرطبة فقال
رحل عنها عظماء أهلها إلى طليطلة وبقي فيها أميرها في أربعمائة فارس من حماتهم مع ضعفاء
أهلها وسئل عن سورها فأخبر أنه حصين عال فوق أرضهم إلا أن فيه ثغرة ووصفها لهم فلما
أجنهم الليل أقبلوا نحو المدينة وقرب الله لهم أسباب الفتح بأن أرسل السماء رذاذاً أخفى
دمدمة سنابك الخيل وأقبل المسلمون رويداً حتى عبروا نهر قرطبة ليلاً وقد أغفل حرس المدينة
احتراس السور فلم يظهروا عليه ضجراً بالذي نالهم من المطر والبرد فترجل القوم حتى عبروا
النهر وليس بين النهر والسور إلا مقدار ثلاثين ذراعاً أو أقل وراموا التعلق بالسور فلم يجدوا
متعلقاً ورجعوا إلى الراعي فدلهم على الثغرة التي ذكرها فأراهم إياها فإذا لم تكن
مسهلة التسنم إلا أنه كان في أسفلها شجرة تين مكنت أفنانها من التعلق بها فصعد رجل
من أشداء المسلمين في أعلاها ونزع مغيث عمامته فناوله طرفها وأعان بعض الناس بعضاً
حتى كثروا على السور وركب مغيث ووقف من خارج وأمر أصحابه المرتقين للسور بالهجوم
على الحرس ففعلوا وقتلوا نفراً منهم وكسروا أقفال الباب وفتحوه فدخل مغيث ومن معه
وملكوا المدينة عنوة وقصد إلى البلاط مقر الملك وعنده أدلاؤه وقد بلغ الملك دخولهم
المدينة فبادر بالفرار عن البلاط في أصحابه وهم زهاء أربعمائة فخرج إلى كنيسة بغربي
المدينة وتحصن بها وكان الماء يأتيها تحت الأرض من عين في سفح جبل وقد امتنعوا عن أسرهم
وملك مغيث المدينة وما حولها وقال من ذهب إلى أن طارقاً لم يحضر فتح قرطبة وأن فاتحها
مغيث إنه كتب إلى طارق بالفتح وأقام على محاصرة العلج بالكنيسة ثلاثة أشهر حتى ضاق
من ذلك وطال عليه فتقدم إلى أسود من عبيده اسمه رباح وكان ذا بأس ونجدة بالكمون
في بستان إلى جانب الكنيسة ملتفة الأشجار لعله أن يظفر له بعلج يثقفه على خبر الروم ففعل
ودعا ضعف عقله إلى أن صعد في بعض تلك الأشجار وذلك أيام المراعي فلما كان بصر به
أهل الكنيسة وشدوا عليه فأخذوه فملكوه وهم في ذلك هائبون له مستنكرون لمثله
إذ لم يكونوا رأوا أسود قبله فاجتمعوا عليه وكثر لغطهم وتعجبهم من خلقته وحسبوا أنه
مصبوغ أو مطلي ببعض الأصباغ التي تسود فجردوه ووسط جماعتهم وأدنوه إلى القناة التي بها
كان يأتيهم الماء وأخذوا في غسله ودلكه بالحبال الخرس حتى أدموه وأعيوه فاستغاثهم
وأشار إلى أن الذي به خلقة من بارئهم عز وجل ففهموا إشارته وكفوا عنه وعن غسله
واستفزعهم منه ومكث في إسارهم سبعة أيام لا يتركون التجمع عليه والتطلع إليه إلى أن
يسر الله له الخلاص فأدبر إلى الأمير مغيثاً مخبراً بشأنه وعرفه بالذي اطلع عليه من شأنهم
وموضع الماء الذي يتناولونه وبأي ناحية يأتيهم فأمر أهل المعرفة بطلب تلك القناة في الجهة
التي أشار إليها الأسود حتى أصابوها فقطعوها عن جريها إلى الكنيسة وسدوا منافذها
وأيقنوا بالهلاك حينئذ فدعاهم مغيث إلى الإسلام أو الجزية فأبوا عليه فأوقد النار عليهم
حتى أحرقهم فسميت كنيسة الحرقى والنصارى تعظمها للصبر الذي كان فيها على دينهم مع شدة
البلاء غير أن العلج أميرهم رغب بنفسه عن بليتهم عندما شارف الهلاك فخرج وحده وقد

استعلم

استغفلهم ورام اللحاق بطليطلة فبلغ خبره الى مغيث فبادر الركض خلفه وحده فلحقه بقرب قرية تطليرة هاربا وحده وتحته فرس أصفر ذريع الخطو وحرك مغيث خلفه فالتفت العلج ودهش لما رأى مغيثا قد رهقه وزاد في حث فرسه فقصر به فسقط عن الفرس واندق عنقه فقعد على ترسه مستسلما فأسره قد هاضته السقطة فقبض عليه مغيث وسلبه سلاحه وحبسه عنده ليقدم به على أمير المؤمنين الوليد ولم يؤسر من ملوك الاندلس غيره لان بعضهم استأمن وبعضهم هرب الى جليقية وفي رواية ان مغيثا استنزل أهل الكنيسة بعد أسر ملكهم فضرب أعناقهم جميعا فى أحل ذلك عرفت بكنيسة الاسرى وان مغيثا جمع يهود قرطبة فضمهم الى مدينتها استنامة اليهم دون النصارى للعداوة بينهم وأنه اختار القصر لنفسه والمدينة لاصحابه * وأما من وجه الى مالقة ففتحوها ولجأ علوجها الى جبال هنالك ممتعة ثم لحق ذلك الجيش بالجيش المتوجه الى البيرة فحاصروا مدينتها غرناطة فافتتحوها عنوة وضموا اليهود الى قصبة غرناطة وصار ذلك لهم سنة فى كل بلد يفتحونه أن يضموا يهوده الى القصبة مع قطعة من المسلمين لحفظها ويمضي معظم الناس لغيرها واذا لم يجدوا يهودا وفروا عدد المسلمين الحافظين لحفظ ما فتح ثم صنعوا عند فتح كورة رية التي منها مالقة مثل ذلك ومضى الجيش الى تدمير وتدمير اسم العلج صاحبها سميت به واسم قصبتها اريولة ولها شأن فى المنعة وكان ملكها علجا داهية وقاتلهم مصحبا ثم استمرت عليه الهزيمة فى فحصها فبلغ السيف فى أهلها مبلغا عظيما افنى اكثرهم ولجأ العلج الى اريولة فى يسير من أصحابه لا يغنون شيأ فأمر النساء بنشر الشعور وحمل القصب والظهور على السور فى زى القتال متشبهات بالرجال وتصدر قدامهن فى بقية أصحابه يغالط المسلمين فى قوته على الدفاع عن نفسه فكره المسلمون مراسه لكثرة من عاينوه على السور وعرضوا عليه الصلح فأظهر الميل اليه وتكرزيه فنزل اليهم بأمان على أنه رسول فصالحهم على أهل بلده ثم على نفسه وتوثق منهم فلما تم له من ذلك ما أراد عرفهم بنفسه واعتذر اليهم بالابقاء على قومه وأخذهم بالوفاء بعهده وأدخلهم المدينة فلم يجدوا فيها الا العيال والذرية فندموا على الذى أعطوه من الامان واسترجحوه فيما احتال به ومضوا على الوفاء له وكان الوفاء عادتهم فسلمت كورة تدمير من معرة المسلمين بتدبير تدمير وصارت كلها اصلحا ليس فيها عنوة وكتبوا الى أميرهم طارق بالفتح وخلفوا بقصبة البلد رجالا منهم ومضى معظمهم الى أميرهم لفتح طليطلة قال ابن حيان وانتهى طارق الى طليطلة دار مملكة القوط فألفاها خالية قد فرغ عنها أهلها ولجؤا الى مدينة بها خلف الجبل فضم اليهود الى طليطلة وخلف بها رجالا من أصحابه ومضى خلف من فر من أهل طليطلة فسلك وادى الحجارة ثم استقبل الجبل فقطعه من فج سمى به بعد فبلغ مدينة المائدة خلف الجبل وهى المنسوبة لسليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام وهى خضراء من زبرجد حافاتها منها وأرجلها وكان لها ثلثمائة وخمسة وستون رجلا فأحرزها ثم مضى الى المدينة التي تحصنوا بها خلف الجبل فأصاب بها حليا ومالا ورجع ولم يجاوزها الى طليطلة سنة ثلاث وتسعين وقيل انه لم يرجع بل اقتحم أرض جليقية واخترقها حتى انتهى الى مدينة استرقة فدوخ الجهة وانصرف الى طليطلة والله أعلم وقيل ان طارقا دخل

الى قرطبة فيجدد تكرمتها ولا يحجب عياله منها وتوفى زوجها عيسى فى السنة التى ملك فيها عبد الرحمن الاندلس فزوجها عبد الرحمن من عمير بن سعيد وكان لها ولابيها أملاك وعمها ارطباش فى صدر الدولة العربية بالاندلس أخبار ملوكية فمنها ما حكاه الفقيه محمد بن عمر ابن لبابة المالكى أنه قصد أرطباش يوما الى منزله عشرة من رؤساء رجال الشاميين فيهم الصميل وابن الطفيل وأبو عبدة وغيرهم فأجلسهم على الكراسى وبالغ فى تكريمهم ودخل على أثرهم ميمون العابد جد بنى حزم وكان فى عداد الشاميين الا انه كان شديد الانقباض عنهم لزهده وورعه فلما بصر به ارطباش قام اليه دونهم اعظاما وترقاه الى كرسيه الذى كان يجلس عليه وكان ملبسا صفائح الذهب وجذبه ليجلسه مكانه فامتنع عليه ميمون وقعد على الارض فقعد أرطباش معه عليها وأقبل عليه قبلهم فقال له ياسيدى ما الذى جاء بك الى مثلى فقال له ما تسمعه انا قدمنا الى هذا البلد غزاة نحسب أن مقامنا فيه لا يطول فلم نستعد للمقام ولا كثر ناس العدة ثم حدث بعدنا على مواليناوى اجدادنا ماقد أيسنا معه من الرجوع الى أوطاننا وقد وسع الله عليك وأحب أن تدفع الى ضياعا من ضياعك اعمرها بيدى وأؤدى اليك الحق منها وآخذ الفضل لى طيبا اتعيش منه فقال لا ارضى لك بالمساهمة بل أهب لك هبة مسوغة ثم دعا بوكيل له فقال له سلم اليه المجشر الذى لنا على وادى شوش بما فيه من العبيد والدواب والبقر وغير ذلك وادفع اليه الضيعة التى بجيان فتسلم ميمون الضيعتين وورثهما ولده واليهم نسبت قلعة حزم فشكره ميمون وأثنى عليه وقام عنه وقد أنف الصميل من قيامه اليه فأقبل على ارطباش وقال له كنت اظنك أرجح وزنا أدخل عليك وأنا سيد العرب بالاندلس فى أصحابى هؤلاء وهم سادة الموالى فلا تزيد نا من الكرامة على الاقعاد على أعواد الاعدة ويدخل هذا الصعلوك فتصير من اكرامه الى حيث صرت فقال له ياأبا جوشن ان أهل دينك يخبروننا أن أدبهم لم يرهفك ولوكان لم تنكر على ما فعلته انكم اكرمكم الله انما تكرمون لدنياكم وسلطانكم وهذا انما اكرمته لله تعالى فقدروينا عن المسيح عليه السلام أنه قال من اكرمه الله تعالى من عباده بالطاعة له وجبت كرامته على خلقه وكأنما ألقمه حجرا وكان الصميل أميا ولذلك عرض به فقال له القوم دعنا من هذا وانظر فيما قصدناك فحاجتنا حاجة الرجل الذى قصدك فاكرمته فانظر فى شأننا فقال له أنتم ملوك الناس وليس يرضيكم الا الكثير وها انا أهب لكم مائة ضيعة تقتسمونها عشرا عشرا وكتب لهم بها وأمر وكلاءه بتسليمها اليهم فكان القوم يرونها من أطيب املاكهم انتهى * قال ابن حيان وغيره ولما بلغ موسى بن نصير ما صنعه طارق بن زياد وما اتيح له من الفتوح حسده وتم أ المسير الى الاندلس فعسكر وأقبل نحوها ومعه جماعة الناس وأعلامهم وقيل انهم كانوا ثمانية عشر ألفا وقيل اكثر فكان دخوله الى الاندلس فى شهر رمضان سنة ثلاث وتسعين وتنكب الجبل الذى حله طارق ودخل على الموضع المنسوب اليه المعروف الآن بجبل موسى فلما احتل الجزيرة الخضراء قال ما كنت لاسلك طريق طارق ولا اقفو أثره فقال له العلوج الادلاء أصحاب يليان نحن نسلكك طريقا هو أشرف من طريقه وندلك على مدائن هى أعظم خطرا وأعظم خطبا وأوسع غنما من

مدائنه لم يفتح بعد فتحها الله عليك ان شاء الله تعالى فسر سرورا وكان سوق طارق
قد جعله فسار روايته في جانب ساحل شذونة فافتتحها عنوة والقوا بأيديهم اليه ثم سار الى
مدينة قرمونة وليس بالأندلس أحصن منها ولا ابعد على من يرومها حصارا وقتالا فدخلها
بحيلة توجه بأصحاب يليان دخلوا اليهم كأنهم فلال وطرقتهم خيله ليلا ففتحوا
لهم الباب واوقعوا بالاحراس فملك المدينة ومضى موسى الى اشبيلية جارتها فحاصرها
وهي اعظم مدائن الاندلس شأنا واتقنها بنيانا واكثرها آثارا وكانت دار الملك قبل القوطيين
فلما غلب القوطيون على ملك الاندلس حولوا السلطان الى طليطلة وبقي رؤساء الدين فيها
اعني اشبيلية فامتنعت اشهرا على موسى ثم فتحها الله عليه وهرب العلوج عنها الى مدينة
باجة فضم موسى يهودها الى القصبة وخلف بها رجالا ومضى من اشبيلية الى
مدينة ماردة وكانت ايضا دار مملكة لبعض ملوك الاندلس في سالف الدهر وهي ذات عز
ومنعة وفيها آثار وقصور ومصانع وكنائس جليلة القدر فائتة الوصف فحاصرها أشهرا وكان
في اهلها منعة شديدة وبأس عظيم فنالوا من المسلمين دفعات وآذوهم وعمل موسى دبابة دب
المسلمون تحتها الى برج من ابراج سورها فجعلوا ينقبونه فلما ظفروا بالصخر افضوا بعده
الى العمل المدعو بلسان العجم الاشة فانثنت عنه معاولهم وعقدتهم وثار بهم العدو على
غفلة فاستشهد بالدبابة قوم من المسلمين تحت تلك الدبابة فسمي ذلك الموضع برج الشهداء
ثم دعا القوم الى السلم فدخل اليه في نفر قوم من اماثلهم فاعطاهم الامان واحتال
في نوبتهم في نفسه فدخلوا عليه أول يوم فاذا هو أبيض الرأس واللحية كاصل حصانه فلم
يفقهوا معه أمرا وعاودوه قبل الفطر بيوم فاذا هو قد خضب لحيته بالحناء فجاءت كأسنام
عرفج فعجبوا من ذلك وعاودوه يوم الفطر فاذا هو قد سود لحيته فازداد تعجبهم منه وكانوا
لا يعرفون الخضاب ولا استعماله فقالوا لقومهم انا نقاتل أنبياء يخلقون كيف شاؤا
ويتصورون في كل صورة احبوا كان ملكهم شيخا فقد صار شابا والرأي أن نقاربه ونعطيه
ما سأله فنالوا بطاعته فأذعنوا عند ذلك وأكملوا صلحهم مع موسى على أن أموال القتلى
يوم الكمين وأموال الهاربين الى جليقية للمسلمين وأموال الكنائس وحليها للمسلمين ثم فتحوا له
المدينة يوم الفطر سنة أربع وتسعين فملكها ثم ان عجم اشبيلية اشتدوا على المسلمين واجتمعوا
من مدينتي باجة ولبلة اليهم فأوقعوا بالمسلمين وقتلوا منهم نحو ثمانين رجلا وأتى فلهم الامير
موسى وهو بمارده فلما أن فتحها وجه ابنه عبد العزيز موسى في جيش الى اشبيلية ففتح اشبيلية
وقتل اهلها ومضى الى لبلة فتحها واستدام الأمر فيهما الله وعلا الاسلام وأقام
عبد العزيز باشبيلية وتوجه الامير موسى من مارده في عقب شوال من العام المؤرخ يريد
طليطلة وبلغ طارقا خبره فاستقبله في وجوه الناس فلقيه في موضع من كورة طلبيرة وقيل ان
موسى قدم من ماردة وقد حمل طليطلة بعد فتح بنفسه الى جهتها حتى وافى طارق بن زياد
صاحب مقدمته عند منتهاه ففتح بعضه بأمره وأمطرها ما استفتحه عليه من غير ذلك والله أعلم
وقيل لما وقعت عينه عليه نزل اليه اعظاما له لتبعته وتأدب بالسوط وزجره على استبداده عليه
وخالفه لرأيه وساروا الى طليطلة فطالبه موسى بما غنم من مال الملوك وبذخائر الملوك

واستحجله بالمائدة فأتاه بها وقد خلع من أرجلها رجلا وخبأه عنده فسأله موسى عنه فقال لا علم لى به وبكذا أصبتها فأمر موسى فجعل لها رجل من ذهب جاء بعيد الشبه من أرجلها يظهر عليه التعمل ولم يقدر على أحسن منه فأخل بها * وقال ابن الفرضى "موسى بن نصير صاحب فتح الاندلس لخمى يكنى أبا عبد الرحمن يروى عن تميم الدارى وروى عنه يزيد بن مسروق اليحصبى" وقيل غزا موسى بن نصير فى المحرم سنة ثلاث وتسعين فأتى طنجة ثم عبر على الاندلس فأداخها الا أنى على مدينة الا فتحها ونزل أهلها على حكمه وسار الى قرطبة ثم قفل عن الاندلس سنة أربع وتسعين فأتى افريقية وسار عنها سنة خمس وتسعين الى الشام يؤم الوليد بن عبد الملك يجر الدنيا جرا احتمله من غنائم الاندلس من الاموال والامتعة يحملها على العجل والظهر ومعه ثلاثون ألف رأس من السبى فلم يلبث أن هلك الوليد بن عبد الملك وولى سليمان فنكب موسى نكبا أداه الى المتربة فهلك فى نكبته تلك بوادى القرى سنة سبع وتسعين (قال ابن حيان) وهذه المائدة المنوه باسمها المنسوبة الى سليمان النبى "عليه الصلاة والسلام لم تكن له فيما يزعم رواة العجم واعا أصلها ان العجم فى أيام ملكهم كان أهل الحسبة منهم اذا مات أحدهم أوصى بمال للكنائس فاذا اجتمع عندهم ذلك المال صاغوا منه الآلات الضخمة من الموائد والكراسى وأشباهها من الذهب والفضة تحمل الشمامسة والقسوس فوقها مصاحف الاناجيل اذا أبرزت فى أيام المناسك ويضعونها على المذابح فى الاعياد للمباهاة بزينتها فكانت تلك المائدة بطليطلة مما صيغ فى هذه السبيل وتأنقت الاملاك فى تفخيمها يزيد الآخر منهم على الاول حتى برزت على جميع ما اتخذ من تلك الآلات وطار الذكر مطاره عنها وكانت مصوغة من خالص الذهب مرصعة بفاخر الدر والياقوت والزمرد لم تر الاعين مثلها وبولغ فى تفخيمها من أجل دار المملكة وانه لا ينبغى أن تكون بموضع آلة جمال أو متاع مباهاة الا دون ما يكون فيها وكانت توضع على مذبح كنيسة طليطلة فأصابها المسلمون هنالك وطار لها أعظم عنها وقد كان طارق طن بموسى أميره مثل الذى فعله من غيرته على ما تهيأ له ومطالبته له بتسليم ما فى يده اليه فاستظهر بانتزاع رجل من أرجل هذه المائدة خبأه عنده فكان من غلبه به على موسى عدوه عند الخليفة اذ تنازعا عنده بعد الاثر فى جهادهما ما هو مشهور انتهى * وقال بعض المؤرخين ان المائدة كانت مصوغة من الذهب والفضة وكان عليها طوق لؤلؤ وطوق ياقوت وطوق زمرد وكلها مكللة بالجواهر انتهى * وما ذكره ابن حيان من أن الذى نكب موسى بن نصير هو سليمان بن عبد الملك صواب وأما ما حكاه ابن خلكان من أن المنكب له الوليد فليس بصحيح والله أعلم * رجع الى كلام ابن حيان قالوا ثم ان موسى اصطلح مع طارق وأظهر الرضا عنه وأقره على مقدمته على رسمه وأمره بالتقدم أمامه فى أصحابه وسار موسى خلفه فى جيوشه فارتقى الى الثغر الاعلى وافتتح سرقسطة وأعمالها وأوغل فى البلاد وطارق أمامه لا يمران بموضع الا فتح عليهما وغنمهما الله تعالى ما فيه وقد ألقى الله الرعب فى قلوب الكفرة فلم يعارضهما أحد الا بطلب صلح وموسى يجىء على أثر طارق فى ذلك كله ويكمل ابتداءه ويوثق للناس ما عاهده عليه فلما صفا القطر كله وطامن نفوس من أقام على سلمه ووطأ لاقدام المسلمين فى الحلول به أقام لتمييز ذلك وقسما

وأمضى المسلمين إلى إفرنجة فغنموا وغزوا وتوغلوا وعلوا حتى انتهوا إلى وادي
رذونة فكان أقصى أثر العرب ومنتهى موطئهم من أرض العجم وقد دخلت بعوث طارق
وموسى أيضاً بلاد إفرنجة فلككت مدينة برشلونة وأربونة وصخرة أبنيون وحصن لودون على
وادي رذونة فقعدوا على الساحل الذي فيه فكلوا أحداً وذكر أن مسافة ما بين قرطبة
وأربونة من بلاد إفرنجة ثلاثمائة فرسخ وخمسة وثلاثون فرسخاً وقيل ثلاثمائة فرسخ وخمسون
فرسخاً ولما توغل المسلمون إلى أربونة ارتاع لهم قارله ملك الإفرنجة بالأرض الكبيرة وارتجع
لا يثبت لهم فحشد لهم وخرج عليهم في جمع عظيم فلما انتهى إلى حصن لودون وعلمت العرب
بكثرة جموعه زالت عن وجهه وأقبل حتى انتهى إلى صخرة أبنيون فلم يجد بها أحداً وقد عسكر
المسلمون قدامه فيما بين الأجبل المجاورة لمدينة أربونة وهم غافلون لا يعرفون لهم ولا طلائع
فما شعروا حتى أحاط بهم عدو الله قارله فاقتطعهم عن الممر إلى مدينة أربونة وواقعهم
العرب فما قاتلوا إلا أشداء فاستشهد منهم جماعة منهم وقتل ... على ... حتى
افترقوا ودخلوا المدينة ولاذوا بحصانتها فما زالهم عنها إلا ما أصابه فيها رجال وعدد
عليه الطعام وتأخر ... مدد للمسلمين فرحل عنهم راجعاً إلى بلده وقد نصب في وجه
المسلمين حصوناً على وادي رذونة فشحنها بالرجال فصارت ثغراً بين بلده والمسلمين وذلك
بالأرض الكبيرة خلف الأندلس (وقال الحجاري في المسهب) أن موسى بن نصير نصر الله
نصراً ما عليه من مزيد وأجفلت ملوك النصارى بين يديه حتى خرج على باب الأندلس الذي في
الجبل الحاجز بينها وبين الأرض الكبيرة فاجتمعت الإفرنج إلى ملكها الأعظم قارله وهذه
سمة لملكهم فقالت له ما هذا الخزي الباقي في الأعقاب كنا نسمع بالعرب ونخافهم من جهة
مطلع الشمس حتى أتوا من مغرب الشمس واستولوا على بلاد الأندلس وعظيم ما فيها من العدد
والعدد بجمعهم القليل وقلة عددهم وكونهم لا دروع لهم فقال لهم ما معناه الرأي عندي
أن لا تعترضوهم في خرجتهم هذه فإنهم كالسيل يحمل من يصادره وهم في إقبال أمرهم ولهم
نيات تغني عن كثرة العدد وقلوب تغني عن حصانة الدروع ولكن أمهلوهم حتى تمتلئ أيديهم
من الغنائم ويتخذوا المساكن ويتنافسوا في الرئاسة ويستعين بعضهم ببعض فحينئذ
تتمكنون منهم بأيسر أمر قال فكان والله كذلك بالفتنة التي طرأت بين الشاميين والبلديين
والبربر والعرب والمضرية واليمانية وصار بعض المسلمين يستعين على بعض بمن جاورهم
من الأعداء انتهى * وقيل إن موسى بن نصير أخرج ابنه عبد الأعلى إلى تدمير ففتحها وإلى
غرناطة ومالقة وكورة ريه ففتح الكل وقيل إنه لما حاصر مالقة وكان ملكها ضعيف الرأي
قليل الحزم كان يخرج إلى بستان له على باب المدينة طلباً للراحة [illegible] المغاور من عرف
مكانه وقدم طليعة وعرف عبد الأعلى بأمره فأكمن له في بستان الجنة التي كان ينتابها يوماً
من وجوه فرسانه ذوي رأي وحزم أرصدوا له ليلة فظفروا به وملكوا فأخذه المسلمون
البلد عنوة وأذلوا أهلها عنه * وقيل حكاية عن موسى بن نصير في ذلك كله تزعم
الدخول دار الكفر ... فبينما هو يعمل في ذلك ويعقد له إذا أتاه مغيث الرومي رسول
الوليد بن عبد الملك ومولاه يأمره بالخروج عن الأندلس والانصراف عن الوغول فيها

وبأخذه

و يأخذ بالقفول اليه فساءه ذلك وقطع به عن ارادته اذ لم يكن فى الاندلس بلد لم تدخله العرب الى وقته ذلك غير جليقية وكان شديد الحرص على اقتحامها فلاطف موسى مغيثا رسول الخليفة وسأله انظاره الى أن ينفذ عزمه فى الدخول اليها والمسير معه فى البلاد أياما و يكون شريكه فى الاجر والغنيمة ففعل ومشى معه حتى بلغ المفازة فافتتح حصن بارو وحصن لك فأقام هنالك وبث السرايا حتى بلغوا صخرة بلاى على البحر الاخضر فلم تبق كنيسة الا هدمت ولا ناقوس الا كسر وطاعت الاعاجم فلاذوا بالسلم وبذل الجزية وسكنت العرب المفاوز وكان العرب والبربر كلما مر قوم منهم بموضع استحسنوه حطوا به ونزلوه قاطنين فاتسع نطاق الاسلام بأرض الاندلس وخذل الشرك وبينما موسى كذلك فى اشتداد الظهور وقوة الامل اذ قدم عليه رسول آخر من الخليفة يكنى أبا نصر أردف به الوليد مغيثا لما استبطأ موسى فى القفول وكتب اليه يوبخه و يأمره بالخروج وألزم رسوله ازعاجه فانقلع حينئذ من مدينة لك بجليقية وخرج على الفج المعروف بفج موسى ووافاه طارق فى الطريق منصرفا من الثغر الاعلى فأقفله مع نفسه ومضيا جميعا ومعهما من الناس من اختار القفول وقام من آثر السكنى فى مواضعهم التى كانوا قد اختطوها واستوطنوها وقفل معهم الرسولان مغيث وأبو نصر حتى احتلوا باشبيلية فاستخلف موسى ابنه عبد العزيز على امارة الاندلس وأقره بمدينة اشبيلية لاتصالها بالبحر لقربه من مكاره المجاز وركب موسى البحر الى المشرق بذى الحجة سنة خمس وتسعين وطارق معه وكان مقام طارق بالاندلس قبل دخول موسى سنة وبعد دخوله سنتين وأربعة أشهر وحمل موسى الغنائم والسبى وهو ثلاثون ألف رأس والمائدة منوّها بها ومعها من الذخائر والجواهر ونفيس الامتعة ما لا يقدر قدره وهو مع ذلك متلهف على الجهاد الذى فاته أسف على ما لحقه من الازعاج وكان يؤمل أن يخترق ما بقى عليه من بلاد افرنجة ويقتحم الارض الكبيرة حتى يتصل بالناس الى الشام مؤملا أن يتخذ مخترقه بتلك الارض طريقا مهيعا يسلكه أهل الاندلس فى مسيرهم ومجيئهم من المشرق واليه على البر لا يركبون بحرا وقيل انه أوغل فى أرض الفرنجة حتى انتهى الى مفازة كبيرة وأرض سهلة ذات آثار فأصاب فيها صنما عظيما قائما كالسارية مكتوبا فيه بالنقر كتابة عربية قرئت فاذا هى يابنى اسمعيل انتهيتم فارجعوا فهاله ذلك وقال ما كتب هذا الا لمعنى كبير فشاور أصحابه فى الاعراض عنه وجوازه الى ما وراءه فاختلفوا عليه وأخذ برأى جمهورهم وانصرف بالناس وقد أشرفوا على قطع البلاد وتقصى الغاية (وحكى الرازى) أن موسى خرج من افريقية الى الاندلس فى رجب سنة ثلاث وتسعين واستخلف على افريقية ابن ولده عبد الله بن موسى وكان موسى فى عشرة آلاف قال وكان عبد الملك بن مروان هو الذى أغزى موسى المغرب فى خلافته ففتح له فى أهل البرابرة فتوح كبار حتى لقد بعث الى عبد الملك فى الخمس بعشرين ألف سبية ثم اردفها بعشرين ألفا أخرى كل ذلك من البربر فعجب عبد الملك يومئذ من كثرة ذلك * وزعم ابن حبيب أنه دخل الاندلس رجل واحد من أصاغر الصحابة وهو المنيذر قال ودخلها من التابعين ثلاثة موسى الامير وعلى بن رباح اللخمى وحيوة بن رجاء التميمى وقيل ان ثالثهم انما هو حنش بن عبد الله الصنعانى صنعاء

الشام وأنهم نقلوا عنها فقيل وفي وأهل قرطبة يزعمون أن حنشا مات عندهم ولم
ينقل للمشرق وقبره لديهم مشهور يتبركون به ولا يعلمون فيه فالله أعلم * وقيل إن التابعين
أربعة بأبي عبد الرحمن الحبلي الأنصاري واسمه عبد الله بن يزيد والله أعلم وحنش ومنهم
ابن أبي حبلة مولى بني عبد الدار وكان في ديوان مصر بعثه عمر بن عبد العزيز إلى
إفريقية في جماعة من الفقهاء ليفقهوا أهلها وكان روى عن عمرو بن العاص وابن عباس
وابن عمر وحدث عنه عبد الرحمن بن زياد بن أنعم وغيره وغزا مع موسى حين افتتح الأندلس
وانتهى معه إلى حصن من حصون العدو يقال له قرقشونة وقيل لم يقل إلى إفريقية توفي
بها سنة خمس عشرة ومائة * وقال بعضهم إن من قرقشونة هذه ومن برشلونة مسافة خمسة
عشر يوما وفيها الكنيسة المعظمة عند الفرنج المسماة شنت مرية وقد حكى ابن حيان أن
فيها سبع سوار من فضة خالصة لم ير الراؤون مثلها لا يحيط الإنسان بذراعيه على واحد
منها مع طول مفرط * ومن التابعين المذكورين أبو حلبس(?) كان مع علي رضي الله
عنه بالكوفة وقدم مصر بعد قتله فصار عداده في المصريين وكان ممن قام مع ابن الزبير على
عبد الملك بن مروان فعفا عنه وكنى الأندلس غازيا فدخوله لها * وعلي بن رباح لخمي(?) يكنى
أبا عبد الله وهو لخمي ولد عام اليرموك سنة خمس عشرة قال ابن معين أهل مصر يقولونه
بالضم وأهل العراق يقولونه بالفتح وروى الليث عن ابنه موسى بن علي وكانت لعلي بن
رباح عند عبد العزيز بن مروان مكانة وهو الذي زف ابنته أم البنين لزوجها الوليد ثم عتب
عليه عبد العزيز فأغزاه إفريقية * وأما المنذر الصحابي فلم يسمه ابن حبيب وذكره ابن عبد
البر في الصحابة وقال إنه المنذر الإفريقي وروى عنه أبو عبد الرحمن الحبلي قال حدثنا
المنذر الإفريقي وكان يسكن إفريقية وكان صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه سمعه
صلى الله عليه وسلم يقول من قال رضيت بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد صلى الله عليه
وسلم نبيا فأنا الزعيم له فلآخذن بيده فلأدخلنه الجنة ورواه عنه ابن عبد البر بسنده إليه
وسيأتي إن شاء الله تعالى في حق المنذر مزيد بيان * ولما قفل موسى بن نصير إلى المشرق
وأصحابه سأل مغيثا أن يسلم إليه العلج صاحب قرطبة الذي كان في إساره فامتنع عليه وقال
لا يؤديه للخليفة سواي وكان يقال لولا بني الوليد يحتم عليه ونحن فانتزعه منه فقيل له
إن سرت به حيا ادعاه مغيث والعلج لا ينكر قوله ولكن اضرب عنقه فقتله
فاضطغنها عليه مغيث وصار ألبا مع طارق الساعي عليه واستخلف موسى على طنجة وما يليها
من المغرب ابنه الآخر عبد الملك وقد كان كما مر استخلف بإفريقية أكبر أولاده عبد الله
فصار جميع الأندلس والمغرب بيد أولاده واسم عبد الله الذي خلفه بإفريقية هو القائم(?)
بطريقه فسار موسى فورد الشام واختلف الناس هل كان وروده قبل موت الوليد أو
بعد فمن يقول بالثاني قال قدم على سليمان حين استخلف وكان مغريا عليه فسبق إليه طارق
ومغيث بالشكية منه ورمياه بالخيانة وأحرزا غاصبا(?) فيما من خبر المائدة والعلج صاحب
قرطبة وقالا إنه قد غل جوهرا أعظم القدر أصابه ولم يغز الملوك من بعده فج(?) فارس سلة(?)
فلما وافى سليمان وجده مغضبا عليه فأغلظ له واستقبله بالتأنيب والتوبيخ فاعتذر له

ببعض العدد وسأله عن المائدة وأحضرها فقال له زعم طارق انه الذى أصابها دونك قال لا وما رآها قط الا عندى فقال طارق فليسأله أمير المؤمنين عن الرجل التى تنقصها فسأله فقال هكذا اصبتها وعوضتها رجلا صنعتها لها فحوّل طارق يده الى قبائه فأخرج الرجل فعلم سليمان صدقه وكذب موسى فحقق جميع مارمى به عنده وعزله عن جميع أعماله وأقصاه وحبسه وأمر بتقصى حسابه فأغرمه غرما عظيما كشفه فيه حتى اضطر الى أن سأل العرب معونته فقال ان لحا جملت عنه فى أعطيتها تسعين ألفا ذهبا وقيل حمله سليمان غرم مائتى ألف فأدى مائة ألف وعجز فاستجار بيزيد بن المهلب أسير سليمان فاستوهبه من سليمان فوهبه اياه الا انه عزل ابنه عبد الله عن افريقية (وقال الرازى) ان الذى ارعج موسى عن الاندلس أبو نصر رسول الوليد فقبض على عنانه وثناه قافلا وقفل معه من أحب المشرق وكان اكثر الناس قطنوا ببلاد الاندلس لطيبها فأقاموا فيها * وذهب جماعة من أهل التاريخ الى أن موسى انما قدم على الوليد وأن سليمان ولى العهد لما سمع بقرب موسى بن نصير من دمشق وكان الوليد مريضا كتب أى سليمان الى موسى يأمره بالتربص رجاء أن يموت الوليد قبل قدوم موسى فيقدم موسى على سليمان فى أول خلافته بتلك الغنائم الكثيرة التى مارئى ولا سمع مثلها فيعظم بذلك مقام سليمان عند الناس فأبى موسى من ذلك ومعه دينه منه وجد فى السير حتى قدم والوليد حى فسلم له الاخماس والمغانم والتحف والذخائر ولم يمكث الوليد الا يسيرا بعد قدوم موسى وتوفى واستخلف سليمان فحقد عليه وأهانه وأمر باقامته فى الشمس حتى كاد يهلك وأغرمه أموالا عظيمة ودس الى أهل الاندلس بقتل ابنه الذى استخلفه على الاندلس وهو عبد العزيز بن موسى وكان تولى الاندلس بعد قفول أبيه عنها باستخلافه اياه كما سبق فضبط سلطانها وضم نشزها وسد ثغورها وافتتح فى ولايته مدائن كثيرة مما كان قد بقى على أبيه موسى منها وكان من خير الولاة الا أن مدته لم تطل لوثوب الجند به وقتلهم اياه عقب سنة خمس وتسعين فى خلافة سليمان الموقع بأبيه موسى لاشياء نقموها عليه منها زعموا تزوجه لزوجة لذريق الملك ام عاصم وكانت قد صالحت على نفسها وأموالها وقت الفتح وباءت بالجزية وأقامت على دينها فى ظل نعمتها الى أن نكحها الامير عبد العزيز فحظيت عنده ويقال انه سكن بها فى كنيسة باشبيلية وانها قالت له لم لا يسجد لك أهل مملكتك كما كان يسجد للذريق زوجها الاول أهل مملكته فقال لها ان هذا حرام فى ديننا فلم تقنع منه بذلك وفهم لكثرة شغفه بها أن عدم ذلك مما يزرى بقدره عندها فاتخذ بابا صغيرا قبالة مجلسه يدخل عليه الناس منه فينحنون وأفهمها أن ذلك انما فعل منهم تحية له فرضيت بذلك فنمى الخبر الى الجند مع ما انضم الى ذلك من دسيسة سليمان اليهم فى قتله فقتلوه سامحه الله تعالى * وذكر بعض المؤرخين أنهم وجدوا فى الحجر بعد ما تقدم من الكتابة التى هى ارجعوا يابنى اسمعيل الخ ما معناه وان سألتم لم ترجعون فاعلموا انكم ترجعون ليضرب بعضكم رقاب بعض انتهى (قال ابن حيان) وليحيى بن حكم الشاعر المعروف بالغزال فى فتح الاندلس ارجوزة حسنة مطولة ذكر فيها السبب فى غزوها نظما وتفصيل الوقائع بين المسلمين وأهلها وعداد الامراء عليها وأسماءهم فأجاد وتقصى وهى بأيدى الناس موجودة انتهى وقد عرفت مما سبق

ابن بشكوال أنه من التابعين الذين رووا الحديث وأنه روى عن تميم الداري وذكر في
كتب الأئمة من المصنفين أسماء أوعب من أن يحصى فذكر واحداً منهم وهو عن الدوارع
الأندلسية وذكره إلى الآن جديد في ألسن الخاصة والعامة من أهلها * ومن مستحسن
الخاري كان قد جمع رحمه الله من خلال الخير ما أعانه الله سبحانه به على ما بقي له من الحمد
المسند والذكر الشهير الخالد الذي لا يبليه الليل والنهار ولا يزال به جديداً في الأعصار الآتية
كان يعطف عليه ما لا يكاد يسلم منه وهو الحقد والحسد والمنافسة لا يخلو من ذلك
وأنشد بعض الرؤساء وليس رئيس القوم من يحمل الحقدا فعلمه الرئيس وقال من يترك
الحقد أما قال ابن السيد أدرك اعتبار الخير والشر والخيار أعلمهما أجرى عليه ونسب
للصفح والعفو وقل رأيت صفحة أحسن من صفحة رئيس أحسن عن نسي ذلك أو تناسى
وعدو لا يغفل عنه وحاسد لا ينفعه عنده إلا الراحة منه وهو في إذا آخر عنه ولله در
القائل

ووضع الندى في موضع السيف بالعلا * مضر كوضع السيف في موضع الندى

ولكن الأصوب أن يكون الرأي مقدماً بالأمر الواقي للناصح ولا يزال الناصح لواقف ويدبر
أمره على ما يقتضيه الزمان ويقدمه حسن العاقبة * ونص ابن بشكوال على أن موسى
ابن نصير مات بوادي القرى سنة سبع وتسعين وغزا الأندلس سنة إحدى وتسعين ودخلها
سنة ثلاث وتسعين وقفل منها إلى الوليد بن عبد الملك بالشام سنة أربع وتسعين وذكر أن
ولايته على الأندلس بالمباشر مذ دخلها إلى حين خروجه منها سنة واحدة وملك بها مولاه
طارق سنة انتهى وقد تقدم شيء من ذلك * وذكر ابن بشكوال أيضاً أن ابن حبيب قال عن
ربيعة غلب الناس كلهم يوم فتح الأندلس إلا أربعة عشر فقط كانوا من التابعين حنش
الصنعاني وأبو عبد الرحمن الحبلي وابن شماسة وعياض بن عقبة انتهى * قال ابن سعيد
وممن دخل الأندلس من غير هؤلاء الأربعة من التابعين علي بن رباح اللخمي وموسى بن نصير
فاتح الأندلس وحبان بن أبي جبلة القرشي مولاهم وعبد الرحمن بن عبد الله الغافقي صاحب
الأندلس المذكور في بلاط الشهداء ومحمد بن أوس بن ثابت الأنصاري وزيد بن قاصد السكسكي
والمغيرة بن أبي بردة الكناني وعبد الله بن المغيرة الكناني وحيوة بن رجاء التميمي وعبد الجبار
ابن أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف ومنصور بن خزامة وعلي بن عثمان بن خطاب * وذكر
ابن حبيب أن عدة من دخل الأندلس من التابعين سوى من لا يعرف نحو عشرين رجلاً *
وفي كتاب ابن بشكوال أنه دخل الأندلس من التابعين ثمانية وعشرون رجلاً وهم أسسوا
قبلة المسجد الجامع بقرطبة وبني الخاري في المسجد هؤلاء المتعددين * وذكر ابن سعيد أنه
لم يصدق المواضع التي يحصي هؤلاء التابعين من أهل الأندلس مع معرفته أنهم دخلوا
الأندلس وسكنوا بها وسيأتي ذكر التابعين الداخلين الأندلس بما هو أشمل من هذا وقد تقدم
طول من عدد التابعين بن العاص * وقال الليث بن سعد بعد ذكر أن طارقاً أصاب بالأندلس
مغانم كثيرة من الذهب والفضة أن كانت الطنفسة لتوجد منسوجة بقضبان الذهب ونظم
السلسلة من الذهب باللؤلؤ والياقوت والزبرجد وكان البربر ربما وجدوها فلا يستطيعون

حملها

حملها حتى يأتوا بابا الناس فيضربون به وسطها فيأخذ أحدهم نصفها والآخر النصف الآخر لنفسه ويسير معهم جماعة والناس مشتغلون بغير ذلك * وعن يحيى بن سعيد لما افتتحت الاندلس أصاب الناس بها غنائم فغلوا منها غلولا كثيرا فحملوه في المراكب وركبوا البحر فسمعوا مناديا يقول اللهم غرق بهم فتقلدوا المصاحف فما نشبوا أن أصابتهم ريح عاصف وضربت المراكب بعضها بعضا حتى تكسرت وغرق بهم وأهل مصر ينكرون ذلك ويقولون أهل الاندلس ليس هم الذين غرقوا وانما هم أهل سردانية فالله أعلم بحقيقة الحال * ورأيت في بعض كتب التاريخ انه وجد في طليطلة حين فتحت من الذخائر والاموال ما لا يحصى فمن ذلك مائة وسبعون تاجا من الذهب الاحمر مرصعة بالدر وأصناف الحجارة الثمينة ووجد فيها ألف سيف ملوكي ووجد فيها من الدر والياقوت أكيال ومن أواني الذهب والفضة ما لا يحيط به وصف ومائدة سليمان وكانت فيما يذكر من زمردة خضراء وزعم بعض العجم أنها لم تكن لسليمان وانما أصلها أن العجم أيام ملكهم كان أهل الحسبة في دينهم اذا مات أحد منهم أوصى بمال للكنائس فاذا اجتمع عندهم مال له قدر صاغوا منه الآلة من الموائد الثبية والكراسي من الذهب والفضة تحمل الشمامسة والقسوس فوقها الاناجيل في أيام المناسك ويضعونها في الاعياد للمباهاة فكانت تلك المائدة بطليطلة مما صنع في هذا السبيل وتأنق الملوك في تحسينها يزيد الآخر منهم فيها على الاول حتى برزت على جميع ما اتخذ من تلك الآلات وطار الذكر بها كل مطار وكانت مصوغة من الذهب الخالص مرصعة بفاخر الدر والياقوت والزبرجد وقيل انها من زبرجدة خضراء حافاتها وأرجلها منها وكان لها ثلثمائة وخمس وستون رجلا وكانت توضع في كنيسة طليطلة فأصابها طارق انتهى وقد ذكرنا فيما مر عن ابن حيان ما فيه نظير هذا وذكرنا فيما مضى من أمر المائدة وغيرها ما فيه بعض تخالف وما ذلك الا لانا ننقل كلام المؤرخين وان خالف بعضهم بعضا ومرادنا تكثير الفائدة وبالجملة فالمائدة جليلة المقدار وان حصل الخلاف في صفتها وجنسها وعدد أرجلها وهي من أجل ما غنم بالاندلس على كثرة ما حصل فيها من الغنائم المتنوعة الاجناس التي ذكرها الى الآن شائع بين الناس فاعلم أنه لما استقر قدم أهل الاسلام بالاندلس وتم فتحها صرف أهل الشام وغيرهم من العرب هممهم الى الحلول بها فنزل بها من جراثيم العرب وساداتهم جماعة أورثوها أعقابهم الى أن كان من أمرهم ما كان فأما العدنانيون فمنهم خندف ومنهم قريش وأما بنو هاشم من قريش فقال ابن غالب في فرحة الانفس بالاندلس منهم جماعة كلهم من ولد ادريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسين بن علي ابن أبي طالب ومن هؤلاء بنو حمود ملوك الاندلس بعد انتثار سلك بني أمية وأما بنو أمية فمنهم خلفاء الاندلس قال ابن سعيد ويعرفون هنالك الى الآن بالقرشيين وانما يعرفون انتسابهم الى أمية في الآخر لما انحرف الناس عنهم وذكروا أفعالهم في الحسين رضي الله عنه وأما بنو زهرة فمنهم باشبيلية أعيان متميزون وأما المخزوميون فمنهم أبو بكر المخزومي الاعمى الشاعر المشهور من أهل حصن المدور ومنهم الوزير الفاضل في النظم والنثر أبو بكر بن زيدون ووالده الذي هو أعظم منه أبو الوليد بن زيدون وزير معتضد بني عباد * قال

ابن غالب وفي الأندلس من ينتسب إلى جمح وإلى بني عبد الدار وكثير من قريش المعروفين
بالفهريين بني محارب بن فهر وهم من قريش الظواهر ومنهم عبد الملك بن قطن سلطان
الأندلس وبنو ولده بنو القاسم الأمراء الفضلاء وبيت الأعيان العلماء ومن بني محارب
ابن فهر يوسف بن عبد الرحمن الفهري سلطان الأندلس الذي غلبه عليها عبد الرحمن الأموي
الداخل وجد يوسف عقبة بن نافع الفهري صاحب الفتوح بإفريقية قال ابن حزم ولهم
بالأندلس عدد وثروة وأما المنتسبون إلى عموم كنانة فكثير وحلولهم في طليطلة وأعمالها وإليهم
ينسب الوقشيون الكنانيون الأعيان الفضلاء الذين منهم القاضي أبو الوليد والوزير أبو
جعفر ومنهم أبو الحسن بن جبير العالم صاحب الرحلة وقد ذكرناه في محله وأما هذيل بن
مدركة بن الياس بن مضر فذكر ابن غالب أن منزلهم غربي أريولة من كورة تدمير وأما تميم
ابن مر بن أد بن طابخة بن الياس بن مضر فذكر ابن غالب أن منازلهم كانت كثيرة بالأندلس ومنهم
أبو الطاهر صاحب المقامات اللزومية وأما ضبة بن أد بن طابخة فذكر أنهم قليلون بالأندلس
وهؤلاء خندف من العدنانية وأما قيس عيلان بن الياس بن مضر من العدنانية ففي الأندلس
كثير منهم ينتسبون إلى العموم ومنهم من ينتسب إلى سليم بن منصور بن عكرمة بن خصفة
ابن قيس كعبد الملك بن حبيب السلمي الفقيه صاحب الإمام مالك رضي الله عنه وكالقاضي
أبي حفص بن عمر قاضي قرطبة ومن قيس من ينتسب إلى هوازن بن منصور بن عكرمة
قال ابن غالب وهم بإشبيلية خلق كثير ومنهم من ينتسب إلى بكر بن هوازن قال ابن غالب ولهم
منزل بغربي بلنسية على ثلاثة أميال منها وبإشبيلية وغيرها منهم خلق كثير ومنهم بنو حزم وهم
بيت غير البيت الذي منه أبو محمد بن حزم الحافظ الظاهري وهو فارسي الأصل ومنهم من
ينتسب إلى سعد بن بكر بن هوازن وذكر ابن غالب أن منهم بغرناطة كثيراً ككنى جودي
وقد رأس بعض بني جودي ومنهم من ينتسب إلى سلول امرأة نسب إليها أولادها وأبوهم مرة بن
صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن ومنهم من ينتسب إلى كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة
ابن معاوية بن بكر بن هوازن ومنهم من ينتسب إلى نمير بن عامر بن صعصعة قال ابن غالب وهم
بغرناطة كثير ومنهم من ينتسب إلى قشير بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة ومنهم بلج بن
بشر صاحب الأندلس وآله ومواليه ومنهم من ينتسب إلى فزارة بن ذبيان بن بغيض بن
ريث بن غطفان بن سعد بن قيس عيلان ومنهم من ينتسب إلى أشجع بن ريث بن غطفان ومن
هؤلاء محمد بن عبد الله الأشجعي سلطان الأندلس وفي نسب أحلاف ثقيف منهم قال إنها
نسبة رأى بعضها قيس بن منبه بن بكر بن هوازن ومنهم بالأندلس جماعة وإليهم ينتسب
الحر بن عبد الرحمن الثقفي صاحب الأندلس وقيل إنهم [illegible] قيس بن عيلان
وجميع مضر وأما ربيعة بن نزار فمنهم من ينتسب إلى أسد بن ربيعة بن نزار قال في فرحة
الأنفس لا أعلم هؤلاء مشهورين إلا أنهم كانوا بمدينة وادي آش انتهى والأشهر بالنسبة
إلى أسد أسد بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر ومنهم من ينتسب إلى محارب
ابن عمرو بن وديعة بن بكر بن أفصى بن دعمي بن جديلة بن أسد بن ربيعة قال ابن غالب
في فرحة الأنفس ومنهم بنو عطية أعيان غرناطة ومنهم من ينتسب إلى النمر بن قاسط بن

هب بن افصى بن دعمى بن جديلة بن أسد كبنى عبد البر الذين منهم الحافظ أبو عمر بن عبد البر ومنهم من ينتسب الى تغلب بن وائل بن قاسط بن هنب كبنى حمديس أعيان قرطبة ومنهم من ينتسب الى بكر بن وائل كالبكريين أصحاب أونبة وشلطيش الذين منهم أبو عبيد البكرى صاحب التصانيف انتهت ربيعة * وأما اياد بن نزار وقد يقال انه ابن معد والصحيح الاول وينتسب اليهم بنو زهر المشهورون باشبيلية وغيرهم انتهت العدنانية وهم الصريح من ولد اسمعيل عليه السلام واختلف فى القحطانية هل هم من ولد اسمعيل أو من ولد هود على ما هو معروف وظاهر صنيع البخارى الاول والاكثر على خلافه والقحطانية هم المعروفون باليمانية وكثيرا ما يقع بينهم وبين المضرية وسائر العدنانية الحروب بالاندلس كما كان يقع بالمشرق وهم الاكثر بالاندلس والملك فيهم ارسخ الا ما كان من خلفاء بنى أمية فان القرشية قدمتهم على الفرقتين واسم الخلافة لهم بالمشرق وكان عرب الاندلس يتميزون بالعمائر والقبائل والبطون والافخاذ الى أن قطع ذلك المنصور بن أبى عامر الداهية الذى ملك سلطنة الاندلس وقصد بذلك تشتيتهم وقطع التحامهم وتعصبهم فى الاعتزاء وقدم القواد على الاجناد فيكون فى جند القائد الواحد فرق من كل قبيل فانحسمت مادة الفتن والاعتزاء بالاندلس الا ما جاءت على غير هذه الجهة قال ابن حزم جماع أنساب اليمن من جرم بن كهلان وحمير ابن يشجب بن يعرب بن قحطان بن عابر بن شالخ بن ارفخشذ بن سام بن نوح وقيل قحطان ابن الهميسع بن تيمان بن نابت بن اسمعيل وقيل قحطان ابن هود بن عبد الله بن رباح بن جارف بن عاد بن عوص بن ارم بن سام والخلف فى ذلك مشهور فمنهم كهلان بن سبا بن يشجب بن يعرب ابن قحطان ومنهم الازد بن الغوث بن نبت بن مالك بن زيد بن كهلان واليهم ينتسب محمد بن هانئ الشاعر المشهور الالبيرى وهو من بنى المهلب ومن الازد من ينتسب الى غسان وهم بنو مازن ابن الازد وغسان ماء شربوا منه وذكر ابن غالب أن منهم بنى القليعى من أعيان غرناطة وكثير منهم بصالحة قرية على طريق مالقة ومن الازد من ينتسب الى الانصار على العموم وهم الجم الغفير بالاندلس * قال ابن سعيد والعجب أنك تعدم هذا النسب بالمدينة وتجد منه بالاندلس فى اكثر بلدانها ما يشذ عن العدد كثرة ولقد أخبرنى من سأل عن هذا النسب بالمدينة فلم يجد منه الا شيخا من الخزرج وعجوزا من الاوس قال ابن غالب وكان جزء الانصار بناحية طليطلة وهم اكثر القبائل بالاندلس فى شرقها ومغربها انتهى ومن الخزرج بالاندلس ابو بكر عبادة بن عبد الله بن ماء السماء من ولد سعد بن عبادة صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو المشهور بالموشحات والى قيس بن سعد بن عبادة ينتسب بنو الاحمر سلاطين غرناطة الذين كان لسان الدين بن الخطيب أحد وزرائهم وعليهم انقرض ملك الاندلس من المسلمين واستولى العدو على الجزيرة جميعا كما يذكر ومن أهل الاندلس من ينتسب الى الاوس أخى الخزرج ومنهم من ينتسب الى غافق بن عك بن عدثان بن ازان بن الازد وقد يقال عك ابن عدنان بالنون فيكون أخا معد بن عدنان وليس بصحيح قال ابن غالب من غافق أبو عبد الله ابن أبى الخصال الكاتب واكثر جهات شقورة ينتسبون الى غافق ومن كهلان من ينتسب الى همدان وهو اوسلة بن مالك بن زيد بن اوسلة بن الخيار بن مالك بن زيد بن كهلان ومنزل

همدان منهم بنو رعلى بجهة أعمال من غرناطة ومنهم أصحاب غرناطة بنو أضحى ومن كهلان من
ينتسب إلى مذحج ومذحج اسم أكمة مرّا باليمن وقيل اسم أم مالك وطيّ بن أدد بن زيد
ابن كهلان قال ابن غالب بنو سراج الأعيان من أهل قرطبة ينتسبون إلى مذحج ونزل طي
ملي مرسية ومنهم من ينتسب إلى مراد بن مالك بن أدد وحصن مراد من إشبيلية وقرطبة
مشهور قال ابن غالب وأعرف بغرناطة منهم جماعة كثيرة ومنهم من ينتسب إلى عنس بن مالك
ابن أدد ومنهم بنو سعيد مصنفو كتاب المغرب وقلعة بني سعيد مشهورة في مملكة غرناطة
ومن مذحج من ينتسب إلى زبيد قال ابن غالب وهو منبه بن سعد العشيرة بن مالك بن أدد
ومن كهلان من ينتسب إلى مر بن أدد بن زيد بن كهلان قال ابن غالب منهم بنو المنتصر
الفقهاء من أهل غرناطة ومنهم من ينتسب إلى عاملة وهي امرأة من قضاعة ولدت للحرث
ابن عدي بن الحرث بن مر بن أدد نسب ولدها إليها قال ابن غالب منهم بنو سماك القضاة
من أهل غرناطة وقوم زعموا أن عاملة هو ابن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان وحل هم من
قضاعة ومن كهلان خولان بن عمرو بن الحرث بن مر وقلعة خولان مشهورة بين الجزيرة
الخضراء وإشبيلية ومنهم بنو عبد السلام أعيان غرناطة ومنهم من ينتسب إلى المعافر بن
يعفر بن مالك بن الحرث بن مر منهم المنصور بن أبي عامر صاحب الأندلس ومنهم من ينتسب
إلى لخم بن عدي بن الحرث بن مر منهم بنو عباد أصحاب إشبيلية وغيرها وهم من ولد النعمان
ابن المنذر صاحب الحيرة ومنهم بنو الباجي أعيان إشبيلية وبنو وافد الأعيان ومنهم من
ينتسب إلى جذام كثوابة بن سلامة صاحب الأندلس وبني هود ملوك شرق الأندلس
ومنهم المتوكل بن هود الذي صحت له سلطنة الأندلس بعد الموحدين ومنهم بنو مردنيش
أصحاب شرق الأندلس قال ابن غالب وكان لجذام حر ن علبه رياح واسم جذام عامر واسم
لخم مالك وهما ابنا عدي ومن كهلان من ينتسب إلى كندة وهو ثور بن عفير بن عدي بن
مرة بن أدد ومنهم يوسف بن هارون الرمادي الشاعر ومنهم من ينتسب إلى تجيب وهي امرأة
أشرس بن السكون بن أشرس بن كندة ومن كهلان من ينتسب إلى خثعم بن أنمار بن إراش
ابن عمرو بن الغوث بن نبت بن مالك بن زيد بن كهلان ومنهم عثمان بن أبي نسعة سلطان الأندلس
وقد قيل أنمار بن نزار بن معد بن عدنان انتهى كهلان * وأما حمير بن سبأ بن يشجب بن يعرب
ابن قحطان فمنهم من ينتسب إلى ذي رعين قال ابن غالب وذو رعين هم ولد عمرو بن حمير في بعض
الأقوال وقيل هو من ولد سهل بن عمرو بن قيس بن معاوية بن جشم بن عبد شمس بن وائل
ابن الغوث بن قطن بن عريب بن زهير بن أيمن بن الهميسع بن حمير قال ومنهم أبو عبد الله
الخياط الأعمى الشاعر قال الحجاري في كتاب النسب واسم ذي رعين عريم بن زيد بن سهل
ووصل النسب ومنهم من ينتسب إلى ذي أصبح قال ابن حزم هو ذو أصبح بن مالك بن زيد من
ولد سبأ الأصغر بن زيد بن سهل بن عمرو بن قيس ووصل النسب وذكر الحجاري أن ذا أصبح
من كهلان وأخواته منهم مالك بن أنس الإمام والمشهور أنهم من حمير والأصبحيون من
أعمال قرطبة ومنهم من ينتسب إلى يحصب قال ابن حزم إنه أخو ذي أصبح وهم كثير بقلعة
بني سعيد وقد عرفنا من أجلهم في التواريخ الأندلسية قلعة يحصب ومنهم من ينتسب

الى

الى هوازن بن عوف بن عبد شمس بن وائل بن الغوث قال ابن غالب ومنزلهم بشرق اشبيلية والهوازنيون من أعيان اشبيلية * ومنهم من ينتسب الى قضاعة بن مالك بن حمير وقد قيل انه قضاعة بن معد بن عدنان وليس بمرضي * ومن قضاعة من ينتسب الى مهرة كالوزير أبي بكر بن عمار الذي وثب على ملك مرسية وهو مهرة بن حيدان بن عمرو بن الحاف بن قضاعة * ومنهم من ينتسب الى حشين بن تنوخ قال ابن غالب وهو ابن مالك بن فهم بن غنم بن وبرة ابن تغلب قال الحازمي تنوخ هو مالك بن فهم بن فهم بن تيم الله بن اسد بن وبرة * ومنهم من ينتسب الى بلي بن عمرو بن الحاف بن قضاعة ومنهم البلويون الاشبيلية * ومنهم من ينتسب الى جهينة بن اسود بن أسلم بن عمرو بن الحاف بن قضاعة قال ابن غالب وبقرطبة منهم جماعة * ومنهم من ينتسب الى كلب بن وبرة بن تغلب بن حلوان كبني أبي عبدة الذين منهم بنو جهور ملوك قرطبة ووزراؤها * ومنهم من ينتسب الى عذرة بن سعد هذيم بن زيد بن اسود بن أسلم بن عمرو بن الحاف بن قضاعة * ومنهم أعيان الجزيرة الخضراء بنو عذرة * ومن أهل الاندلس من ينتسب الى حضرموت منهم الحضرميون بمرسية وغرناطة واشبيلية وبطليوس وقرطبة قال ابن غالب وهم كثير بالاندلس وفيه خلاف قيل ان حضرموت هو ابن قحطان وقيل هو حضرموت بن قيس بن معاوية بن جشم بن عبد شمس بن وائل بن الغوث بن حيدان بالجيم بن قطن بن العريب بن العرز بن نبت بن أيمن بن الهميسع بن حمير كذا نسق النسب الحازمي * ومن أهل الاندلس من ينتسب الى سلمان ومنهم الوزير لسان الدين بن الخطيب حسبما ذكرني محله * وقد رأيت أن أسرد هنا اسماء ملوك الاندلس من لدن الفتح الى آخر ملوك بني أمية وان تقدم ويأتي ذكر جملة منهم بما هو أتم مما هنا فنقول طارق ابن زياد مولى موسى بن نصير ثم الامير موسى بن نصير وكلاهما لم يتخذ سريرا للسلطنة ثم عبد العزيز بن موسى بن نصير وسريره اشبيلية ثم أيوب بن حبيب اللخمي وسريره قرطبة وكل من يأتي بعده فسريره قرطبة والزهراء والزاهرة بجانبيها الى أن انقضت دولة بني مروان على ما ننبه عليه ثم الحر بن عبد الرحمن الثقفي ثم السمح بن مالك الخولاني ثم عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي ثم عنبسة بن سحيم الكلبي ثم عذرة بن عبد الله الفهري ثم يحيي بن سلمة الكلبي ثم عثمان بن أبي نسعة الخثعمي ثم حذيفة بن الاحوص القيسي ثم الهيثم بن عبيد الكلابي ثم محمد بن عبد الله الاشجعي ثم عبد الملك بن قطن الفهري ثم بلج ابن بشر بن عياض القشيري ثم ثعلبة بن سلامة العاملي ثم أبو الخطار بن ضرار الكلبي ثم ثوابة بن سلامة الجذامي ثم يوسف بن عبد الرحمن الفهري وههنا انتهى الولاة الذين ملكوا الاندلس من غير موارثة افراد اعددهم عشرون فيما ذكر ابن سعيد ولم يتعدوا في التسمية لفظ الامير * قال ابن حيان مدتهم منذ تاريخ الفتح من لذريق سلطان الاندلس النصراني وهو يوم الاحد لخمس خلون من شوال سنة اثنتين وتسعين الى يوم الهزيمة على يوسف بن عبد الرحمن الفهري وتغلب عبد الرحمن بن معاوية المرواني على سرير الملك قرطبة وهو يوم الاضحى لعشر خلون من ذي الحجة سنة ثمان وثلاثين ومائة ست وأربعون سنة وخمسة أيام انتهى * ثم كانت دولة بني امية أولهم عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد

الملك ثم ابنه هشام الرضى ثم ابنه الحكم بن هشام ثم ابنه عبد الرحمن الاوسط ثم ابنه محمد بن عبد الرحمن ثم ابنه المنذر بن محمد ثم أخوه عبد الله بن محمد ثم ابن ابنه عبد الرحمن الناصر ابن محمد بن عبد الله ثم ابنه الحكم المستنصر وكرسيهما الزهراء ثم هشام بن الحكم وفي أيامه بنى حاجبه المنصور بن أبي عامر الزهراء ثم المهدي محمد بن هشام بن عبد الجبار بن الناصر وهو أول خلفاء الفتنة وهدمت في أيامه الزهرا والزاهرة وعاد السرير الى قرطبة ثم المستعين سليمان بن الحكم بن سليمان بن الناصر ثم تخللت دولة بني حمود العلويين وأولهم الناصر علي بن حمود العلوي الادريسي ثم أخوه المأمون القاسم بن حمود ثم كانت دولة بني أمية الثانية وأولها المستظهر عبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار بن الناصر ثم المستكفي محمد بن عبد الرحمن بن عبد الله ثم المعتد هشام بن محمد بن عبد الملك بن الناصر وهو آخر خلفاء الجماعة بالاندلس وحين خلع اسقط ملوك الاندلس الدعوة للخلافة المروانية وافترقت ملوك الطوائف كابن جهور في قرطبة وابن عباد باشبيلية وغيرهما ولم ينتظم الاندلس الى شخص واحد الى أن ملكها يوسف بن تاشفين اللمتوني بر العدو وقيل في ملوك الطوائف وبعد ذلك ما خطب له ولا لولده علي بن يوسف لان بني هود بارزوا في شرقها بالثغر الى أن جاءت دولة عبد المؤمن وبنيه فانتصب لعبد المؤمن محمد بن مردنيش الذي كان بشارعة في شرق الاندلس ثم انتصب ليوسف بن عبد الرحمن غرب ابن مردنيش ثم ملك بعده من بنيه وحضر تهم مراكش وكانت ولاتهم تردد على الاندلس وممالكها ولم يقولوا على جمعها جميعاً واحد العظم ممالكها الى أن انقرضت دولتهم بالمتوكل محمد بن هود من بني هود ملوك سرقسطة وخوطب بامير المسلمين فنظم الاندلس بعد تطلق عامة ثم السلطان ولم ينازعه فيها الا زيان بن مردنيش في بلنسية من شرق الاندلس وابن الاحمر في غرب الاندلس ثم كثرت عليه الخوارج فرسموه ولما قتله وزير ابن الرميمي بالمرية زاد الامر الى أن تلاشى الامر وكان غرب أهل الاندلس في المائة السابعة قد تطلعوا لصاحب افريقية السلطان ابي زكريا يحيى بن أبي محمد عبد الواحد بن ابي حفص ثم غلب ملك العادل ودخل الجزيرة الاخلال الى أن استولى عليها حزب الضلال والله وارث الارض ومن عليها وهو خير الوارثين *(وقد ذكرت)* في هذا الكتاب جملة من أخبار ملوك الاندلس مما يصلح للمذاكرة وتعاطيت طرف الدلالة على بعضهم وسوغ جهور المسار اليهم قريبا كانوا وزراء الاموية ثم انه لما انتثر سلك الخلافة استبد بقرطبة الوزير أبو الحزم بن جهور من غير أن يتعدى اسم الوزارة * قال في المطمح الوزير الاجل جهور بن محمد بن جهور أهل بيت وزارة اشتهروا كاشتهار ابن هبيرة في فزارة وأبو الحزم اشدهم في المكرمات وأبعدهم في المكان ركبت سوق العصور عرامها ووقع في غير الحشر مصابها متبطغ منتكس لاطانس اللسان ولا دعس وقد كان وزير الدولة العامرية برب علاه واعترف باستقلاله فلما انقرضت وعاث النفس واعترضت تحير عن التدبير مديها وخلى للخلافة أعباء الخلافة وسيما وجعل يتسلل مع أولئك الوزراء وبدير وتدبير الامر معهم وندر عيسر ظهر للاعتراد ولا تصرف في ميدان ذلك الطراد الى أن ذهبت الفتنة مداها

وسوغت ماشاءت رداها وذهب من كان يجد في الرياسة ويخب ويسعى في الفتنة ويدب ولما ارتفع الوبال وأدبر ذلك الاقبال رأى أهل التقوى مستقداهم ومعتمدا على بعضهم تحيلا منه وتمويها وتداهيا على أهل الخلافة وذويها وعرض عليهم تقديم المعتمد هشام وأومض منه لاهل قرطبة برق خلب يشام بعد سرعة التياثها وتحيل استكائها فأنابوا الى الاجابة وأجابوا الى استرعائه الوزارة والحجابة وتوجهوا مع ذلك الامام وألموا بقرطبة أحسن المام وقد دخلوها بعد فتن كثيرة واضطرابات مستثيره والبلد مقفر والجلد مسفر فلم يبق غير يسير حتى حيد واضطرب أمره وخلع واختطف من الملك وانتزع وانقرضت الدولة الاموية وارتفعت الدولة العلوية واستولى على قرطبة عند ذلك أبو الحزم ودبر أمرها بالجد والعزم وضبطها ضبطا امن خائفها ورفع طارق تلك الفتنة وطائفها وخلاله الجو فطار وقضى اللبانات والاوطار فعادت له قرطبة الى أكمل حالتها واتجلى به نور جلالتها ولم تزل به مشرقة وغصون الآمال فيها مورقة الى أن توفي (سنة ٤٣٥) فانتقل الامر الى ابنه أبي الوليد واشتمل منه على طارف وتليد وكان لابي الحزم أدب ووقار وحلم سارت به الامثال وعدم فيها المثال وقد أثبت من شعره ماهو لائق وفي سماء الحسن رائق وذلك قوله في تفضيل الورد

الورد أحسن مارأت عيني وأز * كى ماسقى ماء السحاب الجائد
خضعت نواوير الرياض لحسنه * فتذللت تنقاد وهي شوارد
واذا تبدى الغصن في أغصانه * يزهو فذا ميت وهذا حاسد
واذا أتى وفد الربيع مبشرا * بطلوع وفدته فنعم الوافد
ليس المبشر كالمبشر باسمه * خبر عليه من النبوة شاهد
واذا تعدى الورد من أوراقه * بقيت عوارفه فهن خوالد

انتهى المقصود منه وكأنه عارض بهذه الابيات في تفضيل الورد قول ابن الرومي في تفضيل النرجس عليه من قصيدة

للنرجس الفضل المبين وان أبى * آب وحاد عن الحقيقة حائد

وهي مشهورة ورد على ابن الرومي بعضهم بقوله

يامن يشبه نرجسا بنواظر * دعج تنبه ان فهمك فاسد الخ

وهي أيضا مشهورة * (رجع الى ماكنا فيه) وكانت لاهل الاندلس بين زمان الفتح ومابعده وقائع في الكفار شفت الصدور من أمراضها ووفت النفوس بأغراضها واستولت على ماكان الله الكفر من جواهرها وأعراضها ثم وقع الاختلاف بعد ذلك الائتلاف فعصفت ريح العدو والحروب سجال وأعيا العلاج حكماء الرجال فصار أهل الاندلس يتذكرون موسى بن نصير وطارق ومن بعدهما من ملوك الاندلس الذين راعت العدو الكافر منهم طوارق * وما أحسن ما أعرب الامام الكاتب القاضي أبو المطرف بن عميره عما يشمل هذا المعنى وغيره في كتاب بعث به الى الشيخ أبي جعفر بن أمية حين حل الرزء ببلنسية وهو

بكل خير وتهشان حس وكيف أعيت الرقى وأذالت بليل السليم يوم الملتقى ولم تخبر عن المروانية وصوائمها وفتى معافر وتعفيره للاوثان وطوائفها لله ذلك السلف لقد طال الاسى عليهم والاسف وبقى الحكم العدل والرب الذى قوله الفصل وبيده الفضل ربنا أمرت فعصينا ونهيت فما انتهينا وما كان ذلك جراءة منا على احسانك الينا أنت العليم بما أعلنا وما أخفينا والمحيط بالزلات وما أتينا لو أنا فيك أحببنا وقلينا لم ترنا من الفرقة ما رأينا ولم تسلط عدوك وعدونا علينا لكن أنت أرحم من أن تؤاخذنا بما جنينا وأكرم من أن لا تهب حقوقك الينا وأشرت أيها الاخ الكريم الى استراحة الى وتنسم بالذى لتبرد كما زعمت حر نفس وتقدح زناد قبس وهيهات صلد الزند وذوى الغرار والرند وأقشع الشؤبوب وركد ما كان يطلق به الهبوب فالقلم دفين لا يحشر وميت لا ينشر والطبع قد نكص القهقرى وقل مزله أن يدعى له الفقرى فها هو لا يملك ميتا ولا يجد لقلمه تبيينا وأنت أبقاك الله عز وجل مقتبل الآداب طائر جيعة الشباب وأين سن السهو من سن الانحطاط ووقت الكسل من وقت النشاط وقد راجعتك لاداخلا فى حلبتك بل قاضيا حق رغبتك والله تعالى يجعلك بوسيلة العلم مترقيا وبحبه الطاعة متوقيا ولهناء الانفس مستقبلا ومتلقيا بمنه والسلام انتهى *(وكتب)* رحمه الله الى سلطان افريقية الوارث ملك بنى عبد المؤمن بتلك النواحى المستولى على البلدان والضواحى وقد كان لاهل الاندلس امل فى أخذه بثارهم ونضم انتصارهم ما صورته

شاقه غب الخيال الوارد * بارق هاج غرام الماجد
صدق وعد التلاقى ثم ما * طرقا الا بخلف الواعد
وكلا الزورين من طيف ومن * وافد تحت الدياجى وارد
لم يكن بعد السرى مستمتع * فيه للرائى ولا للرائد
وشديد بث قلب هائم * يشتكيه عند ربع هامد
بالامير المرتضى عز الهدى * وثنى عطف المل الواجد
وبه أصبح ما كان يرى * حاملا أنف الابى الشارد
انما الفخر لمـــــــولانا أبى * زكرياء بن عبد الواحد
ملك لولا حلاه الغــــــــرلم * يجر بالحمد لسان الحامد
ولو ان العذب أبدى رغبة * عنه لم يشف غليل الوارد
فضله مثل سنى الشمس وهل * لسنى الشمس يرى من جاحد
تهر البغى بجد صادع * ما تعداه وجد صاعد
انما آل ابى حفص هدى * للورى من غائب أو شاهد
قعدوا فوق النجوم الزهر عن * همم بهن عزم القاعد
وعن الاسلام ذادوا عندما * قل طول العهد غرب الذائد
أى فخر عمرى المنتمى * ورثوه ماجدا عن ماجد
ما الفتوح الغر الا هم * بين ماض بادئ أو عائد

*(ومما يستولي على الخواطر * ويروي رياض الافكار بسحب بلاغته المواطر * قوله رحمه الله تعالى يخاطب أبا الحسن الرعيني سنة ٦٣٤)

يا صاحبي والدهر لولا كرّة * منه على حفظ الذمام ذميم
امنازعي آت الحديث فانه * ما فيه لا لغو ولا تأثيم
ومروّص مرعى مناي فنبته * من طول اخلاف الغيوم هشيم
طال اعتباري بالزمان وانما * داء الزمان كما علمت قديم
مجدو حظ لا ينادى ثم لا * ينفك عنه الحذف والترخيم
وأرى اماتته تدوم وقصره * فعلام يأتي المدّ والتقديم
وعلام أدعو والجواب كأنما * فيه بنص قد أتى التحريم
لم آلق الا مقعدا غير الاسى * فلدىّ منه مقعد ومقيم
وشرابي الهمّ المعتق خالصا * حتى يساعدني عليه نديم
غارات أيام على جوارح * فعديها في طبعه التحكيم
ولواعج يحتاج صالي حرّها * امرا به قد خص ابراهيم
ولقد أقول لصاحب هو بالذي * أدركت من علم الزمان عليم
لا يأس من روح الاله وان قست * يوما قلوب الخلق فهو رحيم

ويهزني ويستفزني ما كتبه رحمه الله تعالى من رسالة * كتبته الى سيدي وهو السيد حقيقه وأخي وقد كتب الدهر بذلك وثيقه أبقى الله تعالى جلاله محروسا وربع وفائه لا يخشى دروسا من رباط المتيم وأنا بحقه عليم وعلى عهده مقيم وشأني توقيره وتعظيم وحب فيه خالص كريم ووصلني خطابه الخطير المبرور فكنت به كالصائم رأى الهلال والهائم عاين ماء الزلال علق ليس يوازيه علق وسحر لكنه حلال طلق ونظم لذكر الطائي طاو وصنعة لم يرها ولم يروها راء ولا راو رمت ابن الرومي بالخول وبشرت ابن بشار من العدول وحكمت بأن البزي في غرة الهوان مدرج والسري عن سراوة الاحسان مخرج فأما النثر فصهيل لا يجاوبه الرغاء وطراز لا يحسنه البلغاء ونقد تزيف معه النقود ومدى تنقطع دونه الخمر القود غادر الصابي وصباه غير ذات هبوبه والصاحب وهو من العجز مع شر مصحوبه والميكالي وميكاله مرفوض والحريري وحريره في سوق الكساد معروض فأما بحر رئيس أرتجان فقد استخرج منه اللؤلؤ والمرجان وأبقاه في ضحضاح بل تركه يمشي بأدرح ضاح من ذا يجاري فارس الصفين وامام الصنفين أبلغ من خط بقلم وأشهر من نار على علم وماذا يقال في أنامل تطرزها الصحف وخمائل تغبر بها الروضة الانف واسم في شرق البلاد وغربها ظاهر ووسم بالكتابة والنجابة لم يكن لبني وهب وآل طاهر فالزمان يأثر ما يثر ويعظم ما يسطر ولو أن الازمنة قبله غمرت المحاضر بكل ناجم ونثرت المقابر عن الصنوبري وكشاجم وجاءت بالكتاب من كل جيل والشعراء رعيلا بعد رعيل لطالب هذا العصر بواحده آلافها وأنسى بخلفه أسلافها انتهى * وكتب رحمه الله تعالى الى صاحبه في معنى ما ألمعنا به آنفا ما صورته

وقلده قضاء هيلانة ثم نقله الى قضاء سلا ثم نقله السعيد الى قضاء مكناسة الزيتون ثم قصد سبتة وأخذ ماله فى قافلة بنى مرين ثم توجه الى بلاد افريقية ووصف حاله فى رسالة خاطب بها ابن السلطان ابا زكريا الحفصى وهو أبو زكرياء ابن السلطان أبى زكرياء وكان صاحب بجاية لابيه ولم يزل رحمه الله تعالى مذ فارق الاندلس متطلعا لسكنى افريقية معمور القلب بسكانها ولما قدم تونس مال الى صحبة الصالحين والزهاد وأهل الخير برهة من الزمان ثم استقضى بالاربس من افريقية ثم بقابس مدة طويلة ثم استدعاه أمير المؤمنين المستنصر بالله الحفصى وأحضره مجالس انسه وداخله مداخلة شديدة حتى تغلب على أكثر أمره ومولده بجزائر شقر فى شهر رمضان المعظم سنة ٥٨٠ وتوفى ليلة الجمعة الموفية عشرين من ذى الحجة سنة ٦٥٨ ألحقه الله رضوانه وجدد عليه غفرانه * قال ابن الابار فى تحفة القادم فى حق أبى المطرف المذكور فائدة هذه المائة والواحد فى بالعمة الذى اعترف باتحاده الجميع واتصف بالابداع فما ذا يتصف به البديع ومعاذ الله أن احابيه بالتقديم لماله من حق التعليم كيف وسبقه الاشهر ونطقه الياقوت والجوهر تحلت به الصحائف والمهارق وما تخلت عنه المغارب والمشارق حسبى أن أجهد فى أوصافه ثم اشهد بعدم انصافه هذا على تناول الخصوص والعموم لذكره وتناوب المنثور والمنظوم على شكره ثم أورد له جملة منها قوله

وأجلت فكرى فى وشاحك فانثنى * شوقا اليك يجول فى جوال
انصفت غصن البان اذلم تدعه * لتأود مع عطفك المبال
ورحمت در العقد حين وضعته * متواريا عن ثغرك المتلالى
كيف القاء وعلى وعد لنسينه * أبدا تخلصه للاستقبال
وكاة قومك نارهم ووقيدها * للطارقين اسنة وعوال

وله مما يكتب على قوس قوله

ما انا د معتقل الصبى الالا ٌن * يحكى تأطر قامتى العوجاء
تحنو الضلوع على القلوب وانى * ضلع ثوى فيها بأعضل داء

وله وقد أهدى وردا

خذها اليك أبا عبد الاله فقد * جاءتك مثل خدود زانها الخفر
اتتك تحكى محيا ملك قد عذبت * لكن تغير هذا دونه الغير
ان شمت منها بروق العيث لامعة * فسوف يأتيك من ماء اها مطر

قال وكتب الى مع تحفة اهداها مكافئا عن مثلها

ياواحد الادب الذى قد زانه * عذباتب جعلته فارس منصبه
بالفضل فى الهمة ابتدأت فان تعر * طرف القبول لما وهبت حسبت به

قال وله ارتجالا بقصر الامارة من بلنسية وأنا حاضر فى صحبة بعض الجمع وقد هجم صاحب لنا من أهل النظم والنثر وأحسن الى الحمام بالخصوص

أرى من جاء بالموسى مواسى * وراحة ذى القريض تعود صفرا

الرسوم وأفلت تلك النجوم ورمتنا عن قوسها الروم ثم خامتنا في المغاني . وقسمتنا بين
الاسير والعاني فأودى القل والكثر واشتفى من الاسلام الكفر فكم كاس أنس أرقناه
ومنزل فرقة الابد فارقناه وذكرت اجتيازك بين العلمين وقطعك متن اليم في يومين وانك
انتقلت من ذوات الالواح الى عذبات الادواح ومن متهافت الشراع الى منابت
اليراع ومن سكنى بيت السكان الى منزل به الفلاح والملاح يشتركان حيث اجتمع الضب
والنون وأينع التين والزيتون وطالت الساحات وذللت الثمار المباحات فلا تشرقنا
يا أصيل ولا تم تلك الارض الويل انتهى ووصل هذا الكلام بالابيات التي تقدمت قريبا
وهي قوله زدنا على النائين عن أوطانهم الخ * وكتب رحمه الله عن أهل شاطبة أيام كان
قاضيا بها مهنئا أمير المسلمين ابن هود المستولي على الاندلس آخر دولة الموحدين بوصول
الكتاب العباسي الكريم اليه من بغداد بولاية الاندلس اذ كان ابن هود حين ثار على
الموحدين يدعو الى الخليفة العباسي الذي كان اكثر الملوك في ذلك الزمان يدينون بطاعته
بما نصه بعد الصدر (أما بعد) فكتب العبد كتب الله تعالى الى المقام العلي المجاهدي
المتوكلي سعادة لا تبلغ أمدا الا تخطته ويدا علوها أثبتته أيدي الاقدار وخطته من
شاطبة وبركات الامر المجاهدي المتوكلي والعهد الواثقي المعتصمي تنسكب كالمطر
وتنسحب على البشر وتقضي بعادة النصر والظفر وسعادة الورد والصدر والحمد لله
وعند العبد من اداء فروض الخدم والقيام بحقوق النعم ما عقدت عليه ضمائرهم
وسمت اليه خواطرهم واشترك فيه باديهم وحاضرهم لجناب أملهم فسيح ومتجر خدمتهم
ربيح وحديث طاعتهم حسن صحيح وبسني النظر العلي اهتداؤهم وفي الباب الكريم
رجاؤهم وبصدق العبودية اعتزازهم واليها اعتزاؤهم والله تعالى ينهضهم بوظائف
المثابة العليه ويحملهم على المناهج السويه ووصل الكتاب الكريم متحليا برواء الحق
ناطقا بلسان الصدق واصما من التشريف والفخار المنيف ما صدر عن امام الخلق
فلا بيان أعجب من ذلك البيان ولا يوم كذلك اليوم تبدى نظره للعيان أو تنادى خبره
في أخبار الزمان نشرت فيه الخلع العباسية في أعلى الصور وبرزتها للعيون ما يعثر البليغ
عند وصفه في ذيل الحصر ويهدى سواده سواد القلب والبصر فما المشهد ها ما أعجب
ما كان ومرآها الذي راع الكفر وراق الايمان واشبه يومه بالاندلس يوم خرجت
الرايات السود من خراسان وكفى بهذا فخارا لا يحتاج ثابته مثبتا أن باشرت برد اباشر
البدن الذي طاب حيا وميتا فهو عال في الاسناد ولا نظير له في العوالي وفخار نصلت عن
مثله العصور الخوالي وجلت بهجته أن تخلق جدتها الايام والليالي ودل الكتاب
العزيز على التسمية المشتقة من الجهاد والسمة من سيف أمير المؤمنين على الا يدخل
في جفن ذوات الاغماد وخير الاوصاف ما صدقه الموصوف والكريم النسب نسبته
يباهى بها الدين وترهى السيوف

فان نحن سميناك خلنا سيوفنا * من التيه في أغمادها تتبسم

ومما أفاده الكتاب المبهج بطيب أنبائه نص علامة سيدنا صلوات الله عليه وعلى

آياته فإنا نسبت نعمة الله عز وجل من صفات الكمال ودل على مذهب أهل السنة
في خلق الله عز وجل الأعمال واعترفنا بقصر العبد بعناية سبقت بالمقام الهادي
المتوكلي أحسن الله تعالى إليه حين تولى خلافة أمير المؤمنين صلوات الله عليه فإنها
سامية بعزيمة ساعد وسبق في مشارع الصفا والإخلاص وارد ألهم رشاد في الخلافة
شارك الإمامة في همة واحدة فهذه كرامة في الخلافة هي علامة الكرامة وقد من
مواهب الكتب عهدنا من أصل قوله فاستقم كما أمرت فكان من أهل الاستقامة
وشهد الكتاب الكريم بنعمة أهل جنان ونعيمها وإن هذه الشارة ونعيمها لفروع
عن هذا الأصل الصحيح وأفهمنا من هذا النص الصريح بأدلة الخلاف فقد استقلت
وشيمة الخلاف قد بلت واضمحلت والحمد لله على أن منح جزيل النعماء وشرح ألسن
صدور الأولياء وعرف هذه الأمة بإمامة جل الأئمة الخلفا وابن عم سيد الرسل وخاتم
الأنبياء والعبد مخصوص بهذه النعم التي لا يستقل بشكرها قلم ولا يستطيع علم من وصفها
الابتداع ونحن من الأشواق إلى مشاهدة المقام الشريف ولثم البساط الطاهرة العلية
ما أكد ذلك الداعي وجدد ما عهد للمقام العالي المتوكلي من نعم الله تعالى الجليلة
المقدار والشاهد له بإسعاد الأيام وإسعاف الأقدار فلو أمكنهم الإقدام لأقدموا
ولو وجدوا رخصة في التأخير لعزموا وهم يقبلون البساط الأشرف ويهنئون أمامهم إمام
الأمة فقد استكملوا السرور ونعلم أن الدولة العباسية خطب لها في بلاد الأندلس أعادها
الله للإسلام ولا شك أن ما يناسب من ذلك وغيره يناسب للمقام فلا انسداد ولا إظلام
(ومن ذلك) إذ ذكرناها مخاطبة صدرت من الغني بالله صاحب الأندلس إلى
السلطان المنصور أحمد ابن السلطان الناصر محمد بن قلاوون من إنشاء الوزير الكبير
لسان الدين بن الخطيب رحمه الله لما اشتملت عليه من أحوال الأندلس وفيها الأبواب
التي تفتح لنصرها أبواب السماء وتسدد من آفاتها صواب العصمة وتجلي بأنوار
سعدها دياجي الظلماء ونعرف شكر السلف والعادة لانتساب إلى محتدها والانتماء
على اختلاف العروض وسائر الحدود وتعدد الأسماء وتعيين من صلات صلاتها أعقد
الروائع في كل حال صفات بالأسماء وتعمل لها القصة ذوات الدسر والألواح طاعة
عن الصباح على كتد الماء أبواب السلطان الكبير الجليل الشهير الطاهر الظاهر
الأوحد الأسعد الأصعد الأعلى العادل العالم الفاضل الكامل سلطان
الإسلام والمسلمين عماد الدنيا والدين رافع ظل العدل على العالمين جمال الإسلام
علم الأعلام فخر الليالي والأيام ملك البرين والبحرين إمام الحرمين ومن
الأمصار والأقطار عاصب تاج الفخار هازم الفرنج والترك والتتار الملك المنصور ابن
الأمير الرفيع العماد الكريم الولادة الطاهر الظاهر الكبير الشهير المعظم المعد
الأسمى المؤيد الأعلى فخر الملة سيف الله تاج الإمارة عز الإسلام مستظل الأنام
عز الميدان أسد الحرب العوان المستظهر المطهر الأمير أحمد ابن والد السلاطين
ومالك المسالك وسيف خلافة الله على العالمين وولي المؤمنين سلطان الجهاد والح

ونعتم

ومقيم رسم الحج والنحر محيي معالم الدين قامع المعتدين قاهر الخوارج والمتمردين ناصر
السنة محيي الملة ملك البرين والبحرين سلطان الحرمين الملك العادل العالم العامل
المنصور المؤيد المعان المرفوع المعظم المبجل المؤمل المجاهد المرابط المغازي المجدد
المكمل المطهر الكبير الشهير المقدس الملك الناصر أبي عبد الله محمد بن قلاوون الصالحي
جعل الله بساط دعوته معمورا بعمود الصبح وحركات عزمه مبنية على الفتح وجعل
سعادته غنيا عن الشرح وجياد أوصافه متبارية في ميدان المدح وزناد رأيه وارية على
القدح من موجب حقه ووجوب الشعائر الحسن المرحب لاجل أفقه الشرقية بوفادة
الشمس المجدد في اليوم حكم ماتقرر بين السلف رحمهم الله بالامس أمير المسلمين بالاندلس
عبد الله الغني بالله الغالب به محمد بن يوسف بن اسمعيل بن فرج بن نصر سلام كريم
كما خفقت راية الصبح تتقدمها طلائع مبشرات الرياح يفاوح أرجه زهر الادواح
ويحاسن طرر الوجوه الملاح يخص أبوتكم التي رتب العز فصولها وعضدت نصوص
النصر نصولها ورحمة الله تعالى وبركاته أما بعد حمد الله الذي جعله فاتحة القرآن وخاتمة
دعاء أهل الجنان وشكره على ما أولى من مواهب الاحسان حمدا وشكرا يستخدمان من
الانسان ملكتي القلب واللسان والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد رسوله زهرة
كمامة الاكوان وسيد ولد آدم على اختلاف اللغات والالوان الذي أذل بعزة الله نفوس
أهل الطغيان وغطى بدينه الحق على الاديان وزويت له الارض فرأى ملك أمته يبلغ
مازوي له فكان الخبر وفق العيان والرضا عمن له من الاصحاب والاحباب والاعمام
والاخوال والاخوان صلاة يجددها الجديدان ويمليها الملوان وتتراحم على تربته
المقدسة مع الاحيان ماسجعت طيور البراعة من أعواد اليراعة على الافنان والتفتت
عيون المعاني من بين أجفان البيان والدعاء لابوابكم الشريفة جعل الله تعالى عصمته تقيم
بها وظيفتي الحجابة والاستئذان وضرب بدعوتها التي هي لدة الاقامة والاذان على الآذان
واستخدم بروح الفلك الدوار في أمرها العزيز استخدام الانصار والاعوان حتى يعلم
مافي المدافعة عن حماها مخالب السرطان وفي الاشادة بعدلها كفتي الميزان ويهدي لها
من الزهرة كرة الميدان ومن الهلال عوض الصولجان وأبقى في عواملها ضمير الامر
والشان الى يوم تعنو وجوه الملوك الى الملك الديان فانا كتبناه الى تلك الابواب كتب الله
لعتبتها النصرة الداخلة كما اتصل بمكارمها السحب الماخلة وجعل مفارق مناصلها
المختضبة من نجيع عداها غير ناصلة وقرن بكل سبب من أسبابها فاصلة من دار ملك
الاسلام بالاندلس حمراء غرناطة وصل الله سبحانه عادة الدفاع عن أرجائها وشد بأيدي
اليقين عرى آمالها في الله ورجائها حيث المصاف المعقود وثمن النفوس المنقود ونار
الحرب ذات الوقود حيث الافق قد تردى بالقتام وتعمم والسيف قد تجرد وتيمم وغبار
الجهاد يقول انا الامان من دخان جهنم حيث الاسلام من عدوه كالشامة من جلد البعير
والتمرة من أوسق العير حيث المصارع تتراحم الحور على شهدائها والابطال يعلو بالتكبير
مسمع ندائها حيث الوجوه الضاحكة المستبشرة قد زينتها الكلوم بدمائها وان هذا القطر

فى مستنقع الحرب أقدامهم وأحلوا والله بأسهم واقدامهم ووصلوا سيوفهم البارقة بخطاهم وأعطاهم منشور العز من أعطاهم حين تعين الدين وتحير واشتد بالمدافعة وغير وعادت الحروب سجالا وعلم الروم أن لله رجالا وقد أوجد ما رضى الله عنه على أبواب سلمكم من وقائعه فى العدو كل مبشره ووجوديه منتشره ضحكت لها ثغور الثغور وسرت بها فى الاعطاف حميا السرور وكانت المراجعة عنها شفاء للصدور وتمائم فى درر النحور وحمرا فى وجوه البدور فان ذمام الاسلام موصول وفروعه تجمعها فى الله أصول وما أقرب الحزن ممن داره صول والملة والمنة لله واحده والنفوس لا منكرة للحق ولا جاحده والاقدار معروفه والآمال الى ما يوصل الى الله مصروفه فاذا لم يكن الاستدعاء أمكن الدعاء والخواطر فعاله والكل على الله عاله والدين غريب والغريب يحن الى أهله والمرء كثير بأخيه على بعد محله انتهى المقصود من المخاطبة عما يتعلق بهذا الباب والله الموفق للصواب

(الباب الثالث)

فى سرد بعض ما كان للدين بالاندلس من العز السامى العماد والقهر للعدو فى الرواح والغدو والتحرك والهدو والارتياح البالغ غاية الآماد وأعمال أهلها للجهاد بالجد والاجتهاد فى الحال والوهاد بالاسنة المشرعة والسيوف المستلة من الاغماد

(اقول) قد قدمنا فى الباب قبل هذا ما كان من نصر المسلمين وفتحهم الاندلس وما حصل لهم من السلطان بها الى مجىء الداخل فتقررت القواعد السلطانية وعلت الكلمة الايمانية كما نسرده هنا ان شاء الله تعالى (وذكر غير واحد) منهم ابن حزم أن دولة بنى أمية بالاندلس كانت أنبل دول الاسلام وأنكاها فى العدو وقد بلغت من العز والنصر ما لا مزيد عليه كما سترى بعضه (وأصل هذه الدولة) كما قال ابن خلدون وغير واحد أن بنى أمية لما نزل بهم بالمشرق ما نزل وغلبهم بنو العباس على الخلافة وأزالوهم عن كرسيها وقتل عبد الله بن على مروان بن محمد بن مروان بن الحكم آخر خلفائهم سنة ثنتين وثلاثين ومائة وتتبع بنى مروان بالقتل فطلبوا بطن الارض من بعد ظهرها وكان ممن أفلت منهم عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان وكان قومه يتحينون له ملكا بالمغرب ويرون فيه علامات لذلك يأثرونها عن مسلمة بن عبد الملك وكان هو قد سمعها منه مشافهة فكان يحدث نفسه بذلك فخلص الى المغرب ونزل على اخواله نفزة من برابرة طرابلس وشعر به عبد الرحمن بن حبيب وكان قد قتل ابنى الوليد بن يزيد بن عبد الملك لما دخلا افريقية فلحق بمغيلة وقيل بمكناسة وقيل بقوم من زناتة فأحسنوا قبوله واطمأن فيهم ثم لحق بمليلة وبعث بدرا مولاه الى من بالاندلس من موالى المروانيين وأشياعهم فاجتمع بهم وبثوا له فى الاندلس دعوة ونشروا له ذكرا ووافق قدومه ما كان من الاحن بين اليمنية والمضرية فاصفقت اليمنية على أمره لكون الامر كان ليوسف بن عبد الرحمن الفهرى وصاحبه الصميل ورجع بدر مولاه اليه بالخبر فأجاز البحر سنة ثمان وثلاثين ومائة فى خلافة أبى جعفر المنصور ونزل بساحل

المشرق وانابوا من أهل إشبيلية فبايعوه ثم انتقل إلى كورة رية فبايعه عاملها عيسى بن
مساور ثم إلى شذونة فبايعه غياث بن علقمة اللخمي ثم إلى مورور فبايعه ابن الصباح ثم نهض
إلى قرطبة واجتمعت إليه اليمنية ونمي خبره إلى والي الأندلس يوسف بن عبد الرحمن الفهري
وكان غازيا بجليقية فانتقض عسكره ورجع إلى قرطبة وأشار عليه وزيره الصميل بن حاتم
بالتلطف له والمكر به لكونه صغير السن حديث عهد بنعمة فلم يتم ما أراد وارتحل عبد
الرحمن من المنكب فاحتل بمالقة فبايعه جندها ثم برندة ثم بشريش كذلك ثم بإشبيلية
فتوافت إليه جنود الأمصار وتسايلت المضرية إليه حتى إذا لم يبق مع يوسف بن عبد
الرحمن غير الفهرية والقيسية لمكان الصميل منه زحف حينئذ عبد الرحمن الداخل وناجزهم
الحرب بظاهر قرطبة فانكشف يوسف ولحق إلى غرناطة فتحصن بها واتبعه الأمير عبد
الرحمن فنازله ثم رغب إليه يوسف في الصلح فعقد له على أن يسكن قرطبة ثم أقفله معه ثم نقض
يوسف عهده وخرج سنة إحدى وأربعين ومائة ولحق بطليطلة واجتمع إليه زهاء عشرين
ألفا من البربر وقدّم الأمير عبد الرحمن لقتاله عبد الملك بن عمر المرواني وكان وفد عليه من
المشرق وكان أبوه عمر بن مروان بن الحكم في كفالة أخيه عبد العزيز بن مروان بمصر فلما
دخلت المسودة أرض مصر خرج عبد الملك يؤم الأندلس في عشرة رجال من قومه مشهورين
بالبأس والنجدة حتى نزل على عبد الرحمن سنة أربعين فعقد له على إشبيلية ولابنه عمر بن
عبد الملك على مورور وسار يوسف إليهما وخرجا إليه وتناجزوا القتال فكانت الدائرة
على يوسف وأبعد المفر واغتاله بعض أصحابه بناحية طليطلة واحتز رأسه وتقدم به إلى
الأمير عبد الرحمن فاستقام أمره واستقر بقرطبة وتمهد له الملك وبنى المسجد الجامع
والقصر بقرطبة وأنفق فيه ثمانين ألف دينار ومات قبل تمامه وبنى مساجد ووفد عليه
جماعة من أهل بيته من المشرق وكان يدعو للمنصور ثم قطع دعوته ومهد الدولة بالأندلس
وأثّل بها الملك العظيم لبني مروان والسلطان العزيز وجدد ما طمس لهم بالمشرق من معالم
الخلافة وآثارها واستلحم الثوار عليه على كثرتهم في النواحي وقطع دعوة آل العباس من
منابر الأندلس وسد المذاهب منهم دونها وهلك سنة ثنتين وسبعين ومائة وكان يعرف بعبد
الرحمن الداخل لأنه أول داخل من ملوك بني مروان إلى الأندلس وكان أبو جعفر المنصور
يسميه صقر قريش لما رأى أنه فعل بالأندلس ما فعل وما ركب إليها من الأخطار وأنه مهد لها
من أنأى ديار المشرق من غير عصابة ولا أنصار وغلب أهلها على أمرهم وتناول الملك من
أيديهم بقوة شكيمة ومضاء عزم حتى انقاد له الأمر وجرى على اختياره وأورثه عقبه وكان
يسمى بالأمير وعليه جرى بنوه من بعده فلم يدع أحد منهم بأمير المؤمنين تأدبا مع الخلافة
بمقر الإسلام ومنتدى العرب حتى كان من عقبه عبد الرحمن الناصر وهو ثامن بني أمية
بالأندلس فتسمى بأمير المؤمنين على ما سنذكر لما رأى من ضعف خلفاء بني العباس بعد
الثلاثمائة وغلبة الأعاجم عليهم وكونهم لم يتركوا لهم غير الاسم وتوارث التلقب بأمير
المؤمنين بنو عبد الرحمن الناصر واحدا بعد واحد (قال ابن حيان) وكان لبني عبد الرحمن
الداخل بالعدوة الأندلسية ملك ضخم ودولة متصلة إلى ما بعد المائة الرابعة

وعند ما شغل المأمون بعبد الرحمن وتمهيد أمره قوى أمر الجلالقة واستفحل سلطانهم وعمد فرويلة بن ادفونش ملكهم الى ثغور البلاد وأخرج المسلمين منها وملكها من أيديهم فملك مدينة لك وبرتقال وسمورة وقشتالة وشقوبية وصارت للجلالقة حتى افتتحها المنصور ابن أبي عامر آخر الدولة ثم استعادوها بعده فيما استعادوا من بلاد الاندلس واستولوا على جميعها حسبما يذكر والله سبحانه الامر انتهى وخاطب عبد الرحمن قارله ملك الافرنج وكان من طغاة الافرنج بعد أن تمرس به مدة فأصابه صلب المكر تام الرجولية فمال معه الى المداراة ودعاه الى المصاهرة والسلم فأجابه للسلم ولم تتم المصاهرة قال ابن حيان ولما ألقى الداخل الاندلس ثغرا قاصيا غفلا من حلية الملك عاطلا أرهف أهلها بالطاعة السلطانية وحنكهم بالسيرة الملوكية وآخذهم بالآداب فأكسبهم عما قليل المروءة وأقامهم على الطريقة وبدا فدون الدواوين ورفع الأواوين وفرض الأعطية وعقد الألوية وجند الاجناد ورفع العماد وأوثق الاوتاد فأقام للملك آلته وأخذ للسلطان عدته فاعترف له بذلك أكابر الملوك وحذروا جانبه وتحاموا حوزته ولم يلبث أن دانت له بلاد الاندلس واستقل له الامر فيها فلذلك ما طال عدوه أبو جعفر المنصور بصدق حسه وبعد غوره وسعة احاطته يسترجح عبد الرحمن كثيرا ويعدله بنفسه ويكثر ذكره ويقول لا تعجبوا لامتداد أمر بامع طول مراسه وقوة أسبابه فالشان في أمر فتى قريش الاحوذي الفذ في جميع شؤنه وعدمه لأهله ونشبه وتسليه عن جميع ذلك ببعد مرقى همته ومضاء عزيمته حتى قذف نفسه في لجج المهالك لابتناء مجده فاقتحم جزيرة شاسعة المحل نائية المطمع عصبية الجند ضرب بين جندها بخصوصيته وقمع بعضهم ببعض بقوة حيلته واستمال قلوب رعيتها بقضية سياسته حتى انقاد له عصيهم وذل له أبيهم فاستولى فيها على أريكته ملكا على قطيعته قاهرا لاعدائه حاميا الذماره مانعا لحوزته خالطا الرغبة اليه بالرهبة منه ان ذلك لهو الفتى كل الفتى لا يكذب مادحه وجعل ابن حيان من النوادر العجيبة موافقة عبد الرحمن هذا لأبي جعفر المنصور في الرجولية والاستيلاء والصرامة والاجتراء على الكبائر والقساوة فان أم كل واحد منهما بربرية وكان الداخل يقعد للعامة ويسمع منهم وينظر بنفسه فيما بينهم ويتوصل اليه من أراده من الناس فيصل الضعيف منهم الى رفع ظلامته اليه دون مشقة وكان من عادته أن يأكل معه من أصحابه من أدرك وقت طعامه ومن وافق ذلك من طلاب الحوائج أكل معه *(وفي كتاب ابن زيدون)* انه كان أصهب خفيف العارضين بوجهه خال طويل القامة نحيف الجسم له ضفيرتان أعور أخشم والاخشم الذي لا يشم وكان يلقب بصقر قريش لكونه تغرب وقطع البر والبحر وأقام ملكا قد أدبر وحده والماذكر الحجاري انه أعور قال ما أنشد فيه الاقول امرئ القيس

لكن عويرًا وفى بذمته * لا عور شانه ولا قصر

(وقال ابن خلدون) وفي سنة ست وأربعين سار العلاء بن مغيث اليحصبي من افريقية الى الاندلس ونزل بباجة الاندلس داعيا لابي جعفر المنصور واجتمع اليه خلق فسار عبد

الرحمن إليه والتقيا بنواحي إشبيلية فقاتله أياماً ثم انهزم العلاء وقتل في سبعة آلاف من
أصحابه وبعث عبد الرحمن برؤوس كثير منهم إلى القيروان ومكة فألقيت في أسواقها سراً
ومعها اللواء الأسود وكتاب المنصور للعلاء فارتاع المنصور لذلك وقال ما هذا إلا شيطان
والحمد لله الذي جعل بيننا وبينه البحر أو كلاماً هذا معناه وقد مرّ ذكر ذلك وكثرت ثورة
رؤساء العرب بالأندلس على عبد الرحمن الداخل ونافسوه ملكه ولقي منهم خطوباً عظيمة
وكانت العاقبة له واستراب في آخر أمره بالعرب لكثرة من قام عليه منهم فرجع إلى
اصطناع القبائل من سواهم واتخاذ الموالي ثم غزا أرض الافرنج والبشكنس ومن وراءهم
ورجع بالظفر وكان في نيته أن يجدد دولة بني مروان بالمشرق فمات دون ذلك الأمل
وكانت مدة ملكه بالأندلس ثلاثاً وثلاثين سنة وأربعة أشهر إذ دخل الأندلس سنة ثمان وثلاثين
ومائة ومات سنة اثنتين وسبعين وقيل إحدى وسبعين ومائة في خلافة الرشيد وأمه
أم ولد بربرية اسمها راح ومولده سنة ثلاث عشرة ومائة بدير حنا من أرض دمشق وقيل
بالعلياء من تدمر ومات أبوه في أيام أبيه هشام سنة ثمان عشرة عن إحدى وعشرين سنة
وكفله واحتوى به جده هشام ووهب لعبد الرحمن هذا اجمع الاحسان الى احسن
للخلفاء بالأندلس وأعطاه أباها وسار ليلا بها من الشام سعد بن أبي ليلى وقيل إنه لما قصد
المغرب من فلسطين خرج معه أربعة بدر مولى أبيه وأبو شجاع وزياد وعمرو وقيل إن
بدراً لحقه ولم يخرج معه فالله أعلم وخلف من الولد عشرين منهم أحد عشر رجلاً وتسع
بنات * (وحكى غير واحد) أنه لما هرب من الشام إلى إفريقية قاصداً الأندلس نزل بمغيلة
فصار بها عند شيخ من رؤساء البربر يدعى وانسوس ويكنى أبا قرة فاستتر عنده وطالبوه
قد ولي أمره شرور وجب اعد به أنه ... فلما دخل الأندلس واستتب أمره سار
إليه أبو قرة وانسوس البربري فأحسن إليه وحظي عنده وأكرم زوجته تكفات البربرية
التي خبأته تحت ثيابها عندما فتش رسل ابن حبيب بيتها فقال لها عبد الرحمن مداعباً
حين استطاب نعمة في الأندلس لقد عذبني رائح إبطك يا تكفات على ما كان بي من الخوف
وشطفني ناس من ريح الجيف فكان جوابها أسرع بل ذلك كان والله يا سيدي بملك
خرج ولم يشعر به من فرط ذعرك فاستظرف جوابها وأغضى عن مواجهتها بمثل ذلك
وهذا من آفات المزاح * ومن محاسنه أنه أدار السور بقرطبة رحمه الله (وتولى الملك
بعده ابنه هشام بعهد منه إليه) وأمه أم ولد اسمها حلال وأفضى إليه الملك وهو بماردة
وال عليها وكان أبوه يتولاه في صغره ويرشحه للأمر وكان الداخل كثيراً ما يسأل عن ابنيه
سليمان وهشام فيذكر له أن هشاماً إذا حضر مجلساً امتلأ أدباً وتاريخاً وذكراً لأيام
الحرب ومواقف الأبطال وما أشبه ذلك وإذا حضر سليمان مجلساً امتلأ سخفاً وهذياناً
فيكبر هشام في عينه مقدار ما يصغر سليمان وقال يوماً لهشام لمن هذا الشعر

وتعرف فيه من أبيه شمائلاً * ومن خاله أو من يزيد ومن حجر
سماحة ذا مع بر ذا ووفا ذا * ونائل ذا إذا صحا وإذا سكر

فقال له يا سيدي لامرئ القيس ملك كندة وكأنه قاله في الأمير أعز الله فقربه إليه استحساناً

بما سمع منه وأمر له باحسان كثير وزاد فى صلته ثم قال لسليمان على انفراد لمن هذا الشعر
وأنشده البيتين فقال لعلهما لاحد أجلاف العرب أمالى شغل غير حفظ أقوال بعض
الاعراب فأطرق عبد الرحمن وعلم قدر ما بين الاثنين من المزية * ولما ولى هشام أشخص
المنجم المعروف بالضبى من وطنه الجزيرة الخضراء الى قرطبة وكان فى علم النجوم والمعرفة
بالحركات العلوية بطليموس زمانه حذقا واصابة فلما أتاه خلا به وقال له يا ضبى لست أشك
أنه قد عنالك من أمرنا اذ بلغك ما لم تدع تجديد النظر فيه فأنشدك الله الا ما باثثتنى بما ظهر لك
فيه فلجلج وقال اعفنى أيها الامير فانى ألممت به ولم أحقق النظر فيه بجلالته فى نفسى
فقال له قد أجلتك لذلك فتفرغ للنظر فيما بقى عليك منه ثم أحضره بعد أيام فقال ان الذى
سألتك عنه جدّ منى مع انى والله ما أثق بحقيقته اذ كان من غيب الله الذى استأثر به
ولكنى أحب أن أسمع ما عندك فيه فالنفس طلعة وألزمه الصلة أو العقوبة فقال اعلم أيها
الأمير انه سوف يستقر ملكك سعيدا جدك قاهرا لمن عاداك الا ان مدتك فيه فيما دل عليه
النظر تكون ثمانية أعوام أو نحوها فأطرق ساعة ثم رفع رأسه وقال يا ضبى ما أخوفنى
أن يكون النذير كلمنى بلسانك والله لو أن هذه المدة كانت فى سجدة لله تعالى لقلت طاعة له
ووصله وخلع عليه وزهد فى الدنيا ولزم أفعال الخير والبر (ومن حكاياته فى الجود) انه كان
قاعدا للراحة فى علية على النهر فى حياة والده فنظر الى رجل من قدماء صنائعه من أهل
جيان قد أقبل يوضع السير فى الهاجرة فأنكر ذلك وقدر شرا وقع به من قبل أخيه سليمان
وكان واليا على جيان فأمر بادخاله عليه فقال له مهيم يا كنانى فلا مر ما وما أحسبك الا
مزعجا لشئ دهمك فقال نعم يا سيدى قتل رجل من قومى رجلا خطأ فحملت الدية على العاقلة
فأخذ منها من كانت عامة وحملنا على من بينهم خاصة وقصدنى أخوك بالاعتداء اذ عرف
مكانى منك فمد هشام يده الى جارية كانت وراء الستر وقطع قلادة عقد نفيس كان فى نحرها
وقال له دونك هذا العقد يا كنانى وشراؤه على ثلاثة آلاف دينار فلا تخدع عنه وبعه
وأدّ عن نفسك وعن قومك ولا تمكن الرجل من اهتضامك فقال يا سيدى لم آتك مستجديا
ولا أضيق المال عما حملته ولكنى لما اعتمدت بظلم صراح أحببت أن يظهر على عز نصرك
وأثر ذبك وامتعاضك فأعتد بذلك عند من يحسدنى على الانتماء اليك فقال هشام وما وجه
ذلك فقال ان تكتب الى أخيك فى الامساك عنى والقيام بحرمتك لى فقال امسك العقد وركب
من حينه الى والده الداخل واستأذن عليه فى وقت أنكره فارتاع وقال ما أتى بأبى الوليد
فى هذا الوقت الا أمر مقلق ائذنوا له فلما دخل سلم عليه ومثل قائما بين يديه فقال له اجلس
يا هشام فقال أصلح الله الامير سيدى وكيف جلوسى بهم وذل مزعج وحق لمن قام مقامى
أن لا يجلس الا مطمئنا ولن يقعدنى الا طيب نفسى باسعاف الامير لحاجتى والا رجعت
على عقبى فقال له حاش لله من انقلابك خائبا فاقعد مجابا مشفعا فجلس فقال له أبوه
ما الحدث المقلق فأعلمه فأمر بحمل الدية عنه وعن عشيرته من بيت المال فسر هشام
وأطنب فى الشكر وكتب الامير الى ولده سليمان فى ترك التعرض لهذا الكنانى بما لم يدر
فى خلده * ولما دخل الكنانى لوداع هشام قال له يا سيدى قد تجاوزت بك حد الامنية

يحيى بن يحيى الليثى صاحب مالك وأحد رواة الموطأ عنه وطالوت الفقيه وغيرهما فثاروا به وخلعوه وبايعوا بعض قرابته وكانوا بالربض الغربى من قرطبة وكان محله متصلا بقصره فقاتلهم الحكم فغلبهم وافترقوا وهدم دورهم ومساجدهم ولحقوا بفاس من أرض العدوة وبالاسكندرية من أرض المشرق ونزل بها جمع منهم ثم ثاروا بها فزحف اليهم عبد الله بن طاهر صاحب مصر للمأمون بن الرشيد وغلبهم وأجازهم الى جزيرة اقريطش فلم يزالوا بها الى أن ملكها الافرنج من أيديهم بعد مدة * وكانت فى أيام الحكم حروب وفتن مع الثوار المخالفين له من أهل طليطلة وغيرهم (وفى سنة ثنتين وتسعين) جمع لذريق بن قارله ملك الفرنج جموعه وصار الى حصار طرسونة فبعث الحكم ابنه عبد الرحمن فى العساكر فهزمه وفتح الله على المسلمين وعاد ظافرا ولما كثر عيث الفرنج فى الثغور بسبب اشتغال الحكم بالخارجين عليه سار بنفسه الى الفرنج سنة ست وتسعين فافتتح الثغور والحصون وخرب النواحى وأثخن فى القتل والسبى والنهب وعاد الى قرطبة ظافرا *(وفى سنة مائتين) بعث العساكر مع ابن مغيث الى بلاد الافرنج فخرب وهدم عدة حصون وأقبل عليه ألبة ملك الجلالقة فى جموع عظيمة وتنازلوا على نهر واقتتلوا عليه اياما ونال المسلمون منهم أعظم النيل وأقاموا كذلك ثلاث عشرة ليلة ثم كثرت الامطار ومد النهر وقفل المسلمون ظافرين ظاهرين وهو أول من جند الاجناد واتخذ العدة وكان أفخل بنى امية بالاندلس وأشدهم اقداما ونجدة وكان يشبه بأبى جعفر المنصور من خلفاء بنى العباس فى شدة الملك وتوطيد الدولة وقمع الاعداء وكان يؤثر الفقيه زياد بن عبد الرحمن وحضر يوما عنده وقد غضب فيه على خادم له لايصاله اليه كتابا كره وصوله وأمر بقطع يده فقال له زياد أصلح الله الامير فان مالك بن أنس حدثنى فى خبر رفعه أن من كظم غيظا يقدر على انفاذه ملأ الله تعالى أمنا وايمانا يوم القيامة وأمر أن يمسك عن الخادم ويعفى عنه فسكن غضبه وقال آلله ان مالكا حدثك بهذا فقال زياد آلله ان مالكا حدثنى بهذا وكانت المجاعة الشديدة سنة سبع وتسعين ومائة فاكثر فيها مواساة أهل الحاجات وفى ذلك يقول عباس بن ناصح الجزيرى فيه

نكد الزمان فآمنت ايامه * من ان يكون بعصره عسر

طلع الزمان بأزمة جلت له * تلك الكريهة جوده الغمر

وكان نقش خاتمه بالله يثق الحكم وبه يعتصم * وذكور ولده عشرون واناثهم عشرون وامه جارية اسمها زخرف وكان أسمر طوالا أشم نحيفا ومدة ملكه ست وعشرون سنة سامحه الله * وقال غير واحد انه اول من جعل للملك بأرض الاندلس أبهة واستعد بالمماليك حتى بلغوا خمسة آلاف منهم ثلاثة آلاف فارس وألفا راجل ثم توفى الحكم بن هشام آخر سنة ست ومائتين لسبع وعشرين سنة من ولايته ومولده سنة ١٥٤ * وقال ابن خلدون وغير واحد انه اول من جند بالاندلس الاجناد والمرتزقة وجمع الاسلحة والعدد واستكثر من الخدم والحواشى والحشم وارتبط الخيول على بابه واتخذ المماليك وكان يسميهم الخرس لعجمتهم وحكى فى عدتهم ما تقدم ثم قال وكانت له عيون يطالعونه باحوال الناس وكان يباشر الامور بنفسه ويقرب الفقهاء والعلماء والصالحين وهو الذى وطأ الملك لعقبه

بالأندلس انتهى وكان له فيما حكى غير واحد ألفا فرس مرتبطة على شاطئ النهر قبلي قصره عنده بداره وهو الذي أوقع بأهل الربض وهدم ديارهم ومساجدها

رأبت صدوع الأرض بالسيف راقعا * وقدماً لأمت الشعب مذ كنت يافعا

فسائل ثغوري هل بها اليوم ثغرة * أبادرها مستنضي السيف دارعا

تنبئك أني لم أكن في قراعهم * بوان وقدماً كنت بالسيف قارعا

وهل زدت أن وفيتهم صاع قرضهم * فوافوا منايا قدرت ومصارعا

فهاك بلادي إنني قد تركتها * مهادا ولم أترك عليها منازعا

* وقال ابن حزم في حقه إنه كان من المجاهرين بالمعاصي السفاكين للدماء ولذلك قام عليه الفقهاء والصلحاء وقال غير واحد إنه تبتل أخيرا وتاب سامحه الله ومن نظمه قوله متغزلا

قضب من البان ماست فوق كثبان * ولين عني وقد أزمعن هجراني

ومنها

من لي بمغتصبات الروح من بدني * يغصبنني في الهوى عزي وسلطاني

وقيل إنه كان يقتل أولاد الناس ويخصيهم ويسلب نعمهم ووقعت له أشياء أشد منها كانوا بها والله أعلم بحقيقة الأمر *(ومن بديع أخبار الحكم) أن العباس الشاعر توجه إلى الثغر فلما نزل بوادي الحجارة سمع امرأة تقول واغوثاه بك يا حكم لقد أهملتنا حتى كلب العدو علينا فأيمنا وأيتمنا فسألها عن شأنها فقالت كنت مقبلة من البادية في رفقة فخرجت علينا خيل العدو فقتلت وأسرت فصنع قصيدته التي أولها

تململت في وادي الحجارة مسهدا * أراعي نجوما ما يردن تغورا

إليك أبا العاصي نضيت مطيتي * تسير بهم ساريا ومهجرا

تدارك نساء العالمين بنصرة * فإنك أحرى أن تغيث وتنصرا

فلما دخل عليه أنشده القصيدة ووصف له خوف الثغر واستصراخ المرأة باسمه فأنف ونادى في الناس بالجهاد والاستعداد فخرج بعد ثلاث إلى وادي الحجارة ومعه الشاعر وسأل عن الخيل التي أغارت من أي أرض العدو كانت فأعلم بذلك فغزا تلك الناحية وافتتح فيها الحصون وخرب الديار وقتل عددا كثيرا وجاء إلى وادي الحجارة فأمر بإحضار المرأة وجميع من أسر له أحد في تلك البلاد فأحضروا فأمر بضرب رقاب الأسرى بحضرتهم وقال للعباس سلها هل أغاثها الحكم فقالت المرأة وكانت نبيلة والله لقد شفى الصدور وأنكى العدو وأغاث الملهوف فأغاثه الله وأعز نصره فارتاح لقولها وبدا السرور في وجهه وقال

ألم تر يا عباس أني أجبتها * على البعد أقتاد الخميس المظفرا

فأدركت أوتارا وروّيت غلة * ونفّست مكروبا وأغنيت مقفرا

فقال عباس نعم جزاك الله خيرا عن المسلمين وقبل يده * (ومما يعاب به) أنه قتل الفقيه أبا زكريا يحيى بن مضر القيسي وكان مقدما في الدين والورع سمع من سفيان ومالك ابن أنس وروى عنه مالك وقال حدثنا يحيى بن مضر عن سفيان الثوري أن الطلح المنضود هو الموز وكان قتل المذكور مع جماعة من العلماء وغيرهم *(وقام بأمر من بعده

ابيه عبد الرحمن بعهد منه اليه ثم لاخيه المغيرة بعده) فغزا عبد الرحمن لاول ولايته الى جليقية وأبعد وأطال المغيب وأثخن فى أمم النصرانية هنالك ورجع وقدم عليه سنة ست ومائتين زرياب المغنى من العراق وهو مولى المهدى ومتعلم ابراهيم الموصلى واسمه على ابن نافع فركب بنفسه لتلقيه على ما حكاه ابن خلدون وبالغ فى اكرامه وأقام عنده بخير حال وأورث صناعة الغناء بالاندلس وخلف أولادا اختاصهم كبيرهم عبد الرحمن فى صناعته وحظوته * وفى سنة ثمان أغزى حاجبه عبد الكريم بن عبد الواحد الى البة والقلاع فخرب كثيرا من البلاد وانتسفها وفتح كثيرا من حصونهم وصالح بعضها على الجزية واطلاق أسرى المسلمين وانصرف ظافرا * وفى سنة أربع وعشرين بعث قريبه عبيد الله بن البلنسى فى العساكر فغزوا ألبة والقلاع وساروا لقى العدو فهزمهم وأكثر القتل والسبى ثم خرج لذريق ملك الجلالقة وأغار على مدينة سالم بالثغر فسار اليه فرتون بن موسى وقاتله فهزمه وأكثر القتل والسبى فى العدو والاسر ثم سار الى الحصن الذى بناه أهل ألبة بالثغر نكاية للمسلمين فافتتحه وهدمه ثم سار عبد الرحمن فى الجيوش الى بلاد جليقية فدوخها وافتتح عدة حصون منها وجال فى أرضهم ورجع بعد طول المقام بالسبى والغنائم * وفى سنة ست وعشرين بعث عبد الرحمن العساكر الى أرض الفرنجة وانتهوا الى أرض برطانية وكان على مقدمة المسلمين موسى بن موسى عامل تطيلة ولقيهم العدو وصبر حتى هزم الله عدوهم وكان لموسى فى هذه الغزاة مقام محمود * وفى سنة تسع وعشرين بعث ابنه محمدا بالعساكر وتقدم الى بنبلونة فأوقع بالمشركين عندها وقتل غرسية صاحبها وهو من أكبر ملوك النصارى وفى ايامه ظهر المجوس ودخلوا اشبيلية فأرسل اليهم عبد الرحمن العساكر مع القواد من قرطبة فنزل المجوس من مراكبهم وقاتلهم المسلمون فهزموهم بعد مقام صعب ثم جاءت العساكر مددا من قرطبة فقاتلهم المجوس فهزمهم المسلمون وغنموا بعض مراكبهم وأحرقوها ورحل المجوس الى شذونة فأقاموا عليها يومين وغنموا بعض الشئ ووصلت مراكب عبد الرحمن الى اشبيلية فأقلع المجوس الى لبلة وأغاروا وسبوا ثم الى باجة ثم اشبونة ثم انقطع خبرهم حين اقلعوا من اشبونة وسكنت البلاد وذلك سنة ثلاثين وتقدم عبد الرحمن باصلاح ما خربوه من البلاد واكثف حاميتها * (وفى سنة احدى وثلاثين بعث العساكر الى جليقية فدوخوها وحاصروا مدينة ليون ورموها بالمجانيق وهرب أهلها عنها وتركوها فغنم المسلمون ما فيها وأحرقوها وأرادوا هدم سورها فلم يقدروا عليه لان عرضه كان سبعة عشر ذراعا فثلموا فيه ثلمة ورجعوا ثم اغزى عبد الرحمن حاجبه عبد الكريم فى العساكر الى بلاد برشلونة فعاث فى نواحيها وأجاز الدروب التى تسمى البرت الى بلاد الفرنجة فدوخها قتلا وأسرا وسبيا وحاصر مدينتها العظمى جرندة وعاث فى نواحيها وقفل وقد كان ملك القسطنطينية من وراء ثم توفلس بعث الى الامير عبد الرحمن سنة خمس وعشرين بهدية يطلب مواصلته ويرغبه فى ملك سلفه بالمشرق من أجل ما ضيق به المأمون والمعتصم حتى انه ذكرهما له فى كتابه وعبر عنهما بابنى مراجل وماردة فكافأه الامير عبد الرحمن عن الهدية وبعث اليه يحيى الغزال من كبار أهل الدولة وكان مشهورا

انا ابن الميامين من غالب * أشب حروبا وأطفي حروبا

وخرج غازيا الى جليقية وطالت غيبته فكتب اليها

عدانى عنك مزار العدا * وقودى اليهم لهاما مهيبا

وكم قد تخطيت من سبسب * ولاقيت بعد دروب دروبا

ألاقى بوجهى سموم الهجير * اذ كاد منه الحصى أن يذوبا

تدارك بى الله دين الهدى * فأحييته وأمت الصليبا

وسرت الى الشرك فى جحفل * ملأت الحزون به والسهوبا

(وساق) بعض المؤرخين قصة طروب هذه بقوله ان السلطان المذكور أغضبها فهجرته وصدت عنه وأبت أن تأتيه ولزمت مقصورتها فاشتد قلقه لهجرها وضاق ذرعه من شوقها وجهد أن يترضاها بكل وجه فأعياه ذلك فأرسل من خاصة خصيانه من يكرهها على الوصول اليه فأغلقت باب مجلسها فى وجوههم وآلت أن لا تخرج اليهم طائعة ولو انتهى الامر الى القتل فانصرفوا اليه وأعلموه بقولها واستأذنوه فى كسر الباب عليها فنهاهم وأمرهم بسد الباب عليها من خارجه ببدر الدراهم ففعلوا وبنوا عليها بالبدر وأقبل حتى وقف بالباب وكلمها مسترضيا راغبا فى المراجعة على أن لها جميع ما سد به الباب فأجابت وفتحت الباب فانهالت البدر فى بيتها فأكبت على رجله تقبلها وحازت المال وكانت تبرم الامور مع نصر الخصى فلا يرد شئ أبرماه * وأحب أخرى اسمها مدثرة فأعتقها وتزوجها وأخرى كذلك اسمها الشفاء وأما جاريته قلم فكانت أديبة حسنة الخط راوية للشعر حافظة للاخبار عالمة بضروب الادب وكان مولعا بالسماع مؤثرا له على جميع لذاته وله أخبار كثيرة رحمه الله * ولما مات ولى مكانه ابنه محمد فبعث لاول ولايته عسكرا مع موسى بن موسى صاحب طليطلة فعاث فى نواحى ألبة والقلاع وفتح بعض حصونها ورجع وبعث عسكرا أخرى الى نواحى برشلونة وما وراءها فعاثوا فيها وفتحوا حصونا من برشلونة ورجعوا * ولما استمد أهل طليطلة المخالفون من أهل بلاد الامير محمد عليه بملكى جليقية والبشكنس لقيهم الامير محمد على وادى سليط وقد أكمن لهم فأوقع بهم وبلغت عدة القتلى من أهل طليطلة والمشركين عشرين ألفا * (وفى سنة خمس وأربعين) ظهرت مراكب المجوس وعاثوا فى الاندلس ولقيهم مراكب الامير محمد فقاتلوهم وغنموا منهم مركبين واستشهد جماعة من المسلمين * (وفى سنة سبع وأربعين) اغزى محمد الى نواحى بنبلونة وصاحبها حينئذ غرسية ابن ونقة وكان يظاهر اردن بن أذفونش فعاث فى نواحى بنبلونة ورجع وقد دوخها وفتح كثيرا من حصونها وأسر فرتون ابن صاحبها فبقى أسيرا بقرطبة عشرين سنة ثم بعث سنة احدى وخمسين أخاه المنذر فى العساكر الى نواحى ألبة والقلاع فعاثوا فيها وجمع لذريق للقائهم فلقيهم وانهزم وأثخن المسلمون فى المشركين بالقتل والاسر وكان فتحا لا كفاء له * ثم غزا الامير محمد بنفسه سنة احدى وخمسين بلاد الجلالقة فأثخن وخرب * (وفى سنة ثلاث وستين) اغزى الامير محمد ابنه المنذر الى دار الحرب وفى السنة التى بعدها الى بلاد بنبلونة فدوخها ورجع * وفى سنة ثمان وستين أغزاه أيضا الى دار الحرب فعاث

في نواحيها وفتح حصونا • وفي أيام الأمير محمد خرجت ماردة وهدمت ولم يبق لها أثر •
وذكر بعضهم أنه رأى بالمشرق هذه الأبيات قيل ان خربت ماردة بأعوام ولم يعلم قائلها
وذلك سنة ٢٥٤

قل لماردة الى من ردت • ونكبت عن قصد النهر
كانت ترى لهم نهارا زهر • خلت من الزهرات كالشعر
فالويل ثم الويح من غدرا • تجمعهم بن صاحب الأمر

ثم توفي الأمير محمد في شهر صفر سنة ثلاث وسبعين ومائتين لخمس وثلاثين سنة من امارته
وولد سنة سبع ومائتين • وولي بعده ابنه المنذر ولم تطل مدته وأقام في الملك سنتين
الا نصف شهر وتوفي منتصف صفر سنة خمس وسبعين ومائتين وفيه قيل

بالمنذر بن محمد • شرفت بلاد الأندلس

ثم ولي أخوه عبد الله قال ابن خلدون كان خراج الأندلس قبله ثلثمائة ألف دينار مائة
ألف للجند ومائة ألف للنفقة في النوائب وما يعرض ومائة ألف ذخيرة ووفر فأنفق
الوفر في أيامه باضطراب نواحي الأندلس بالثوار والمتغلبين في تلك السنين وقل الخراج
انتهى • ومن نظم الأمير عبد الله قوله

يا مهجة المشتاق ما أوجعك • ويا أسير الحب ما أخشعك
ويا رسول العين من لحظها • بالرد والتبليغ ما أسرعك
تذهب بالسر فتأتي به • في مجلس يخفى على من معك
كم حاجة أنجزت ايرادها • بارك الرحمن ما أطوعك

وهذه الأبيات عنوان فضله وبراعة استهلال نبله • وكان الوزراء يطالعون بآرائهم
الخليفة في بطاقة فطالعه وزير المصريين بطاقة رأيه في أمر في ورقة فلما وقف عليها لم تعجبه
ذلك الرأي فكتب

أنت يا ضمر آنذ • لذي يرجى لمائدة
إنما أنت عقد • لكسمى ومائدة

وتوفي الأمير عبد الله سنة ثلثمائة ومدة ملكه نحو من خمس وعشرين سنة • وولي حافده
عبد الرحمن الناصر ابن ابنه محمد المقتول أخيه المطرف وكانت ولايته من الغريب لأنه كان
شابا وأعمامه وأعمام أبيه حاضرون فتصدى اليها واحتازها دونهم ووجد الأندلس
مضطربة بالجاهلين مضطرمة بنيران المتغلبين فأطفأ تلك النيران واستنزل أهل العصيان
واستقامت له الأندلس في سائر جهاتها بعد نيف وعشرين سنة من أيامه ودام سلطانه
نحو خمسين سنة استفحل فيها ملك بني أمية بالأندلس وهو أول من تسمى منهم بالأندلس
بأمير المؤمنين عندما التاث أمر الخلافة بالمشرق واستبد موالي الترك على بني العباس
وبلغه أن المقتدر قتله مؤنس المظفر مولاه سنة سبع عشرة وثلثمائة فتلقب بألقاب
الخلافة وكان كثيرا ما يباشر الغزو بنفسه والغزو الى دار الحرب الى أن هزم عام الخندق سنة ثلاث
وعشرين ومحص الله فيها المسلمين فقعد عن الغزو بنفسه وصار يردد الطوائف في كل

سنة وأوطأ عساكر المسلمين من بلاد الافرنج ما لم يطؤه قبل فى ايام سلفه ومدّت اليه
أمم النصرانية من وراء الدروب يد الاذعان وأوفدوا عليه رسلهم وهداياهم من رومة
والقسطنطينية فى سبيل المهادنة والسلم والاعتمال فيما يعن فى مرضاته ووصل الى سدته
الملوك من أهل جزيرة الاندلس المتاخمين لبلاد المسلمين بجهات قشتالة وبنبلونة وما ينسب
اليها من الثغور الجوفية فقبلوا يده والتمسوا رضاه واحتقبوا جوائزه وامتطوا مراكبه
ثم سما الى ملك العدوة فتناول سبتة ونقل الفرصة من ايدى أهلها سنة سبع عشرة وثلثمائة
وأطاعه بنو ادريس امراء العدوة وملوك زناتة والبربر وأجاز اليه الكثير منهم كما يعلم من
اخبارهم وبدأ أمره أول ولايته بحسم المغارم عن الرعايا انتهى كلام ابن خلدون وفيه
يقول ابن عبد ربه صاحب العقد يوم تولى الملك

بدا الهلال جديدا * والملك غض جديد
يا نعمة الله زيدى * ان كان فيك مزيد
ان كان للصوم فطر * فانت للدهر عيد

وأراد بأول الابيات انه ولى مستهل ربيع الاول كما علم * وما أشار اليه ابن خلدون
فى غزوة الخندق فصله المسعودى فقال بعد أن اجرى ذكر مخالفة امية بن اسحق على الناصر
ودخوله أرض النصارى ودلالته اياهم على عورات المسلمين ما ملخصه وغزا عبد الرحمن
صاحب الاندلس سمورة دار الجلالقة وكان عبد الرحمن فى مائة ألف أو يزيدون وكانت
الوقعة بينه وبين ردمير ملك الجلالقة فى شوال سنة ٣٢٧ بعد الكسوف الذى كان فى هذا
الشهر بثلاثة ايام فكانت للمسلمين عليهم ثم ثابوا بعد أن حوصروا وألجئوا الى المدينة
فقتلوا من المسلمين بعد عبورهم الخندق خمسين ألفا وقيل ان الذى منع ردمير من طلب من
نجا من المسلمين امية بن اسحق وخوّفه الكمين ورغبه فيما كان فى عسكر المسلمين من
الاموال والعدة والخزائن ولولا ذلك لاتى على جميع المسلمين ثم ان امية استأمن بعد ذلك الى
عبد الرحمن وتخلص من ردمير وقبله عبد الرحمن احسن قبول * وقد كان عبد الرحمن بعد
هذه الوقعة جهز عساكره مع عدة من قواده الى الجلالقة فكانت لهم عليهم عدة حروب هلك
فيها من الجلالقة ضعف ما قتل من المسلمين فى الوقعة الاولى وكانت للمسلمين عليهم الى هذه
الغاية وردمير ملك الجلالقة الى هذا الوقت وهو سنة ٣٣٦ انتهى * وقال فى موضع آخر
ما ملخصه ان عبد الرحمن غزا فى أزيد من مائة ألف من الناس فنزل على دار مملكة الجلالقة
وهى مدينة سمورة وعليها سبعة أسوار من أعجب البنيان قد أحكمته الملوك السالفة وبين
الاسوار فصلات وخنادق ومياه واسعة وافتتح منها سورين ثم ان أهلها ثابوا على المسلمين
فقتلوا منهم ممن ادركه وممن غرق أربعون ألفا وقيل خمسون ألفا وكانت
للجلالقة والبشكنس على المسلمين انتهى كلام المسعودى * (رجع الى اخبار الناصر)
فنقول ان الناصر رحمه الله كان له نظم ومما نسب اليه بعضهم قوله

لا يضير الصغير حداثة سن * انما الشأن فى سعود الصغير
كم مقيم فازت يداه بغنم * لم تنله بالركض كف مغير

وستة من السرادقات العراقية وثمانية وأربعون من الملاحف البغدادية لزينة الخيل من الحرير والذهب ثم قالا معا وأربعة آلاف رطل من الحرير المغزول وألف رطل من لون الحرير المتقى للاستغزال وزاد ابن خلدون وثلاثون شقة من الصرب لسروج الهبات وزاد ابن الفرضى فى الحرير المذكور قيل انه قبضه منه صاحب الطراز ولم يأت به مع الهدية واعاد ذممه لصاحب الطراز وأثبته فى الدفتر قالا وثلاثون بساطا من الصوف مختلفة الصناعات طول كل بساط منها عشرون ذراعا وقال ابن خلدون منتقاة مختلفة الالوان قالا ومائة قطعة مصليات من وجوه الفرش المختلفة زاد ابن الفرضى الصناعات من جنس البسط قالا وخمسة عشر نوخا من عمل الحر المقطوع شطرها قال ابن الفرضى وسائرها من جنس البسط قال ابن خلدون ومن السلاح والعدة ثمانمائة من التجافيف المرينة ايام البروز والمواكب وقال ابن الفرضى مائة تجفاف بأبدع الصناعات وأغربها وأكملها قالا وألف ترس سلطانية ومائة ألف سهم زاد ابن خلدون من النبال البارعة الصنعة قال ابن خلدون ومن الظهر خمسة عشر فرسا من الخيل العراب المتخيرة لركاب السلطان فائقة النعوت وقال ابن الفرضى ومن الخيل مائة فرس منها من الخيل العراب المتخيرة لركابه خمسة عشر فرسا وخمس من عرض هذه الخيل مسرجة ملجمة لمراكب الخلافة بمجالس مسروجها حرعراقى وثمانون فرسا مما يصلح للوصفاء والحشم وقال ابن خلدون مائة فرس من الخيل التى تصلح للركوب فى التصرف والغزوات وقال ابن الفرضى وخمسة أبغل عالية الركاب وقال ابن خلدون وعشرون من بغال الركاب مسرجة ملجمة بمراكب خلافية بمجالس سروجها حر جعفرى عراقى قال ومن الرقيق أربعون وصيفا وعشرون جارية من متخير الرقيق بكسوتهم وجميع آلاتهم وقال ابن خلدون فى الجوارى متخيرات بكسوتهن وزينتهن وقال ابن خلدون ومن سائر الاصناف قرية تغل آلافا من امداد الزرع ومن الصخر للبنيان ما انفق عليه فى عام واحد ثمانون ألف دينار وعشرون ألف عود من الخشب من أجمل الخشب وأصيله وأقومه قيمتها خمسون ألف دينار انتهى وقال ابن الفرضى نقلا عن كتاب ابن شهيد المصحوب مع الهدية عند ما ذكر الرقيق ما صورته وكان قد ارى أيده الله بابتياعهم من مال الاخماس فابتعتهم من نعمته عندى وصيرتهم من بعثى ومع ذلك عشر قناطير سكر طبرزذ لا محاق فيه وفى آخر الكتاب وللساعات تطلع مولاى أيده الله تعالى الى قرية كذا بالقنبانية المقتطعة الغرس شرفها وترداده أيده الله تعالى لذكرها لم أهنا بعيش حتى اعملت الحيلة فى ابتياعها بأحوازها وأكتبت وكيلها ابن بقية الوثيقة فيها باسمه وضمها الى ضياعه وكذلك صنعت فى قرية شسيرة من نظر جيان عند ما اتصل بى من وصفه لها وتطلعه اليها فارلت اتصدى لسرته بها حتى ابتعتها الآن بأحوازها وجميع منازلها وربوعها واحتاز ذلك كله الوكيل ابن بقية وصار فى يده له أبقاه الله سبحانه وأرجو انه سيرفع فيها فى هذه السنة آلاف أمداد من الاطعمة ان شاء الله تعالى وللساعات ما قد عزمه أبقاه الله تعالى فى البنيان وكلفه به وفكرت فى عدد الاماكن التى تطلع نفسه الكريمة الى تخليد آثاره فى بنيانها

رقعة منها يا مولاى تعلم انك كنت لى على انفرادى ولم أزل معك فى نعيم وانى وان كنت عند
الخليفة مشاركة فى المنزلة لحاذر ما يبدو من سطوة الملك فتحيل فى استدعائى منه وبعثها
مع غلام صغير السن وأوصاه أن يقول من عند فلان وأن الملك لم يكلمه قط ان سأله عن ذلك
فلما وقف أبو عامر على تلك الرسالة واستخبر الخادم علم من سؤاله ما كان فى نفسه من
الغلام وما تكلم به فى مجالس المدام فكتب على ظهر الرقعة ولم يزد حرفا

أمن بعد احكام التجارب ينبغى * لدى سقوط الطير فى غابة الاسد
وما أنا ممن يغلب الحب قلبه * ولا جاهل ما يدعيه أولوا الحسد
فان كنت روحى قد وهبتك طائعا * وكيف يرد الروح ان فارق الجسد

فلما وقف الناصر على الجواب تعجب من فطنته ولم يعد الى اسماع واش به ودخل عليه بعد
ذلك فقال له كيف خلصت من الشرك فقال لان عقلى بالهوى غير مشترك فأنعم عليه
وزادت محبته عنده وممن ذكر هذه الحكاية صاحب مطالع البدور فى منازل السرور
* وأخبار الناصر طويلة جدا وقد منح الظفر على الثوار واستنزلهم من معاقلهم حتى
صفا له الوقت وكانت له فى جهاد العدو اليد البيضاء ومن غزواته انه غزا سنة ثمانية
وثلثمائة الى جليقية وملكها أردون بن أدفونش فاستنجد بالبشكنس والافرنجة وظاهر
شانجة بن غرسية صاحب بنبلونة أمير البشكنس فهزمهم ووطئ بلادهم ودوخ أرضهم وفتح
معاقلهم وخرب حصونهم ثم غزا بنبلونة سنة ثنتى عشرة ودخل دار الحرب ودوخ البسائط
وفتح المعاقل وخرب الحصون وأفسد العمائر وجال فيها وتوغل فى قاصيتها والعدو يحاذيه
فى الجبال والاوعار ولم يظفر منه بشئ ثم بعد مدة ظفر ببعض الثوار عليه وكان استمد
بالنصارى فقتل الناصر من كان مع الثائر من النصارى أهل ألبة وفتح ثلاثين من حصونهم
وبلغه انتقاض طوطة ملكة البشكنس فغزاها فى بنبلونة ودوخ أرضها واستباحها ورجع
الى قرطبة ثم غزا غزوة الخندق سنة سبع وعشرين الى جليقية فانهزم وأصيب فيها
المسلمون وقعد بعدها عن الغزو بنفسه وصار يردد البعوث والطوائف الى الجهاد وبعث
جيوشه الى المغرب فملك سبتة وفاسا وغيرهما من بلاد المغرب وطار صيته وانتشر ذكره
كما سبق ولما هلك شانجة بن غرسية ملك البشكنس قام بأمرهم بعده أمه طوطة وكفلت ولده
ثم انتقضت على الناصر سنة خمس وعشرين فغزا الناصر بلادها وخرب نواحى بنبلونة
وردد عليها كامن الغزوات وكان قبل ذلك سنة ثنتين وعشرين غزا الى حشتمة ثم رحل الى
بنبلونة فجاءته طوطة بطاعتها وعقد لابنها غرسية على بنبلونة ثم عدل الى ألبة وبسائطها
فدوخها وخرب حصونها ثم اقتحم جليقية وملكها يومئذ ردمير بن اردون فحام عن
لقائه ودخل حشتمة ونازله الناصر فيها وهدم برغش وكثيرا من معاقلهم وهزمهم
مرارا ورجع ثم كانت بعدها غزوة الخندق السابقة وهابته امم النصرانية ثم وفدت عليه
سنة ست وثلاثين رسل صاحب قسطنطينية وهديته وهو يومئذ قسطنطين واحتفل الناصر
لقدومهم فى يوم مشهود قال ابن خلدون ركبت فى ذلك اليوم العساكر بالسلاح
فى أكمل شكة وزين القصر الخلافى بأنواع الزينة وأصناف الستور وجمل السرير الخلافى

وكان وصول ارساله فى صفر سنة ثمان وثلاثين وثلثمائة وتقدم فى كلام ابن خلدون انها ست وثلاثون فالله أعلم أيهما أصح وتأهب الناصر لورودهم وأمر أن يتلقوا أعظم تلق وأنخمه وأحسن قبول وأكرمه وأخرج الى لقائهم بجاية يحيى بن محمد بن الليث وغيره للخدمة اسباب الطريق فلما صاروا بأقرب المحلات من قرطبة خرج الى لقائهم القواد فى العدد والعدة والتعبية فتلقوهم قائدا بعد قائد وكمل اختصاصهم بعد ذلك بأن اخرج اليهم الفتيين الكبيرين الخصيين ياسرا وتماما ابلاغا فى الاحتفال بهم فلقياهم بعد القواد فاستبان لهم بخروج الفتيين اليهم بسط الناصر واكرامه لان الفتيان حينئذهم عظماء الدولة لانهم أصحاب الخلوة مع الناصر وحرمه وبيدهم القصر السلطانى وأنزلوا بمنية ولى العهد الحكم المنسوبة الى نصير بعدوة قرطبة فى الربض ومنعوا من لقاء الخاصة والعامة جملة ومن ملابسة الناس طرا ورتب لحجابتهم رجال تخيروا من الموالى ووجوه الحشم فصيروا على باب قصر هذه المنية ستة عشر رجلا لاربع دول لكل دولة أربع منهم ورحل الناصر لدين الله من قصر الزهراء الى قصر قرطبة لدخول وفود الروم عليه فقعد لهم يوم السبت لاحدى عشرة ليلة خلت من ربيع الاول من السنة المذكورة فيهو المجلس الزاهر قعودا حسنا نبيلا وقعد عن يمينه ولى العهد من بنيه الحكم ثم عبد الله ثم عبد العزيز ثم الاصبغ ثم مروان وقعد عن يساره المنذر ثم عبد الجبار ثم سليمان وتخلف عبد الملك لانه كان عليلا لم يطق الحضور وحضر الوزراء على مراتبهم يمينا وشمالا ووقف الحجاب من أهل الخدمة من أبناء الوزراء والموالى والوكلاء وغيرهم وقد بسط صحن الدار اجمع بعتاق البسط وكرائم الدرانك وظللت أبواب الدار وحناياها بظلل الديباج ورفيع الستور فوصل رسل ملك الروم حائرين مما رأوه من بهجة الملك وفخامة السلطان ودفعوا كتاب ملكهم صاحب قسطنطينية العظمى قسطنطين بن ليون وهو فى رق مصبوغ لونا سماويا مكتوبا بالذهب بالخط الاغريقى وداخل الكتاب مدرجة مصبوغة أيضا مكتوبة بفضة بخط اغريقى أيضا فيها وصف هديته التى ارسل بها وعددها وعلى الكتاب طابع ذهب وزنه أربعة مثاقيل على الوجه الواحد منه صورة المسيح وعلى الآخر صورة قسطنطين الملك وصورة ولده وكان الكتاب بداخل درج فضة منقوش عليه غطاء ذهب فيه صورة قسطنطين الملك معمولة من الزجاج الملون البديع وكان الدرج داخل جعبة ملبسة بالديباج وكان فى ترجمة عنوان الكتاب فى سطر منه قسطنطين ورومانين المؤمنان بالمسيح الملكان العظيمان ملكا الروم وفى سطر آخر العظيم الاستحقاق الفخر الشريف النسب عبد الرحمن الخليفة الحاكم على العرب بالاندلس أطال الله بقاءه ولما احتفل الناصر لدين الله هذا الاحتفال أحب أن يقوم الخطباء والشعراء بين يديه لتذكر جلالة مقعده وعظيم سلطانه وتصف ما تهيأ من توطيد الخلافة فى دولته وتقدم الى الامير الحكم ابنه وولى عهده باعداد من يقوم بذلك من الخطباء ويقدمه أمام نشيد الشعراء فأمر الحكم صنيعه الفقيه محمد بن عبد البر الكسينانى بالتأهب لذلك واعداد خطبة بليغة يقوم بها بين يدى الخليفة وكان يدعى من القدرة على تأليف الكلام ماليس فى وسع غيره وحضر المجلس السلطانى فلما قام يحاول التكلم بما

رأى حاله فبهر من هول المقام وأبهة الخلافة فلم يهتد إلى لفظة بل غشي عليه وسقط إلى الأرض
فقيل لأبي علي البغدادي إسماعيل بن القاسم القالي صاحب الأمالي والنوادر وهو حينئذ
ضيف الخليفة الوافد عليه من العراق وأمير الكلام وبحر اللغة قم فارقع هذا الوهي فقام
فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم هكذا ذكر ابن حيان
وغيره وكلام ابن خلدون السابق يقتضي أن القالي هو الذي قام بالكلام أولا والمعروف
وقع في المطمح والمطرب فقال ثم انقطع القول بالقالي فوقف ساكتا متفكرا في كلام يدخل به
إلى ذكر ما أريد منه وقال في المطمح إن أبا علي القالي انقطع وبهت وما وصل إلا قطع
ووقف ساكتا مفكرا لا ناسيا ولا متذكرا فلما رأى ذلك منذر بن سعيد وكان ممن حضر
في زمرة الفقهاء قام من ذاته بدرجة من مرقاته فوصل افتتاح أبي علي لأول خطبته بكلام
عجب ونادى من الإحسان في ذلك المقام كل منتخب يسحه سحا كأنما كان يحفظه قبل
ذلك بمدة وبدأ من المكان الذي انتهى إليه أبو علي البغدادي فقال أما بعد حمد الله والثناء
عليه والتعداد لآلائه والشكر لنعمائه والصلاة والسلام على محمد صفيه وخاتم أنبيائه
فإن لكل حادثة مقاما ولكل مقام مقال وليس بعد الحق إلا الضلال وإني قد قمت في مقام
كريم بين يدي ملك عظيم فاصغوا إلي معشر الملا بأسماعكم وأتقنوا عني بأفئدتكم إن
من الحق أن يقال للمحق صدقت وللمبطل كذبت وإن الجليل تعالى في سمائه وتقدس
بصفاته وأسمائه أمر كليمه موسى صلى الله على نبينا وعليه وعلى جميع أنبيائه أن يذكر
قومه بأيام الله جل وعز عندهم وفيه وفي رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة وإني
أذكركم بأيام الله عندكم وتلافيه لكم بخلافة أمير المؤمنين التي لمت شعثكم وأمنت
سربكم ورفعت قومكم بعد أن كنتم قليلا فكثركم ومستضعفين فقواكم ومستذلين
فنصركم ولاه الله رعايتكم وأسند إليه إمامتكم أيام ضربت الفتنة سرادقها على الآفاق
وأحاطت بكم شعل النفاق حتى صرتم في مثل حدقة البعير من ضيق الحال ونكد العيش
والتغيير فاستبدلتم بخلافته من الشدة بالرخاء وانتقلتم بيمن سياسته إلى تمهيد كنف
العافية بعد استيطان البلاء أنشدكم بالله معاشر الملا ألم تكن الدماء مسفوكة فحقنها
والسبل مخوفة فأمنها والأموال منتهبة فأحرزها وحصنها ألم تكن البلاد خرابا فعمرها
وثغور المسلمين مهتضمة فحماها ونصرها فاذكروا آلاء الله عليكم بخلافته وتلافيه
جمع كلمتكم بعد افتراقها بإمامته حتى أذهب الله عنكم غيظكم وشفى صدوركم وصرتم
يدا على عدوكم بعد أن كان بأسكم بينكم فأنشدكم الله ألم تكن خلافته قفل الفتنة بعد
انطلاقها من عقالها ألم يتلاف صلاح الأمور نفسه بعد اضطراب أحوالها ولم يكل
ذلك إلى القواد والأجناد حتى باشر بالقوة والمهجة والأولاد واعتزل النسوان وهجر
الأوطان ورفض الدعة وهي محبوبة وترك الركون إلى الراحة وهي مطلوبة بطوية
صحيحة وعزيمة صريحة وبصيرة نافذة ثاقبة وريح هابة غالبة ونصرة من الله واقعة
واجبة وسلطان قاهر وجد ظاهر وسيف منصور تحت عدل مشهور متحملا للنصب
مستقلا لما ناله في جانب الله من التعب حتى لانت الأحوال بعد شدتها وانكسرت

شوكة

شوكة الفتنة عند حدتها ولم يبق لها غارب الاجبه ولا نجم لاهلها قرن الاجذه فأصبحتم بنعمة الله اخوانا وبلم أمير المؤمنين لشعثكم على أعدائه أعوانا حتى تواترت لديكم الفتوحات وفتح الله عليكم بخلافته أبواب الخيرات والبركات وصارت وفود الروم وافدة عليه وعليكم وآمال الاقصين والادنين مستخدمة اليه واليكم يأتون من كل فج عميق وبلد سحيق لاخذ حبل بينه وبينكم جملة وتفصيلا ليقضى الله أمرا كان مفعولا ولن يخلف الله وعده ولهذا الامر مابعده وتلك اسباب ظاهرة بادية تدل على امور باطنة خافية دليلها قائم وجفنها غير نائم وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الارض كما استخلف الذين من قبلهم الآية وليس فى تصديق ماوعد الله ارتياب ولكل نبأ مستقر ولكل أجل كتاب فاحمدوا الله ايها الناس على آلائه واسألوه المزيد من نعمائه فقد أصبحتم بين خلافة أمير المؤمنين أيده الله بالعصمة والسداد وألهمه خالص التوفيق الى سبيل الرشاد احسن الناس حالا وأنعمهم بالا وأعزهم قرارا وأمنعهم دارا وأكثفهم جمعا وأجملهم صنعا لاتهاجون ولا تذادون وأنتم بحمد الله على أعدائكم ظاهرون فاستعينوا على صلاح أحوالكم بالمناصحة لامامكم والتزام الطاعة لخليفتكم وابن عم نبيكم صلى الله عليه وسلم فان من نزع يدا من الطاعه وسعى فى تفريق الجماعه ومرق من الدين فقد خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين وقد علمتم أن فى التعلق بعصمتها والتمسك بعروتها حفظ الاموال وحقن الدماء وصلاح الخاصة والدهماء وأن بقوام الطاعة تقام الحدود وتوفى العهود وبها وصلت الارحام ووضحت الاحكام وبها سد الله الخلل وأمن السبل ووطأ الاكناف ورفع الاختلاف وبها طاب لكم القرار واطمأنت بكم الدار فاعتصموا بما أمركم الله بالاعتصام به فانه تبارك وتعالى يقول أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الامر منكم الآية وقد علمتم ما أحاط بكم فى جزيرتكم هذه من ضروب المشركين وصنوف الملحدين الساعين فى شق عصاكم وتفريق ملاكم الآخذين فى مخاذلة دينكم وهتك حريمكم وتوهين دعوة نبيكم صلوات الله وسلامه عليه وعلى جميع النبيين والمرسلين أقول قولى هذا وأختم بالحمد لله رب العالمين مستغفرا الله الغفور الرحيم فهو خير الغافرين * وساق ابن سعيد فى المغرب هذه الحكاية فقال ماصورته منذر بن سعيد البلوطى قاضى الجماعة بقرطبة خطيب مصقع وله كتب مؤلفة فى القرآن والسنة والورع والرد على أهل الاهواء والبدع شاعر بليغ ولد سنة خمس وستين ومائتين وأول سببه فى التعلق بعبد الرحمن الناصر لما احتفل لدخول رسول ملك الروم صاحب قسطنطينية بقصر قرطبة الاحتفال الذى اشتهر ذكره أحب أن يقوم الخطباء والشعراء بين يديه لذكر جلالة مقعده ووصف ماتهيأ له من توطيد الخلافة ورمى ملوك الامم بسهام بأسه ونجدته وتقدم الى الامير الحكم ابنه وولى عهده باعداد من يقوم لذلك من الخطباء ويقدمه أمام انشاد الشعراء فتقدم الحكم الى أبى على البغدادى ضيف الخليفة وأمير الكلام وبحر اللغة أن يقوم فقام وحمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ثم انقطع وبهت فما وصل ولا قطع ووقف ساكتا

منكراً لما رأى ذلك منذر بن سعيد فقام واعظاً ووبخه في مرها أي على ... ووصل اقتباسه
بكلام غير المعهود حرّاته، وملأ الأسماع جلاله، ثم ذكر الخطبة كما سبق وقال
فعداً ارادها ما أموريه فصلب العلج وغلب على قلبه وقال هذا كسر السوم أو كسر السوم
وخرج الناس يتحدثون عن حسن مقامه وثبات جنانه وبلاغة لسانه وكان الناصر أشدهم
تعجباً منه وأقبل على ابنه الحكم ولم يكن يثبت معرفته فسأله عنه فقال له هذا منذر بن
سعيد البلوطي فقال والله لقد أحسن ما شاء ولئن أخرى الله بعد لا ورعق من ذكر فضيع
بدل ما حكم عليه واستحلفه وذكر أن يسأله بالصدمة مذهب عنه ثم ولاه الصلاة والخطابة
في المسجد الجامع بالزهراء ثم توفي محمد بن عيسى القاضي فولاه قضاء الجماعة بقرطبة وأقره
على الصلاة بالزهراء * ومن شعره في هذه الواقعة قوله

مقالي كحد السيف وسط المحافل * فرقت به ما بين حق وباطل

بقلب ذكي ترتمي جمراته * كبارق رعد عند رعش الأنامل

فما هبت محفلاً ولا رمت معقلاً * ولا طاش عقلي يوم تلك الزلازل

وقد حدقت حولي عيون إخالها * كمثل سهام أثبتت في المقاتل

لخير إمام كان أو هو كائن * لمقتبل أو في العصور الأوائل

ترى الناس أفواجاً يؤمون بابه * وكلهم ما بين راج وآمل

وفود ملوك الروم وسط فنائه * مخافة بأس أو رجاء لنائل

فعش سالماً أقصى حياة مؤملاً * فأنت رجاء الكل حاف وناعل

ستعلكها ما بين شرق ومغرب * إلى درب قسطنطين أو أرض بابل

انتهى كلام ابن ... وهو يؤيد كلام ابن خلدون أن ما ... ورفا الخطبة هو الذي ذكر أن
الناصر قال لابنه الحكم بعد أن سأله عنه لقد أحسن ما شاء فإن كان حبر خطبته قد
وأعدها فعادة أن يدور ... بمثل الوعظ فإنه أبدع من تدبيره واستباطه ولئن كان أتى
بها على البديهة لوقته فإنه لأعجب وأغرب قال ابن سعيد ولما فرغ منذر من خطبته أنشد

هذا المقام الذي ما عابه فند * لكن قائله أزرى به البلد

لو كنت فيهم غريباً كنت مطّرفاً * لكنني منهم فاغتالني النكد

ويروى بدل هذا الشطر ولا دهاني لهم بغي ولا حسد

لولا الخلافة أبقى الله حرمتها * ما كنت أرضى بأرض ما بها أحد

انتهى فلعله عرض بأنه على البال وسدهم إياه في هذا المقام والله أعلم
ومن نظم منذر بن سعيد قوله

الموت حوض وكلنا نرد * لم ينج مما يخافه أحد

فلا تكن مغرماً برزق غد * فلست تدري بما يجيء غد

وخذ من الدهر ما أتاك به * وسلم الروح منك والجسد

والخير والشر لا تدعهما * في الناس إلا التسبيح والحمد

وله وقد أرادا ... خاطبه بالكنية له أنوذنك وأنت خاطبه بالكنية فقال

لاتعجبوا من أخي كبته • من بعد ماقد سبا وأدانا
فالله قد كبى أباالهب وما • كفاه الاخزية وهوانا

وقال في المطمح منذر بن سعيد البلوطي آية حركة وسكون وبركة لم تكن معدة ولا تكون وآية سفاهة في تحلم وجهامة وورع في طي تبسم اذا جد وجد واذا هزل نزل وفي كلتا الحالتين لم ينزل للورع من مرقب ولا اكتسب اثما ولا احتقب ولي قضاء الجماعة بقرطبة أيام عبد الرحمن ناهيك من عدل أظهر ومن فضل أشهر ومن جور قبض ومن حق رفع ومن باطل خفض وكان مهيبا صليبا صارما غير جبان ولا عاجز ولا مراقب لاحد من خلق الله في استخراج حق ورفع ظلم واستمر في القضاء الى أن مات الناصر لدين الله ثم ولي ابنه الحكم فأقره وفي خلافته استعفى مرارا فما أعفي وتوفي بعد ذلك لم يحفظ عنه مدة ولايته قضية جور ولا عدت عليه في حكومته زلة وكان غزير العلم كثير الادب متكلما بالحق متينا بالصدق له كتب مؤلفة في السنة والورع والرد على اهل الاهواء والبدع وكان خطيبا بليغا وشاعرا محسنا ولد عند ولاية المنذر بن محمد وتوفي سنة ٣٥٥ ومن شعره في الزهد قوله

كم تصابي وقد علاك المشيب • وتعامى عمدا وأنت اللبيب
كيف تلهو وقد أتاك نذير • أن سيأتي الحمام منك قريب
ياسفيها قد حان منه رحيل • بعد ذاك الرحيل يوم عصيب
ان للموت سكرة فارتقبها • لا يداوي اذا أتتك طبيب
كم توانى حتى تصير رهينا • ثم تأتيك دعوة فتجيب
بأمور المعاد أنت عليم • فاعملن جاهدا له يا اريب
وتذكر يوما تحاسب فيه • ان من يذكر فسوف ينيب
ليس من ساعة من الدهر الا • للمنايا بها عليك رقيب

ولعلنا نذكر شيأ من أحوال منذر في غير هذا الموضع (رجع لاخبار الناصر لدين الله) حكي انه لما أعذر لاولاد ابنه أبي مروان عبيد الله اتخذ لذلك صنيعا عظيما بقصر الزهراء لم يتخلف أحد عنه من أهل مملكته وأمر أن يبذر لشهوده الفقهاء المشاورون ومن يليهم من العلماء والعدول ووجوه الناس فتخلف من بينهم المشاور أبو ابراهيم وافتقد مكانه لارتفاع منزلته فسأل في ذلك الخليفة الناصر اذ أبو ابراهيم من أكابر علماء المالكية الذين عليهم المدار ووجد الناصر بسبب ذلك على أبي ابراهيم وأمر ابنه ولي العهد الحكم بالكتاب اليه والتفنيد له فكتب اليه الحكم رقعة نسختها بسم الله الرحمن الرحيم حفظك الله وتولاك وسددك ورعاك لما امتحن أمير المؤمنين مولاي وسيدي أبقاه الله الاولياء الذين يستعدهم وجدك متقدما في الولاية متأخرا عن الصلة على انه قد أدرك أبقاه الله خصوصا للمشاركة في السرور الذي كان عنده لا أعدمه الله توالي المسرة ثم أدرت من قبل ابلاغا في التكرمة فكان منك على ذلك كله من التخلف ما ضاقت عليك فيه المعذرة واستبلغ

أمير المؤمنين في إنكار ومعاتبته عليه فأعيت عليك عند الجمعة معرفتي أكرمك الله
ما العذر الذي أوجب توقفك عن إجابة دعوته ومشاهدة السرور الذي سر به وزعت
المباركة فيه لعموم أما الله بذلك فقد تشكى بعضه العرف إليه إن شاء الله تعالى فأجابه أبو
إبراهيم سلام على الأمير سيدي ورحمة الله قرأت أبقى الله الأمير سيدي هذا الكتاب وفهمته
ولم يكن توقفي لنفسي إنما كان لأمير المؤمنين سيدنا أبقى الله سلطانه لعلمي بمذهبه وسكوني
إلى ورعه واقتفائه لآثار سلفه الطيب رضوان الله عليهم فإنهم تركوا من هذه الطبقة بقية
لا تمتهن ومهابات لها ولا عادة من يم أو نظر إلى بعضها يستعدون من الذي يتهم ويرمون
من أعمد رعاياهم ومن نبه عليهم من قصادهم فلهذا تخلفت ولعلي عند ذهنه توفيت
إن شاء الله تعالى فلما أقرأ الحكم أباه الناصر لدين الله جواب أبي إبراهيم استحى إعامه
واستحسن اعتذاره وزال ما بنفسه عليه وكان الفقيه أبو إبراهيم المذكور معظما عند
الناصر وابنه الحكم وحق لهما أن يعظماه وقد حكى الفقيه أبو القاسم بن مفرج قال
كنت أختلف إلى الفقيه أبي إبراهيم رحمه الله تعالى فيمن يختلف إليه للتفقه والرواية فإني
لعنده في بعض الأيام في مجلسه بالمسجد المنسوب لأبي عثمان الذي كان يصلي به قرب داره
بغربي شرق قرطبة ومجلسه حافل بجماعة الطلبة وذلك بين الصلاتين إذ دخل عليه
خصي من أصحاب الرسائل جاء من عند الخليفة الحكم فوقف وسلم وقال له أجب
أمير المؤمنين أبقاه الله فإن الأمر خرج فيك وها هو قاعد ينتظرك وقد أمرت بإعجالك
فالله الله فقال له سمعا وطاعة لأمير المؤمنين ولا عجلة فارجع إليه وعرفه رحمه الله عني أني
وجدتني في بيت من بيوت الله تعالى معي طلاب العلم أسمعهم حديث ابن عمه رسول
الله صلى الله عليه وسلم فهم يقيدونه عني وليس يمكنني ترك ما أنا فيه حتى يتم المجلس
المعهود لهم في رضا الله وطاعته فذلك أوكد من مسيري إليه الساعة فإذا انقضى أمر
من اجتمع إلي من هؤلاء المحتسبين في ذات الله الساعين لمرضاته مشيت إليه إن شاء الله
تعالى ثم أقبل على شأنه ومضى الخصي يهمهم متضجرا من توقفه فلم يك إلا ريثما أدى جوابه
وانصرف سريعا ساكن الطيش فقال له فقيه أجب قولك على نصه إلى أمير المؤمنين
أبقاه الله فأصغى إليه وهو يقول لك جزاك الله خيرا عن الدين وعن أمير المؤمنين وجماعة
المسلمين وأمتعهم بك وإذا أنت أوعبت فامض إليه راشدا إن شاء الله تعالى وقد أمرت
أن أبقى معك حتى ينقضي شغلك وتمضي معي فقال له حسن جميل ولكني أضعف عن
المشي إلى باب السدة ويصعب علي ركوب دابة لشيخوختي وضعف أعضائي وباب الصناعة
الذي يقرب إلي من أبواب القصر المكرم أحوط لي وأقرب وأرفق بي فلتر رأى أمير
المؤمنين أبقاه الله تعالى أن يأمر بفتحه لأدخل إليه منه هونا على المشي ودع خصيي
وأحب أن تعود وتنهي إليه ذلك عني حتى ترد رأيه به وكذلك تعود إلي فإني أراك
فتى سديدا ولكن على الخير معينا ومضى عنه الفتى ثم رجع بعد حين وقال يا فقيه
قد أجاب أمير المؤمنين إلى ما سألت وأمر بفتح باب الصناعة وانتظارك منه ومنه خرجت
الآن وأمرت أن أرسل معك تذكرا للمقوض عند فراغك وقال أفعل راشدا وجلس

المدى

الخصي جانبا حتى أكمل أبو ابراهيم مجلسه نا كمل وأسمع ما جرت به عادته غير منزعج ولا قلق فلما انفض الناس عنه قام الى داره وأصلح من شأنه ثم مضى الى الخليفة الحكم فوصل اليه من ذلك الباب وقضى حاجته من لقائه ثم صرفه على ذلك الباب فأعيد اغلاقه على اثر خروجه قال مفرج ولقد تعمدنا في تلك العشية اثر قيامنا عن الشيخ أبي ابراهيم المرور بهذا الباب المعهود اغلاقه بدبر القصر الذي تجشم الخليفة له فوجدناه مفتوحا كما وصف الخصي وقد حفه الخدم والاعوان منزعجين ما بين كناس وفراش متأهبين لانتظار أبي ابراهيم فاشتد عجبنا لذلك وطال تحدثنا عنه انتهى فهكذا تكون العلماء مع الملوك والملوك مع العلماء قدس الله تلك الارواح * ثم توفي الناصر لدين الله ثاني أو ثالث شهر رمضان من عام خمسين وثلثمائة أعظم ما كان سلطانه وأعز ما كان الاسلام على كل (قال ابن خلدون) خلف الناصر في بيوت الاموال خمسة آلاف ألف ألف ألف ثلاث مرات انتهى وقال غير واحد انه كان يقسم الجباية أثلاثا ثلث للجند وثلث للبناء وثلث مدخر وكانت جباية الاندلس يومئذ من الكور والقرى خمسة آلاف ألف وأربعمائة ألف وثمانين ألف دينار ومن السوق والمستخلص سبعمائة ألف وخمسة وستين ألف دينار وأما أخماس الغنائم العظيمة فلا يحصيها ديوان وحكي انه وجد بخط الناصر رحمه الله ايام السرور التي صفت له دون تكدير يوم كذا من شهر كذا من سنة كذا ويوم كذا من كذا وعدت تلك الايام فكانت أربعة عشر يوما فاعجب أيها العاقل لهذه الدنيا وعدم صفائها وبخلها بكمال الاحوال لاوليائها هذا الخليفة الناصر حلف السعود المضروب به المثل في الارتقاء في الدنيا والصعود ملكها خمسين سنة وستة أو سبعة أشهر وثلاثة أيام ولم تصف له الا أربعة عشر يوما فسبحان ذي العزة القائمة والمملكة الدائمة لا اله الا هو * ومما ينسب للناصر من الشعر وقيل لابنه الحكم قوله

ما كل شيء فقدت الا * عوضني الله منه شيا
اني اذا ما منعت خيري * تباعد الخير من يديا
من كان لي نعمة عليه * فانها نعمة عليا

ومما زين الله به دولة الناصر ووزراؤه الذين من جملتهم ابن شهيد قال في المطمح أحمد بن عبد الملك بن عمر بن شهيد فخر الامامة وزهر تلك الكمامة وصاحب الناصر عبد الرحمن وحامل الوزارتين على سموها في ذلك الزمان استقل بالوزارة على ثقلها وتصرف فيها كيف شاء على حد نظرها والتفات مقلها فظهر على أولئك الوزراء واشتهر مع كثرة النظراء وكانت امارة عبد الرحمن أسعد امارة بعدعنها كل نصر بالسوء أماره فلم يطرقها صرف ولم يرمقها بمحذور بطرف فقرع الناس فيها هضاب الاماني ورباها ورتعت ظباؤها في ظلال ظباها وهو أسد على براثنه رابض وبطل أبدا على قائم سيفه قابض يروع الروم طيفه ويجوس خلال تلك الديار خيفه ويروى بل يحسم كل آونة سيفه وابن شهيد يمنح الآراء ويلقحها وينقد تلك الانحاء وينقحها والدولة مشتملة بعنايته متجملة بسمائه وكرمه منتشر على الآمال ويكسو الاولياء بذلك الاجمال وكان له أدب ترهر لججه

دار الحرب فجمع له الجلالقة ولقيهم فهزمهم واستباحهم وأوطأ العساكر بلد فردلند ودوّخها وكان شانجة ابن ردمير ملك البشكنس قد انتقض فأغزاه الحكم التجيبي صاحب سرقسطة في العساكر وجاء ملك الجلالقة لنصره فهزمهم وامتنعوا بقورية وعاثوا في نواحيها وقتل ثم أغزى الحكم أحمد بن يعلى ويحيى بن محمد التجيبي الى بلاد برشلونة فعاثت العساكر في نواحيها وأغزى هذيل بن هاشم ومولاه غالبا الى بلاد القومس فعاثا فيها وقفلا وعظمت فتوحات الحكم وقواد الثغور في كل ناحية وكان من أعظمها فتح قلهرة من بلاد البشكنس على يد غالب فعمرها الحكم واعتنى بها ثم فتح قطوبية على يد قائد وشقة وغنم فيه من الاموال والسلاح والاقوات والآلات وفي بسيطه من الغنم والبقر والرمك والاطعمة والسبي ما لا يحصى (وفي سنة أربع وخمسين) سار غالب الى بلد ألبة ومعه يحيى بن محمد التجيبي وقاسم بن مطرف بن ذي النون فابتنى حصن غرماج ودوّخ بلادهم وانصرف وظهرت في هذه السنة مراكب المجوس في البحر الكبير وأفسدوا ببسائط اشبونة وناشبهم الناس القتال فرجعوا الى مراكبهم وأخرج الحكم القواد لاحتراس السواحل وأمر قائد البحر عبد الرحمن بن رماحس بتعجيل حركة الاسطول ثم وردت الاخبار بأن العساكر نالت منهم من كل جهة من السواحل ثم كانت وفادة اردون بن أذفونش ملك الجلالقة وذلك أن الناصر لما أعان عليه شانجة بن ردمير وهو ابن عمه وهو الملك من قبل اردون وحمل النصرانية على طاعته واستظهر اردون بصهره فردلند قومس قشتيلة توقع مظاهرة الحكم لشانجة كما ظاهره أبوه الناصر فبادر الى الوفادة على الحكم مستجيرا به فاحتفل لقدومه وعبى العساكر ليوم وفادته وكان يوما مشهودا وصفه ابن حيان كما وصف أيام الوفادات قبله ووصل الى الحكم وأجلسه ووعده بالنصر من عدوه وخلع عليه وكتب بوصوله ملقيا بنفسه وعاقده على موالاة الاسلام ومقاطعة فردلند القومس وأعطى على ذلك صفقة يمينه ورهن ولده غرسية ودفعت الصلات والحملات له ولاصحابه وانصرف معه وجوه نصارى الذمة ليوطدوا له الطاعة عند رعيته ويقبضوا رهنه وعند ذلك بعث ابن عمه شانجة بن ردمير بيعته وطاعته مع قواميس أهل جليقية وسمورة وأساقفتهم يرغب في قبوله ويمت بما فعل أبوه الناصر معه فتقبل بيعتهم على شروط شرطها كان منها هدم الحصون والابراج القريبة من ثغور المسلمين ثم بعث ملكا برشلونة وطركونة وغيرهما يسألان تجديد الصلح واقرارهما على ما كانا عليه وبعثا بهدية وهي عشرون صبيا من الخصيان الصقالبة وعشرون قنطارا من صوف السمور وخمسة قناطير من القصدير وعشرة أذرع صقلبية ومائتا سيف فرنجية فتقبل الهدية وعقد على أن يهدموا الحصون التي تضر بالثغور وأن لا يظاهروا عليه أهل ملتهم وأن ينذروا بما يكون من النصارى في الاجلاب على المسلمين ثم وصلت رسل غرسية بن شانجة ملك البشكنس في جماعة من الاساقفة والقوامس يسألون الصلح بعد أن كان توقف وأظهر المكر فعقد لهم الحكم فاغتبطوا ورجعوا ثم وفدت على الحكم أم لذريق بن بلاشك القومس بالقرب من جليقية وهو القومس الاكبر فأخرج الحكم لتلقيها أهل دولته

واحتفل لقدومه في يوم مشهود وركب وصيف وأصحبه وعبد الملك بن ... كبار عسكر
وقدم إليهما ما لا يحصى من وفودها دون ما وصل به هو وحمل على بغلة فارهة بسرج
ولجام مثقلين بالذهب وملحفة ديباج ثم عاود مجلس الحكم لوداع فعاودها الصلات
لبعدها واستلقت ثم وطأ عساكر أرض العدوة من المغرب الأقصى والأوسط وتلقى
دعوته ملوك زناتة من مغراوة ومكناسة فبثوها في أعمالهم وخطبوا بها على منابرهم
وزاحموا بها دعوة الشيعة فيما بينهم ووفد عليه من بني خزرون وبني أبي العافية فأنزلهم
وأكرم وفادتهم وأحسن منصرفهم واستنزل بني إدريس من ملكهم بالعدوة
في ناحية الريف وأجازهم البحر إلى قرطبة ثم أجلاهم إلى الإسكندرية * وكان محبا
للعلوم مكرما لأهلها جماعا للكتب في أنواعها بما لم يجمعه أحد من الملوك قبله قال
أبو محمد بن حزم أخبرني تليد الخصي وكان على خزانة العلوم والكتب بدار بني
مروان أن عدد الفهارس التي فيها تسمية الكتب أربع وأربعون فهرسة وفي كل فهرسة
عشرون ورقة ليس فيها إلا ذكر أسماء الدواوين لا غير وأقام للعلم والعلماء سوقا نافقة
جلبت إليه بضائعه من كل قطر * ووفد عليه أبو علي القالي
صاحب كتاب الأمالي من بغداد فأكرم مثواه وحسنت منزلته عنده وأورث أهل
الأندلس علمه واختص بالحكم المستنصر واستفاد علمه وكان يبعث في شراء الكتب
إلى الأقطار رجالا من التجار ويرسل إليهم الأموال لشرائها حتى جلب منها إلى الأندلس
ما لم يعهدوه وبعث في كتاب الأغاني إلى مصنفه أبي الفرج الأصفهاني وكان نسبه
في بني أمية وأرسل إليه فيه بألف دينار من الذهب العين فبعث إليه بنسخة منه قبل
أن يخرجه إلى العراق وكذلك فعل مع القاضي أبي بكر الأبهري المالكي في شرحه لمختصر
ابن عبد الحكم وأمثال ذلك وجمع بداره الحذاق في صناعة النسخ والمهرة في الضبط
والإجادة في التجليد فأوعى من ذلك كله واجتمعت بالأندلس خزائن من الكتب لم تكن لأحد
من قبله ولا من بعده إلا ما يذكر عن الناصر العباسي بن المستضيء ولم تزل هذه الكتب
بقصر قرطبة إلى أن بيع أكثرها في حصار البربر وأمر بإخراجها وبيعها الحاجب واضح
من موالي المنصور بن أبي عامر ونهب ما بقي منها عند دخول البربر قرطبة واقتحامهم إياها
عنوة انتهى كلام ابن خلدون ببعض اختصار (ولنبسط الكلام على الحكم فنقول)
إن الحكم المستنصر اعتلى سرير الملك ثاني يوم وفاة أبيه يوم الخميس وقام بأعباء الملك
أتم قيام وأنفذ الكتب إلى الآفاق بتمام الأمر له ودعا الناس إلى بيعته واستقبل في يومه
النظر في تدبير سلطانه وتثقيف مملكته وضبط ثغوره وترتيب أجناده وأول ما أخذ البيعة
على صقالبة القصر المعروفين بالخلفاء الأكابر كجعفر صاحب الخيل والطراز
وغيره من عظمائهم وتكفلوا بأخذها على من وراءهم ممن تضمه طبقتهم وغيرهم
وأوصل إلى بيعته في المجلس دونهم خول الأكابر من الكتاب والوزراء والمتقدمين والعرفاء
سواهم فلما كملت بيعة أهل الحضرة تقدم إلى عظيم دولته جعفر بن عثمان بالنهوض
في أخذ بيعته على أبي مروان عبيد الله المتخلف ابن ملزمة المنصور للبيعة دون مقدر

وتقدم الى موسى بن أحمد بن حدير بالنهوض الى ابى الاصبغ عبد العزيز شقيقه
الثانى فمضى اليهما كل واحد منهما فى قطيع من الجند وأتيا بهما الى قصر مدينة الزهراء
وبعث غيرهما من وجوه الرجال فى الخيل لاتيان غيرهما من الاخوة وكانوا يومئذ ثمانية
فوافى بجميعهم الزهراء فى الليل فنزلوا فى مراتبهم بفصلان دار الملك وقعدوا فى المجلسين
الشرقى والغربى وقعد المستنصر بالله على سرير الملك فى البهو الاوسط من الابهاء المذهبة
القبلية التى فى السطح الممرّد فاول من وصل اليه الاخوة فبايعوه وأنصتوا الصحيفة
البيعة والتزموا الايمان المنصوصة بكل ما انعقد فيها ثم بايع بعدهم الوزراء وأولادهم
وأخوتهم ثم أصحاب الشرطة وطبقات أهل الخدمة وقعد الاخوة والوزراء والوجوه
عن يمينه وشماله الا عيسى بن فطيس فانه كان قائما بأخذ البيعة على الناس وقام الترتيب
على الرسم فى مجالس الاحتفال المعروفة فاصطف فى المجلس الذى قعد فيه أكابر الفتيان
يمينا وشمالا الى آخر البهو كل منهم على قدره فى المنزلة عليهم الظهائر البيض شعار الحزن
قد تقلدوا فوقها السيوف ثم تلاهم الفتيان الوصفاء عليهم الدروع السابغة والسيوف
الحمائلية صفين منتظمين فى السطح وفى الفصلان المتصلة به ذوو الاسنان من الفتيان
الصقالبة الخصيان لابسين البياض بأيديهم السيوف يتصل بهم من دونهم من طبقات
الخصيان الصقالبة ثم تلاهم الرماة متنكبين قسيهم وجعابهم ثم وصلت صفوف هؤلاء
الخصيان الصقالبة صفوف العبيد الفحول شاكين فى الاسلحة الرائقة والعدة الكاملة
وقامت التعبية فى دار الجند والترتيب من رجالة العبيد عليهم الجواشن والاقبية البيض
وعلى رؤسهم البيضات الصقلبية وبأيديهم التراس الملونة والاسلحة المزينة انتظموا صفين
الى آخر الفصل وعلى باب السدة الاعظم البوابون وأعوانهم ومن خارج باب السدة فرسان
العبيد الى باب الاقباء واتصل بهم فرسان الحشم وطبقات الجند والعبيد والرماة موكبا اثر
موكب الى باب المدينة الشارع الى الصحراء فلما تمت البيعة أذن للناس بالانفضاض
الا الاخوة والوزراء وأهل الخدمة فانهم مكثوا بقصر الزهراء الى أن احتمل جسد الناصر
رحمه الله الى قصر قرطبة للدفن هنالك فى تربة الخلفاء (وفى ذى الحجة من سنة خمسين)
تكاثرت الوفود ببلد الخليفة الحكم من البلاد للبيعة والتماس المطالب من أهل
طليطلة وغيرها من قواعد الاندلس وأصقاعها فوصلوا الى مجلس الخليفة بمحضر جميع
الوزراء والقاضى منذر بن سعيد والملأ فأخذت عليهم البيعة ووقعت الشهادات فى نسخها
(وفى آخر صفر من سنة احدى وخمسين) أخرج الخليفة الحكم المستنصر بالله مولييه محمدا
وزيادا ابنى أفلح الناصرى بكتيبة من الحشم لتلقى غالب الناصرى الذى خرجوا اليه صاحب
مدينة سالم المورد للطاغية أردون بن أذفونش المنتصب فى الدولة الجليقية على طول انتقاض
أمر الجلالقة والمنازع لابن عمه الملك قبله شانجة بن ردمير وأبرع هذا اللعين اردون بالمصير
الى باب المستنصر بالله من ذاته غير طالب اذن ولا مستظهر بعهد وذلك عند ما بلغه اعتزام
الحكم المستنصر بالله فى عامه ذلك على الغزو اليه وأخذه فى التأهب له فاحتال فى تأميل
المستنصر بالله والارتماء عليه وخرج قبل أمان يعقده له أو ذمة تعصمه فى عشرين رجلا من

وفوج أصحابه يقدمهم غالب الناصري الذي شرح الله به صدر مولاه الحكم وتلقاهم
الى أن التقى بالعلج المذكور فأنزلهم ثم عرض عسكرهم الى يوم وردهم الى قرطبة فأخرج
المستنصر بالله اليوم هشاما المصحفي في جيش عظيم كامل التعبئة وسد والى باب قرطبة قريبا
بباب قصرها فلما انتهى اردون الى ما بين باب السدة وباب الجنان سأل عن مكان قبر
الناصر لدين الله فأشير الى مثواه فيه من داخل القصر في الروضة فخلع قلنسوته
وخضع نحو مكان القبر ودعا ثم رد قلنسوته الى رأسه وأمر المستنصر بانزال اردون في دار
الناعورة وقد كان تقدم في فرشها بصنوف الغطاء والوطاء وانتهى من ذلك الى الغاية وتوسع
له في الكرامة ولاصحابه فأقام بها الخميس والجمعة فلما كان يوم السبت تقدم المستنصر بالله
باستدعاء أردون ومن معه بعد اقامة الترتيب وتعبئة الجيوش والاحتفال في ذلك من
العدد والاسلحة والزينة وقعد المستنصر بالله على سرير الملك في المجلس الشرقي من مجالس
السطح وقعد الاخوة وبنوهم والوزراء ونظراؤهم صفا في المجلس وفيهم القاضي منذر بن سعيد
والحكام والفقهاء فأتى محمد بن القاسم بن طملس بالملك اردون وأصحابه وعليه لبوسه ثوب
ديباج رومي أبيض وتكوير من جنسه في لونه وعلى رأسه قلنسوة رومية منظومة
بجوهر وقد حف به جماعة من نصارى وجوه الذمة بالاندلس يؤنسونه ويبصرونه منهم
وليد بن خيرون قاضي النصارى بقرطبة وعبد الله بن قاسم مطران طليطلة وغيرهما
فدخل بين صفي الترتيب فتلقاه الطرف في تعظيم الصفوف وتعبئة العسكر في كثرتها وظاهر
اسلحتها وراع أبصارهم ما بصروا وصلبوا على وجوههم وتأملوا باكفي رؤسهم
غاضين من أجفانهم قد سكرت أبصارهم حتى وصلوا الى باب الاقباء اول باب قصر الزهراء
فترجل جميع من كان خرج الى لقائه وتقدم الملك اردون وخاصة قوامسه على دوابهم حتى
انتهوا الى باب السدة فأمر القوامس بالترجل هنالك والمشي على الاقدام فترجلوا ودخل
الملك أردون وحده راكبا مع محمد بن طملس فنزل في وسط البهو الاوسط من الابهاء القبلية
الى قبالة المجلس على كرسي مرتفع مكسو الاوصال بالفضة وفي هذا المكان بعينه نزل قبله
عدوه ومناويه شانجه بن ردمير الوافد على الناصر لدين الله رحمه الله تعالى وقعد أردون على
الكرسي وقعد أصحابه بين يديه وخرج الاذن لاردون الملك من المستنصر بالله بالدخول
عليه فتقدم يمشي وأصحابه يتبعونه الى أن وصل الى السطح فلما قابل المجلس الشرقي الذي
فيه المستنصر بالله وقف وكشف رأسه وخلع برنسه وبقي حاسرا اعظاما لما بان له من الدنو
الى السرير واستنهض يمشي بين الصفين المرتبين في ساحة السطح الى أن قطع السطح وانتهى
الى باب البهو فلما قابل السرير خر ساجدا سويعة ثم استوى قائما ثم نهض خطوات وعاد
الى السجود ووالى ذلك مرارا الى أن قدم بين يدي الخليفة وأهوى الى يده فناوله اياها
وكر راجعا مقهقرا على عقبه الى وساد ديباج مثقل بالذهب جعل له هنالك ووضع على قدر
عشر أذرع من السرير فجلس عليه والبهر قد علاه وأمر من خلفه من أمداتي من قوامسه
وأتباعه فدنوا ممتثلين في تكرير الخنوع وناولهم الخليفة يده فقبلوها وانصرفوا مقهقرين
منكسوا على رأس ملكهم ووصل بوصولهم وليد بن خيرون قاضي النصارى بقرطبة

وكان

فكان الترجمان عن الملك اردون ذلك اليوم وأطرق الخليفة الحكم عن تكليم الملك اردون
اثر قعوده أمامه وقتا كيما يفرخ روعه فلما رأى أن قد خفض عليه افتتح تكليمه فقال
ليسرك اقبالك ويغبطك تأميلك فلدينا لك من حسن رأينا ورحب قبولنا فوق ما قد طلبته
فلما ترجم له كلامه اياه تطلق وجه اردون وانحط عن رتبته فقبل البساط وقال أنا عبد أمير
المؤمنين مولاي المتوكل على فضله القاصد الى مجده المحكم في نفسه ورجاله فحيث وضعني
من فضله وعوضني من خدمته رجوت أن اتقدم فيه بنية صادقة ونصيحة خالصة فقال له
الخليفة أنت عندنا بمحل من يستحق حسن رأينا وسينالك من تقديمنا لك وتفضيلنا اياك على
أهل ملتك ما يغبطك وتتعرف به فضل جنوحك الينا واستظلالك بظل سلطاننا فعاد
أردون الى السجود عند فهمه مقالة الخليفة وابتهل داعيا وقال ان شانجة ابن عمي تقدم
الى الخليفة الماضي مستجيرا به مني فكان من اعزازه اياه ما يكون من مثله من اعاظم الملوك
وأكارم الخلفاء لمن قصدهم وأمّلهم وكان قصده قصد مضطر قد شنأته رعيته وأنكرت سيرته
واختارتني لمكانه من غير سعي مني علم الله ذلك ولا دعاء اليه فخلعته وأخرجته عن ملكه
مضطرا مضطهدا فتطاول عليه رحمه الله بأن صرفه الى ملكه وقوى سلطانه واعز نصره ومع
ذلك فلم يقم بفرض النعمة التي اسديت اليه وقصر في أداء المفروض عليه وحقه وحق
مولاي أمير المؤمنين من بعده وأنا قد قصدت باب أمير المؤمنين لغير ضرورة من قرارة
سلطاني وموضع أحكامي محكما له في نفسي ورجالي ومعاقلي ومن تحويه من رعيتي
فشتان ما بيننا بقوة الثقة ومطرح الهمة فقال الخليفة قد سمعنا قولك وفهمنا مغزاك
وسوف يظهر من اقرانا اياك على الخصوصية شأنه ويترادف من احساننا اليك اضعاف
ما كان من أبينا رضي الله تعالى عنه الى ندك وان كان له فضل التقدم بالجنوح الينا والقصد
الى سلطاننا فليس ذلك مما يؤخرك عنه ولا يقصلك عما أملناك وسنصرفك مغبوطا الى بلدك
ونشد أواخي ملكك ونملكك جميع ما انحاش اليك ونعقد لك بذلك كتابا يكون بيدك
ونقرر به حدا ما بينك وبين ابن عمك ونقبضه عن كل ما يتصرف فيه من البلاد الى يدك وسيترادف
عليك من افضالنا فوق ما احتسبته والله على ما نقول وكيل فكرر أردون الخضوع
وأسهب في الشكر وقام للانصراف مقهقرا لا يولي الخليفة ظهره وقد تمكنه الفتيان من
جملة الفتيان فأخرجوه الى المجلس الغربي في السطح وقد علاه البهر وأذهله الروع من هول
ما باشره وجلالة ما عاينه من فخامة الخليفة وبهاء العزة فلما أن دخل المجلس ووقعت عينه
على مقعد أمير المؤمنين خاليا منه انحط ساجدا اعظاما له ثم تقدم الفتيان به الى البهو الذي
يجوفي هذا المجلس وأجلسوه هنالك على وساد مثقل بالذهب وأقبل نحوه الحاجب جعفر
فلما بصر به قام اليه وخضع له وأومأ الى تقبيل يده فقبضها الحاجب عنه وانحنى اليه فعانقه
وجلس معه فبسطه ووعده من انجاز عدات الخليفة له بما اضاعف سروره ثم أمر الحاجب
جعفر فصبت عليه الخلع التي أمر له بها الخليفة وكانت دراعة منسوجة بالذهب وبرنسا
مثلها له لوزة مفرغة من خالص التبر مرصعة بالجوهر والياقوت ملأت عين العلج فخر
ساجدا وأعلن بالدعاء ثم دعا الحاجب أصحابه رجلا رجلا فخلع عليهم على قدر استحقاقهم

فكمل جميع ذلك بحسب ما اصطلح لهم وخرج جميعهم خارجين من ساكر ثم انطلق الملك أردون وأصحابه وقدم لركابه في أول الموكب الأوسط فرس من عتاق خيل الركاب عليه سرج محلى ولجام محلى مفرغ وانصرف مع ابن طملس إلى قصر الرصافة مكان تضييفه وقد أعد له به كل ما يصلح لمثله من الآلة والفرش والماعون ووسع أصحابه فيما لا كفاء له من سعة التضييف وأرغد المأكل واستعظم الناس من حضر هذا اليوم وعز الإسلام به ما أقاموا من التحجيه والتحدث عنه أياما وكان للخطباء والشعراء بمجلس الخلافة في هذا اليوم مقامات حسان وإنشادات لأشعار محكمة متقنة يطول القول في إحضارها فمن ذلك قول عبد الملك بن سعيد المرادي من قصيدة حسنة قوله

ملك الخليفة آية الإقبال * وبشارة موصولة بتوالي
والمسلمون بعزة وبرفعة * والمشركون بذلة وسفال
ألقت بأيديها الأعاجم نحوه * متوقعات لصولة الرئبال
هذا أميرهم أتانا آخذا * منه أواصر ذمة وحبال
متواضعا لجلاله متخشعا * متسرعا لمبارع نعال
متمثلا للملك الرضا * وتراه عبدا بالإدلال
لا يوم أعظم للولاة مسرة * وأشد غيظا للعدا الأنذال
من يوم أردون الذي إقباله * أمل الهدى ونهاية الآمال
ملك الأعاجم كلها ابن ملوكها * وإلى الرعايا في الأعاجم وال
إن كان جاء ضرورة فلقد أتى * من عز مملكة وطوع رجال
فالحمد لله المذل إمامنا * سبط الملوك وصدر المعالي
هو يوم حشر الناس إلا أنهم * لم يسألوا فيه عن الأعمال
أضحى الفضا متضايقا بجيوشه * والأرض أخفى أعفر الرمال
لم يدر الساري المدل قتامه * إلا بنور صوارم وعوالي
وكأن أجسام الكماة شهب لها * مذعورة تسعى نجوم ضلال
وكأنما العقبان عقبان الفلا * منقضة لتخطف الضلال
وكأن مصقول الظبا نهر * أسيلانا بأرجحه مد لجال
وكأن عامل الجياد اكتسى * نارا توهجها بلا إشعال

وقال بعض المؤرخين في حق الحكم المستنصر عن تليد صاحب خزانة العلم بها حدثني الحافظ أبو محمد بن حزم أن عدد الفهارس التي فيها تسمية الكتب أربع وأربعون فهرسة في كل فهرسة عشرون ورقة ليس فيها إلا ذكر الدواوين فقط انتهى وقد حكى نحو هذا عن ابن خلدون ونقله ابن الأبار في التكملة * وقال بعض المؤرخين في حق الحكم إنه كان حسن السيرة مكرما للقادمين عليه جمع من الكتب ما لا يحد ولا يوصف كثرة ونفاسة حتى قيل إنها كانت أربعمائة ألف مجلد وإنهم لما نقلوها أقاموا ستة أشهر في نقلها وكان عالما نبيها صافي السريرة وسمع من قاسم بن أصبغ وأحمد بن دحيم ومحمد بن عبد السلام

الخشني وزكريا بن خطاب وأكثر عنه وأجاز له ثابت بن قاسم وكتب عن خلق كثير سوى
هؤلاء وكان يستجلب المصنفات من الاقاليم والنواحي باذلا فيها ما امكن من الاموال حتى
ضاقت عنها خزائنه وكان ذا غرام بها قد آثر ذلك على لذات الملوك فاستوسع علمه ودق نظره
وجمت استفادته وكان في المعرفة بالرجال والاخبار والانساب أحوذيا نسيج وحده وكان
ثقة فيما ينقله عجبا وصفه ابن الابار بأضعافه وقال عجبا لابن الفرضي وابن بشكوال
كيف لم يذكراه وقلما يوجد كتاب من خزائنه الا وله فيه قراءة أو نظر في أي فن كان ويكتب
فيه نسب المؤلف ومولده ووفاته ويأتي من بعد ذلك بغرائب لا تكاد توجد الا عنده لعنايته
بهذا الشأن ومما ينسب اليه من النظم قوله

الى الله أشكو من شمائل مسرف * علي ظلوم لا يدين بعادت
نأت عنه داري فاستزاد صدوده * واني على وجدي القديم كما كنت
ولو كنت أدري أن شوقي بالغ * من الوجد ما بلغته لم أكن بنت

وقوله

عجبت وقد ودعتها كيف لم أمت * وكيف انثنت بعد الوداع يدي معي
فيا مقلتي العبرى عليها اسكبي دما * ويا كبدي الحرى عليها تقطعي

وتوفي رحمه الله تعالى بقصر قرطبة ثاني صفر سنة ست وستين وثلثمائة لست عشرة سنة من
خلافته وكان أصابه الفالج ولزم الفراش الى أن هلك رحمه الله تعالى وكان قد شدد في ابطال
الخمر في مملكته تشديدا عظيما (وولي بعده ابنه) هشام صغيرا سنه تسع سنين ولا ينافيه
قول ابن خلدون قد ناهز الحلم وكان الحكم قد استوزر له محمد بن أبي عامر ونقله من خطة
القضاء الى وزارته وفوض اليه اموره فاستقل" قال ابن خلدون وترقت حال ابن أبي عامر
عند الحكم فلما توفي الحكم وبويع هشام ولقب المؤيد بعد أن قتل ليلتئذ المغيرة أخو الحكم
المرشح لامره تناول القتل به محمد بن أبي عامر هذا بممالأة من جعفر بن عثمان المصحفي
حاجب أبيه وغالب مولى الحكم صاحب مدينة سالم ومن خصيان القصر يومئذ ورؤساؤهم
فائق وجوذر فقتل ابن أبي عامر المغيرة بممالأة من ذكر وتمت البيعة لهشام ثم سما
لابن أبي عامر أمل في التغلب على هشام لمكانه في السن وثاب له رأي في الاستبداد فمكر
بأهل الدولة وضرب بين رجالها وقتل بعضا ببعض وكان من رجال اليمنية من معافر دخل
جده عبد الملك مع طارق وكان عظيما في قومه وكان له في الفتح أثر وعظم ابن أبي عامر هذا
وغلب على المؤيد ومنع الوزراء من الوصول اليه الا في النادر من الايام يسلمون وينصرفون
وأرضخ للجند في العطاء وأعلى مراتب العلماء وقمع أهل البدع وكان ذا عقل ورأي
وشجاعة وبصر بالحروب ودين متين ثم تجرد لرؤساء الدولة ممن عانده وزاحمه فمال عليهم
وحطهم عن مراتبهم وقتل بعضا ببعض كل ذلك عن هشام وخطه وتوقيعه حتى استأصلهم
وفرق جموعهم وأول ما بدأ بالصقالبة الخصيان الخدام بالقصر فحمل الحاجب المصحفي
على نكبتهم فنكبهم وأخرجهم من القصر وكانوا ثمانمائة أو يزيدون ثم اصهر الى غالب
مولى الحكم وبالغ في خدمته والنصح له واستعان به على المصحفي فنكبه ومحا أثره من الدولة

ثم استعان على غالب بجعفر بن أحمد بن علي بن حمدون صاحب المسيلة وقائد الشيعة ممدوح ابن هانئ بالقافية المشهورة وغيرها وهو النازع إلى الحكم أول الدولة بمن كان معه من زناتة والبربر ثم قتل جعفرا مغتالا ثم ابن عبد الودود وابن جهور وابن ذي النون وأمثالهم من أولياء الدولة من العرب وغيرهم ثم لما خلا الجو من أولياء الخلافة والمرشحين للرياسة رجع إلى الجند فاستدعى أهل العدوة من رجال زناتة والبرابرة فرتب منهم جندا واصطنع أولياء وعرف عرفاء من صنهاجة ومغراوة وبني يفرن وبني برزال ومكناسة وغيرهم فتغلب على هشام وحجره واستولى على الدولة وملأ الدنيا وهو في جوف بيته مع تعظيم الخلافة والخضوع لها ورد الأمور إليها وترديد الغزو والجهاد وقدم رجال البرابرة وزناتة وأخر رجال العرب وأسقطهم عن مراتبهم فتم له ما أراد من الاستقلال بالملك والاستبداد بالأمر وبنى لنفسه مدينة لنزله سماها الزاهرة ونقل إليها خزائن الأموال والأسلحة وقعد على سرير الملك وأمر أن يحيا بتحية الملوك وتسمى بالحاجب المنصور ونفذت الكتب والمخاطبات والأوامر باسمه وأمر بالدعاء له على المنابر باسمه عقب الدعاء للخليفة ومحا رسم الخلافة بالجملة ولم يبق لهشام المؤيد من رسوم الخلافة أكثر من الدعاء على المنابر وكتب اسمه في السكة والطرز وأغفل ذكره فيما سوى ذلك وجند البرابرة والمماليك واستكثر من العبيد والعلوج للاستيلاء على تلك الرتبة وقهر من تطاول لها من العلية فظفر من ذلك بما أراد وردد الغزو بنفسه إلى دار الحرب فغزا اثنتين وخمسين غزوة في سائر أيام ملكه لم تنكس له فيها راية ولا فل له جيش وما أصيب له بعث وما هلكت له سرية وأجاز عساكره إلى العدوة وضرب بين ملوك البرابرة وضرب بعضهم ببعض فاستوثق له ملك المغرب وأصبحت له ملوك زناتة وانقادوا لحكمه وأطاعوا سلطانه وأجاز ابنه عبد الملك إلى ملوك مغراوة بفاس من آل خزر ولما سخط زيري بن عطية ملكهم لما بلغه ما بلغه من إعلانه بالنيل منه والغض من منصبه والتأنف من حجر الخليفة هشام أوقع به عبد الملك سنة ست وثمانين ونزل فاس وملكها وعقد للملوك على عمالات المغرب وأعماله من سجلماسة وغيرها وشرد زيري بن عطية إلى تاهرت فأبعد المفر وهلك في مفر ذلك ثم قفل عبد الملك إلى قرطبة واستعمل واضحا على المغرب وهلك المنصور أعظم ما كان ملكا وأشد استيلاء سنة أربع وتسعين وثلاثمائة بمدينة سالم منصرفه من بعض غزواته ودفن هنالك وذلك لسبع وعشرين سنة من ملكه انتهى كلام ابن خلدون ونقصه بالمعنى وزيادة يسير ولا بأس أن نزيد عليه فنقول مما حكي أنه مكتوب على قبر المنصور رحمه الله تعالى

آثاره تنبيك عن أخباره * حتى كأنك بالعيان تراه
تالله لا يأتي الزمان بمثله * أبدا ولا يحمي الثغور سواه

وعن حجاج ولي المستعين بن هود لما توجه إلى أذفونش وجد به في مدينة سالم وقد نصب على قبر المنصور بن أبي عامر سريرا وامرأته متكئة إلى جانبه فقال لي يا حجاج أما تراني قد ملكت بلاد المسلمين وجلست على قبر ملكهم قال فحملتني الغيرة أن قلت له لو تنفس صاحب هذا القبر وأنت عليه ما سمع منك ما تكره سماعه ولا استقر بك قرار فهم بي فحالت

امرأته

امرأنه بيني وبينه وقالت له صدقت فيما قال ايحفر مثلك بمثل هذا * وهذا تلخيص ترجمة المنصور من كلام ابن سعيد قال رحمه الله ترجمة الملك الاعظم المنصور أبي عامر محمد بن عبد الله بن عامر بن أبي عامر بن الوليد بن يزيد بن عبد الملك المعافري من قرية تركش وعبد الملك جده هو الوافد على الاندلس مع طارق في اوّل الداخلين من العرب واما المنصور فقد ذكره ابن حيان في كتابه المخصوص بالدولة العامرية والفتح في المطمح والحجاري في المسهب والقشندي في الطرف وذكر الجميع أن أصله من قرية تركش وأنه رحل الى قرطبة وتأدب بها ثم اقتعد دكانا عند باب القصر يكتب فيه لمن يعن له كتب من الخدم والمرافعين للسلطان الى أن طلبت السيدة صبح ام المؤيد من يكتب عنها فعرّفها به من كان يأنس اليه بالجلوس من فتيان القصر فترقى الى أن كتب عنها فاستحسنته ونبهت عليه الحكم ورغبت في تشريفه بالخدمة فولاه قضاء بعض المواضع وظهرت منه نجابة فترقى الى الزكاة والمواريث باشبيلية وتمكن في قلب السيدة بما استمالها به من التحف والخدمة مالم يتمكن لغيره ولم يقصر مع ذلك في خدمة المصحفي الحاجب الى أن توفى الحكم وولى ابنه هشام المؤيد وهو ابن اثنى عشرة سنة فجاشت الروم فجهز المصحفي ابن أبي عامر لدفاعهم فنصره الله عليهم وتمكن حبه من قلوب الناس وكان جوادا عاقلا ذكيا استعان بالمصحفي على الصقالبة ثم بغالب على المصحفي وكان غالب صاحب مدينة سالم وتزوّج ابن أبي عامر ابنته اسماء وكان أعظم عرس بالاندلس ثم بجعفر بن الاندلسي ممدوح ابن هانئ على غالب ثم بعبد الرحمن بن محمد بن هشام التجيبي على جعفر وله في الحزم والكيد والجلد ما افرد له ابن حيان تأليفا وعدد غزواته المنشاة من قرطبة نيف وخمسون غزوة ولم تهزم له راية وقبره بمدينة سالم في أقصى شرق الاندلس ومن شعره

رميت بنفسي هول كل عظيمة * وخاطرت والحرّ الكريم يخاطر
وما صاحبي الا جنان مشيع * وأسمر خطي وأبيض باتر
فسدت بنفسي أهل كل سيادة * وفاخرت حتى لم أجد من افاخر
وما شدت بنيانا ولكن زيادة * على ما بنى عبد المليك وعامر
رفعنا العوالي بالعوالي مثلها * وأورثناها في القديم معافر

وجوده مع صاعد البغدادي اللغوي مشهور وصدر عن بعض غزواته فكتب اليه عبد الملك بن شهيد وكان قد تخلف عنه

أنا شيخ والشيخ يهوى الصبايا * يا بنفسي اقيك كل الرزايا
ورسول الاله أسهم في الفيء لمن لم يخب فيه المطايا

فبعث اليه بثلاث جوار من أجمل السبي وكتب معهن وكانت واحدة أجملهن قوله

قد بعثنا بها كشمس النهار * في ثلاث من المها أبكار
وامتحنا بعذرة البكر ان كنت ترجى بوادر الاعذار
فاجتهد وابتدر فانك شيخ * قد جلا ليله بياض النهار
صانك الله من كلالك فيها * فمن العار كلة المسمار

نصيبي من الدنيا هو الذوانه * غذاءي ولكني عليه ضنين

وستأتي هذه الترجمة من المطمح الصغير ان شاء الله تعالى بما فيه بعض زيادة ونقصان في الباب الرابع * وقال في المطمح في حق ابن أبي عامر انه تمرس ببلاد الشرك أعظم تمرس ومحا من طواغيتها كل تجبر وتغطرس وغادرهم صرعى البقاع وتركهم أذل من وتد بقاع ووالى على بلادهم الوقائع وسدد الى أكبادهم سهام الفجائع وأغص بالحمام أرواحهم ونغص بتلك الآلام بكورهم ورواحهم ومن أوضح الامور هنالك وأفصح الاخبار في ذلك أن أحد رسله كان كثير الانتياب لذلك الجناب فسار في بعض مسيراته الى غرسية صاحب البشكنس فوالى في اكرامه وتناهى في بره واحترامه فطالت مدته فلا متنزه الا مرّ عليه متفرجا ولا منزل الا سار عليه معرجا فحل في ذلك اكثر الكنائس هنالك فبينا هو يجول في ساحتها ويجيل العين في مساحتها اذ عرضت له امرأة قديمة الاسر قوية على طول الكسر مكلمته وعرّفته بنفسها وأعلمته وقالت له أيرضى المنصور أن ينسى بتنعمه بوسها ويتمتع بلبوس العافية وقد نضت لبوسها وزعمت أن لها عدة سنين بتلك الكنيسة محبسة وبكل ذل وصغار ملبسة وناشدته الله في انهاء قصتها وابراء غصتها واستحلفته بأغلظ الايمان وأخذت عليه في ذلك أوكد مواثيق الرحمن فلما وصل الى المنصور عرّفه بما يجب تعريفه به واعلامه وهو مصغ اليه حتى تم كلامه فلما فرغ قال له المنصور هل وقفت هنالك على أمر أنكرته أم لم تقف على غير ما ذكرته فأعلمه بقصة المرأة وما خرجت عنه اليه وبالمواثيق التي أخذت عليه فعتبه ولامه على أن لم يبدأ بها كلامه ثم أخذ للجهاد من فوره وعرض من اجناده في نجده وغوره وأصبح غازيا على سرجه مباهيا مروان يوم مرجه حتى وافى ابن شانجة في جمعه وأخذت مهابته ببصره وسمعه فبادر بالكتاب اليه يتعرف ما الجلية ويحلف له بأعظم ألية انه ما جنى ذنبا ولا جفا عن مضجع الطاعة جنبا فعنف أرساله وقال لهم كان قد عاقدني أن لا يبقى ببلاده مأسورة ولا مأسور ولو حملته في حواصلها النسور وقد بلغني بعد بقاء فلانة المسلمة في تلك الكنيسة ووالله لا انتهى عن أرضه حتى اكتسحها فأرسل اليه المرأة في اثنتين معها وأقسم انه ما أبصرهن ولا سمع بهن وأعلمه أن الكنيسة التي أشار بعلمها قد بالغ في هدمها تحقيقا لقوله وتضرع اليه في الاخذ فيه بطوله فاستحيى منه وصرف الجيش عنه وأوصل المرأة الى نفسه وألحق توحشها بأنسه وغير من حالها وعاد بسوابغ نعماه على جدبها وامحالها وحملها الى قومها وكحلها بما كان شرد من نومها انتهى * وقال في المطمح أيضا في حقه ما نصه فزد بابه على من تقدمه وصوّبه واستحزمه فانه كان امضاهم سنانا وأذكاهم جنانا وأتمهم جلالا وأعظمهم استقلالا فآل أمره الى ما آل وأوهم العقول بذلك المآل فانه كان آية الله في اتفاق سعده وقربه من الملك بعد بعده بهر برفعة القدر واستظهر بالاناة وسعة الصدر وتحرك فلاح نجم الهدى وتملك فما خفق بأرضه لواء عدو بعد دخول كابد منه غصصا وشرقا وتعذر مأمول طارد فيه سهرا وأرقا حتى أنجز له الموعود ووثبته

إمام ملك الصعود، وقام بتدبير الخلافة، وأقعد من كان له فيها إنافة، وساس الأمور أحسن
سياسة، وداس الخطوب بأخشن دياسة، فانتظمت له الممالك، واتضحت به المسالك
وانتشر الأمن في كل طريق، واستقر اليمن بكل فريق، وملك الأندلس بضعا وعشرين
حجة لم ينتقض لسعادته حجة، ولم تزل كذلك رحمه الله لبست به البلاد الأمان
وتنتسب عن نسيم أنفاس العراق، وكانت أيامه أحمد أيام، وسهام بأسه أشد سهام، غزا
الروم شاتيا وصائفا، ومضى فيها رائدا وكاشفا، فما ترك لهم عرشا، ولا أبقى لهم إلا الملجأ
لا بالمنح، فأوغل في تلك الشعاب، وتغلغل حتى راع ليث الغاب، ومشى تحت ألويته صيد
القبائل، واستجر في طلبها نص الظبا وسمر الذوابل، وهو يسبي الأرواح بغير رسوم
ويسمي الصفاح على كل روم، ويلقف من شاء للعلاقة ويقاد، ويخطف منهم كل كوكب
وقاد، حتى استبدوا بهرد، وأنس أهله من الطاعة ما بهر وبرد، واتسعت له الأندلس
بالعدوة، واجتمعت في ملكه اجتماع قريش بدار الندوة، ومع هذا لم يخلع اسم الحجابة
ولم يدع السمع لخليفته والإنابة، ظاهر بعالية الباطن، وإن لم تأسره مواقع الحكم
والمواطن، وأذل قبائل الأندلس بإجازة البرابر، وأخمل بهم أولئك الأعلام الأكابر
فإنه قاوم بهم أضدادهم، واستكثر من أعدادهم، حتى تغلبوا على الجمهور، وشلّوا عليهم
الظهور، ووثبوا عليهم الوثوب المشهور، الذي أعاد أكثر الأندلس قفرا يبابا، وملأها
وحشا وذئابا، وأعراها من الأمان برهة من الزمان، وعلى هذه الهمة فهو وابنه المظفر كانا
آخر سعد الأندلس، وحد السرور بها والتأنس، وعزة ولاته فيها سادتها الأبرار، رابعة
كالشمس ذي الإشراق، ومحاسنه وافرة، وبشريته معاذر، ولذا قال بعض من مدحه في الأبيات
وزاد فيها بعد دولته وأحسن بأثر سابق

وإني لرجا الحرمين إلى الوغى * أسود لاقيها أسود خوادر

وكانت أيامه تتمة فخار الشرف لطرفيه، والتعجب بطرفه، ولذا قال الشطلي فيه

تلاقت عليه من تميم ويعرب * شموس تلالا في العلا وبدور
من الحميريين الذين أكفهم * سحائب تهمي بالندى وبحور

ونمّ فيه نبل ولايته في سني الولايات، وما من الحدث ينتهي أمر بآيات حتى جمع
رموزه، ومما يحفظ من تورعه في ذلك أخبار فيها عجب واعتبار، وكان أديبا محسنا
وعالما متفننا، فمن ذلك قوله في نفسه على مصر والحجاز، ويستدعي صدور تلك الأعجاز

منع العين أن تذوق المناما * حبها أن ترى الصفا والمقاما
لي ديون بالشرق عند أناس * قد أحلوا بالمشعرين الحراما
إن قضوها نالوا الأماني وإلا * جعلوا دونها رقابا وهاما
عن قريب ترى خيول هشام * يبلغ النيل خطوها والشآما

انتهى ما نقلته من المطمح * وفي المنصور المذكور أيضا قال بعض من ورد على المغرب مادحا
كلامه ببعض كلام الفتح بعد ذكر اسمه ما نصه: من الناس على بعض، وذكر له طموحه
عثمان، فقال بعد ما صوّر به، ثم انفرد بنفسه، وصار ينادي هل من مبارز، فلما لم يجد حل

الدهر

الدهر على حكمه فاشاد له وساعده فاستقام أمره منفردا بمملكة لا سلف له فيها ومن أوضح الدلائل على سعده انه لم ينكب قط فى حرب شهدها وما توجهت عليه هزيمة وما انصرف عن موطن الا قاهرا غالبا على كثرة ما زاول من الحروب ومارس من الاعداء وواجه من الامم وانها الخاصة ما أحسب أحدا من الملوك الاسلامية شاركه فيها ومن أعظم ما اعين به مع قوة سعده وتمكن جده سعة جوده وكثرة بذله فقد كان فى ذلك أعجوبة الزمان وأول ما اتكأ على ارائك الملوك وارتفق وانتشر عليه لواء السعد وخفق حط صاحبه المصحفى وأثار له كامن حقده الخفى حتى اصاره للهموم لبيسا وفى غيابات السجن حبيسا فكتب اليه يستعطفه بقوله

هبنى أسأت فأين العفو والكرم * اذ قادنى نحوك الاذعان والندم
يا خير من مدت الايدى اليه أما * ترثى لشيخ رماه عندك القلم
بالغت فى السخط فاصفح صفح مقتدر * ان الملوك اذا ما استرحموا رحموا

فما زاده ذلك الا حنقا وحقدا وما أفادته الابيات الا تضرما ووقدا فراجعه بما أيأسه وأراه هرمسه وأطبق عليه محبسه وضيق تروحه من المحنة وتنفسه

الآن ياجاهلا زلت بك القدم * تبغى التكرم لما فاتك الكرم
أغريت بى ملكا لولا تثبته * ما جازلى عنده نطق ولا كلم
فايأس من العيش اذ قد صرت فى طبق * ان الملوك اذا ما استنقموا نقموا
نفسى اذا سخطت ليست براضية * ولو تشفع فيك العرب والعجم

وكان من أخباره الداخلة فى أبواب البر والقربة بنيان المسجد الجامع الى أن قال ومن ذلك بناؤه قنطرة على نهر قرطبة الاعظم ابتدأ بناءها المنصور سنة ثمان وسبعين وثلثمائة وفرغ منها فى النصف من سنة تسع وسبعين وانتهت النفقة عليها الى مائة ألف دينار وأربعين ألف دينار فعظمت بها المنفعة وصارت صدرا فى مناقبه الجليلة وكانت هنالك قطعة أرض لشيخ من العامة ولم يكن للقنطرة عدول عنها وأمر المنصور أمناءه بارضائه فيها فحضر الشيخ عندهم فساموه بالقطعة وعرفوه وجه الحاجة اليها وأن المنصور لا يريد الا انصافه فيها فرماهم الشيخ بالعرض الاقصى عنده فياطبه أنها لا تخرج عنه بأقل من عشرة دنانير ذهبا كانت عنده أقصى الامنية وشرطها صحاحا فاغتنم الامناء غفلته ونقدوه الثمن وأشهدوا عليه ثم أخبروا المنصور بخبره فضحك من جهالته وأنف من غبنه وأمر أن يعطى عشرة أمثال ما سأل وتدفع له صحاحا كما قال فقبض الشيخ مائة دينار ذهبا فكاد أن يخرج من عقله وأن يجن عند قبضها من الفرح وجاء محتفلا فى شكر المنصور وصارت قصته سمرا سائرا (ومن ذلك أيضا) بناؤه قنطرة على نهر أستجة وهو نهر شنيل وتجشم لها أعظم مؤنة وسهل الطريق الوعرة والشعاب الصعبة (ومن ذلك أيضا) انه خط بيده مصحفا كان يحمله معه فى أسفاره وغزواته يدرس فيه ويتبرك به ومن قوة رجائه أنه اعتنى بجمع ما علق بوجهه من الغبار فى غزواته ومواطن جهاده فكان الخدم يأخذونه عنه بالمناديل فى كل منزل من منازله حتى اجتمع له منه صرة ضخمة عهد بتصييره فى حنوطه وكان يحملها حيث سار مع

أكفانه توضعا للحلول فيه وقد كان أعد الأكفان من أطيب مكسبه من الضيعة الموروثة
عن أبيه وغزل بناته وكان يسأل الله تعالى أن يتوفاه في طريق الجهاد فكان كذلك وكان
منبسطا بعطاياه واعتراف بعدله وخوفه من ربه وكثرة جهاده وإذا ذكر الله ذكر وإذا
خوف من عقابه ازدجر ولم يزل متنزها عن كل ما يشين به الملوك سوى الخمر لكنه أقلع عنها
قبل موته بسنتين وكان عدله في الخاصة والعامة وبسط الحق على الأقرب فالأقرب من
خاصته وحاشيته أمرا مشهورا لم يمل * (ومن عدله) أنه وقف عليه رجل من العامة بمجلسه
فنادى يا ناصر الحق إن لي مظلمة عند ذلك الوصيف الذي على رأسك وأشار إلى الفتى صاحب
الدرقة وكان له فضل محل عنده ثم قال وقد دعوته إلى الحاكم فلم يأت فقال له المنصور أو
عبد الرحمن بن فطيس هذا المخذول المهان وكان نظره أمضى من ذلك إذ كر مطالبة بأخذ
وذكر الرجل معاملة كانت بينهما فقطعها من غير نصف فقال المنصور ما أعظم
بليتنا بهذه الحاشية ثم نظر إلى الفتى وقد ذهل عقله فقال له ادفع الدرقة إلى فلان وانزل
صاغرا وساو خصمك في مقامه حتى يرفع الحق أو يضع ففعل ومثل بين يديه ثم قال
لصاحب شرطته الخاص به خذ بيد هذا الفاسق الظالم وقدمه مع خصمه إلى صاحب المظالم
لينفذ عليه حكمه بأغلظ ما يوجبه الحق من سجن أو غيره ففعل ذلك وعاد الرجل إليه شاكرا
فقال له المنصور قد انتصفت أنت فاذهب لسبيلك وبقي انتصافي أنا ممن تهاون بمنزلتي فتناول
الفتى بأنواع من المذلة وأبعده عن الخدمة * (ومن ذلك) قصة فتاه الكبير المعروف
بالبوري مع التاجر المغربي فإنهما تنازعا في خصومة توجهت فيها اليمين على الفتى
المذكور وهو يومئذ أكبر خدم المنصور وإليه أمر داره وحرمه فدافع الحاكم وظن أن
جاهه يمنع من إحلافه فصرخ التاجر بالمنصور في طريقه إلى الجامع متظلما من الفتى
فوكل به في الوقت من حمله إلى الحاكم فأنصفه منه وسخط المنصور عليه وقبض نعمته
ونفاه * (ومن ذلك) قصة محمد فصاد المنصور وخادمه وأمينه على نفسه فإن المنصور
احتاج يوما إلى الفصد وكان كثير التعهد له فبعث رسوله إلى محمد فألفاه الرسول محبوسا
في سجن القاضي محمد بن زرب لحيف ظهر منه على امرأة قدر أن يتسلل من الخدمة بحقه
من الفوت فلما عاد الرسول إلى المنصور بقصته أمر بإخراجه من السجن مع رقيب من رقباء
السجن يلزمه إلى أن يفرغ من عمله عنده ثم يرد إلى محبسه ففعل ذلك على ما رسمه وذهب
الفاصد إلى شكوى ما ناله فقطع عليه المنصور وقال له يا محمد إنه القاضي وهو في عدله
ولو أخذني الحق ما أطقت الامتناع منه عد إلى محبسك واعترف بالحق فهو الذي يطلقك
فانكسر الحاجم وزالت عنه ريح العناية وبلغت قصته القاضي فصالحه مع زوجه وزاد
القاضي شدة في أحكامه * وقال ابن حيان إنه كان جالسا في بعض الليالي وكانت ليلة
شديدة البرد والريح والمطر فدعا بأحد الفرسان وقال له انهض الآن إلى فج طليارش وأقم
فيه فأول خاطر يخطر عليك سقه إلي قال فنهض الفارس وبقي في الفج في البرد والريح
والمطر واقفا على فرسه إذ وقف عليه شيخ هرم على حمار له ومعه آلة الحطب
فقال له الفارس إلى أين تريد يا شيخ فقال وراء حطب فقال الفارس في نفسه هذا شيخ

مسكين نهض الى الجبل يسوق حطبا فماذا عسى أن يريد المنصور منه قال فتركته
فسار عني قليلا ثم فكرت في قول المنصور وخفت سطوته فنهضت الى الشيخ وقلت له ارجع
الى مولانا المنصور فقال له وماذا عسى أن يريد المنصور من شيخ مثلي سألتك بالله أن
تتركني أذهب لطلب معيشتي فقال له الفارس لا أفعل ثم قدم به على المنصور ومثله بين يديه
وهو جالس لم ينم ليلته تلك فقال المنصور للصقالبة فتشوه ففتشوه فلم يجدوا معه شيأ فقال
فتشوا بردعة حماره فوجدوا داخلها كتابا من نصارى كانوا قد نزعوا الى المنصور
يخدمون عنده الى أصحابهم من النصارى ليضربوا ويقتلوا في احدى النواحي المرطومة
فلما انبلج الصبح أمر باخراج أولئك النصارى الى باب الزاهرة فضربت أعناقهم وضربت
رقبة الشيخ معهم ثم ذكر هذا المؤرخ قصة الجوهري التي قدمنا نقلها من مغرب ابن
سعيد ولكنا رأينا اعادتها بلفظ هذا المؤرخ لانه أتم مساقا اذ قال عطفا على دهائه ومن
ذلك قصة الجوهري التاجر وذلك أن رجلا جوهريا من تجار المشرق قصد المنصور من
مدينة عدن بجوهر كثير وأحجار نفيسة فأخذ المنصور من ذلك ما استحسنه ودفع الى
التاجر الجوهري صرته وكانت قطعة يمانية فأخذ التاجر في انصرافه طريق الرملة على شط
النهر فلما توسطها واليوم قائظ وعرقه منصب دعته نفسه الى التبرد في النهر فوضع ثيابه
وتلك الصرة على الشط فمرت حدأة فاختطفت الصرة تحسبها لحما وصاعدت في الافق بها
ذاهبة فقطعت الافق الذي تنظر اليه عين التاجر فقامت قيامته وعلم انه لا يقدر أن يستدفع
ذلك بحيلة فأسر الحزن في نفسه ولحقه لاجل ذلك علة اضطرب فيها وحضر الدفع الى التجار
فحضر الرجل لذلك بنفسه فاستبان للمنصور ما بالرجل من المهانة والكآبة وفقد ما كان
عنده من النشاط وشدة العارضة فسأله المنصور عن شانه فأعلمه بقصته فقال له هلا أتيت
الينا بحدثان وقوع الامر فكنا نستظهر على الحيلة فهل هديت الى الناحية التي أخذ
الطائر اليها قال مر مشرقا على سمت هذا الجبل الذي يلي قصرك يعني الرملة فدعا المنصور
شرطيه الخاص به فقال له جئني بمشيخة أهل الرملة الساعة فمضى وجاءهم سريعا فأمرهم
بالبحث عمن غير حال الاقلال منهم سريعا وانتقل عن الاضاقة دون تدريج فتناظروا
في ذلك ثم قالوا يا مولانا ما نعلم الا رجلا من ضعفائنا كان يعمل هو وأولاده بأيديهم
ويتناولون السقي بأقدامهم عجزا عن شراء دابة فابتاع اليوم دابة واكتسى هو وولده
كسوة متوسطة فأمر باحضاره من الغد وأمر التاجر بالغدو الى الباب فحضر الرجل بعينه
بين يدي المنصور فاستدناه والتاجر حاضر وقال له سبب ضاع منا وسقط اليك ما فعلت به
قال هو ذا يا مولاي وضرب بيده الى حجزة سراويله فأخرج الصرة بعينها فصاح التاجر طربا
وكاد يطير فرحا فقال له المنصور صف لي حديثها فقال بينا أنا أعمل في جناني تحت نخلة اذ
سقطت أمامي فأخذتها وراقني منظرها فقلت ان الطائر اختلسها من قصرك لقرب الجوار
فاحترزت بها ودعتني فاقتي الى أخذ عشرة مثاقيل عيونا كانت معها مصرورة وقلت أقل
ما يكون في كرم مولاي أن يسمح لي بها فأعجب المنصور ما كان منه وقال للتاجر خذ صرتك
وانظرها واصدقني عن عددها ففعل وقال وحق رأسك يا مولاي ما ضاع منها شيء سوى

الدنانير التي ذكر ما بيده وهبها له فقال له المنصور نحن أولى بذلك منك ولا يعترض عاملك فيرسل
ولولا حجبه عن الاضرار والاجرار لكان تركه مؤخرا عليه ثم أمر للتاجر بعشر دنانير عوضا
من دنانيره وللعامل بعشر دنانير ثوابا لثباته في صيانة ما وقع بيده وقال لو بدا لنا الاعتراف
بفضل الصبي لأوسعناه خيرا فقال ما يجد التاجر في الثناء على المنصور وقد عاوده نشاطه وقال
والله لأبثن في الأقطار عظيم ملكك ولأبينن أنك تأمر بتطهير أعمالك كما تأمر بتطهير ثيابك فلا يعمر
منك ولا تقنع ولا يؤذى جارك فضحك المنصور وقال اقصد في قولك يغفر الله لك فتعجب الناس
من تلطف المنصور في أمره وحيائه في مزج كرمه *(ومن ذلك) غزوة المنصور لمدينة
شنت ياقب قاصية غليسية وأعظم مشاهد النصارى الكائنة ببلاد الأندلس وما يتصل بها من
الأرض الكبيرة وكانت كنيستها عندهم بمنزلة الكعبة عندنا وللكعبة المثل الأعلى فبها
يحلفون وإليها يحجون من أقصى بلاد رومة وما وراءها ويزعمون أن القبر المزور فيها قبر
ياقب الحواري أحد الاثني عشر وكان أخصهم بعيسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام
وهم يسمونه أخاه للزومه إياه وياقب بلسانهم يعقوب وكان أسقفا ببيت المقدس فجعل
يستقري الأرضين داعيا لمن فيها حتى انتهى إلى هذه القاصية ثم عاد إلى أرض الشام فمات
بها وله مائة وعشرون سنة شمسية فاحتمل أصحابه رمته فدفنوها بهذه الكنيسة التي كانت
أقصى أثره ولم يطمع أحد من ملوك الإسلام في قصدها ولا الوصول إليها لصعوبة مدخلها
وخشونة مكانها وبعد شقتها فخرج المنصور إليها من قرطبة غازيا بالصائفة يوم السبت لست
بقين من جمادى الآخرة سنة سبع وثمانين وثلاثمائة وهي غزوته الثامنة والأربعون
ودخل على مدينة قورية فلما وصل إلى مدينة غليسية وافاه عدد عظيم من القوامس
المتمسكين بالطاعة في رجالهم وعلى أتم احتفالهم فصاروا في عسكر المسلمين وركبوا في المغاور
سبيلهم وكان المنصور تقدم في إنشاء أسطول كبير في الموضع المعروف بقصر أبي دانس من
ساحل غرب الأندلس وجهزه برجاله البحريين وصنوف المترجلين وحمل الأقوات والأطعمة
والعدد والأسلحة استظهارا على نفوذ العزيمة إلى أن خرج بموضع برتقال على نهر دويره
فدخل في النهر إلى المكان الذي عمل المنصور على العبور منه فعقد هنالك من هذا الأسطول
جسرا بقرب الحصن الذي هنالك ووجه المنصور ما كان فيه من الميرة إلى الجند فتوسعوا
في التزود منه إلى أرض العدو ثم نهض منه يريد شنت ياقب فقطع أرضين متباعدة الأقطار
وقطع بالعبور عدة أنهار كبار وخلجان يمدها البحر الأخضر ثم أفضى العسكر بعد ذلك إلى
بسائط جليلة من بلاد فرطارس وما يتصل بها ثم أفضى إلى جبل شامخ شديد الوعر لا مسلك
فيه ولا طريق ولم يهتد الأدلاء إلى سواه فقدم المنصور الفعلة بالحديد لتوسعة شعابه
وتسهيل مسالكه فقطعه العسكر وعبروا بعده وادي منيه وانبسط المسلمون بعد ذلك
في بسائط عريضة وأرضين أريضة وانتهت مغيرتهم إلى دير قسطان وبسيط بلنبو على البحر المحيط
وفتحوا حصن شنت بلايه وغنموه وعبروا سباحة إلى جزيرة من البحر المحيط لجأ إليها خلق
عظيم من أهل تلك النواحي فسبوا من فيها ممن لجأ إليها وانتهى العسكر إلى جبل مراسية
المتصل من أكثر جهاته بالبحر المحيط فتخللوا أقطاره واستخرجوا من كان فيه وحازوا

غمائمه ثم أجاز المسلمون بعد هذا خليجا في معبرين أرشد الأدلاء اليهما ثم نهر أبلة ثم أفضوا
الى بسائط واسعة العمارة كثيرة الفائدة ثم انتهوا الى موضع من مشاهد ياقب صاحب
القبر تلو مشهد قبره عند النصارى في الفضل يقصده نساككهم من أقاصي بلادهم ومن
بلاد القبط والنوبة وغيرهما فغادره المسلمون قاعا وكان النزول بعده على مدينة شنت ياقب
البائسة وذلك يوم الاربعاء لليلتين خلتا من شعبان فوجدها المسلمون خالية من أهلها
فحاز المسلمون غنائمها وهدموا مصانعها وأسوارها وكنيستها وعفوا آثارها ووكل المنصور
بقبر ياقب من يحفظه ويدفع الأذى عنه وكانت مصانعها بديعة محكمة فغودرت هشيما كأن
لم تغن بالأمس وانتسفت بعد ذلك سائر البسائط وانتهت الجيوش الى مدينة شنت مانكش
منقطع هذا الصقع على البحر المحيط وهي غاية لم يبلغها قبلهم مسلم ولا وطئها لغير أهلها قدم ولم
يكن بعدها للخيل مجال ولا وراءها انتقال وانكفأ المنصور عن باب شنت ياقب وقد بلغ غاية
لم يبلغها مسلم قبله فجعل في طريقه القصد على عمل برمند بن اردون يستقريه عائثا ومفسدا
حتى وقع في عمل القوامس المعاهدين الذين في عسكره فأمر بالكف عنها ومر مجتازا حتى
خرج على حصن بليقية من افتتاحه فأجاز هنالك القوامس بجملتهم على أقدارهم وكساهم
وكسا رجالهم وصرفهم الى بلادهم وكتب بالفتح من بليقية وكان مبلغ ما كساه في غزاته هذه
لملوك الروم ولمن حسن غناؤه من المسلمين ألفين ومائتين وخمسا وثمانين شقة من صنوف الخز
الطرازي واحدى وعشرين كساء من صوف البحر وكساءين عنبريين وأحد عشر سقلاطونا
وخمس عشرة مريشا وسبعة أنماط ديباج وثوبي ديباج رومي وفروي فنك ووافى جميع
العسكر قرطبة غانما وعظمت النعمة والمنة على المسلمين ولم يجد بشنت ياقب الا شيخا من
الرهبان جالسا على القبر فسأله عن مقامه فقال أونس يعقوب فأمر بالكف عنه قال وحدث
شعلة قال قلت للمنصور ليلة طال سهره فيها قد أفرط مولانا في السهر وبدنه يحتاج الى أكثر
من هذا النوم وهو أعلم بما يحركه عدم النوم من علة العصب فقال يا شعلة الملك لا ينام
اذا نامت الرعية ولو استوفيت نومي لما كان في دور هذا البلد العظيم عين نائمة انتهى ما نقلته
من الكتاب المذكور * وقد رأيت أن أذكر هنا أخبارا نقلتها من كتاب الأزهار المنثورة
في الأخبار المأثورة * (قال في الزهرة التاسعة والعشرين) تقدم الى المنصور واترمار بن أبي
بكر البربري والى أحد جنود المغاربة وقد جلس للعرض والتمييز والميدان غاص بالناس
فقال له بكلام يضحك الثكلى يا مولاي مالي ولك أسكني فاني في العرض فقال وماذا لك
يا واترمار وأين دارك الواسعة الأقطار فقال أخرجتني عنها والله نعمتك أعطيتني من الضياع
ما انصب علي منها من الأطعمة ما ملأ بيوتي وأخرجني عنها وأنا بربري مجوع حديث عهد
بالبؤس أتراني أبعد القمح عني ليس ذلك من رأيي فتطلق المنصور وقال لله درك من مدع
لعيك في شكر النعمة أبلغ عندنا وآخذ بقلوبنا من كلام كل أشدق متزيد وبليغ متفيهق وأقبل
على من حوله من أهل الأندلس فقال يا أصحابنا هكذا فلتشكر الأيادي وتستدام النعم
لا ما أنتم عليه من الجحد اللازم والتشكي المبرح وأمر له بأفضل المنازل الخالية
* (وفي الموفية ثلاثين) ما نصه أصبح المنصور صبيحة أحد وكان يوم راحته للخدمة الذي

أعدوا منه بن عبد الله في مطاردا لعب أيام مقيله فقال هذا يوم لا عهد عليه ولا شك له
للمرابطين لعصيان مكانه فليت شعري هل عند أحد منهم عن التقرير فأعرب في التكرير
أمرج وتأمل قوله فلما جاء خرج وعاد إليه صاحبه وقال يا مولاي على الباب ألا إنه من
البراز أبو العباس بن صالح وأصحاب معه وهم بحال من البلل أبعد يوصف بالمشاهدة فقال
أوصلهم إلي وعجل وقد دخلوا عليه بحال المادح لا يوجد وأدنى مجلسهم وقال
خبروني كيف جئتم وعلى أي حال وصلتم وقد استكان كل ذي روح في كنه ولاذ كل طائر
بوكره فقال له أبو العباس يا مولانا ما لبس كل التجار معذبين سوءه وإذا عسر التجار
على طلب الربح بالفلوس فنحن أجدر بأن ندرك بها الرؤوس إلا وهم
شاربون الأدوات على أعدائهم ويدبون في قصدها مائتهم ومن يأتيك على حال
ويدل على ضوء أنها لا يشذ ويخل الفضل في قصدك منهم بأنه إذا له أولى طمعا وربما
قرب لنا أن نخلص عن سوء مشاهده فضحك المنصور ودعا بالكسا والصلات وفرقت عليهم
وانصرفوا مسرورين بعددهم * (وفي الزهر الرابعة والأربعين) ما نصه كان بقرطبة
على عهد الحاجب المنصور محمد بن أبي عامر فتى من أهل الأدب قد رقت حاله في الطلب
فتعلق بكتاب العمل واحتاف إلى الخزانة فلحقه من الأعمال فاستهلك كثيرا من
المال فلما ضم إلى الحساب أثر عليه ثلاثة آلاف دينار رفع خبره إلى المنصور فأمر
بإحضاره فلما مثل بين يديه وألزم الإقرار بما أثر عليه قال له يا فاسق ما الذي جرأك على مال
السلطان تنتهبه فقال قضاء غلب الرأي وفقر أفسد الأمانة فقال المنصور والله لأجعلنك
نكالا لغيرك هاتوا كبلا وحدادا فحضر فكبل الفتى وقال احملوه إلى السجن وأمر الضابط
بإحضاره والشد عليه فلما قام أنشد يقول

أوّاه أوّاه وكم ذا أرى * أكثر من تكرار أوّاه
ما للأمرى حول ولا قوة * الحول والقوة لله

فقال المنصور ردوه فلما رد قال أعد ما قلت قال فقال حلوا عنه كبله فلما حل
عنه أنشأ يقول

أما ترى عفو أبي عامر * لا بد أن تتبعه منه
كذلك الله إذا ما عفا * عن عبد أدخله الجنة

فأمر بإطلاقه وسوغه ذلك المال وأبرأه من التبعة فيه * (وفي الخامسة والأربعين) عرض
على المنصور بن أبي عامر اسم أحد خدمه في جملة من طال حبسه وكان شديد الحقد عليه
فوقع على اسمه بأن لا سبيل إلى إطلاقه حتى يلحق بأمه الهاوية وعرف الرجل شدة وقعه
فأهم واغتم وأجهد نفسه في الدعاء والمناجاة فأرق المنصور إثر ذلك واستدعى النوم فلم
يقدر عليه وكان يأتيه عند نومه آت كريه الشخص عنيف الأخذ يأمره بإطلاق الرجل
ويتوعده على حبسه واستدفع شأنه مرارا إلى أن علم أنه نذير من ربه فاستسلم لأمره ودعا
بالدواة في مرقده فكتب بإطلاقه وقال في كتابه هذا طليق الله على رغم أنف ابن أبي عامر
وتحدث الناس زمانا بما كان منه * (وفي السادسة والأربعين) ما نصه أسهب فيه المنصور بن

أبي عامر وبسطه للجند واستخدام ذكور الرجال وقوّام الملك الى غاية لم يصلها ملك قبله
فكانت مواقفهم في الميدان على احتفاله مثلا في الاطراق حتى ان الخيل لتمثل اطراق
فرسانها فلا تكثر الصهيل والحمحمة ولقد وقعت عينه على بارقة سيف قد سله بعض الجند
بأقصى الميدان لهزل أوجد بحيث ظن أن لحظ المنصور لا يناله فقال عليّ بشاهر السيف
فمثل بين يديه لوقته فقال ما حملك على أن شهرت سيفك في مكان لا يشهر فيه الا عن اذن
فقال اني أشرت به الى صاحبي مغمدا فذلق من غمده فقال ان مثل هذا لا يسوغ بالدعوى
وأمر به فضربت عنقه بسيفه وطيف برأسه ونودي عليه بذنبه *(وفي السابعة والاربعين)
ان المنصور كان به داء في رجله واحتاج الى الكي فأمر الذي يكويه بذلك وهو قاعد
في موضع مشرف على أهل مملكته فجعل يأمر وينهى ويفري الفري في أموره ورجله
تكوى والناس لا يشعرون حتى شموا رائحة الجلد واللحم فتعجبوا من ذلك وهو غير مكترث
*(وأخباره رحمه الله تعالى) تحتمل مجلدات فلتمسك العنان على أنا ذكرنا في الباب
الرابع والسادس من هذا الكتاب جملة من أخباره رحمه الله تعالى فلتراجع الى آخره
*(وفي الثامنة والاربعين) وكان مما اعين به المنصور على المصحفي ميل الوزراء اليه
وايثارهم له عليه وسعيهم في ترقيه وأخذهم بالعصبية فيه فانها وان لم تكن حمية أعرابية
فقد كانت سلفية سلطانية يقتفي القوم فيها سبيل سلفهم ويحملون بها استدال شرفهم
غادروها سيرة وتخلقوها عادة أثيرة تشاح الخلف فيها تشاح سلفهم أهل الديانة
وصانوا بها مراتبهم أعظم صيانة ورأوا ان أحدا لا يلحق بها غاية ولا يتعاقد لها راية فلما
اصطفى الحكم المستنصر بالله جعفر بن عثمان واصطنعه ووضعه من أثرته حيث
وضعه وهو ربيع بينهم ونابع فيهم حسدوه وذموه وخصوه بالمطالبة وعموه وكان أسرع
صنف الطائفة من أعالي الوزراء وأعاظم الدولة على معاودة المنصور عليه والانحراف عنه
آل أبي عبدة وآل شهيد وآل فطيس من الخلفاء وأصحاب السدانة من اولي الشرف
والامانة وكانوا في الوقت ارتمة الملك وقوّام الخدمة ومصابيح الامة وأغير الخلق على جاه
وحرمة فأخطوا محمد بن أبي عامر مشايعة وبعض أسبابه الجامعة متابعة وشادوا ابناءه
وقادوا الى عنصره سناءه حتى بلغ الامل والتحف بنماءه واكتحل وعند التئام هذه
الامور لابن أبي عامر استكان جعفر بن عثمان للحادثة وأيقن بالنكبة وزوال الحال
وانتقال الرتبة وكف عن اعتراض محمد وشركته في التدبير وانقبض الناس من الرواح
اليه والتبكير وانثالوا على ابن أبي عامر فخف موكبه وغار من سماء العز كوكبه وتوالى
عليه سعي ابن أبي عامر وطلبه الى أن صار يغدو الى قرطبة ويروح وليس بيده من الحجابة
الا اسمها وابن أبي عامر مشتمل على رسمها حتى محاه وهتك ظله وأضحاه قال ابن
اسماعيل رأيته يساق الى مجلس الوزارة للمحاسبة راجلا فأقبل يدرم وجوارحه
باللواعج تضطرم ووائق الضاغط ينهره والربع يقهره والبهر والنفس قد هاضاه
وقصر احطاه فسمعته يقول رفقا بي فستدرك ما تحبه وتشتهيه وترى ما كنت ترتجيه
ويا ليت أن الموت يباع فأغلى سومه حتى يرده من اطال عليه حومه

من هشام المؤيد أن يوليه عهده فأجابه وأحضر لذلك الملأ من أرباب الشورى وأهل
الحل والعقد فكان يوما مشهودا وكتب عهده من انشاء أبي حفص بن برد بما نصه
هذا ما عهد به هشام المؤيد بالله أمير المؤمنين الى الناس عامة وعاهد الله عليه من نفسه
خاصة وأعطى به صفقة يمينه بيعة تامة بعد أن أمعن النظر وأطال الاستخارة وأهمه
ما جعل الله اليه من الامامة وعصب به من أمر المؤمنين واتقى حلول القدر بما لا يؤمن
وخاف نزول القضاء بما لا يصرف وخشي ان هجم محتوم ذلك عليه ونزل مقدوره به ولم يرفع
لهذه الامة علما تأوي اليه وملجأ تنعطف عليه أن يكون يلقى ربه تبارك وتعالى مفرطا
ساهيا عن أداء الحق اليها ونقص عند ذلك من احياء قريش وغيرها من يستحق أن يسند
هذا الامر اليه ويعول في القيام به عليه ممن يستوجبه بدينه وأمانته وهديه وصيانته
بعد اطراح الهوى والتحري للحق والزلفى الى الله جل جلاله بما يرضيه وبعد أن قطع
الاواصر وأسخط الاقارب فلم يجد أحدا أجدر أن يوليه عهده ويفوض اليه الخلافة
بعده لفضل نفسه وكرم خيمه وشرف مرتبته وعلو منصبه مع تقاه وعفافه ومعرفته
وحزمه من المأمون الغيب الناصح الجيب أبي المطرف عبد الرحمن بن المنصور أبي عامر محمد
ابن أبي عامر وفقه الله اذ كان أمير المؤمنين أيده الله تعالى قد ابتلاه واختبره ونظر في شأنه
واعتبره فرآه مسارعا في الخيرات سابقا في الحلبات مستوليا على الغايات جامعا
للمأثرات ومن كان المنصور أباه والمظفر أخاه فلا غرو أن يبلغ من سبل البر مداه ويحوي
من خلال الخير ما حواه مع ان أمير المؤمنين أيده الله بما طالع من مكنون العلم ووعاه من
مخزون الاثر يرى أن يكون ولي عهده القحطاني الذي حدث عنه عبد الله بن عمرو بن
العاصي وأبو هريرة ان النبي صلى الله عليه وسلم قال لا تقوم الساعة حتى يخرج رجل من
قحطان يسوق الناس بعصاه فلما استوى له الاختبار وتقابلت عنده فيه الآثار ولم يجد
عنه مذهبا ولا الى غيره معدلا خرج اليه من تدبير الامور في حياته وفوض اليه الخلافة
بعد وفاته طائعا راضيا مجتهدا وأمضى أمير المؤمنين هذا وأجازه وأنجزه وأنفذه ولم يشترط
فيه مثنوية ولا خيارا وأعطى على الوفاء به في سره وجهره وقوله وفعله عهد الله وميثاقه
وذمة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم وذمم الخلفاء الراشدين من آبائه وذمة نفسه أن لا يبدل
ولا يغير ولا يحول ولا يزول وأشهد الله على ذلك والملائكة وكفى بالله شهيدا وأشهد وهو
جائز الامر ماضي القول والفعل بمحضر من ولي عهده المأمون أبي المطرف عبد الرحمن بن
المنصور وفقه الله تعالى وقبوله ما قلده والزامه نفسه ما ألزمه وذلك في شهر ربيع الاول
سنة ثمان وتسعين وثلثمائة وكتب الوزراء والقضاة وسائر الناس شهاداتهم بخطوط أيديهم
وتسمى بعدها بولي العهد * ونقم عليه أهل الدولة ذلك فكان فيه حتفه وانقراض دولته
ودولة قومه وكان أسرع الناس كراهة لذلك الامويون والقرشيون فغصوا بامره واسفوا
من تحويل الامر جملة من المضرية الى اليمنية فاجتمعوا لشأنهم وتمشت من بعض الى
بعض رجالاتهم وأجمعوا أمرهم في غيبة من المذكور ببلاد الجلالقة في غزاة من صوائفه
ووثبوا بصاحب الشرطة فقتلوه بمقعده من باب قصر الخلافة بقرطبة سنة تسع وتسعين

وثلاثمائة وخلعوا هشاما المؤيد وبايعوا محمد بن هشام بن عبد الجبار ابن أمير المؤمنين الناصر
لدين الله من أعقاب الخلفاء ولقبوه المهدي بالله وطار الخبر الى عبد الرحمن الحاجب
ابن المنصور بمكانه من الثغر فانفض جمعه ووصل الى القصر مدلا بمكانه رعيا لصنيعته في
اذا دخل في القصر تسلل عنه الناس من الجند ووجوه البربر ولحقوا بقرطبة وبايعوا
المهدي القائم بالأمر وأغروه بعبد الرحمن الحاجب لكونه ما جاء مستمرا غير صالح
للأمر فاعترضه منهم من قبض عليه واحتز رأسه وحمله الى المهدي والى الجماعة وذهب
دولة العامريين كأن لم تكن ولله عاقبة الأمور وفي المهدي يقول بعضهم

قد قام مهدينا ولكن * بملة الفسق والمجون
وشارك الناس في حريم * لولاه ما زال بالمصون
من كان من قبل ذا أجما * فالقوم قد صار ذا قرون

وكان رؤساء البربر وفتيانه قد نبذوا الى المهدي لما رأوا من سوء تدبير عبد الرحمن واضطراب أمره
وكانت الأمور بعد على ما كان في مظاهرتهم العامريين وبسبب تغلب المنصور وغيره
على الدولة التي خرجت عليهم القلوب وخزرتهم العيون ولولا ما لهم في العصبة لاستأصلهم
الناس ولقيت ألسنة الدهماء من أهل المدينة بنكرانهم وأمر المهدي أن لا يركبوا
ولا يتسلحوا ورد بعض رؤسائهم في بعض الأيام من باب القصر فانتهبت العامة دورهم
وشكا بعضهم الى المهدي ما أصابهم فاعتذر وقتل من اتهم من العامة في أمرهم
وهو مع ذلك مقاطع لهم مجاهر بسوء النيات عليهم وبلغهم أنه يريد الفتك بهم فتمشت
رجالاتهم وأمراؤهم وأعاظمهم واشتوروا في تقديم هشام بن سليمان ابن أمير المؤمنين الناصر
وفشا في الخاصة حديثهم فتحاملوا على إمامهم ذلك وأغرى بهم السواد الأعظم فثاروا بهم
وأزعجوهم عن المدينة وقبض على هشام وأخيه أبي بكر وأحضرا بين يدي المهدي
فضرب أعناقهما ولحق سليمان ابن أخيهما الحكم بجموع البربر وقد اجتمعوا بظاهر قرطبة
وتوامروا فبايعوه ولقبوه المستعين بالله ونهضوا الى ثغر طليطلة فاستجاش بابن أذفونش
ثم نهض في جموع البرابرة والنصرانية الى قرطبة وبرز اليه المهدي في كافة أهل البلد
وخاصة الدولة فكانت الدائرة عليهم واستلحم منهم ما يزيد على عشرين ألفا وهلك من خيار
الناس وأئمة المساجد وسدنتها ومؤذنيها عالم ودخل المستعين قرطبة ختام المائة الرابعة
ولحق المهدي بطليطلة واستجاش بابن أذفونش ثانية فنهض معه الى قرطبة وهزم المستعين
والبرابر بعقبة البقر من ظاهر قرطبة ودخل قرطبة أيضا المهدي وملكها وخرج المستعين
مع البربر وتفرقوا في البسائط ينهبون ولا يبقون على أحد ثم ارتحلوا الى الجزيرة الخضراء
فخرج المهدي ومعه ابن أذفونش لاتباعهم فكروا عليهم فانهزم المهدي وابن أذفونش
ومن معه من المسلمين والنصارى واتبعهم المستعين الى قرطبة فأخرج المهدي هشاما
المؤيد للناس وبايع له وقام بأمر حجابته طامعا أن ذلك ينفعه فهيهات وحاصرهم المستعين
والبربر وضيقوا على أهل قرطبة من أجل ذلك ثم علمهم فثاروا أهل القصر وحاشية المؤيد بالمهدي
وأن الفتنة إنما أتت من قبله وتولى كبر ذلك واضح العامري فقتلوا المهدي واجتمع

الكافة على المؤيد وقام واضح بحجابته واستمر الحصار ولم يغن عن أهل قرطبة ما فعلوه شيأ الى أن هلكت القرى والبسائط بقرطبة وعدمت المرافق وجهدهم الحصار وبعث المستعين الى أهل ادفونش يستعديهم لمظاهرته فبعث اليهم هشام وحاجبه واضح يكفونهم عن ذلك بأن ينزلوا اليهم عن ثغور قشتالة التي كان المنصور افتتحها فسكن عن مظاهرتهم عزم ادفونش ولم يزل الامر حتى دخل المستعين قرطبة ومن معه من البربر عنوة سنة ثلاث وأربعمائة وقتل هشام سرا ولحق بيوتات قرطبة معرة فى نسائهم وأبنائهم وظن المستعين أن قد استحكم أمره وتوثبت البرابرة والعبيد على الاعمال وولوا المدن العظيمة وتقلدوا البلاد الواسعة مثل باديس بن حبوس فى غرناطة والبرزالى فى قرمونة واليفرنى فى رندة وهرون فى شريش وافترق شمل الجماعة بالاندلس وصار الملك طوائف فى آخرين من أهل الدولة مثل ابن عباد باشبيلية وابن الافطس ببطليوس وابن ذى النون بطليطلة وابن أبى عامر ببلنسية وابن هود بسرقسطة ومجاهد العامرى بدانية والجزائر قال ابن خلدون وكان مائلا لمنى حمود بنحو سليمان المستعين

لا رحم الله سليمانكم * فانه ضد سليمان
ذاك به غلت شياطينها * وحل هذا كل شيطان
فباسمه ساحت على أرضنا * لهلك سكان وأوطان

*(وكان من أعظم الاسباب) فى فساد دولة المستعين انه قال هذه الابيات مستريحا بها الى خواصه وهى قوله

حلفت بمن صلى وصام وكبرا * لاغمدها فيمن طغى وتجبرا
وأبهر دين الله تحيا رسومه * فيبدل ما قد كان منه وغيرا
فواعجبا من عبشمى مملك * برغم العوالى والمعالى تبربرا
فلو أن أمرى بالخيار نبذتهم * وحاكمتهم للسيف حكما مزررا
فاما حياة تستلذ بفقدهم * واما حمام لا يرى فيه مأررا

وقد سلك هذا المسلك المرتضى المروانى فقال

قد بلغ البربر فينا بنا * ما أفسد الاحوال والنظما
كالسهم للطائر لولا الذى * فيه من الريش لما أصمى
قوموا بنا فى شأنهم قومة * تزيل عنا العار والرغما
اما بها علك أولا ترى * ما يرجع الطرف به أعمى

وكان على بن حمود الحسنى وأخوه قاسم من عقب ادريس ملك فارس وبانيها قد أجازوا مع البربر من العدوة الى الاندلس فدعوا لانفسهم واعصوصب عليهم البربر فملكوا قرطبة سنة سبع وأربعمائة وقتلوا المستعين ومحوا ملك بنى أمية واتصل ذلك فى خلف منهم سبع سنين ثم رجع الملك الى بنى أمية وكان المستعين المذكور أديبا بليغا ومن شعره يعارض هرون الرشيد فى قوله ملك الثلاث الآنسات عنانى الابيات قوله

عجبا يهاب الليث حد سنانى * وأهاب لحظ فواتر الاجفان

ويقال انه قتل غيلة وهلك حسن مسموما بيد ابنة عمه ادريس ثارت منه بأخيها وكان ادريس بن يحيى المعتلى معتقلا بمالقة فأخرج بعد خطوب وبويع بها فأطاعته غرناطة وقرمونة ولقب العالى وهو الممدوح بالقصيدة المشهورة بالمغرب التى قالها فيه أبو زيد عبد الرحمن بن مقانا الاشبونى من شعراء الذخيرة وهى

ألبرق لائح من أندرين * ذرفت عيناك بالماء المعين
لعبت أسيافه عارية * كمخاريق بأيدى اللاعبين
ولصوت الرعد زجر وحنين * ولقلبى زفرات وأنين
وأنا جى فى الدجى عاذلتى * ويك لا أسمع قول العاذلين
عيرتنى بسقام وضنى * ان هذين لدين العاشقين
قد بدا لى وضح الصبح المبين * فاسقنيها قبل تكبير الاذين
اسقنيها مزة مشمولة * لبثت فى دنها بضع سنين
نسترالمزج على مفرقها * دررا عامت فعادت كالبرين
مع فتيان كرام نجب * يتهادون رياحين المجون
شربوا الراح على خد رشا * نور الورد به والياسمين
وجلت آياته ظاهرة * سبج الشعر على عاج الجبين
لون الصدغ على حاجبه * ضمة اللام على عطفة نون
فترى غصنا على دعص نقا * وترى ليلا على صبح مبين
وسيسقون اذا ما شربوا * بأباريق وكأس من معين
ومصابيح الدجى قد طفئت * فى بقايا من سواد الليل جون
وكأن الطل مسك فى الثرى * وكأن الطل در فى الغصون
والندى يقطر من نرجسه * كدموع أسكبتهن الجفون
والثريا قد هوت من أفقها * كقضيب زاهر من ياسمين
وانبرى جنح الدجى عن صبحه * كغراب طار عن بيض كنين
وكأن الشمس لما أشرقت * فانثنت عنها عيون الناظرين
وجه ادريس بن يحيى بن على بن حمود أمير المؤمنين
ملك ذو هيبة لكنه * خاشع لله رب العالمين
خط بالمسك على أبوابه * ادخلوها بسلام آمنين
فاذا ما رفعت راياته * خفقت بين جناحى جبرئين
واذا أشكل خطب معضل * صدع الشك بمصباح اليقين
فيسراه يسار المعسرين * ويمناه لواء السابقين
يابنى أحمد ياخير الورى * لأبيكم كان وفد المسلمين
نزل الوحى عليه فاحتبى * فى الدجا فوقهم الروح الأمين
خلقوا من ماء عدل وتقى * وجميع الناس من ماء وطين

قوله من ماء مهين

وعاتبه أيضا بقوله

اذا كان مثلى لايجازى بصبره * فمن ذا الذى بعدى يجازى على الصبر
وكم مشهد جاريت فيه عدوّكم * وأغلبت فى حربى له راحة الدهر
أخوض الى أعدائكم لجج الوغى * وأسرى اليهم حيث لا أحد يسرى
وقد نام عنهم كل مستبطن الحشى * أكول الى الممسى نؤوم الى الظهر
فما بال هذا الامر أصبح ضائعا * وأنت أمين الله تحكم فى الامر

وسيأتى ان شاء الله تعالى من كلام الوزير المذكور مايدل على عظيم قدره وهاالنذكر تحلية الفتح له ثم سار عليه لشهرين من خلافته محمد بن عبد الرحمن بن عبيد الله ابن أمير المؤمنين الناصر لدين الله فاتبعه الغوغاء وفتك بالمستظهر وتلقب بالمستكفى واستقل بأمر قرطبة وهو والد الاديبة الشهيرة ولادة واعلنا نلم ببعض أخبارها ان شاء الله تعالى فيما بعد وكان أبو عبد الرحمن قتله المنصور بن أبى عامر لسعيه فى الخلافة ثم بعد ستة عشر شهرا من بيعة المستكفى رجع الامر الى المعتلى يحيى بن علىّ بن حمود سنة ست عشرة وخلع أهل قرطبة المستكفى وولى عليهم المعتلى من قبله وفرّ المستكفى الى ناحية الثغر فمات فى فرّه ثم بدا لاهل قرطبة فخلعوا المعتلى بن حمود سنة سبع عشرة وبايع الوزير أبو محمد جهور بن محمد بن جهور عميد الجماعة وكبير قرطبة لهشام بن محمد أخى المرتضى وكان بالثغر فى لاردة عند ابن هود وذلك سنة ثمان عشرة وتلقب المعتمد بالله وأقام متردّدا فى الثغر ثلاثة أعوام واشتدّت الفتن بين رؤساء الطوائف واتفقوا على أن ينزل دار الخلافة بقرطبة فاستقدمه ابن جهور والجماعة ونزل آخر سنة عشرين وأقام بها يسيرا ثم خلعه الجند سنة ثنتين وعشرين وفرّ الى لاردة فهلك بها سنة ثمان وعشرين وانقطعت الدولة الاموية من الارض وانتثر سلك الخلافة بالمغرب وقام الطوائف بعد انقراض الخلائف وانتزى الامراء والرؤساء من البربر والعرب والموالى بالجهات واقتسموا خطتها وتغلب بعض على بعض واستقل أخيرا بأمرها منهم ملوك استفحل أمرهم وعظم شأنهم ولاذوا بالجزى للطاغية أن يظاهر عليهم أو يبتزهم ملكهم وأقاموا على ذلك برهة من الزمان حتى قطع عليهم البحر ملك العدوة وصاحب مراكش أمير المسلمين يوسف بن تاشفين اللمتونى فخلعهم وأخلى منهم الارض فمن أشهرهم بنو عباد ملوك اشبيلية فى غرب الاندلس الذين منهم المعتمد بن عباد الشهير الذكر بالمغرب والمشرق وفى الذخيرة والقلائد من أخباره ماهو كاف شاف ومنهم بنو جهور وكانوا بقرطبة فى صورة الوزارة حتى استولى عليهم المعتمد بن عباد وأخذ قرطبة وجعل عليها ولده ثم كانت له وعليه حروب وخطوب وفرّق أبناءه على قواعد الملك وأنزلهم بها واستفحل أمره بغرب الاندلس وعلت يده على من هنالك من ملوك الطوائف مثل ابن باديس بغرناطة وابن الافطس ببطليوس وابن صمادح بالمرية وغيرهم فكانوا يخطبون سلمه ويغلون فى مرضاته وكلهم يدارون الطاغية ويتقونه بالجزى الى أن ظهر يوسف بن تاشفين واستفحل ملكه فتعلقت آمال الاندلس باعانته وضايقهم الطاغية فى طلب الجزية فقتل المعتمد اليهودى الذى جاء فى طلب الجزية للطاغية بسبب كلمة قالها أسمعه بها ثم أجاز البحر صريخا الى يوسف بن تاشفين فأجاز

فيه النصر والتقوا مع الطاغية في الزلاقة فكانت الهزيمة المشهورة على النصارى ونصر الله
تعالى الاسلام نصراً لا كفاء له حتى قال بعض المؤرخين انه كان عدد النصارى ثلثمائة
ألف ولم ينج منهم الا القليل وصيرها المعتمد قصر الكرام وكان قد أعطى يوسف بن تاشفين
الجزيرة الخضراء ليتمكن بها من الجواز متى شاء ثم طلب الفقهاء بالاندلس من يوسف بن تاشفين
رفع المكوس والظلامات عنهم فتقدم بذلك الى ملوك الطوائف فأجابوا بالامتثال حتى
اذا رجع من بلادهم رجعوا الى حالهم وهو خلال ذلك يردد عساكر للجهاد ثم سار اليهم
وخلع جميعهم وملكت عساكره جميع بلادهم واستولى على قرطبة واشبيلية وبطليوس
وغرناطة وغيرها وصار المعتمد بن عباد كبير ملوك الاندلس في قبضته أسيرا بعد حروب
ونقله الى أغمات قرب مراكش سنة أربع وثمانين وأربعمائة وأقام بها الى أن مات
سنة ثمان وثمانين وسلم عليه الوزير لسان الدين بن الخطيب فيه لما زار قبره وللمعتمد
عدة أخبار تؤثر خصوصا مع زوجته أم أولاده الرميكية الملقبة باعتماد وقد روي أنها
رأت ذات يوم باشبيلية نساء البادية يبعن اللبن في القرب وهنّ رافعات عن سوقهنّ في الطين
فقالت له: اشتهي أن أفعل أنا وجواريّ مثل هؤلاء النساء فأمر المعتمد بالعنبر
والمسك والكافور وماء الورد وصيّر الجميع طينا في القصر وجعل لها قربا وحبالا من ابريسم
وخرجت هي وجواريها تخوض في ذلك الطين فيقال انه لما خلع وكانت تكلمه مرة
جرى بينهما ما يجري بين الزوجين فقالت له: والله ما رأيت منك خيرا فقال لها: ولا يوم الطين
تذكيرا لها بهذا اليوم الذي أباد فيه من الأموال ما لا يعلمه الا الله تعالى فاستحيت وسكتت
وولي بعده عمر بن ... وبنو رزين أصحاب السهلة وبنو الفهري أصحاب البونت وتغلب
عليهما أمير يوسف بن تاشفين * ومن أعظم ملوك الطوائف بنو ذي النون ملوك طليطلة
من الثغر الجوفي وكانت لهم دولة كبيرة وتطاولوا الى المدح والترف الى الغاية واليهم الاعذار
المشهور الذي يقال له الاعذار الذنوني وبه يضرب المثل عند أهل المغرب وهو عندهم بمثابة
عرس بوران عند أهل المشرق والمأمون من بني ذي النون هو صاحب ذلك وهو الذي عظم
بين ملوك الطوائف سلطانه وكانت بينه وبين الطاغية مواقف مشهورة وغلب على قرطبة
وملكها من يد ابن عباد المعتمد وقتل ابنه أبا عمرو وغلب أيضا على بلنسية وأخذها من
يد ابن أبي عامر * وفي أيام حافد المأمون وهو القادر بن ذي النون كان الطاغية بن
أذفونش قد استفحل أمره لما خلا الجو من مكان الدولة الخلافية وخفّ ما كان على كاهله
من أمر العرب فاكتسح البسائط وضايق ابن ذي النون حتى أخذ من يده طليطلة فخرج له
عنها سنة ثمان وسبعين وأربعمائة كما سبق وشرط عليه أن يظاهره على أهل بلنسية
فقبل شرطه وتسلمها الفونس ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم ثم زحف على الموالي
العامريين مثل خيران وزهير وأشباههما وأخبار الجميع تطول * ومن ملوك الطوائف
بالاندلس بنو هود ملوك سرقسطة وما اليها ومن أشهرهم المقتدر بالله وابنه يوسف المؤتمن
وكان المؤتمن قائما على الامور الرياضية وله فيها تآليف ومنها كتاب الاستكمال والمناظر
وولي بعده ابنه المستعين أحمد سنة أخذ طليطلة وعلى يده كانت وقعة وشقة وكان زحف

سم

سنة تسع وثمانين فى آلاف لا تحصى من المسلمين ليدافع الطاغية عن وشقة وكان محاصرا لها فلقيه الطاغية وهزمه وهلك من المسلمين نحو عشرة آلاف وهلك هو شهيدا سنة ثلاث وخمسمائة بظاهر سرقسطة فى زحف الطاغية اليها وولى ابنه عبد الملك عماد الدولة وأخرجه الطاغية من سرقسطة سنة ثنتى عشرة وتولى ابنه سيف الدولة وبالغ فى النكاية بالطاغية ثم اتفق معه وانتقل بحشمه الى طليطلة فكان فيها حمامه * ومن شعر المقتدر بن هود قوله رحمه الله فى مبانيه

قصر السرور ومجلس الذهب * بكما بلغت نهاية الارب

لو لم يحز ملكى خلافكما * كانت لدى كفاية الطالب

ومن مشاهير ملوك بنى الافطس أصحاب بطليوس وما اليها والمظفر منهم هو صاحب التأليف المسمى بالمظفرى فى نحو الخمسين مجلدا والمتوكل منهم قتل على يد جيش يوسف بن تاشفين وفيه قال ابن عبدون قصيدته المشهورة

الدهر يفجع بعد العين بالاثر * فما البكاء على الاشباح والصور

وهى من غرر القصائد الاندلسية وأزالوا ملوك الطوائف منها وبقيت عمالهم تتردد اليها وبنوهم حتى فشلت ريحهم وهبت ريح الموحدين أعنى عبد المؤمن بن على وبنيه فحاربوا لمتونة واستولوا على ملكهم بالمغرب بعد حروب كثيرة ثم جازوا البحر الى الاندلس وملكوا أكثر بلاد الاندلس وملك بنو مردنيش شرق الاندلس وملخص ذلك أن الاندلس كان ملكها مجموعا للمتونة بعد خلعهم ملوك الطوائف فلما اشتغل لمتونة فى العدوة بحرب الموحدين اضطربت عليهم الاندلس وعادت الى الفرقة بعض الشئ ثم خلص أكثرها لعبد المؤمن وبنيه بعد حروب ومنها ما حصل بين عبد المؤمن وبين ابن مردنيش وقائده ابن همشك بفحص غرناطة وقد استعان ابن مردنيش بالنصارى على الموحدين فهزمهم عبد المؤمن وقتلهم أبرح قتلة واستخلص غرناطة سنة سبع وخمسين وخمسمائة من يد ابن مردنيش * وولى الامر بعد عبد المؤمن ابنه يوسف وأجاز الى الاندلس وكانت له مواقف فى جهاد العدو * وولى بعده ابنه يعقوب المنصور الطائر الصيت وكانت له فى النصارى بالاندلس نكاية كبيرة ومن أعظمها غزوة الارك التى تضاهى وقعة الزلاقة أو تزيد والارك موضع بنواحى بطليوس وكانت سنة احدى وتسعين وخمسمائة وغنم فيها المسلمون ما عظم قدره وكان عدة من قتل من الفرنج فيما قيل مائة ألف وستة وأربعين ألفا وعدة الاسارى ثلاثين ألفا وعدة الخيام مائة ألف وخمسين ألف خيمة والخيل ثمانين ألفا والبغال مائة ألف والحمير أربعمائة ألف جاء بها الكفار لحمل أثقالهم لانهم لا ابل لهم وأما الجواهر والاموال فلا تحصى وبيع الاسير بدرهم والسيف بنصف درهم والفرس بخمسة دراهم والحمار بدرهم وقسم يعقوب الغنائم بين المسلمين بمقتضى الشرع ونجى الفنش ملك النصارى الى طليطلة فى أسوإ حال فحلق رأسه ولحيته ونكس صليبه وآلى أن لا ينام على فراش ولا يقرب النساء ولا يركب فرسا ولا دابة حتى يأخذ بالثار وصار يجمع من الجزائر والبلاد البعيدة ويستعد ثم لقيه يعقوب وهزمه وساق خلفه الى طليطلة وحاصره ورمى عليها بالمجانيق وضيق عليها

ولم يبق إلا فتحها فخرجت أمه وابنة الأذفونش ونساؤه وبكين بين يديه وسألنه أن يبقي البلد عليهن فرق لهن ومنّ عليهن بها ووهب لهن من الأموال والجواهر ما جلّ وردهن مكرمات وعفا بعد القدرة وعاد إلى قرطبة فأقام شهرا يقسم الغنائم وجاءته رسل الفنش تطلب الصلح فصالحه وأمن الناس مدته وفيه يقول بعض شعراء عصره

أهل بأن يسعى إليه ويرتجى * ويزار من أقصى البلاد على الرجا

من قد غدا بالمكرمات مقلدا * وموشحا ومختما ومتوجا

عمرت مقامات الملوك بذكره * وتعطرت منه الرياح تأرجا

ولما أرسل له السلطان صلاح الدين بن أيوب شمس الدين بن منقذ يستنجده على الفرنج الخارجين عليه بساحل البلاد المقدسة ولم يخاطبه بأمير المؤمنين لم يجبه إلى مطلبه وكان ذلك في سنة ٥٨٧ وقد مدحه ابن منقذ بقوله من قصيد

سأشكر بحرا ذا عباب قطعته * إلى بحر جود ما لأخراه ساحل

إلى معدن التقوى إلى كعبة الندى * إلى من سمت بالذكر منه الأوائل

إليك أمير المؤمنين ولم تزل * إلى بابك المأمول تزجى الرواحل

قطعت إليك البر والبحر موقنا * بأن ندى كفيك بالنجح كافل

وحزت بقصديك العلا فبلغتها * وأدنى عطاياك العلا والفواضل

فلا زلت للعليا والجود بانيا * تبلغك الآمال ما أنت آمل

وعدتها أربعون بيتا فأعطاه بكل بيت ألفا وقال له إنما أعطيناك لفضلك ولبيتك وكان عنوان الكتاب الذي أرسله صلاح الدين إلى أمير المسلمين وفي أوله الفقير إلى الله تعالى يوسف بن أيوب وبعد من إنشاء الفاضل الحمد لله الذي استعمل على الملة الحنيفية من استعمر الأرض وأغنى من أهلها من سأله القرض وأجرى من أجرى على يده النافلة والفرض وزين سماء الملة بدراري الذراري التي بعضها من بعض وهو كتاب طويل سأله فيه أن يقطع عنه مادة الفرنج واستنجد على الإفرنج إذ كانت له اليد عليهم وعاد ابن منقذ من هذه الرسالة سنة ٥٨٨ بغير فائدة وبعث معه هدية لمصر وأما ابن منقذ فإنه أحسن إليه وأعطاه لا لأجل صلاح الدين بل لنسبه وفضله كما مر وما وقع من يعقوب في صلاح الدين أغضى لأجل أنه لم يوفه حقه في الخطاب * (رجع) ولما استعمل أمراء الموحدين بالأندلس استعملوا القرابة على الأندلس وكانوا يسمونهم السادة واقتسموا ولايتها بينهم ولهم مواقف في جهاد العدو مذكورة وكان صاحب الأمر يعقوب كثير الإتيان إلى الأندلس للجهاد وهزم به يعقوب المنصور كاسمه في وقيعة الأرك ابن أذفونش ملك الجلالقة الهزيمة الشنعاء وأجاز ابنه الناصر الوالي بعده البحر إلى الأندلس من المغرب سنة سبع وستمائة ومعه من الجنود ما لا يحصى حتى حكى بعض الثقات من مؤرخي المغرب أنه اجتمع معه من أهل الأندلس والمغرب ستمائة ألف مقاتل فمحص الله المسلمين بالموضع المعروف بالعقاب واستشهد منهم عدد وكان سبب ضعف المغرب والأندلس أما المغرب فبجلاء كثير من قراه وأقطاره وأما الأندلس فبطلب العدو عليها لا سيما لما تنازع أمر الموحدين بعد الناصر

ابن المنصور اشترى السادة بنواحي الاندلس كل في عمله وضعف ملكهم بمراكش فصاروا الى
الاستجاشة بالطاغية بعضهم على بعض واسلام حصون المسلمين اليه في ذلك فمشت رجالات
الاندلس وأعقاب العرب منذ الدولة الاموية وأجمعوا على اخراجهم فساروا به لحين واحد
واخرجوهم وتولى كبر ذلك محمد بن يوسف بن هود الجذامي الثائر بالاندلس وابن مردنيش
وثوار آخرون * وقال ابن خلدون ثم خرج على ابن هود في دولته من أعقاب دولة العرب
أيضا وأهل نسبهم محمد بن يوسف بن نصر المعروف بابن الاحمر وتلقب محمد هذا بالشيخ فجاذبه
الحبل وكانت لكل واحد منهما دولة أورثها بنيه انتهى * وكان ابن هود يخطب للعباسي
صاحب بغداد ثم حصلت لابن هود وأعقابه حروب وخطوب الى أن كان آخرهم الواثق
ابن المتوكل فضايقه الفنش والرشيد فبعث بالطاعة لابن الاحمر وبعث اليه ابن اشقيلولة
وتسلم مرسية منه وخطب لابن الاحمر بها ثم خرج منها راجعا الى ابن الاحمر فأوقع به
النصارى في طريقه ثم رجع الواثق الى مرسية ثالثة فلم يزل بها الى أن ملكها العدو من يده
سنة ثمان وستين وستمائة وعوضه عنها حصنا يسمى يسر وهو من عملها فبقي فيه الى أن هلك
وانقرضت دولة ابن هود والله وارث الارض ومن عليها (رجع) الى ذكر دولة اولاد الاحمر
لان لسان الدين وزير أحدهم ولانهم آخر ملوك الاندلس ومن يدهم استولى النصارى
على جميعها كما سنذكره وقيل أصلهم من أرجونة من حصون قرطبة ولهم فيها سلف
من أبناء الجند ويعرفون ببني نصر وينتسبون الى سعد بن عبادة سيد الخزرج وكان كبيرهم
لآخر دولة الموحدين نصر بن يوسف بن نصر ويعرف بالشيخ وأخوه اسمعيل وكانت له
وجاهة في ناحيتهم * ولما فشلت ريح الموحدين واشترى الثوار بالاندلس وأعطى السادة
حصونها للطاغية واستقل بأمر الجماعة محمد بن يوسف بن هود الثائر بمرسية بدعوة
العباسية وتغلب على شرق الاندلس أجمع فتصدى الشيخ هذا للثورة عليه وبويع له سنة
تسع وعشرين وستمائة ودعا لابي زكريا صاحب افريقية وأطاعته جيان وشريش سنة
ثلاثين بعدها واستظهر على أمره بقرابته من بني نصر وأصهاره بني اشقيلولة ثم بايع لبني
هود سنة احدى وثلاثين عندما بلغه خطاب الخليفة من بغداد ثم ثار باشبيلية أبو مروان
الباجي عند خروج ابن هود عنها ورجوعه الى مرسية فداخله محمد بن الاحمر في الصلح
على أن يزوجه ابنته فأطاعه ودخل اشبيلية سنة اثنتين وثلاثين ثم فتك بابن الباجي
فقتله وتناول البطش به علي بن اشقيلولة ثم راجع أهل اشبيلية بعدها بشهر دعوة ابن
هود وأخرجوا ابن الاحمر ثم تغلب على غرناطة سنة خمس وثلاثين بمداخلة أهلها حين ثار
ابن أبي خالد بدعوته فيها ووصلته بيعتها وهو بجيان فقدم اليها علي بن اشقيلولة ثم جاء
على أثره ونزلها وابتنى بها حصن الحمراء لنزوله ثم تغلب على مالقة ثم تناول المرية من يد
ابن الرميمي وزير ابن هود الثائر بها سنة ثلاث وأربعين ثم بايعه أهل لورقة سنة ثلاث
وستين وكان ابن الاحمر أول أمره وصل يده بالطاغية استظهارا على أمره فعضده
وأعطاه ابن هود ثلاثين حصنا في كف غربه بسبب ابن الاحمر وليعينه على ملك قرطبة
فتسلمها ثم تغلب على قرطبة سنة ثلاث وثلاثين وستمائة أعادها الله ثم نازل اشبيلية

سنة ست وأربعين وابن الأحمر معه ثم دخلها صلحا وملك أعمالها ثم هلك من سنة سبع
وستين ولم يزل الطاغية يقتطع ممالك المسلمين كورة كورة وثغرا ثغرا إلى أن ألجأ
المسلمين إلى سيف البحر ما بين رندة من المغرب إلى البيرة من شرق الأندلس نحو عشر مراحل
ثم غلظ ابن الأحمر وطمع في الاستيلاء على سائر الجزيرة فامتنعت عليه ولاذ بالأندلس
الغزاة من بني مرين وغيرهم وعقد ثانيا للمغرب يعقوب بن عبد الحق لجهاد الطاغية آلافا ثم
فأجازوا في حدود الستين وستمائة وفصل ابن الأحمر أجازهم ودفع بهم في نحر عدوهم
ورجعوا ثم تناسلوا إليه بعد ذلك ولم يزل الأمر على ذلك إلى أن هلك الشيخ ابن الأحمر
سنة إحدى وسبعين وستمائة وولي بعده ابنه محمد الفقيه وأوصاه باستصراخ بني مرين
ملوك المغرب بعد الموحدين إن طرقه أمر أن يستنجدهم فأجاز الفقيه إلى يعقوب بن عبد
الحق سلطان فاس والمغرب سنة ثنتين وسبعين فأجاب صريخه وأرسل ابنه وعساكره معه
ثم أجاز على أثره وتسلم الجزيرة الخضراء من ثائر كان بها وجعلها ركابا لجهاده ونزل إليه
ابن الأحمر عن طريف وما إليها من الحصون وهزم هو وابن الأحمر زعيم النصرانية دننه
وفرق جمعه وأوقع بعمود الطاغية من كل جهة وبث سراياه وغزواته في أرض النصرانية
ثم خاف ابن الأحمر على ملكه وصالح الطاغية ثم عاد انتهى كلام ابن خلدون ملخصا وفشل
عقب ابن الأحمر بالأندلس واستولوا على جميع ما بأيدي المسلمين من ملكها مثل الجزيرة
وطريف ورندة إلى كانت بني مرين ووقعت الكائنة على النصارى سنة سبع عشر
وسبعمائة على غرناطة وفنا فيها الطاغية دون بطر في جيش لا يحصى ومعه خمسة وعشرون
ملكا وكان من خبر هذه الوقعة أن الإفرنج حشدوا وجمعوا وذهب سلطانهم دون بطر إلى
طليطلة ودخل على مرجعهم الذي يقال له الباب وعقد له وتضرع وطلب منه استئصال
ما بقي من المسلمين بالأندلس وأكد عزمه على المسير لغرناطة وغيرها وعز على
الاستنجاد بالمريني أبي سعيد صاحب فاس وبعثوا إليه رسلا فلم ينجع ذلك الدواء فرجعوا
إلى أعظم الأدوية وهو اللجأ إلى الله تعالى وأخلصوا النيات وأقبل الإفرنج في جموع لا تحصى
فقيض ناصر من لا ناصر له سواه هزم أمم النصرانية وقتل طاغيتهم دون بطر ومن معه
وكان نصرا عزيزا ويوما مشهودا وكان السلطان إذ ذاك بالأندلس الغالب بالله
أبو الوليد إسماعيل ابن الرئيس أبي سعيد فرج بن نصر المعروف بابن الأحمر [illegible]
البلاد والثغور فلما سمع النصارى ذلك عزموا على منازلة الجزيرة الخضراء فاستعد السلطان
ابن الأحمر لردهم وجهز الأساطيل والرجال فلما رأوا ذلك طلبوا إلى طليطلة وعزموا
على استئصال المسلمين وبلادهم وتأهبوا لذلك غاية الأهبة ووصلت الأثقال والمجانيق
وآلات الحصار والأقوات في المراكب ووصل العدو إلى غرناطة وامتلأت الأرض بهم ثم
تقدم السلطان إلى شيخ الغزاة الشيخ العالم أبي سعيد عثمان بن أبي العلاء المريني بالخروج
إلى لقائهم بأنجاد المسلمين وشجعانهم فخرج إليهم يوم الخميس الموفي عشرين لربيع الأول
ولما كانت ليلة الأحد أغارت سرية من العدو على سرية من المسلمين فخرجت إليهم
جماعة من فرسان الأندلس الرماة فقطعوهم عن الجيش وقربت تلك السرية أمامهم

الى جهة سلطانهم فتبعهم المسلمون الى الصبح فاستأصلوهم وكان هذا أول النصر
ولما كان يوم الاحد ركب الشيخ أبو سعيد لقتال العدو فى خمسة آلاف من أبطال المسلمين
المشهورين فلما شاهدهم الفرنج عجبوا من اقدامهم مع قلتهم فى تلك الجيوش العظيمة
فركبوا وحملوا بجملتهم عليهم فانهزم الفرنج أقبح هزيمة وأخذتهم السيوف وتبعهم
المسلمون يقتلون ويأسرون ثلاثة أيام وخرج أهل غرناطة لجمع الاموال وأخذ الأسرى
فاستولوا على أموال عظيمة منها من الذهب فيما قيل ثلاثة وأربعون قنطارا ومن الفضة
مائة وأربعون قنطارا ومن السبي سبعة آلاف نفس حسبما كتب بذلك بعض الغرناطيين
الى الديار المصرية وكان من جملة الاسارى امرأة الطاغية وأولاده فبذلت فى نفسها مدينة
طريف وجبل الفتح وثمانية عشر حصنا فيما حكى بعض المؤرخين فلم يقبل المسلمون ذلك
وزادت عدة القتلى فى هذه الغزوة على خمسين ألفا ويقال انه هلك منهم بالوادى مثل هذا
العدد لعدم معرفتهم بالطريق وأما الذين هلكوا بالجبال والشعاب فلا يحصون وقتل الملوك
الخمسة والعشرون بجمعهم واستمر البيع فى الاسرى والاسلاب والدواب ستة أشهر
ووردت البشائر بهذا النصر العظيم الى سائر البلاد ومن العجب انه لم يقتل من المسلمين
والاجناد سوى ثلاثة عشر فارسا وقيل عشرة أنفس وقيل كان عسكر الاسلام نحو ألف
وخمسمائة فارس والرجالة نحو من أربعة آلاف راجل وقيل دون ذلك وكانت الغنيمة
تفوق الوصف وسلخ الطاغية دون بطره وحشى جلده قطنا وعلق على باب غرناطة وبقى
معلقا سنوات وطلبت النصارى الهدنة فعقدت لهم وبعد أن ملكوا جبل الفتح الذى كان
من أعمال فاس والمغرب وهو جبل طارق لم يزل بأيديهم الى أن ارتجعه أمير المسلمين
ابو الحسن المرينى صاحب فاس والمغرب بعد أن أنفق عليه الاموال وصرف اليه الجنود
والحشود ونازلته جيوشه مع ولده وخواصه وضيقوا به الى أن استرجعوه ليد المسلمين
واهتم ببنائه وتحصينه وأنفق عليه أحمال مال فى بنائه وحصنه وسوره وأبراجه وجامعه
ودوره ومحاربه ولما كاد يتم ذلك نازله العدو برا وبحرا فصبر المسلمون وخيب الله سعى
الكافرين فأراد السلطان المذكور أن يحصن سفح الجبل بسور محيط به من جميع جهاته
حتى لا يطمع عدو فى منازلته ولا يجد سبيلا للتضييق عند محاصرته ورأى الناس ذلك من
المحال فأنفق الاموال وأنصف العمال فأحاط بجموعه احاطة الهالة بالهلال وكان بقاء
هذا الجبل بيد العدو نيفا وعشرين سنة وحاصره السلطان أبو الحسن ستة أشهر وزاد
فى تحصينه ابنه السلطان أبو عنان ولما أجاز السلطان أبو الحسن المذكور الى الاندلس
واجتمع عليه ابن الاحمر وقاتلهم الطاغية هزمهم فى وقعة طريف واستولى على الجزيرة
الخضراء حتى قيض الله من بنى الاحمر الغنى بالله محمدا الذى كان لسان الدين بن الخطيب
وزيره فاسترجعها وجملة بلاد بكيان وغيرها وكانت له فى الجهاد مواقف مشهورة وامتد
ملكه حتى محا دولة سلاطين فاس مما وراء البحر وملك جبل الفتح ونصر الله الاسلام على يده
كما ستقف عليه فى بعض مكاتبات لسان الدين رحمه الله فى مواضع من هذا الكتاب وسعد
هذا الغنى بالله من العجائب وبقى ملك الاندلس فى عقبه الى أن أخذ ما بقى من الاندلس

العدو الكافر واستولى على حضرة الملك غرناطة أعادها الله للإسلام كما يريد الله إن شاء
الله وخلت جزيرة الأندلس من أهل الإسلام فأذاب من النور الظلام حسبما اقتضته
الأقدار النافذة والأحكام والله وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين قال ابن
خلدون وأبو ... والأحمر سلطان غرناطة أن يجعلوا شيخ الغزاة لواحد يكون من
أقارب بني مرين سلاطين المغرب لهم أول من ولي الأندلس عند استيلاء بني عمهم على ملك
المغرب لما بينهم من المنافسة وكان لهؤلاء في الجهاد مواقف مشهورة ومما كتب على قبر
شيخ الغزاة عثمان بن أبي العلاء ليستدل عنده بذلك على ما ذكرناه عنه رحمه الله تعالى هذا قبر
شيخ الحماة وصدر الأبطال والكماة واحد الجلالة ليث الإقدام والبسالة علم الأعلام
حامي ذمار الإسلام صاحب الكتائب المنصورة والأفعال المشهورة والمغازي
المسطورة وإمام الصفوف القائم بباب الجنة تحت ظلال السيوف سيف الجهاد
وقاصم الأعاد وأسد الآساد العالي الهمم الثابت القدم الهمام الماجد الأرضى
البطل الباسل الأمضى المقدس المرحوم أبي سعيد عثمان ابن الشيخ الجليل الهمام
الكبير الأصيل الهمام المقدس المرحوم أبي العلاء إدريس بن عبد الله بن عبد الحق كان
عمره ثمانيا وثمانين سنة أنفقها ما بين روحة في سبيل الله وغدوة حتى استوفى في المشهور
سبعمائة واثنتين وثلاثين غزوة وقطع عمره مجاهدا مجتهدا في طاعة الرب محتسبا
في إدارة الحرب ماضي العزائم في جهاد الكفار صادما بين جموعهم بدين النبي المختار وصنع
الله تعالى له فيهم من الصنائع الكبار ما سار ذكره في الأقطار أشهر من المثل السائر حتى
توفي رحمه الله وغبار الجهاد طي أثوابه وهو مراقب لطاعة الكفار وأوابه فمات على
ما عاش عليه وفي خدمة الجهاد قبضه الله تعالى إليه وأسارته بعد أمر ... وسنه
على رأس ملك الروم ... مقدمة ... والإبعاد ... وبلاد
على سنه الصالحة ... فارتجت الأندلس لفقده أسعده الله تعالى برحمة من
عنده توفي يوم الأحد الثاني لذي الحجة من عام ثلاثين وسبعمائة انتهى ومنها
ما كتبه لسان الدين بن الخطيب رحمه الله في توليته علي بن بدر الدين مشيخة الغزاة
ما نصه هذا شيخ الغزاة الذي فتح على الإسلام أبواب التيسير ... طراز المجد على عاتق
الدولة الغراء وأعمل عوامل الجهاد في طاعة رب العباد شارعة لأهل الكفر
والعناد من باب الأعمال والإغراء أمره فلان صدر صدور أوليائه وحسامه المشهور
على أعدائه ووليه الذي خبر صدق وفائه وجلى في مضمار الخلوص له مغيرا في وجوه
أكفائه شيخ شيوخ المجاهدين وقائد كتائبه المنصورة إلى غزو الكافرين والمعتدين
وعزيمته إلى تدافع عن الدين وسابق رتبة المبرورين المبادرين الشيخ الأجل إلى آخر
ما وصفه به مما أتى الوصف عن مثله والله ولي التوفيق

(الباب الرابع)

في ذكر قرطبة التي كانت الخلافة بمصرها الأعداء قاهرة وجامعها الأموي ذي البدائع

الباهية الباهره والالماع بحضرة الملك الناصرية الناصره والعامرية الزاهره ووصف جمل من منتزهات تلك الاقطار ومصانعها ذات المحاسن الباطنة والظاهره وما يجر اليه شجون الحديث من أمور تقتضى بحسن اداتها القرائح الوقادة والافكار الماهرة قال ابن سعيد رحمه الله *(مملكة قرطبة فى الاقليم الرابع واياتها للشمس وفى هذه المملكة معدن الفضة الخالصة فى قرية كرتش ومعدن الزئبق والزنجفر فى بلد بسطانسه ولاجزائها خواص مذكورة فى متفرقاتها وأرضها أرض كريمة النبات انتهى وقدم رحمه الله فى المغرب الكلام عليها على سائر أقطار الاندلس وقال انما قدمنا هذه المملكة من بين سائر الممالك الاندلسية لكون سلاطين الاندلس الاول اتخذوها سريرا لسلطنة الاندلس ولم يعدلوا عن حضرتها ثم سلاطين بنى أمية وخلفاؤهم لم يعدلوا عن هذه المملكة وتقلبوا منها فى ثلاثة أقطار أداروا فيها خلافتهم قرطبة والزهراء والزاهرة وانما اتخذوها لهذا الشان لما رأوها لذلك أهلا وقرطبة أعظم علما وأكثر فضلا بالنظر الى غيرها من الممالك لاتصال الحضارة العظيمة والدولة المتوارثة فيها ثم قسم ابن سعيد كتاب الحلة المذهبة فى حلى ممالك قرطبة بالنظر الى الكور الى أحد عشر كتابا الكتاب الاول كتاب الحلى الذهبية فى حلى الكورة القرطبية الكتاب الثانى كتاب الدرر المصونة فى حلى كورة بلكونة الكتاب الثالث كتاب محادثة السير فى حلى كورة القصير الكتاب الرابع كتاب الوشى المصور فى حلى كورة المدور الكتاب الخامس كتاب نيل المراد فى حلى كورة مراد الكتاب السادس كتاب المزنة فى حلى كورة كرنة الكتاب السابع كتاب الدر النافق فى حلى كورة غافق الكتاب الثامن كتاب النفحة الارجه فى حلى كورة استجه الكتاب التاسع كتاب الكواكب الدريه فى حلى الكورة القبريه الكتاب العاشر كتاب رقة المحبه فى حلى كورة استبه الكتاب الحادى عشر كتاب السوسانه فى حلى كورة البسانه انتهى قال رحمه الله تعالى ان العمارة اتصلت فى مبانى قرطبة والزهراء والزاهرة بحيث انه كان يمشى فيها لضوء السرج الممتدة عشرة أميال حسبما ذكره الشقندى فى رسالته ثم قال ولكل مدينة من مدن قرطبة وأعمالها ذكر يختص به ثم ذكر المسافات التى بين ممالك قرطبة المذكورة فقال بين المدور وقرطبة ستة عشر ميلا وبين قرطبة ومراد خمسة وعشرون ميلا وبين قرطبة والقصير ثمانية عشر ميلا وبين قرطبة وغافق مرحلتان وبين قرطبة واستبه ستة وثلاثون ميلا وبين قرطبة وبلكونة مرحلتان وبين قرطبة والبسانه أربعون ميلا وبين قرطبة وقبرة ثلاثون ميلا وبين قرطبة وبيانة مرحلتان وبين قرطبة واستجة ثلاثون ميلا وكورة رندة كانت فى القديم من عمل قرطبة ثم صارت من مملكة اشبيلية وهى أقرب وأدخل فى المملكة الاشبيلية انتهى (ثم قسم رحمه الله كتاب الحلة الذهبية فى حلى الكورة القرطبية الى خمسة كتب)* الكتاب الاول كتاب المغم المطربه فى حلى حضرة قرطبة الكتاب الثانى كتاب الصبحة الغراء فى حلى حضرة الزهراء الكتاب الثالث كتاب البدائع الباهرة فى حلى حضرة الزاهرة الكتاب الرابع كتاب الوردة فى حلى مدينة شقندة الكتاب الخامس كتاب الجرعة السيغة فى حلى كورة

ورعه وقال رحمه الله تعالى في كتاب النعم المتاربة في حلي حضرة قرطبة إن حضرة قرطبة
إحدى عرائس مملكتها وفي اصطلاح الكتاب أن لا يرون الكاملة إلا بستة وهي
محيطة بما يذكر المدينة في نفسها وباعتبار ما يختص بالإمامة السلطانية ومملكتها
وهو مختص بأصحاب درر الكلام من النثار والنظام وحلة وهي مختصة بأعلام العلماء
المتصفين الذين ليس لهم نظير ولا شبيه ولا يعيب إهمال رأيهم وأخذها وهي مختصة
أصحاب فنون الهزل وما يحضر هنا انتهى ثم فصل رحمه الله ذلك كله بما يعد من
الأخبار وقد طلبت منه فيها بعض ما ذكر ثم أورده من كلام غيره فأقول قال في كتاب الإشارات
قرطبة بالقاف المضمومة وضمها آخر ساكنها يعني غير بالطاء ثم قال ودور مدينة قرطبة
ثلاثون ألف ذراع انتهى وقال غيره إن تكسيرها ومساحتها التي دار السور عليها دون
الأرباض طولاً من القبلة إلى الجوف ألف وستمائة ذراع واتصلت العمارة بها أيام بني أمية
ثمانية فراسخ طولاً وفرسخين عرضاً وذلك من الأميال أربعة وعشرون في الطول والعرض
ستة وكل ذلك دور وقصور ومساجد وبساتين بطول ضفة الوادي الكبير وليس
في الأندلس واد يسمى باسم عربي غيره ولم تزل قرطبة في الزيادة منذ الفتح الإسلامي إلى
سنة أربعمائة فانحطت واستولى عليها الخراب بكثرة الفتن إلى أن كانت الطامة
الكبرى عليها بأخذ العدو الكافر لها في ثالث وعشري شوال سنة ستمائة وثلاث
وعشرين ثم قال هذا القائل ودور قرطبة المسور بها دون الأرباض ثلاثة وثلاثون ألف
ذراع ودور قصرها الزاهر ألف ذراع ومائة ذراع انتهى وعدد أرباضها إحدى وعشرون
في كل ربض منها من المساجد والأسواق والحمامات ما يقوم بأهله ولا يحتاجون إلى غيره
وبخارج قرطبة ثلاثة آلاف قرية في كل واحدة منبر وفقيه مقلس يكون الفتيا في الأحكام
والشرائع له وكان لا يجعل القلنس منهم على رأسه إلا من حفظ الموطأ وقيل من حفظ
عشرة آلاف حديث عن النبي صلى الله عليه وسلم وحفظ المدونة وكان هؤلاء
المقلسون المجاورون لقرطبة يأتون يوم الجمعة للصلاة مع الخليفة بقرطبة ويسلمون عليه
ويطالعونه بأحوال بلدهم انتهى قال وانتهت جباية قرطبة أيام ابن أبي عامر إلى أربعة
آلاف ألف دينار بالإنصاف وقد ذكر في موضع آخر ما فيه مخالفة لهذا فالله أعلم
وما أحسن قول بعضهم

دع عنك حضرة بغداد وبهجتها * ولا تعظم بلاد الفرس والصين
فما على الأرض قط مثل قرطبة * وما مشى فوقها مثل ابن حمدين

(وقال بعضهم) قرطبة قاعدة الأندلس ودار الملك التي يجبى لها ثمرات كل جهة وخيرات
كل ناحية وأسطلة من الكور موضوعة على النهر الأعظم شجرة أحدقت بها المنى فحسن مرآها
وطاب جناها وفي كتاب فرحة الأنفس لابن غالب أما قرطبة فاسمها لفظ هو إلى اللغة
الرومانية وتأويله القلوب المشككة وقال أبو عبيد البكري ضبطها بضم القاف والطاء
المعجمة وقال البخاري الصحيح فيها إهمال الطاء وضمها وقد يكسرها المشرقيون في الضبط
كما يعجمها آخرون انتهى (وقال بعض العلماء) أما قرطبة فهي قاعدة الأندلس وقطبها

وقطرها

وقطرها الاعظم وأم مدائنها ومساكنها ومستقر الخلفاء ودار المملكة فى النصرانية والاسلام ومدينة العلم ومستقر السنة والجماعة نزلها جلة من التابعين وتابع التابعين ويقال راها بعض الصحابة وفيه كلام * وهى مدينة عظيمة ازلية من بنيان الاوائل طيبة الماء والهواء أحدقت بها البساتين والزيتون والقرى والحصون والمياه والعيون من كل جانب وبها المحرث العظيم الذى ليس له فى بلاد الاندلس نظير ولا أعظم منه بركة * وقال الرازى قرطبة أم المدائن وسرة الاندلس وقرارة الملك فى القديم والحديث والجاهلية والاسلام ونهرها أعظم أنهار الاندلس وبها القنطرة التى هى احدى غرائب الارض فى الصنعة والاحكام والجامع الذى ليس فى بلاد الاندلس والاسلام أكبر منه * وقال بعضهم هى أعظم مدينة بالاندلس وليس بجميع المغرب انها عندى شبيه فى كثرة أهل وسعة محل وفسحة أسواق ونظافة محال وعمارة مساجد وكثرة حمامات وفنادق ويزعم قوم من أهلها انها كأحد جانبى بغداد وان لم تكن كأحد جانبى بغداد فهى قريبة من ذلك ولاحقة به وهى مدينة حصينة ذات سور من حجارة ومحال حسنة وفيها كان سلاطينهم قديما ودورهم داخل سورها المحيط بها وأكثر أبواب القصر السلطانى من البلد وجنوب قرطبة على نهرها قال وقرطبة هذه بائنة عن مساكن ارباضها ظاهرة ودرت بها فى غير يوم فى قدر ساعة وقد قطعت الشمس خمس عشرة درجة ماشيا * وقال وكانت قرطبة فى الدولة المروانية قبة الاسلام ومجتمع علماء الانام الاعلام بها استقر سرير الخلافة المروانية وفيها تمحضت خلاصة القبائل المعدية واليمانية واليها كانت الرحلة فى رواية الشعر والشعراء اذ كانت مركز الكرماء ومعدن العلماء ولم تزل تملأ الصدور منها والحقائب ويبارى فيها أصحاب الكتب أصحاب الكتائب ولم تبرح ساحاتها مجر عوالى ومجرى سوابق ومحط معالى وحى حقائق وهى من بلاد الاندلس بمنزلة الرأس من الجسد والزور من الاسد ولها الداخل الفسيح والخارج الذى يمتع البصر بامتداده فلا يزال مستريحا وهو من تردد المطر طليح * وقال الحجارى حضرة قرطبة منذ افتتحت الجزيرة وهى كانت الغاية ومركز الراية وأم القرى وقرارة اولى الفضل والتقى ووطن اولى العلم والنهى وقلب الاقليم وينبوع متفجر العلوم وقبة الاسلام وحضرة الامام ودار صوب العقول وبستان ثمر الخواطر وبحر درر القرائح ومن أفقها طلعت نجوم الارض وأعلام العصر وفرسان النظم والنثر وبها أنشئت التأليفات الرائقة وصنفت التصنيفات الفائقة والسبب فى تبريز القوم حديثا وقديما على من سواهم أن أفقهم القرطبى لم يشتمل قط الاعلى البحث والطلب لانواع العلم والادب انتهى * (وقال على بن سعيد) أخبرنى والدى أن السلطان الاعظم أبا يعقوب بن عبد المؤمن قال لوالده محمد بن عبد الملك بن سعيد ما عندك فى قرطبة قال فقلت له ما كان لى أن أتكلم حتى أسمع مذهب أمير المؤمنين فيها فقال السلطان ان ملوك بنى أمية حين اتخذوها حضرة ملكهم لعلى بصيرة الديار الكثيرة المفسحة والشوارع المتسعة والمبانى الضخمة والنهر الجارى والهواء المعتدل والخارج النضر والمحرث العظيم والشعرى الكافية والتوسط بين شرق الاندلس

وعزيمة فقال فبلغ ما أتى لي أمير المؤمنين ما أحول * ثم قال ابن سعيد ومن كلام والدي
في شأنها هي من أحسن بلاد الأندلس مباني وأوسعها مسالك وأبرعها ظاهرا وباطنا
وتفضل إشبيلية بلا شبهة في فضل السماء من كثرة الناس ولأهلها رياسة ووقار ولا تزال سمة
العلم وارثة فيهم إلا أن عامتها أكثر الناس فضولا وأشدهم تشنيعا وتشغيبا ويضرب بهم
المثل ما بين أهل الأندلس في القيام على الملوك والتشنيع على الولاة وقلة الرضا بأمورهم
حتى إن السيد أبا يحيى بن يعقوب بن عبد المؤمن لما انفصل عن ولايتها قيل له كيف
وجدت أهل قرطبة فقال مثل الجمل إن خففت عنه الحمل صاح وإن أثقلته به صاح ما ندري
أين رضاهم فنقصده ولا أين سخطهم فنتجنبه وما سلط الله عليهم حجاج الفتنة حتى كان
عامتها شرا من عامة العراق وإن العزل عنها لما قاسيت من أهلها عندي ولاية وإني إن
كلفت العودة إليها لقائل لا يدع المؤمن من حرمين *(قال والدي) ومن محاسنها
ظرف اللباس والتظاهر بالدين والمواظبة على الصلاة وتعظيم أهلها لجامعها الأعظم وكسر
أواني الخمر حيثما وقع عليها أحد من أهلها أعلنها والتستر بأنواع المنكرات والتفاخر
بأصالة البيت وبالجندية وبالعلم وهي أكثر بلاد الأندلس كتبا وأشد الناس اعتناء بخزائن
الكتب صار ذلك عندهم من آلات التعين والرياسة حتى إن الرئيس منهم الذي
لا تكون عنده معرفة يحتفل في أن تكون في بيته خزانة كتب وينتخب فيها ليس إلا
لأن يقال فلان عنده خزانة كتب والكتاب الفلاني ليس هو عند أحد غيره والكتاب الذي
هو بخط فلان قد حصله وظفر به * (قال الحضرمي) أقمت مرة بقرطبة ولازمت سوق
كتبها مدة أترقب فيه وقوع كتاب كان لي بطلبه اعتناء إلى أن وقع وهو بخط فصيح وتفسير
مليح ففرحت به أشد الفرح فجعلت أزيد في ثمنه فيرجع إلي المنادي بالزيادة علي إلى أن بلغ
فوق حده فقلت له يا هذا أرني من يزيد في هذا الكتاب حتى بلغه إلى ما لا يساوي قال فأراني
شخصا عليه لباس رياسة فدنوت منه وقلت له أعز الله سيدنا الفقيه إن كان لك غرض في هذا
الكتاب تركته لك فقد بلغت به الزيادة بيننا فوق حده قال فقال لي لست بفقيه ولا أدري
ما فيه ولكني أقمت خزانة كتب واحتفلت فيها لأتجمل بها بين أعيان البلد وبقي فيها موضع
يسع هذا الكتاب فلما رأيته حسن الخط جيد التجليد استحسنته ولم أبال بما أزيد فيه
والحمد لله على ما أنعم به من الرزق فهو كثير قال الحضرمي فأحرجني وحملني على أن
قلت له نعم لا يكون الرزق كثيرا إلا عند مثلك يعطي الجوز من لا له أسنان وأنا الذي أعلم
ما في هذا الكتاب وأطلب الانتفاع به يكون الرزق عندي قليلا وتحول قلة ما بيدي بيني
وبينه * (قال ابن سعيد) جرت مناظرة بين يدي منصور بن عبد المؤمن بين الفقيه العالم
أبي الوليد بن رشد والرئيس أبي بكر بن زهر فقال ابن رشد لابن زهر في كلامه ما أدري
ما تقول غير أنه إذا مات عالم بإشبيلية فأريد بيع كتبه حملت إلى قرطبة حتى تباع فيها
وإذا مات مطرب بقرطبة فأريد بيع تركته حملت إلى إشبيلية * (وسئل ابن بشكوال) عن
قصر قرطبة فقال هو قصر أولي تداولته ملوك الأمم من لدن عهد موسى النبي صلى الله
على نبينا وعليه وسلم وفيه من المباني الأولية والآثار العجيبة لليونانيين ثم للروم والقوط

والامم السالفة ما يعجز الوصف ثم ابتدع الخلفاء من بنى مروان منذ فتح الله عليهم الاندلس بمانيها فى قصرها البدائع الحسان وأثروا فيه الآثار العجيبة والرياض الانيقة وأجروا فيه المياه العذبة المجلوبة من جبال قرطبة على المسافات البعيدة وتقولوا المؤن الجسيمة حتى أوصلوها الى القصر الكريم وأجروها فى كل ساحة من ساحاته وناحية من نواحيه فى قنوات الرصاص تؤديها منها الى المصانع صور مختلفة الاشكال من الذهب الابريز والفضة الخالصة والنحاس المموه الى البحيرات الهائلة والبرك البديعة والصهاريج الغريبة فى احواض الرخام الرومية المنقوشة العجيبة قال وفى هذا القصر القصاب العالية السمو المنيفة العلو التى لم ير الراؤن مثلها فى مشارق الارض ومغاربها *(قال) ومن قصوره المشهورة وبساتينه المعروفة الكامل والمجدد والحائر والروضة والزاهر والمعشوق والمبارك والرشيق وقصر السرور والتاج والبديع *(قال) ومن أبوابه التى فتحها الله لنصر المظلومين وغياث الملهوفين والحكم بالحق الباب الذى عليه السطح المشرف الذى لانظير له فى الدنيا وعلى هذا الباب باب حديد وفيه حلق لاطون قد أثبتت فى قواعدها وقد صورت صورة انسان فتح فمه وهى حلق باب مدينة أربونة من بلاد الافرنج وكان الامير محمد قد افتتحها فجلب حلقها الى هذا الباب وله باب قبلى أيضا وهو المعروف بباب الجنان وقدام هذين البابين المذكورين على الرصيف المشرف على النهر الاعظم مسجدان مشهوران بالفضل كان الامير هشام الرضى يستعمل الحكم فى المظالم فيهما ابتغاء ثواب الله الجزيل وله باب ثالث يعرف بباب الوادى وله باب بشماليه يعرف بباب قورية وله باب رابع يدعى بباب الجامع وهو باب قديم كان يدخل منه الخلفاء يوم الجمعة الى المسجد الجامع على الساباط وعدد أبوابا بعد هذا طمست أيام فتنة المهدى بن عبد الجبار *(وذكر ابن بشكوال رحمه الله) أن أبواب قرطبة سبعة أبواب باب القنطرة الى جهة القبلة ويعرف بباب الوادى وبباب جزيرة الخضراء وهو على النهر وباب الحديد ويعرف بباب سرقسطة وباب ابن عبد الجبار وهو باب طليطلة وباب رومية وفيه تجتمع الثلاثة الرصف التى تشق دائرة الارض من جزيرة قادس الى قرمونة الى قرطبة الى سرقسطة الى طركونة الى أربونة مارة فى الارض الكبيرة ثم باب طليرة وهو أيضا باب ليون ثم باب عامر القرشى وقدامه المقبرة المنسوبة اليه ثم باب الحور ويعرف بباب بطليوس ثم باب العطارين وهو باب اشبيلية انتهى وذكر أيضا ان عدد أرباض قرطبة عند انتهائها فى التوسع والعمارة احد وعشرون ربضا منها القبلية بعدوة النهر ربض شقندة وربض منية عجب وأما الغربية فتسعة ربض حوانيت الريحانى وربض الرقاقين وربض مسجد الكهف وربض بلاط مغيث وربض مسجد الشفا وربض حمام الالبيرى وربض مسجد السرور وربض مسجد الروضة وربض السجن القديم وأما الشمالية فثلاثة ربض باب اليهود وربض مسجد أم سلمة وربض الرصافة وأما الشرقية فسبعة ربض سبلار وربض فرن بريل وربض البرج وربض منية عبد الله وربض منية المغيرة وربض الزاهرة وربض المدينة العتيقة قال ووسط هذه الارباض قصبة قرطبة التى تختص بالسور دونها

وكانت هذه الأرحاء تدور بسور ولما كانت أيام الفتنة صنع لها أحد في تدوير عجيبها وحائط مانع * (وذكر ابن غالب) أنه كان دور هذا الحائط أربعة وعشرين ميلا وتسعة تدور في المدينة لأنها مدينة بديعة كانت مسوّرة * (قال ابن سعيد) في المغرب ولم أذكر الآن من منتزهات قرطبة و أحدها المذكور في الأنس فلنلم بما انتهى إليه الضبط من غير تطويل في أمر النسيم ورمتها والأهم ونوى ذلك عندي ما تحصل من أخبار المطمح في قرطبة وما يحتوي عليه نطاقها المذكور فأول ما نذكر من المنتزهات منتزهات الخلفاء المروانية وهو قصر الرصافة وقيل كان هذا القصر مما ابتناه عبد الرحمن بن معاوية في أول أيام إمارته وسكنا أكثر أوقاته بمنية الرصافة التي اتخذها شمال قرطبة منحرفة إلى الغرب فاتخذ بها قصرا حسنا وجنانا واسعة ونقل إليها غرائب الغروس وأكارم الشجر من كل ناحية وأودعها ما كان استجلبه يزيد وسفر رسولاه إلى الشام من النوى المختار والحبوب الغريبة حتى نمت بيمن الجد وحسن التربية في المدة القريبة أشجارا معتمة أثمرت بغرائب من الفواكه انتشرت عما قليل بأرض الأندلس فاعترف بفضلها على أنواعها قال وسماها باسم رصافة جده هشام بأرض الشام الأثيرة لديه وبلغه في أخبار هشام وكانت مثلها وكثر تردده عليها وسكناه أكثر أوقاته بها فطار لها الذكر في أيامه واتصل من بعد في آثارها قال وكانوا يصفونها ويراد في عمارتها وانبرى أوصاف الشعراء لها فتباروا في ذلك فهم إلى الآن يسمون ويتأنقون في مشاهدهم * وقال ابن سعيد والرمان السفري الذي فاق على رمان الأندلس وصاروا لا يفضلون عليه شيئا أصله من هذه الرصافة وقد ذكر ابن حيان شأنه وأفرده بمقال فقال إنه الموصوف بالفضيلة المقدم على أجناس الرمان بعذوبة الطعم ورقة العجم وغزارة الماء وحسن الصورة وكان رسوله إلى الشام في وصل أحمه منها إلى الأندلس قد جلب طرائف منها من رمان الرصافة المنسوبة إلى هشام قال فوضعه عبد الرحمن على خواص رجاله مباهيا به وكان فيمن حضر منهم سفر بن عبيد الكلاعي من جند الأردن وسالة من الأنصار الذين كانوا يحملون ألوية رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزواته قال وهم يحملون الآن ألويته بين يدي الخلفاء من بني أمية فأعطاه من ذلك الرمان جزءا فراقه حسنه وخبر شأنه فمضى به إلى قرية بكورة رية فعالج عجمه واحتال لغرسه وغذائه وتنقيله حتى طلع شجرا أثمر وأينع فنزع إلى عرقه وأعرق في حسنه فجاء به عما قليل إلى عبد الرحمن فأدخله وآنسه شيء بذلك الرماني فسأله الأمير عنه فعرفه وجه حيلته فاستبرع استنباطه واستنبل همته وشكر صنعه وأجزل صلته واغترس منه غيث الرصافة وغيرها من جنانه فانتشر نوعه واستوسع الناس في غراسته ولزمته النسبة إليه فصار يعرف إلى الآن بالرمان السفري قال وقد وصف هذا الرمان محمد بن روح الشاعر في أبيات كتبها إلى بعض من أهداه له فقال

ولابسة صدفا أحمرا * أتتك وقد ملئت جوهرا
كأنك فاتح حق لطيمة * تضمن مرجانه الأحمرا
حبوبا كمثل لثات الحسان * رضابا إذا انبسطت أو قطرا
وللسفري ري وما شاقه * فيشكو الدوى أو ما في السرى

بلى فارقت ايكها اماعا * رطيبا وأغصانها نضرا
وجاءتك معتاصة اد أتتك * بأكرم من عودها عنصرا
بعود ترى فيه ماء الندى * ويورق من قبل أن يثمرا
هدية من لو غدت نفسه * هدية طبه قصرا

(وقال ابن سعيد) وأخبرني والدي قال أخبرني الوشاح المرزا لمحسن أبو الحسن المريني قال بينما أنا أشرب مع ندمائي بازاء الرصافة اذ بانسان رث الهيئة مجموع الطلعة قد جاء يجلس معنا فقلنا له ما هذا الاقدام على الجلوس معنا دون سابق معرفة فقال لا تعجلوا على ثم فكر قليلا ورفع رأسه فأنشدنا

إسقنيها ازاء قصر الرصافه * واعتبر في مآل أمر الخلافه
وانظر الافق كيف بدل أرضا * كي يطيل اللبيب فيه اعترافه
وترى أن كل ما هو فيه * من نعيم وعز أمر مخافه
كل شئ رأيته غير شئ * ما خلا لذة الهوى والسلافه

قال المريني فقبلت رأسه وقلت له بالله من تكون فقال قاسم بن عبود الرياحي الذي يزعم الناس انه موسوس أحمق قال فقلت له ما هذا شعر أحمق وان العقلاء لتعجز عنه فبالله الا ما تممت سرورنا بمؤانستك ومنادمتك ومناشدة طرف أشعارك فنادم وأنشد ومازلنا معه في طيبة عيش الى أن ودعناه وهو يتلاطم مع الحيطان سكرا ويقول اللهم غفرا انتهى (قال) ومن قصور خارج قرطبة * قصر السيد أبي يحيى بن أبي يعقوب بن عبد المؤمن وهو على متن النهر الاعظم تحمله أقواس وقيل للسيد كيف تأنقت في بنيان هذا القصر مع انحرافك عن أهل قرطبة فقال علمت انهم لا يذكرون والدي بعد عزله ولا له عندهم قدر لما بقي في رؤسهم من الخلافة المروانية فأحببت أن يبقى لي في بلادهم أثر اذكر به على رغمهم * قال ابن سعيد وأخبرني والدي أن ناهض بن ادريس شاعر وادي آش في عصره أنشد لنفسه في هذا القصر

ألا حبذا القصر الذي ارتفعت به * على الماء من تحت الحواجب اقواس
هو المصنع الاعلى الذي انف الثرى * ورفعه عن لثمه المجد والباس
فأركب متن النهر عزا ورفعة * وفي موضع الاقدام لا يوجد الراس
فلا زال معمور الجناب وبابه * يغص وحلت أفقه الدهر أعراس

وقال الفتح في قلائده لما ذكر الوزير ابن عمار وتنزه بالدمشق بقرطبة وهو قصر شيده بنو أمية بالصفاح والعمد وجرى في اتقانه الى غير أمد وأبدع بناؤه وشقت ساحاته وفناؤه واتخذوه ميدان مراحهم ومضمار أفراحهم وحكوا به قصرهم بالمشرق وأطلعوه كالكوكب المشرق وأنشد فيه لابن عمار

كل قصر بعد الدمشق يذم * فيه طاب الجنى ولذ المشم
منظر رائق وماء نمير * وثرى عاطر وقصر أشم
بت فيه والليل والفجر عندي * عنبر أشهب ومسك أحم

ابن زيدون فى قصيدة ضمنه من منتزهات قرطبة ما تقف عليه وكان قد فر من قرطبة أيام بنى جهور وحضره فى فراره عيد ذكره بأعياد وطنه ومعاهده الانسية مع ولادة التى كان يهواها ويتغزل بها فقال

خليلى لا فطر يسر ولا أضحى * فما حال من أمسى مشوقا كما أضحى

وستأتى هذه القصيدة فى هذا الباب كما ستأتى قصيدة أبى القاسم بن هشام القرطبى التى أولها * ياهمة باكرت من نحو دارين * وفيها كثير من منتزهات قرطبة * قال ابن سعيد كان والدى كثيرا ما يأمرنى بقراءتها عليه ويقول والله لقد أبانت عن فضل لهذا الرجل قال وكان أبو يحيى الحضرمى يحفظها ويزين بها مجالسه ويحلف أن لا ينشدها بحضر جاهل لا يفهم أو حاسد لا ينصف فى الاهتزاز لها وانه لجدير بذلك وانها من كنوز الادب ثم قال والمرج النضير المذكور بها هو مرج الخز أخبرنى والدى انه حضر فى زمان الصبا بهذا المرج على راحة ومعه الرئيس الفاضل أبو الحسين ابن الوزير أبى جعفر الوقشى والمسن ابن دويدة المشهور بخفة الروح قال فسجت أمامنا أوز وجعلت تمرح وتنثر ما عليها من الماء فوق المرج والمرج قد أحدق به الوادى والشمس قد مالت عليه للغروب فقال لى أبو الحسين بالله صف يومنا وحسن هذا المنظر فقلت لا أصفه أو تصفه أنت ولك منى ذلك فأفكر كل منا على انفراد بعد ما ذكرنا ما نصف نثرا فقال أبو الحسين الوقشى

لله يوم بمرج الخز طاب لنا * فيه النعيم بحيث الروض والنهر
وللاوز على أرجائه لعب * اذا جرت بددت ما بيننا الدرر
والشمس تجنح نحو البين مائلة * كان عاشقها فى الغرب ينتظر
والكاس جائلة بالالب حائرة * وكما غفلات الدهر نبتدر

قال فقلت

ألا حبذا يوم ظفرنا بطيبه * بأكناف مرج الخز والنهر يبتسم
وقد مرحت فيه الاوز وأرسلت * على سندس درا به يتنظم
ومد به للشمس فهو كأنه * لثام لها ملقى من النور معصم
أدرنا عليه أكؤسا بعثت به * من الانس ميتا عاد وهو يكلم
غدونا اليه صامتين سكينة * فرحنا وكل بالهوى يترنم

وأظهر كل منا لصاحبه استحسان ما قال تنشيطا وتتميما للمسرة ثم قلنا للمسن ما عندك أنت تعارض به هاتين القطعتين قال بهذا ورفع رجله وحق حبقة فرعت منها أرجاؤه فقال له أبو الحسين ما هذا يا شيخ السوء فقال الطلاق يلزمه ان لم تكن أوزن من شعركما وأطيب رائحة وأغن صوتا وأطرب معنى فضحكنا منه أشد ضحك وجعلناه تتر غاية الاهتزاز لموقع نادرته فقال والدليل على ذلك أنكم طربتم لما جئت به أكثر مما طربتم من شعركم * ثم قال ابن سعيد ومن منتزهات قرطبة المشهورة فحص السرادق مقصود للفرجة يسرح فيه البصر وتبتهج فيه النفس أخبرنى والدى عن أخيه أبى جعفر بن عبد الملك بن سعيد قال خرجت مع الشريف الاصم القرطبى الى بسيط الجزيرة الخضراء وقد تدبج بالنوار فلما

وورام طرفى به اتصافه * تخدى خده الكليم

(دور)

غصن الصبا عاطر المقبل * أحلى من الامن والامل
طامى الحشا مفعم المخلل * حلو اللمى ساحر المقل
اسكل من رامه توصل * لم يخش رداعا ومعتل
أشكو فيبدى لى اعترافه * ان حاد عن نهجه القويم
لا أعدم الدهر فيه رافه * تحق لى فيه أن أهيم

(دور)

لله عصر لنا تقضى * بالسد والمنبر البهيج
أرى ادكارى اليه فرضا * وشوقه دائما يهيج
فكم خلعنا عليه عمرا * وللصبا مسرح أريج
وردأ طال المنى ارتشافه * حتى اقتضى شربه الكريم
لله ما أسرع انصرافه * وهكذا الدهر لا يديم

(دور)

يا من يحث المطى غربا * عرج على حضرة الملوك
وانثر بها ان سمحت غربا * من مدمع عاطل سلوك
واسمع الى من أقام صبا * واحلل صداه لا فض فوك
بلغ سلامى قصر الرصافه * واذكره عهدى القديم
وحى عنى دار الخلافه * وقف بها وقفة الغريم

قال ابن سعيد والمنبر المذكور فى هذه الموشحة من منترهات قرطبة والسد هو الارحاء التى ذكرها فى زجله قاسم بن عبود الرياحى رويته عن والدى عن قائله وهو

(مطلع)

بالله أى نصيب * من ليس لى فيه نصيب
محبوبا مخالف * ومعو رقيب

(دور)

حين نقصد مكانو * يقسم فى المقام
ويجعل علينا * برد السلام
أدخلت يا قلبى * روحك فى زحام
سلامك عندى * هى شى عجيب
وكيف بالله يسلم * من هو فى لهيب

(دور)

بالله يا حبيبى * اترك ذا النفار
واعمد أن نطيب * فى هذا النهار

ثمانمائة ذراع وعرضها عشرون باعا وارتفاعها ستون ذراعا وعدد حناياها ثمان عشرة حنية وعدد أبراجها تسعة عشر برجا انتهى *(رجع الى قرطبة)* ذكر ابن حيان والرازى والحجارى أن اشبان ثانى قياصرة الروم الذى ملك أكثر الدنيا وصنع نهر رومية بالصفر وأرخت الروم من ذلك العهد وكان من قبل ميلاد المسيح عليه السلام بثمان وثلاثين سنة أمر ببناء المدن العظيمة بالاندلس فبنيت فى مدته قرطبة واشبيلية وماردة وسرقسطة وانفرد الحجارى بأن اشبان المذكور وجه أربعة من أعيان ملوكه للاندلس فبنى كل واحد منهم مدينة فى الجهة التى ولاه عليها وسماها باسمه وان هذه الاسماء الاربعة كانت أسماء لاولئك الملوك وغير الحجارى جعل أن هذه المدن مشتقة مما تقتضيه أوضاعها كما مر وذكروا انه قد تداولت على قرطبة ولاة الروم الاخيرة الذين هم بنو عيصو بن اسحق بن ابراهيم على نبينا وعليهم الصلاة والسلام الى أن انتزعها من أيديهم القوط من ولد يافث المتغلبون على الاندلس الى أن أخذها منهم المسلمون ولم تكن فى الجاهلية سريرا لسلطنة الاندلس بل كرسيا لخاص مملكتها وسعدت فى الاسلام فصارت سريرا للسلطنة العظمى الشاملة وقطبا للخلافة المروانية وصارت اشبيلية وطليطلة تبعا لها بعد ما كان الامر بالعكس والله يفعل ما يشاء بيده الملك والتدبير وهو على كل شئ قدير لا اله الا هو العلى الكبير وقال صاحب نشق الازهار عند ما تعرض لذكر قرطبة هى مدينة مشهورة دار خلافة وأهلها أعيان ناس فى العلم والفضل وبها جامع ليس فى الاسلام مثله انتهى ومن الاسباب فى سلب محاسن قرطبة عيث البربر بها فى دخولهم مع سليمان المستعين الاموى حين استولى على قرطبة فى دولته التى افتتحت بالقهر وسفك الدماء وكان من أمراء البربر المعاضدين لسليمان على بن حمود من بنى على بن ادريس بن عبد الله بن حسن بن الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله عنهم أجمعين وجده ادريس هرب من هرون الرشيد الى البربر فتبربر ولده وبنى ابنه ادريس مدينة فاس وكان المؤيد هشام يشتغل بالملاحم ووقع على أن دولة بنى أمية تنقرض بالاندلس على يد علوى أول اسمه عين فلما دخل سليمان مع البربر قرطبة ومحوا كثيرا من محاسنها ومحاسن أهلها كان من أكبر أمرائهم على بن حمود واطلع هشاما المؤيد وهو محبوس خبره واسمه ونسبه ودس اليه ان الدولة صائرة اليك وقال له ان خاطرى يحدثنى أن هذا الرجل يقتلنى يعنى سليمان فان فعل فخذ بثارى وكان هذا الامر هو الذى قوى نفس ابن حمود على طلب الامامة وحمله على الاخذ بثار هشام المؤيد فكان المؤيد أحد من أخذ بثاره بعد موته وتولى بعد ذلك على بن حمود وبويع بقرطبة فى قصرها فى اليوم الذى قتل فيه سليمان المستعين وأخذ الناس بالارهاب والسطوة وأذل رؤس البربر وبرقت للعدل فى أيامه بارقة خلب لم تكد تقدح حتى خبت وجلس للمظالم وقدمت له جماعة من البربر فى اجرام بضرب رقابهم وأهلهم وعشائرهم ينظرون وخرج يوما على باب عامر فالتقى فارسا من البربر وأمامه حمل عنب فاستوقفه وقال له من أين لك هذا فقال أخذته كما أخذ الناس فأمر بضرب عنقه ووضع رأسه وسط الحمل وطيف به فى البلد واستمر على هذا مع أهل قرطبة فى أحسن عشرة نحو ثمانية أشهر حتى بلغه قيام الاندلسيين

بالمرتضى المرواني في شرق الأندلس فهزم فيما كان عليه وعزم على إخلاء قرطبة وإبادة أهلها
فلا يعود لهم سلطان آخر الدهر وأغضى للبربر عن ظلمهم فعاد البلاء إلى حاله وانتزع
أهل قرطبة وهدم المنازل واستهان بالأكابر ووضع المغارم وقبض على جماعة من أعيانهم
وأزعجهم فلما عزموا مع من معهم فلما جن الليل بدا لهم لم يركبوها أمر بأخذ الدواب
وتركهم يمشون إلى منازلهم على أرجلهم وكان منهم أبو الحزم الذي ملك قرطبة بعد
وصارت دولته توراثه وله معدود في دول الطوائف فأخذه ثم عفا على العفو وتوالى
عليه الدعاء فقتله فتيان أغمار من صقالبة بني مروان في الحمام وكان قتله غرة ذي القعدة
سنة ثمان وأربعمائة وكان الفتيان لما قتلوه هربوا واختفوا في أماكن يعرفونها ووضع
عند الناس فيه فرحوا وكانت مدته كاملة نحو عامين وعشرة أشهر بالنقص فقال أحد
وعشرون شهراً وستة أيام وكان الناصر علي بن حمود على عجمته وبعده من الفصاحة يصغي
إلى الأمداح ويثيب عليها ويظهر في ذلك آثار النسب العربي والكرم الهاشمي ومن
شعرائه المختصين به ابن الحناط القرطبي ومن شعره قوله

راحت تذكر بالنسيم الراحا * وطفا بكف الصبوح جناحا
أخفى مسالكها الظلام فأوقدت * من وجهها كي تهتدي مصباحا

وعباد بن ماء السماء وكان معروفاً بالتشيع وفيه يقول من قصيدة

أبوكم علي كان بالشرق بدأها * ورثتم ودانا العرب أيضاً عمه
فصلوا عليه أجمعون وساروا * له الأمر أو لا فكم ولسه

ومدحه ابن دراج القسطلي وله

لعلك يا شمس عند الأصيل * شجيت لشجو الغريب الذليل
فكوني شفيعي لابن الشفيع * وكوني رسولي لابن الرسول

وكان أخو الناصر القاسم بن حمود أكبر منه بعشر سنين وأمهما واحدة وهي علوية ولما قتل
الناصر كان القاسم والياً على إشبيلية وكان يحيى بن علي والياً على سبتة فاختلف قول البربر
فمال أكثرهم إلى القاسم لكونه عين أولاً وقدم عليه أخوه الأصغر وكونه
قريباً من قرطبة وبينهم وبين يحيى البحر فلما وصلت رسلهم إلى القاسم لم يظهر رغبة في الإمامة
وخاف أن يكون حيلة من أخيه عليه فتمهل إلى أن اتضح له الحق فركب إلى قرطبة
وبويع بها بعد ستة أيام من قتل أخيه وأحسن السير واحتشد من البربر الميل إلى يحيى ابن
أخيه على صاحب سبتة فمال إلى اقتناء السودان واستكثر منهم كثيراً وقودهم على
أعماله فأنف البربر من ذلك واعترفوا عنه وفي سنة تسع وأربعمائة قام عليه بشرق
الأندلس المرتضى عبد الرحمن من أعقاب الناصر لأن أهل الأندلس صعب عليهم تملك بني
حمود العلويين بسبب البربر فأرادوا رجوع الإمامة إلى بني مروان واجتمع له أكثر ملوك
الطوائف وكان معه من أهل قرطبة منذر التجيبي صاحب سرقسطة وخيران
العامري الصقلبي صاحب المرية وانضاف إليهم جمع من الفرنج وناصب القاسم والبربر
لا امهم فكان من الاتفاق العجيب أن فسدت نية منذر وخيران على المرتضى وقالا إنا

فى الاول وجها ليس بالوجه الذى راه حين اجتمع اليه الجم الغفير وهذا ما كرغير صافى النية فكتب خيران الى ابن زيرى الصنهاجى المتغلب على غرناطة وهو داهية البربر وضمن له أنه متى قطع الطريق على المرتضى عند اجتيازه عليه الى قرطبة خذل عن نصرته الموالى العامريين أعداء المروانيين وأصحاب رياسة الثغور وأصغى ابن زيرى الى ذلك وكتب المرتضى الى ابن زيرى يدعوه لطاعته فقلب الكتاب وكتب فى ظهره قل يا أيها الكافرون السورة فأرسل اليه كتابا ثانيا يقول فيه جئتك بجميع أبطال الاندلس وبالفرنج فماذا تصنع وختم الكتاب بهذا البيت

ان كنت منا أشر بخير * أولا فأيقن بكل شر

فأمر الكاتب أن يحول الكتاب ويكتب فى ظهره ألهاكم التكاثر السورة فازداد حنقه وحمله الغيظ الى أن ترك السير الى حضرة الامامة قرطبة وعدل الى محاربته وهو يرى أن يصطلمه فى ساعة من نهار ودامت الحرب أياما وأرسل ابن زيرى الى خيران يستنجزه وعده وأجابه انما توقفت حتى ترى مقدار حربنا وصبرنا ولو كانوا اطنا معك فأنت جعلت لنا ونحن نهزم عنه ونخذله فى غد ولما كان من الغد رأى أعلام خيران وأعلام منذر وأصحاب الثغور قد ولت عنه فسقط فى يد المرتضى وثبت حتى كادوا يأخذونه واستحر القتل وصرع كثير من أصحابه فلما خاف القبض عليه ولى ووضع عليه خيران عيونا فلحقوه بقرب وادى آش وقد جاوز بلاد البربر وأمن على نفسه فهجموا عليه فقتلوه وجاؤا برأسه الى المرية وقد حل بها خيران ومنذر فتحدث الناس أنهما اصطبحا عليه سرورا بهلاكه وبعد هذه الواقعة أذعن أهل الاندلس للبرابرة ولم يجتمع لهم بعدها جمع ينهضون به اليهم وضرب القاسم بن حمود سرادق المرتضى على نهر قرطبة وغشيه حلق من النظارة وقلوبهم تتقطع حسرات وأنشد عبادة بن ماء السماء قصيدته التى أولها

لك الخير خيران مضى لسبيله * وأصبح أمر الله فى ابن رسوله

وتمكنت امور القاسم وولى وعزل وقال وفعل الى أن كشف وجهه فى خلع طاعته ابن أخيه يحيى بن على وكتب من سبتة الى أكابر البرابر بقرطبة ان عمى أحد ميراثى من أبى ثم انه قدم فى ولاياتكم التى أخذتموها بسيوفكم العبيد والسودان وأنا أطلب ميراثى وأوليكم مناصبكم وأجعل العبيد والسودان كما هو عند الناس فأجابوه الى ذلك فجمع ما عنده من المراكب وأعانه أخوه ادريس صاحب مالقة فعبر البحر بجمع وافر وحصل بمالقة مع أخيه وكتب له خيران صاحب المرية مذكرا بما أسلفه فى اعانة أبيه وأكد المودة فقال له أخوه ادريس ان خيران رجل خداع فقال يحيى ونحن نخدعون فيما لا يضرنا ثم ان يحيى أقبل الى قرطبة واثقا بأن البرابر معه ففر القاسم الى اشبيلية فى خمسة فرسان من خواصه ليلة السبت ٢٨ شهر ربيع الآخر سنة ٤١٣ ودخل يحيى بقرطبة وبايعه البرابر والسودان وأهل البلد يوم السبت مستهل جمادى الآخرة وكان يحيى من الحسباء وأمه فاطمية وانما كانت آفته العجب واصطناع السفلة واشتطأ أكابر البرابر عليه وطالبوا ما وعدهم من اسقاط مراتب السودان فمطل لهم ذلك فلم يقنعوا منه وصاروا

وركب الى القصر وحمل معه ابن عمه المذكورين فحبسهما وكان قد ودع جماعة من الاتباع ذهب بهم العجب كل مذهب كأبي عامر بن شهيد المنهمك في بطالته وأبي محمد بن حزم المشهور بالرد على العلماء في مقالته وابن عمه عبد الوهاب بن حزم الغزل المترف في حالته فأحدقوا بذلك مشايخ الوزراء والاكابر وبادر المستظهر باصطناع البرابر وأكرم مثواهم وأحسن مأواهم واشتغل مع ابن شهيد وابن حزم بالمباحثة في الآداب ونظم الشعر والتمسك بتلك الاهداب والناس في ذلك الوقت أجهل ما يكون وكان جماعة من أهل الشر في السجون يتعين أن لا يخرج منهم انسان فأخرج منهم شخصا يقال له أبو عمران وقد كان أشار بعض الوزراء عليه بعدم اخراجه فأخرجه وخالفه في ذلك ولم يقبل النصيحة وفعل ما أداه الى الفضيحة فسعى القوم الذين أخرجوا من الحبوس على افساد دولته وابدال فرحه بالبوس لما اشتغل عنهم بالادباء والشعراء فحسبما اقتضاه رأيه المعكوس سعوا في خلعه مع البرابر وقتل في ذي القعدة من السنة التي بويع فيها وصار كأمس الدابر بعد سبعة وأربعين يوما من يوم بويع بالخلافة واذا أراد الله أمرا فلا يقدر أحد أن يأتي خلافه وعمره ثلاث وعشرون سنة كأنها سنة ومن شعر المستظهر المذكور وهو من القريض الممدوح صاحبه بالبلاغة المشكور

طال عمر الليل عندي * مذ تولعت بصدي

يا غزالا نقض العهـ * ـد ولم يوف بوعدي

أنسيت العهد اذ بتـ * ـنا على مفرش وردي

واجتمعنا في وشاح * وانتظمنا نظم عقد

ونجوم الليل تسري * ذهبا في لازوردي

وكتب اليه شاعر في طرس مكشوط السطر مبشور وفيه بشارة ببقاء الامام الفاضل المستظهر

ملك أعاد العيش غضا ملكه * وكذا يكون به طوال الاعصر

فأجزل صلته وكتب في ظهر الورقة

قبلنا العذر في بشر الكتاب * لما أحكمت في فصل الخطاب

وقد قدمنا في الباب الثالث شيئا من هذه الاخبار وما حصل بعد ذلك بقرطبة الى أن تولى الامر ابن جهور في صورة الوزارة ثم ابنه الى أن أخذ قرطبة منه المعتمد بن عباد حسبما ذكر في أخباره ثم آل الامر بعد ذلك كله الى استيلاء ملوك العدوة من الملثمين والموحدين على قرطبة الى أن تسلمها النصارى أعادها الله تعالى للاسلام كما يذكر في الباب الثامن * وقال صاحب مناهج الفكر في ذكر قرطبة ما ملخصه فأما ما اشتمل عليه غرب الجزيرة من البلاد الخطيرة فمنها قرطبة وكانت مقر الملك ودار الامارة وأم ما عداها من البلاد منذ افتتحها المسلمون سنة ٩٢ زمن الوليد بن عبد الملك الى أن خرجت عن أيديهم وتنقلت في ايدي ملوك المسلمين الى أن وصلت الى الناصر عبد الرحمن فبنى في تجاهها مدينة سماها الزهراء يجري بينهما نهر عظيم انتهى * واعلم أن المباني دالة على عظم قدر بانيها كما ذكرناه

في كلام الناصر الذي طاب له من الزهراء مجناها ولم يزل العلماء يصفون المباني بأحسن الألفاظ والمعاني ورأينا أن نذكر بعض ذلك زيادة في توسيع المسالك في ذلك

قال ابن حمديس الصقلي في دار بناها المعتمد على الله

ويا حبذا دار قضى الله أنها * يجدد فيها كل عز ولا يبلى

مقدسة لولا موسى كليمه * مشى قدماً في أرضها خلع النعلا

وما هي إلا خطة الملك الذي * يخط إليه كل ذي أمل رحلا

إذا فتحت أبوابها خلت أنها * تقول بترحيب لداخلها أهلا

وقد نقلت صناعها من صفاته * إليها أفانيناً فأحسنت النقلا

فمن صدره رحباً ومن نور بشره * ومن صيته رفعاً ومن حلمه أصلا

فأعلى به في وصفه الملك نادبا * وقل له فوق السماكين أن تعلى

يبيت به إيوان كسرى لأنه * أراه له مولى من الحسن لا مثلا

كأن سليمان بن داود لم يبح * مخافته للجن في صنعه مهلا

ترى الشمس فيه ليست تحسدها * أكف أقامت من تصاويرها شكلا

لها حركات أودعت في سكونها * فما تبعث في بطشهن يد رجلا

ولما غشينا من توقد نورها * تخذنا سناها في نواظرنا كحلا

وقال في أخرى بناها المنصور بن أعلى الناس ببجاية

أعمر بقصر الملك ناديك الذي * أضحى بمجدك بيته معمورا

قصر لو أنك قد كحلت بنوره * أعمى لعاد إلى المقام بصيرا

واشتق من معنى الجنان نسيمه * فيكاد يحدث بالعظام نشورا

نسي الصبيح مع الفصيح بذكره * وسما به خورنقاً وسديرا

لو أن بالإيوان قوبل حسنه * ما كان شيئاً عنده مذكورا

أعيت مصانعه على الفرس الألى * رفعوا البناء وأحكموا التدبيرا

ومضت على الروم الدهور وما بنوا * لملوكهم شبهاً له ونظيرا

أذكرتنا الفردوس حين أريتنا * غرفاً رفعت بناءها وقصورا

فالمحسنون تزيدوا أعمالهم * ورجوا بذلك جنة وحريرا

والمذنبون هدوا الصراط وكفروا * حسناتهم لذنوبهم تكفيرا

فلك من الأفلاك إلا أنه * حقر البدور فأطلع المنصورا

أبصرته فرأيت أبدع منظر * ثم انثنيت بناظري محسورا

فظننت أني حالم في جنة * لما رأيت الملك فيه كبيرا

وإذا الولائد فتحت أبوابه * جعلت ترحب بالعفاة صريرا

عضت على حلقاتهن ضراغم * فغرت بها أفواهها تكبيرا

فكأنها لبدت لتهصر عندها * من لم يكن بدخوله مأمورا

تجري الخواطر طالبات أعنة * فيه فتكبو عن مداه قصورا

بمرحم الساحات تحسب أنه * فرش المها وتوشح الكافورا
ومحصب بالدر تحسب تربه * مسكا تضوع نشره وعبيرا
تستخلف الابصار منه اذا أتى * صبحا على غسق الظلام منيرا

ثم ذكر بركة فيه عليها أشجار من ذهب وفضة ترمى فروعها المياه وتمساحا كاسود على حافاتها قاذفة بالمياه أيضا فقال

وضراغم سكنت عرين رياسة * تركت خرير الماء فيه زئيرا
فكأنما غشى النضار جسومها * وأذاب فى أفواهها البلورا
أسد كأن سكونها متحرك * فى النفس لو وجدت هناك مثيرا
وتذكرت فتكاتها فكأنما * أقعت على أدبارها لتثورا
وتخالها والشمس تجلو لونها * نارا وألسنها اللواحس نورا
فكأنما سلت سيوف جداول * ذابت بلا نار فعدن غديرا
وكأنما نسج النسيم لمائه * درعا فقدر سردها تقديرا
وبديعة الثمرات تعبر نحوها * عيناى بحر عجائب مسحورا
شجرية ذهبية نزعت الى * سحر يؤثر فى النهى تأثيرا
قد صولجت أغصانها فكأنما * قنصت بهن من الفضاء طيورا
وكأنما تأبى لوقع طيرها * أن تستقل بنهضها وتطيرا
من كل واقعة ترى منقارها * ماء كسلسال اللجين نميرا
خرس تعد من الفصاح فان شدت * جعلت تغرد بالمياه صفيرا
وكأنما فى كل غصن فضة * لانت فأرسل خيطها مجرورا
وتريك فى الصهريج موقع قطرها * فوق الزبرجد لؤلؤا منثورا
ضحكت محاسنه اليك كأنما * جعلت لها زهر النجوم ثغورا
ومصفح الابواب تبرا نظروا * بالنقش فوق شكوله تنظيرا
تبدو مسامير النضار كما علت * تلك النهود من الحسان صدورا
خلعت عليه غلائلا ورسيه * شمس ترد الطرف عنه حسيرا
واذا نظرت الى غرائب سقفه * أبصرت روضا فى السماء نضيرا
وعجبت من خطاف عسجده التى * حامت لتبنى فى ذراه وكورا
وضعت به صناعها أقلامها * فأرتك كل طريدة تصويرا
وكأنما للشمس فيه ليقة * مشقوا بها التزويق والتشجيرا
وكأنما اللازورد فيه مخرم * بالخط فى ورق السماء سطورا
وكأنما وشوا عليه ملاءة * تركوا مكان وشاحها مقصورا

ثم مدح المنصور بعد ذلك وختم القصيدة بقوله

يا مالك الارض الذى أضحى له * ملك السماء على العداة نصيرا
كم من قصور للملوك تقدمت * واستوجبت بقصورك التأخيرا

تعمرها وتملك كل رياسة * فيها وتضرب بالسداد مدبرا

فان لم أر لهند النصفة من نظر في معناها البارع النضير ولفظها العذب الغير الذي بهر وسنة فانها من ساعد الاجادة أي سمير غير أن فيها عيدي عساوا حـدا وجوهها لمعا الذي بهر وعلى كل حال فالحسن والاحسان سادان في أرسان لعبد الجبار بن حمديس المذكور ذي المقاصد الحسان وخصوصا في وصف المباني والبرك حتى أبي لسوا في ذلك حسنا ولا برك * (ومن ذلك) قوله في وصف بركة تجري الماء فيها من شاذروان من أفواه طيور وزرافات وأسود وكل ذلك في قصر أظنه في وصفه في قصيدة طويلة

والماء منه سبائك من فضة * ذابت على درجات شاذروان
وكأنما سيف هناك مشطب * ألقته يوم الحرب كف جبان
كم شاخص فيه يطيل تعجبا * من دوحة نبتت من العقيان
عجبا لها تسقي الرياض بنابها * شجر من المرجان والاغصان
خصت بطائر على فننها * حسنت بأفرخها من الطيران
من الطيور الخاضعات لاغه * وفصاحة من منطق وبيان
فاذا أتيح لها الكلام تكلمت * بخرير ماء دائم الهملان
وكأن صانعها استبد بصنعه * فخر الجماد بها على الحيوان
أوفت على حوض لها فكأنها * منها على الشذب العقاب روانى
فكأنها ظنت حلاوة مائها * شهدا فذاقته بكل لسان
وزرافة في الجوف من أنبوبها * ماء يريك الجري في الطيران
مركوز كالرمح حيث تركبت * من طعنه الخلق اصطفاف سنان
وكأنها ترمي السماء ببندق * متساقط من لؤلؤ ومرجان
لو عاد ذاك الماء نفطا أحرقت * في الجو منه قميص كل عنان
في بركة قامت على حافاتها * أسد تذل لعزة السلطان
نزعت الى ظلم النفوس نفوسها * فلذلك أشرعت من الابدان
وكأن برد الماء منها مطفئ * نارا تضرمه من العدوان
وكأنما الحيات من أفواهها * يطرحن أنفسهن في الغدران
وكأنما الحيتان اذ لم تخشها * أخذت من المنصور عهد أمان

وهذا ابن القصيدة بأن لابن حمديس كان الماهر مع طولها ما يدل على الابداع الذي ابتكره والاختراع الذي ما ولج سمع أحد في القصد الا ابتكره وقال ابو الصلت أمية ابن عبد العزيز الاندلسي يصف قصرا عظيما بنى منزل الأمير أبا حسن بن علي بن تميم ابن المعز الصنهاجي

منزل السر كأنه سماه * لا عدا العز فيه غنا
نزلت المنازل في اعتلى دره لو ضيق اناه
واحل فيه خط عسك خير * أي حسن دون القصور حوا

سال في ستعه المصار ولكن * جمدت في قراره الامواه
وبأرجائه مجال طراد * ليس تمضى من وغى خيلاه
تبصر الفارس المدجج فيه * ليس تدمى من الطعان قناه
وترى النابل المواصل للنز * ع بعيدا من قرنه مرماه
وصفوفا من الوحوش وطير الجو كل مستحسن مرآه
سكنات تخالها حركات * واختلاف كأنه اشباه
كحيا الحبيب حرفا بحرف * ماتعدى صفاته اذ حكاه
ورده وجنتاه نرجسه الفتان عيناه آسه عارضاه
وكأن الكافور والمسك في الطيب وفي اللون صبحه ومساه
منظر يبعث السرور ومرأى * يذكر المرء طيب عصر صباه

وقال أبو الصلت أمية الاندلسي المذكور يذكر بناء بناه على بن تميم بن المعز العبيدي

لله مجلسك المنيف قبابه * بهرت فوق السماك مؤسس
موف على حبك المجرة تلتقي * فيه الجواري بالجواري الكنس
تتقابل الانوار من جنباته * فالليل فيه كالنهار المشمس
عطفت حناياه دوين سمائه * عطف الاهلة والحواجب والقسي
واستشرفت عمد الرخام وظوهرت * بأجل من زهر الربيع وأنفس
فهواؤه من كل قد أهيف * وقراره من كل خد أملس
فلك تحير فيه كل منجم * وأقر بالتقصير كل مهندس
فمد اللحظ العيون أحسن منظر * وغد الطيب العيش طيب معرس
فاطلع به قمرا اذا ما أطلعت * شمس الخدور عليك شمس الاكؤس
فالناس أجمع دون قدرك رتبة * والارض أجمع دون هذا المجلس

ويعجبني من قول أبي الصلت أمية المذكور يصف حالي زيادة النيل ونقصانه

ولله مجرى النيل منها اذا الصبا * أرتنا به من مرها عسكرا مجرا
اذا راد يحكي الورد لونا وان صفا * حكى ماء لونا ولم يحكه مرّا

وقال رحمه الله تعالى يصف الرصد الذي بظاهر مصر

يا نزهة الرصد التي قد اشتملت * من كل شيء حلا في جانب الوادي
فذا غدير وذا روض وذا جبل * والضب والنون والملاح والحادي

وهو مأخوذ من قول الاول يصف قصر أنس بالبصرة

زر وادي القصر نعم القصر والوادي * لا بد من زورة من غير ميعاد
زره فليس له ند يشاكله * من منزل حاضر ان شئت أو بادي
تلقى به السفن والظلمان حاضرة * والضب والنون والملاح والحادي

وقال رحمه الله تعالى يذكر الهرمين

بعيشك هل أبصرت أحسن منظرا * على طول ما عاينت من هرمي مصر

الليوث فى آجامها وأجلوا الغيوث عند انسجامها فأصبحت ولها تلفع واعتجار ولم يبق من آثارها الا نوى وأحجار قد هوت قبابها وهرم شبابها وقد يلين الحديد ويبلى على طيه الجديد * وقال أبو بحر القرطبى يذكر ذلك من أبيات ينعاهم بها

ديار عليها من بشاشة أهلها * بقايا تسر النفس أنسا ومنظرا

ربوع كساها المزن من خلع الحيا * برودا وحلاها من النور جوهرا

تسر لنا طورا تشجيك تارة * فترتاح تأنيسا وتشجى تذكرا

(ومن كلام أبى الحسن القاشانى) يصف نادى رئيس خلا من ازدحام الملا وعوضه الزمان عن تواصل أحبابه هجرا وقلا قد كان منزله مألف الاضياف ومأنس الاشراف ومنتجع الركب ومقصد الوفد فاستبدل بالانس وحشة وبالضياء ظلمة واعتاض من تزاحم المواكب تلاطم النوادب ومن ضجيج النداء والصهيل عجيج البكاء والعويل *(ومن رسالة لابن الاثير الجزرى) يصف دمنة لعبت بها أيدى الردى وفرقت بين المسكن والسكن كانت مقاصير جنة فأصبحت وهى ملاعب جنة وقد عميت أخبار قطانها وآثار أوطانها حتى شابهت احداهما فى الخفاء الاخرى فى العفاء وكنت أظن انها لا تسقى بعدهم بغمام ولا يرفع عنها جلباب ظلام غير أن السحاب بكاهم فأجرى بها هوامع دموعه والليل شق عليهم جيوبه فظهر الصباح من خلال صدوعه * وقد لمح فى بعض كلامه قول الشريف من ابيات يصف فيها ما كان فى الحيرة من منازل النعمان ابن المنذر

مازلت أطرق للمنازل باللوى * حتى نزلت منازل النعمان

بالحيرة البيضاء حيث تقابلت * شم العماد عريضة الاعطان

شهدت بفضل الرافعين قبابها * ويبين بالبنيان فضل البانى

ما ينفع الماضين ان بقيت لهم * خطط معمرة بعمر فانى

يقول فيها

ولقد رأيت بدير هند منزلا * ألما من الضراء والحدثان

يغضى كمستمع الهوان تغيبت * أنصاره وخلا من الاعوان

بالى المعالم أطرقت شرفاته * اطراق منجذب القرينة عان

أمقاصر الغزلان غيرك البلا * حتى غدوت مرابض الغزلان

وملاعب الانس الجميع طوى الردى * منهم فصرت ملاعب الجنان

ومنها

مسكية النفحات تحسب تربها * برد الخليع معطر الاردان

وكأنما نوى التجار لطيمة * جرت الرياح بها على العقبان

ماء يجيب الدرع يصقله الصبا * ويقى بدوحته النسيم الوانى

زمر الزمان عليهم فتمزقوا * وجلوا عن الاقطار والاوطان

وقال أبو اسحق الصابى وتوارد مع الشريف الرضى فى المعنى والقافية يصف قصر روح

تحترم حسن مطره مليك * تحترم ملكه القدر المتاح
بجرية ماء جدوله بكاء * عليه وشدو طائره نواح

وهذا النوع من البكاء على الدمن والتأسف على ما فعلت بها أيدى الزمن كثير جدا لا يعرف الباحث عنه له حدا وذلك لشدة ولوع النفوس بذكر أحبابها وحنينها الى أماكنها التى هى مواطن اطرابها ولهذا اقتصرنا على هذه المدة القليلة وجعلناها تابعة يشفى المشوق بها غليله وقد كره بعض العقلاء التأسف على الديار لعلمهم انه لا يجدى ولا يدفع عادية الدهر الخؤن ولا يعدى ونهوا عنه لما فيه من تجديد المصاب الجزع لصاحبه الصاب والاوصاب قال أبو عمر بن عبد البر

عفت المنازل غير أرسم دمنة * حييتها من دمنة ورسوم
كم ذا الوقوف ولم تقف فى منسك * كم ذا الطواف ولم تطف بحريم
فكل الديار الى الجنائب والصبا * ودع القفار الى الصدى والبوم

انتهى كلامه رحمه الله تعالى بأكثر لفظه مع بعض اختصار *(رجع الى قرطبة فنقول) وقد ألم لسان الدين بن الخطيب رحمه الله تعالى بذكر قرطبة وبعض أوصافها فى كتاب له كتبه على لسان سلطانه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد ذكرناه بجملته فى الباب الخامس من القسم الثانى فليراجع ثمة ونص محل الحاجة منه هنا ثم كان الغزو الى أم البلاد ومثوى الطارف والتلاد قرطبة وما قرطبة المدينة التى على عمل أهلها فى القديم بهذا الاقليم كان العمل والكرسى الذى بعصا مرعى الهمل والمصر المعمور الذى فى حطه الناقة والجمل والافق الذى هو لشمس الخلافة العبشمية الحمل حيم الاسلام فى عمرتها المستماحه وأجار نهرها المغنى عن السماحه وعمدوحها الاشب بوارا وأدار الحلات سورها اسوارا وأخذ بمخنقها حصارا وأعمل النصر بشجرة أصلها اجتناء ما شاء واهتصارا وجدل من أبطالها من لم يرض انجحارا فأعمل الى المسايل اصحارا حتى قرع بعض جهاتها غلابا جهارا ورفعت الاعلام اعلاما بعز الاسلام واظهارا فلولا استهلال العوادى وان آتى الوادى لا وصت الى فتح الفتوح تلك المبادى ولقضى تفثه العاكف والبادى انتهى *(ومما كتب به لسان الدين رحمه الله تعالى فى وصف هذه الغزوة لسلطان بنى مرين على لسان صاحب الاندلس ما صورته * المقام الذى نطالعه بأخبار الجهاد ونهدى اليه عوالى صحيحة الاسناد ونبشره بأخبار الفتح البعيد الآماد ونسأل الله تعالى دوام الاسعاد والامداد ونرتقب من صنع الله تعالى على يديه تكييفا بخرق حجاب المعتاد وامتعاضا يطلع بآفاق البلاد نجوم عرر الجياد ويفتح أبواب الفتوح بأقاليد السيوف الحداد وينبئ عن مكارم من سلف من الآباء الكرام والاجداد مقام محل اخينا الذى نستفتح له بالفتح الطهور ونهدى الى مجده لما نعلم من فضل نيته وحسن قصده لطائف السرور ونستظهر بملكه المؤيد المؤمل ومجده المشهور ونتوعد منهما العدو والحبيب المذخور والولى المنصور السلطان الكذا ابن السلطان الكذا ابن السلطان الكذا أبقاه الله تعالى عالى القدر قرير العين منشرح الصدر ولا زال

بمير الجهاد وتقدمنا الى الناس بسعة الازواد وأعطينا الحركة التى يخلف المسلمون فيها وراءهم جهور الكفر من الاقطار والاعداد حقها من الاستعداد وأقصينا العطاء والاستلحاق والاستركاب فى أهل الغناء وأبطال الجهاد والجلاد فحشر الخلق فى صعيد وأخذوا الاهبة والزينة فى عيد سعيد وشمل الاستدعاء كل قريب وبعيد عن وعد ووعيد ورحلنا وفصل الله شامل والتوكل عليه كاف كافل وحيما بظاهر الحضرة حتى استوفى الناس آرابهم واستكملوا أسرابهم ودسنا منهم بلاد النصارى بجموع كثرها الله وله الحمد وأعماها وأبعد فى التماس ما عنده من الاجر مداها وعمد ما طلبنا قاشرة وجدنا السلطان دون بطرة مؤمل نصرنا وانجادنا ومستعيد حظه من مواقع جهادنا ومقتضى دين كدحه باعانتنا اياه وانجادنا قد نزل بظاهرها فى محلات من استقر على دعوته وتمسك بطاعته وشمله حكم جماعته فكان لقاؤنا اياه على حال أقرت عيون المسلمين وتكملت باعزاز الدين وبجملها يغنى عن التعيين والشرح والتبيين ورأى هو ومن معه من وفور جيش الله ما هالهم وأشك فى حال اليقظة خيالهم من جموع تسد الفضا وأبطال تقارع أسد الغضى وكتائب مصورة ورايات منشورة وأمم محشورة تفضل عن مرأى العين وتردى العدو فى مهاوى الحين فاعترفوا بما لم يكن فى حسابهم واعتبر فى عزة الله سبحانه أولو ألبابهم واذا كثر الله تعالى العدد نماوزكا وادا أراح العلل ما اعتذر غاز ولا شكا وسالت من العدد الاباطح بالاعتراف وسمت الهوادى الى الاستشراف وأخذ الترتيب حقه من المواسط الجهادية والاطراف وأحكمت التعبية التى لا ترى العين فيها خللا ولا يجد الاعتبار عندها دخلا وكان النزول على فرسخ من عدوة النهر الاعظم من خارج المدينة أنجز الله تعالى وعد دمارها وأعادها الى عهدها فى الاسلام وشعارها ومحا ظلام الكفر من آفاقها بملة الاسلام وأنوارها وقد برزت من حاميتها شوكة سابغة الدروع وافرة الجموع واستجمعت من أسوار القنطرة العظمى بحمى لا يخفر وأخذ عقابها من الحماة والكماة العدد الاوفر فبادر اليهم سرعان خيل المسلمين فصدقوهم الدفاع والقراع والمصال والمصاع وخالطوهم هبرا بالسيوف ومباكرة بالحتوف فتركوهم حصيدا وأذاقوهم وبالا شديدا وجدلوا منهم جملة وافرة وأمة كافرة وملكوا بعض تلك الاسوار فارتفعت بها راياتهم الخافقة وظهرت عليها عزماتهم الصادقة واقتحم المسلمون الوادى سبحا فى غمره واستهانة فى سبيل الله بأمره وخالطوا حامية العدو فى ضفته فاقتلعوها وتعلقوا باوائل الاسوار فصرعوها ولو كنا فى ذلك اليوم على عزم من القتال وتيسير الآلات وترتيب الرجال لدخل البلد وملك الاهل والولد لكن أجار الكفار من الليل كافر وقد هلك منهم عدد وافر ورجع المسلمون الى محلاتهم ونصر الله سافر والعزم ظافر ومن الغد خضنا البحر الذى جعلنا العزم فيه سفينا والتوكل على الله للبلاغ ضمينا ونزلنا من صفة القوى العزيز منزلا عزيزا مكينا بحيث يجاوز سورها طنب القباب وتصيب دورها من بين الخيمات بوارق الشهاب وبرزت حاميتها على متعددات الابواب مقيمة أسواق

الطغيان والسرف فأتت به عصبة الكفر والنفاق ولما تمرغ في قتالها وربما استبان
الإمكان لسكانها وان كان لم ينو على مطاولة نزالها أنزل الله النصر الذي قدم به ميعاد
العهد وساوى الصدق بطوفانه الوعد وعظم به الجهد ووقع الاتفاق على الصلاح
والكف بالسرور عن الكفاح ووقع الإمام عليها والأخذ عنها والتوا لديها بجنسه
أيام لم يخل فيها الأسوار من افتراع ولا الأبواب من دفاع عليها ووداع وأشدت مقاتل
السنا بإيمانها وارتعت الفتح الموعود ارتسامها ووقف في أهلها الجراح والعيث
الصراح وشاهدهم المسلمون بنصر الله والصباح ولولا غاية النصر لكان الاجتهار
والاستباح والله بعدها النجاح وصرفت الوجوه إلى تخريب العمران وسلط
النيران وعقر الأشجار وتعفية الآثار وأتى منها ما على النصر الشهير في الأمصار
وركب زروعها الماشية غير الأنصار ورحلنا عنها وقد اتسم الدخان حدادا وتكسر
من طعامها أجنادا فأعادت الذل أعيادا والدت الهون أولادا وكادت أن تساح
ء ر لولا أن الله تعالى جعل لها ميعادا وأتى الفل من أبطالها وشاهير رجالها
عن يسار وروساطح وعانى بالناس وأصابح على عدد جم أخرجت سماهم المشهور
بأعمالهم وسهت علاماتهم على ساعاتهم وظهر إقدام المسلمين في المعركات وبروزهم
بالحدود المشركات وشفاهم الأسلاب ووردهم الحلال الموحد بورود العلف وكان
النفول وقد حصل الأمن والقفول وحصل الجهاد المقبول ووقع النكير العنيد الذي
يهول والإقدام الذي شهدت به الرماح والخيول وخاض المسلمون من درع الطرق إلى
ركوبها والمنازل إلى استباحتها وأسنه ودها عورا تعدمها الساحل وبطحه وبكة
بعد دمها المراحل فصيروها صرعا وسلطوا عليها النار رعا وخلوا ظاهرها من
الشجر وقد أصبح ما أنف أدمار عمرانا وسات وذكر ظهرسات فلما توفرنا مع
وأراحه لست سرياسيد اوسما صنا بالمهوس أن يقصر دون افتتاحه فلطنا
القنا على ساحته وأغرينا الغارات باستباحة ما بأحواز واكتساحه وسلطنا النار على
حزونه وبطاحه وألصقنا الزعام ذوائب أدواحه وانصرفنا على الله والماحل دامنه
والأحور بابه وقد وطئنا المواطئ التي كانت على الملوك فلما نسلا ولم يزل بها حرفا
يرد ولا نسلا ولا نصر عار يل رسلا والحمد لله الذي تم الإنعام وشاء له النصر
بالنصر الأمين عبد عرفنا كم هذه الكلمات الكريمة الصفات والصنائع الروائع
التي بعد العهد عليها في هذه الأوقات علما بأنها لديكم من أحسن الهديات الوديات
ولما نعلمه لديكم من حسن النيات وكرم الطويات فإنكم سلالة الجهاد المقبول والرفد
المبذول ووعد النصر المفعول ونرجو الله عز وجل أن يصل حبالكم للمعاهد
الجهادية إلى المعاشة ونصر الله المجددية وأن يجمع الله بكم كلمة الإسلام على عهد
الاعتصام ويتم النعمة على الأنام ويديم لكم ما علم يرده على غير الأنام والله عز له
في ذاته لكم متصل الدوام مبلغا إلى دار السلام وهو سبحانه يصل سعدكم ويحرس
مجدكم ويضاعف الآلاء عندكم والسلام الكريم يخصكم ورحمة الله وبركاته اهـ

*(ومن هذا المنحى ما كتب به لسان الدين رحمه الله تعالى عن سلطانه ونصه المقام الذى أحاديث سعادته لاتمل على الاعادة والتكرار وسبيل مجادته الشهيرة أوضح من شمس الظهيرة عند الاستظهار وأخبار صنائع الله لملكه ونظم فرائد الآمال فى سلكه تخلدها أقلام الاقدار عداد الليل فى قرطاس النهار وترسمها بذهب الاسمار فى صفحات الاقمار وتجعلها سمير حلاء الاسمار وحداة القطار فى مسالك الاقطار مقام محل أخينا الذى المذعادة هباته مع الاعادة وتلقى أبناء علائه بالاذاعة والاشادة ونطرز بأعلام شانه صحائف المحادة ونشكر الله أن وهب لنا من اخوته المضافة الى المحبة والودادة ما يرجح فى ميزان الاعتبار أخوة الولادة وعرفنا بين ولايته عوارف السعادة السلطان الكذا ابن السلطان الكذا ابن السلطان الكذا ابقاه الله تعالى فى أعلام الملك السعيد بيت القصيد ووسطى القلادة ومجلى الكمال الذى بارى عيدان بأسه وجوده جنسا الابادة والافادة ولازالت آماله القاصية تنثال طوع الارادة، وعين شيمته يجمع من أشتات الفتوح والعز الممنوح بين الحسنى والزيادة معظم سلطانه العالى المثنى على مجده المرفوع اسناده فى عوالى المعالى المسرور بما يسنيه الله له من الصنع المتوالى والفتح المقدم والتالى أمير المسلمين عبدالله الغنى بالله محمد بن أمير المسلمين أبى الحجاج بن أمير المسلمين أبى الوليد بن فرج بن نصر أيد الله امره وأسعد نصره سلام كريم يتأرج فى الآفاق شذا طيبه وتسمع فى ذروة الود بلاغة خطيبه ويتضمن نوره سواد المداد عند مراسلة الوداد فيكاد يذهب بعبوسة المجهول وتقطيبه ورحمة الله وبركاته أما بعد حمد الله فاتح الابواب بمقاليد الاسباب مهما استصعبت وميسر الامور بحكم المقدور اذا أجهدت الحيل وأتعبت مخمد نيران الفتن ما التهبت وجامع كلمة الاسلام وقد تصدعت وتشعبت ومسكن رجفان الارض بعد ما اضطربت ومحييها بعهاد الرحمة مهما اهتزت وربت اللطيف الخبير الذى قدرت حكمته الامور ورتبت منهى كل نفس الى ما خطت الاقلام عليها وكتبت وبعث وأوجبت وشاءت وأبت ومجازيها يوم العرض عما كسبت والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد رسوله هازم الاحزاب لما تألبت وتألت وجالب الحتف اليها عند ما أجلبت رسول الملحمة اذا الليوث وثبت ونبى الرحمة التى هيأت النجاة وسببت وأبلغت النفوس المطمئنة من السعادة ما طلبت ومداوى القلوب المريضة وقد اشكت واقلبت بلطائفه التى راضت وهذبت وقادت الى الجنة العليا واستجلبت وأدت عن الله وأدبت الذى بجاهه نستكشف العماء اذا أطنبت ونستوكف النعماء اذا أخلفت البروق وكذبت ونتحاب فى طاعته ابتغاء الوسيلة الى شفاعته فنقول وجبت حسناتنا وثبت والرضا عن آله وأصحابه وأنصاره وأحزابه التى استحقت المزية المرضية واستوجبت لما تمت الى كماله وانتسبت وبذلت نفوسها فى الله ومرضاته تقربت والى نصرته فى حياته انتدبت والمناصل قد رويت من دماء الاعداء وأخضبت وخلفته فى أمته بعد مماته بالهمم التى عن صدق اليقين أعربت فبداءت لمجاهدة الكفار وانتدبت وأبعدت المغار وادربت حتى بلغ ملك أمته

قوله وهى أحرى

والسير وبين الطير وأغنى فى الحكاية عن العبر فلا سرف فى الخبر وهو أننا لما انصرفنا
من منازلة قرطبة نظر الحشود التى نفدت معدات أزوادها وشابت بمشيب الغلة
المستغلة مفارق بلادها واشتاق الصاد أقواتها بدوات أوقاتها رحلنا عنها وقد
اطوينا من اعدائها أكثر تلك الزروع المائلة الفروع الهائلة الروع على هشيم محص وأسف
للمضاجع مقض اذ كان عادل المطر يكف ألسنة النار عن المبالغة فى التهابها وخلاق
اهابها ونفض أغوارها ونهب شوارها واذاعة أسرارها وهى البحور المتلاطمة
اذا حطمتها الرياح الحاطمة واللجج الزاخرة اذا حركتها السوافى الماخرة تود العيون
أن تتعدى حدودها القاصية فلا تطيق والركائب الراكضة أن تشرف على غاياتها
فينفصل عن مراحلها الطريق قد جللها الربيع أرزاقا تعصمها الخزائن والاطباق
وحبوبا مفضلة لا يرزؤها الامداد والانفاق ولو اعتصت على انتسافها الآفاق
لخفنا فى سبيل الله لتعقيب غزو تلك الاقطار الحالمة بحق الضائقة واعانة تلك الطائفة
بكلوم الجماع الحائمة خوف قالم يقع فيه بالاستنابة حرصا على استئصال الصبابة وأعيينا
الرحل من اتصال الكد وقابلنا قولهم على استخفافنا فيها بالرد وأطللنا على
قرطبة بجحفلاتنا ننسف الجبال نسفا ونعم الارض زلزالا وخسفا ونستقرى مواقع
البذر احترافا ونحرق أجوابها المحترقة بحب الحصيد اختراقا ونسلط عليها من شرر النار
أمثال الجمالات الصفر مدت من الشواظ أعناقا ونوسع القرى الواسعة قتلا واسترقاقا
وندير على مستديرها كؤس الحتوف دهاقا وأخذت النيران واديها الاعظم من كلا جانبيه
حتى كأن العيون أحمت سبيكته فاستحالت وأذابت صفيحته فسالت وأتت الكفار
سماؤهم بالدخان المبين وصارت الشمس من بعد سفورها وعموم نورها منتقبة المحيا
معصبة الجبين وخضنا أحشاء الغريرة نعم أشتات النعم انتسافا وأقوات أهلها اتلافا
وآمال سكانها اخلافا وقد بهتوا لسرعة الرجوع ودهشوا لوقوع الجوع ونسبب
تخريب الربوع فى المكر البعيد أن يأتى بعد عمرانها المعهود وقد اصطلم الزرع واجتث
العود وصار الى العدم منها الوجود ورواس عزائم الاسلام خوارق تشذ عن نطاق
العوائد وعجائب تستريب فيها عين المشاهد اذ اشتمل هذا العام المتعرف فيه من الله
تعالى الانعام على غزوات أربع دمرت فيها القواعد الشهيرة تدميرا وعلا وقع مراقيها
الاذان عن راجيها وضويقت كراسى الملك تضييقا كبيرا وأذيقت وبالا مبيرا ورياح
الادالة ان شاء الله تعالى تستأنف هبوبا وأسا مشوبا والثقة بالله قد ملأت نفوسا
مؤمنة وقلوبا والله سبحانه المسؤل أن يوزع شكر هذه النعم التى أثقلت الاكتاد وأبهظت
الطواق المعتاد وابهجت المشيم والمرتاد فبالشكر يستدر مزيدها ويتوالى تجديدها
وقطعنا فى مجموعة تلك العمالة المستبحرة العمارة والفلح المعنى وصفها عن الشرح والعبارة
مراحل ختمنا بالتعريج على حرب جيان حربها ثلثانية غريبها وحددنا كربها
واستوعبنا حرقها وحربها ونظمنا البلاد فى سلك البلاء وحثثنا أنجادها وأغوارها
ركائب الاستيلاء فلم تترك بها ساقط طير فضلا عن معاف عير ولا أسأرنا الغلها المحروب بلالة

بحر وصلنا وقد تركنا بلاد النصارى الى مهالكها بالمدد والعدة والعدد وفيها المصاف
والاكد فذلت الجداد حزبها وسلكت الى الخلا والخلاء سبلها ولم يبق لها تمنعه
بخالطها وسيلة ولا نعمة تصون بالفرار فريسها وما كانت تلك النعم لولا أن اعان الله
تعالى من عنصرى النار والهوا بجود كونه الواسع وقدركه الله بيده الباسع لتولى
الايدى البشرية تخريبها ولا رزا كبيرها الا الالحاح بالاعتراف عذرها فلله القدر
جميعا نقدر به لا نحاشى ريعا ولا نجرى مزيدا امدا وعدنا والعود فى مثلها أحمد وقد
يسر لنا الفوز الامد وشيع بالسرور الكمد ووهب من عز الاسلام العمد والحمد لله
حمد الشاكرين ونعلمكم بعاد النصر على اعدائه فهو خير الناصرين عرفناكم به
لتسروا بكم المتين وتحمدكم الذى زاد منه المتين والله يصل سعدكم ويحرس مجدكم
ويبلغكم أملكم من فضله وقصدكم بمنه وطوله والسلام الكريم يخصكم ورحمة الله تعالى
وبركاته انتهى * (رجع الى ما كنا بسبيله) من اخبار قرطبة الجليلة الوصف وذكر جامعها
البديع الاتقان والرصف فنقول قد شاع وذاع على ألسنة الجم الغفير من الناس
فى هذه البلاد المشرقية وغيرها أن فى جامع قرطبة ثلثمائة وستين طاقا على عدد ايام
السنة وان الشمس تدخل كل يوم من طاق الى أن تتم الدورة ثم تعود وهذا شئ لم أقف عليه
فى كلام المؤرخين من أهل المغرب والاندلس ولو كان كما شاع لذكروه وتعرضوا له لانه من
أعجب ما يسطر مع انهم ذكروا ما هو دونه فالله اعلم بحقيقة الحال فى ذلك وسيأتى
فى الباب السابع رسالة الشقندى الطويلة وفيها من محاسن قرطبة وسائر بلاد الاندلس
الجم الغفير وقد ذكرنا فى الباب الاول جملة من محاسن قرطبة فاغنى ذلك عن اعادتها هنا
على أن رسالة الشقندى تكرر فيها بعض ما ذكرنا لانا لم نرد أن نخل بها عن حرف فأثبتناها
بلفظها وان تكرر بعض ما فيها مع بعض ما اسلفنا والعذر واضح للمنصف المعتنى
والله نسأل سلوك السبيل الذى يرضى بمنه وكرمه * وقال صاحب روض الازهار ان
فى جامع قرطبة ثريا من نحاس أصفر تحمل ألف مصباح وفيه أشياء غريبة من الصنائع
الجميلة تعجز عن وصفها الواصفون قال أحكم عمله فى سبع سنين وفيه ثلاثة أعمدة من
رخام احمر مكتوب على الواحد اسم محمد وعلى الاخر صورة عصا موسى واهل الكهف
وعلى الاخر صورة غراب نوح عليه الصلاة والسلام الثلاثة خلقة الله تعالى ولم يصنعها
صانع انتهى فلم أر أحدا ذكر من المؤرخين للاندلس ومن تممهم ذكر هذا على ما
اطلعت وهو عندى بعيد لانه لو كان لذكره الائمة * وقد حكى عياض فى الشفا
أشياء وجد عليها اسم نبينا صلى الله عليه وسلم ولم يذكر هذا ويبعد ان يكون بجامع
قرطبة ولا يذكر والله تعالى اعلم بحقيقة الامر * وقال فى موضع آخر من هذا الكتاب
ان دور قرطبة أربعة عشر ميلا وعرضها ميلان وهى على النهر الكبير وعليه جسران وبها
الجامع الكبير الاسلامى وبها الكنيسة العظيمة من النصارى وبهذه المدينة معدن الفضة
ومعدن الشادنج وهو حجر من شأنه أن يقطع الدم وكان عليه من العمال الى بناء كل
واحد منهما خمسمائة دينار فى حسنها وعلوها الزائد انتهى * (رجع الى اخبار

البنيان) ولانحناء أنه يدل على عظم قدر بانيه ولذلك قال أمير المؤمنين الناصر المرواني باني الزهراء رحمه الله تعالى حسبما نسبهما له بعض العلماء وبعض ينسبهما لغيره وسيأتيان في ترجمة نور الدين بن علي منسوبين

همم الملوك اذا أرادوا ذكرها * من بعدهم فبألسن البنيان
ان البناء اذا تعاظم قدره * أضحى يدل على عظيم الشان

وتذكرت هنا قصيدة قالها بعض الشاميين وهو الاديب الفاضل الشيخ أسد بن معين الدين مما يكتب على أبراج دار الحسيب النسيب الشهير البيت الكبير الحلبي والبيت القاضي عبد الرحمن بن الفردور الدمشقي وضمنها بيتي الناصر المذكورين

زر مجلسا أضحى أعز مكان * ومحل أهل العلم والعرفان
المجد خيم في ذرى أبراجه * والسعد عند الباب طول زمان
كالخلد مرفوع السماء وأرضه * مفروشة بالدر والعقيان
بيت به فخر البيوت لانه * بيت القصيد ومنزل الضيفان
مغنى فسيح فيه معنى مفصح * عن قدر بانيه بغير لسان
قد قال بعض ذوي الفضائل قبلنا * قولا بديعا واضح التبيان
همم الملوك اذا أرادوا ذكرها * من بعدهم فبألسن البنيان
ان البناء اذا تعاظم قدره * أضحى يدل على عظيم الشان
قد شاده من ساد أهل زمانه * بالاصل والافضال والرجحان
ورث السيادة كابرا عن كابر * وسما برفعته على كيوان
قاضي القضاة ومفخر العصر الذي * قد جاء فيه سابق الاقران
في العلم بحر لا ينال قراره * في الحكم مثل مهند وسنان
يروي عطاء عن يديه قد اقتفى * آثار آباء ذوي احسان
لا زال يبقى شائدا بيت العلا * وعدوه في الوهن والنقصان
يا أيها المولى الذي يجري مع الاقبال والاسعاد طلق عنان
دم شامخ المقدار مرتفع البنا * والناس تحت رضاك كالغلمان
متمتعا بنيك سادات الورى * في عز رب دائم السلطان
ما رجع القمري في تغريده * في الروض فوق منابر الاغصان

وكان القاضي عبد الرحمن بن فردور المذكور عالي الهمة تضيق يده عما يريد فلذلك كان كثيرا ما يبث شكواه في الطروس والدفاتر ويعتب على الزمان الذي أخنى على أهل الادب وقطع آمالهم بحسامه الباتر ويرحم الله القائل

هذا زمان دريهمي لا غيره * فدع الدفاتر للزمان الفاتر

في نظم المذكور وقد أبطأ بجزء استعاره من بعض اخوانه فكتب اليه معتذرا وأدمج شكوى الزمان الذي كان من شماتة الاعداء به حذرا

أبطأت في ذا الجزء يا سيدي * كآبة من جور دهر بغيض

فارقته فالسقم مني لي * عائداً والقلب مني مرتمض

فإذا أبى الإسار قي وقد * أخلى به محل الغمض

واقتادني قسراً إلى مصرع * يذوي به اللحم والعظم هض

سلبي للأفراد مستسرعاً * لباب مولى ذي عطا عريض

جوم صبر كسب أسطوته * على رزايا الدهر بالهم عض

فلا يلم باصاح من بعدها * إذا علت حال الحريض

ورأيت بخطه رحمه الله تعالى مما نسبه للشيخ الحضري الحافظ لإبراهيم بن نصر الجوري ثم المصري المعروف بابن الفقيه

يا ربنا يا كافيا * وليت أمري أجمع

إن يعصب فإني * فاصطباري أوسع

وقد تورية بديعة للغاية في الغضب والجمع مع حلاوة النظم وجودة السبك ورحمه الورى والله سبحانه روح تلك الأرواح في الجنان وتعاملها وإياهم بمحض الفضل والإحسان وكما تحون دهر جرى ساطلي العنان (رجع إلى ما كنا فيه) وكتب وقفت في كلام بعض العلماء على أن البناء المنسوبين إلى أمير المؤمنين الناصر المرواني رحمه الله تعالى فالهما في الزهرا التي بناها وسيأتي ذكرها قريباً وقال الشيخ سيدي محيي الدين بن العربي في المسامرات إنه قرأ على مدينة الزهرا بعد خرابها وصيرورتها مأوى الطير والوحش وبناؤها عجيب في بلاد الأندلس وهي قريبة من قرطبة أبياتاً تذكر العاقل وتنبه الغافل وهي

ديار بأكناف الملاعب تلمع * وما إن بها من ساكن وهي بلقع

ينوح عليها الطير من كل جانب * فيصمت أحياناً وحيناً يرجع

فخاطبت منها طائراً متغرداً * له شجن في القلب وهو مروع

فقلت على ماذا تنوح وتشتكي * فقال على دهر مضى ليس يرجع

(ثم قال) وأخبرني بعض مشايخ قرطبة عن سبب بناء مدينة الزهرا أن الناصر ماتت له سرية وتركت مالاً كثيراً فأمر أن يفك بذلك المال أسرى المسلمين وطلب في بلاد الإفرنج أسيراً فلم يوجد فشكر الله تعالى على ذلك فقالت له جاريته الزهرا وكان يحبها اشتهيت لو بنيت لي به مدينة تسميها باسمي وتكون خاصة لي فبناها تحت جبل العروس من قبلة الجبل وشمال قرطبة وبينها وبين قرطبة اليوم ثلاثة أميال أو نحو ذلك وأتقن بناها وأحكم الصنعة فيها وجعلها متنزهاً ومسكناً للزهرا وحاشية أرباب دولته ونقش صورتها على الباب فلما قعدت الزهرا في مجلسها نظرت إلى بياض المدينة وحسنها في حجر ذلك الجبل الأسود فقالت يا سيدي ألا ترى إلى حسن هذه الجارية في حجر ذلك الزنجي فأمر بزوال ذلك الجبل فقال بعض جلسائه أعيذ أمير المؤمنين أن يخطر له ما يشين العقل سماعه لو اجتمع الخلق ما أزالوه حفراً ولا قطعاً ولا يزيله إلا من خلقه فأمر بقطع شجره وغرسه تيناً ولوزاً ولم يكن منظر أحسن منها ولا سيما في زمان الأزهار وتفتح

الاشجار وهي بين الجبل والسهل انتهى ببعض اختصار وقال ابن خلكان في ترجمة المعتمد بن عباد ما صورته الزهراء بفتح الزاي وسكون الهاء وفتح الراء بعدها همزة ممدودة وهي من عجائب أبنية الدنيا أنشأها أبو المطرف عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله الملقب بالناصر أحد ملوك بني أمية بالاندلس بالقرب من قرطبة في أول سنة خمس وعشرين وثلثمائة ومسافة ما بينهما أربعة أميال وثلثا ميل وطول الزهراء من الشرق الى الغرب ألفان وسبعمائة ذراع وعرضها من القبلة الى الجنوب ألف وخمسمائة ذراع وعدد السواري التي فيها أربعة آلاف سارية وثلثمائة سارية وعدد أبوابها يزيد على خمسة عشر ألف باب وكان الناصر يقسم جباية البلاد أثلاثا فثلث للجند وثلث مدخر وثلث ينفقه على عمارة الزهراء وكانت جباية الاندلس خمسة آلاف ألف ألف دينار وأربعمائة ألف ألف وثمانين ألف دينار ومن السوق والمستخلصة سبعمائة ألف دينار وخمسة وستون ألف دينار وهي من أهول ما بناه الانس وأجله خطرا وأعظمه شأنا ذكر ذلك كله ابن بشكوال في تاريخ الاندلس انتهى كلامه * وحكى في المطمح أن الوزير الكبير الشهير أبا الحزم بن جهور قال وقد وقف على قصور الامويين التي تقوضت أبنيتها وعوضت من أنيسها بالوحش أفنيتها

قلت يوما لدار قوم تفانوا * أين سكانك العزاز علينا
فأجابت هنا أقاموا قليلا * ثم ساروا ولست أعلم أينا

وفيه أن أبا عامر بن شهيد بات ليلة باحدى كنائس قرطبة وقد فرشت بأضغاث آس وعرشت بسرور وائتناس وقرع النواقيس يبهج سمعه وبرق الحميا يسرع لمعه والقس قد برز في عبدة المسيح متوشحا بالزنار أبدع توشيح قد هجروا الافراح واطرحوا النعم كل اطراح لا يعمدون الى ماء بأيدي الا اغترافا من الغدران بالراح وأقام بينهم يعملها حميا كأنما يرشف من كأسها شفة لميا وهي تنفح له بأطيب عرف كلما رشفها أعذب رشف ثم ارتجل بعد ما ارتحل فقال

ولرب حان قد شممت بديره * خمر الصبا مزجت بصرف عصيره
في فتية جعلوا السرور شعارهم * متصاغرين تخشعا لكبيره
والقس مما شاء طول مقامنا * يدعو بعود حولنا بزبوره
يهدي لنا بالراح كل مصفر * كالخشف خفره التماح خفيره
يتناول الظرفاء فيه وشربهم * لسلافهم والاكل من خنزيره انتهى

*(رجع الى أنباء الزهراء) قال بعض من أرخ الاندلس كان يتصرف في عمارة الزهراء كل يوم من الخدام والفعلة عشرة آلاف رجل ومن الدواب ألف وخمسمائة دابة وكان من الرجال من له درهم ونصف ومن له الدرهمان والثلاثة وكان يصرف فيها كل يوم من الصخر المنحوت المعدل ستة آلاف صخرة سوى الآجر والصخر غير المعدل انتهى وسيأتي في الزهراء مزيد كلام وقال ابن حيان ابتدأ الناصر بناء الزهراء أول يوم من محرم سنة ٣٢٥ وجعل طولها من شرق الى غرب ألفين وسبعمائة ذراع وتكسيرها تسعمائة

لا يدترس الجرى والمأمون قاعد فيها لا يمسه من الماء شئ ولا يصله ويوقد فيها الشموع فيرى لذلك منظر بديع عجيب وبينما هو فيها سامع جواريه ذات ليلة اذ سمع منشدا ينشد

أتبنى بناء الخالدين وانما * مقامك فيها لو عقلت قليل
لقد كان فى ظل الأراك كفاية * لمن كل يوم يقتضيه رحيل

فتنغص عليه حاله وقال انا لله وانا اليه راجعون أظن أن الاجل قد قرب فلم يلبث بعدها غير شهر وتوفى ولم يجلس فى تلك القبة بعدها وذلك سنة ٤٦٢ تجاوز الله تعالى عنه هكذا حكاه بعض مؤرخى المغرب * وقد ذكر فى غير هذا الموضع من هذا الكتاب حكاية هذه القبة بلفظ ابن بدرون شارح العبدونية فليراجع وتذكرت هنا قول أبي محمد المصرى فى صفة قصر طليطلة

قصر يقصر عن مداه الفرقد * عذبت مصادره وطاب المورد
نشر الصباح عليه ثوب مكارم * فعليه ألوية السعادة تعقد
وكأنما المأمون فى أرجائه * بدر تمام قابلته أسعد
وكأنما الاقداح فى راحاته * درّ جمان ذاب فيه العسجد

وله فى صفة البركة والقبة عليها

شمسية الانساب بدرية * يحار فى تشبيهها الخاطر
كأنما المأمون بدر الدجى * وهى عليه الفلك الدائر

وكان ملوك الاندلس فى غاية الاحتفال بالمجالس والقصور وللوزير الجزيرى رحمه الله تعالى فى وصف مجلس للمنصور بن أبي عامر ما يشهد لذلك وهو قوله

وتوسطتها جنة فى قعرها * نبت السلاحف ما تزال تنقنق
تنساب من فلكى هزبران يكن * نبت الجنان فاق فاه أحرق
صاغوه من ند وخلق صفحتى * هاديه محض الدر فهو مخلق
للياسمين تطلع فى عرشه * مثل المليك غداة وهو مطوّق
ونضائد من نرجس وبنفسج * وجنى خيرى وورد يعبق
ترنو بسحر عيونها وتكاد من * طرب اليك بلا لسان تنطق
وعلى يمينك سوسنات أطلعت * زهر الربيع فهى حسنا تشرق
فكأنما هى فى اختلاف رقومها * رايات نصرك يوم بأسك تخفق
فى مجلس جمع السرور لأهله * ملك اذا اجتمعت قناه يفرّق
حازت بدولته المغارب رفعة * فغدا ليحسدها عليه المشرق

ومن هذه القصيدة

أما الغمام فشاهد لك انه * لا شك صنوك أو أخوك الأوثق
وافى الصنيع فحين تم تمامه * فى الصحو انشاه ودقه يتدفق
وأظنه يحكيك جود اذ رأى * فى اليوم بحرك زاخرا يتفهق

ولرعا جمع الصبح من التالي * من صارم المنصور يوم قراعه
تحكاه غير مخالف فى لونه * لافى روائحه وطيب طباعه
ملك جهلنا قبله سبل العلا * حتى وضحن بهجه وشراعه
فى سيفه قصر لطول نجاده * وتمام ساعده وفسحة باعه
ذو همة كالبرق فى اسراعه * وعزيمة كالحين فى ايقاعه
تلقى الزمان له مطيعا سامعا * وترى الملوك الشم من أتباعه

وما أحسن قول بعض الاندلسيين يصف حديقة

وحديقة مخضرة أثوابها * فى قضبها للطير كل مغرد
نادمت فيها فتية صفحاتهم * مثل البدور تنير بين الاسعد
والجدول الفضى يضحك ماؤه * فكأنه فى العين صفح مهند
واذا تجعد بالنسيم حسبته * لما تراه مشبها للمبرد
وتناثرت نقط على حافاته * كالعقد بين مجمع ومبدد
وتدحرجت للناظرين كأنها * در نثير فى بساط زبرجد

وكان بحمام الشطارة باشبيلية صورة بديعة الشكل فوصفها بعض أهل الاندلس بقوله

ودمية مرمر تزهو بجيد * تناهى فى التورد والبياض
لها ولد ولم تعرف حليلا * ولا ألمت بأوجاع المخاض
ونعلم أنها حجر ولكن * تتيمنا بألحاظ مراض

وكان بسرقسطة فى القصر المسمى بدار السرور مجلس الذهب أحد قصور المقتدر بن هود وفيه يقول ذو الوزارتين ابن غندشلب يهجو وزيرا كان ينبز بحقون

ضج من تحقون بيت الذهب * ودعا مما به وا حربى
رب طهرنى فقد دنسنى * عار تحقون ألوف الذنب

(وكتب) بعض كبراء الاندلس الى اخوانه كتابى هذا من وادى الزيتون ونحن فيه محتلون بقعة اكتست من السندس الاخضر وتحلت بأنواع الزهر وتحايلت بأنهار تخللها وأشجار تظللها تحجب أدواحها الشمس لالتفافها وتأذن للنسيم فيميل من أعطافها وما شئتم من محاسن تروق وتعجب وأطيار تتجاوب بألحان تلهى وتطرب فى مثلها يعود الزمان كله صبا وتجرى الحياة على الامل والمنى وانا فيها أبقاكم الله سبحانه بحال من طاب غداؤه وحسن استمراؤه وصحا من جنون العقار واستراح من مضض الخمار ورذايلته ووساوسه وخلت من الحياط هواجسه ثم ذكر كلاما من هذا النمط فى وصف الخمار والدعاء الى العقار * فراجعه ابو الفضل بن حسداى برقعة قال فى صدرها الى سيدنا الذى ألزمنا بامتنانه الشكر وكبيرنا الذى علمنا بيانه السحر وعميدنا الذى عقدنا بحرمه الخل ورمانا بدائه وانسل أبقاك الله تعالى لتوبة نصوح تقرها وعين عروس تبرها ورد أبقاك الله تعالى كتابك الذى أمددته من معرسك بوادى الزيتون ووقفنا على ما اقتست فى أوصافه من جنة المفتون واعجابك بالتفاف شجره ودوحاته واهتزازك بلطيف بواكره

حتى يسقط لدرج الكلام بيناهاء السكت ويدخل الاستفال حال الصمت فلا تخيل أعزك الله أن رسم اخائك عندي دوحه قد درس عفاه ولا أن صدري دارمية أمسى من ودد خلاء وانما أنا فعل اذا تنى ظهر من ضمير ودك ما بطن وبدامنه ما كمن وهنيئا أعزك الله أن فعل ودادتك حاضر لا يلحق ربعه تغيير وأن فعل سيفك ماض ما به للعوامل تأثير وأنت بحمدك جامع ابواب الظرف تأخذ نفسك العلية بمطالعة باب الصرف ودرس حروف العطف وتدخل لام التبرئة على ما حدث من عتبك وتوجب بعد النفي ما سلف من عبدك وتدع ألف الالفة أن تكون بعد من حروف اللين وترفع بالاضافة بيننا وجود التنوين وتسوم ساكن الود أن يتحرك ومعتل الاخاء أن يصح وكان هذا حرف صلة فلا تحذفه حتى تعود الحال الاولى صفة وتصير هذه النكرة معرفة فأنت أعزك الله مصدر فعل السرور والنبل ومنك اشتقاق اسم السودد والفضل وانك وان تأخر العصر بك كالفاعل وقع مؤخرا وعدوك وان تكبر كالكميت لم يقع الا مصغرا وللايام علل تبسط وتقبض وعوامل ترفع وتخفض فلا دخل عروضك قبض ولا عاقب رفعك خفض ولا زلت مرتبطا بالفضل شرطك وجزاؤك جاريا على الرفع سرورك الكريم وساؤك حتى يخفض الفعل وتبنى على الكسر قبل ان شاء الله * وكتب رحمه الله تعالى يستدعي عودغناء * انتظم من اخوانك أعزك الله تعالى عقد شرب يتساقون في ودك ويتعاطون ريحانة شكرك وحمدك ومامنهم الا شره المسامع الى رنة حمامة ناد لاحمامة بطن واد والطول لك في صلتها بجماد ناطق قد استعار من بنان لسانا وصار لضمير صاحبه ترجمانا وهو على الاساءة والاحسان لا يسلك من ايقاع به من غير ايجاع له فان هما عركت أذنه وأدب وان تأبى واستوى نعم بطنه وضرب لا زلت منتظم الجذل ملتئم الأمل انتهى

*(ومن نظمه رحمه الله تعالى يتفجع ويتوجع

شراب الاماني لو علمت سراب * وعتبى الليالي لو عرفت عتاب
وهل مهجة الانسان الا طريدة * يحوم عليها للحمام عقاب
يحث بها في كل يوم وليلة * مطايا الى دار البلى وركاب
وكيف يغيض الدمع أو يبرد الحشا * وقد باد أقران وفات شباب
أقلب طرفي لا أرى غير ليلة * وقد حط عن وجه الصباح نقاب
كأني وقد طار الصباح حمامة * يمد جناحيه علي غراب
دعاهم داعي الردى فكأنما * تبارت بهم خيل هناك عراب
فهاهم وسلم الدهر حرب كأنما * جنا بينهم طعن لهم وضراب
قعود ولا غير التراب حشية * بجنب ولا غير القبور قباب
ولست بناس صاحبا من ربيعة * اذا نسيت رسم الوفاء صحاب
ومما شجاني أن قضى حتف أنفه * وما اندق رمح دونه وكعاب
وانا تجاريناثلاثين حقبة * فمات سباقا والحمام قصاب
كأن لم يبت في منزل القصف ليلة * يجيب بها داعي الصبا ويجاب

إذا قام منها قام في رعطفه * ثياب أرتها نهار سراب
ولما رأيت للشيب ترسمه * وأوضح من ظل الشباب سحابه
فهيما ناغى البلابل حوله * وأرسيها في النائبات هضاب
فما ظاعنا قد حط في ساحة البلى * عشية بين لبس عيشه ماآب
كفى حزنا أن لم يزر على النوى * رسول ولم يقصد إليك كتاب
وأني إذا غيبت فيك زائرا * وغيب ودوني للتراب حجاب
ولو أن حيا كان جاور ميتا * لطال كلام بيننا وخطاب
وأغرب عما عهد من حلة * فأقشع عن شمس هناك طلاب

وقد أتينا بما كنا قصدناه من ذكر قرطبة أعادها الله للإسلام بفضل * قال بعض من أرّخ الأندلس انتهت مساجد قرطبة أيام عبد الرحمن الداخل إلى أربعمائة وتسعين مسجدا ثم زادت بعد ذلك كثيرا كما سيأتي ذكره * وقال بعضهم كانت قرطبة قاعدة الأندلس وأم المدائن وقرار الملك وكان عدد حمامها أربعة آلاف وثلثمائة وكانت عدة الدور التي بالقصر الكبير أربعمائة دار ونيفا وثلاثين وكانت عدة دور الرعايا والسوقة ما بين الواقعة على أهلها المبنية في السور مائة ألف دار وثلاثة عشر ألف دار حاشا دور الوزراء وأكابر الناس والخاصة * ورأيت في بعض الكتب أن هذا العدد كان أيام لمتونة والموحدين قال وكانت دار أهل الدولة إذ ذاك ستة آلاف دار وثلثمائة دار انتهى وعدد أرباضها ثمانية وعشرون وقيل أحد وعشرون ومبلغ المساجد بها ثلاثة آلاف وثمانمائة وسبعة وثلاثون مسجدا وعدد الحمامات المبرزة للناس تسعمائة حمام وقيل ثلثمائة حمام وقال ابن حيان إن عدد المساجد عندما انتهت إليه في مدة ابن أبي عامر ألف وستمائة مسجد والحمامات تسعمائة حمام وفي بعض التواريخ القديمة كان بقرطبة في الزمن السالف ثلاثة آلاف مسجد وثمانمائة وسبعة وسبعون مسجدا منها بشقندة ثمانية عشر مسجدا وتسعمائة حمام وإحدى عشر حماما ومائة ألف دار وثلاثة عشر ألف دار للرعية خصوصا ورغا نقص العدد أو كثر لأرباب الدولة وخاصتها هكذا نقله في المغرب وهو أعلم بما نقل وقدر رحمه الله تعالى * وقال بعض المؤرخين بعد ذكر نحو ما تقدم ووسط الأرباض مدينة قرطبة التي تحيط بالسور دونها وأما النعمة التي كانت في الخلق البديع فإنها كانت من تحف قصر اليونانيين بعث بها صاحب القسطنطينية إلى الناصر مع تحف كثيرة سنة انتهى وتحول لابن الفرضي وغيروا حدلكن حالهم صاحب المسالك والممالك فذكر أن عدد المساجد بقرطبة أربعمائة مسجد وإحدى وسبعون مسجدا وهو بعيد وقال فإن دور قرطبة في كمالها ثلاثون ألف ذراع * وتفسيرها باللسان القوطي القلوب المختلفة وهي بالقوطية بالظاء المشالة وقيل إن معنى قرطبة أجر فاسكنها قال وقرطبة أقاليم كثير وكور جليلة * وكانت جبايتها في أيام الحكم بن هشام مائة ألف دينار وعشر آلاف دينار وعشرين دينارا وستين مائة ألف هذا ومن الطعام أربعة آلاف مدى وستمائة مدى ومن الشعير سبعة آلاف مدى وستمائة مدى وسبعة وأربعين مدا وقال بعض

العليا

العلماء أحصيت دور قرطبة التي بها وأرباضها أيام ابن أبي عامر فكانت مائتي ألف دار وسبعة وسبعين دارا وهذه دور الرعية وأما دور الاكابر والوزراء والكتاب والاجناد وخاصة الملك فستون ألف دار وثلثمائة دار سوى مصاري الكراء والحمامات والخانات وعدد الحوانيت ثمانون ألف حانوت وأربعمائة وخمسة وخمسون ولما كانت الفتنة على رأس المائة الرابعة عفيت رسوم ذلك العمران ومحيت آثار تلك القرى والبلدان انتهى ملخصا * وسيأتي في رسالة الشقندي ماهو أشمل من هذا * ولما رقت حال أبي القاسم عامر بن هشام القرطبي بقرطبة وزين له بعض أصحابه الرحلة الى حضرة ملك الموحدين مراكش قال وذكر المتنزهات القرطبية

يا هبة باكرت من نحو دارين * وافت الى على بعد تحييني
سرت على صفحات النهر ناشرة * جناحها بين خيري ونسرين
ردت الى جسدي روح الحياة وما * خلت النسيم اذا ما مت يحييني
لولا تنسمها عن نشر أرضكم * ما أصبحت من أليم الوجد تبريني
مرت على عقدات الرمل حاملة * من سركم خبرا بالوحي يشفيني
عرفت من عرفه ما كنت أجهله * لما تبسم في تلك الميادين
نزوت من طرب لما هفا سحرا * وطل بشري طورا ويطويني
خلت الشمال شمالا اذ سكرت بها * سكرا بما لست أرجوه يمنيني
أهدت الى أريجا من شمائلكم * فقلت قربني من كان يقصيني
وخلت من طمع أن اللقاء على * اثر النسيم وأضحى الشوق يحدوني
فطلت ألثم من تعظيم حقكم * مجر أذيالها والوجد يغريني
مسارح كم بها سرحت من كمد * قلبي وطرفي ولا سلوان يثنيني
بين المصلى الى وادي العقيق وما * يزال مثل اسمه ان بان يبكيني
الى الرصافة فالمرج النضير فوا * دي الدير فالعطف من بطحاء عبدون
لباب عبد سقته السحب وابلها * فلم يزل بكؤس الانس يسقيني
لاباعد الله عيني عن منازهه * ولا يقرب لها أبواب جيرون
حاشا لها من مجلات مفارقة * من شيق دونها في القرب محزون
أين المسير ورزق الله أدركه * من دون جهد وتأميل يعنيني
يا من يزين لي الترحال عن بلدي * كم ذا تحاول نسلا عن دعين
وأين يعدل عن أرجاء قرطبة * من شاء يظفر بالدنيا وبالدين
قطر فسيح ونهر ما به كدر * حفت بشطيه ألفاف البساتين
باليت لي عمر نوح في اقامتها * وأن مالي فيه كنز قارون
كلاهما كنت أفنيه على نشوا * ت الراح نهبا ووصل الحور والعين
وانما أسفي أني أهيم بها * وأن حظي منها حظ مغبون
أرى بعيني مالا تستطيل يدي * له وقد حازه من قدره دوني

أحواله ما لابد منه فنقول قال بعض المؤرخين ليس فى بلاد الاسلام أعظم منه ولا أعجب
بناء وأتقن صنعة وكلما اجتمعت منه أربع سوارى كان رأسها واحدا ثم صف رخام منقوش
بالذهب واللازورد فى اعلاه وأسفله انتهى وكان الذى ابتدأ بناء هذا المسجد العظيم عبد
الرحمن بن معاوية المعروف بالداخل ولم يكمل فى زمانه وكمله ابنه هشام ثم توالى الخلفاء من بنى
أمية على الزيادة فيه حتى صار المثل مضروبا به والذى ذكره غير واحد أنه لم يزل كل خليفة
يزيد فيه على من قبله الى أن كمل على يد نحو الثمانية من الخلفاء * وقال بعض المؤرخين
ان عبد الرحمن الداخل لما استقر أمره وعظم بنى القصر بقرطبة وبنى المسجد الجامع وأنفق
عليه ثمانين ألف دينار وبنى بقرطبة الرصافة تشبيها برصافة جده هشام بدمشق وقال بعض
انه أنفق على الجامع ثمانين ألف دينار واشترى موضعه اذ كان كنيسة بمائة ألف دينار فالله
تعالى أعلم * وقال بعض المؤرخين فى ترجمة عبد الرحمن الداخل ما صورته انه لما تمهد ملكه
شرع فى تعظيم قرطبة فجدد مغانيها وشيد مبانيها وحصنها بالسور وابتنى قصر الامارة
والمسجد الجامع ووسع فناءه وأصلح مساجد الكور ثم ابتنى مدينة الرصافة منتزها له واتخذ
بها قصرا حسنا وجنانا واسعة نقل اليها غرائب الغراس وكرائم الشجر من بلاد الشام وغيرها
من الاقطار انتهى وكانت أخته أم الاصبغ ترسل اليه من الشام بالغرائب مثل الرمان
العجيب الذى أرسلته اليه من دمشق الشام كما مر وسيأتى كلام ابن سعيد بعد هذا وأتم من هذا
* ولما ذكر ابن بشكوال زيادة المنصور بن أبى عامر فى جامع قرطبة قال ومن أحسن ما عاينه
الناس فى بنيان هذه الزيادة العامرية أعلاج النصارى مصفدين فى الحديد من أرض
قشتالة وغيرها وهم كانوا يتصرفون فى البنيان عوضا من رجالة المسلمين اذلالا للشرك
وعزة للاسلام ولما عزم على زيادته هذه جلس لارباب الدور التى نقل أصحابها عنها بنفسه
فكان يؤتى بصاحب المنزل فيقول له ان هذه الدار التى لك يا هذا أريد أن أبتاعها لجماعة
المسلمين من مالهم وفيئهم لازيدها فى جامعهم وموضع صلاتهم فشطط واطلب ما شئت
فاذا ذكر له أقصى الثمن أمر أن يضاعف له وأن تشترى له بعد ذلك دار عوضا منها حتى أتى
بامرأة لها دار بصحن الجامع فيها نخلة فقالت لا أقبل عوضا الا دارا بنخلة فقال تبتاع لها
دار بنخلة ولو ذهب فيها بيت المال فاشتريت لها دار بنخلة وبولغ فى الثمن وحكى ذلك
ابن حيان أيضا * وقيل ان انفاق الحكم فى زيادة الجامع كان مائة ألف وواحدا وستين
ألف دينار ونيفا وكله من الاخماس * وقال صاحب كتاب مجموع المفترق كان سقف البلاط
من المسجد الجامع من القبلة الى الجوف قبل الزيادة مائتين وخمسا وعشرين ذراعا
والعرض من الشرق الى الغرب قبل الزيادة مائتا ذراع وخمسة أذرع ثم زاد الحكم فى طوله
مائة ذراع وخمسة أذرع فكمل الطول ثلثمائة ذراع وثلاثين ذراعا وزاد محمد بن أبى
عامر بأمر هشام بن الحكم فى عرضه من جهة المشرق ثمانين ذراعا فتم العرض مائتى ذراع
وثلاثين ذراعا وكان عدد بلاطه أحد عشر بلاطا عرض أوسطها ستة عشر ذراعا وعرض
كل واحد من اللذين يليانه غربا واللذين يليانه شرقا أربع عشرة ذراعا وعرض كل واحد
من الستة الباقية احدى عشرة ذراعا وزاد ابن أبى عامر فيه ثمانية عرض كل واحد

عشر أذرع وكان العمل في زيادة المنصور سنتين ونصفا وخدم فيه بنفسه وطول الجامع من المشرق الى المغرب مائة ذراع وثمان وعشرون ذراعا وعرضه من القبلة الى الجوف مائة ذراع وخمس أذرع وعرض كل واحد من السقائف المسقفة سبعة عشر أذرع ومكسّره ثلاثة وثلاثون ألف ذراع ومائة وخمسون ذراعا وعدد أبوابه تسعة ثلاثة في صحنه غربا وشرقا وأربعة في البلاطات بابان شرقيان وبابان غربيان وفي مقاصير النساء من السقائف بابان وجميع ما فيه من الأعمدة ألف عمود ومائتا عمود ودونها وتسعون عمودا رخاما كلها وباب مقصورة الجامع ذهب وكذلك جدار المحراب وما يليه قد أجري فيه الذهب على الفسيفساء وثريات المقصورة فضة محضة وارتفاع الصومعة اليوم وهي من بناء عبد الرحمن بن محمد ثلاث وسبعون ذراعا الى أعلى القبة المفتحة التي يستدير بها المؤذن وفي رأس هذه القبة تفافيح ذهب وفضة ودور كل تفاحة ثلاثة أشبار ونصف فاثنتان من التفافيح ذهب إبريز وواحدة فضة وتحت كل واحدة منها وفوقها سوسنة قد هندست بأبدع صنعة ورمانة ذهب صغيرة على رأس الزج وهي إحدى غرائب الأرض وكان بالجامع المذكور في شنته مصحف أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه الذي خطه بيده وعليه حلية ذهب مكللة بالدر والياقوت وعليه أغشية الديباج وهو على كرسي العود الرطب بمسامير الذهب (رجع الى المنار) وارتفاع المنار الى مكان الأذان أربع وخمسون ذراعا وطول كل حائط من حيطانها على الأرض ثماني عشرة ذراعا انتهى بحروفه وفيه بعض مخالفة لما ذكر ابن الفرضي وبعضهم ادعى في زيادة المنصور بن أبي عامر ما ستذكره وكان من أخبار المنصور الداخلة في أبواب البر والقربات بنيان المسجد الجامع والزيادة فيه سنة سبع وسبعين وثلاثمائة وذلك أنه لما زاد الناس بقرطبة وانجلب اليها قبائل البربر من العدوة وإفريقية وتناهت حالها في الجلالة ضاقت الأرباض وغيرها وضاق المسجد الجامع عن حمل الناس فشرع المنصور في الزيادة بشرقيه حيث تمكن الزيادة لاتصال الجانب الغربي بقصر الخلافة فبدأ ابن أبي عامر في هذه الزيادة على ثماني بلاطات تمتد طولا من أول المسجد الى آخره وقصد ابن أبي عامر في هذه الزيادة المبالغة في الاتساع والوثاقة دون الزخرفة ولم يقصر مع هذا عن سائر الزيادات جودة ما عدا زيادة الحكم وأول ما عمله ابن أبي عامر تطييب نفوس أرباب الدور الذين اشتريت منهم للهدم لهذه الزيادة بإنصافهم في الثمن وصنع في صحنه الجب العظيم قدره الواسع فناؤه وهو أعني ابن أبي عامر هو الذي رتب إحراق الشمع بالجامع زيادة للزيت فتطابق بذلك النوران وكان عدد سواري الجامع الحاملة لسمائه واللاصقة عامة ومائة ومنار بين كبير وصغير ألف سارية وأربعمائة سارية وسبع عشرة سارية وقيل أكثر وعدد ثريات الجامع ما بين كبير وصغير مائتان وثمانون ثريا وعدد الكؤوس سبعة آلاف كأس وأربعمائة كأس وخمسة وعشرون كأسا وقيل عشرة آلاف وثمانمائة وخمس كؤوس ووزن ما يحتاج من الرصاص للكؤوس المذكورة عشرة أرباع أو نحوها ووزن ما يحتاج اليه من الكتان للفتائل في كل شهر رمضان ثلاثة أرباع القنطار وجميع ما يحتاج

اليه الجامع من الزيت فى السنة خمسمائة ربع أو نحوها يصرف منه فى رمضان خاصة نحو نصف العدد ومما كان يختص رمضان المعظم ثلاثة قناطير من الشمع وثلاثة ارباع القنطار من الكتان المقطن لاقامة الشمع المذكور والكبيرة من الشمع التى توضع بجانب الامام يكون وزنها من خمسين الى ستين رطلا يحترق بعضها بطول الشهر ويعم الحرق لجميعها ليلة الختمة وكان عدد من يخدم الجامع المذكور بقرطبة فى دولة ابن أبى عامر ويتصرف فيه من ائمة ومقرئين وامناء ومؤذنين وسدنة وموقدين وغيرهم من المتصرفين مائة وتسعة وخمسين شخصا ويوقد من البخور ليلة الختمة أربعة أواق من العنبر الاشهب وثمان أواق من العود الرطب انتهى * وقال بعض المؤرخين كان للجامع كل ليلة جمعة رطل عود وربع رطل عنبر يتبخر به انتهى * وقال ابن سعيد نقلا عن ابن بشكوال طول جامع قرطبة الاعظم الذى هو بداخل مدينتها من القبلة الى الجوف ثلثمائة وثلاثون ذراعا الصحن المكشوف منه ثمانون ذراعا وغير ذلك مقرمد وعرضه من الغرب الى الشرق مائتان وخمسون ذراعا وعدد أبهائه عشرا كثماالها بالشمالية التى زادها المنصور بن أبى عامر بعد هذا تسعة عشر بهوا وتسمى البلاطات وعدد أبوابه الكبار والصغار أحد وعشرون بابا فى الجانب الغربى تسعة أبواب منها واحد كبير للنساء يشرع الى مقاصيرهن وفى الجهة الشرقية تسعة أبواب منها لدخول الرجال ثمانية أبواب وفى الجهة الشمالية ثلاثة أبواب منها لدخول الرجال بابان كبيران وباب لدخول النساء الى مقاصيرهن وليس لهذا الجامع فى القبلى سوى باب واحد بداخل المقصورة المحدثة فى قبلته متصل بالساباط المفضى الى قصر الخلافة منه كان السلطان يخرج من القصر الى الجامع لشهود الجمعة وجميع هذه الابواب ملبسة بالنحاس الاصفر بأغرب صنعة وعدد سوارى هذا المسجد الجامع الحاملة لسمائه واللاصقة بمبانيه وقبابه ومناره وغير ذلك من أعماله بين كبار وصغار ألف وأربعمائة سارية وتسع سوارى منها بداخل المقصورة مائة وتسع عشرة سارية وذكر المقصورة البديعة التى صنعها الحكم المستنصر فى هذا الجامع فقال انه خطر بها على خمس بلاطات من الزيادة الحكمية وأطلق جفافيها على البستة الباقية ثلاثة من كل جهة فصار طولها من الشرق الى الغرب خمسا وسبعين ذراعا وعرضها من حدار الخشب الى سور المسجد بالقبلة اثنين وعشرين ذراعا وارتفاعها فى السماء الى حد شرافاتها ثمان أذرع وارتفاع كل شرافة ثلاثة أشبار ولهذه المقصورة ثلاثة أبواب بديعة الصنعة عجيبة النقش شارعة الى الجامع شرقى وغربى وشمالى ثم قال وذرع المحراب فى الطول من القبلة الى الجوف ثمان أذرع ونصف وعرضه من الشرق الى الغرب سبعة أذرع ونصف وارتفاع قبوه فى السماء ثلاث عشرة ذراعا ونصف والمنبر الى جنبه مؤلف من أكارم الخشب ما بين أبنوس وصندل وتمع وبقم وشوحط وما أشبه ذلك ومبلغ النفقة فيه خمسة وثلاثون ألف دينار وسبعمائة دينار وخمسة دنانير وثلاثة دراهم وقيل غير ذلك وعدد درجه تسع درجات صنعة الحكم المستنصر رحمه الله وذكر أن عدد ثريات الجامع التى تسرج فيها المصابيح بداخل البلاطات خاصة سوى ما منها على الابواب مائتان وأربع وعشرون ثريا جميعها من لاطون

مختلفة الصنعة منها أربع ثريات كبار معلقة في البلاط الأوسط أكبرها الثريا المعلقة
في القبة الكبرى التي فيها المصاحف حيال المقصورة وفيها من السرج فيما زعموا ألف
وأربعمائة وأربعة وخمسون سراجا وتوقد الثريات الصغار في العشر الأخير من شهر
رمضان فيسقى كل ثريا منها سبعة أرباع في الليلة وكان مبلغ ما يسقى من الزيت على جميع
المصابيح في هذا المسجد في السنة أيام هشام وقود في مدة ابن أبي عامر مكيلة بالزيادة
المشهورة ألف ربع منها في شهر رمضان سبعمائة وخمسون ربعا قال وفي بعض التواريخ
القديمة كان عدد الثريات بالمسجد الجامع بقرطبة في زمن الخلفاء وفي زمن ابن أبي عامر
ثمانية انتهى وفيه مخالفة لبعض ما تقدم وذكر بعض المؤرخين ولكن قوله أولى بالاتباع
لنقله عن ابن بشكوال ولمعرفة ابن سعيد بمثل هذا وتحقيقه فيه أكثر من غيره والله سبحانه
أعلم قال ألف ربع و لا يوقد ربعا منها في رمضان خمسمائة ربع وفي الثريات التي في القبة
وهي ثلاثة اثنان وسبعون رطلا لكل واحد تسعة عشر في الليلة وقودها وقال في المرآة
مركب من سبعة وثلاثين ألف وصل قام كل واحد منها بسبعة دراهم فضة ويضرب
مسامير الذهب والفضة وفي بعضها نقش الأحجار وأصل العمل فيه أشبه ثم قال ودور
الثريا العظيمة خمسون شبرا وتحتوي على ألف كأس وأربعة وعشرين كأسا وسبك بالذهب
إلى عدد لا يمكن العراقة * وكتب الفقيه الكاتب أبو محمد إبراهيم بن صاحب الصلاة
الوليد يصف جامع قرطبة بما نصه عمر الله سبحانه بطول السعادة ربعك وقدر من جزيل
الكرامة فيك ولا زالت سحائب الإنعام تهمي عليك بكر وآصال الأيام تهدي إليك
كل مسرة * لئن كان أعزك الله شطر بني الوداد بيننا عامرا وشمل المحبة عامرا لوجب
أن نصف بحضرة قرطبة لا سيما فيما يدر أخلاف الفضائل ويهز أعطاف الشمائل
وإني مقتصر إلى حضرة قرطبة حرسها الله تعالى منشرح الصدر مسرور بلقية البدر
والجامع قدس الله تعالى بقعته ومكانه وثبت أساسه وأركانه قد كسي برد الأزهار
وحل في معرض البهاء كأن سواريه قلول في بستان أو أسرى في شبان وكأنما
ضربت على بقاعه كلل أو خلعت على أرجائه حلل وكأن الشمس خلفت فيه
ضياءها ونسجت على أستاره إياها فترى بها زائدا أحدق بليل كما أحدق
بروض لليل دامس ونهار شامس وللذبال بالكئوس الحباب أو شرار
السانان في الثمان قد أرعف من السليط كؤوسها ووصلت بصفائح الحديد رؤوسها
وربطت بسلاسل كالجذوع القائمة أو كالثعابين العائمة عصب بها اتساع في الصدر
كالتفاح الصفر تولع في حملها وحلها حتى صرت عسيرا ولولاها لكأنما حلت
بالأهب وأشربت ماء الذهب إن تمثلها طولا رأيت منها سبائك عسجد أو قلائد
زبرجد وإن أشباهها عرضا رأيت منها أفلاكا ولكنها عبد دار وعرفا ولكنها
بشار تتعلق تعلق القرط من الذؤابة وسط شعاعها لبط الأدم حتى نرى والشمع قد
رفعت على المنار ربع السود وعرضت عليها رص الجنود لتحلى ظلامه رواها الفرت
والعقد وتسوى في هدايته صباحها الذي والصمد وقد قل منها نصر تجمر

وعرض

وعروض محصورة عمرة تضحك ببكائها وتبكى بضحكها وتهلك بحياتها وتحيا بهلكها
والطيب تفعم أرواحه وتنسم أرواحه وقتا الانجوج والند يسترجع من روح
الحياة ماند * وكلما تصاعد وهو محاصر أطال من العمر ما كان تقاصر فى صفوف مجامر
ككعوب مقامر وظهور القباب مؤللة وبطونها مهللة كأن ابيجان رصع فيها
ياقوت ومرجان قد قوس محرابها أحكم تقويس ووشم بمثل ريش الطواويس حتى
كأنه بالمجرة مقرطق وبقوس قزح ممنطق وكأن اللازورد حول وشومه وبين
رسومه نتف من قوادم الحمام أو كسف من ظلال الغمام والناس أخياف فى دواعيهم
وأوزاع فى أغراضهم ومراميهم بين ركع وسجد وأيقاظ وهجد ومزدحم على الرقاب
يتخطاها ومقتحم على الظهور يتمطاها كأنهم برد خلال قطر أو حروف فى عرض
سطر حتى اذا قرعت أسماعهم روعة التسليم تبادروا بالتكليم وتجاذبوا بالاثواب
وتساقوا بالاكواب كأنهم حضور طال عليهم غياب أو سفر أتيح لهم اياب وصفيك مع
اخوان صدق تسكب العلوم بينهم انسكاب الودق فى مكان كوكر العصفور أستغفر الله
أو ككناس اليعفور كأن اقليدس قد قسم بيننا مساحته بالموازين وارتبطنا فيه
ارتباط البيادق بالفرازين حتى صار عقدنا لا يحل وحدنا لا يمل بحيث نسمع سور
التنزيل كيف تتلى ونتطلع صور التفصيل كيف تجلى والقومة حوالينا يجهدون
فى دفع الضرر ويعمدون الى قرع العمد بالدرر فاذا سمع بها الصبيان قد طبقت الخافقين
وسرت نحوهم مسرى القين وتوهموا انها الى أعطافهم واصلة وفى أفخاذهم حاصلة
فروا بين الاساطين كما تفر من النجوم الشياطين كأنما ضربهم أبو جهم بعصاه أو حصهم
عين بن صاف بحصاه فأكرم بها من مساع تسوق الى جنة الخلد وتهون فى السعى اليها
الطوارف والتلد تعظيما لشعائر الله وتنبيها لكل ساه ولاه حكمة تشهد لله تعالى
بالربوبية وطاعة تذل بها كل نفس أبية فلم أر أدام الله سبحانه عزك منظرا منها أبهى
ولا مخبرا أشهى واذا لم تتأمله عيانا فتخيله بيانا وان كان حظ منطقى من الكلام حظ
السفيح من الازلام لكن ما بيننا من مودة أكدنا وسائلها وذمة تقلدنا حمائلها يوجب
قبول اتحافى سمينا وغثا ولبس الطائى جديدا ورثا لا زلت لزناد النبل موريا والى آماد
الفضل مجريا والتحية العبقة الريا المشرقة المحيا عليك ما طلع قمر وأينع ثمر ورحمة
الله تعالى وبركاته انتهى * (وذكر ابن بشكوال) أن الحكم المستنصر هدم الميضأة
القديمة التى كانت بفناء الجامع التى يستقى لها الماء من بئر السانية وبنى موضعها أربع
ميضآت فى كل جانب من جانبى المسجد الشرقى والغربى منها اثنتان كبرى للرجال وصغرى
للنساء أجرى فى جميعها الماء من قناة اجتلبها من سفح جبل قرطبة الى أن صبت ماءها
فى أحواض رخام لا ينقطع جريانه الليل والنهار وأجرى فضل هذا الماء العذب الى
سقايات اتخذهن على أبواب هذا المسجد بجهاته الثلاث الشرقية والغربية والشمالية
أجراها هنالك الى ثلاث جوابى من حياض الرخام استقطعها بمقطع المنستير بسفح
جبل قرطبة بالمال الكثير وألقاه الرخاميون هنالك واحتفروا أجوافها وأقيرهم

في المسجد الطولى حتى استوت في صورتها البديعة لأعين الناس فخفف ذلك من ثقلها
وأمكن في إنفاقها إلى أن أكمل بنيانها أكمل المسجد الجامع وأمده الله تعالى على ذلك
بعونه ثم أصل الواحد منها في كثير أعدت من تحت خشب البلوط على طول
ومع ما لحديد المصفح ويؤتى بالحمال فيرفعها سبعون دابة من أشد الدواب
وسهل لذلك الطرق والمسالك وسهل الله تعالى حملها واحدة بعد أخرى على هذه الصفة
في مدة ابن عمر يوما سبب في الأدما المعهود لها قال وبنى المستنصر في غربي الجامع
دار الصدقة واتخذها معهدا للتفريق بصدقاته المتوالية وابتنى للفقراء السوقة قبالة باب
المسجد الكبير الغربي انتهى واعلم أنه لعظم أمر قرطبة كان علماؤها بالمغرب حتى إنهم
يقولون في الأحكام هذا مما جرى به عمل قرطبة وفي هذه المسئلة نزاع كثير ولا بأس أن
نذكر ما للأئمة في ذلك قال الإمام ابن عرفة رحمه الله تعالى في اشتراط الإمام على القاضي
الحكم بمذهب معين وإن خالف معتقد المشترط اجتهادا أو تقليدا ثلاثة أقوال فالصحة
للباجي ولفعل أهل قرطبة ولظاهر شرط سحنون على من ولي الحكم بمذهب أهل
المدينة قال المازري مع احتمال كون الرجل شهد له الثاني البطلان للطرطوشي
إذ قال في شرط أهل قرطبة هذا جهل عظيم والثالث تصح التولية ويبطل الشرط تخريجا
على أحد الأقوال في الشرط الفاسد في البيع للمازري عن بعض الناس انتهى مختصرا
*(قال ابن غازي) إن ابن عرفة نسب للطرطوشي البطلان مطلقا وابن شاس اعتناء به
التفصيل انتهى ولما ذكر مولاي الجد الإمام قاضي القضاة بالأندلس ثم انتقل إلى المغرب
بفاس سيدي أبو عبد الله المقري التلمساني في كتابه القواعد شرط أهل قرطبة المذكور
قال بعده ما نصه وعلى هذا الشرط رتب عمل القضاة بالأندلس ثم انتقل إلى المغرب فسما
عن منازع الناس في عمل المدينة وتصحيح أهل الكوفة مع كثير من نزلها من علماء الأمة
كعلي وابن مسعود ومن كان معهما ليس التكحل في العينين كالكحل شنع في بعض الحدود
ومعدن التقليد

الله أكبر مدى ما خرب * حتى رأيت من الزمان عجائبا

بالله والمسلمين ذهب قرطبة وأهلها ولم يبرح في الناس جولها ما دام الآن الشيطان
يسعى في نحو الحق بنسبة والباطل لا يزال يلبسه ويلقنه ألا ترى جهال الجاهلية
كالسامرة والتماثر والتكاثر والطعن والتفصيل والكهانة والنجوم والطا
والتشاؤم وما أشبه ذلك وأعقابها كالعمة ونحوه وكذا التبارك بالأنصاب وعبد
ما نهي عنه وتحذره كيف لم يزل من أهلها وانتقل إلى غيرهم مع شر أمرها حتى
كأنهم لا يرعون بالدين رأسا بل يعملون العادات القديمة أسا وكذلك نحو السحر
والتلبس والنسب وما أشبه في هذا السلك بأنه المرقع في القلوب والشرع فاسد
شعارا به سمة وشنع وسمى به لا يعطيه الأمر ولا يجعله إلا كلا انتهى *(وقال
الحافظ ابن غازي) بعد ذكر كلام مولاي الجد ما نصه وحدثني شيخ ممن لقيت أنه لما
قدم مدينة فاس العلامة أبو يحيى الشريف التلمساني وتصدى لإقراء التفسير بالبلد

الجديد وأمر السلطان أبو سعيد المريني الحميد أعيان الفقهاء بحضور مجلسه كان مما ألقاه
اليهم مشرع المقري هذا ما بالغوا في انكاره ورأوا انه لا معدل عما عول عليه زعماء
الفقهاء كابن رشد وأصحاب الوثائق كالمتيطي من اعتماد عمل أهل قرطبة ومن في معناهم
انتهى *(وقال بعض المؤرخين) حين ذكر قرطبة ما ملخصه هي قاعدة بلاد الاندلس
ودار الخلافة الاسلامية وهي مدينة عظيمة وأهلها أعيان البلاد وسراة الناس في حسن
المآكل والمشارب والملابس والمراكب وعلو الهمم وبها أعلام العلماء وسادات الفضلاء
وأجلاد الغزاة وأمجاد الحروب وهي في تقسيمها خمس مدن يتلو بعضها بعضا وبين
المدينة والمدينة سور عظيم حصين حاجز وكل مدينة مستقلة بنفسها وفيها ما يكفي
أهلها من الحمامات والاسواق والصناعات وطول قرطبة ثلاثة أميال في عرض ميل
واحد وهي في سفح جبل مطل عليها وفي مدينتها الثالثة وهي الوسطى القنطرة والجامع
الذي ليس في معمور الارض مثله وطوله مائة ذراع في عرض ثمانين وفيه من السواري
الكبار ألف سارية وفيه مائة وثلاثة عشر ثريا للوقود أكبرها تحمل ألف مصباح وفيه
من النقوش والرقوم ما لا يقدر أحد على وصفه وبقبلته صناعات تدهش العقول وعلى
فرجة المحراب سبع قسي قائمة على عمد طول كل قوس فوق القامة قد تحير الروم
والمسلمون في حسن وضعها وفي عضادتي المحراب أربعة أعمدة اثنان أخضران واثنان
لازورديان ليس لها قيمة لنفاستها وبه منبر ليس على معمور الارض أنفس منه ولا مثله
في حسن صنعته وخشبه ساج وابنوس وبقم وعود قاقلي ويذكر في تاريخ بني
أمية انه أحكم عمله ونقشه في سبع سنين وكان يعمل فيه ثمانية صناع لكل صانع في كل يوم
نصف مثقال محمدي فكان جملة ما صرف على المنبر لا غير عشرة آلاف مثقال وخمسون
مثقالا وفي الجامع حاصل كبير ملآن من آنية الذهب والفضة لاجل وقوده وبهذا
الجامع مصحف يقال انه عثماني وللجامع عشرون بابا مصفحات بالنحاس الاندلسي مخرمة
تخريما عجيبا بديعا يعجز البشر ويبهرهم وفي كل باب حلقة في نهاية الصنعة والحكمة وبه
الصومعة العجيبة التي ارتفاعها مائة ذراع بالمكي المعروف بالرشاشي وفيها من أنواع
الصنائع الدقيقة ما يعجز الواصف عن وصفه ونعته وبهذا الجامع ثلاثة أعمدة حمر مكتوب
على الواحد اسم محمد وعلى الآخر صورة عصا موسى وأهل الكهف وعلى الثالث صورة
غراب نوح والجميع خلقة ربانية وأما القنطرة التي بقرطبة فهي بديعة الصنعة عجيبة المرأى
فاقت قناطر الدنيا حسنا وعدة قسيها سبعة عشر قوسا سعة كل قوس منها خمسون
شبرا وبين كل قوسين خمسون شبرا وبالجملة فمحاسن قرطبة أفضل المحاسن وأعظم من
أن يحيط بها وصفا انتهى ملخصا وهو وان تكرر بعضه مع ما قدمته فلا يخلو من فائدة زائدة
والله الموفق * وما ذكره في طول المسجد وعرضه مخالف لما مر ويمكن الجواب بأن هذا
الذراع أكبر من ذلك كما أشار اليه هو في أمر الصومعة وكذا ما ذكره في عدد السواري
الا أن يقال ما تقدم باعتبار الصغار والكبار وهذا العدد الذي ذكره هنا انما هو للكبار
فقط كما صرح به والله تعالى أعلم * وأما الثريات فقد خالف في عدها ما تقدم مع أن المتقدم

هو قول ثقات مؤرخي الاندلس وعن جانبنا النقل في مواضعه وان اختلفت طرقه ومتصرفاته وقال في المغرب عند تعرضه لذكر جامع قرطبة ما نصه اعتمدت فيما نقلته في هذا الفصل على كتاب ابن بشكوال فقد اعتنى بهذا الباب ثم اعتنا وأغنى عن الاستطلاع الى كلام غيره حكى الرازي انه لما افتتح المسلمون الاندلس امتثلوا ما فعله ابو عبيدة بن الجراح وخالد بن الوليد عن راي عمر رضي الله تعالى عنه من مشاطرة الروم في كنائسهم مثل كنيسة دمشق وغيرها مما اخذوه صلحا فشاطر المسلمون اعاجم قرطبة كنيستهم العظمى التي كانت داخل مدينتها تحت السور وكانوا يسمونها بشنت بنجنت وابتنوا في ذلك الشطر مسجدا جامعا وبقي الشطر الثاني بأيدي النصارى وهدمت عليهم سائر الكنائس بحضرة قرطبة واقتنع المسلمون بما في ايديهم الى أن كثروا وتزيدت عمارة قرطبة ونزلها امراء العرب فضاق عنهم ذلك المسجد وجعلوا يعلقون منه سقيفة بعد سقيفة يستكنون بها حتى كان الناس ينالون في الوصول الى داخل المسجد الاعظم مشقة لتلاصق تلك السقائف وقصر ابوابها وتطامن سقفها حتى ما يمكن اكثرهم القيام على اعتدال لتقارب سقفها من الارض ولم يزل المسجد على هذه الصفة الى أن دخل الامير عبد الرحمن بن معاوية المرواني الى الاندلس واستولى على امارتها وسكن دار سلطانها قرطبة وعمد به فنظر في أمر الجامع وذهب الى توسعته واتقان بنيانه فاحضر اعاظم النصارى وسامهم بيع ما بقي بايديهم من كنيستهم لصق الجامع ليدخله فيه وأوسع لهم البذل وفاء بالعهد الذي صولحوا عليه فأبوا من بيع ما بايديهم وسألوا بعد الجهد أن يباح لهم ابتناء كنيستهم التي هدمت عليهم بخارج المدينة على أن يخلوا للمسلمين عن هذا الشطر الذي طولبوا به فتم الامر على ذلك وكان ذلك سنة ثمان وستين فابتدأ عبد الرحمن المسجد الجامع على صفة ذكرها لا حاجة الى تفسيرها زاده فيه واغنا الخاصة في وصفه لكماله وفي سائمه لهذه الزيادة قال دحية بن محمد البلوي من قصيدة

وأنفق في دين الاله ووجهه * ثمانين ألفا من لجين وعسجد
توزعها في مسجد اسه التقى * ومنهجه دين النبي محمد
ترى الذهب الناري فوق سموكه * يلوح كبرق العارض المتوقد

قال وكمل سنة سبعين ثم ذكر زيادة ابنه هشام الرضا وما جدده فيه وانه بناه في حين في اربعة ثم زيادة ابنه عبد الرحمن الاوسط لما زاد ايد الناس قال وقال قيل ان تم الزيادة وأنفقها ولده محمد بن عبد الرحمن ثم رمّ المنذر بن محمد ما وهى منه وذكر ما جدد خليفتهم الناصر ومنه الصومعة الاولى وبناءه الصومعة العظيمة قال ولما ولي الحكم المستنصر الناصر وقد اتسع نطاق قرطبة وكثر أهلها ونشبت الضيق في جامعها لم يقدم شيئا على النظر في الزيادة فبلغ الجهد وزاد الزيادة العظمى قال وبها كملت محاسن هذا الجامع وصار في حد يقصر الوصف عنه وذكر حضوره لمشاورة العلما في تحريف القبلة الى نحو المشرق حسبما فعله والده الناصر في قبلة جامع الزهرا لان اهل التعديل يقولون بانحراف قبلة الجامع القديمة الى نحو الغرب فقال له الفقيه أبو ابراهيم يا أمير المؤمنين انه قد صلى الى هذه

انقـلت خيار هـذه الائمة من أجـدادنا الائمة وصلحاء المسلمين وعلمائهم مذ افتتحت الاندلس الى هـذا الوقت متأسين بأول من نصبها من التابعـين كموسى بن نصير وحنش الصنعاني وأمثالهم رحمهم الله تعالى واعما فصل من فضل بالاتباع وهلك من هلك بالابتداع فأخذ الخليفة برأيه وقال نعم ماقلت واعما مذهبنا الاتباع قال ابن بشكوال ونقلت من خط أمير المؤمنين المستنصر أن النفقة في هـذه الزيادة وما اتصل بها انتهت الى مائتي ألف دينار وأحد وستين ألف دينار وخمسمائة دينار وسبعة وثلاثين دينارا ودرهمين ونصف ثم ذكر الصومعة نقلا عن ابن بشكوال فقال أمر الناصر عبد الرحمن بهدم الصومعة الاولى سنة ٣٤٠ وأقام هذه الصومعة البديعة فحفر في أساسها حتى بلغ الماء مدة من ثلاثة وأربعين يوما ولما كملت ركب الناصر اليها من مدينة الزهراء وصعد في الصومعة من أحد درجيها ونزل من الثاني ثم خرج الناصر وصلى ركعتين في المقصورة وانصرف قال وكانت الاولى ذات مطلع واحد فصيرا لهذه مطلعين فصل بينهما البناء فلا يلتقي الراقون فيها الا بأعلاها تريد مراقي كل مطلع منها على مائة وسبعا * قال وخبر هذه الصومعة مشهور في الارض وليس في مساجد المسلمين صومعة تعدلها * قال ابن سعيد قال ابن بشكوال هذا لانه لم ير صومعة مراكش ولا صومعة اشبيلية اللتين بناهما المنصور من بني عبد المؤمن فهما أعظم وأطول لانه ذكر أن طول صومعة قرطبة الى مكان موقف المؤذن أربعة وخمسون ذراعا والى أعلى الرمانة الاخيرة بأعلى الزج ثلاثة وسبعون ذراعا وعرضها في كل تربيع ثمانية عشر ذراعا وذلك اثنان وسبعون ذراعا قال ابن سعيد وطول صومعة مراكش مائة وعشر أذرع * وذكر أن صومعة قرطبة بصحام الحجارة القطيعة منجدة غاية التنجيد وفي أعلى ذروتها ثلاث شمسات يسمونها رمانة ملصقة في السفود البارز في أعلاها من النحاس اثنتان منها ذهب ابريز والثالثة منها وسطى بينهما من فضة اكسير وفوقها سوسنة من ذهب مسدسة فوقها رمانة ذهب صغيرة في طرف الزج البارز بأعلى الجو * وكان تمام هذه الصومعة في ثلاثة عشر شهرا * وذكر ابن بشكوال في رواية أن موضع الجامع الاعظم بقرطبة كان حفرة عظيمة يطرح فيها أهل قرطبة قمامتهم وغيرها فلما قدم سليمان بن داود صلى الله وسلم عليهما ودخل قرطبة قال للجن اردموا هذا الموضع وعدلوا مكانه فسيكون فيه بيت يعبد الله فيه ففعلوا ما أمرهم به وبني فيه بعد ذلك الجامع المذكور قال ومن فضائله أن الدارات الماثلة في تراويق سمائه مكتوبة كلها بالذكر والدعاء الى غيره بأحكم صنعة انتهى * وذكر مصحف عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه الذي كان في جامع قرطبة وصار الى بني عبد المؤمن فقال هو مصحف أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه مما خطه بيمينه وله عند أهل الاندلس شأن عظيم انتهى وسنذكر فيه زيادة على هذا * وأما الزهراء فهي مدينة الملك التي اخترعها أمير المؤمنين عبد الرحمن الناصر لدين الله وقد تقدم ذكره وهي من المدن الجليلة العظيمة القدر قال ابن الفرضي وغيره كان يعمل في جامعها حين شرع فيه من حذاق الفعلة كل يوم ألف نسمة منها ثلثمائة بناء ومائتا نجار وخمسمائة من الاجراء وسائر الصنائع فاستتم بنيانه واتقانه في مدة من ثمانية وأربعين يوما وجاء في غاية

الأيمان من جهته أيضا عند الصومعة وطوله من القبلة إلى الجوف حاشا المقصورة ثلاثون
ذراعا وعرض البهو الأوسط من أبهائه من الشرق إلى الغرب ثلاثة عشر ذراعا وعرض
كل بهو من الأربعة المكتنفة له اثنا عشر ذراعا وطول صحنه المكشوف من القبلة إلى
الجوف ثلاث وأربعون ذراعا وعرضه من الشرق إلى الغرب إحدى وأربعون ذراعا
وجميعه مفروش بالرخام الخمري وفي وسطه فوارة تجري فيها الماء وطول هذا المسجد أجمع
من القبلة إلى الجوف سوى المحراب سبع وتسعون ذراعا وعرضه من الشرق إلى الغرب تسع
وخمسون ذراعا وطول صومعته في الهواء أربعون ذراعا وعرضها عشر أذرع في مثلها
وأمر الناصر لدين الله باتخاذ منبر بديع لهذا المسجد فصنع في نهاية من الحسن ووضع
في مكانه منه وحظر حوله مقصورة عجيبة الصنعة وكان وضع هذا المنبر مكانه من هذا
المسجد عند كماله يوم الخميس لسبع بقين من شعبان سنة تسع وعشرين وثلاثمائة * قال
وفي صدر هذه السنة كمل للناصر بنيان القناة الغريبة الصنعة التي أجراها وجرى فيها الماء
العذب من جبل قرطبة إلى قصر الناعورة غربي قرطبة في المناهر المهندسة وعلى الحنايا
المعقودة يجري ماؤها بتدبير عجيب وصنعة محكمة إلى بركة عظيمة عليها أسد عظيم الصورة
بديع الصنعة شديد الروعة لم يشاهد أبهى منه فيما صور الملوك في غابر الدهر مطلي بذهب
إبريز وعيناه جوهرتان لهما وميض شديد يجوز هذا الماء إلى عجز هذا الأسد فيمجه في تلك
البركة من فيه فيبهر الناظر بحسنه وروعته وثجاجته فتسقى من مجاجه جنان
هذا القصر على سعتها ويستفيض على ساحاته وجنباته ويمد النهر الأعظم بما فضل منه
وكانت هذه القناة وبركتها والتمثال الذي يصب فيها من أعظم آثار الملوك في غابر الدهر
لبعد مسافتها واختلاف مسالكها وفخامة بنيانها وسمو أبراجها التي يترقى الماء فيها
ويتصوب من أعاليها وكانت مدة العمل فيها من يوم ابتدئ من الجبل إلى أن وصل الماء إلى
البركة أربعة عشر شهرا وكان انطلاق الماء في هذه البركة الانطلاق الذي
اتصل واستمر يوم الخميس غرة جمادى الآخرة من السنة وكان للناصر في هذا اليوم
بقصر الناعورة دعوة حسنة أوصل فيها إلى عامة أهل مملكته ووصل المهندسين والقوام
بالعمل بصلات سنية جليلة خطيرة * وأما مدينة الزهراء فاستمر العمل فيها من عام
خمسة وعشرين وثلاثمائة إلى آخر دولة الناصر وابنه الحكم وذلك نحو من أربعين سنة
ولما فرغ من بناء مسجد الزهراء على ما وصف كانت أول جمعة صليت فيه صلاة المغرب
من ليلة الجمعة لثمان بقين من شعبان وكان الإمام القاضي أبا عبد الله محمد بن عبد الله
ابن أبي عيسى ومن الغد صلى الناصر فيه الجمعة وأول من خطب به القاضي المذكور
ولما بنى الناصر قصر الزهراء المتناهي في الجلالة والفخامة أطبق الناس على أنه لم يبن مثله
في الإسلام البتة وما دخل إليه أحد من سائر البلاد النائية والنحل المختلفة من ملك وارد
ورسول وافد وتاجر جهبذ وفي هذه الطبقات من الناس تكون المعرفة والفطنة
إلا وكلهم قطع أنه لم ير له شبها بل لم يسمع به بل لم يتوهم كون مثله حتى إنه كان أعجب ما يؤمله
القاطع إلى الأندلس في تلك العصور النظر إليه والتحدث عنه والأخبار عن هذا تتسع

جدا

جباة والادلة عليه تكثر ولو لم يكن فيه الا السطح الممرد المشرف على الروضة المباهي بمجلس الذهب والقبة وعجيب ما تضمنه من اتقان الصنعة وفخامة الهمة وحسن المستشرف وبراعة الملبس والحلة ما بين مرمر مسنون وذهب مصون وعمد كأنما أفرغت في القوالب ونقوش كالرياض وبرك عظيمة محكمة الصنعة وحياض وتماثيل عجيبة الاشخاص لا تهتدي الاوهام الى سبيل استقصاء التعبير عنها فسبحان الذي أقدر هذا المخلوق الضعيف على ابداعها واختراعها من أجزاء الارض المنحلة كيما يرى الغافلين عنه من عباده مثالا لما أعده لاهل السعادة في دار المقامة التي لا يتسلط عليها الفناء ولا تحتاج الى الرم لا اله الا هو المتفرد بالكرم * (وذكر المؤرخ أبو مروان بن حيان صاحب الشرطة أن مباني الزهراء اشتملت على أربعة آلاف سارية ما بين كبيرة وصغيرة حاملة ومحمولة ونيف وعلى ثلثمائة سارية وستة عشر قال منها ما جلب من مدينة رومة ومنها ما أهداه صاحب القسطنطينية وان مصاريع أبوابها صغارها وكبارها كانت تنيف على خمسة عشر ألف باب وكلها ملبسة بالحديد والنحاس المموه والله سبحانه أعلم فانها كانت من أهول ما بناه الانس وأجله خطرا وأعظمه شأنا انتهى قلت فسر بعضهم ذلك النيف في كلامه بثلاث عشرة والله أعلم (وقال بعض من أرخ الاندلس) كان عدد الفتيان بالزهراء ثلاثة عشر ألف فتى وسبعمائة وخمسين فتى ودخالتهم من اللحم كل يوم حاشا أنواع الطير والحوت ثلاثة عشر ألف رطل وعدة النساء بقصر الزهراء الصغار والكبار وخدم الخدمة ستة آلاف وثلثمائة امرأة وأربع عشرة انتهى وقيل ان عدد الصبيان الصقالبة ثلاثة آلاف وسبعمائة وخمسون وجعل بعض مكان الخمسين سبعة وثمانين (وقال آخر) ستة آلاف صقلبي وسبعة وثمانون والمرتب من الخبز للحيتان ببحيرة الزهراء اثنا عشر ألف خبزة كل يوم وينقع لها من الحمص الاسود ستة أقفزة كل يوم انتهى ثم قال الاول وكان لهؤلاء من اللحم ثلاثة عشر ألف رطل تقسم من عشرة ارطال للشخص الى ما دون سوى الدجاج والحجل وصنوف الطير وضروب الحيتان انتهى (وقال ابن حيان) ألفيت بخط ابن دحون الفقيه قال مسلمة ابن عبد الله العريف المهندس بدأ عبد الرحمن الناصر لدين الله بعمارة الزهراء أول سنة خمس وعشرين وثلثمائة وكان مبلغ ما ينفق فيها كل يوم من الصخر المنحوت المعدل ستة آلاف صخرة سوى الصخر المصرف في التبليط فانه لم يدخل في هذا العدد وكان يخدم في الزهراء كل يوم ألف وأربعمائة بغل وقيل أكثر منها أربعمائة زوامل الناصر لدين الله ومن دواب الاكرية الراتبة للخدمة ألف بغل لكل بغل منها ثلاثة مثاقيل في الشهر يجب لها في الشهر ثلاثة آلاف مثقال وكان يرد الزهراء من الجير والجص في كل ثالث من الايام ألف ومائة حمل وكان فيها حمامان واحدة للقصر وثانية للعامة * وذكر بعض أهل الخدمة في الزهراء انه قدر النفقة فيها في كل عام بثلثمائة ألف دينار رمدة خمسة وعشرين عاما التي بقيت من دولة الناصر من حين ابتدأها الا انه توفي سنة خمسين فحصل بجميع الانفاق فيها فكان مبلغه خمسة عشر بيت مال * قال وجلب اليها الرخام من قرطاجنة وافريقية وتونس وكان الذين يجلبونه عبد الله بن يونس عريف البنائين

وحسن وعلي بن جعفر الاسكندراني وكان الناصر يصلهم على كل رخامة صغيرة وكبيرة
بعشرة دنانير انتهى وقال بعض أصحاب المؤرخين انه كان يصلهم على كل رخامة صغيرة
كانت أو كبيرة بعشرة دنانير وعلى كل سارية بثمانية دنانير وكان عدد السواري المجلوبة من افريقية
ألف سارية وثلاث عشرة سارية ومن بلاد الافرنج تسع عشرة سارية وأهدى اليه
ملك الروم مائة وأربعين سارية وسائرها من مقاطع الاندلس طركونة وغيرها فالرخام
المجزع من رية والابيض من غيرها والوردي والاخضر من افريقية من كنيسة اسفاقس
وأما الحوض المنقوش المذهب الغريب الشكل الغالي القيمة فجلبه اليه أحمد اليوناني من
القسطنطينية مع ربيع الاسقف القادم من ايليا وأما الحوض الصغير الاخضر المنقوش
بتماثيل الانسان فجلبه أحمد من الشام وقيل من القسطنطينية مع ربيع الاسقف أيضا
وقالوا انه لا قيمة له لفرط غرابته وجماله وحمل من مكان الى مكان حتى وصل في البحر ونصبه
الناصر في بيت المنام في المجلس الشرقي المعروف بالمؤنس وجعل عليه اثني عشر تمثالا من
الذهب الاحمر مرصعة بالدر النفيس الغالي مما عمل بدار الصناعة بقرطبة صورة أسد الى
جانبه غزال الى جانبه تمساح وفيما يقابله ثعبان وعقاب وفيل وفي المجنبتين حمامة وشاهين
وطاوس ودجاجة وديك وحدأة ونسر وكل ذلك من ذهب مرصع بالجوهر النفيس ويخرج
الماء من أفواهها وكان المتولي لهذا البنيان المذكور ابنه الحكم لم يتكل فيه الناصر
على أمين غيره وكان يخبز في أيامه في كل يوم برسم حيتان البحيرات ثمانمائة خبزة وقيل
أكثر الى غير ذلك مما يطول تتبعه * وكان الناصر قد قسم الجباية أثلاثا ثلث للجند
وثلث للبناء وثلث مدخر وكانت جباية الاندلس يومئذ من الكور والقرى خمسة آلاف
ألف وأربعمائة ألف وثمانين ألف دينار ومن السوق والمستخلص سبعمائة ألف
وخمسة وستين ألف دينار وأما أخماس الغنائم فلا يحصيها ديوان وقد سبق هذا كما
وانما كررته لقول بعضهم ان ذلك كانت له مأثورة وقيل ان مبلغ النفقة في بناء
الزهراء مائة مدي من الدراهم القاسمية بكيل قرطبة وقيل ان مبلغ النفقة فيها بالكيل
المذكور ثمانون مديا وستة أقفزة من الدراهم المذكورة واتصل بنيان الزهراء أيام
الناصر خمسا وعشرين سنة شطر خلافته ثم اتصل بعد وفاته طول مدة ابنه الحكم كلها وكانت
جنة عمرت فما دامت دهرا فسبحان الباقي بعد فناء الخلق لا اله الا هو انتهى (وقال ابن البديع
الهمذاني والفتح في المطمح) كان الناصر كلفا بعمارة الارض واقامة معالمها وانباط
مياهها واستجلابها من أبعد بقاعها وتخليد الآثار الدالة على قوة الملك وعز السلطان
وعلو الهمة فأفضى به الاغراق في ذلك الى أن ابتنى مدينة الزهراء البناء الشائع ذكره
الذائع المنتشر خبره في الارض واستفرغ جهده في تنميقها واتقان قصورها وزخرفة
مصانعها وانهمك في ذلك حتى عطل شهود الجمعة بالمسجد الجامع الذي اتخذه ثلاث جمع
متواليات فأراد القاضي منذر أن يغض منه بما يتناوله من الموعظة بفصل الخطاب
والحكمة والتذكير بالانابة والرجوع فابتدأ في أول خطبته بقوله تعالى أتبنون بكل ريع
الى قوله من الواعظين ثم وصله بقوله متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى وهي دار القرار

ومكان الجزاء ومضى فى ذم تشييد البنيان والاستغراق فى زخرفته والاسراف فى الانفاق
عليه بكلام جزل وقول فصل يجرى فيه طلقا وانتزع فيه قوله تعالى افمن أسس بنيانه الى
آخر الآية وأتى بما يشاكل المعنى من التخويف بالموت والتحذير من فجأته والدعاء الى
الزهد فى هذه الدار الفانية والحض على اعتزالها والرفض لها والندب الى الاعراض
عنها والاقصار عن طلب اللذات ونهى النفس عن اتباع هواها فأسهب فى ذلك كله وأضاف
اليه من آى القرآن ما يطابقه وجلب من الحديث والاثر ما يشاكله حتى اذكر من حضره
من الناس وخشعوا ورقوا واعترفوا وبكوا وضجوا ودعوا وأعلنوا التضرع الى
الله تعالى فى التوبة والابتهال فى المغفرة وأخذ خليفتهم من ذلك بأوفر حظ وقد علم انه
المقصود به فبكى وندم على ما سلف من فرطه واستعاذ بالله من سخطه الا انه وجد على منذر
لغلظ ما تقرعه به فشكا ذلك لولده الحكم بعد انصراف منذر وقال والله لقد تعمدنى منذر
بخطبته وما عنى بها غيرى فأسرف على وأفرط فى تقريعى وتفزيعى ولم يحسن السياسة
فى وعظى فزعزع قلبى وكاد بعصاه يقرعنى واستشاط غيظا عليه فأقسم أن لا يصلى خلفه
صلاة الجمعة خاصة فجعل يلتزم صلاتها وراء أحمد بن مطرف صاحب الصلاة بقرطبة ويجانب
الصلاة بالزهراء وقال له الحكم فما الذى يمنعك من عزل منذر عن الصلاة بك والاستبدال
بغيره منه اذ كرهته فزجره وانتهره وقال له أمثل منذر بن سعيد فى فضله وخيره وعلمه
لا أم لك يعزل لارضاء نفس ناكبة عن الرشد سالكة غير القصد هذا ما لا يكون وانى
لاستحيى من الله أن لا أجعل بينى وبينه فى صلاة الجمعة شفيعا مثل منذر فى ورعه وصدقه
ولكنه أحرجنى فأقسمت ولوددت انى أجد سبيلا الى كفارة يمينى بملكى بل يصلى بالناس
حياته وحياتنا ان شاء الله تعالى فما أظننا نعتاض منه أبدا وقيل ان الحكم اعتذر عما قال
منذر وقال يا أمير المؤمنين انه رجل صالح وما أراد الا خيرا ولو رأى ما أنفقت وحسن تلك
البنية لعذرك فأمر حينئذ الناصر بالقصور ففرشت وفرش ذلك المجلس بأصناف فرش
الديباج وأمر بالاطعمة وقد أحضر العلماء وغص بهم المجلس فدخل منذر فى آخرهم فأومأ
اليه الناصر أن يقعد بقربه فقال يا أمير المؤمنين انما يقعد الرجل حيث انتهى به المجلس
ولا يتخطى الرقاب فجلس فى آخر الناس وعليه ثياب رثة ثم ذكر هذا القائل بعد هذا كلاما
من كلام المنذر يأتى قريبا وقحط الناس آخر مدة الناصر فأمر القاضى منذر المذكور
بالبروز الى الاستسقاء بالناس فتأهب لذلك وصام بين يديه أياما ثلاثا تنفلا وانابة ورهبة
واجتمع له الناس فى مصلى الربض بقرطبة بارزين الى الله تعالى فى جمع عظيم وصعد الخليفة
الناصر فى أعلى مصانعه المرتفعة من القصر ليشارف الناس ويشاركهم فى الخروج الى الله
تعالى والضراعة له فأبطأ القاضى حتى اجتمع الناس وغصت بهم ساحة المصلى ثم خرج
نحوهم ماشيا متضرعا مخبتا متخشعا وقام ليخطب فلما رأى بدار الناس الى ارتقابه
واستكانتهم من خيفة الله واخباتهم له وابتهالهم اليه رقت نفسه وغلبته عيناه فاستعبر
وبكى حينا ثم افتتح خطبته بأن قال يا أيها الناس سلام عليكم ثم سكت ووقف شبه الحصر
ولم يك من عادته فنظر الناس بعضهم الى بعض لا يدرون ما عراه ولا ما أراد بقوله ثم اندفع

بالمناداة بقوله تعالى كتب ربكم على نفسه الرحمة الى قوله رحيم ثم قال استغفروا ربكم انه كان
غفارا استغفروا ربكم ثم توبوا اليه وتزلفوا بالاعمال الصالحة لديه قال الحاكي فضج
الناس بالبكا وجأروا بالدعا ومضى على تمام خطبته ففزع النفوس بوعظه وانبعث
الاخلاص بتذكيره فلم ينقض النهار حتى أرسل الله السما بما منهمر روى الثرى وطرد المحل
وسكن الازل والله لطيف بعباده وكان لمنذر في خطب الاستسقا استفتاح عجيب ومنه
ان قال يوما وقد سرح طرفه في ملا الناس عندما شخصوا اليه بأبصارهم فهتف بهم
كالمنادى يا أيها الناس وكررها عليهم مشيرا بيده في نواحيهم أنتم الفقراء الى الله الى
آخر فاشتد وجد الناس وانطلقت أعينهم بالبكا ومضى في خطبته وقيل ان الخليفة
الناصر خرج للاستسقا وأفرغ عزمه عليه فتثاقل الناصر للمصلى فقال للرسول وكان
من خواص الناس ليت شعري ما الذي يصنعه الخليفة سيدنا فقال له ما رأينا قط أخشع
منه في يومنا هذا انه منتبذ حائر منفرد بنفسه لابس أخشن الثياب مفترش التراب وقد
رمد به على رأسه وعلى لحيته وبكى واعترف بذنوبه وهو يقول هذه ناصيتي بيدك أتراك
تعذب بي الرعية وأنت أحكم الحاكمين لن يفوتك شي مني قال الحاكي فتهلل وجه
القاضي منذر عندما سمع قوله وقال يا غلام احمل الممطر معك فقد أذن الله تعالى بالسقيا
اذا خشع جبار الارض فقد رحم جبار السما وكان كما قال فلم ينصرف الناس الا عن
السقيا وكان منذر شديد الصلابة في أحكامه والمهابة في أقضيته وقوة الحكومة والقيام
بالحق في جميع ما يجري على يده لا يهاب في ذلك الامير الاعظم فمن دونه (وقال ابن الحسن
النباهي) وأصله في المطمح وغيره ومن أخبار منذر المحفوظة له مع الخليفة الناصر
في انكاره عليه الاسراف في البنا أن الناصر كان اتخذ لسطح القبة المصغر الاسم
المخصوصة بالذهب كانت ماثلة على الصرح الممرد المشهور بقصر الزهرا قراميد مغشاة ذهبا
وفضة أنفق عليها مالا جسيما وقرمد سقفها به وجعل سقفها صفرا فاقعة الى بيضا ناصعة
تستلب الابصار بأشعة نورها وجلس فيها اثر تمامها يوما لاهل مملكته فقال لقرابته ومن
حضر من الوزرا وأهل الخدمة مفتخرا عليهم بما صنعه من ذلك مع ما يتصل به من البدائع
الفتانة هل رأيتم أو سمعتم ملكا كان قبلي فعل مثل هذا او قدر عليه فقالوا لا والله يا أمير
المؤمنين وانك لاوحد في شأنك كله وما سبقك الى مبتدعاتك هذه ملك رأيناه ولا انتهى
الينا خبره فأبهجه قولهم وسره وبينما هو كذلك اذ دخل عليه القاضي منذر بن سعيد واجما
ناكس الرأس فلما أخذ مجلسه قال له كالذي قال لوزرائه من ذكر السقف المذهب واقتداره
على ابداعه فأقبلت دموع القاضي تنحدر على لحيته وقال له والله يا أمير المؤمنين ما ظننت
ان الشيطان لعنه الله يبلغ منك هذا المبلغ ولا أن تمكنه من قيادك هذا التمكين مع ما آتاك الله
من فضله ونعمته وفضلك به على العالمين حتى ينزلك منازل الكافرين قال فانفعل عبد الرحمن
لقوله وقال له انظر ما تقول وكيف أنزلتني منزلتهم قال نعم أليس الله تعالى يقول ولولا أن يكون
الناس أمة واحدة الآية فوجم الخليفة وأطرق مليا ودموعه تتساقط خشوعا لله تعالى
ثم أقبل على منذر وقال له جزاك الله يا قاضي عنا وعن نفسك خيرا وعن الدين والمسلمين

أجل جرائه وكثر في الناس أمثالك فالذي قلت هو الحق وقام عن مجلسه ذلك وهو يستغفر الله تعالى وأمر بنقض سقف القبيبة وأعاد قرمدها ترابا على صفة غيرها انتهى ما حكاه ابن الحسن النباهي ولنذكر هذه الحكاية وغيرها وان خالف السياق ما سبق وهذا منقول من كلام الحجاري في المسهب في أخبار المغرب فانه أتم فائدة اذ قال رحمه الله دخل منذر بن سعيد يوما على الناصر بانى الزهراء وهو مكب على الاشتغال بالبنيان فوعظه فأنشده عبد الرحمن الناصر

همم الملوك اذا أرادوا ذكرها * من بعدهم فبالسن البنيان
أوما ترى الهرمين قد بقيا وكم * ملك محاه حوادث الازمان
ان البناء اذا تعاظم شأنه * أضحى يدل على عظيم الشان

(قال فما أدري أهذا شعره أم تمثل به) فان كان شعره فقد بلغ به غاية الاحسان وان كان تمثل به فقد استحقه بالتمثل به في هذا المكان وكان منذر يكثر تعنيفه على البنيان ودخل عليه مرة وهو في قبة قد جعل قرمدها من ذهب وفضة واحتفل فيها احتفالا ظن أن أحدا من الملوك لم يصل اليه فقام خطيبا والمجلس قد غص بأرباب الدولة فتلا قوله تعالى ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة ومعارج عليها يظهرون الآية وأتبعها بما يليق بذلك فوجم الملك وأظهر الكآبة ولم يسعه الا الاحتمال لمنذر بن سعيد لعظم قدره في علمه ودينه * وحضر معه يوما في الزهراء فقام الرئيس أبو عثمان ابن ادريس فأنشد للناصر قصيدة منها

سيشهد ما أبقيت أنك لم تكن * مضيعا وقد مكنت للدين والدنيا
فبالجامع المعمور للعلم والتقى * وبالزهرة الزهراء للملك والعليا

فاهتز الناصر وابتهج وأطرق منذر بن سعيد ساعة ثم قام منشدا

يا باني الزهراء مستغرقا * أوقاته فيها أما تمهل
لله ما أحسنها رونقا * لو لم تكن زهرتها تذبل

فقال الناصر اذا هب عليها نسيم التذكار والحنين وسقتها مدامع الخشوع يا أبا الحكم لا تذبل ان شاء الله تعالى فقال منذر اللهم اشهد أني قد بثثت ما عندي ولم آل نصحا انتهى ولقد صدق القاضي منذر رحمه الله تعالى فيما قال فانها ذبلت بعد ذلك في الفتنة وقلما كان فيها من منحة محنة وذلك عندما ولي الحجابة عبد الرحمن بن المنصور بن أبي عامر الملقب بسنجول وتصرف في الدولة مثل ما تصرف أخوه المظفر وأبوهما المنصور وساء التدبير ولم يميز بين القبيل والنقير فدس الى المؤيد هشام بن الحكم من خوفه منه حتى ولاه عهده كما بينا نص العهد فيما سبق فأطبق الخاصة والعامة على بغضه واضمار السوء له وذلك سنة ثمان وتسعين وثلثمائة فعند ذلك خرج عليه محمد بن هشام بن عبد الجبار بن الناصر سنة تسع وتسعين وتلقب بالمهدي وخلع المؤيد وحبسه وأسلمت الجيوش سنجول فأخذ وأسر وقتل (قال ابن الرقيق) ومن أعجب ما روي انه من نصف نهار يوم الثلاثاء لاربع بقين من جمادى الاخيرة الى نصف نهار يوم الاربعاء فتحت قرطبة وهدمت الزهراء وخلع

خليفة وهو المؤيد وولي خليفة وهو المهدي وزالت دولة بني عامر العظيمة وقتل وزيرهم
محمد بن عسلجة وابن حدوس بن العامة ونكب خلق من الوزراء وولي الوزارة آخرون
وكان ذلك كله على يد عشرة رجال فحامين وجزارين وزبالين وهم جند المهدي انتهى وقد
تقدم بعض الكلام على المهدي هذا وقد قيل فيه لما قام على الدولة

قد قام مهدينا ولكن * بملة الفسق والمجونه
وشارك الناس في حريم * لولا ما زال بالمصونه
من كان من قبل ذا أجما * فاليوم قد صار ذا قرونه

(ومن شعر المهدي هذا وقد حيا في مجلس شرابه غلام بغصن آس

أهديت شبه قوامك المياس * غصنا رطيبا ناعما من آس
وكأنما يحكيك في حركاته * وكأنما يحكيه في الانفاس

(وقد ذكرنا فيما سبق في الفصل الثالث خبر المهدي هذا وقتله وأنه كان شامة مشؤما على
الدين والدنيا فإنه فتح أبواب الفتنة بالاندلس ومحى معالمها حتى ذهبت الدولة وانتثر
السلك وكثر الرؤساء وتطاول العدو إليها وأخذها شيئا فشيئا حتى محى اسم الاسلام منها
أعادها الله تعالى وقد ألم الولي بن خلدون في تاريخه بذكر الزهراء في جملة مباني الناصر
فقال ما نصه ولما استفحل ملك الناصر صرف نظره إلى تشييد القصور والمباني وكان جده
الامير محمد وأبوه عبد الرحمن الاوسط وجده الحكم قد احتفلوا في ذلك وبنوا قصورهم على
أكمل الاتقان والضخامة وكان فيها المجلس الزاهر والبهو والكامل والمنيف فبنى هو إلى
جانب الزاهر قصره العظيم وسماه دار الروضة وجلب الماء إلى قصورهم من الجبل واستدعى
عرفاء المهندسين والبنائين من كل قطر فوفدوا عليه حتى من بغداد والقسطنطينية ثم أخذ
في بناء المتنزهات فاتخذ منية الناعورة خارج القصور وساق لها الماء من أعلى الجبل على
أبعد مسافة ثم اختط مدينة الزهراء واتخذها لنزله وكرسيا لملكه وأنشأ فيها من المباني والقصور
والبساتين ما عفا على مبانيهم الاولى واتخذ فيها محلات للوحش فسيحة الفناء متباعدة
السياج ومسارح للطيور مظللة بالشباك واتخذ فيها دورا لصناعة الآلات من آلات
السلاح للحرب والحلى للزينة وغير ذلك من المهن وأمر بعمل الظلة على صحن الجامع بقرطبة
وقاية للناس من حر الشمس انتهى وأما الزاهرة فهي من مباني المنصور محمد بن أبي عامر
(قال ابن خلدون) أثناء كلامه على المنصور ما صورته وابتنى لنفسه مدينة لنزله سماها
الزاهرة ونقل إليها خزائن الاموال والاسلحة انتهى (وقال غيره) وأظنه صاحب المطمح
وفي سنة ثمان وستين وثلثمائة أمر المنصور بن أبي عامر ببناء الزاهرة وذلك عندما تكامل
واستفحل أمره واتقد جمره وظهر استبداده وكثر حساده وأضداده وأنداده وخاف على
نفسه في الدخول إلى قصر السلطان وخشي أن يقع في أشطان فتوثق لنفسه وكشف له
ما ستر عنه في أمسه من الاعتراض عليه ورفع الاستبداد إليه وسما إلى ما سمت إليه الملوك من
اختراع قصر ينزل فيه ويحله بأهله وذويه ويضم إليه رياسته ويتم به تدبيره
وسياسته ويجمع فيه فتيانه وغلمانه فارتاد موضع مدينته المعروفة بالزاهرة الموصوفة

بالقصور الباهرة وأقامها بطرف البلد على نهر قرطبة الاعظم ونسق فيها كل اقتدار معجز ونظم وشرع فى بنائها فى هذه السنة المؤرخة وحشد الصناع والفعلة وجلب اليها الآلات الجليلة وسربلها بهاء يردّ الاعين كليلة وتوسع فى اختطاطها وتولع بانتشارها فى البسيطة وانبساطها وبالغ فى رفع أسوارها وثابر على تسوية أنجادها وأغوارها فاتسعت هذه المدينة فى المدة القريبة وصار بناؤها من الانباء الغريبة وبنى معظمها فى عامين * وفى سنة سبعين وثلثمائة انتقل المنصور اليها ونزلها بخاصته وعامّته فتبوّأها وشحنها بجميع أسلحته وأمواله وأمتعته واتخذ فيها الدواوين والاعمال وعمل فى داخلها الاهراء وأطلق بساحتها الارحاء ثم أقطع ما حولها لوزرائه وكتابه وقوّاده وحجّابه فابتنوا بها كبار الدور وجليلات القصور واتخذوا خلالها المستغلات المفيدة والمنازه المشيدة وقامت بها الاسواق وكثرت فيها الارفاق وتنافس الناس بالنزول بأكنافها والحلول بأطرافها للدنوّ من صاحب الدولة وتناهى الغلو فى البناء حوله حتى اتصلت أرباضها بأرباض قرطبة وكثرت بحوزتها العمارة واستقرّت فى بحبوحتها الامارة وأفرد الخليفة من كل شئ الا من الاسم الخلافى وصيّر ذلك هو الرسم العافى ورتب فيها جلوس وزرائه ورؤس أمرائه وندب اليها كل ذى خطة بخطته ونصب ببابها كرسىّ شرطته وأجلس عليها والياً على رسم كرسىّ الخليفة وفى صفة تلك المرتبة المنيفة وكتب الى الاقطار بالاندلس والعدوة بأن تحمل الى مدينته تلك أموال الجبايات وتقصدها أصحاب الولايات وينتابها طلاب الحوائج وحذر أن يعوج عنها الى دار الخليفة عائج فاقتضيت اليها الدانات والاوطار وانحشد الناس اليها من جميع الاقطار وتم لمحمد بن أبى عامر ما أراد وانتظم بلبة أمانيه المراد وعطل قصر الخليفة من جميعه وصيره بمعزل من سامعه ومطيعه وسدّ باب قصره عليه وجدّ فى خبر لا يصل اليه وجعل فيه ثقة من صنائعه يضبط القصر ويبسط فيه النهى والامر ويشرف منه على كل داخل ويمنع ما يحذره من الدواخل ورتب عليه الحراس والبوّابين والسمار والمنتابين يلازمون حراسة من فيه ليلا ونهارا ويراقبون حركاتهم سرا وجهارا وقد حجر على الخليفة كل تدبير ومنعه من تملك قبيل أودبير وأقام الخليفة هشام مهجور الفناء محجوز الغناء خفىّ الذكر عليل الفكر مسدود الباب محجوب الشخص عن الاحباب لا يراه خاص ولا عام ولا يخاف منه بأس ولا يرجى منه انعام ولا يعهد فيه الا الاسم السلطانىّ فى السكة والدعوة وقد نسخه ولبس أبهته وطمس بهجته وأغنى الناس عنه وأزال أطماعهم منه وصيرهم لا يعرفونه وأمرهم لا يذكرونه واشتدّ ملك محمد بن أبى عامر منذ نزل قصر الزاهرة وتوسع مع الايام فى تشييد بنيتها حتى كملت أحسن كمال وجاءت فى نهاية الجمال تفاوت بناء وسعة فناء واعتدال هواء رق أديمه وصقالة جوّ اعتلّ نسيمه ونضرة بستان وبهجة للنفوس فيها افتنان وفيها يقول صاعد اللغوىّ

يا أيها الملك المنصور من يمن * والمبتنى نسباً غير الذى انتسبا
بغزوة فى قلوب الشرك رائعة * بين المنايا تناغى السمر والقضبا

أما ترى العين تجري فوق مرمرها • هوى فتجري على أحشائها الطربا
أجرى بها ملكها الراحي غرائبها • كما طربت فصدت الهم والكربا
تخال فيه جنود الماء رافلة • مستلئمات بريك الدرع واليلبا
تحفها من فنون الايك زاهرة • قد أورقت فيه اذ أورقت ذهبا
بديعة الملك ما ينفك ناظرها • يتلو على السمع منها آية عجبا
لا يحسن الدهر أن ينشي لها مثلا • ولو تعنت فيها نفسه طلبا

وقد دخل عليه ابن أبي الحباب في بعض قصور من المنية المعروفة بالعامرية والروض قد تفتحت أنواره ووشت أنجاده وأغواره وتصرف فيها الدهر متواضعا ووقف بها السعد خاضعا فقال

لا يوم كاليوم في أيامك الاول • بالعامرية ذات الماء والظلل
هواؤها في جميع الدهر معتدل • طيبا وان حل فصل غير معتدل
ما ان يبالي الذي يحتل ساحتها • بالسعد أن لا تحل الشمس بالحمل

وما زالت هذه المنية رائقة والسعود بلبتها متناسقة تراوحها الفتوح وتغاديها وتطلع اليها منكسرة أعاديها لا ترمق عمارتها الا بحج ولا تصدر عنها الا بفتح الى أن حان يومها العصيب ونعق بها غراب المكروه أو قرب فتولت بعد حلت من بجمعها كل عقد انتهى (وقد حكى الحميدي في جذوة المقتبس) هذه الحكاية الواقعة لابن أبي الحباب بزيادة فقال بعد أن ذكر هذه المنية بالعامرية وهي الى جانب الزهراء أن أبا المطرف بن أبي الحباب الشاعر دخل الى المنصور في هذه المنية وقد جلس على روضة فيها ثلاث سوسنات ثنتان منها قد تفتحتا وواحدة لم تتفتح فقال

لا يوم كاليوم في أيامنا الاول • بالعامرية ذات الماء والظلل
هواؤها في جميع الدهر معتدل • طيبا وان حل فصل غير معتدل
ما ان يبالي الذي يحتل ساحتها • بالسعد أن لا تحل الشمس في الحمل
كأنما غرست في ساحتها وبدا الـ • ـسوسان من حسنه ثم اعلى غصل
أبدت لنا الايام السوسان مائلة • أعاجيبا من الاعطاء والكحل
فبعض ثوارها للبعض منفتح • والبعض منغلق عنه في شغل
كأنها راحة ضمت أناملها • من بعد ما ملئت من جودك الخضل
وأختها بسطت منها أناملها • ترجو نداك كما عودتها فصل انتهى

وقد ذكر ابن سعيد أن ابن العريف النحوي دخل على المنصور بن أبي عامر وعنده صاعد اللغوي البغدادي فأنشده وهو بالموضع المعروف بالعامرية من أبيات

فالعامرية تزهى • على جميع المباني
وأنت فيها كسيف • قد حل في غمدان

فقام صاعد وكان مناقضا له فقال أسعد الله تعالى المنصور الاجل ومكن سلطانه هذا الشعر الذي قد أعده وروى فيه وقد رأيت أن أقول أحسن منه ارتجالا فأمر له المنصور لظهور

صدق دعواك فجعل يقول من غير فكرة كثيرة

يا أيها الحاجب المعتلي على كيوان
ومن به قد تناهى • فخار كل يمان
العامرية أضحت • كجنة الرضوان
فريدة لفريد • ما بين أهل الزمان

ثم مر في الشعر الى أن قال في وصفها

انظر الى النهر فيها • ينساب كالثعبان
والطير يخطب شكرا • على ذرى الاغصان
والقضب تلتف سكرا • بميس القضبان
والروض يفتر زهوا • عن مبسم الاقحوان
والنرجس الغض يرنو • بوجنة النعمان
وراحة الريح تمتا • رنجمة الريحان
فدم مدى الدهر فيها • في غبطة وأمان

فاستحسن المنصور ارتجاله وقال لابن العريف مالك فائدة في مناقضة من هذا ارتجاله فكيف تكون رويته فقال ابن العريف انما انطقه وقرب عليه المأخذ احسانك فقال له صاعد فيحرج من هذا أن قلة احسانه لك اسكتتك وبعدت عليك المأخذ فضحك المنصور وقال غير هذه المنازعة أليق بأربكما (قلت) وقد ذكر مؤرخو الاندلس منى كثيرة بها منها منية الناعورة السابقة ومنية العامرية هذه ومنية السرور ومنية الزبير منسوبة الى الزبير بن عمر الملثم ملك قرطبة (قال أبو الحسن) بن سعيد أخبرني أبي عن ابيه قال خرج معي الى هذه المنية في زمان فتح نوار اللوز أبو بكر بن بقي الشاعر المشهور فجلسنا تحت سطر لوز قد نور فقال ابن بقي

سطرمن اللوز في البستان قابلني • مازاد شيء على شيء ولانقصا
كأنما كل غصن كم جارية • اذا النسيم ثنى أعطافه رقصا

ثم قال

عجبت لمن أبقى على خمرذنه • غداة رأى لوز الحديقة نورا انتهى

(وذكر) بعض مؤرخي الاندلس أن المنصور بن ابي عامر كان يزرع كل سنة ألف مدى من الشعير قصيلا لدوابه الخاصة به وأنه كان اذا قدم من غزوة من غزواته لا يحل عن نفسه حتى يدعو صاحب الخيل فيعلم مامات منها وماعاش وصاحب الابنية لما وهى من أسواره ومبانيه وقصوره ودوره قال وكان له دخالة كل يوم اثنى عشر ألف رطل من اللحم حاشا الصيد والطير والحيتان وكان يصنع في كل عام اثنى عشر ألف ترس عامرية لقصر الزاهرة والزهراء قال وابتنى على طريق المباهاة والفخامة مدينة العامرية ذات القصور والمنتزهات المخترعة كمنية السرور وغيرها من مباشه البديعة انتهى • ومن المطمح ان المنصور لما فرغ من بناء الزاهرة غزا غزوة وأبعد فيها الايغال وغال فيها من عظماء

الروم بقتال وخلق بأرضهم ما لم يطرق وراع منهم ما لم يرع قط ولم يفرق وصدر صدرا أمتانه على كل حسناء عقيلة وجلائه كل صفيحة صقيلة ودخل قرطبة دخولا لم يعهد وشهد له فيها يوم مثله لم يشهد وكان ابن شهيد متخلفا عن هذه الغزوة لنقرس عداه عائدا ووجدا بمصحفه وزائدا وابن شهيد هذا أحد حجاب الناصر وله على ابن أبي عامر أياد محكمة الأواصر وهو الذي نهض به أول النباهة وسنى أمر ريس النيابة وحاسم المصحفي عنه بلسان من الجانة أيد وتوسعا باحسان فلله من الرعاية ما قلد وأبقى رسمه وعلى باعظام شأنه اسمه وكان كثيرا ما يتحفه ويصله ويلطفه فلما صدر المنصور من غزوته هذه ولم يرى ما نفسه وعمل فكتب اليه ابن شهيد

أنا شيخ والشيخ يهوى الصبايا * يا بنفسي أقيك كل الرزايا
ورسول الإله أسهم في الفي * ء لمن لم يخب فيه المطايا
فاجعلني فديت أشكر غزو * ك وانعم بها عذاب الثنايا

فبعث اليه بعقيلة من عقائل الروم يكنفها ثلاث جوار كأنهن نجوم سوار وكتب اليه

قد بعثناها كشمس النهار * في ثلاث من المها أبكار
فاتئد واجتهد فإنك شيخ * قد جلا الليل عن بياض النهار
صانك الله من كلالك فيها * فمن العار كبوة المضمار

فكتب اليه ابن شهيد

قد فضضنا ختام ذاك السوار * واصطبغنا من النجيع الجاري
ونعمنا في ظل أنعم ليل * ولهونا بالبدر ثم الدراري
وصفي الشيخ ماضي عزم * ذي مضاء عضب الظبا بتار
فاصطنعه فليس يجزيك كفرا * واتخذه سيفا على الكفار انتهى

وقد تقدمت هذه الحكاية في أخبار المنصور في الباب الثالث ولكنا أعدناها هنا لما في المطمح لما فيه من الغرابة والفائدة الزائدة * وممن كان في أيام المنصور من الوزراء المشهورين الوزير الكاتب أبو مروان عبد الملك بن إدريس الجزيري قال في المطمح علم من الأعلام فريد الزمان وغني عن أعيان البيان باهر الفصاحة طاهر الجناب والساحة تولى التحرير أيام المنصور والإنشا واستعبدوا به الأفراح والانتشا ولبس العز تدعا فيه البرود ووردوا منه صافية الورود واستطلى من جناه البرحة وأعتق من لاحق والوجبة وغادى طائفة ولا أحد لحقه الى أيام المظفر جنى على نفسه وغادى السعد برعم على نفسه الى أن قتل المظفر صهر عيسى بن القطاع صاحب دولته وأميرها المطاع وكان أبو مروان قديم الاصطناع له والاستطاع فاتهم فيه وكاد أن يدون حمامه ومصرعه الا أن إحسانه شفع وشأنه نفع ودفع فحط عن تلك الرتب وحمل الى طرطوشة على القتب فبقي هنالك معتقلا في برج من أبراجها نائي المهوى كأنما يناجي السهى قد تعرض سباكه عن الأنس وتعدد من الصم عشيره الجليس عمر الطير ديدبة ولا يعوره وترى منه الثرى ولا يكاد يغور وفيه ذهب الأرض الى رأى ولا يرجى لسه رأى

الى أن أخرج منه الى ثراه واستراح مما عراه ومن بديع نظمه قوله يصف المعتقل الذى فيه اعتقل

يأوى اليه كل أعور ناعق * وتهب فيه كل ريح صرصر
ويكاد من يرقى اليه مرة * من عمره يشكو انقطاع الابهر

ودخل ليلة على المنصور والمنصور قد اتكا وارتفق وتحلى بمجلسه ذلك الافق فكم اما نيا بمجلسه ذلك مسوقه واحاديث الامانى به منسوقه فأمره بالنزول عنده فنزل فى جملة الاصحاب والقمر يظهر ويحتجب فى السحاب والافق يبدو به أغر ثم يعود دهما والليل يتراءى منه أشقر ثم يعود أدهما وأبو مروان قد انتشى وجال فى ميدان الانس ومشى ورد خاطره قد دبجه السرور ووشى فأقلقه ذلك المغيب والالتياح وأنطقه ذلك السرور والارتياح فقال

أرى بدر السماء يلوح حينا * فيبدو ثم يلتحف السحابا
وذلك انه لما تبدى * وأبصر وجهك استحيا فغابا
مقال لو نمى عندى اليه * لراجعنى بذا حقا جوابا

وله فى مدة اعتقاله وتردده فى قيله وقاله

شحط المزار فلا مزار ونافرت * عينى الهجوع فلا خيال يعترى
أزرى بصبرى وهو مشدود العرى * والآن عودى وهو صلب المكسر
وطوى سرورى كله وتلذذى * بالعيش طى صحيفة لم تنشر
ها انما ألقى الحبيب توهما * بضمير تذكارى وعين تذكرى
عجبا لقلبى يوم راعتنى النوى * ودنا وداع كيف لم يتفطر

(رجع الى المنصور) وكان المنصور اذا أراد أمرا مهما شاور أرباب الدولة والاكابر من خدام الدولة الاموية فيشيرون عليه بالوجه الذى عرفوه وجرت الدولة الاموية عليه فيخالفهم الى المنهج الذى ابتدعه فيقضون فى أنفسهم بالهلاك فى الطريق الذى سلكه والمهيع الذى اخترعه فتسفر العاقبة عن السلامة التامة التى اقتضاها سعده فيكثرون التعجب من موارد أموره ومصادرها * وقيل له مرة ان فلانا مشؤم فلا تستخدمه فقال أف اسعد لا يغطى على شؤمه فاستخدمه ولم ينله من شؤمه الذى جرت به العادة شئ * وحكى عنه انه كان فى قصره الذى بالزاهرة فتأمل محاسنه ونظر الى مياهه المطردة وأنصت لاطياره المغردة وملأ عينيه من الذى حواه من حسن وجمال والتفت فى الزاهرة من اليمين الى الشمال فانحدرت دموعه وتجهم وقال ويل لك يا زاهرة فليت شعرى من الخائن الذى يكون خرابك على يديه عن قريب فقال له بعض خاصته ما هذا الكلام الذى ما سمعناه من مولانا قط وما هذا الفكر الردىء الذى لا يليق بمثله شغل البال فقال والله لترون ما قلت وكأنى بمحاسن الزاهرة قد محيت وبرسومها قد غيرت ومبانيها قد هدمت ومحيت وبخزائنها قد نهبت وبساحاتها قد أضرمت بنار الفتنة وألهبت (قال الحاكى) فلم يكن الا أن توفى المنصور وتولى المظفر فلم تطل مدته فقام بالامرة أخوه عبد الرحمن الملقب

بجور فقام عليه المهدي والعامة وكانت منيتهم عليه وعلى يومه الثلاثاء وانقرضت دولة آل عامر ولم يبق منهم آمر

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا • أنيس ولم يسمر بمكة سامر
بلى نحن كنا أهلها فأبادنا • صروف الليالي والجدود العواثر

وخربت الزاهرة وصفت كأمس الدابر ونهب منها الدسوت الملوكية والدساكر واستولى النهب على ما فيها من العدد والذخائر والسلاح وتلاشى أمرها ولم يرج لفسادها صلاح وصارت قاعاً صفصفاً وذلك بأيام الترح عن أيام الفرح والصفا (وروي) أن بعض أولياء ذلك الزمان مرّ بها ونظر إلى مصانعها السامية القائمة ومبانيها العالية الرائقة فقال يا دار فيك من كل دار فجعل الله منك في كل دار (قال الحاكي) فلم تمض بعد دعوة ذلك الرجل الصالح الأيام يسيرة حتى نهبت ذخائرها وعمّ بالخراب سائرها فلم تبق دار في الأندلس إلا ودخلها من نهبها حصة كثر أو قلّ وقد أجاب الله تعالى دعاء ذلك الرجل الذي فيه من غربته خلل (وأغرب حكي) أن بعض ما نهب منها بيع ببغداد وغيرها من البلاد المشرقية فسبحان من لا يزول سلطانه ولا يفنى ملكه لا إله إلا هو (وقد كتب) هنا ما رآه في المنام بعض أهل المغرب بالبلدة التي انقرض فيها ملك الموحدين أن شخصاً ينشد

ملك بني ـــــ ومن يلي • وكان فوق السماك مسكنه
فاعتبروا وانظروا وقولوا • سبحان من لا يبيد ملكه لا إله إلا هو

وكان المهدي القائم على العامري ماجناً فاتكاً قال وقد غناه في مجلس شرابه غلام يعشقه آنس

أهديت شبه قوامك المائس • غصناً رطيباً ناعماً من آس
وكأنما يحكيك في حركاته • وكأنما يحكيه في الأنفاس

وكان المنصور بن أبي عامر حين تغلب على ملك الأمويين غير كثير غفل المهدي المذكور فسلطه الله تعالى على كل ما أسسه المنصور حتى هدمه وانتثر كل ما نظمه ولم ينفع في ذلك احتياط ولا حزم ولا راد للقضاء المبرم الجزم والله يحكم ما يشاء فلا يكن معترضاً) وقد قدمنا شيئاً من أخبار المنصور ولا بأس أن نتكلم هنا بعضها وإن حصل فيه نوع تكرار في بعضها لارتباط الكلام بعضه ببعض (قال بعض المعتنين من المؤرخين) حجر المنصور بن أبي عامر على هشام المؤيد حتى لم ير أحد منه ولي الخلافة وربما أركبه بعض السنين وجعل عليه برنساً وعلى جواريه مثل ذلك فلا يعرف منهن ويأمر من ينحي الناس من طريقه حتى ينتهي المؤيد إلى موضع نزهته ثم يعود غير أنه أركبه بأمره الطريقة في بعض الأيام ليعرض له كالمصابة فيما يسمى وكان المنصور إذا سافر وكل بالمؤيد من يفعل معه ذلك فكان هذا من فعله سبباً لانقطاع ملك بني أمية من الأندلس وأخذ مع ذلك في قتل من يخشى منه من بني أمية خوفاً أن يثوروا به وتظاهر أنه فعل ذلك شفقة على المؤيد حتى أتى من يصلح منهم للولاية ثم فرّق باقيهم في البلاد وأدخلهم زوايا الخمول عارين من الطراف والتلاد وربما أسكن بقيتهم البادية وترك مجلس الأنس ومنادمته حتى قال بعض من سمع

على

على المنصور ذلك الفعل من قصيدة

أبني أمية اين اقمار الدجى * منكم وأين نجومها والكوكب
غابت أسود منكم عن غابها * فلذاك حاز الملك هذا الثعلب

مع أن للمنصور مفاخر لذبها الاوائل والاواخر من المثابرة على جهاد العدو وتكرار الذهاب بنفسه في الرواح والعدو وله مع المصحفي وغيره أخبار مرت ويأتي بعضها ولا بأس أن نلخص ترجمة المصحفي فنقول (قال الفتح في المطمح) الحاجب جعفر المصحفي تجرد للعليا وتردد في طلب الدنيا حتى بلغ المنا وتسوغ ذلك الجنى صعادون سابقة وارتقى الى رتبة لم تكن لمثله بطابقة والتاح في أوفاء الخلافة وارتاح اليها بعطفه كنشوان السلافة واستوزره المستنصر وعنه كان يسمع وبه يبصر فأدرك بذلك ما أدرك ونصب لاماينه الحبائل والشرك واقتنى وادخر ووزرى بمن سواه وسخر واستعطفه المنصور بن أبي عامر ونجمه بعد غائر لم يلح وسره مكتوم لم يبح فما عطف ولاجنى من روضة دنياه ولاقطف فأقام في تدبير الاندلس ما أقام والاندلس متغيرة والاذهان في تكييف سعده متحيرة فناهيك من ذكر خلد ومن حر تقلد ومن صعب راض وجناح فتنة هاض ولم يزل بعاد تلك الخلافة معتقلا وفي مطالعها مستقلا الى أن توفي الحكم فانتقض عقده المحكم وانبرت اليه النوائب وتسددت اليه سهام صوائب واتصل الى المنصور ذلك الامر واختص به كمال بريد اخوة العمر وأناف في تلك الخلافة كما شب قبل اليوم عن طوقه عمرو وانتدب للمصحفي بصدر كان أوغره وساءه وصغره فاقتص من تلك الاساءه وأغص حلقه بأي اشاءه فأخمله ونكبه وأرجله عما كان الدهر أركبه وأهب بجوارحه حزنا ونهب له مدخرا ومختزنا ودمر عليه ما كان حاط وأحاط به من مكروهه ما أحاط وغبر سنين في مهوى تلك النكبه وبراثن تلك الكربه ينقله المنصور معه في غزواته ويعتقله بين ضيق المطبق ولهواته الى أن تكورت شمسه وفاظت بين أثناء المحن نفسه ومن بديع ما حفظ له في نكبته قوله يستريح من كربته

صبرت على الايام لما تولت * وألزمت نفسي صبرها فاستمرت
وما النفس الاحيث يجعلها الفتى * فان طمعت تاقت والا تسلت
فواعجبا للقلب كيف اعترافه * وللنفس بعد العز كيف استذلت
وكانت على الايام نفسي عزيزة * فلما رأت صبري على الذل ذلت
فقلت لها يا نفس موتي كريمة * فقد كانت الدنيا لنا ثم ولت

وكان له أدب بارع وخاطر الى نظم القريض بسارع فمن محاسن أنظامه وانشاده التي بعثها اليأس دهره باسعاده قوله

لعينك في قلبي على عيون * وبين ضلوعي للشجون فنون
لئن كان جسمي مخلقا في يد الهوى * فحبك عندي في الفؤاد مصون

(وله) وقد أصبح عاكفا على حمياه هاتفا باجابة دنياه مرتشفا ثغر الانس متنسما رياه والملك يعاره بطرف كليل والسعد قد عقد عليه منه اكليل يصف لون مدامة

قوله وفي أ الغمر

ومما يعرف له من بادرة بداهته

صفراء تطرق في الزجاج فإن سرت * في الجسم دبت مثل صل لادغ

خفيت على شرابها فكأنما * يجدون ريا من إناء فارغ

ومن شعره الذي قاله في السفرجل منها وغدا به لسان المديح منها قوله يصف سفرجلة وقيل إنه ارتجله

ومصفرة تختال في ثوب نرجس * وتعبق عن مسك ذكي التنفس

لها ريح محبوب وقسوة قلبه * ولون محب حلة السقم مكتسي

فصفرتها من صفرة مستعارة * وأنفاسها في الطيب أنفاس مؤنس

وكان لها ثوب من الزغب أغبر * على جسم مصفر من التبر أملس

فلما استتمت في القضيب شبابها * وحاكت لها الأوراق أثواب سندس

مددت يدي باللطف أبغي اقتطافها * لأجعلها ريحانتي وسط مجلسي

فبزت يدي غصبا لها ثوب جسمها * وأعريتها باللطف من كل ملبس

ولما تعرت في يدي من برودها * ولم يبق إلا في غلالة نرجس

ذكرت بها من لا أبوح بذكره * فأذبلها في الكف حر التنفس

وله وقد أعاده المنصور إلى المطبق والسجون يسرع إليه ويسعى معربا بالقصة وشعرا باسعاد أمه

أسارى الزمان على حاله * تحار النفوس لأيامها

إذا نمت ساعة ساعدتها * توارت به دون أحلامها

وإن عكفت نكبة للزمان * عطفت بنفسي على رأسها

ومما قاله في استعطافه واستنزاله للمنصور واستلطافه قوله

عفا الله عنك ألا رحمة * تجود بعفوك أن أبعدا

لئن جل ذنب ولم أعتمد * فأنت أجل وأعلى يدا

ألم تر عبدا عدا طوره * ومولى عفا ورشيدا هدى

ومفسد أمر تلافيته * فعاد فأصلح ما أفسدا

أقلني أقالك من لم يزل * يقيك ويصرف عنك الردى

*(عود إلى أخبار المنصور بن أبي عامر) رحمه الله تعالى وآثاره عن جهاد اتصل الجزاء عنه ذكره وفضله وطوله متصل وكان له في كل غزو من غزواته المنيفة على الخمسين مفخر من المفاخر الإسلامية منها أن بعض الأجناد نسي راية مركوزة على جبل قرب إحدى مدائن الروم فأقامت عدة أيام لا يعرف الروم ما وراءها بعد رحيل العساكر وهذا بلا شك مما يقضي به أهل التوحيد على أهل التثليث لأنهم لما أشرب قلوبهم خوف سرية المنصور وحربه وعلم كل من ملوكهم أنه لا طاقة له بحربه لجؤوا إلى الفرار والتحصن بالمعاقل والقلاع ولم يحصل منهم غير الإشراف من بعد والاطلاع (ومن مفاخر المنصور) في بعض غزواته أنه مر بين جبلين عظيمين في مأزق عرض وقد توسط بلاد الإفرنج

فلما

فلما جاوز ذلك المدخل وهو آخذ فى التحريق والتخريب والغارات والسبى يمينا وشمالا لم يجسر أحد من الافرنج على لقائه حتى أقفرت البلاد مسافة أيام ثم عاد فوجد الافرنج قد استجاشوا من وراءهم وضبطوا ذلك المدخل الضيق الذى بين جبلين وكان الوقت شتاء فلما رأى ما فعلوه رجع واختار منزلا من بلادهم أناخ به فين معه من العساكر وتقدم ببناء الدور والمنازل وبجمع آلات الحرث ونحوها وبث سراياه فسبت وغنمت فاسترق الصغار وضرب أعناق الكبار وألقى جثثهم حتى سدّ بها المدخل الذى من جهته وصارت سراياه تخرج فلا تجد الا بلدا خرابا فلما طال البلاء على العدو أرسلوا اليه فى طلب الصلح وأن يخرج بغير أسرى ولا غنائم فامتنع من ذلك فلم تزل رسلهم تتردد اليه حتى سألوه أن يخرج بغنائمه وأسراه فأجابهم ان أصحابى أبوا أن يخرجوا وقالوا انا لا نكاد نصل بلادنا الا وقد جاء وقت الغزوة الاخرى فنقعد ههنا الى وقت الغزاة فاذا غزونا عدنا فقال الافرنج يسألونه الى أن قرر عليهم أن يحملوا على دوابهم ما معه من الغنائم والسبى وان يمدوه بالميرة حتى يصل الى بلاده وأن ينحوا جيف القتلى عن طريقه بأنفسهم ففعلوا ذلك كله وانصرف ولعمرى ان هذا لعز ما وراءه مطمح ونصر لا يكاد الزمان يجود بمثله ويسمح خصوصا ازالتهم جيف قتلاهم من الطريق وغصصهم فى شرب ذلك بالريق (ومن مآثره التى فى جبين عصره غرّه ولعين دهره قرّه انه لما ختن أولاده ختن معهم من أولاد أهل دولته خمسمائة صبى ومن أولاد الضعفاء عدد لا يحصر فبلغت النفقة عليهم فى هذا الاعذار خمسمائة ألف دينار وهذه مكرمة مخلده ومنة مقلده فالله سبحانه يجازيه عن ذلك أفضل الجزاء ويجعل للمسلمين فى فقد مثله أحسن العزاء (ومن مناقبه التى لم تتفق لغيره من الملوك فى غالب الطرق انه اكثر جنده من سبيه على ما حققه بعض المؤرخين وذلك غاية المنح من الله والمن (ومن أخباره الدالة على اقبال أمره وخيبة عدوه وادباره انه ما عاد قط من غزوة الا استعد لأخرى ولم تهزم له قط راية مع كثرة غزواته شاتية وصائفة وكفاه ذلك فخرا *ومنها انه لقيته وقد عاد من بعض غزواته امرأة نعت عليه بلوع مساء وشهواته وقالت له يا منصور استمع ندائى فأنت فى طيب عيشك وأنا فى بكائى فسألها عن مصيبتها التى عمتها وعمتها فذكرت له أن لها ابنا أسيرا فى بلاد سمتها وأنها لا يهنأ عيشها لفقده ولا يخبو ضرام قلقها من وقده وأنشد لسان حالها لذلك الملك العلى ويح الشجى من الخلى فرحب المنصور بها وأظهر الرقة بسببها وخرج من القابلة الى تلك المدينة التى فيها ابنها وجاس أقطارها وتخللها حتى دوخها اذ اناخ عليها بكلكله وذللها وأعراها من حماتها وبنود الاسلام المنصورة ظللها وخلص جميع من فيها من الاسرى وجلبت عوامله الى قلوب الكفرة كسرا وانقلبت عيون الاعداء حسرى وتلا لسان حال المرأة فان مع العسر يسرا ان مع العسر يسرا فهكذا تكون الهمة السلطانية والنخوة الايمانية فالله سبحانه يروح تلك الارواح فى الجنان ويرقى درجاتها ويعاملها بمحض الفضل والامتنان وقد تذكرت هنا والحديث شجون وبذكر المناسبات يبلغ الطلاب ما يرجون كتابا كتبه الاديب الكاتب أبو محمد ابن الامام الحافظ محدث الاندلس أبى عمر بن عبد البر النمرى

فكن في اصطناعي محسنا لمجرب * يبن لك تقريب الجواد وشده
اذا كنت في شك من السيف فابله * فاما تنافيه واما تعده
وما الصارم الهندي الا كغيره * اذا لم يفارقه النجاد وغمده

ولا باس أن يتطول مولاي بغرس الصنيعة في أزكى الترب ووضع الهناء موضع النوب والله سبحانه يبقي مولاي آخذا بزمام الفخر ناهضا بأعباء البر مالكا لاعنة الدهر وصنع الله سبحانه لسيدي أتم الصنع وأجمله وأفضله وأكمله بمنه لا رب سواه انتهى (رجع الى أخبار المنصور الكبير) محمد بن أبي عامر رحمه الله وكما قد ذكرنا انه قبض على الوزير الحاجب المصحفي مع انه كان أحد أتباعه (قال صاحب كتاب روضة الازهار وبهجة النفوس ونزهة الابصار) ولما أمر المنصور بن أبي عامر بسجن المصحفي في المطبق بالزهراء ودع أهله وودعوه وداع الفرقة وقال لهم استم تروني بعدها حيا فقد أتى وقت اجابة الدعوة وما كنت أرتقبه منذ أربعين سنة وذلك اني أشركت في سجن رجل في عهد الناصر وما أطلقته الا برؤيا رأيتها بأن قيل لي أطلق فلانا فقد أجيبت فيك دعوته فأطلقته وأحضرته وسألته عن دعوته علي فقال دعوت على من شارك في أمري أن يميته الله في أضيق السجون فقلت انها قد أجيبت فاني كنت ممن شارك في أمرك وندمت حين لا ينفع الندم فيروى انه كتب للمنصور بن أبي عامر بهذه الابيات

هبني أسأت فأين العفو والكرم * اذ قادني نحوك الاذعان والندم
يا خير من مدت الايدي اليه أما * ترثي لشيخ نعاه عندك القلم
بالغت في السخط فاصفح صفح مقتدر * ان الملوك اذا ما استرحموا رحموا

فأجابه المنصور بأبيات لعبد الملك الجزيري

يا جاهلا بعد ما زلت به القدم * تبغي التكرم لما فاتك الكرم
ندمت اذ لم تعد مني بطائلة * وقلما ينفع الاذعان والندم
نفسي اذا جمحت ليست براجعة * ولو تشفع فيك العرب والعجم

فبقي في المطبق حتى مات نعوذ بالله تعالى من دعوة المظلوم انتهى * وقد ذكر بعضهم في هذه الابيات زيادة حسبما ذكرناه في غير هذا المحل فان هذه الابيات للمنصور وهذا المؤرخ مصرح بأنها لعبد الملك الجزيري وقد يقال لا منافاة بينهما فان المنصور أجاب بالابيات وهل هو قائلها أم لا الامر أعم فبين هما والله أعلم * (وقال بعض مؤرخي المغرب) ان الحاجب المصحفي حصل له في هذه النكبة من الهلع والجزع مالم يظن انه يصدر من مثله حتى انه كتب الى المنصور بن أبي عامر يطلب منه أن يقعد في دهليزه معلما الاولاده فقال المنصور بدهائه وحذقه ان هذا الرجل يريد أن يحط من قدري عند الناس لانهم طالما رأوني بدهليزه خادما ومعلما فكيف يرونه الآن في دهليزي معلما وكان المنصور يذهب به بعد نكبته معه في غزواته حتى انه حكى بعضهم انه رأى الحاجب المصحفي في ليلة نهى المنصور فيها الناس عن ايقاد النيران تعمية على العدو الكافر وهو ينفخ فحما في كانون صغير ويخفيه تحت ثيابه أو كما قال فسبحان مديل الدول لا اله الا هو فان هذا المصحفي

بلغ من الجلالة والعظمة والتحكم في الدولة الحد الذي أمر الأمر بعده وأقره الله وارث
الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين * (ولقد ذكر بعض علماء المغاربة) أن من أعاجيب
انقلاب الدنيا اتفاق اشباه المنصور بن أبي عامر مع الحاجب جعفر بن عثمان المصحفي ولم يزل
أعداء المنصور بن أبي عامر يتربصون به الدوائر بعد نكبته الذي هو المثل السائر ويرعى
همس ا من الشعراء [illegible] وهو الدولة جميعا فقال

اقترب الوعد وحان الهلاك * وكل ما تحذر قد نالك
خلافة مات في مكتب * وأمه حبلى وقاض سالك

يعني بالخليفة هشاما المؤيد لكونه كان صغيرا وأمه صبح البشكنسية كان الأعداء يتهمونها
بالمنصور وذلك بهتان وزور وأقطع منه رميهم القاضي بالفجور والله عالم بأسرار
الأمور ونعوذ بالله من ألسنة الشعراء الذين لا يراعون إلا ولا ذمة ويطلقون ألسنتهم
في العلماء والأئمة * وأظلم أهل الأرض من كان حاسدا * لمن بات في نعمائه يتقلب
جدير أن لا يدرك ما أمل وطلب لأنه يعترض على الله سبحانه في أحكامه نعوذ بالله
من شر الحساد ومن شر كل ذي شر بجاه نبينا عليه أزكى صلوات الله وأفضل سلامه
وقد قدمنا أن المنصور بن أبي عامر كان يخدم أولا جعفر بن عثمان المصحفي ثم قدر عليه
أيام هشام المؤيد وزيره الصحيحة وأنه ما زال يستعطف الملوك بجود وحسن خلقه والمصحفي
يعرفها له ويعرف خلقه إلى أن كان من أمره ما كان فاستولى على الحجابة بعد المصحفي
وفي ذلك يقول المصحفي

عجبت وقد ما خانه عود كرمه * وكيف عليه في المراد نما
وأكرمه دهري يزيد خسيسة * ولو كان من أهل الكرم تكرما

ولما يئس المصحفي من عفو المنصور قال

لي مدة لا بد أبلغها * فإذا انقضت أيامها مت
لو قابلتني الأسد ضارية * والموت لم يقرب لما خفت
فانظر إلي وكن على حذر * في مثل حالك أمس قد كنت

ومن أحسن ما نعى به نفسه قوله حينما ندم

صبرت على الأيام حتى تولت * وألزمت نفسي صبرها فاستمرت
فوا عجبا للقلب كيف اعترافه * وللنفس بعد العز كيف استذلت
وما النفس إلا حيث يجعلها الفتى * فإن طمعت تاقت وإلا تسلت
وكانت على الأيام نفسي عزيزة * فلما رأت صبري على الذل ذلت
فقلت لها يا نفس موتي كريمة * فقد كانت الدنيا لنا ثم ولت

وأنشد له الفتح في المطمح ونسبه غيره لأحمد بن الفرج صاحب الحدائق

كلمتني فقلت در سقيط * فتأملت عقدها هل تناثر
فازدهاها تبسم فأرتني * عقد در من التبسم آخر

وله [illegible]

صدرا

صفراء تطرق فى الزجاج فان سرت * فى الجسم دبت مثل صل لادغ
خفيت على شرابها فكأنما * يجدون ريا من اناء فارغ

وله

ياذا الذى أودعنى سره * لا ترج أن تسمعه منى
لم أجره بعدك فى خاطرى * كأنه مامر فى اذنى

وأنشد له صاحب بدائع التشبيهات

سألت نجوم الليل هل ينقضى الدجى * فخطت جوابا بالثريا كخط لا
وكنت أرى أنى بآخر ليلتى * فأطرق حتى خلته عاد أولا
وماعن هوى سامرتها غير أننى * أنافسها الجرى الى طرق العلا انتهى

(رجع) وكان كما تقدم بقرطبة المصحف العثمانى وهو متداول بين أهل الاندلس قالوا ثم آل أمره الى الموحدين ثم الى بنى مرين قال الخطيب بن مرزوق فى كتاب المسند الصحيح الحسن ما ملخصه وكان السلطان أبو الحسن لا يسافر موضعا الا ومعه المصحف الكريم العثمانى ولهعند أهل الاندلس شأن عظيم ومقام كبير وكيف لا ويقال ان ابن بشكوال أخرج هذا المصحف منها أى قرطبة وغرب منها وكان بجامعها الاعظم ليلة السبت ١١ شوال سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة فى أيام أبى محمد عبد المؤمن بن على وبامره وهذا أحد المصاحف الاربعة التى بعث بها عثمان رضى الله تعالى عنه الى الامصار مكة والبصرة والكوفة والشام وماقيل ان فيه دم عثمان بعيد وان يكن أحدها فلعله الشامى قال ابن عبد الملك قال أبو القاسم التجيبى السبتى أما الشامى فهو باق بمقصورة جامع بنى امية بدمشق المحروسة وعاينته هنالك سنة ٦٥٧ كما عاينت المكى بقبة اليهودية وهى قبة التراب قلت عاينتهما مع الذى بالمدينة سنة ٧٣٥ وقرأت فيها قال الصحى لعله الكوفى أو البصرى وأقول اختبرت الذى بالمدينة والذى نقل من الاندلس فألفيت خطهما سواء وماتوهموه انه خطه بيمينه فليس بصحيح فلم يخط عثمان واحدا منها وانما جمع عليها بعضا من الصحابة كما هو مكتوب على ظهر المدنى ونص ما على ظهره هذا ما أجمع عليه جماعة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاصى وذكر العدد الذى جمعه عثمان رضى الله تعالى عنه من الصحابة رضى الله تعالى عنهم على كتب المصحف انتهى واعتنى به عبد المؤمن بن على ولم يزل الموحدون يحملونه فى أسفارهم متبركين به الى أن حمله المعتضد وهو السعيد على بن المأمون أبى العلا ادريس بن المنصور حين توجه لتلمسان آخر سنة ٦٤٥ فقتل قريبا من تلمسان وقدم ابنه ابراهيم ثم قتل ووقع النهب فى الخزائن واستولت العرب وغيرهم على معظم العسكر ونهب المصحف ولم يعلم مستقره وقيل انه فى خزانة ملوك تلمسان قلت لم يزل هذا المصحف فى الخزانة الى أن افتتحها امامنا أبو الحسن أواخر شهر رمضان سنة ٧٣٧ فظفر به وحصل عنده الى أن أصيب فى وقعة طريف وحصل فى بلاد برتقال وأعمل الحيلة فى استخلاصه ووصل الى فاس سنة ٧٤٥ على يد

أحد بعد أن زاد نوره واستمر بهاؤه في الزيادة أسنى استقرار واعتنى به ملوك الموحدين غاية الاعتناء بما ذكر ابن رشيد في رحلته ولا بأس أن أذكر كلامه بجملته والرسالة في شأن المصحف بكمالها في الفائدة ونص محل الحاجة منه أنشدني الخطيب أبو محمد بن برطله في لفظه وكتبه من خطه قال أنشدني الشيخ الفقيه القاضي أبو القاسم عبد الرحمن ابن كاتب الخلافة أبي عبد الله بن عياش لأبيه رحمهم الله تعالى مما نظمه وقد أمر أمير المؤمنين المنصور بتحلية المصحف

وحليته من كل ملك ذخيرة • كأنهم كانوا برسم مكاسبه
فإن ورث الأملاك شرقا ومغربا • فكم قد أخلوا جاهلين بواجبه
وكيف يفوت النصر جيشا جعلته • أمام شباه في الوغى وذوائبه
وألبسته الياقوت والدر حلية • وغيرك قد رواه من دم صاحبه

وعلى ذكر هذا المصحف الكريم فلنذكر كيفية الأمر في وصوله إلى الخليفة أمير المؤمنين عبد المؤمن وما أبدى في ذلك من الأمور الغريبة التي لم يسمع بمثلها في سالف الدهر حسبما اخترعه الوزير الأجل أبو بكر بن يحيى بن أحمد بن يحيى بن محمد بن عبد الملك بن طفيل القيسي حفظه الله تعالى وشكر ما أسداه وأفاد لنا بما لم نسمع به قبل عن كاتب جده الوزير أبي بكر محمد بن عبد الملك بن طفيل المذكور فيما نسبه من وصف قصة المصحف فقال وصل اليوم أدام الله سبحانه تأييدهم درّ الأندلس الغراء وأميراها الخطيران السيدان الأجلان أبو سعيد وأبو يعقوب أيدهما الله وبين أيديهما مصحف عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه وهو الإمام الذي لم يختلف فيه مختلف وما زال ينقله خالف عن سالف وقد حفظ شخصه على كثرة المتناولين وذخر الله للخلافة المنصورة عن غير طلب منه في المتداولين ولمن غرائب الأنباء ومتقدم الإشعار بما آل إليه أمره في الأعصار ما تلقى به الطروس وتحفظه من أهل الأندلس الرؤوس والمرؤوس فلما قصد وصوله بالإجلال والإعظام وبودر إليه بما يجب من التجلة والإكرام وعكف عليه أطول العكوف والتزم أشد الالتزام وكان في وصوله ذلك الوقت من عظيم العناية وباهر الكرامة ما هو معجز لأولي الألباب ومبلغ في الإغراب والإعجاب وذلك أن سيدنا ومولانا الخليفة أمير المؤمنين أدام الله عزه وأيد أمره المؤيد كان قبل ذلك بأيام قد جرى ذكره في خاطره الكريم وحركته إليه دواعي خلده العليم ورأى مع همته العلية الرفيعة وسماتها السنية الرفيعة في معنى اجتلابه من مدينة قرطبة محل مثواه القديم ووطنه الموصل عزمه للتقدم فتوقع أن يتأذى أهل ذلك القطر بفراقه ويستوحشوا لفقدان إضاءته في أفقهم وإشراقه فوقف عن ذلك لما جبل عليه من رحمته وإشفاقه فأوصله الله إليه تحفة سنية وهدية هنية وتحية من عند الله مباركة زكية دون أن يكدر صفاء السر اكتساب أو يتقدمها استدعاء أو اجتلاب بل أوقع الله سبحانه وتعالى في نفوس أهل ذلك القطر من الفرح بإرساله إلى مستحقه والمبادرة به إلى القائم إلى الله تعالى عنه ما اطلع بالمشاهد والتواتر على حقيقة صدقه وعهدت مخايل بره سواكب

ودقه وكان ذلك من كرامات سيدنا ومولانا الخليفة معدودا والى أمره الذى هو أمر الله مردودا وجمع عند ذلك بحضرة مراكش حرسها الله تعالى سائر الابناء الكرام والسادة الاعلام بدور الآفاق وكواكب الاشراق وأهل الاستئهال للمقامات الرفيعة والاستحقاق فانتظم عند ذلك هذا القصيد مشيرا الى اجتماع هذه الدرارى الزاهرة والتئام خطوطها على مركز الدائرة ووصول المتقدم ذكره المشهور فى جميع المعمور أمره وهو هذا

درارى من نور الهدى تتوقد * مطالعها فوق المجرة أسعد
وأنهار جود كلما أمسك الحيا * يمد بها طامى الغوارب مزبد
وآساد حرب غابها شجر القنا * ولا لبد الا العجاج الملبد
مساعير فى الهيجا مساعير للندى * بأيديهم يحمى الهجير ويبرد
تشب بهم ناران للحرب والقرى * ويجرى بهم سيلان جيش وعسجد
ويستمطرون البرق والبرق عندهم * سيوف على أفق العداة تجرد
اذا من سجف السائرات مضاؤها * فماذا الذى يعنى الحديد المسرد
ويسترشدون النجم والنجم عندهم * نصول الى حب القلوب تسدد
تراحم فى جو السماء كأنما * عواملها فى الافق صرح ممرد
تحار رأ لحاظ الكواكب دونها * ويبرق منها المرزمان ويرقد
ألم ترها فى الافق خافقة الحشا * كما طرف العينان والقلب يرأد
وليس احمرار الفجر من أثر السنى * ولكنه ذاك النجيع المورد
وما بسطت كف الثريا اذا فغت * ولكنها فى الحرب شلو مقدد
وحط سهيلا ذعره عن سميه * وأضحى على أفق البسيطة يرعد
ولما رأى نسر وقوع أليفه * تطاير من خوف فما زال يجهد
مواقع أمر الله فى كل حالة * يكاد لها رأس الثرى يتميد
اهاب بأقصى الخافقين فنظمت * وهيب بجميع الحمقين فسددوا
وأضفى على الدنيا ملابس رحمة * نضارتها فى كل حين تجدد
وأخضل أرجاء الربا فكأنما * عليها من النبت النضير زبرجد
فمن طرب ما أصبح البرق باسما * ومن فرح ما أضحت المزن ترعد
وغنى على أفنان كل أراكة * غداة حيا النعماء حمام مغرد
وكبر ذو نطق وسبح صامت * وكاد به المعدوم يحيا ويوجد
وأبرز للأذهان ما كان غائبا * وسيان فيها مطلق ومقيد
سلام على المهدى أما قضاؤه * فحتم وأما أمره فمؤكد
امام الورى عم البسيطة عدله * على حين وجه الارض بالجور أربد
بصير رأى الدنيا بعين جلية * فلم يغنه الا المقام المعبد
ولما مضى والامر لله وحده * وبلغ مأمول وأنجز موعد

كسوته وأخذوا في اختيار حليته وتأنقوا في استعمال أحفظته وبالغوا في استجادة
أصونته فحشروا له الصناع المتقنين ممن كان بحضرتهم العلية وسائر بلادهم القريبة
والقصية فاجتمع لذلك حذاق كل صناعة ومهرة كل طائفة من المهندسين
والصواغين والنظامين والحلائين والنقاشين والمرصعين والنجارين والزواقين والرسامين
والمجلدين وعرفاء البنائين ولم يبق من يوصف ببراعة أو ينسب الى الحذق في صناعة
الا أحضر للعمل فيه والاشتغال بمعنى من معانيه فاشتغل أهل الحيل الهندسية بعمل
أمثلة مخترعة وأشكال مبتدعة وضمنوها من غرائب الحركات وخفي امداد الاسباب
للمسببات ما بلغوا فيه منتهى طاقتهم واستفرغوا فيه جهد قوتهم والهمة العلية
أدام الله سموها تترقى فوق معارجهم وتتخلص كالشهاب الثاقب وراء موالجهم وتنيف
على ما ظنوه الغاية القصوى من لطيف مدارجهم فسلكوا من عمل هذه الامثلة كل
شعب ورأبوا من منتشرها كل شعب وأشرفوا عند تحقيقها وابراز دقيقها على كل
صعب فكانت منهم وقفة كادت لها النفس تيأس عن مطلبها والخواطر تنكر راجعة
عن خفي مذهبها حتى أطلع الله خليفته في خلقه وأمينه المرتضى لاقامة حقه على
وجه انقادت فيه تلك الحركات بعد اعتياصها وتخلصت أشكالها عن الاعتراض على
أحسن وجوه خلاصها ألقوا ذلك أيدهم الله بنصره وأمدهم بمعونته ويسره الى
المهندسين والصناع فقبلوه أحسن القبول وتصوروه بأذهانهم فرأوه على مطابقة
المأمول ووقفهم حسن تنبيهه على ما جهلوه على طور غريب من موجبات التعظيم وعلموا
أن الفضل لله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم وسيأتي بعد هذا الاشارة الى تفصيل
تلك الحركات المستغربة والاشكال الموفقة المعجبة ان شاء الله تعالى مما صنع للمصحف
العظيم من الاصونة الغريبة والاحفظة العجيبة انه كسي كله بصوان واحد من الذهب
والفضة ذي صنائع غريبة من ظاهره وباطنه لا يشبه بعضها بعضا قد أجري فيه من ألوان
الزجاج الرومي ما لم يعهد له في العصر الاول مثال ولا عمر قبله بشبهه خاطر ولا بال وله
مفاصل تجتمع اليها أجزاؤه وتلتئم وتتناسق عندها عجائبه وتنتظم قد أمسكت للتحرك
أعطافها وأحكم انشاؤها على المعية وانعطافها ونظم على صفحته وجوانبه من فاخر
الياقوت ونفيس الدر وعظيم الزمرد ما لم تزل الملوك السالفة والقرون الخالية تتنافس
في أفراده وتتوارثه على مرور الزمن وترداده وتظن العز الاقعس والملك الانفس
في ادخاره واعداده وتسمي الواحد منها بعد الواحد بالاسم العلم لشذوذه في صنعه
واتحاده فانتظم عليه منها ما شاكله زهر الكواكب في تلألئه واتقاده وأشبه الروض
المزخرف غب سماء أقلعت عن امداده وأتى هذا الصوان الموصوف رائق المنظر آخذا
بمجامع القلب والبصر مستوليا بصورته الغريبة على جميع الصور يدهش العقول بهاء
ويحير الالباب رواء ويكاد يعشي الناظر تألقا وصفاء فحين تمت خصاله واستركبت
أوصاله وحان ارتباطه بالمصحف العظيم واتصاله رأوا أدام الله تأييدهم وأعلى كلمتهم مما
رزقهم الله تعالى من ملاحظة الجهات والاشراف على جميع الثنيات أن يتلطف في وجه

يكون به هذا الصوان المذكور طورا منفصلا وطورا متصلا و يأتي به للمصحف الشريف
العظيم أن يبرز تارة للخصوص منفردا وتارة للعموم منفصلا اذ مناهج الناس في الاستبصار
تختلف وكل له مقام اليه ينتهي وحد يقف عنده فعمل فيه على شاكلة هذا المقصد وتلطف
في تتميم هذا الغرض المعتمد وكسى المصحف العزيز صوانا لطيفا من السندس الاخضر
ذي حلية عظيمة صنعه بلا زينة في اللباس والخسر ويشبه في شأنه ان يكسى
بالصوان الاكبر فيلتئم به التئاما يعطي على الحسن هذا الامر ويكمل ذلك كله على أجمل
الصفات وأحسنها وأبدع المذاهب وأتقنها وصنع له محمل غريب الصنعة بديع الشكل
والصنعة ذو صفائح ينبو عن دونها الادراك وتنهدها الارساط من المفصل وتهم
الاشتراك معنى كله تضرب من الترصيع وفنون في النقش البديع في قطع من
الابنوس والخشب الرفيع لم يعهد لها في زمان من الازمان ولا اتفق مثلها الى أسر
واقد الاذهان دارت عليه وقد أجرى في صفائح الذهب وامتدت امتداد ذوائب
الشهب وصنع لذلك المحمل كرسي يحمله عدد الاشكال ويشاركه في اكثر الاحوال من صنع
مثل رصيفه الغريب وشاكل له في جود التقسيم وحسن الترتيب وصنع لذلك كله
تابوت يحتوي عليه احتواء المشكاة على أنوارها والصدور على محفوظ أسرارها
فكمل الشكل تاما في التأويل حسن الحلية والتفصيل بالغ ما شاء من التمم في أوصافه
والكمال سائر مجرى المحمل في الترصيع والتحميل وله في أحد جوانبه باب ركب عليه
دفتان قد أحكم ارتجاجهما ويسر بعد الاحكام انفراجهما ولا فتاح هذا الباب وخروج
هذا الكرسي من تلقائه وبروز المحمل عليه مادبرت الحركات الهندسية وتلطفت
التشبيهات القدسية واستطلعت العجائب المعنوية والحسية والامور الدائرة المدنية
والمدنية وذلك أن بأسفل هاتين الدفتين فصلا فيه موضع قد أعد له مفتاح لطيف يدخل
فيه فاذا أدخل ذلك المفتاح فيه وأدير به انفتح الباب بانعطاف الدفتين الى داخل
الدفتين من تلقائهما وخرج الكرسي من ذاته عاملة الى أقصى غايته وفي خلال خروج
الكرسي يتحرك عليه المحمل حركة منتظمة مقترنة بحركته يأتي تمامها من مؤخر الكرسي رحمنا
الى مقدمه فاذا كمل الكرسي بالخروج وكمل المحمل بالتقدم عليه انغلق الباب برجوع
الدفتين الى موضعهما من تلقائهما دون أن تمسهما أحد وترتب هذه الحركات الاربع
على حركة المفتاح فقط دون تكلف في آخر فاذا أدير المفتاح الى خلف الجهة التي أدير اليها
اولا انفتح أولا الباب وأخذ الكرسي في الدخول والمحمل في التأخر عن مقدم الكرسي
الى مؤخره فاذا عاد كل الى مكانه انسد الباب بالدفتين أيضا من تلقائه كل ذلك يترتب على
حركة المفتاح كالذي كان في حال خروجه وصنعت هذه الحركات اللطيفة على أسباب
و سداد غائبة عن الحس في باطن الكرسي وهي مما يدق وصفها ويصعب ذكرها ظهرت
تركيب هذا الامر المعد وتسهيل التسديد ولا با الخليفة أدام الله تعالى أمرهم
وأعز نصرهم وفي خلال الاشتغال بهذه الاعمال التي هي غرر الدهر وفرائد الدر
امروا ادام الله تعالى تأييدهم بنا المسجد الجامع بحضرة مراكش حرسها الله

تعالى ومدى مائه وتأسيس قبلته فى العشر الاول من شهر ربيع الآخر سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة وكمل منتصف شعبان المكرم من العام المذكور على أكمل الوجوه وأغرب الصنائع وأفسح المساحة وأبعد البناء والحجارة وفيه من شمسيات الزجاج ودرجات المنبر والمقصورة ما لو عمل فى السنين العديدة لاستغرب تمامه فكيف فى هذا الامد اليسير الذى لم يتخيل أحد من الصناع أن يتم فيه فضلا عن بنائه وصليت فيه صلاة الجمعة منتصف شعبان المذكور ونهضوا أدام الله سبحانه تأييدهم عقب ذلك لزيارة البقعة المكرمة والروضة المعظمة بمدينة تينملل أدام الله رفعتها فأقاموا بها بقية شعبان المكرم وأكثر شهر رمضان المعظم وحملوا فى صحبتهم المصحف العزيز ومعه مصحف الامام المهدى المعلوم رضى الله تعالى عنه فى التابوت الموصوف اذ كان قد صنع له غرفة فى أعلاه وأحكمت فيه احكاما كمل به معناه واجتمع فى مشكاته فعاد النور الى مبتداه وختم القرآن العزيز فى مسجد الامام المعلوم ختمات كادت لا تحصى لكثرتها وهنا انتهى ما وجدناه من هذا المكتوب ثم قال ابن رشيد بعد ايراده ما تقدم ما صورته تجرت الرسالة فى المصحف العظيم والحمد لله رب العالمين انتهى محل الحاجة منه * وما أحسن قول الشيخ الامام أبى محمد عبد الحق بن غالب بن عطية يستودع أهل قرطبة

أستودع الله أهل قرطبة * حيث وجدت الحياء والكرما
والجامع الاعظم العتيق ولا * زال مدى الدهر مأمنا حرما

وقال ابو الربيع بن سالم حدثنى بذلك أبو الحسن عبد الرحمن بن ربيع الاشعرى قال أنشدنى أبو محمد بن عطية لنفسه فذكرهما بعد أن قال انه لما أزمع القاضى أبو محمد بن عطية الارتحال عن قرطبة قصد المسجد الجامع وأنشدنى البيتين انتهى * وقال ابن عطية أيضا رحمه الله تعالى

بأربع فاقت الامصار قرطبة * وهن قنطرة الوادى وجامعها
هاتان ثنتان والزهراء ثالثة * والعلم أكبر شئ وهو رابعها

وقد تقدم انشادنا لهذين البيتين من غير نسبتهما لأحد * ومما يدخل فى أخبار الزاهرة من غير ما قدمناه ما حكاه عن نفسه الوزير الكاتب أبو المغيرة بن حزم قال نادمت يوما المنصور بن أبى عامر فى منية السرور بالزاهرة ذات الحسن النضير وهى جامعة بين روضة وغدير فلما تصبح النهار زعفران العشى ورفرف غراب الليل الدجوجى وأسبل الليل جنحه وتقلد السماك رمحه وهم النسر بالطيران وعام فى الافق زورق الزبرقان أوقدنا مصابيح الراح واشتملنا ملاء الارتياح وللدجى فوقنا رواق مضروب فغنتنا عند ذلك جارية تسمى أنس القلوب وقالت

قدم الليل عند سير النهار * وبدا البدر مثل نصف السوار
فكأن النهار صفحة خد * وكأن الظلام خط عذار
وكأن الكؤس جامد ماء * وكأن المدام ذائب نار
نظرى قد جنى على ذنوبا * كيف مما جنته عينى اعتذارى

شارحت مكانى * حتى قدرت عليه

وفى هذا المعنى يقول بعض البلغاء اللحظ يعرب عن اللفظ (وقال آخر) رب كناية تغنى عن ايضاح ورب لفظ يدل على ضمير ونطقه الشاعر فقال

جعلنا علامات المودة بيننا * دقائق لحظ هن أمضى من السحر
فأعرف منها الوصل فى لين لحظها * وأعرف منها الهجر بالنظر الشزر

(وفى هذا قال بعض الحكماء) العين باب القلب فما فى القلب يظهر فى العين (وقال الشاعر)

العين تبدى الذى فى نفس صاحبها * من المحبة أو بغض اذا كانا
فالعين تنطق والافواه صامتة * حتى ترى من ضمير القلب تبيانا انتهى

(وأبو المغيرة بن حزم قال فى حقه فى المطمح ما نصه) الوزير الكاتب أبو المغيرة عبد الوهاب ابن حزم وأبوه حزم فقيه علم وأدب وبيه مجد وحسب وأبو المغيرة هذا فى الكتابة أوحد لا ينعت ولا يحد وهو فارس المضمار حامى ذلك الذمار وبطل الرعيل وأسد ذلك الغيل نسق المعجزات وسبق فى المصليات الموجزات اذا كتب وشى المهارق ودبج وركب من بحر البلاغة الثبج وكان هو وأبو عامر بن شهيد حليفى صفاء وحليفى وفاء لا ينفصلان فى رواد ولا مقيل ولا يفترقان كمالك وعقيل وكانا بقرطبة رافعى ألوية الصبوة وعامرى أندية السلوة الى أن اتحد أبو عامر فى حبالة الردى وعلق وغادرهم فيها وغلق فانفرد أبو المغيرة بذلك الميدان واسترد من سبقه ما فاته مدة زمان فلم تذكر له مع أبى عامر حسنة ولا سرت له فقرة مستحسنة لتعذر ذلك وامتناعه بشفوف أبى عامر وامتداد باعه وأما شعر أبى المغيرة فرتبط بنثره ومختلط زهره بدرّه وقد أثبت له منه ضروبا تجتنى بها الافهام جنوبا فمن ذلك قوله

ظعنت وفى أحداجها من شكلها * عين فضحن بحسنهنّ العينا
ما أنصفت فى جنب توضح اذ قرت * ضيف الوداد بلابلا وشجونا
أضحى الغرام قطين ربع فؤاده * اذ لم يجد بالرقتين قطينا

(وله)

لما رأيت الهلال منطويا * فى غرة الفجر قارن الزهره
شبهته والعيان يشهد لى * بصولجان انثنى لضرب كره انتهى

(وأبو عامر بن شهيد المذكور قال فى حقه ما صورته) الوزير أبو عامر أحمد بن عبد الملك ابن شهيد الاشجعى عالم بأقسام البلاغة ومعانيها حائز قصب السبق فيها لا يشبهه أحد من أهل زمانه ولا ينسق ما نسق من درّ البيان وجمانه توغل فى شعاب البلاغة وطرقها وأخذ على متعاطيها ما بين مغربها ومشرقها لا يقاومه عمرو بن بحر ولا تراه يعترف الا من بحر مع انطباع مشى فى طريقه بأمتد باع وله الحسب المشهور والمكان الذى لم يعده ظهور وهو من ولد الوضاح المتقلد تلك المفاخر والاوضاح والضحاك صاحب يوم المرج وراكب ذلك الهرج وأبو عامر حفيده هذا من ذلك النسب ونبع لا يراش الا من ذلك الغرب وقد أثبت له ما هو بالسحر لاحق وللبدور المحاسن ماحق

الآثار أوطارا ووقروا بالاعتبار قطارا تخلوا منها في دارك ربيع محفوفة بالازهار
معازرة بالجداول والانهار والغصون تختال في أدواحها وتنثني في أكف أرواحها وآثار
الديار قد أشرفت عليهم كثكالى ينحن على خرابها وانقراض أترابها وأطرابها والوهي
بشيدها لاعب وعلى كل جدار غراب ناعب وقد محت الحوادث ضياءها وقلصت
ظلالها وأفياءها وطالما أشرقت بالخلائف وابتهجت وفاحت من شذاهم وتأرجت
أيام نزلوا خلالها وتفيؤا ظلالها وعمروا حدائقها وجنانها ونبهوا الآمال من سناتها
وراعوا الليوث في آجامها وأخجلوا الغيوث في انسجامها فأضحت والها التداعي تلمع
واعتبار ولم يبق من آثارها الا نوى وأحجار قد وهت قناتها وهرم شبابها وقد يلين
الحديد ويبلى على طيه الجديد فبيناهم يتعاطونها صغارا وكبارا ويديرونها أنسا
واعتبارا اذا برسول المعتمد قد وافاهم برقعة فيها

حسد القصر فيكم الزهراء * ولعمري وعمركم ما أساء
قد طلعتم بها شموسا صباحا * فاطلعوا عندنا بدورا مساء

فساروا الى قصر البستان بباب العطارين فأداروا مجلسا قد حار فيه الوصف واحتشد
فيه اللهو والقصف ولوقدت نجوم مدامه وتأودت قدود خدامه وأربى على الخورنق
والسدير وأبدى صفحة البدر من أزرار المدير فأقاموا ليلتهم ما عراهم نوم ولا عداهم
عن طيب اللذات سوم وكانت قرطبة منتهى أمله وكان روم أمرها أشهى عمله وما زال
يخطبها بمداخلة أهليها ومواصلة واليها اذ لم يكن في مماراتها فائد ولم يكن لها الا حيل
ومكايد لاستمساكهم بدعوة خلفائها وأنفتهم من طموس رسوم الخلافة وعفائها
وحين اتفق له تملكها وأطلعه فلكها وحصل في قطب دارتها ووصل الى تدبير رياستها
وادارتها قال

من للملوك بشأو الاصيد البطل * هيهات جاءتكم مهدية الدول
خطبت قرطبة الحسناء اذ منعت * من جاء يخطبها بالبيض والاسل
وكم غدت عاطلا حتى عرضت لها * فأصبحت في سرى الحلى والحلل
عرس الملوك لنا في قصرها عرس * كل الملوك بها في مأتم الوجل
فراقبوا عن قريب لا أبا لكم * هجوم ليث بدرع البأس مشتمل

ولما انتظمت في سلكه واتسعت بملكه أعطى ابنه الظافر زمامها وولاه نقضها وابرامها
فأفاض فيها نداه وزاد على أمده ومداه وجلاها بكثرة حماته واستقل بأعبائها على
فتائه ولم يزل فيها آمرا وناهيا غافلا عن المكر ساهيا حسن ظن بأهلها اعتقده
واغترارا بهم ما رواه ولا انتقده وهيهات كم من ملك كفنوه في دمائه ودفنوه بدمائه وكم من
عرش ثلوه وكم من عزيز ملك أذلوه الى أن ثار فيها ابن عكاشة ليلا وجر اليها حربا وويلا
فبرز الظافر منفردا عن كماته عاريا من حماته وسيفه في يمينه وهاديه في الظلماء نور
جبينه فانه كان غلاما قد بلله الشباب بأندائه وألحفه الحسن بردائه فدافعهم أكثر
ليله وقد منع منه تلاحق رجله وخيله حتى أمكنتهم منه عثرة لم يقل لها لعا ولا استقال

وآصال لهو فى مسيلة مالك * معاطاة ندمان اذا شئت أو سبحا
لدى راكد تصبيك من صفحاته * قوارير خضر خلتها مردت صرحا
معاهد لذات وأوطان صبوة * أجلت المعلى فى الامانى بها قدحا
ألا هل الى الزهراء أوبة نازح * تقضت مغانيها مدامعه نزحا
مقاصر ملك شرفت جنباتها * فخلنا العشايا الجون أثناءها صبحا
يمثل قرطيها الى الوهم جهرة * فقبتها فالكوكب الجون فالسطحا
محل ارتياح يذكر الخلد طيبه * اذا عزأن يصدى الفتى فيه أو يضحى
هنالك الحمام الزرق تندى حفافها * ظلال عهدت الدهر فيها الفتى سمحا
تعوضت من شدو القيان خلالها * صدى فلوات قد أطار الكرى ضبحا
ومن حملى الكاس المفدى مديرها * تقحم أهوال حملت لها الرمحا
أجل ان ليلى فوق شاطئ نيطة * لاقصر من ليلتى بيانة فالعطحا

وهذه معاهد بنى أمية قطعوا بها الليالى وأياما وطلت فيها الحوادث عنهم نياما فهاموا بشرق العقاب وشاموا به برقا يبدو من نقاب ونعموا بجوفى الرصافة وطعموا عيشا تولى الدهر جلاءه وزفافه وأبعدوا نصح الناصح وجددوا أنس مجلس ناصح وعمروا بالزهراء وصعبوا عن باصاحب الزوراء حتى رحلهم الموت عنها وقوضهم وعوضهم عنها ما عوضهم وصاروا أحاديث وأنباء ولم يتزودوا منها الا حنوطا وكفاء وغدت تلك المعاهد تصافحها أيدى الغير وتتناوحها نغمات الطير وراحت بعد الزينة سدى وأمست مسرحا للبوم وملعبا للصدى يسمع للجن بها عزيف ويصرع فيها البطل الباسل والنزيف وكذا الدنيا أعمالها خراب وما لها آل وسراب أهلكت أصحاب الاخدود وأذهبت ما كان بارم من حيازات وحدود انتهى *(وقال الفتح بعد كلام ما صورته) ولما عضته ناب الاعتقال ورضته تلك النوب الثقال وعوض بخشانة العيش من اللين وكابد قسوة خطب لا تلين تذكر عهد عيشه الرقيق ومراحه بين الصفا والعقيق وحن الى سعد زرت عليه جيوبه واستهدى نسيم عيش طاب له هبوبه وتأسى بمن باتت له النوائب بمرصاد ورمته بسهام ذات اقصاد فقال

الهوى فى طلوع تلك النجوم * والمنى فى هبوب ذاك النسيم
سرنا عيشنا الرقيق الحواشى * لو يدوم السرور للمستديم
وطرما انقضى الى أن تقضى * زمن ماذمامه بالذميم
أيها الموذى بظلم الليالى * ليس يومى بواحد من ظلوم
ماترى البدر ان تأملت والشمس * هما يكسفان دون النجوم
وهو الدهر ليس ينفك يجرو * بالمصاب العظيم نحو العظيم

*(وقال الفتح أيضا فى شان ابن زيدون ما صورته) * ولما تعذر انفكاكه وعمر فرقده وسماكه وعادته الاوهام والفكر وخانه من أبى الحزم الصارم الذكر قال يصف ما بين مسراته وكروبه ويذكر بعد طلوع سعده وغروبه ويبكى لما هو فيه من التعذير ويعذر أبا

بحق ما بيني * وبينكم الا
أقررتم عيني * فجمعوا الشملا
فالعين بالبين * بفقدكم أبلى
جديد ما قد كان بالاهل والاخوان ومورد اللهو صاف من تصافينا

يا جيرة بانت * عن مغرم صب
لعهده خانت * من غير ما ذنب
ما هكذا كانت * عوائد العرب
لا تحسبوا البعدا يغير العهدا اذ طالما غير النأى المحبينا

يا نازلا بالسان * بالشفع والوتر
والحل والفرقان * والليل اذا يسر
وسورة الرحمن * والحل والحجر
هل حل في الاديان أن يقتل الظمآن من كان صرف الهوى والود يسقينا

يا سائل القطر * عرج على الوادى
من ساكني بدر * وقف بهم نادى
عنى صبا تسرى * لمغرم صادى
ان شئت تحيينا بلغ تحيينا من لو على البعد حيا كان يحيينا

وافت لنا أيام * كأنها أعوام
وكان لي أعوام * كأنها أيام
تمر كالاحلام * بالوصل لي لو دام
والكاس مترعة حثت مشعشعة فيها الشمول وغنانا مغنينا

*(رجع الى ما يتعلق بقرطبة قال الوزير أبو بكر بن القبطرنة يخاطب الوزير أبا الحسين ابن سراج ويذكر له اخوانه بقرطبة

يا سيدى وأبى هوى وجلالة * ورسول ودى ان طلبت رسولا
عرج بقرطبة ولدان جئتها * بأبي الحسين وناده تعويلا
فاذا سعدت بنظرة من وجهه * فاهد السلام لكفه تقبيلا
واذكر له شكرى وشوقى مجملا * ولو استطعت سردته تفصيلا
بتحية تهدى اليه كأنما * جرت على زهر الرياض ذيولا
وأشم منها المصحفي على النوى * نفسا يسى السوسن المبلولا
والى أبي مروان منه نفحة * تهدى له نور الربا مطلولا
واذا لقيت الاخطلي فسقه * من صفو ودى قرقفا وشمولا
وأبو على سق منها ربعه * مسكا بماء غمامة محلولا
واذكرهم رمايهب نسيمه * أصلا كنفث الراقيات عليلا
مولى ومولى نعمة وكرامة * وأخا اخاء مخلصا وخليلا

الوزارة المذكورة والفضائل المشكورة ولذا قال أبو نصر في حقهم مأمورته هم للمجد كالاثافي وما منهم الامو فور القوادم والخوافي ان ظهروا زهروا وان تجمعوا تضوعوا وان نطقوا صدقوا ماؤهم صفو وكل منهم لصاحبه كفو أنارت بهم نجوم المعالي وشموسها ودانت لهم أرواحها ونفوسها ولهم النظام الصافي الزجاجة المصقول العجاجة انتهى ثم قال وبات منهم أبو محمد مع اخويه في أيام صباه واستطابة جنوب الشباب وصباه بالمنية المسماة بالبديع وهو روض كان المتوكل يكلف بواقاته ويبتهج بحسن صفاته ويقطف رياحينه وزهره ويوقف عليه اغفاءه وسهره ويستنزه الطرب متى ذكره وينتهز فرص الانس فيه روحاته وبكره ويدير حمياه على صفة نهره ويخلع سرته فيه لطاعة جهره ومعه اخواه فطاردوا اللذات حتى أنضوها ولبسوا برود السرور وما نضوها حتى صرعتهم العقار وصلحتهم تلك الاوقار فلما همت رداء الفجر أن يندى وجبين الصبح أن يتندى قام الوزير أبو محمد فقال

يا شقيقي وافى الصباح بوجه * ستر الليل نوره وبهاؤه

فاصطبح واغتنم مسرة يوم * ليست تدري بما يجيء مساؤه

ثم استيقظ أخوه أبو بكر فقال

يا أخي قم ترى النسيم عليلا * باكر الروض والمدام شمولا

لا تنم واغتنم مسرة يوم * ان تحت التراب نوما طويلا

في رياض تعانق الزهر فيها * مثل ما عانق الخليل خليلا

ثم استيقظ أخوهما أبو الحسن وقد هب من غفلة الوسن فقال

يا صاحبي ذرا لومي ومعتبتي * قم نصطبح خمرة من خير ما ذخروا

وبادرا غفلة الايام واغتنما * فاليوم خمر ويبدو في غد خبر

وساق صاحب البدائع هذه القصة فقال وذكر أبو الفتح ماهذا معناه انه صرح الوزراء بنو القطرنة الى المنية المسماة بالبديع وهو روض قد حضرت مسارح نباته واخضلت مسارى هباته ودمعت بالطل عيون ازهاره وذاب على زبرجده لؤلؤ أنهاره وتجمعت فيه المحاسن المتفرقة وأضحت مقل الحوادث عنه مطرقة خيول النسيم تركض في ميادينه فلا تكبو ونصول السواقي تحسم أدواء الشجر فلا تنبو والروع قد نقشت وجه الثرى وجنت على الارض العيون فما تسهر ولا ترى وكان المتوكل بن الافطس يعده غاية الارب مشهدا للطرب ومدفعا للكرب فما زالوا فيه ليلتهم يديرون لمع لهب يحيون فيه الخلود ويحسون ذوب ذهب لا يصهر به ما في بطونهم والجلود حتى تركتهم ابنة الخابية كأنهم أعجاز نخل خاوية فلما هزم رومي الصباح زنجي الظلام ونادى الديك حي على المدام انتبه كبيرهم أبو محمد مستعجلا وأنشد مرتجلا يا شقيقي الخ فانتبه أخوه أبو بكر لصوته وتخوف لذهاب ذلك الوقت وفوته وأنبه أخاهما أبا الحسن وهو يرتجل يا أخي قم ترى النسيم الى آخره فانتبه أخوه لكلامه داعيا لذة مناجيا للذة قيامه وارتجل يا صاحبي ذرا الخ انتهى (قال الفتح) ولما أمر المعتمد بن عباد أبا بكر بن القطرنة

(ولما أعرس المستعين بالله بنت الوزير الاجل أبي بكر عبد العزيز احتفل ابوه الموتمن في ذلك احتفالا اشتهر ذكره وأبدع فيه ابداعا راق من حضره وبهره فانه أحضر فيه من الآلات المبتدعة والادوات المخترعة مابهر الالباب وقطع بدكائه دون معرفتها الاسباب واستدعى اليه جميع أعيان الاندلس من دان وقاص ومطيع وعاص فأتوه مسرعين ولبوه متبرعين وكان مدير تلك الآراء ومدبرها ومنشئ مخاطباتها ومحبرها الوزير الكاتب أبو الفضل وصدرت عنه في ذلك الوقت كتب ظهر اعجازها وبهر اقتضابها وايجازها * فمن ذلك ماخاطب به صاحب المطاهر أبا عبد الله بن طاهر محلك أعزك الله في طي الجوانح ثابت وان نزحت الدار وعيانك في احناء الضلوع بادوان شحط المزار فالنفس فائزة منك بتمثل الخاطر بأوفر الحظ والعين نازعة الى أن تمتع من لقائك بنظر اللحظ فلا عائدة أسمع بردا ولا موهبة أسوغ وردا من تفضلك بالحوق الى ما يتم بمشاهدتك التئامه ويتصل بمحاضرتك انتظامه ولك فضل الاجمال بالامتاع من ذلك بأعظم الآمال وأنا أعزك الله على شرف سوددك حاكم وعلى مشرع سماتك حائم وحسبي ماتحققه من نزاعي وتشوقي وتتيقنه من تطلعي وتتوقي وقد تمكن الارتياح باستحكام الثقة واعترض الاقتراح باستحباب الصلة وأنت وصل الله سعدك لسماحة شيمك وبارع كرمك تنشئ للموانسة عهدا وتوري بالمكارمة زندا وتقتضي بالمشاركة شكرا حافلا وحمدا لازلت مصيبا بالسعود المقتبلة مسوغا اجتلاء غرر الاماني المتهللة بمنه انتهى (ثم قال بعد هذا) بيسير مانصه وركب المستعين بالله يوما نهر سرقسطة يريد طرادلذته وارتياد نزهته وانقياد أحدوثه المنتظمة بلذته واجتمع له من أصحابه من اختصه لاستصحابه وفيهم أبو الفضل مشاهد الانفراجهم سالكا منهاجهم والمستعين قد أحضر من آلات ايناسه وأظهر من أنواع ذلك وأجناسه ماراق من حضر وفاق حسنه الروض الانضر والزوارق قد حفت به والتفت بجوانبه ونغمات الاوتار تحسر السائر عن عدوه وتخرس الطائر المفصح بشدوه والسمك تثيرها المكايد وتغوص اليها المصايد فتبرز منها للعين قضبان در أو سبائك لجين والراح لايطمس لها لمع ولايحس منها بصر ولاسمع والدهر قد غضت صروفه واقتنص من شكره معروفه فقال

لله يوم أنيق واضح الغرر * مفضض مذهب الآصال والبكر

كانما الدهر لماساء أعتبنا * فيه بعتبي وأبدى صفح معتذر

نسير في زورق حف السفين به * من جانبيه بمنظوم ومنتثر

مد الشراع به نشرا على ملك * بذ الاوائل في أيامه الاخر

هو الامام الهمام المستعين حوى * علياء مؤتمن عن هدى مقتدر

تحوي السفينة منه آية عجبا * بحر تجمع حتى صار في نهر

تصاد من قعره النينان مصعدة * صيدا كما ظفر الغواص بالدرر

وللندامى به عب ومرتشف * كالريق يعذب في ورد وفي صدر

سل الهموم اذا نبا زمن * بمدامة صفراء كالذهب
مزجت فمن درّ على ذهب * طاف ومن حبب على لهب
وكان ساقيها يشير بشدى * مسك لدى الاقوام منتهب

ولله هو فقد ندب الى المندوب وذهب الى مداواة القلوب من الندوب وابرائها من الآلام واهدائها كل تحية وسلام وابهاجها بآصال وبكر وعلاجها من هموم وفكر فى زمن حلى عاطله وجلى فى أحسن الصور باطله ونفقت محالاته وطبقت أرضه وسماؤه واستحالاته فليثه كاسد وذئبه مستاسد واضغانه تنسر وبغاثه قد استنسر فلا استراحة الا فى معاطاة حميا ومواخاة وسيم المحيا وقد كان ابن عمار ذهب مذهبه وفضضه بالابداع وذهبه حين دخل سرقسطة ورأى غباوة أهلها وتكاثف جهلها وشاهد منهم من لا يعلم معنى ولا فضلا وواصل من لا يعرف قطعا ولا وصلا فأقبل على راحه يتعاطاها وعكف عليها ما تعداها ولا تخطاها حتى بلغه أنهم نقموا معاقرته العقار وجالت ألسنتهم فى توبيخه مجال ذى الفقار فقال

نقمتم على الراح أدمن شربها * وقلتم فتى راح وليس فتى مجد
ومن ذا الذى قاد الجياد الى الوغى * سواى ومن أعطى كثيرا ولم يكد
فديتكمو لم تفهموا السر انما * قليتكم جهدى فأبعدتكم جهدى

ودعى ابن السيد ليلة الى مجلس قد احتشد فيه الانس والطرب وقرع السرور نبعه بالغرب ولاحت نجوم أكواسه وفاح نسيم رنده وآسه وأبدت صدور أباريقه أسرارها وضمت عليه المجالس أزرارها والراح يديرها أهيف أوطف والاماني تجنى وتقطف فقال

يارب ليل قد هتكت حجابه * بمدامة وقادة كالكوكب
يسعى بها أحوى الجفون كأنها * من خده ورضاب فيه الاشنب
بدران بدر قد أمنت غروبه * يسعى ببدر جانح للمغرب
فاذا نعمت برشف بدر غارب * فانعم برشفة طالع لم يغرب
حتى ترى زهر النجوم كأنها * حول المجرة ربرب فى مشرب
والليل مشمعر يطير غرابه * والصبح يطرده ببازٍ أشهب

(ثم قال الفتح بعد كلام كثير) ما صورته ودخل يعنى ابن السيد سرقسطة أيام المستعين وهى جنة الدنيا وفتنة المحيا ومنتهى الوصف وموقف السرور والقصف ملك غير الشاشة كثير الهشاشة وملك أبهج الفناء أرج الارجاء يروق المجتلى ويفوق النجم المعتلى وحضيرة منسابة الماء مجابة السماء يبسم زهرها وينساب نهرها وتتفتح جناتها وتتضوع صباها وشمائلها والحوادث لا تعترضها والكوارث لا تفترضها وبازائها من عرس الجوسم وآملها متصل بالامانى ومتسم فنزل منها فى مثل الخورنق والسدير وتصرف فيها بين روضة وغدير ولم يخف على المستعين احتلاله ولم تخف لديه خلاله فذكره معلما به ومعرّفا وأحضره منوّها به ومشرّفا وقد كان

اذا غرست كفاك غرس مكارم * بأرضى أجنتك الثناء منه أغصان

(وقال) فى وصف مجلس لابى عيسى بن لبون أحضر اليه ابن السيد منوّها بقدره ماصورته وأحضره الى مجلس نام عنه الدهر وغفل وقام له برط أنسه واحتفل قد بانت صروفه ودنت من الزائر قطوفه وقال هلم بنا الى الاجتماع بعد هدءٍ والاستمتاع بما شئته من براعة أدبك فأقاموا يعملون كاسهم ويصلون ايناسهم وباتوا ليلتهم ماطرقهم نوم ولا عداهم عن طيب اللذات سوم ثم قال بعد كلام كثير وحضر ابن السيد عند عبد الرحمن الظافر بن ذى النون مجلسا رفعت فيه المنى لواءها وخلعت عليه أضواءها وزفت اليه المسرات أبكارها وفارقت اليه الطير أوكارها فقال يصف

لم ترعينى مثله ولا ترى * أنفس فى نفسى وأبهى منظرا
اذ ترى وشيه المصوّرا * من حولى صنعاء وحولى عبقرا
ونسج قرقوب ونسج تسترا * خلت الربيع الطلق فيه نوّرا
كأنما الابريق حين قرقرا * قد أم لثم الكاس حين فغرا
وحشية طلت تناغى جؤذرا * ترضعه الدر ويرنو حذرا
كأنما ج عتيقا أحمرا * أوفت من رياه مسكا أذفرا
أو عابد الرحمن يوما ذكرا * فنم مسكا ذكره وعنبرا
الظافر الملك الذى من ظفرا * بقربه نال العلاء الاكبرا
لو أن كسرى راءه أو قيصرا * هلل اكبارا له وكبرا
تبدى سماء الملك منه قمرا * اذا حجاب المجد عنه سفرا
يا أيها المضنى المطايا بالسرى * تلقى غمام المكرمات الممطرا انتهى

(وقال الفتح) فى ترجمة الاديب أبى القاسم بن العطار ماصورته هو أحد أدباء اشبيلية ونحاتها العامرين لارجاء المعارف وساحاتها لولا مواصلة راحاته وتعطيل بكره وروحاته وموالاته للفرج ومعالاته فى عرف الانس والارج لا يعرّج الاعلى ضفة نهر ولا يتهيج الا بقطفة زهر لم يحفل بملام ولم ينتقل الا فى طاعة غلام ناهيك من رجل مخلوع العنان فى ميدان الصبابه مغرم بالحسان غرام يزيد بحبابه لا تراه الا فى ذمة انهماك ولا تلقاه الا فى لمة انهتاك رافعا الرايات الهوى قارعا لثنيات الجوى لا يقفر فؤاده من كلف ولا يبيت الا رهن تلف أكثر خلق الله تعالى علاقه وأحضرهم لشهى حلاقه مع جراءة تحرك السكون وتضحك الطير فى الوكون وقد أثبت له ما ارتجله فى أوقات أنسه وساعاته ونفث به أثناء زفراته ولوعاته فمن ذلك ما قاله فى يوم ركب فيه النهر على عادات انكشافه وارتضاعه لثغور اللذات وارتشافه

عبرنا سماء النهر والجو مشرق * وليس لنا الا الحباب نجوم
وقد ألبسته الايك برد ظلالها * وللشمس فى تلك البرود رقوم

وله فيه

مررنا بشاطى النهر بين حدائق * بها حدق الازهار تستوقف الحدق

وقد نصبت كف النسيم مظلة * عليه وما غير الحباب لها حلي

وله

هب الريح بالعشي فحاكت * زردا للغدير ناهيك جنه
وانجلى البدر بعد هدء فصاغت * كفه للنزال منه أسنه

ومن قوله

لله بهجة منزه ضربت به * فوق الغدير رواقها الأنسام
فمع الأصيل النهر درع سابغ * ومع الضحى يلتاح منه حسام

وله

لا حسن كالحسنة في رواء جمالها * ويلوح نصب مشتهى آمالها
ما بين نهر الأرض منتزه السما * والنهر قد نشرت عليه ظلالها
في حين تشبيه المنسا أزرقا * ونسيم ألايا رد ظلالها

وله

فالغصن حدائقه تعطف لنا * مثل العروس سوالفا وعاتقا
متمايل في حلل الربيع وحليه * ومن الربيع قلائد ومناطق انتهى

(وقال الفتح) في ترجمة ابن عمار حضرت والوزير الأجل أبو المطرف بن عبد العزيز أنه حضر معه عند المؤتمن في يوم جادت فيه السما بهطلها وأسعفت بوابلها وطلها وأرضعت أزهارها وأنبتت درا كأوديها والأزهار قد خلعت من أكمامها وخلعت درعها والأقطار قد حلي صداها وبرحت سداها وأكؤس الراح كأنها كواكب تتقد يديرها أنامل تكاد من اللطافة تعقد إذا هي من بنان المؤتمن أخرس لا يفصح ومستعجم لا يبين ولا يوضح هيم بالأدب مسمر كالطلل الدارس عند العشب وقد قام على نمط درعا نمي بها الأسنة درعا وهو يريد استمالة المؤتمن في التوجه إلى موضع نعمه إليه ووجهه وكل يصد عنه ويجهه حتى وصل إلى مكان أمره وزاد ووقف بإزاء آساده فلما وقف عليه ابن عمار عليه أشار بذلك إليه وقربه واستدناه وسنى إليه حكاية شاه وأراد أن يطلع منه ذلك الغدر وأن يكون هو الساقي والمدير فأمر المؤتمن بطاعته وطاعة أمره وجعله منصا عن حسمه وقام يسعى على حكمه ورعه فلما دنت منه الحبا ونسب عرامه بجميعه ذلك الحبا واستنزله سور العقار من مرتب الوقار قال

وهو يسقي المدام كأنه * قمر يدور بكوكب في مجلس
متأرج الحركات يندى ريحه * كالغصن هزته الصبا بتنفس
يسقي بكأس في أنامل سوسن * ويدير أخرى من محاجر نرجس
يا حامل السيف الطويل نجاده * ومصرف الفرس القصير المحبس
إياك بادرة الوغى من فارس * خشن القناع على عذار أملس
جهم وإن حسر اللثام فإنما * كشف الظلام عن النهار المشمس

يطفى و يلعب فى دلال عذاره * كالمهر يرمح فى اللجام المجرس
سلم فقد قصف القنا غصن النقا * وسطا بليث الغاب ظبى المكنس
عنا بكاسك قد كفتنا مقلة * حوراء قائمة بسكر المجلس

وأورد هذه القصيدة صاحب البدائع بقوله حضر أبو المطرف بن عبد العزيز عند المؤتمن ابن هود فى يوم أجرى الجو فيه أشقر برقه وروى نبل ودقه وتحملت الرياح فيه أوقار السحاب على أعناقها وتمايلت قامات الاغصان فى الحلل الخضر من أوراقها والرياح قد أشرقت نجومها فى بروج الراح وحاكت شمسها شمس الافق فتلفعت بغيوم الاقداح ومديرها قد ذاب ظرفا فكاد يسيل من اهابه وأخجل خده احمرار فتظلل بعرق حبابه اذا بفتى من فتيان المؤتمن قد أقبل متدرعا كالبدر اجتاب سحابا والنهر قد اكتسى حبابا وقد جاء يريد استشارة المؤتمن فى الخروج الى موضع قد كان عول فيه عليه وأمره أن يتوجه اليه فحين لمحه ابن عمار والسكر قد استحوذ على لبه وبث سراياه فى ضواحى قلبه جد فى أن يستخرج تلك الدرة من ماء ذلك الدلاص وأن يجلى عنه سهكه كما يجلى الخبث عن الخلاص وأن يكون هو الساقى فأمره المؤتمن بقبول أمره وامتثاله واحتذاء أمثاله فحين ظهرت تلك الشمس من حجبها ورميت شياطين النفوس من كميت المدام بشهبها ارتجل ابن عمار وهو يتمايح الاناء قال اثر قوله ايالك بادرة الوغى من فارس ماصورته بضع السنان على العذار الاملس انتهى * ولابن عمار الرائية المشهورة فى مدح المعتضد والد المعتمد وهى

أدر المدامة فالنسيم قد انبرى * والنجم قد صرف العنان عن السرى
والصبح قد أهدى لنا كافوره * لما استرد الليل منا العنبرا
والروض كالحسنا كساه زهره * وشيا وقلده نداه جوهرا
أو كالغلام زها بورد خدوده * خجلا و تاه بآسهن معذرا
روض كأن النهر فيه معصم * صاف أطل على رداء أخضرا
وتهزه ريح الصبا فتخاله * سيف ابن عباد يبدد عسكرا
عباد المخضر نائل كفه * والجو قد لبس الرداء الاغبرا
ملك اذا ازدحم الملوك بمورد * ونحاه لايردون حتى يصدرا
أهدى على الاكباد من قطر الندى * وألذ فى الاجفان من سنة الكرا
يختار اذ يهب الخريدة كاعبا * والطرف أجرد والحسام مجوهرا
قداح زند المجد لاينفك من * نار الوغى الا الى نار القرى
لاخلق أقرأ من شفار حسامه * ان كنت شبهت المواكب أسطرا
أيقنت انى من ذراه بجنة * لما سقانى من نداه الكوثرا
وعلمت حقا أن ربعى مخصب * لما سألت به الغمام الممطرا
من لاتوازنه الجبال اذا احتبى * من لا تسابقه الرياح اذا جرى
ماض وصدر الرمح يكهم والظبا * تنبو وأيدى الخيل تعثر فى الثرى

فإذا الكتائب كالكواكب فوقهم • من لأمهم مثل السحاب كنهورا
من كل أبيض قد تقلد أبيضا • عضبا وأسمر قد تقلد أسمرا
ملك يروقك خلقه أو خلقه • كالروض يحسن منظرا أو مخبرا
أصبحت باسم الفضل حتى شمته • فرأيته في بردتيه مصورا
وجهلت معنى الجود حتى زرته • فقرأته في راحتيه مفسرا
فاح الثرى متعطرا بثنائه • حتى حسبنا كل ترب عنبرا
وتتوجت بالزهر صلع هضابه • حتى ظننا كل هضب قيصرا
هصرت يدي غصن الغنى من كفه • وجنت به روض السرور منورا
حسبي على الصنع الذي أولاه أن • أسعى بجهد أو أموت فأعذرا
يا أيها الملك الذي حاز العلا • وحبا بمه عمل مجدي أورا
السيف أفصح من زياد خطبة • في الحرب إن كانت يمينك منبرا
ما زلت تغني من عناك راجيا • نيلا وتغني من عفا وتغيرا
حتى حللت من الرياسة محجرا • رحبا وضمت مثل طرفا أحورا
شقيت بسيفك أمة لم تعتقد • إلا اليهود وإن تسمت بربرا
أثرت رمحك من رءوس ملوكهم • لما رأيت الغصن يعشق مثمرا
وصبغت درعك من دماء كماتهم • لما علمت الحسن يلبس أحمرا
والكها كالروض زارته الصبا • وحنا عليه الطل حتى نورا
عصمها وسناء ذكرك مدحها • وشما امسكا خميلة أذفرا
من ذا ينافحني وذكرك مندلي • أوردته من نار فكري مجمرا
فلئن وجدت نسيم مدحي عاطرا • فلقد وجدت نسيم برك أعطرا انتهى

•(وقال في ترجمة عبد الملك بن وهبون المرسي) ركب بإشبيلية زورقا في نهرها الذي لا تدانيه الأنهار ولا تضاهيه الفرات في ليلة سمت في طلها ولم يبد وضح في دهمها ومن أبدع شيء شمعتان قد انعكس شعاعهما في اللجة وزاد في تلك البهجة فقال

كأنما الشمعتان إذ سمتا • خدا غلام محسن الغيد
وفي حشا النهر من شعاعهما • طريق نار الهوى إلى كبدي

وكان معه غلام البكري يعاطيه الراح وسار بأنفاس ذلك المراح فأنشد عبد الملك عابثا وحثه للإبداع بالجواب والارتجال حسد على ذلك الارتجال وقال في الحال والاستعجال

اغتنم عيش ليلة ليلا • تجتني بها اللذات فوق الما
في زورق زهر بغير أغيد • يختال مثل الناهد الغيداء
قد بدا الشمع بوجهه • كالبدر بين السمر والحورا
والتاج فوق الماء أصفر مهما • كالبرق في غمام سماء انتهى

•(وقال الفتح رحمه الله) ذهبت يوما إلى منية المنصور بن أبي عامر بالبلنسية وهي منتهى

الجمال

الجمال ومزدهى الصبا والشمال على وهى بسانها وسكنى الحوادث برهة بفنائها فرافيتها والصح قد ألبسها قيصه والحسن قد شرح بها عويصه وبوسطها مجلس قد تفتحت للروض أبوابه وتوشحت بالازاهر الذهبية أثوابه يخترقه جدول كالحسام المسلول وينساب فيه انسياب الايم فى الطول وصفاته بالادواح محفوفه والمجلس يروق كالخريدة المزفوفه وفيه يقول على بن أحمد أحد شعرائها وقد حل مع طائفة من وزرائها

قم فاسقنى والرياض لابسة * وشيا من النور حاكه القطر
فى مجلس كالسماء لاح به * من وجه من قد هويته بدر
والشمس قد عصفرت غلائلها * والارض تندى ثيابها الخضر
والنهر مثل المجرّ حف به * من الندامى كواكب زهر

فحللت ذلك المجلس وفيهم أحداث كأنهم الولدان وهم فى عيش لدن كأنهم فى جنة عدن وأنخت لديهم ركائبى وعقلتها وقلدت بهم رغائبى واعتقلتها وأقمنا نعم بحسنه طول ذلك اليوم ووافى الليل فدعا الجفون طروق النوم وظللنا بليلة كأن الصبح منها مقدود والاغصان تميس كأنها قدود والمجرة تتراءى نهرا والكواكب تخالها فى الجو زهرا والثريا كأنها راحة تشير وعطارد لنا بالطرب بشير فلما كان من الغد وافيت الرئيس أبا عبد الرحمن زائرا فأفضنا فى الحديث الى أن أفضى بنا الى ذكر متنزهنا بالامس وما لقينا فيه من الانس فقال لى ما بهجة موضع قد بان قطينه وذهب وسلب الزمان بهجته وانتهب وباد فلم يبق الا رسمه ومحاه الحدثان فما كاد يلوح وسمه عهدى به عند ما فرغ من تشييده وتنوهى فى تنسيقه وتنضيده وقد استدعانى اليه المنصور فى وقت حلت فيه الشمس برج شرفها واكتست فيه الارض بزخرفها فحللت به والدوح تميس معاطفه والنور يحجله قاطفه والمدام تطلع به وتغرب وقد حل به قحطان ويعرب وبين يدى المنصور مائة غلام ما يزيد أحدهم على العشر غير أربع ولا يحل غير الفؤاد من مربع وهم يديرون رحيقا خلتها فى كاسها دررا وعقيقا فأقمنا والشهب تغازلنا وكأن الافلاك منازلنا ووهب المنصور فى ذلك اليوم ما يزيد على عشرين ألفا من صلات متصلات وأقطع ضياعا عاما توجع لذلك العهد وأفصح بما بين ضلوعه من الوجد وقال

سقيا لمنزلة اللوى وكثيبها * اذ لا أرى زمنا كأزمانى بها انتهى

(وما أحسن ما كتب به الفتح الى بعض الملوك) يصف نزهة ببعض متنزهات الاندلس المونقه ويذكر استصحابه فيها بشموس المسرّة المشرقه وهو أطال الله سبحانه بقاء ناصر الدولة ومحيى الملة الذى حسن بلقياه العيش وتزين بمحياه الجيش وراق باسمه الملك وجرت بسعده الفلك وأنار به الليل الدامس ولاح له الاثر الطامس وجرى الدهر لسطوته خائفا وغدا السعد بعقوته طائفا والزمان ببرود علياه ملتحف ولثغور برداه مرتشف ولا زال للمجد يملكه والسعد يحمله فلكه أما وقد وافتنى أيامه أيده الله سبحانه وفاقا ورأيت للبيان عنده نفاقا فلا بد أن أرسل كائبه أمواجا وأفيض من بحره أمواجا

ينهرها مكان حسائلها وفيها يقول ابن اللبانة

أما علم المعتـــد بالله انني * بحضرته في جنة شقها نهر
وما هو نهر أعشب النبت حوله * ولكنه سيف حمائله خضر

فلما سدد عنها وقد حسنت آثاره في تدبيرها وانسدلت رعايته على صغيرها وكبيرها نزل المعتمد عليه مشرفاً لاوبته ومعرفاً بسموّ قدره لديه ورتبته وأقام يومه عنده مستريحاً ويجرى في ميدان الانس بطلا مشيحا وكان واجداً على الراضي فخلت الحميا أفقه ومحت غيظه عليه وحنقه وصورته له عين حنوه وذكرته بعده فجنح الى دنوه وبين ما استدعى وأوفى مالت بالمعتمد نشوته وأغفى وأقام صريعاً في مبتداه طريحاً في منتهى مداه وأقام يحاهه يرتقب انتباهه وفي أثناء ذلك صنع شعراً أتقنه وجوّده فلما استيقظ أنشده

الان تعود حياة الامل * ويدنو شفاء فؤاد معل
ويورق للعز غصن ذوى * ويطلع للسعد نجم أفل
فقد وعدتني سحاب الرضا * بوابلها حين جادت بطل
دعوت فطار بقلبي السرور * اليك وان كان منك الوجل
كما يستطير بذى حبة الوغى * اليها وفيها الظبا والاسل
أبا ملك ما أمرما فند * من شاء عر ومن شاء أذل
فلا عروان كان منك اعتمار * وان كان منا جميع الزلل
فمثلك وهو الذي لم يجد * ٠ عاد بحلم على من جهل انتهى

(وقال في ترجمة المتوكل على الله بن الافطس ما صورته) وأخبرني الوزير أبو محمد بن عبدون أن الارض توالى عليها الجدب بحضرته حتى جفت مذاهبها واغبرت جوانبها وغرد المكاء في غير روضه وخاض الياس بالناس أعظم خوضه وأبدت الخمائل عبوسها وشكت الارض للسماء بوسها وأقلع المتوكل عن الشرب واللهو ونزع ملابس الخيلاء والزهو وأظهر الخشوع وأكثر السجود والركوع الى أن غيم الجو وانسجم النو وصاب الغمام وترنمت الحمام وسفرت الازهار وزهت النجود والاغوار واتفق أن وصل أبو يوسف المغني والارض قد لبست زخارفها ورقم الغمام مطارفها وتتوجت الغيطان والربا وأرجت نفحات الصبا والمتوكل ماض لتوبته ختاما ولا قوض عن قلبه منها خياما فكتب اليه

ألم أبو يوسف والمطر * فياليت شعرى ما ينتظر
ولست بآب وأنت الشهيد * حضور نديك فيمن حضر
ولا مطلعى وسط تلك السما * بين النجوم وبين القمر
وركضى فيها جياد المدا * م محثوثة بسياط الوتر

فبعث اليه مركوبا وكتب معه

بعثت اليك جناحا فطر * على خفية من عيون البشر

على مثل ياقوت تاج العروس • وفي ظلل من نسيج السحر
تحيي بحيّا من دنا • ومن غاب كان بدا من حضر

ووصل الشمعة المطلة على الطعام المزينة بعارك الرجاء فقام بها صاحب فقال عدي بن زيد يصف شمعا

في مأدبة حول دسكرة • حولها الزيتون قد ينعا

وقرأتهم من السرور يوما ولذي زعمي ولا يقدر ومل عمومهم أمس وأحرى أنه سار الى سر من قاصية أرض السلام الشاسعة الذرى والاعلام التي لا تروعها صرف ولا تفزعها طرف لا تهابها عن المراقي مقصر لراقي ممكنة الزوايا والقواعد من صميم راسية دار السدار الفلك بالساعد قد أطلت على حاملها اطلال العروس من منصبها واستطعت من المنى أكثر من نصيبها نزوانا من قطر سالت به حدائقه واحتالت فيه جنانه فما يحول الطرف منه الا في حديقة أو معه أنيقة فلما قام ان قام قاصي حضرته وأراهم عند وأورى لهم بالمر زند وقدم لهم طعاما واغتفد ولما فاوادوا اماما وعند ما طعموا اقعد القاصي ساب المجلس وقال لا تبرح وعين المتوكل حيا منه لا تحول ولا تبرح فخرج أبو محمد وقد أرمه سعله وحرمه راسية رواته ومنه له فاتى ابن حيرون مستطراله وقد أعد طلوله منزله فسار الى مجلس قد اسسى نور نوار وحمل حدود ورد من زوار وأبدت صدور آنار نبه أسرارها وحيت عليه المجالس أزرارها ولما حضرله وقت الانس وجنبه وأرسله رياحينه وجنبه من ربت المتوكل حتى يعزم جلسته ويزول وحشه لا أنسه فأقام رسوله وهو عكانه لا يريمه مقلادمة كانه غريمه فما انفصل حتى طل أن عارض الليل قد نصل فلما علم أبو محمد بأسفاله بعث الى المتوكل بطبق راح وطبق ورد وكتب معهما

اليكها فاجتلها منيرة • وقد خبا حتى الشهاب الثاقب
واقفة بالباب لم تردُّ لها • الا وقد كاد ينام الحاجب
فبعضها من المحاق جامد • وبعضها من الحيا ذائب

فقبلهما رحمه الله تعالى وعفا عنه وكتب اليه

قد وصلت تلك التي زففتها • بكرا وقد شابت لها ذوائب
فهبت حتى لم يرد ذاهبا • من أنسنا ان استرد ذاهب

فركب اليه وبقل معه ما كان بالمجلس بين يديه ولما فاللهما الا رعان السمر ولا نسيان ربما الا الكاس والزهر (ثم قال) بعد كلام وأخبرني الوزير الفقيه أبو أيوب بن أبي أمية انه سرى في بعض أيامه روض مقصر المنا يم معطر الرياح النواسم قد صقل الربيع خدوده وأنطى ثلبه وورسانه وألبس غصونه برودا مخضرة وجعل اسراته النسمي مصرة فاراهم تتيه على الكواكب وتختال في خلع الغمام السواكب فارتاح الى الكون به منه نهار والنعيم تنفحه نهار فلما حصل في أنسه في وسط المدى عند الورود كرمت مدامها الندى وكتب من اظرف عيش ينبسط عن الوزير أبا طالب بن

غانم أحد ندمائه ونجوم سمائه

أقبل أباطالب الينا * وقع وقوع الندى علينا
فنحن عقد بغير وسطى * مالم تكن حاضرا لدينا

(وقال في ترجمة المعتصم بن صمادح ما صورته) وأخبرني الوزير أبو خالد بن يشتغين انه حضر مجلسه بالصمادحية في يوم غيم وفيه أعيان الوزراء ونبهاء الشعراء فقعد على موضع يتداخل الماء فيه ويلتوي في نواحيه والمعتصم منشرح النفس مجتمع الانس فقال

انظر الى حسن هذا الماء في صبه * كأنه أرقم قد جد في هربه

فاستبدعوه وتيموه به وأولعوه فأسكب عليهم شآبيب نداه وأعرب عما طهر من بشره وأبداه ثم قال بعد كلام وخرج الى برجة ودلاية وهما منظران لم يحل في مثلهما ناظر ولم تدع حسنهما الخدود النواضر غصون تثنيها الرياح ومياه لها انسياح وحدائق تهدي الارج والعرف ومنازه تبهج النفس وتمتع الطرف فأقام فيها أياما يتدرج في مسارحها ويتصرف في منازهها وكانت نزهة أربت على نزهة هشام بدير الرصافه وأنافت عليها أي انافه (وقال في ترجمة ابن رزين ما ملخصه) أخبرني الوزير أبو عامر أنه اصطبح يوما والجو سماكي العوارف لازوردي المطارف والروض أنيقة لباته رقيقة هباته والنور مقتبل والنسيم معتل ومعه قومه وقد راقهم يومه وصلاته تصافح معتفيهم ومبراته تشافه موافيهم والراح تشعشع وماء الاماني ينشع فكتب الى ابن عمار وهو ضيفه

ضمان على الايام أن أبلغ المنى * اذا كنت في ودي مسرا ومعلنا
فلو تسأل الايام من هو مصرد * بود ابن عمار لقلت لها أنا
فان حالت الايام بيني وبينه * فكيف يطيب العيش أو يحصل المنى

فلما وصلت الرقعة اليه تأخر عن الوصول واعتذر بعذر محتمل المعاني والفصول فقال أحد الحاضرين اني لاعجب من قعود ابن عمار عن هذا المضمار مع ميله الى السماع وكلفه بمثل هذا الاجتماع فقال ذو الرياستين ان الجواب تعذر فلذا اعتذر لانه يعاني قوله ويعليه ويروّيه ولا يرتجله ويقوله في المدة الممتدة فرأى أن الوصول بلا جواب اخلال لادبه واخلال لمنازله في الشعر ورتبه فلما كان من الغد ورد ابن عمار ومعه الجواب وهو

هصرت لي الآمال طيبة الجنى * وسوغتني الاحوال مقبلة الدنى
وألبستني النعما أغض من الندى * وأجمل من وشي الربيع وأحسنا
وكم ليلة أحظيتني بحضورها * فبت سمير السناء والسنى
أعلل نفسي بالمكارم والعلا * وأذني وكفي بالغناء وبالغنى
سأقرن بالتقويل ذكرك كلما * تعاورت الاسماء غيرك والكنى
لاوسعتني قولا وطولا كلاهما * يطوق أعناقا ويخرس ألسنا
وشرفتني من قطعة الروض بالتي * تناثر فيها الطبع وردا وسوسنا

قوله يشتغين ا هـ

معشر الناس بباب الحسن * بدر تم طالع في غبش
علق القرط على مسمعه * من عليه آفة العين خشى

فلما رآني أمسك وسح كأنه تبسك *(وقال في ترجمة ابن عمار ما صورته) وتنزه بالدمشق بقرطبة وهو قصر شيده بنو أمية بالصفاح والعمد وجروا من اتقانه الى غاية وأمد وأبدع بناؤه وعمقت ساحته وفناؤه واتخذوه ميدان مراحهم ومضمارا لانشراحهم وكوا به قصرهم بالمشرق وأطلعوه كالكوكب الثاقب المشرق فحله أبو بكر بن عمار على أثر بوسه وابتسم له دهره بعد عبوسه والدنيا قد أعطته عهودها وسقته صفوها وبات فيه مع لمة من أتباعه ومتفيئي رباعه وكلهم يحييه بكاس ويفديه بنفسه من كل باس فطابت له ليلته في مشيده وأطربه الانس بسيطه ونشيده فقال

كل قصر بعد الدمشق يذم * فيه طاب الجنى وفاح المشم
منظر رائق وماء نمير * وثرى عاطر وقصر أشم
بت فيه والليل والفجر عندي * عنبر أشهب ومسك أحم

انتهى

وعبر صاحب البدائع عن هذه القصة بقوله تنزه ابن عمار بالدمشق بقرطبة وهو قصر شيده خلفاء بني أمية وزخرفوه ودفعوا صرف الدهر عنه ورصدوه وأجروه على ارادتهم وصرفوه وذهبوا سقفه وفضضوها ورخموا أرضه وروضوها فبات به والسعد يلحظه بطرفه والروض يحييه بعرفه فلما استنفد كافور الصباح مسك الغسق ورصع أبنوس الظلام نضار الشفق قال مرتجلا كل قصر بعد الدمشق يذم الخ انتهى *(وقال في ترجمة ذي الوزارتين أبي عيسى بن لبون) أخبرني الوزير أبو عامر بن الطويل انه كان بقصر من يطربالمجالس الشرقي منها والنطعاء قد لبست زهرها ودبج الغمام مطرفها وفيها حدائق ترنو عن مقل نرجسها وتبث طيب تنفسها والجلنار قد لبس أردية الدماء وراع أفئدة الندماء فقال

قم يا نديم أدر علي القرقفا * أوما ترى زهر الرياض مفوفا
فتخال محبوبا مدلا وردها * وتظن نرجسها محبا مدنفا
والجلنار دماء قتلى معرك * والياسمين حباب ماء قد طفا

الى أن قال وشرب مع الوزراء الكتاب بنطعاء لورقة في عشية تجود بدمائها ويصوب عليها دمع سمائها والنطعاء قد خلع عليها سندسها ودرهار جسها والشمس تنفض على الزهار عفرانها والانوار تغمض أجفانها فكتب الى ابن اليسع

لو كنت تشهد يا هذا عشيتنا * والمزن تسكب أحيانا وتنعدر
والارض مصفرة بالشمس كاسية * أبصرت تبرا عليه الدر ينتثر

*(وقال في ترجمة ذي الوزارتين أبي بكر بن رحيم ما صورته) ووصل هو وابن وضاح صهر المرتضى وابن جمال الخلافة صاحب صقلية الى احدى جنات مرسية فحلوا منها في قبة فوق جدول مطرد وتحت أدواح طير بها غرد فأقاموا يتعاطون رحيقهم ويعمرون في المؤانسة طريقهم اذا بالجنان قد وقف عليهم وقال كان بموضعكم بالامس

ويحسده الغصن اذ تهدّه * يجيء على مثل الكثيب ويذهب

*(وقال في ترجمة الوزير أبي القاسم بن السقاط بعد كلام كثير ما صورته) وحملنا الوزير القاضي أبو الحسن بن أضحى الى احدى ضياعه بجبارح غرناطة ومعنا الوزير أبو محمد بن مالك وجماعة من أعيان تلك الممالك فحللنا بضيعة لم ينحت المحل أثلها ولم ترمق العيون مثلها وجلنا في أكناف جنات ألفاف فاشتنت من دوحة لمياء وغصن يميس كمعطفي هيفاء وماء ينساب في جداوله وزهر يفضح بالمسك راحة متناوله ولما قضينا من تلك الحدائق أربا واقتضضناها أترابا عربا ملنا الى موضع المقيل ونزلنا بعمارة تزري بعمارة حذيفة مع مالك وعقيل وعند وصولنا بدا لي من أحد الاصحاب تقصير في المبرة عرض لي منه تكدير لتلك المسرة فأظهرت التثاقل أكثر ذلك اليوم ثم عدلت عنهم الى الاضطجاع والنوم فما استيقظت الا والسماء قد نسخ صحوها وغيم جوها والغمام منهمل والثرى من سقياه ثمل فبسطني بتحميه وأبهجني بزهر لم يرن تممه ويوفيه وأنشدني

يوم تجهم فيه الافق وانتثرت * مدامع الغيث في خد الثرى هملا
رأى وجومك فارتدت طلاقته * مضاهيا لك في الاخلاق ممتثلا

*(وقال في ترجمة الوزير القاضي ابي الحسن بن أضحى ما نصه) وكان لصاحب البلد الذي كان يتولى القضاء به ابن من أحسن الناس صورة وكانت محاسن الافعال والاقوال عليه مقصورة مع ما شئت من لسن وصوت حسن وعفاف واختلاط بالبهاء والتفاف فحملنا الى احدى ضياعه بقرب من حضرة غرناطة فحللنا بقرية على ضفة نهر أحسن من سلك نهر تشقها جداول كالصلال ولا ترمقها الشمس من تكاثف الظلال ومعنا جملة من أعيانها فأحضر لنا من أنواع الطعام وأرانا من فرط الاكرام والانعام ما لا يطاق ولا يحد ويقصر عن بعضه العد وفي أثناء مقامنا بدا لي من ذلك الفتى المذكور ما أنكرته فقابلته بكلام أعتقده وملام أحقده فلما كان من الغد لقيت منه اجتنابا ولم أر منه ما عهدته من الانابه فكتبت اليه مداعبا فراجعني بهذه القطعة

أتتني أبا نصر نتيجة خاطر * سريع كرجع الطرف في الخطرات
فأعربت عن وجد كمين طويته * بأهيف طاو فاتر اللحظات
غزال أحم المقلتين عرفته * بخيف منى للحسن أو عرفات
رماك فأصمى والقلوب رمية * لكل كحيل الطرف ذي فتكات
وظن بأن القلب منك محصب * فلباك من عينيه بالجمرات
تقرب بالنساك في كل منسك * وضحى غداة النحر بالمهجات
وكانت له جيان مثوى فأصبحت * ضلوعك مثواه بكل فلاة
يعز علينا أن تهيم فتنطوي * كئيبا على الاشجان والزفرات
فلو قبلت للناس في الحب فدية * فديناك بالاموال والبشرات

*(وقال في ترجمة أديب الاندلس وشاعرها أبي اسحق بن خفاجة بعد كلام ما صورته وقال يندب معاهد الشباب ويتفجع لوفاة الاخوان والاحباب ويعقب سبيل أعاد

ويباس الطل في صفرته * نقط الفضة في خط الذهب
انتهى

وسيأتى ان شاء الله تعالى كثير من وصف بلاد الاندلس ومتنزهاتها وما اشتملت عليه من المحاسن في كلام غير واحد ممن يجرى ذكره في هذا الكتاب وخصوصا أديب زمانه غير مدافع من اعترف له أهل الشرق بالسبق وأهل المغرب بالابداع المغرب النور أبو الحسن علي بن سعيد العنسى فانه لما اتصل بمصر ودخلها اشتاق الى تلك المواطن الاندلسية الرائقة فوصفها بالقصائد والمقطوعات الفائقة وقد أسلفنا أيضا فيما مر من هذا الكتاب بعض ما يتعلق بمحاسن الاندلس فليراجع في محله من هذا الكتاب قلت وماذا عسى أن نذكر من محاسن قرطبة الزاهرة والزهرا ونصف من محاسن الاندلس التى تبصر بكل موضع منها اطلالا ضافيا ونهرا وزهرا ويرحم الله تعالى اديبها المشهور الذى اعترف له بالسبق الخاصة والجمهور أبا اسحق بن خفاجة اذ قال

يا أهل أندلس لله دركم * ماء وظل وأنهار وأشجار
ما جنة الخلد الا في دياركم * ولو تخيرت هذا كنت أختار
لا تختشوا بعد ذا أن تدخلوا سقرا * فليس تدخل بعد الجنة النار

ويروى مكان قوله ولو تخيرت هذا كنت أختار ما مثاله وهذه كنت لو خيرت أختار ومكان لا تختشوا لا تحسبوا وكذا رأيت بخط الحافظ التنسى والاول رأيته بخط العلامة الوانشريسى رحمهما الله تعالى * وحكى أن الخليل لما قدم من الاندلس رسولا الى سلطان المغرب أبي عنان فارس ابن السلطان أبي الحسن المرينى أنشد بحضرة السلطان المذكور أبيات ابن خفاجة هذه كالمفتخر ببلاد الاندلس فقال السلطان أبو عنان كذب هذا الشاعر يشير الى كونه جعلها جنة الخلد وأنه لو خير لاختارها على ما في الآخرة وهذا خروج من ربقة الدين ولا أقل من الكذب والاغراق وان جرت عادة الشعراء بذلك الاطلاق فقال الخليل يا مولانا بل صدق الشاعر لانها موطن جهاد ومقارعة للعدو وجلاد والنبى صلى الله عليه وسلم الرؤف الودود الرحيم العطوف يقول الجنة تحت ظلال السيوف فاستحسن منه هذا الكلام ورفع عن قائل الابيات الملام وأجزل صلته ورفع منزلته ولعمرى ان هذا الجواب لجدير بالصواب وهكذا ينبغى أن تكون رسل الملوك في الافتنان روح الله تعالى أرواح الجميع في الجنان * وأبو اسحق بن خفاجة كان أوحد الناس في وصف الانهار والازهار والرياض والحياض والرياحين والبساتين وقد سبق بعض كلامه ويأتى أيضا منه بعض في أثناء الكتاب ومن ذلك قوله

وكمامة حدر الصباح قناعها * عن صفحة تندى من الازهار
في أبطح رضعت ثغور أقاحه * أخلاف كل غمامة مدرار
نثرت بحجر الارض فيه يد الصبا * درر الندى ودراهم النوار
وقد ارتدى غصن النقا وتقلدت * حلى الحباب سوالف الانهار
فحللت حيث الماء صفحة ضاحك * جذل وحيث الشط بدء عذار
والريح تنفض بكرة لمم الربا * والطل ينضح أوجه الاشجار

في عمة حلعت عليه للمة * وذؤابة قرنت بها العذار
صافي رداء المجد طماح العلا * طامي عباب الجود رحب الدار
جرار أذيال المعالي والقنا * حامي الحقيقة والحمى والجار
طرد القنيص بكل قيد طريدة * زجل الجناح مورد الاظفار
ملتفة أعطافه بحبيرة * مكحولة أجفانه بنضار
يرمي به الأمل القصي فينثني * مخضوب درء الظفر والمنقار
وبكل نائي الشوط أشدق أحزر * طاوي الحشى حالي المقلد ضاري
يفتر عن مثل النصال وانما * يمشي على مثل القنا الخطار
مستقريا أثر القنيص على الصفا * والليل مشتمل بشملة قار
من كل مسود تلهب طرفه * ترميك مقلته بشعلة نار
ومورس السربال يخلع نده * عن شمر رجم في سماء غبار
يستن في سطر الطريق وقد عفا * قدما فيقرأ أحرف الآثار
عطف الضمور سراته فكأنه * والنقع يحجبه هلال سرار
ولرب رواع هنالك أنبط * خلق المسامع أطلس الاطمار
يجري على حذر فيجمع بسطه * يهوي فينعطف انعطاف سوار
يمتد حبل الشأو يعسل رائعا * فيكاد يفلت ايدي الاقدار
متردد يرمي به جوف الردى * كرة تهادتها أكف قمار
ولرب طيار خفيف قد جرى * فشلا بجار خلفه طيار
من كل قاصرة الخطا مختالة * مشي الفتاة تجر فضل ازار
مخضوبة المنقار تحسب أنها * كرعت على ظما بكاس عقار
ولو استعارت منهما بجناحي أبي * يحيى لما تهما أعز جوار
خدم القضاء مراده فكأنما * ملكت يداه أعنة الاقدار
وعنى الزمان لامره فكأنما * أصغى الزمان به الى أسمار
وجلا الامارة في رفيق نضارة * جلت الدجى في حلة الانوار
في حيث وشح لبة بقلادة * منها وحلى معصما بسوار
جذلان يلثم نحره ونشاشه * أيدي العفاة وأعين الزوار
أرج المدى بذكره فكأنه * متنفس عن روضة معطار
بطل حوى الملك المحيط بسرجه * واستل صارمه يد المقدار
بيمينه يوم الوغى وشماله * ماشاء من نار ومن اعصار
والشمس خمر والجياد عرائس * والجو كاس والسيوف عواري
والخيل تعثر في شبا شوك القنا * قصدا وتسبح في الدم الموار
والبيض تجني في الطلى فكأنما * تلوي عزائمها على أزرار
والنقع يكسر من سنى شمس الضحى * فكأنه صدأ على دينار

ولقد أنخت بشاطئيه يهزني * طربا شباب رائق وشراب
وبكيت دجلته يضاحكني بها * من صاحبيَّ شائقي وحبابه
تجلى من الدنيا عروس بيننا * حسناء ترشف والمدام رضابه
ثم ارتحلت وللنهار ذؤابة * شيباء تخضب والنهار خضاب
تلوي معاطف الصبابة والصبا * والليل دون الكاشحين حجاب

وقال

مرّ بنا وهو بدر تم * يسحب من ذيله سحابا
بقامة تنثني قضيبا * وغرة تلتظي شهابا
يقرأ والليل مدلهم * لنورا جلاله كتابا
ورب ليل سهرت فيه * أرجو من جنحه نكابا
حتى اذا الليل مال سكرا * وشق سرباله وجابا
وحام من سدفه غراب * طالت به سنه فشابا
ارددت من لوعتي خيالا * حدث من علتي شرابا
وما خطا قادما وراءي * حتى انثني ناكصا فآبا
وبين جفني بحر شوق * يعب في وجنتي عبابا
قد شب في وجهه شعاع * وشب عن قلبي التهابا
وروضة طلقة حياء * غناء مخضرة جنابا
ينجاب عن نورها كمام * يحط عن وجهه نقابا
بات بها مبسم الاقاحي * يرشف من طلها رضابا
ومن حقوق البروق فيها * ألوية حمرت خضابا
كأنها أعين وراد * تحصر قطر الحيا حسابا

وله

رحلت عنكم ولي فؤاد * تنفض اضلاعه حنينا
أجود فيكم بعلق دمع * كنت به قبلكم ضنينا
يثور بي وجدي جيشا * وكان في جسمه كمينا
كأنني بعدكم شمال * قد فارقت منكم يمينا

وقال

فيا لشجا قلب من الصبر فارغ * ويا لقذى طرف من الدمع ملآن
ونفس الى جو الكنيسة صبة * وقلب الى أفق الجزيرة حنان
تعوضت من واها لآه ومن هوى * بهون ومن اخوان صدق بخوّان
وما كل بيضاء بروق بشحمة * وما كل مرعى ترتعيه بسعدان
فيا ليت شعري هل ادهري عطفة * فتجمع أوطاري على وأوطاني
ميادين أوطاري ولذة لذتي * ومنشأ تهيامي وملعب غزلاني

فلويت معطفها اعتنا فاحسبنا * فيه بقطر الدمع من أنواء انتهى

(وكان المعتمد بن عباد رحمه الله تعالى) كثيرا ما ينتاب وادى الطلح مع زملته وأولى أنسه ومسرته وهو واد بشرق اشبيلية ملتف الاشجار كثير ترنم الاطيار وفيه يقول نور الدين بن سعيد

سائل بوادى الطلح ريح الصبا * هل جرت لى من زمان الصبا

كانت رسولا فيه ما بيننا * ان نامت الرسل ولن تكتبا

يا قاتل الله اناسا اذا * ما استؤمنوا خانوا فما أعجبا

هلا رعوا أنا وثقنا بهم * وما اتخذنا عنهم مذهبا

يا قاتل الله الذى لم يتب * من غدرهم من بعد ما جربا

واليم لا يعرف ماطعمه * الا الذى وافى لأن يشربا

دعنى من ذكر الوشاة الالى * لما ارل فكرى بهم ملهبا

واذكر بوادى الطلح عهدا لنا * لله ما أحلى وما أطيبا

بجانب العطف وقد مالت الاغصان والزهر يبث الصبا

والطير مارت بين ألحانها * وليس الا معجبا مطربا

وخاى من لا أسميه من * شح أخاف الدهر أن يسلبا

قد أترع الكاس وحياها * وقلت أهلا بالمنى مرحبا

أهلا وسهلا بالذى شئته * يابدر تم مهديا كوكبا

لكننى آليت أسقى بها * أو نودعها تغرك الاشنبا

فمج لى فى الكاس من ثغره * ماحبب الشرب وما طيبا

وقال ها لثمى نقلا ولا * تشم الاعرق الاطيبا

واقطف بخدى الورد والآس والنسرين لا تحفل بزهر الربا

أسعفته غصنا غدا مثمرا * ومن جناه ميسه قربا

قد كنت ذا نهى وذا امرة * حتى تبدى فحللت الحبا

ولم أصن عرضى فى حبه * ولم أطع فيه الذى أنبا

حتى اذا ما قال لى حاسد * ترجوه والكوكب أن يغربا

أرسلت من شعرى سحرا له * يسمر المرغب والطلبا

وقال عرفه بأنى سأحتال فما اجتنب المكتبا

فزاد فى شوقى له وعده * ولم أزل معتقدا مرقبا

أمد طرفى ثم أثنيه من * خوف أخى التنغيص أن يرقبا

أصدق الوعد وطورا أرى * تكذيبه والحزم ان يكذبا

الى ومن سحره بعدما * أيأس بطء كاد أن يغضبا

ثلت فى الترب ولم أستطع * من حصر اللقيا سوى مرحبا

هما تربى اذ غدا هالة * وقلت يا من لم يصغ أشعبا

غيرى اذا ما بان حان واعا * أبقى حياتى حين بان رجاء

وسيأتى ان شاء الله تعالى لهذا النمط وغيره مزيد أثناء الكتاب بحسب ما اقتضته المناسبة والله تعالى المرجوّ فى حسن المتاب وهو سبحانه لا اله الا هو الموفق للصواب

(الباب الخامس)

فى التعريف ببعض من رحل من الاندلسيين الى بلاد المشرق الزاكية العرار والبشام ومدح جماعة من أولئك الاعلام ذوى العقول الراجحة والاحلام لشامة وجنة الارض دمشق الشام وما اقتضته المناسبة من كلام أعيانها وأرباب بيانها ذوى السودد والاحتشام ومخاطباتهم للفقير المؤلف حين حلها سنة ألف وسبعة وثلاثين للهجرة وشاهد برق فضلها المبين وشام

*(اعلم جعلنى الله تعالى واياك) ممن له للمذهب الحق اتصال أن حصر أهل الارتحال لا يمكن بوجه ولا بحال ولا يعلم ذلك على الاحاطة الا علام الغيوب الشديد المحال ولو أطلنا عنان الاقلام فيمن عرفناه فقط من هؤلاء العلماء الاعلام لطال الكتاب وكثر الكلام ولكنا نذكر منهم لمعا على وجه التوسط من غير اطناب داع الى الملال واختصار مؤد للملام فنقول مستمدين من واهب العقول * (منهم عالم الاندلس عبد الملك ابن حبيب السلمى) وقد عرّف به القاضى عياض فى المدارك وغير واحد ورأيت فى بعض التواريخ أن تواليفه بلغت ألفا ومن أشهرها كتاب الواضحة فى مذهب مالك كتاب كبير مفيد ولابن حبيب مذهب فى كتب المالكية مسطور وهو مشهور عند علماء المشرق وقد نقل عنه الحافظ ابن حجر وصاحب المواهب وغيرهما ومن نظمه يخاطب سلطان الاندلس

لا تنس لا ينسك الرحمن عاشورا * واذكره لا زلت فى التاريخ مذكورا
قال النبى صلاة الله تشمله * قولا وجدنا عليه الحق والنورا
فيمن يوسع فى انفاق موسمه * أن لا يزال بذاك العام ميسورا

وهذا البيت الثالث نسيت لفظه فكتبته بالمعنى والوزن اذ طال عهدى به والله تعالى أعلم * وقال الفتح فى المطمح الفقيه العالم أبو مروان عبد الملك بن حبيب السلمى أىّ شرف لاهل الاندلس وأىّ مفخر وأىّ بحر بالعلوم يزخر خلدت منه الاندلس فقيها عالما أعاد مجاهل أهلها معالما وأقام فيها للعلوم أسواقا نافقه ونشر منها ألوية خافقه وجلا عن الالباب صدأ الكسل وشحذها شحذ الصوارم والاسل وتصرف فى فنون العلوم وعرف كل معلوم وسمع بالاندلس وتفقه حتى صار أعلم من بها وأفقه ولقى أنجاب مالك وسلك فى مناظرتهم أوعر المسالك حتى أجمع عليه الاتفاق ووقع على تفضيله الاصفاق ويقال انه لقى مالكا آخر عمره وروى عنه عن سعيد بن المسيب ان سليمان بن داود صلى الله عليهما وسلم كان يركب الى بيت المقدس فيتغدى به ثم يعود فيتعشى باصطخر وله فى الفقه كتاب الواضحة ومن أحاديثه غرائب قد تحلت بها للزمان نحور وترائب * (وقال محمد بن لبابة) فقيه الاندلس عيسى بن دينار وعالمها عبد الملك بن حبيب وراويها يحيى بن يحيى وكان عبد

الملك قد جمع الى علم الفقه والحديث علم اللغة والاعراب وتصرف في فنون الآداب وكان له شعر يتكلم به تحسنا وشرق شرقه بذلك تصحرا وتوفي بالاندلس في رمضان سنة ٢٣٨ وهو ابن ثلاث وخمسين سنة بعد ما جال في الارض وقطع طولها والعرض وجال في اكنافها وانتهى الى أطرافها ومن شعر قوله

قد طال أمري والذي أشتهي * هين على الرحمن في قدرته

ألف من الخمر وأقلل بها * لعالم أربى على بغيته

زرياب قد أعطيها جملة * وحرفتي أشرف من حرفته

وكتب الى الرياحي رسالة وصلها بهذه الابيات

كيف يطيق الشعر من أصبحت * حالته اليوم كحال الغرق

والشعر لا يسلس الا على * فراغ قلب واتساع الخلق

فاسمع هذا القول من شاعر * يرمي بالخطأ بأدنى العنق

فضلك قد بان علينا كما * بان لأهل الارض ضوء الشفق

اما ذمام الود في لكم * فهو من المحتوم فيما سبق

ولم يكن له علم بالحديث يعرف به صحيحه من معتله ويفرق مسنده من مرسله وكان غرضه الاخبار وإكثار الرواية عن سطار قال ابن وضاح قال ابراهيم بن المنذر اتى صاحبكم الاندلسي يعني عبد الملك هذا الغرار بغلاف فقال لي هذا علمك تأذن لي فيه فقلت نعم ما شئت ثم ما قرأه علي منه حرفا ولا قرأته عليه وحكي انه قال في دخوله المشرق وقد سخر بعض الاكابر فازدرى من رآه

لا تنظرن الى جسمي وقلته * وانظر لصدري وما يحوي من السنن

فرب ذي منظر من غير معرفة * ورب من تزدريه العين ذو فطن

ورب لؤلؤ في عين مزبلة * لم يلتفت نال لها الا الى زمن

انتهى ما في المطمح الصغير * قلت أما ما ذكره من عدم معرفته بالحديث فهو غير مسلم وقد نقل عنه غير واحد في شهادة المحدثين له لأهل الاندلس غرائب لم يروها كثير من المحدثين حتى ان في ما عباس أحاديث لم يعرفها اهل المشرق النقاد لحديثها مع اعترافهم بفضله حفاظ الاندلس الذين تلوها كبقي بن مخلد وابن حبيب وغيرهما على ما هو معلوم * وأما ما ذكره عنه بالاخبار عن الغرار فذلك على مذهب من يرى الاجازة وهو مذهب مشهور واعتراض من اعترض عليه انما هو بناء على القول بمنع الاجازة فاعلم ذلك والله سبحانه الموفق *(ومن الراحلين)* من الاندلس الفقيه المحدث يحيى بن يحيى الليثي راوي الموطأ عن مالك رضي الله تعالى عنه ويقال ان اصله من بربر مصمودة وحكي انه لما ارتحل الى مالك ولازمه فبينما هو عنده في مجلسه مع جماعة من أصحابه اذ قال قائل حضر الفيل فخرج اصحاب مالك كلهم ولم يخرج يحيى فقال له مالك ما لك لم تخرج وليس الفيل في بلادك فقال انما جئت من الاندلس لانظر اليك وأتعلم من هديك وعلمك ولم أجئ لانظر الى الفيل فأعجب به مالك وقال هذا عاقل الاندلس

ولذلك

ولذلك قيل ان يحيى هذا عاقل الاندلس وعيسى بن دينار فقيهها وعبد الملك بن حبيب عالمها ويقال ان يحيى راويها ومحدثها وتوفي يحيى بن يحيى سنة ٢٣٤ في رجب وقبره يستسقى به بقرطبة وقيل ان وفاته في السنة التي قبلها والله تعالى أعلم ورواية الموطأ مشهورة حتى ان أهل المشرق الآن يسندون الموطأ من روايته كثيرا مع تعدد رواة الموطا والله أعلم * وكان يحيى بن يحيى روى الموطأ بقرطبة عن زياد بن عبد الرحمن اللخمي المعروف بشطون وسمع من يحيى بن مضر القيسي الاندلسي ثم ارتحل الى المشرق وهو ابن ثمان وعشرين سنة فسمع من مالك بن أنس الموطأ غير أبواب في كتاب الاعتكاف شك في سماعها فأثبت روايته فيها عن زياد وذلك مما يدل على ورعه وسمع بمصر من الليث بن سعد وبمكة من سفيان بن عيينة وتفقه بالمدنيين والمصريين كعبد الله بن وهب وعبد الرحمن بن القاسم العتقي وسمع منهما وهما من أكابر أصحاب مالك بعد انتفاعه بمالك وملازمته له وانتهت اليه الرياسة بالاندلس وبه اشتهر مذهب مالك في تلك الديار وتفقه به جماعة لا يحصون عددا وروى عنه خلق كثير وأشهر رواة الموطا وأحسنهم رواية يحيى المذكور وكان مع أمانته ودينه معظما عند الامراء يكنى عندهم عفيفا عن الولايات متنزها جلت رتبته عن القضاء وكان أعلى من القضاة قدرا عند ولاة الامر بالاندلس لزهده في القضاء وامتناعه قال الحافظ ابن حزم مذهبان انتشرا في بدء أمرهما بالرياسة والسلطان مذهب أبي حنيفة فانه لما ولي القضاء أبو يوسف كانت القضاة من قبله من أقصى المشرق الى أقصى عمل افريقية فكان لا يولي الا أصحابه والمنتسبين لمذهبه ومذهب مالك عندنا بالاندلس فان يحيى بن يحيى كان مكينا عند السلطان مقبول القول في القضاة وكان لا يلي قاض في أقطار الاندلس الا بمشورته واختياره ولا يشير الا بأصحابه ومن كان على مذهبه والناس سراع الى الدنيا فأقبلوا على ما يرجون بلوغ أغراضهم به على ان يحيى لم يل قضاء قط ولا أجاب اليه وكان ذلك زائدا في جلالته عندهم وداعيا الى قبول رأيه لديهم انتهى * وذكرنا في غير هذا الموضع قولا آخر في سبب انتشار مذهب مالك بالاندلس والله سبحانه أعلم بحقيقة الامر وقال ابن أبي الفياض جمع الامير عبد الرحمن بن الحكم الفقهاء في قصره وكان وقع على جارية يحبها في رمضان ثم ندم أشد ندم فسألهم عن التوبة والكفارة فقال يحيى تكفر بصوم شهرين متتابعين فلما بادر يحيى بهذه الفتيا سكت الفقهاء حتى خرجوا فقال بعضهم له لم لم تفت بمذهب مالك بالتخيير فقال لو فتحنا له هذا الباب سهل عليه أن يطأ كل يوم ويعتق رقبة ولكن حملته على أصعب الامور لئلا يعود وقال بعض المالكية انما أفتى يحيى بهذا ورأى أنه لم يملك شيئا اذ هو مستغرق الذمة فلا عتق له ولا اطعام فلم يبق الا الصيام انتهى ولما انفصل يحيى عن مالك ووصل الى مصر رأى ابن القاسم يدون سماعه من مالك فنشط للرجوع الى مالك ليسمع منه المسائل التي رأى ابن القاسم يدونها فرحل رحلة ثانية فألفى مالكا عليلا فأقام عنده الى أن مات وحضر جنازته فعاد الى ابن القاسم وسمع منه سماعه من مالك هكذا ذكره ابن الفرضي في تاريخه وهو مما يرد الحكاية المشهورة الآن بالمغرب أن يحيى سأل مالكا عن زكاة التين

واذا الحنادس ألبست ظلماؤها * فضياء وجهك فى الدجى مصباح

فكتبها القاضى فى ظهريده وخرج من عنده قال يونس بن عبد الله ولقد رأيته يكبر للصلاة على الجنازة والابيات مكتوبة على ظهر كفه وكان رحمه الله تعالى فى غاية اللطف حكى بعض أصحابه قال ركبنا معه فى موكب حافل من وجوه الناس اذ عرض لنا فتى متأدب قد خرج من بعض الازقة سكران يتمايل فلما رأى القاضى هابه وأراد الانصراف فخانته رجلاه فاستند الى الحائط وأطرق فلما قرب القاضى رفع رأسه وأنشأ يقول

ألا أيها القاضى الذى عم عدله * فأضحى به بين الانام فريدا

قرأت كتاب الله تسعين مرة * فلم أر فيه للشراب حدودا

فان شئت جلدا لى فدونك منكبا * صبورا على ريب الزمان جليدا

وان شئت أن تعفو تكن لك منة * تروح بها فى العالمين حميدا

وان أنت تختار الحديد فان لى * لسانا على هجو الزمان حديدا

فلما سمع شعره وميز أدبه أعرض عنه وترك الانكار عليه ومضى لشأنه انتهى ملخصا من المطمح * ورأيت بخطى فى بعض مسوداتى ما صورته محمد بن عبد الله بن يحيى بن يحيى الليثى قاضى الجماعة بقرطبة سمع عم أبيه عبد الله بن يحيى ومحمد بن عمر بن لبابة وأحمد بن خالد ورحل من قرطبة سنة ٣١٣ ودخل مصر وسمع بمكة من ابن المنذر والعقيلى وابن الاعرابى ومعانى الشعر شاعرا مطبوعا وشاوره القاضى أحمد بن بقى واستقضاه الناصر عبد الرحمن بن محمد على البيرة وبجانة ثم ولاه قضاء الجماعة بقرطبة بعد أبى طالب سنة ٣٢٤ وجمعت له مع القضاء الصلاة وكان كثيرا ما يخرج الى الثغور ويتصرف فى اصلاح ما وهى منها فاعتل فى آخر خرجاته ومات فى بعض الحصون المجاورة لطليطلة سنة ٣٣٧ ومولده سنة ٢٨٤ انتهى وأظن انى نقلته من كتاب ابن الابار الحافظ والله أعلم * (ومنهم) عتيق بن أحمد بن عبد الباقى الاندلسى الدمشقى وفاة يكنى أبا بكر نزيل دمشق كان مشهورا بالصلاح واجتمع به جماعة من القراء وولد على ما قيل سنة ٥١٦ وتوفى سنة ٦١٤ بدمشق ودفن بمقابر الصوفية فيكون عمره على هذا مائة سنة رحمه الله تعالى ونفعنا ببركاته وبركات أمثاله * (ومنهم) أبو ابراهيم اسمعيل بن محمد بن يوسف الانصارى الاندلسى الابدى الملقب فى البلاد المشرقية ببرهان الدين وأبدة بضم الهمزة وتشديد الباء الموحدة وفتحها وبعدها دال مهملة بلد بالاندلس سمع المذكور بمكة وغيرها من البلاد وبدمشق من الحافظ ابن طبرزد وأم بالصخرة وكان فاضلا صالحا شاعرا توفى سنة ٦٥٦ وأخبر عن بعض الاولياء المجاورين ببيت المقدس انه سمع هاتفا يقول لما خرب القدس

ان يكن بالشام قل تصبرى * ثم خربت واستمر هلوكى

فلقد أثبت العداة حرابى * سمر العارفى حياة الملوكى

هكذا رأيته بخط الصفدى فى حياة ويحتمل أن يكون فى جباه جمع جبهة والله أعلم * (ومنهم) القاضى منذر بن سعيد البلوطى قاضى الجماعة بقرطبة وقد قدمنا جملة من

قوله ٧٣١ فى نسخة

ص

طافحة وسط روضة نافحة في يوم شديد الوهج وذلك اثر منصرفه من صلاة الجمعة فشكا الى
الخليفة من وهج الحر الجهد وبث منه ما تجاوز الحد فأمره بخلع ثيابه والتخفيف عن
جسمه ففعل ولم يطف ذلك ما به فقال له الصواب أن تنغمس في وسط الصهريج انغماسة يبرد
بها جسمك وليس مع الخليفة الا الحاجب جعفر الخادم الصقلبي أمين الخليفة الحكم لا رابع
لهم فكأنه استحيا من ذلك وانقبض عنه وقارا وأقصر عنه اقصارا فأمر الخليفة حاجبه
جعفرا بسبقه الى النزول في الصهريج ليسهل عليه الامر فيه فبادر جعفر لذلك وألقى
نفسه في الصهريج وكان يحسن السباحة فجعل يجول يمينا وشمالا ولم يسع القاضي
الا انفاذ أمر الخليفة فقام وألقى بنفسه خلف جعفر ولاذ بالقعود في درج الصهريج
وتدرج فيه بعض تدريج ولم ينبسط في السباحة وجعفر يمر مصعدا ومصوبا فدسه الحكم
على القاضي وحمله على مساجلته في العوم وهو يعجزه في اخلاده الى القعود ويعابثه بالقاء
الماء عليه والاشارة بالجذب اليه وهو لا ينبعث معه ولا يفارق موضعه الى ان كلمه
الحكم وقال له ما لك لا تساعد الحاجب في فعله وتستقل صنعه فمن أجلك نزل وبسببك
تبذل فقال له يا سيدي يا أمير المؤمنين الحاجب سلمه الله تعالى لا هوجل معه وانما هذا
الهوجل الذي معي يعقلني ويمنعني من أن أجول معه مجاله يعني ان الحاجب خصي
لا هوجل معه والهوجل الذكر فاستفرغ الحكم ضحكا من نادرته ولطيف تعريضه
لجعفر وخجل جعفر من قوله وسبه سب الاشراف وخرجا من الماء وأمر لهما الخليفة
بخلع ووصلهما بصلات سنية تشاكل كل واحد منهما * وحكي ان الخليفة الحكم قال له
يوما لقد بلغني أنك لا تجتهد للايتام وأنك تقدم لهم أوصياء سوء يأكلون أموالهم قال نعم
وان أمكنهم نيك أمهاتهم لم يعفوا عنهن قال وكيف تقدم مثل هؤلاء قال لست أجد غيرهم
ولكن أحلفني على اللؤلؤي وأبي ابراهيم ومثل هؤلاء فان أبوا أجبرتهم بالسوط والسجن
ثم لا تسمع الا خيرا وقال القاضي منذر أتيت أبا جعفر بن النحاس في مجلسه بمصر يملي
في أخبار الشعراء شعر قيس المجنون حيث يقول

خليلي هل بالشام عين حزينة * تبكي على نجد لعلي أعينها
قد اسلمها الباكون الا حمامة * مطوقة باتت وبات قرينها
تجاوبها أخرى على خيزرانة * يكاد يدنيها من الارض لينها

فقلت له يا أبا جعفر ماذا أعزك الله تعالى باتا يصنعان فقال لي وكيف تقول أنت يا أندلسي
فقلت له بانت وبان قرينها فسكت وما زال يستثقلني بعد ذلك حتى منعني كتاب العين
وكنت ذهبت الى الانتساخ من نسخته فلما قطع بي قيل لي أين أنت من أبي العباس بن ولاد
فقصدته فلقيت رجلا كامل العلم حسن المروءة فسألته الكتاب فأخرجه الي ثم ندم
أبو جعفر لما بلغه اباحة أبي العباس الكتاب الي وعاد الى ما كنت أعرفه منه * قال وكان
أبو جعفر لئيم النفس شديد التقتير على نفسه وربما وهبت له العمامة فيقطعها ثلاث عمائم
وكان يأبى شراء حوائجه بنفسه ويتحامل فيها على أهل معرفته انتهى وأبو جعفر هذا
يقال ان تواليفه تزيد على خمسين منها شرح عشرة دواوين للعرب واعراب القرآن

ومعاني القرآن وشرح أبيات الكتاب وغير ذلك * (ترجمة) * وقال منذر بن سعيد
كتب الى أبي علي البغدادي استمنحه كتابا في الغريب وقلت

بحق ريم مهفهف * وصدغه المتعطف
ابعث الي بجزء * من الغريب المصنف

فقضى حاجتي وأجاب وله

وحق درّ تألف * بفيك أي تألف
لأبعثن بما قد * حوى الغريب المصنف
ولو بعثت بنفسي * اليك ما كنت أسرف

ورحم الله تعالى تلك الارواح الطاهرة * (وذكر) ابن اصبغ الهمداني عن منذر أنه خطب يوما وأراد التواضع فكان من فصول خطبته أن قال حتى متى والى متى أعظ ولا اتعظ وازجر ولا ازدجر ادل الطريق الى المستدلين وأبقى مقيما مع الحائرين كلا ان هذا لهو البلاء المبين ان هي الا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدي من تشاء الآية اللهم فرغبني لما خلقتني له ولا تشغلني عما تكفلت لي به ولا تحرمني وانا أسألك ولا تعذبني وأنا أستغفرك يا أرحم الراحمين * وسمع منذر بالاندلس من عبد الله بن يحيى بن يحيى ونظرائه ثم رحل حاجا سنة ثمان وثلاثمائة فاجتمع بعدة أعلام وظهرت فضائله بالمشرق وممن سمع عليه منذر بالمشرق بمكة محمد بن المنذر النيسابوري سمع عليه كتابه المؤلف في اختلاف العلماء المسمى بالاشراف * وروى بمصر كتاب العين للخليل عن أبي العباس بن ولاد * وروى عن أبي جعفر بن النحاس * وكان منذر متفننا في ضروب العلوم وغلب عليه التفقه بمذهب أبي سليمان داود بن علي الاصبهاني المعروف بالظاهري فكان منذر يؤثر مذهبه ويجمع كتبه ويحتج لمقالته ويأخذ به في نفسه وذويه فاذا جلس للحكومة قضى بمذهب الامام مالك وأصحابه وهو الذي عليه العمل بالاندلس وحمل السلطان اهل مملكته عليه وكان خطيبا بليغا عالما بالجدل حاذقا فيه شديد العارضة حاضر الجواب عتيده ثابت الحجة ذا منطق جزل ونطق متين وتواضع لاهل الطلب وانحطاط اليهم واقبال عليهم وكان مع وقار التام دعابة مستملحة وله نوادر مستحسنة وكانت ولايته القضاء بقرطبة للناصر في شهر ربيع الآخر سنة تسع وثلاثين وثلثمائة ولم يقضي قبل ذلك التاريخ للخليفة الناصر الى وفاته ثم للخليفة الحكم المستنصر الى أن توفي رحمه الله تعالى عقب ذي القعدة من سنة خمس وخمسين وثلثمائة فكانت ولايته القضاء للجماعة المعبر عنه في المشرق بقضاء القضاة ستة عشر عاما كاملة لم يحفظ عليه فيها جور في قضية ولا قسم بغير سوية ولا مال لهوى ولا اصغى الى عناية رحمه الله تعالى ورضي عنه ودفن بمقبرة قريش بالربض الغربي من قرطبة أعادها الله تعالى حوز مسجد السيدة الكبرى قرب داره * وله رحمه الله تعالى تواليف مفيدة منها كتاب احكام القرآن والناسخ والمنسوخ وغير ذلك في الفقه والكلام في الرد على اهل المذاهب تغمده الله تعالى برضوانه وكتب بعض الادباء الى القاضي منذر قوله

مسئلة جئتك مستفتيا * عنها وأنت العالم المستشار
علام تحمر وجوه الظبا * وأوجه العشاق فيها اصفرار

فأجاب منذر بقوله

احمر وجه الظبي اذ لحظه * سيف على العشاق فيه احورار
واصفر وجه الصب لما نأى * والشمس تبقى للمغيب اصفرار

*(وممن رحل الى المشرق من الاندلس فشهد له بالسبق كل أهل المغرب والشرق) الامام العلامة أبو القاسم الشاطبي صاحب حرز الامانى والعقيلة وغيرهما * وهو أبو القاسم بن فيرة بن خلف بن أحمد الرعيني الشاطبي المقرى الفقيه الحافظ الضرير أحد العلماء المشهورين والفضلاء المشكورين خطب ببلده شاطبة مع صغر سنه ودخل الديار المصرية سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة وحضر عند الحافظ السلفى وابن برى وغيرهما وولد بشاطبة آخر سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة وتوفى بالقاهرة يوم الاحد الثامن والعشرين وقيل الثامن عشر من جمادى الآخرة سنة تسعين وخمسمائة بعد العصر ودفن من الغد بالتربة الفاضلية بسفح المقطم * وحكى أن الامير عز الدين موسك الذى كان والد ابن الحاجب حاجباله بعث الى الشيخ الشاطبى يدعوه الى الحضور عنده فأمر الشيخ بعض أصحابه أن يكتب اليه

قل للامير مقالة * من ناصح فطن نبيه
ان الفقيه اذا أتى * أبوابكم لاخير فيه

ومن نظمه رحمه الله تعالى

خالفت أبناء الزمان فلم أجد * من لم أرم منه ارتيادى مخلصى
رد الشباب وقد مضى لسبيله * أهيا وأمكن من صديق مخلص

وكان رحمه الله تعالى قرأ بشاطبة القرآآت وأتقنها على المقرى ثم انتقل الى بلنسية فقرأ بها التيسير من حفظه على ابن هذيل وسمع الحديث منه ومن ابن النعمة وابن سعادة وابن عبد الرحيم وغيرهم وارتحل الى المشرق فاستوطن القاهرة واشتهر اسمه وبعد صيته وقصده الطلبة من النواحى وكان اماما علامة ذكيا كثير الفنون منقطع القرين رأسا فى القرآآت حافظا للحديث بصيرا بالعربية واسع العلم وقد سارت الركبان بقصيدتيه حرز الامانى وعقيلة اتراب القصائد اللتين فى القرآآت والرسم وحفظهما خلق كثير لا يحصون وخضع لهما فحول الشعراء وكبار البلغاء وحذاق القراء ولقد أوجز وسهل الصعب * وممن روى عنه أبو الحسن بن خيرة ووصفه من قوة الحفظ بأمر عجيب معجب وممن قرأ عليه بالروايات الامام الشهير محمد بن عمر القرطبى وتصدر الشاطبى رحمه الله تعالى للاقراء بالمدرسة الفاضلية وكان موصوفا بالزهد والعبادة والانقطاع * وقبره بالقرافة يزار وترجى استجابة الدعاء عنده وقد زرته مرارا ودعوت الله بما أرجو قبوله وترك أولادا منهم أبو عبد الله محمد عاش نحو ثمانين سنة * وقال السبكى فى حق الامام الشاطبى انه كان قوى الحافظة واسع المحفوظ كثير الفنون فقيها مقرئا محدثا نحويا زاهدا عابدا ناسكا

وقد قال السخاوي أقطع بأنه كان مكاشفا وأنه سأل الله كتمان حاله ما كان أحد
يعلم أي شيء هو انتهى ورحمه رحمة واسعة رحمه الله تعالى ونفعنا به آمين * وقال ابن خلكان
إنه أبدع في حرز الأماني وهي عمدة قراء هذا الزمان في نقلهم فقل من يشتغل بالقراآت إلا
ويقدم حفظها ومعرفتها وهي مشتملة على رموز عجيبة وإشارات لطيفة وما أظنه سبق
إلى أسلوبها وقد روي عنه أنه كان يقول لا يقرأ أحد قصيدتي هذه إلا وينفعه الله عز وجل
لأني نظمتها لله تعالى مخلصا وكان عالما بكتاب الله تعالى قراءة وتفسيرا وبحديث رسول الله
صلى الله عليه وسلم مبرزا فيه وكان إذا قرئ عليه صحيحا البخاري ومسلم والموطأ تصحح
النسخ من حفظه ويملي النكت على المواضع المحتاج إليها وكان أوحد في علم النحو واللغة
عارفا بعلم الرؤيا حسن المقاصد مخلصا فيما يقول ويفعل وكان يجتنب فضول الكلام
ولا ينطق في سائر أوقاته إلا بما تدعو إليه الضرورة ولا يجلس للإقراء إلا على طهارة في هيئة
حسنة وتخشع واستكانة وكان يعتل العلة الشديدة فلا يشتكي ولا يتأوه وإذا سئل
عن حاله قال العافية لا يزيد على ذلك وكان كثيرا ما ينشد هذا اللغز في نعش وهو لأبي
زكريا يحيى بن سلامة الخطيب

أتعرف شيئا في السماء نظيره * إذا سار صاح الناس حيث يسير
فتلقاه مركوبا وتلقاه راكبا * وكل أمير يعتليه أسير
يحض على التقوى ويكره قربه * وتنفر منه النفس وهو نذير
ولم يستزر عن رغبة في زيارة * ولكن على رغم المزور يزور

وكان يقول عند دخوله إلى مصر إنه يحفظ وقر بعير من العلوم وكان نزيل القاضي
الفاضل ورتبه بمدرسته بالقاهرة وقيل إن كنيته أبو محمد حسبما وجد في بعض إجازاته
رحمه الله تعالى * (ومن الراحلين إلى المشرق من الأندلس) الإمام القاضي أبو بكر بن
العربي قال ابن سعيد هو الإمام العالم القاضي الشهير فخر المغرب أبو بكر محمد بن عبد الله
ابن العربي المعافري قاضي قضاة كور إشبيلية ذكر الحجاري في المسهب طبق الآفاق
بفوائده وملأ الشام والعراق بأوابده وهو إمام في الأصول والفروع وغير ذلك وله
شعر وقد ركب مع أحد أمراء الملثمين وكان ذلك الأمير صغيرا فهز عاليا رمحا كان في يد
مداعبا له فقال

يهز علي الرمح ظبي مهفهف * لعوب بألباب البرية عابث
فلو كان رمحا واحدا لاتقيته * ولكنه رمح وثان وثالث

وقوله وقد دخل عليه غلام جميل الصورة في لباس خشن

لبس الصوف لكي أنكره * وأتانا شاحبا قد عبسا
قلت إيه قد عرفناك وذا * جل سوء لا يعيب الفرسا
كل شيء أنت فيه حسن * لا يبالي حسن ما لبسا

وزعم بعض أن الأبيات لغيره وإنما تمثل بها والله تعالى أعلم * ومن غريب نظم ابن العربي
وذكر ابن الإمام في سمط الجمان والسعدي في الطرف وكان قد صحب المهدي محمد بن

توصرت بالمشرق وأوصى عليه عبد المؤمن وكان مكرما عنده وحكى انه كتب كتابا فأشار عليه بعض من حضر أن يذر عليه نشارة فقال قف ثم فكر ساعة وقال اكتب

لاتشنه بما تذر عليه * فكفاه هبوب هذا الهواء
فكأن الذى تذر عليه * جدرى بوجنة حسناء

ولقى أبابكر الطرطوشى ومابرح معظما الى أن ولى خطة القضاء ووافق ذلك أن احتاج سور اشبيلية الى بيان جهة منه ولم يكن بها مال متوفر ففرض على الناس جلود ضحاياهم وكان ذلك فى عيد أضحى فأحضروها كارهين ثم اجتمعت العامة العمياء وثارت عليه ونهبوا داره وخرج الى قرطبة وكان فى أحد أيام الجمع قاعدا ينتظر الصلاة فاذا بغلام رومى وضىء قد جاء يخترق الصفوف شمعة فى يده وكتاب معتق فقال

وشمعة تحملها شمعة * يكاد يخفى نورها نارها
لولا نهى نفس نهت غيها * لقبلته وأتت عارها

ولما سمعهما أبو عمران الزاهد قال انه لم يكن يفعل ولكنه هزته أريحية الادب ولو كنت أنا قلت

لولا الحياء وخوف الله يمنعنى * وأن يقال صبا موسى على كبره
اذا لمتعت لحظى فى نواظره * حتى أوفى جفونى الحق من نظره

*(رجع) الى أخبار ابن العربى فنقول انه سمع بالاندلس أباه وخاله أبا القاسم الحسن الهوزنى وأبا عبد الله السرقسطى وبجاية أبا عبد الله الكلاعى وبالمهدية أبا الحسن بن الحداد الخولانى وسمع بالاسكندرية من الانماطى وبمصر من أبى الحسن الخلعى وغيره وبدمشق غير واحد كابى الفتح نصر المقدسى وبمكة أبا عبد الله الحسين الطبرى وابن طلحة وابن بندار وقرأ الادب على التبريزى وعمل رحمه الله تعالى على مدينة اشبيلية سورا بالحجارة والآجر بالنورة من ماله وكان كما فى الصلة حريصا على آدابها وسيرها ثاقب الذهن فى تمييز الصواب فيها ويجمع الى ذلك كله آداب الاخلاق مع حسن المعاشرة ولين الكنف وكثرة الاحتمال وكرم النفس وحسن العهد وثبات الود وذكره ابن بشكوال فى الصلة وقال فيه الامام الحافظ ختام علماء الاندلس رحل الى المشرق مع أبيه مستهل ربيع الاول سنة خمس وثمانين وأربعمائة ودخل الشام والعراق وبغداد وسمع بها من كبار العلماء ثم حج فى سنة تسع وثمانين وعاد الى بغداد ثم صدر منها وقال ابن عساكر خرج من دمشق راجعا الى مقره سنة ٤٩١ ولما غرب صنف عارضة الاحوذى ولقى بمصر والاسكندرية جلة من العلماء ثم عاد الى الاندلس سنة ثلاث وتسعين وقدم اشبيلية بعلم كثير وكان موصوفا بالفضل والكمال وولى القضاء باشبيلية ثم صرف عنه ومولده ليلة يوم الخميس لثمان بقين من شعبان سنة ثمان وستين وأربعمائة وتوفى بعقبة بمقبرة من مدينة فاس ودفن بفاس فى ربيع الآخر سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة انتهى كلام ابن سعيد وغيره ملخصا وما وفى ابن سعيد حافظ الاسلام أبابكر بن العربى حقه فلنعززه بما حضرنا من التعريف به فنقول انه لقى ببغداد الشاشى والامام أبابكر والامام أبا حامد الطوسى الغزالى ونقل عنه انه قال كل من رحل لم يأت بمثل ما أتيت به من العلم الا الباجى أو كلاما

هذا المعنى وكان من أهل التفنن في العلوم متقدماً في المعارف كلها متكلماً على أنواعها
حريصاً على نشرها وقام بأمر القضاء أحمد قيام مع الصرامة في الحق والقوة والشدة على
الظالمين والرفق بالمساكين وقد روى عنه أنه أمر بنقب أشداق زامر ثم صرف عن
القضاء وأقبل على نشر العلم وبثه وقرأ عليه الحافظ ابن بشكوال بإشبيلية وقال ابن الأبار
إن الإمام الزاهد العابد أبا عبد الله بن مجاهد الإشبيلي لازم القاضي ابن العربي نحواً
من ثلاثة أشهر ثم تخلف عنه فسئل عن ذلك فقال كان يدرس وبغلته عند الباب تنتظر
الركوب إلى السلطان انتهى وذكر ابن الزبير فضله وقال إنه رحل مع أبيه أبي محمد
عند انقراض الدولة العبادية وسنه نحو سبعة عشر عاماً إلى أن قال وقيد الحديث وضبط
ما روى واتسع في الرواية وأتقن مسائل الخلاف والأصول والكلام على أئمة هذا الشأن
ومات أبوه رحمه الله تعالى بالإسكندرية أول سنة ثلاث وتسعين فانصرف حينئذ إلى
إشبيلية فسكنها وشرع في التدريس والفقه والأصول وجلس للوعظ والتفسير وصنف في غير
فن تصانيف مليحة حسنة مفيدة وولي القضاء مدة أولها في رجب من سنة ثمان وعشرين فنفع
الله تعالى به لصرامته ونفوذ أحكامه والتزم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حتى
أوذي في ذلك بذهاب كتبه وماله فأحسن الصبر على ذلك كله ثم صرف عن القضاء
وأقبل على نشر العلم وبثه وكان فصيحاً حافظاً أديباً شاعراً كثير الملح مليح المجالس ثم قال قال
القاضي عياض بعد أن وصفه بما ذكرته ولكثرة حديثه وأخباره وغريب حكاياته
ورواياته أكثر الناس الكلام وطعنوا في حديثه وتوفي منصرفه من مراكش من الوجهة
التي توجه فيها مع أهل بلده إلى الحضرة بعد دخول الموحدين مدينة إشبيلية فحبسوا
بمراكش نحو عام ثم سرحوا فأدركته منيته وروى عنه خلق كثير منهم القاضي عياض
وأبو جعفر بن الباذش وجماعة انتهى ملخصاً * ووقع في عبارة ابن الزبير وجماعة أنه دفن
خارج باب الجيسة بفاس والصواب خارج باب المحروق كما أشبعت الكلام على ذلك
في أزهار الرياض وقد زرته مراراً وهو هنالك مقصود للزوار خارج القصبة وقد صرح
بذلك بعض المتقدمين من الذين حضروا وفاته وقال إنه دفن بتربة القائد مظفر خارج القصبة
وصلى عليه صاحبه أبو الحكم بن حجاج رحمه الله تعالى ومن بديع نظمه

أتتني تؤنبني بالبكا * فأهلاً بها وبتأنيبها
تقول وفي نفسها حسرة * أتبكي بعين تراني بها
فقلت إذا استحسنت غيركم * أمرت جفوني بتعذيبها

وقال رحمه الله تعالى دخل على الأديب ابن صارة وبين يدي نار علاها رماد فقلت له قل
في هذه فقال

شابت نواصي النار بعد سوادها * وتسترت عنا بثوب رماد

ثم قال لي أجز فقلت

شابت كما شبنا وزال شبابنا * فكأنما كنا على ميعاد

وقد أخطأ بعض الأدباء في قوله ولكنه رجع وقال ما هو الثاني والثالث له

القذو الحط وقيل غير ذلك ولما ذكر رحمه الله تعالى في كتابه قانون التأويل ركوبه البحر في رحلته من افريقية قال وقد سبق في علم الله تعالى أن يعظم علينا البحر بزوله ويغرقنا في هوله فخرجنا من البحر خروج الميت من القبر وانتهينا بعد خطب طويل الى بيوت بني كعب بن سليم ونحن من السغب على عطب ومن العري في أقبح زي قد قذف البحر زقاق زيت مزقت الحجارة منيئتها ودسمت الادهان وبرها وجلدتها فاحتزمناها أزرا واشتملناها لفافا تمجنا الابصار وتخذلنا الانصار فعطف أميرهم علينا فأوينا اليه فآوانا وأطعمنا الله تعالى على يديه وسقانا وأكرم مثوانا وكسانا بأمر حقير ضعيف وفن من العلم طريف وشرحه انا لما وقفنا على بابه ألفيناه يدير أعواد الشاه فعل السامد اللاه فدنوت منه في تلك الاطمار وسمح لي بيادقته اذ كنت من الصغر في حد يسمح فيه للاغمار ووقفت بازائهم أنظر الى تصرفهم من ورائهم اذ كان علق بنفسي بعض ذلك من بعض القرابة في خلس البطالة مع غلبة الصبوة والجهالة فقلت للبياذقة الامير أعلم من صاحبه فلمحوني شزرا وعظمت في أعينهم بعد أن كنت نزرا وتقدم الى الامير من نقل اليه الكلام فاستدناني فدنوت منه وسألني هل لي بما هم فيه بصر فقلت لي فيه بعض نظر سيبدو لك ويظهر حرك تلك القطعة ففعل كما أشرت وعارضه صاحبه فأمرته أن يحرك أخرى ومازالت الحركات بينهم كذلك تترى حتى هزمهم الامير وانقطع التدبير فقالوا ما أنت بصغير وكان في أثناء تلك الحركات قد ترنم ابن عم الامير منشدا

وأحلى الهوى ماشك في الوصل ربه * وفي الهجر فهو الدهر يرجو ويتقي

فقال لعن الله أبا الطيب أويشك الرب فقلت له في الحال ليس كما ظن صاحبك أيها الامير انما أراد بالرب ههنا الصاحب يقول ألذ الهوى ما كان المحب فيه من الوصال وبلوغ الغرض من الآمال على ريب فهو في وقته كله على رجاء لما يؤمله وتقاة لما يقطع به كما قال

اذا لم يكن في الحب سخط ولا رضا * فأين حلاوات الرسائل والكتب

وأخذنا نضيف الى ذلك من الاغراض في طرفي ابرام وانتقاض ما حرك منهم الى جهتي دواعي الانتهاض وأقبلوا يتعجبون مني ويسألوني كم سني ويستكشفوني عني فنقرت لهم حديثي وذكرت لهم نجيثي وأعلمت الامير بأن أبي معي فاستدعاه وأقمنا الثلاثة الى مثواه فخلع علينا خلعه وأسبل علينا أدمعه وجاء كل خوان بألوان والوان ثم قال بعد المبالغة في وصف ما نالهم من اكرامه فانظر الى هذا العلم الذي هو الى الجهل أقرب مع تلك الصبابة اليسيرة من الادب كيف أنقذا من العطب وهذا الذكر يرشدكم ان عقلتم الى المطلب وسرنا حتى انتهينا الى ديار مصر انتهى مختصرا والزول العجب ونجيث الخبر ما ظهر من قبيحه يقال بدا نجيث القوم اذا ظهر سرهم الذي كانوا يخفونه قالهما الجوهري * وذكر رحمه الله تعالى في رحلته عجائب * منها انه حكى في دخوله بدمشق بيوت بعض الاكابر انه رأى فيه النهر جاريا الى موضع جلوسهم ثم يعود من ناحية أخرى فلم أفهم معنى ذلك حتى جاءت موائد الطعام في النهر المقبل الينا فأخذها الخدم ووضعوها بين ايدينا فلما فرغنا ألقى الخدم الاواني وما معها في النهر الراجع فذهب بها

المنا إلى ما به الحزم من غير أن يشرب القدم تلك الناحية فعلت الشمس وإن هذا العجب أنى عنها وقال في قانون التأويل ورد علينا دانشمند في العراق فنزل رباط أبي سعد بإزاء المدرسة النظامية معرضا عن الدنيا مقبلا على الله تعالى فمشينا إليه وعرضنا أمنيتنا عليه وقلت له أنت ضالتنا التي كنا ننشد وإمامنا الذي به نسترشد فلقينا لقاء المعرفة وشاهدنا منه ما كان فوق الصفة وتحققنا أن الذي نقل إلينا من أن الخبر على الغائب فوق المشاهد ليس على العموم ولو رآه علي بن العباس لما قال

إذا ما مدحت امرأً غائباً * فلا تغل في مدحه واقصد
فإنك إن تغل تغل الظنون * فيه إلى الأمد الأبعد
فيصغر من حيث عظمته * لفضل المغيب على المشهد

انتهى

وكتب ثقات من المطمح في حقه ما صورته علم الأعلام الطاهر الأثواب الباهر الألباب الذي أنسى ذكاء إياس وترك التقليد للقياس وأنتج الفرع من الأصل وغدا في يد الإسلام أمضى من النصل سقى الله تعالى به الأندلس بعدما أجدبت من المعارف ومد عليها منه ظلا وارف وكان أبوه أبو محمد بإشبيلية بدرا في فلكها وصدرا في محفل ملكها واصطفاه معتمد عباد اصطفاء المأمون لابن أبي دواد وولاه الولايات الشريفة وبوأه المراتب المنيفة فلما أقفرت حمص من ملكهم وخلت وألقتهم منها وتخلت رحل به إلى المشرق وحل فيه محل الخائف الفرق فجال في أكنافه وأجال قداح الرجاء في استيفاء الغرض واستئنافه فلم يستردداها ولم يجد كفه بادلاله وراحها فعاد إلى الرواية والسماع وما استفاد من آمال تلك الأطماع وأبو بكر إذ ذاك في ثرى الذكاء قضيب ما دوح وفي روض الشباب زهر ما صوح فألزمه مجالس العلم رائحا وغاديا ولازمه سائقا إليها وحاديا حتى استقرت به مجالسه واطردت له مقاييسه فجد في طلبه واستجد به أبوه متمرن أربه ثم أدركه حمامه ووارته هنالك رجامه وبقي أبو بكر منفردا وللطلب مجردا حتى أصبح في العلم وحيدا ولم يجد عنه رياسة محيدا فكر إلى الأندلس فحلها والنفوس إليه متطلعة ولأنبائه متسمعة فناهيك من حظوة لقي ومن عزة سقي ومن رفعة سما إليها ورقي وحسبك من مفاخر قلدها ومحاسن أثبتها فيها وخلدها وقد أثبت من بديع نظمه ما يهز أعطافا ويرد الأوهام لطافا فمن ذلك قوله يتشوق إلى بغداد ويخاطب فيها أهل الوداد

أمنك سرى والليل يخدع بالفجر * خيال حبيب قد حوى قصب الفخر
جلا ظلم الظلماء مشرق نوره * ولم يخبط الظلماء بالأنجم الزهر
ولم يرض بالأرض البسيطة مسحبا * فسار على الجوزاء إلى فلك يجري
وسحب مثانيا حيث ملاها دهر * فأوطأها قسرا على قمة النسر
فسارت بنا لا بالخيالة دونها * وسارت عنا لا تشتكي ألم الزجر
ومرت على ذيل المجرة ذيلها * فمن ثم يبدو ما هنالك لمن يسري
ومرت على الجوزاء توضع فوقها * فآثارها فيه كسلك الدر

وسارت

وساقت أريج الند من حنة العلا * فدع عنك رملا بالاثيم يستدرى
فما حذرت قيسا ولا خيل عامر * ولا أضمرت خوفا لقاء بنى ضمر
سقى الله مصرا والعراق وأهلها * وبغداد والشامين منهمل القطر انتهى

ومن تآليف الحافظ أبي بكر بن العربي المذكور كتاب القبس في شرح موطأ مالك بن أنس وكتاب ترتيب المسالك في شرح موطأ مالك وكتاب أنوار الفجر وكتاب أحكام القرآن وكتاب عارضة الاحوذي في شرح الترمذي والاحوذي بفتح الهمزة وسكون الحاء المهملة وفتح الواو وكسر الذال المعجمة وآخره ياء مشددة وكتاب مراقي الزلف وكتاب الخلافيات وكتاب نواهي الدواهي وكتاب سراج المريدين وكتاب المشكلين مشكل الكتاب والسنة وكتاب الناسخ والمنسوخ في القرآن وكتاب قانون التأويل وكتاب النيرين في الصحيحين وكتاب سراج المهتدين وكتاب الأمد الاقصى بأسماء الله الحسنى وصفاته العلا وكتاب في الكلام على مشكل حديث السبحات والحجاب وكتاب العقد الاكبر للقلب الاصغر وتبيين الصحيح في تعيين الذبيح وتفصيل التفضيل بين التحميد والتهليل ورسالة الكافي في أن لا دليل على النافي وكتاب السباعيات وكتاب المسلسلات وكتاب التوسط في معرفة صحة الاعتقاد والرد على من خالف السنة من ذوي البدع والالحاد وكتاب شرح غريب الرسالة وكتاب الانصاف في مسائل الخلاف عشرون مجلدا وكتاب حديث الافك وكتاب شرح حديث جابر في الشفاعة وكتاب شرح حديث أم زرع وكتاب ستر العورة وكتاب المحصول في علم الاصول وكتاب أعيان الاعيان وكتاب ملجأة المتفقهين الى معرفة غوامض النحويين وكتاب ترتيب الرحلة وفيه من الفوائد ما لا يوصف * ومن فوائد القاضي أبي بكر بن العربي رحمه الله تعالى قوله قال علماء الحديث ما من رجل يطلب الحديث الا كان على وجهه نضرة لقول النبي صلى الله عليه وسلم نضر الله امرأ سمع مقالتي فوعاها فأداها كما سمعها الحديث قال وهذا دعاء منه عليه السلام لحملة علمه ولا بد بفضل الله تعالى من نيل بركته انتهى والى هذه النضرة أشار أبو العباس العزفي بقوله

أهل الحديث عصابة الحق * فازوا بدعوة سيد الخلق
فوجوههم زهر منضرة * لألاؤها كتألق البرق
ياليتني معهم فيدركني * ما أدركوه بها من السبق انتهى

(ولا بأس أن نذكر هنا بعض فوائد الحافظ أبي بكر بن العربي رحمه الله تعالى) * فمنها قوله في تصريف المحصنات يقال أحصن الرجل فهو محصن بفتح العين في اسم الفاعل وأسهب في الكلام فهو مسهب اذا أطال البحث فيه وألفج فهو ملفج اذا كان عديما لا رابع لها والله تعالى أعلم انتهى * ومنها قوله سمعت الشيخ فخر الاسلام أبا بكر الشاشي وهو ينتصر لمذهب أبي حنيفة في مجلس النظر يقول يقال في اللغة العربية لا تقرب كذا بفتح الراء أي لا تتلبس بالفعل واذا كان بضم الراء كان معناه لا تدن من الموضع وهذا الذي قاله صحيح مسموع انتهى * ومنها شاهدت المائدة بطور زيتا مرارا وأكلت عليها ليلا ونهارا وذكرت الله سبحانه فيها سرا وجهارا وكان ارتفاعها أشف من القامة بنحو

الهرم وكان لها درجان في وجوه وكانت حجرة صلدة لا يؤثر فيها المعاول وكان الناس
يقولون إنه حجر إذ سمع أربابها فرد وجاد به والذي عندي أنها كانت
حجرا في الأصل فقطعت من الأرض تحت لا المائدة النازلة من السماء وكل ما حولها أحجار
فيها وكان ما حولها بحورها فقصور وقد بحثت في ذلك الحجر الملدوت أبوابها فما
وجدت أسماء منها مقطوعة فيها وجهات أما في جوانبها وسوف تجد منها قصورا من الحجر
كما يقرن بالطين والجص فإذا دخلت في قصر من قصورها وجدت الباب وحلق
بوابه حجر مقدار نقل عن قدرهم لم يحمله أهل الأرض للصوقه بالأرض وإذا هبت
الريح وجب عليه التراب لم يمنع إلا بعد صب الماء عليه وإلا كان يرمى حتى يسيل بالتراب
ويفرج مفرج الباب وقد رأيتها في مدة العلة وقد كتبت أخلاقها أكثر الذي رسى ولكني
كتبت في كل حجر أكثر حول الباب بحذاء ما يجري لغيري فيها وقد شرحت أمرها
في كتاب ترتيب الرحلة بأكثر من هذا انتهى * ومنها قوله رحمه الله تعالى فذاكرت
بالمسجد الأقصى شيخنا أبا بكر الفهري الطرطوشي حديث أبي ثعلبة المرفوع إن من
ورائكم أياما للعامل فيها أجر خمسين منكم فقالوا بل منهم فقال بل منكم لأنكم تجدون
على الخير أعوانا وهم لا يجدون عليه أعوانا وتفاوضنا كيف يكون أجر من يأتي من
الأمة أضعاف أجر الصحابة مع أنهم قد أسسوا الإسلام وعضدوا الدين وأقاموا المنار
وافتتحوا الأمصار وحموا البيضة ومهدوا الملة وقد قال صلى الله عليه وسلم في الصحيح
لو أنفق أحدكم كل يوم مثل أحد ذهبا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه فتراجعنا القول
وتحصل ما أوضحناه في شرح الصحيح وخلاصته أن الصحابة كانت لهم أعمال كثيرة
لا يلحقهم فيها أحد ولا يدانيهم فيها بشر وأعمال سواها من فروع الدين يساويهم فيها
في الأجر من أخلص إخلاصهم وخلصها من شوائب البدع والرياء بعدهم والأمر بالمعروف
والنهي عن المنكر باب عظيم هو ابتداء الدين والإسلام وهو انتهاؤه وقد كان قليلا
في ابتداء الإسلام صعب المرام لغلبة الكفار على الحق وفي آخر الزمان أيضا يعود
كذلك لوعد الصادق صلى الله عليه وسلم بفساد الزمان وظهور الفتن وغلبة الباطل
واستيلاء التبديل والتغيير على الحق من الخلق وركوب من يأتي سنن من مضى من أهل
الكتاب كما قال صلى الله عليه وسلم لتركبن سنن من قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع حتى
لو دخلوا جحر ضب خرب لدخلتموه وقال صلى الله عليه وسلم بدأ الإسلام غريبا وسيعود غريبا
كما بدأ فلا بد والله تعالى أعلم بحكم هذا الوعد الصادق أن يرجع الإسلام إلى واحد كما بدأ
من واحد ويضعف الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حتى إذا قام به قائم مع احتواشه
بالمخاوف وباع نفسه من الله تعالى في الدعاء إليه كان له من الأجر أضعاف ما كان لمن كان
متمكنا منه معانا عليه بكثرة الدعاة إلى الله تعالى وذلك قوله لأنكم تجدون على الخير أعوانا
وهم لا يجدون عليه أعوانا حتى ينقطع ذلك انقطاعا باتا لضعف اليقين وقلة الدين كما قال
صلى الله عليه وسلم لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض الله الله يروى برفع الهاء ونصبها
فالرفع على معنى لا يبقى موحد يذكر الله عز وجل والنصب على معنى لا يبقى آمر بمعروف

ولا ناه

ولا ناهي عن منكر يقول أخاف الله وحينئذ يتمنى العاقل الموت كما قال صلى الله عليه وسلم لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيقول يا ليتني كنت مكانه انتهى وأنشد رحمه الله تعالى لبعض الصوفية

امتحن الله بذا خلقه * فالنار والجنة في قبضته
فهجره أعظم من ناره * ووصله أطيب من جنته

(ومن فوائد ابن العربي) رحمه الله تعالى انه قال كنت بمجلس الوزير العادل أبي منصور ابن جهير على رتبة بيناها في كتاب الرحلة للترغيب في الملة فقرأ القارئ تحيتهم يوم يلقونه سلام وكنت في الصف الثاني من الحلقة بظاهر أبي الوفا ابن عقيل امام الحنبلية بمدينة السلام وكان معتزلي الاصول فلما سمعت الآية قلت لصاحب لي كان يجلس على يساري هذه الآية دليل على رؤية الله في الآخرة فان العرب لا تقول لقيت فلانا الا اذا رأته فصرف وجهه أبو الوفاء مسرعا الينا وقال ينتصر لمذهب الاعتزال في أن الله تعالى لا يرى في الآخرة فقد قال الله تعالى فأعقبهم نفاقا في قلوبهم الى يوم يلقونه وعندك أن المنافقين لا يرون الله تعالى في الآخرة وقد شرحنا وجه الآية في المشكلين وتقدير الآية فأعقبهم هو نفاقا في قلوبهم الى يوم يلقونه فيحتمل ضمير يلقونه ان يعود الى ضمير الفاعل في أعقبهم المقدر بقولنا هو ويحتمل أن يعود الى النفاق مجازا على تقدير الجزاء انتهى * ومنها ما نقله عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما لا يقل أحدكم انصرفنا من الصلاة فان قوما قيل فيهم ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم وقد أنبأنا محمد بن عبد الملك القيسي الواعظ انبأنا أبو الفضل الجوهري سماعا منه كنا في جنازة فقال المنذر بها انصرفوا رحمكم الله تعالى فقال لا يقل أحدكم انصرفوا فان الله تعالى قال في قوم ذمهم ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم ولكن قولوا انقلبوا رحمكم الله فان الله تعالى قال في قوم مدحهم فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء انتهى * ومنها وقد ذكر الخلاف في شاهد يوسف ما صورته فاذا قلنا انه القميص فكان يصح من جهة اللغة أن يخبر عن حاله بتقدم مقاله فان لسان الحال أبلغ من لسان المقال في بعض الامور وقد تضيف العرب الكلام الى الجمادات بما تخبر عنه بما عليها من الصفات ومن أحلاه قول بعضهم قال الحائط للوتد لم تشقني قال سل من يدقني ما يتركني ورائي هذا الذي ورائي لكن قوله تعالى بعد ذلك من أهلها في صفة الشاهد يبطل أن يكون القميص وأما من قال انه ابن عمها أو رجل من أصحاب العزيز فانه يحتمل لكن قوله من أهلها يعطي اختصاصها من جهة القرابة انتهى * ومنها قوله انه كان بمدينة السلام امام من الصوفية وأي امام يعرف بابن عطاء فتكلم يوما على يوسف وأخباره حتى ذكر تبرئته مما نسب اليه من مكروه فقام رجل من آخر مجلسه وهو مشحون بالخليقة من كل طائفة فقال يا شيخ يا سيدنا فاذن يوسف هم وما تم فقال نعم لان العناية من ثم فانظروا الى حلاوة العالم والمتعلم وفطنة العامي في سؤاله والعالم في اختصاره واستيفائه ولذا قال علماؤنا الصوفية ان فائدة قوله تعالى ولما بلغ أشده آتيناه حكما وعلما أن الله تعالى أعطاه العلم والحكمة أيام غلبة الشهوة لتكون له سببا للعصمة انتهى * ومنها قوله كنت بمكة مقيما في ذي الحجة

وفؤادى لو درى * أى شعب سلكوا
أتراهم سلموا * أم تراهم هلكوا
حار أرباب الهوى * فى الهوى وارتبكوا

(ومن فوائده) أخبرنى المهرة من السحرة بأرض بابل أنه من كتب آخر آية من كل سورة ويعلقها لم يبلغ اليه سحر ما قال هكذا قالوا والله تعالى أعلم بما نقلوه * وقال رحمه الله تعالى حذقت القرآن ابن تسع سنين ثم ثلاثا لضبط القرآن والعربية والحساب فبلغت ست عشرة وقد قرأت من الاحرف نحوا من عشرة بما يتبعها من اظهار وادغام ونحوه وتدربت فى العربية والشعر واللغة ثم رحل بى أبى الى المشرق ثم ذكر تمام رحلته رحمه الله تعالى *(ومنهم أبو بكر محمد بن أبى عامر بن حجاج الغافقى الاشبيلى)* ومن نظمه بالمدينة المشرفة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام

لم يبق لى سؤل ولا مطلب * مذ صرت جار الحبيب الحبيب
لا أبتغى شيأ سوى قربه * وها انا منه قريب قريب
من غاب عن حضرة محبوبه * فلست عن طيبة ممن يغيب
لا تسأل المغبوط عن حاله * جار كريم ومحل خصيب
العيش والموت هنا طيب * بطيبة لى كل شئ يطيب

وممن روى عنه هذه الابيات الاشرف بن الفاضل * (ومنهم الشيخ الاديب الفاضل البارع جمال الدين أبو عبد الله محمد ابن الفقيه الخطيب أبى الحسن محمد بن أبى عبد الله بن عيسى بن محمد بن على بن ذى النون الانصارى المالقى) من أشياخ ابى حيان لقيه ببلبيس من ديار مصر قال وأنشدنى لشيخه أبى عبد الله الاستجى من قصيدة

ما للنسيم سرى يهب عليلا * أتراه يشكو لوعة وغليلا
جر الذيول على ديار أحبتى * فأتى يجر من السقام ذيولا

وأنشد رحمه الله تعالى لرضوان المخزومى

ان كنت يوسف حسنا * وكنت عبد العزيز
فان يوسف من قبل * كان عبد العزيز

وأخذ ابن ذى النون المذكور عن أبى عبد الله بن صالح وقرأ السبعة على أبى جعفر الفحام وأبى زيد القمارشى وعلى أبى جعفر السهيلى وولد ابن ذى النون سنة ٦١٨ بمالقة ومن تواليفه نفح المسك الاذفر فى مدح المنصور بن المظفر وأزهار الجملة فى الآثار الجليلة واستطلاع البشير ومحض اليقين وروض المتقين *(ومنهم زياد بن عبد الرحمن بن زياد اللخمى المعروف بشبطون)* يكنى أبا عبد الله كان فقيه الاندلس على مذهب مالك وهو أول من أدخل مذهبه الاندلس وكانوا قبله يتفقهون على مذهب الاوزاعى وأراده الامير هشام على القضاء بقرطبة وعزم عليه فهرب فقال هشام ليت الناس كلهم كزياد حتى أكفى الرغبة فى الدنيا وأرسل الى زياد فأمنه حتى رجع الى داره ويحكى انه لما أراده للقضاء كلمه الوزراء فى ذلك عن الامير وعرفوه عزمه عليه فقال لهم أما ان أكرهتمونى على القضاء

ورحى فلانة طالق لا ما لنا باني مقدع في يمينك الذي حكم لا مرحبة به ثم أصلحكم
تقدمون فلما سمع أميره ذلك علم أنه صدقه قال أبو عبد الأمير في معارفه أنه سمع من مالك الموطأ
ويعرف بسماعه سماع زياد وسمع من معاوية بن صالح وكانت أمه ... ورو ى يحيى بن
يحيى الليثي عن زياد هذا الموطأ قبل أن يرحل إلى مالك ثم رحل فأدرك مالكا فرواه عنه
إلا أبوابا في كتاب الاعتكاف شك في سماعها من مالك فأبقى روايته فيها عن زياد عن مالك
وتوفي سنة أربع ومائتين وقيل سنة ١٩٣ وقيل في التي بعدها وقيل سنة ١٩٩ والأول
أولى بالقبول والله تعالى أعلم * (ورحل في ذلك العصر جماعة من أمثال شبطون كقرعوس
ابن العباس وعيسى بن دينار وسعيد بن أبي هند وغيرهم ممن رحل إلى الحج أيام هشام
ابن عبد الرحمن والد الحكم فلما رجعوا وصفوا من فضل مالك وسعة علمه وجلالة قدره
ما عظم به صيته بالأندلس فانتشر يومئذ رأيه وعلمه بالأندلس وكان رائد الجماعة في ذلك
شبطون وهو أول من أدخل موطأ مالك إلى الأندلس مكملا منقحا فأخذه عنه يحيى بن
يحيى كما مر وهو إذ ذاك صدر في طلاب العلم فأشار عليه زياد بالرحيل إلى مالك ما دام حيا
فرحل من فوره وأخذ يحيى عن زياد هذا الكتب العشر المنسوبة إلى يحيى ولقي أيضا
عبد الله بن وهب صاحب مالك وسمع منه موطأه ولقي أيضا عبد الله بن نافع المدني صاحب
مالك وسمع منه ومن الليث بن سعد بمصر ومن سفيان بن عيينة بمكة وقدم يحيى
الأندلس أيام الحكم فانتشر به وبزياد وبعيسى بن دينار علم مالك بالأندلس رضي الله تعالى
عن الجميع وقد قدمنا الحديث الذي رواه زياد بن عبد الرحمن عن مالك فليراجع في الباب
الثالث * (ومنهم شوار بن طارق ولي عبد الرحمن بن معاوية قرطبي حج ودخل البصرة
ولقي الأصمعي وتأدب وانصرف إلى الأندلس وأدب الحكم ومن ولده محمد بن عبد الله
ابن شوار حج أيضا ولقي أبا حاتم بالبصرة والرياشي وغيرهما وأدخل الأندلس علما كثيرا رحم
الله تعالى الجميع * (ومنهم بقي بن مخلد الشهير الذكر صاحب التآليف التي لم يؤلف
مثلها في الإسلام ولد في مائتين وأربعة وعاش سبعين وكان له سماع من الإمام أحمد
ابن حنبل رحمه الله تعالى وسيأتي حاله مما فضل بقي بن مخلد في رسالة ابن حزم في الباب
السابع وبني على وزن علي رحمه الله تعالى ورضي عنه وقد عرف بقي بن مخلد غير
واحد من العلماء كصاحب النبراس وغيره * (ومنهم قاسم بن أصبغ بن محمد بن يوسف
أبو محمد البياني وبيانة من أعمال قرطبة وأصل سلفه من موالي الوليد بن عبد الملك
وسمع المذكور بقرطبة من بقي بن مخلد ومحمد بن وضاح ومطرف بن قيس وأصبغ بن خليل
وابن ميسر وغير واحد ورحل إلى المشرق مع محمد بن عبد الملك بن أيمن ومحمد بن زكريا بن
عبد الأعلى سنة أربع وسبعين ومائتين فسمع بمكة من محمد بن إسماعيل الصائغ وعلي بن عبد
العزيز ودخل العراق فلقي من أهل الكوفة إبراهيم بن أبي العنبس قاضيها وإبراهيم بن
عبد الله القصار وسمع ببغداد من القاضي إسماعيل وأحمد بن زهير بن حرب وغيرهما
كعبد الله ابن الإمام أحمد بن حنبل والحارث بن أبي أسامة وكتب عن ابن أبي خيثمة تاريخه
وسمع من ابن قتيبة كثيرا من كتبه وسمع من المبرد وثعلب وابن الجهم في آخرين وسمع بمصر

من

من محمد بن عبد الله العمري ومطلب بن شعيب وغيرهما وسمع بالقيروان من أحمد بن يزيد المعلم وبكر بن حماد التاهرتي الشاعر وانصرف الى الاندلس بعلم كثير فمال الناس اليه في تاريخ أحمد بن زهير وكتب ابن قتيبة وأخذوا ذلك عنه دون صاحبيه ابن أيمن وابن عبد الاعلى وكان بصيرا بالحديث والرجال نبيلا في النحو والغريب والشعر وكان يشاور في الاحكام وصنف على كتاب السنن لابي داود كتابا في الحديث وسببه انه لما قدم العراق سنة ست وسبعين ومائتين مع صاحبه محمد بن أيمن وجدا أبا داود قد مات قبل وصولهما بيسير فلما فاتهما عمل كل واحد منهما مصنفا في السنن على أبواب كتاب أبي داود وخرّجا الحديث من روايتهما عن شيوخهما وهما مصنفان جليلان ثم اختصر قاسم بن أصبغ كتابه وسماه المجتنى بالنون وابتدأ اختصاره في المحرم سنة أربع وعشرين وثلثمائة وجعله باسم الحكم المستنصر وفيه من الحديث المسند ألفان وأربعمائة وتسعون حديثا في سبعة أجزاء ومولده يوم الاثنين عاشر ذي الحجة سنة سبع وأربعين ومائتين رحمه الله تعالى * وحكى القرطبي في تفسيره عند قوله تعالى قالوا الاعلم لنا الاما علمتنا أن قاسم بن أصبغ قال لما رحلت الى المشرق نزلت القيروان وأخذت عن بكر بن حماد حديث مسدد فقرأت عليه يوما فيه حديث النبي صلى الله عليه وسلم أنه قدم عليه قوم من مضر مجتابي النمار فقال انما هو مجتابي الثمار فقلت انما هو مجتابي النمار هكذا قرأته على كل من لقيته بالاندلس والعراق فقال لي بدخولك العراق تعارضنا وتفخر علينا أو نحو هذا ثم قال لي قم بنا الى ذلك الشيخ كان في المسجد فان له بمثل هذا علما فقمنا اليه وسألناه عن ذلك فقال انما هو مجتابي النمار كما قلت وهم قوم كانوا يلبسون الثياب مشققة جيوبهم أمامهم والنمار جمع نمرة فقال بكر ابن حماد وأخذ بأنفه رغم أنفي للحق وانصرف انتهى وهذه الحكاية دالة على عظيم قدر الرجلين رحمهما الله تعالى ورضي عنهما ونفعنا بهما *(ومنهم قاسم بن ثابت أبو محمد العوفي السرقسطي رحل مع أبيه فسمع بمصر من أحمد بن شعيب النسائي وأحمد بن عمرو البزار وبمكة من عبد الله بن علي بن الجارود ومحمد بن علي الجوهري واعتنى بجمع الحديث واللغة هو وأبوه وأدخلا الى الاندلس علما كثيرا ويقال انهما أول من أدخل كتاب العين الى الاندلس وألف قاسم في شرح الحديث كتابا سماه الدلائل بلغ فيه الغاية في الاتقان ومات قبل اكماله فأكمله ابن ثابت بعده وقد روي عن أبي علي البغدادي انه كان يقول كتبت كتاب الدلائل وما أعلم انه وضع بالاندلس مثله وكان قاسم عالما بالحديث واللغة متقدما في معرفة الحديث والنحو والشعر وكان مع ذلك ورعا ناسكا واريد على القضاء بسرقسطة فأبى ذلك وأراد أبوه اكراهه عليه فسأله أن يتركه ينظر في أمره ثلاثة أيام ويستخير الله تعالى فمات في هذه الثلاثة الايام فيرون انه دعا لنفسه بالموت وكان مجاب الدعوة توفي سنة ٣٠٢ بسرقسطة رحمه الله تعالى *(ومنهم علم الدين أبو محمد المرسي اللورقي وهو قاسم بن أحمد بن موفق بن جعفر العلامة المقرى الاصولي النحوي ولد سنة خمس وسبعين وخمسمائة وقرأ بالروايات قبل الستمائة على أبي جعفر الحصار وأبي عبد الله المرادي وأبي عبد الله بن نوح الغافقي وقدم مصر فقرأ بها على أبي الجود غياث بن فارس

وقدم على التاج بن زيد الكندي، وسمع ببغداد من أبي محمد بن الأخضر وأخذ العربية
عن أبي البقاء ولقي الجزولي بالمغرب وسأله عن مسئلة مشكلة في مقدمته فأجابه وبرع
في العربية وفي علم الكلام والفلسفة وكان يرى ذلك ويحققه وأقرأ بدمشق ودرس وشرح
المفصل في النحو في أربع مجلدات فأجاد وأفاد وشرح الجزولية والشاطبية وكان مليح
الشكل حسن البزة وطالما كان يقرأ عليه جماعة وتوفي سابع رجب سنة ٦٦١ وكان
معمرا مشتغلا بأنواع العلوم وبما يتهم أما الثاني والأول أصح *(ومنهم قاسم
ابن محمد بن قاسم بن محمد بن سيار أبو محمد من أهل قرطبة وجده مولى الوليد بن عبد الملك
رحل فسمع بمصر من محمد بن عبد الله بن عبد الحكم والمزني والبرقي والحارث بن مسكين
ويونس بن عبد الأعلى وإبراهيم بن المنذر وغيرهم ولزم ابن عبد الحكم للتفقه وعني به
وبالمزني* وكان يذهب مذهب الحجة والنظر وترك التقليد ومال إلى مذهب الشافعي
ولما قال له ابنه محمد بن القاسم يا أبت أوصني قال أوصيك بكتاب الله فلا تنس حظك
منه واقرأ منه كل يوم جزأ واجعل ذلك عليك واجبا وإن أردت أن تأخذ من هذا الأمر
بحظ فعليك برأي الشافعي فإني رأيته أقل خطأ قال أبو الوليد بن الفرضي
ولم يكن بالأندلس مثله في حسن النظر والبصر بالحجة وقال أحمد بن خالد ومحمد بن عمر بن لبابة
ما رأينا أفقه من قاسم بن محمد فيمن دخل الأندلس من أهل الرحلة وقال أسلم بن عبد العزيز
سمعت عن ابن عبد الحكم أنه قال لم يقدم علينا من الأندلس أحد أعلم من قاسم بن محمد ولقد
عاتبته في حين انصرافه إلى الأندلس وقلت له أقم عندنا فإنك تعتقد ههنا رياسة ويحتاج
الناس إليك فقال لا بد من الوطن وقال سعيد بن عثمان قال لي أحمد بن صالح الكوفي قدم
علينا من بلادكم رجل يسمى قاسم بن محمد فرأيت رجلا فقيها وألف رحمه الله تعالى كتابا نبيلا
في الرد على ابن مزين وعبد الله بن خالد والعتبي يدل على علمه وله كتاب في خبر الواحد وكان
يلي وثائق الأمير محمد طول أيامه روى عنه ابن لبابة وابن أيمن والأعناقي وابنه محمد بن
قاسم في آخرين توفي سنة ست أو سبع أو ثمان وسبعين ومائتين رحمه الله تعالى
*(ومنهم أبو بكر الغساني وهو محمد بن إبراهيم بن أحمد بن أسود من أهل المرية قدم
إلى مصر ولقي بها أبا بكر الطرطوشي ثم عاد إلى بلده وشوور واستقضي غير سنة مدة
طويلة ثم صرف وسكن مراكش* قال ابن بشكوال توفي بمراكش في رجب سنة
٦٣٦. وقال أبو جعفر بن الزبير له كتاب تفسير القرآن وسمة علم ودين *(ومنهم
أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن حيون من أهل وادي الحجارة قال ابن الفرضي سمع من ابن
وضاح والخشني ونظرائهما بالأندلس ورحل إلى المشرق فتردد هنالك نحوا من خمس عشرة
سنة وسمع بصنعاء ومكة وبغداد ولقي جماعة من أصحاب الإمام أحمد بن حنبل منهم عبد
الله بن أحمد وسمع بمصر من الخفاف النيسابوري وإبراهيم بن موسى وغيرهما وبالمصيصة
والقيروان وكان إماما في الحديث عالما حافظا للعلل بصيرا بالطرق ولم يكن بالأندلس
قبله أبصر بالحديث منه وهو ضابط مع حسن التوجه للحديث صدوق ولم يذهب
مذهب مالك وممن روى عنه ابن أيمن وقاسم بن أصبغ ووهب بن مسرة وأحمد بن سعيد

ابن

ابن حزم وقال خالد بن سعيد لو كان الصدق لسانا لكان ابن حيون وكان يرمى بالتشيع لشئ كان يظهر منه فى حق معاوية رضى الله تعالى عنه وكان شاعرا وتوفى بقرطبة سنة ٣٠٥ سامحه الله تعالى *(ومنهم أبو عبد الله محمد بن ابراهيم بن عبد الله بن ابراهيم بن غالب المالقى" قال ابن نقطة سمع بالاسكندرية من أبى الحسن بن المقدسى" وكان فاضلا رأيت بخطه اجازة بمصر لبعض المصريين فى رجب سنة ٦٠٤ وسمع بمصر شيأ من الخلعيات قال ابن فرتون الفاسى" فى ذيل تاريخ الاندلس روى بمالقة ورحل الى المشرق وحج ولقى أبا الحسن على" بن الفضل المقدسى" وأخذ عنه كتاب تحقيق الجواب عمن أجيز له مافاته من الكتاب من تأليفه ورجع الى الاندلس ثم نهض الى مراكش وتوفى فى أقصى بلاد السوس فى حدود سنة ٦٤٥ رحمه الله تعالى *(ومنهم البقورى" وهو أبو عبد الله محمد بن ابراهيم مصنف كتاب اكمال الاكمال للقاضى عياض على صحيح مسلم وكتب على كتاب الشهاب القرافى" فى الاصول وسمع الحديث وقدم الى مصر ومعه مصحف قرآن حمل بغل بعثه ملك المغرب ليوقف بمكة ثم عاد بعد حجه ومات بمراكش سنة ٧٠٧ وقد زرت قبره مرارا قال الحافظ المقريزى" والبقورى" نسبة الى بقورة بياء آخر الحروف مفتوحة وقاف مشددة وراء مهملة بلد بالاندلس انتهى *(ومنهم أبو عبد الله الانصارى" وهو محمد بن ابراهيم بن موسى بن عبد السلام ويعرف بابن شق الليل من أهل طليطلة سمع بمصر أبا الفرج الصوفى" وأبا القاسم الطحان الحافظ وأبا محمد بن النحاس وأبا القاسم بن ميسرة وأبا الحسن بن بشر وغيرهم وسمع بطليطلة من جماعة وحدث عن جماعة من المحدثين كثيرة * قال ابن بشكوال وكان فقيها عالما واماما متكلما حافظا للفقه والحديث قائما بهما متقنا لهما الا أن المعرفة بالحديث وأسماء رجاله والبصر بمعانيه وعلله كان أغلب عليه وكان مليح الخط جيد الضبط من أهل الرواية والدراية والمشاركة فى العلوم وكان أديبا شاعرا مجيدا لغويا دينا فاضلا كثير التصانيف والكلام على علم الحديث حلو الكلام فى تأليفه وله عناية باصول الديانات واظهار الكرامات توفى بطلبيرة يوم الجمعة منتصف شعبان سنة ٤٥٥ رحمه الله تعالى *(ومنهم الشيخ الامام الشهير الكبير الولى" العارف بالله سيدى أبو عبد الله القرشى" الهاشمى" الاندلسى" شيخ السالكين وامام العارفين وقدوة المحققين قدم مصر بعد ما صحب ببلاد المغرب جماعة من أعلام الزهاد وكان يقول صحبت ستمائة شيخ اقتديت منهم بأربعة الشيخ أبو الربيع والشيخ أبو الحسن بن طريف والشيخ أبو زيد القرطبى" والشيخ أبو العباس الجوزى" وسلك على يده جماعة منهم الشيخ أبو العباس القسطلانى" فانه أخذ عنه كلامه وجمعه فى جزء وخرج سيدى أبو عبد الله القرشى" من مصر الى بيت المقدس فأقام به الى حين وفاته عشية الخميس السادس من ذى الحجة سنة ٥٩٩ عن خمس وخمسين سنة ودفن هنالك وقبره ظاهر يقصد للزيارة زرته أول قدماتى على بيت المقدس سنه ١٠٣٨ ومن كلامه من لم يدخل فى الامور بلطف الادب لم يدرك مطلوبه منها وقوله العاقل يأخذ ماصفا ويدع التكلف فانه تعالى يقول وان يردك بخير فلا راد لفضله وقال من لم يراع حقوق الاخوان بترك حقوقه

الجميع ونقله اليافعي كما ذكر رحمه الله تعالى الا أنه لم يقل فيه باودود واتفقا فيما عدا ذلك والله سبحانه أعلم * وقال ابن خلكان في حقه محمد بن أحمد بن ابراهيم القرشي الهاشمي العبد الصالح الزاهد من أهل الجزيرة الخضراء كانت له كرامات ظاهرة ورأيت أهل مصر يحكون عنه أشياء خارقة ولقيت جماعة ممن صحبه وكل منهم يثني عليه من بركته وذكروا عنه أنه وعد جماعته الذين صحبوه مواعيد من الولايات والمناصب العلية وأنها صحت كلها وكان من السادات الاكابر والطراز الاول وهو مغربي صحب بالمغرب اعلام الزهاد وانتفع بهم فلما وصل الى مصر انتفع به من صحبه أو شاهده ثم سافر الى الشام قاصدا زيارة بيت المقدس وأقام بها الى ان مات وصلى عليه بالمسجد الاقصى وهو ابن خمس وخمسين سنة وقبره ظاهر للزيارة والتبرك * والجزيرة الخضراء في بلاد الاندلس مدينة تقابل سبتة من بر العدوة ومن جملة وصاياه لاصحابه سيروا الى الله تعالى عرجا ومكاسير فان انتظار الصحة بطالة انتهى ببعض اختصار *(ومنهم أبو عبد الله محمد بن علي بن الحسين بن أبي الحسين القرطبي سمع من قاسم بن أصبغ وغيره وقدم مصر فسمع بها من ابن الورد وابن أبي الموال والماوردي وابن السكن في آخرين وسمع بالرملة وبيت المقدس وكان ضابطا بصيرا بالنحو واللغة فصيحا بليغا طويل اللسان ولي الشرطة ببلاد المغرب توفي سنة ٣٧٣ *(ومنهم أبو بكر الجباني محمد بن علي بن خلف التجيبي الاشبيلي الحافظ الكاتب روى عن ابن الجد وغيره ومر بمصر حاجا فلقي بمكة أبا حفص الميانشي وأبا الحسن المكناسي ولقي بالاسكندرية السلفي وابن عوف وغيرهما وكان مدرسا للفقه فقيها جليلا متقدما فيه عارفا فاضلا سنيا توفي بعد امتحان من منصور ابن عبد المؤمن سنة ٥٩٦ وذلك انه وشي به للمنصور أيام عزم على ترك التقليد والعمل بالحديث *(ومنهم أبو بكر الاندلسي الجياني محمد بن علي بن عبد الله بن محمد بن ياسر الانصاري سافر من بلده ودخل ديار مصر والشام والعراق وخراسان وماوراء النهر ولقي أئمتها وتفقه ببخارى حتى تمهر في المذهب والخلاف والجدل ثم اشتغل بالحديث وسماعه وحفظه وحصل منه كثيرا ثم سكن بلخ مدة وعاد الى بغداد ودخلها سنة ٥٥٩ وتوجه الى مكة فحج ورجع الى الشام واستوطن حلب الى ان توفي بها ووقف كتبه وكان متدينا صدوقا حافظا عالما بالحديث وفيه فضل ولد بجيان سنة ٤٩٢ ومات بحلب سنة ٥٦٣ *(ومنهم أبو عبد الله محمد بن علي التجيبي الدهان الغرناطي كان حسن السمت بارع الخط والخلق والخلق رحل الى الحج وجال في البلاد في حدود سنة ست وستمائة فأخذ بمكة والشام ومصر والاسكندرية عن جماعة كثيرة وكان عدلا فاضلا على خير ودين وكان متحرفا بالتجارة بغرناطة ثم خرج منها آخر عمره فمات بقوص بعد ما حج سنة ٦٥٠ وصدر من مكة سنة ٦٥٣ فمات قبل منتصف السنة رحمه الله تعالى *(ومنهم أبو عمر محمد بن علي بن محمد بن أبي الربيع القرشي العثماني الاندلسي الاشبيلي النحوي ولد سنة ٦١٧ باشبيلية وقدم مصر فسمع الكثير بها وبدمشق وغيرها وكان اماما عالما نحويا فاضلا كتب عنه أبو محمد الدمياطي والقطب عبد الكريم وناهيك بهما علما *(ومنهم أبو بكر بن عبد الله محمد بن علي

ابن محمد بن علي بن هذيل البلنسي رحل وسمع من السلفي وغيره قال أبو الربيع ابن سالم هو شيخ صدوق ضابط سمع أباه وأبا الوليد بن الدباغ وأبا الحسن بن طارق بن موسى ابن يعيش وجماعة وأخذ بمكة سنة ٥٣٩ عن أبي علي الحسن المقري ووصل الى الاندلس سنة ٥٤٦ فأخذ عنه بها وسمع منه جماعة قال ابن الابار كان غاية في الصلاح وأعمال البر والورع توفي بمصر قريبا من سنة ٥٤٨ وولد سنة سبع أو تسع عشر وخمسمائة وله حظ من علم التعبير والله أعلم رحمه الله تعالى * (ومنهم أبو عبد الله وقال أبو سلمة محمد بن علي الشاري الغرناطي الانصاري ناصر الدين روى عن الحافظ أبي جعفر بن الزبير وغيره وقدم الى القاهرة واستوطنها بعد الحج حتى مات بها سنة ٧٢٣ وكان عارفا بعلم الحديث وكتب منه كثيرا ومال الى مذهب الظاهرية واجتمع به جماعة من طلبة الحديث وكان ثقة رحمه الله تعالى * (ومنهم أبو عبد الله محمد بن علي بن يحيى ابن علي الشاطبي الاندلسي الغرناطي قدم مصر حاجا وأقام بمكة والمدينة وكان اماما فاضلا عالما متفننا في علوم شتى فقه وأصول ونحو ولغة وقراآت ونظم ونثر وله معرفة بمذهب مالك ونقل كثيرا من مذهب الشافعي وسمع الموطأ بتونس من أبي محمد بن هرون القرطبي وولد بغرناطة سنة ٦٧١ وتوفي سنة ٧١٥ ومن شعره رضي الله تعالى عنه

اذا كنت جار النبي وصحبه * وكنت مقيما في غنى وعلى قرب
فما عذري ان فاتني زيد عندهم * وحسبي الذي أوتيته منه حسبي

وقوله

نزل الكرام على الكرام جوار * واني نزلت عليكم وجار
حاشا ندير الدوائر بالكرم * ومن حل مثوى كرم يجار

* (ومنهم أبو عبد الله محمد بن عمار الكلاعي الميورقي قدم مصر وروى عن ابن الوليد بها وكان عالما وله قصيدة طويلة فيها حكم ومواعظ توفي اليه بها فيها قوله

وطاعة من اليه الامر فالزم * وان جاروا وكانوا مسلمينا
فان كفروا ككفر بني عبيد * فلا تسكن ديار الكافرينا

واسمها النهى وسمع بن المذكور الحافظ القاضي أبو بكر بن العربي في رحلته سنة ٤٨٥ ووصفه بالعلم والعبادة * (ومنهم) أبو عبد الله محمد بن عمر بن يوسف بن الفخار القرطبي الحافظ روى عن عيسى الليثي وابن عون الله وأبي جعفر التميمي وأبي محمد الباجي وقدم مصر وحج وجاور بالمدينة المنورة على ساكنها افضل الصلاة والسلام وأفتى بها وأقر بذلك على أصحابه وقال لهم وروى عن نسبة الرسول صلى الله عليه وسلم دار مالك بن أنس ومكان منبرا وولي جماعة من العلماء وأخذ عنهم وكان من أهل العلم والذكاء والحفظ والفهم عارفا بمذاهب الائمة وأقوال العلماء ذاكرا للروايات يحفظ المدونة والنوادر لابن أبي زيد ويوردهما من صدره دون كتاب قال ابن حيان وخرج من الاندلس توفي النبيه المشاور الحافظ المشهور الرواية الطويل الهجرة في طلب العلم الناسك المتقشف بمدينة بلنسية في ربيع الاول سنة ٤١٧ لعشر خلون من الشهر وكان المحمل في جنازته

عظيما وعاين الناس فيها آية من ظهور أشياء الطف بها بتجلات الجمع رافة دوق النعش لم تفارق نعشه الى أن ووري فتفرقت ومكث مدة بلنسية مطاعا عظيم القدر عند السلطان والعامة وذكر طاهر بن عبد الرحمن حديث الطير وكذا ذكر الحسن بن محمد القيسي خبر الطير قال وكان سنه نحو الثمانين سنة وكان مجاب الدعوة وظهرت في دعوته الاجابة وقال أبو عمرو الداني ان وفاته يوم السبت لسبع خلون من شهر ربيع الاول سنة تسع عشرة ودفن يوم الاحد بمدينة بلنسية وبلغ نحو ست وسبعين سنة وهو آخر الفقهاء الحفاظ الراسخين العالمين بالكتاب والسنة بالاندلس رحمه الله تعالى *(ومنهم أبو عبد الله محمد بن عمروس القرطبي سمع على ابن مفرج وغيره من شيوخ قرطبة وقدم مصر فاخذ بها عن ابن المهندس وغيره وحج ودخل العراق وسمع من أبي بكر الابهري والدارقطني وجماعة وعاد الى الاندلس وشهر بالعلم والمال وولي الاحباس بقرطبة حدث عنه أبو عمر بن عبد البر وغيره ومات في جمادى الآخرة سنة أربعمائة رحمه الله تعالى *(ومنهم أبو عبد الله محمد بن عيسى بن عبد الواحد بن نجيح المعافري المعروف بالاعشى القرطبي رحل سنة ١٧٩ فسمع سفيان بن عيينة ووكيع بن الجراح ويحيى بن سعيد القطان وعبد الله بن وهب وجماعة وكان الغالب عليه الحديث ورواية الآثار وكان صالحا عاقلا سريا جوادا يذهب الى مذهب أهل العراق وتوفي سنة ٢٢١ ذكره ابن يونس وغيره *(ومنهم أبو عبد الله محمد بن فطيس الغافقي الالبيري الزاهد قال الحميدي في حقه هو من أهل الحديث والحفظ والفهم والبحث عن الرجال وله رحلة سمع فيها من محمد بن عبد الله بن عبد الحكم ومن ابن وهب ابن أخي عبد الله بن وهب وغيرهما وروى بالاندلس عن جماعة منهم بقي بن مخلد وابن وضاح وسمع بمكة وغيرها من مائة شيخ قال ابن الفرضي كان شيخا نبيلا ضابطا لكنه ثقة في روايته صدوقا في حديثه وكانت الرحلة اليه بالبيرة وبها مات في شوال سنة ٣١٩ وهو ابن تسعين سنة رحمه الله تعالى *(ومنهم أبو عبد الله محمد بن قاسم بن محمد بن قاسم بن محمد بن سيار القرطبي من موالي بني أمية سمع من أبيه ومن بقي بن مخلد وغيره ورحل سنة ٢٩٤ فسمع بمصر من النسائي ومن أحمد بن حماد زغبة وسمع بمكة والبصرة والكوفة وبغداد ودمياط والاسكندرية والقيروان من مائة وستين رجلا قال أبو محمد الباجي لم أدرك بقرطبة أكثر حديثا منه وكان عالما بالفقه متقدما في علم الوثائق رأسا فيها وكان مشاورا سمع من الناس كثيرا وكان ثقة صدوقا وغزا سنة ٣٢٧ ومات ثالث الحجة منها ومولده سنة ٢٦٣ وقيل توفي سنة ٣٢٨ قاله ابن يونس والحميدي *(ومنهم أبو عبد الله محمد بن قاسم القرشي الفهري عرف بابن رمان الغرناطي قرأ على أبي جعفر بن الزبير بها وقدم الى القاهرة سنة ٧٢٢ ومات بالمدينة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام سنة ٧٢٩ ومن شعره قوله

وديتم خبروني كيف صحت * فريضة هالك من غير مين

لزيد زوجة ولها ابن أم * فمات عنهما لاغير ذين

فحاز البعل ما تركته ارثا * وولي غيره صفر اليدين

أبي القاسم بن غالب وسمع عليه وعلى أبي القاسم بن بشكوال وغيره وسمع بمكة وحدث بمصر وعاد الى الاندلس فمات بقرطبة سنة ٦٣٣ وكان مشهورا بالصلاح معروفا باجابة الدعاء ورعا نقة زاهدا فاضلا رحمه الله تعالى * (ومنهم ابو عبد الله محمد بن محمد بن خيرون وقيل محمد بن عمر بن خيرون أندلسي سكن القيروان رحل الى المشرق وأخذ القراآت بمصر عن محمد بن سعيد الانماطي وغيره كعبد الله بن رجاء وأبي الحسن بن اسمعيل بن يعقوب الازرق المدني ودخل العراق وسمع به من أصحاب على بن المدني ويحيي بن معين وعاد الى القيروان وسمع بها وبقرطبة وقدم بقراءة نافع على اهل افريقية وكان الغالب على قراءتهم حرف حمزة ولم يكن يقرأ بحرف نافع الا الخواص حتى قدم بها فاجتمع اليه الناس ورحل اليه أهل القيروان من الآفاق وكان يأخذ أخذا شديدا على مذهب المشيخة من أصحاب ورش وتوفي بشعبان سنة ٣٠٦ وكان رجلا صالحا فاضلا كريم الاخلاق اماما في القراآت مشهورا بذلك ثقة مأمونا واحد أهل زمانه وأثبتهم في علم القرآن رحمه الله تعالى * (ومنهم ضياء الدين أبو جعفر محمد بن محمد بن صابر بن بندار القيسي الاندلسي المالقي ولد بمالقة سنة ٦٢٥ وسمع الكثير وقدم القاهرة حاجا فسمع بها وبدمشق وكتب بخطه كثيرا وكان سريع الكتابة سريع القراءة كثير الفوائد دينا خيرا فاضلا له مشاركة جيدة في عدة علوم توفي شابا بالقاهرة سنة ٦٦٢ رحمه الله تعالى * (ومنهم أبو بكر محمد الزهري المعروف بابن محرز البلنسي ولد بها سنة ٥٢٩ وقدم مصر فسمع ابن الفضل وغيره وروى عنه جماعة وكان أحد رجال الكمال علما وادراكا وفصاحة وحفظا للفقه وتفننا في العلوم ومتانة في الادب حافظا اللغة والغريب وله شعر رائق ودين متين وأخذ الناس عنه ببلده وبمرسية واشبيلية ومالقة وغرناطة في اجتيازه عليها وبغيرها من البلاد وعلا صيته وعرف بالدين والعلم والفضل وكان أبو الخطاب يثني على علمه ودينه توفي ببجاية سنة ٦٥٥ عن سن عالية رحمه الله تعالى * (ومن الراحلين من الاندلس الى المشرق) * القاضي أبو الوليد الباجي صاحب التصانيف المشهورة وقال ابن ماكولا في حقه انه فقيه متكلم أديب شاعر سمع بالعراق ودرس وصنف الى أن مات وكان جليلا رفيع القدر والخطر وقال غير واحد انه ولد سنة ٤٠٣ وارتحل سنة ٤٢٦ وجاور ثلاثة أعوام ملازما لابي ذر الحافظ يخدمه ورحل الى بغداد ودمشق ولقي في رحلته غير واحد وتفقه بالقاضي أبي الطيب الطبري وغيره وقال أبو علي بن سكرة مارأيت مثل أبي الوليد الباجي ومارأيت أحدا على هيئته وسمته وتوقير مجلسه ولما كنت ببغداد قدم ولده أبو القاسم فسرت معه الى شيخنا قاضي القضاة الشاشي فقلت له ادام الله تعالى عزك هذا ابن شيخ الاندلس فقال لعله ابن الباجي فقلت نعم فأقبل عليه قال القاضي عياض وكثرت القالة في القاضي أبي الوليد لمداخلته الرؤساء وولي قضاء أماكن تصغر عن قدره وكان يبعث الى تلك النواحي خلفاءه وربما أتاها المرة ونحوها وكان في أول أمره مقلا حتى احتاج الى القصد بشعره واستأجر نفسه مدة مقامه ببغداد فيما سمعته مستفيضا لحراسة درب وقد جمع ابنه شعره قال ولما قدم الاندلس وجد لكلام ابن حزم طلاوة الا أنه

كان سارحاً عن المذهب لم يكن بالأندلس من ينفق له إلا أنه قصرت ألسنة الفقهاء عن مجادلته وكلامه واتفقوا على رأيه حتى جمعه من أهل الباطل وحل عن رسوم سوريه ورأس فيها واتسعت أحوالها بالتقدم أبو الوليد كان في ذلك يقدم إليه ويناظر ويشهر باطله وله معه مجالس كثيرة وتكلم أبو الوليد في حديث الكتابة يوم الحديبية الذي في البخاري فقال بظاهر لفظه وأنكر عليه الفقيه أبو بكر الصائغ وكفره بإجازة الكتب على الرسول الأمي صلى الله عليه وسلم وأنه تكذيب للقرآن فتكلم في ذلك من لم يفهم الكلام حتى أطلقوا عليه الفتنة وقبحوا عليه عند العامة ما أتى به وتكلم به خطباؤهم في الجمع وقال شاعرهم

برئت ممن شرى دنيا بآخرة • وقال إن رسول الله قد كتبا

فصنف أبو الوليد رحمه الله تعالى رسالة بين فيها أن ذلك غير قادح في المعجزة فرجع بها جماعة إذ لا يبعد أن يكتب بعد ما خرج عن كونه أمياً لا يسمى كاتباً وجماعة من الولاة أقدموا على كتابة العلامة وهم أميون والحكم للغالب لا للصور النادر وقد قال عليه الصلاة والسلام إنا أمة أمية أي أكثرهم كذلك لندور الكتابة في الصحابة وقال تعالى هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم انتهى وقصة الباجي ذكرها غير واحد قال إن أبا الوليد الباجي نشأ وهمته في العلم وأنه بدأ بالأدب فبرز في معانيه وحمل الشعر ونال به من كل الرغائب ثم رحل فنال بلدا الأوحد لا تذكر ثم وان ميهوى نطعه وننره فمال إلى علم الديانة فمشى عليها وبنى على أساسها حتى صار أكبر من العلماء يقتبسون منه ويأخذون بالأخذ عنه ثم كثر واستمسك في طريقته فجلب بإمام فيها عوا من عام قال ويحكى عن ابن حزم أنه كان يقول لو لم يكن لأصحاب المذهب المالكي بعد عبد الوهاب إلا مثل أبي الوليد الباجي لكفاهم وصنف أبو الوليد كتباً كثيرة منها كتاب التسديد إلى معرفة التوحيد وكتاب سنن المنهاج وترتيب الحجاج وكتاب أحكام الفصول في أحكام الأصول وكتاب التعديل والتجريح لمن خرج عنه البخاري في الصحيح وكتاب شرح الموطأ وهو تصانيف عدة منها الاستيفاء ثم انتقى منها فوائد سماها المنتقى في سبع مجلدات وهو أحسن كتاب ألف في مذهب مالك لأنه شرح فيه أحاديث الموطأ وفرع عليها تفريعاً حسناً وأورد فيه مستخرجا الأعمال وقال بعضهم إنه صنف كتاب المعاني في شرح الموطأ جاء في عشرين مجلدا عديم النظير وكان أصل تصنيف كتابا كبيراً جامعاً بلغ فيه الغاية سماه الاستيفاء وله كتاب الإيماء في الفقه خمس مجلدات انتهى ومن تصانيفه مختصر المختصر في مسائل المدونة وله كتاب اختلاف الموطآت وكتاب الإشارة في أصول الفقه وكتاب الحدود وكتاب سنن الصالحين وكتاب التفسير لم يتمه وكتاب شرح المنهاج وكتاب التبيين لسبيل المهتدين في اختيار طريق المهتدين وكتاب السراج في الخلاف ولم يتم وغير ذلك ورجع الباجي رحمه الله تعالى أربع عشرة سنة وحج أربعة أعوام ملازماً لأبي ذر بن أحمد الهروي وكان يسافر معه إلى السراة لأن أبا ذر تزوج من العرب وسكن بها وأبو ذر المذكور هو عبد بن أحمد بن محمد بن عبد الله بن غفير الأنصاري المالكي ويعرف بابن السماك جمع كثيراً وشرحهم وبلغ دمرو

والعصر

والبصرة وبغداد ودمشق ومصر وجاور بمكة وألف معجم الشيوخ وعلى الصحيح وصنف التصانيف قال الخطيب قدم أبو ذر بغداد وأنا غائب فحدث بها ثم حج وجاور ثم تزوج في العرب وسكن السروات وكان يحج كل عام ويحدث ثم يرجع وكان ثقة ضابطا دينا وقال الحسن بن بقي المالقي حدثني شيخ قال قيل لابي ذر من أين تمذهبت بمذهب مالك ورأي الاشعري مع أنك هروي فقال قدمت بغداد وكنت ماشيا مع الدارقطني فلقينا أبا بكر ابن الطيب فالتزمه الدارقطني وقبل وجهه وعينيه فلما افترقنا قلت من هذا قال هذا امام المسلمين والذاب عن الدين القاضي أبو بكر بن الطيب فمن ذلك الوقت تكررت اليه وتمذهبت بمذهبه انتهى قلت هذا صريح في أن القاضي أبا بكر الباقلاني مالكي وهو الذي جزم به غير واحد ولذا ذكره عياض في المدارك في جملة المالكية وكذلك شيخ السنة الامام أبو الحسن الاشعري مالكي المذهب فيما ذكره غير واحد من الائمة وذكر بعض الشافعية انهما شافعيان والله تعالى أعلم * وقال عبد الغافر في تاريخ نيسابور كان أبو ذر زاهدا ورعا عالما سخيا لا يدخر شيأ وصار كبير مشيخة الحرم مشارا اليه في التصوف خرج على الصحيح تخريجا حسنا وكان حافظا كثير الشيوخ توفي سنة ٤٣٥ وقال أبو علي بن سكرة توفي عقب شوال سنة ٤٣٤ وقال الخطيب في ذي القعدة من سنة أربع وثلاثين رحمه الله تعالى وأكثر نسخ البخاري الصحيحة بالمغرب اما من رواية الباجي عن أبي ذر عبد بن أحمد الهروي المذكور واما من رواية أبي علي الصدفي الشهير المعروف بابن سكرة بسنده واعلم أن هراة المنسوب اليها الحافظ أبو ذر ليست بهراة التي وراء النهر بطبرة بلخ وانما هي هراة بني شيبانة بالحجاز وبها كان سكنى أبي ذر والله تعالى أعلم * (رجع الى القاضي أبي الوليد الباجي رحمه الله تعالى) ثم انه أعني الباجي قدم بغداد وأقام بها ثلاثة أعوام يدرس الفقه ويقرأ الحديث فلقي بها عدة من العلماء كأبي الطيب الطبري والامام الشهير أبي اسحق الشيرازي والصيمري وابن عمروس المالكي وأقام بالموصل سنة مع أبي جعفر السمناني يأخذ عنه علم الكلام فبرع في الحديث وعلله ورجاله وفي الفقه وغوامضه وخلافه وفي الكلام ومضايقه وتدبج مع الحافظ أبي بكر الخطيب البغدادي بحيث روى كل واحد منهما عن الآخر رضي الله تعالى عنهما وسمع بهما ورجع الى الاندلس بعد ثلاث عشرة سنة بعلم جم حصله مع الفقر والتعفف ومما يفتخر به انه روى عنه حافظا المغرب والمشرق أبو عمر بن عبد البر والخطيب أبو بكر بن ثابت البغدادي وناهيك بهما وهما أسن منه وأكبر وأبو عبد الله الحميدي وعلي بن عبد الله الصقلي وأحمد بن علي ابن غزلون وأبو بكر الطرطوشي وأبو علي بن الحسين السبتي وأبو بحر سفيان بن العاصي وممن روى عنه ابنه أبو القاسم أحمد وكان لما رجع الى الاندلس فشا علمه وتهيأت الدنيا له وعظم جاهه وأجزلت له الصلات فمات عن مال وافر وترسل للملوك وولي القضاء بعدة مواضع رحمه الله تعالى * وأما ما تقدم عن القاضي أبي الوليد الباجي من اجراء حديث الكتابة على ظاهره فهو قول بعض والصواب خلافه قال القاضي أبو الفضل عياض حدثنا محمد بن علي المعروف بابن الصيقل الشاطبي من لفظه قال حدثني أبو الحسن

ابن منصور قال كان أبو محمد بن أحمد بن الصباح الهواري من أهل جزيرة شقر يعيش لازم الباجي وبه تفقه وكان يميل الى مذهب الباجي في إجراء سائر النبي صلى الله عليه وسلم بيده في حديث المقاضاة في الحديبية على ما جاء في ظاهر بعض رواياته ويتعصب له وكنت أنكر ذلك عليه فلما كان بعد رجوعنا أتاني زائرا على عادته وأعلمني أن رجلا من إخوانه كان يرى في النوم أنه بالمدينة وأنه يدخل المسجد فيرى قبر النبي صلى الله عليه وسلم أمامه فيعتريه شعر وخشية عظيمة ثم رأى شيخا يعدو لا يستقر فيعتريه من ذلك فزع عظيم وسألني عن عبارة رؤياه فقلت أخشى على صاحب هذا المنام أن يضعف رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد تعظيمه أو يجهله ما ليس له بأصل أو أولئك ممن يرى عليه ما لا يليق به فقال له من أين قلت هذا قلت من قول الله عز وجل تكاد السموات يتفطرن منه الى قوله تعالى وإذا قال الى من زيد له باسم الذي وأقبل يقبل رأسي ويرعي ويبكي مرة ويضحك أخرى ثم قال لي أنا صاحب الرؤيا وأسمع ما هاتيه لذلك يعجبني أرقب قال إنما أرى في ذلك الفزع العظيم كنت أقول والله ما هذا الا الى أقول وأعتقد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كتب وكنت أبكي وأقول أنا تاب رسول الله وأكثر ذلك مرارا فأرى الفزع قد عاد الى هيأته أولا وسكن فاستيقظت ثم قال لي وأنا أشهد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما كتب قط حرفا وعليه ألقى الله تعالى فقلت الحمد لله الذي أراك البرهان فاشكره كثيرا انتهى وقال ابن الابار في هذه الحكاية أوان سمعتها من أبي بكر عبد الرحمن عن أبي جعفر أحمد بن عبد الرحمن بن فروزا وعلقه عن القاضي أبي جعفر أحمد بن عبد الرحمن بن حدير عن أبي الحسن طاهر بن منصور قال كان أبو محمد الى آخرها وهي أتم من هذه انتهى *(رجع الى الباجي ذكر أبو العرب عبد الوهاب السالمي يسند الى القاضي أبي الوليد الباجي أنه كان يقول وقد ذكرت له صحبة السلطان لولا السلطان لنقلني الذر من الظل الى الشمس أو ما هذا معنا انتهى *(ومن فوائد الباجي أنه حكى أن الطلبة كانوا يأوون على أبي علي البغدادي وأنهم أنه كان يوما طيرا وقال فلم يحضر من الطلبة سوى واحد فلما رأى الشيخ حرصه على الاشتغال وإتيانه في تلك الحال أنشده

دببت للمجد والساعون قد بلغوا * حد النفوس وألقوا دونه الأزرا

وكابدوا المجد حتى مل أكثرهم * وعانق المجد من وافى ومن صبرا

لا تحسب المجد تمرا أنت آكله * لن تبلغ المجد حتى تلعق الصبرا انتهى

وروي عن القاضي أبي الوليد الباجي رحمه الله تعالى الخطيب البغدادي قوله رحمه الله تعالى

إذا كنت أعلم علما يقينا * بأن جميع حياتي كساعه

فلم لا أكون ضنينا بها * وأجعلها في صلاح وطاعه

وقد ذكرنا هنا ما ذكرنا من كلام الفتح لكونها أشملنا كلامه ملخصه رحمه الله تعالى ورضي عنه وقال في القلائد في حق الباجي رحمه الله تعالى ما صورته بدر العلوم اللائح وقطرها الغادي الرائح وثبيرها الذي لا يزحم ومنيرها الذي يجلى به ليلها الأدهم كان

امام الاندلس الذى تقتبس أنواره وتنتجع نجوده وأغواره رحل الى المشرق فعكف على الطلب ساهرا وقطف من العلم أزاهرا وتفنن فى افتنانه وثنى اليه عنان اعتنائه حتى غدا مملوء الوطاب وعاد بلح طلبه الى الارطاب فكر الى الاندلس بحرا لا تخاض لججه وبحرا الايلمس منهجه فتهادته الدول وتلقته الخيل والخول وانتقل من محجر الى ناظر وتبدل من يانع بناضر ثم استدعاه المقتدر بالله فسار اليه مرتاحا وبدا بأفقه ملتاحا وهنالك ظهرت تواليفه وأوضاعه وبدا وخد فى سبل الهدى وايضاعه وكان المقتدر يباهى بانحياشه الى سلطانه وايثاره لحضرته باستيطانه ويحتفل فيما يرتبه له ويجريه ويبرله فى مكانه متى كان يوافيه وكان له نظم يوقف على ذاته ولا يصرفه فى رفث القول وبذائه (فمن ذلك قوله فى معنى الزهد

اذا كنت أعلم علم اليقين * بان جميع حياتى كساعه

فلم لا أكون ضنينا بها * وأجعلها فى صلاح وطاعه

وله يرثى ابنيه وماتا مغتربين وغربا كوكبين وكانا ناظرى الدهر وساحرى النظم والنثر

رعى الله قبرين استكانا ببلدة * هما اسكناها فى السواد من القلب

لئن غيبا عن ناظرى وتبوآ * فؤادى لقد زاد التباعد فى القرب

يقر بعينى أن أزور ثراهما * وألصق مكنون الترائب بالترب

وأبكى وأبكى ساكنيها لعلنى * سأنجد من صحب وأسعد من سحب

فما ساعدت ورق الحمام أخا أسى * ولا روحت ريح الصبا عن اخى كرب

ولا استعذبت عيناى بعدهما كرى * ولا ظمئت نفسى الى البارد العذب

أحن ويثنى اليأس نفسى عن الاسى * كما اضطر محمول على المركب الصعب

وله يرثى ابنه محمدا

أمحمدا ان كنت بعدك صابرا * صبر السليم لما به لا يسلم

ورزئت قبلك بالنبى محمد * ولرزؤه أدهى لدى وأعظم

فلقد علمت بأنى بك لاحق * من بعد ظنى أننى متقدم

لله ذكر لا يزال بخاطرى * متصرف فى صبره متحكم

فاذا نظرت فشخصه متخيل * واذا أصخت فصوته متوهم

وبكل أرض لى من اجلك لوعة * وبكل قبر وقفة وتلوم

فاذا دعوت سواك حاد عن اسمه * ودعاك باسمك معول بك مغرم

حكم الردى ومناهج قد سنها * لاولى النهى والحزن قبل متمم انتهى

ولعمرى انه لم يوف القاضى أبا الوليد الباجى حقه الواجب المفترض ووددت أنه مد النفس فى ترجمته بعبارة يعترف ببراعتها من سلم له ومن اعترض فان ترجمة المذكور مما سطره أفسح مجالا وأفصح روية وارتجالا وبالجملة فهو أحد الاعلام بالاندلس وهو سليمان ابن خلف بن سعد بن أيوب بن وارث التجيبى وذكره ابن بسام فى الذخيرة وابن خلكان وغير

واحد وأصله من بطليوس وانتقل جده الى باجة قرب اشبيلية وليس هو من باجة القيروان ومولده سنة ٤٠٣ ورحل سنة ٤٢٦ فقدم مصر وسمع بها وأخرى صحبة بغداد وطرابلس الدروب وكان لما رجع الى الاندلس يضرب ورق الذهب ويعقد الوثائق الى أن فشا علمه وتهيأت له الدنيا وبرتبته نغني عن وصفه ومن نظمه قوله

ما طال عهدي بالديار وإنما * أنسى معاهدها أسى وتبلد
لو كنت أسأل الدار صبابتي * رق الصفا منها لها والجلمد

وله في المعتضد عباد والد المعتمد

عباد استعبد البرايا * بأنعم سبلها العام
مديحه حتم كل فم * حتى تغنت به الحمام

ومن أشهر نظمه قوله اذا كنت أعلم البيتين وقد سبقا * وممن ذكره أيضا الحافظ في المسعودي وابن بشكوال في الصلة وأنه خرج أربع حج رحمه الله تعالى وتوفي بالمرية لاحدى عشرة بقيت من رجب وقيل ليلة الخميس تاسع رجب وقيل تاسع عشر صفر سنة أربع وسبعين وأربعمائة ومن تواليفه المنتقى في شرح الموطأ ذهب فيه مذهب الاجتهاد وإيراد الحجج وهو مما يدل على تقدمه في العلوم والفنون ولما قدم من المشرق الى الاندلس بعد ثلاثة عشر عاما وجد ملوك الطوائف احزابا متفرقة فمشى بينهم في الصلح وهم يجلونه في الظاهر ويستثقلونه في الباطن ويستبردون نزعته ولم يفد شيئا فالله تعالى يجازيه عن نيته ولما ناظر ابن حزم قال له الباجي انا أعظم منك همة في طلب العلم لأنك طلبته وأنت معان عليه تسهر بمشكاة الذهب وطلبته وأنا أسهر بقنديل بائت السوق فقال ابن حزم هذا الكلام عليك لا لك لأنك انما طلبت العلم وأنت في تلك الحال رجاء تبديلها بمثل حالي وأنا طلبته في حين ما تعلمه وما ذكرته فلم أرج به الا علو القدر العلمي في الدنيا والآخرة فأفحمه قال عياض قال لي أصحابه كان يخرج للاقراء وفي يده أثر المطرقة الى أن فشا علمه وتوجهت الدنيا عليه وعظم جاهه وأجزلت صلاته حتى مات عن مال وافر وكان يستعمله الأعيان في رسائلهم ويقبل جوائزهم وولي القضاء بمواضع من الاندلس *(وابن حزم المذكور) هو أبو محمد بن حزم الظاهري قال ابن خلكان كان ابن حزم صاحب حديث وفقه وجدل وله كتب كثيرة في المنطق والفلسفة لم يخل فيها من غلط وكان شافعي المذهب يناضل الفقهاء عن مذهبه ثم صار ظاهريا فوضع الكتب في هذا المذهب وثبت عليه الى أن مات وكان له تعلق بالأدب وشنع عليه الفقهاء وطعنوا فيه وأقصاه الملوك وأبعدوه عن وطنه وتوفي بالبادية عشية يوم الأحد لليلتين بقيتا من شعبان سنة ست وخمسين وأربعمائة قال صاعد في تاريخه كان ابن حزم أجمع أهل الاندلس قاطبة لعلوم الاسلام وأوسعهم معرفة مع توسعه في علم اللسان والبلاغة والشعر والسير والأخبار أخبرني ابنه الفضل أنه اجتمع عنده بخط أبيه من تواليفه نحو أربعمائة مجلد انتهى عن تاريخ صاعد الحافظ الذهبي قال الذهبي هو العلامة أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم ابن غالب بن صالح الأموي مولاهم الفارسي الأصل الأندلسي القرطبي الظاهري

صاحب

صاحب المصنفات وأول سماعه سنة ٣٩٩ وكان اليه المنتهى فى الذكاء وحدة الذهن وسعة العلم بالكتاب والسنة والمذاهب والملل والنحل والعربية والآداب والمنطق والشعر مع الصدق والديانة والحشمة والسؤدد والرياسة والثروة وكثرة الكتب قال الغزالى رحمه الله تعالى وجدت فى أسماء الله تعالى كتابا لابى محمد بن حزم يدل على عظم حفظه وسيلان ذهنه انتهى باختصار وعلى الجملة فهو نسيج وحده لولا ما وصف به من سوء الاعتقاد والوقوع فى السلف الذى أثار عليه الانتقاد سامحه الله تعالى * وذكر الذهبى أن عمره اثنان وسبعون سنة وهو لا ينافى قول غيره انه كان عمره احدى وسبعين سنة وعشرة أشهر لانه ولد رحمه الله تعالى بقرطبة بالجانب الشرقى من ربض منية المغيرة قبل طلوع الشمس وبعد سلام الامام من صلاة الصبح آخر ليلة الاربعاء آخر يوم من شهر رمضان سنة أربع وثمانين وثلثمائة بطالع العقرب وتوفى ليومين بقيا من شعبان سنة ٤٥٦ وكان كثير المواظبة على التأليف ومن جملة تآليفه كتاب الفصل بين أهل الاهواء والنحل وكتاب الصادع والرادع على من كفر أهل التأويل من فرق المسلمين والرد على فرق التقليد وكتاب شرح حديث الموطا والكلام على مسائله وكتاب الجامع فى صحيح الحديث باختصار الاسانيد والاقتصار على أصحها وكتاب التلخيص والتخليص فى المسائل النظرية وفروعها التى لا نص عليها فى الكتاب والحديث وكتاب منتقى الاجماع وبيانه من جملة ما لا يعرف فيه اختلاف وكتاب الامامة والخلافة فى سير الخلفاء ومراتبها والندب والواجب منها وكتاب اخلاق النفس وكتاب الايصال الى فهم كتاب الخصال وكتاب كشف الالتباس ما بين أصحاب الظاهر وأصحاب القياس انتهى * وقال ابن سعيد فى حق ابن حزم ما ملخصه الوزير العالم الحافظ ابو محمد على ابن الوزير أبى عمر أحمد بن سعيد بن حزم الفارسى وشهرته تغنى عن وصفه وتوفى منفيا بقرية من بلده لبلة ووصله من ابن عمه أبى المغيرة رسالة فيما أوجب أن جاوبه بهذه الرسالة وهى سمعت وأطعت لقوله تعالى وأعرض عن الجاهلين وأسلمت وانقدت لقول نبيه عليه الصلاة والسلام صل من قطعك واعف عمن ظلمك ورضيت بقول الحكماء كفاك انتصارا ممن تعرض لاذاك اعراضك عنه وأقول

تتبع سواى امرأ يبتغى * سبابك ان هواك السباب
فانى أبيت طلاب السفاه * ونزهت عرضى عما يعاب
وقل ما بدا لك من بعد ذا * واكثر فان سكوتى خطاب

وأقول

كفانى بذكر الناس لى ومآثرى * ومالك فيهم يا ابن عمى ذاكر
عدوى وأشياعى كثير كذا الذى * غدا وهو نفاع المساعى وضائر
وانى وان آذيتنى وعققتنى * لمحتمل ما جاءنى منك صابر

فوقع له أبو المغيرة على ظهر رقعته قرأت هذه الرقعة العاقة فحين استوعبتها أنشدتنى

شمخ زيد وسعل * لما رأى وقع الاسل

الا يشمتن حاسدى ان نكبة عرضت * فالدهر ليس على حال بمترك
ذو الفضل كالتبر يلقى تحت متربة * طورا وطورا يرى تاجا على ملك

وقوله لما أحرق المعتضد بن عباد كتبه باشبيلية

دعونى من احراق رق وكاغد * وقولوا بعلم كى يرى الناس من يدرى
فان تحرقوا القرطاس لم تحرقوا الذى * تضمنه القرطاس بل هو فى صدرى
يسير معى حيث استقلت ركائبى * وينزل ان أنزل ويدفن فى قبرى

وقوله

لئن أصبحت مرتحلا بشخصى * فقلبى عندكم أبدا مقيم
ولكن للعيان لطيف معنى * لذا سأل المعاينة الكليم

وقوله

وذى عذل فيمن سبانى حسنه * يطيل ملامى فى الهوى ويقول
أمن أجل وجه لاح لم تر غيره * ولم تدر كيف الجسم أنت عليل
فقلت له أسرفت فى اللوم فاتئد * فعندى رد لو أشاء طويل
ألم تر أنى ظاهرى ثم انى * على ما أرى حتى يقوم دليل

وهو أبو محمد على بن أبى عمر أحمد بن سعيد بن حزم بن غالب بن صريد القرطبى * قال ابنه أبو الفضل رافع اجتمع عندى بخط أبى من تواليفه نحو أربعمائة مجلد تشتمل على قريب من نحو ثمانين ألف ورقة انتهى * وأبوه الوزير أبو عمر المذكور كان من وزراء المنصور ابن أبى عامر وتوفى كما قال ابن حيان بذى القعدة سنة اثنتين وأربعمائة وكان منشؤه ومولده بقرية تعرف بالراوية * وحكى ان الحافظ أبا محمد بن حزم قصد أبا عامر بن شهيد فى يوم غزير المطر والوحل شديد الريح فلقيه أبو عامر وأعظم قصده على تلك الحال وقال له ياسيدى مثلك يقصدنى فى مثل هذا اليوم فأنشده أبو محمد بن حزم بديها

فلو كانت الدنيا دوينك لجة * وفى الجو صعق دائم وحريق
لسهل ودى فيك نحوك مسلكا * ولم يتعذر لى اليك طريق

قال الحافظ ابن حزم أنشدنى الوزير أبى فى بعض وصاياه لى

اذا شئت أن تحيا سعيدا فلا تكن * على حالة الا رضيت بدونها

وهذا كاف فى فضل الفرع والاصل رحم الله الجميع * قال ابن حزم فى طوق الحمامة انه مر يوما هو وأبو عمر بن عبد البر صاحب الاستيعاب بسكة الحطابين من مدينة اشبيلية فلقيهما شاب حسن الوجه فقال أبو محمد هذه صورة حسنة فقال له أبو عمر لم نر الا الوجه فلعل ما سترته الثياب ليس كذلك فقال ابن حزم ارتجالا وذى عذل فيمن سبانى حسنه الابيات المتقدمة * ولابن حزم أيضا قوله

لا تلمنى لان سبقة لحظ * فات ادراكها ذوى الالباب
يسبق الكلب وثبة الليث فى العد * و ويعلو الصقال فوق اللباب

ولابى بكر بن مفوز حزء يرد فيه على أبى محمد بن حزم وفيه قال معترضا

يا من تعاني أمورا لن تعانيها * خل التعاني وأعط القوس باريها

تروي الأحاديث عن كل مسامحة * وإنما لمعانيها معانيها

وقيل إنه خاطب بهما بعض أصحاب ابن حزم * (رجع إلى القاضي أبي الوليد الباجي) ومن نظمه قوله من مرثية

أحن وينسى الناس يمضي على الأسى * كما اصطبار محمول على المركب الصعب

ومن جيد نظمه قوله

أسروا على الليل البهيم سراهم * فنمت عليهم في الشمال شمائل

متى نزلوا ثاوين بالخيف من منى * بدت للهوى بالمأزمين مخايل

فلله ما ضمت منى وشعابها * وما ضمنت تلك الربى والمنازل

ولما التقينا للجمار وأبرزت * أكف لتقبيل الحصى وأنامل

أشارت إلينا بالغرام محاجر * وباحت به منا جسوم نواحل

وقال الباجي أبو الوليد رحمه الله تعالى

مضى زمن المكارم والكرام * سقاه الله من صوب الغمام

وكان البر فعلا دون قول * فصار البر نطقا بالكلام

وذيله بعضهم بقوله

وزال النطق حتى لست تلقى * فتى يسخو برد للسلام

وزاد الأمر حتى ليس إلا * سخي بالأذى أو بالملام

* (ومنهم الفقيه العالم الشهير أبو بكر محمد بن الوليد بن محمد بن خلف بن سليمان بن أيوب الفهري الطرطوشي) صاحب سراج الملوك ويعرف بابن أبي رندقة بالراء المهملة المفتوحة وسكون النون وكتب سراج الملوك للملك الأفضل ذكره ابن بشكوال في الصلة وتوفي بالإسكندرية في شعبان وقيل جمادى الأولى سنة عشرين وخمسمائة وقبره بالإسكندرية وممن أخذ عنه الحافظ القاضي أبو بكر بن العربي وغيره ومن نظم الطرطوشي قوله من رسالة

أقلب طرفي في السماء ترددا * لعلي أرى النجم الذي أنت تنظر

وأستعرض الركبان من كل وجهة * لعلي بمن قد شم عرفك أظفر

وأستقبل الأرواح عند هبوبها * لعل نسيم الريح عنك يخبر

وأمشي ومالي في الطريق مآرب * عسى نغمة باسم الحبيب ستذكر

وألمح من ألقاه من غير حاجة * عسى لمحة من نور وجهك تسفر

ومن نظمه أيضا قوله

يقولون ثكلى ومن لم يذق * فراق الأحبة لم يثكل

لقد جرعتني ليالي الفراق * كؤوسا أمر من الحنظل

ومما نسب إليه وكان كثيرا ما ينشده

إذا كنت في حاجة مرسلا * وأنت بإنجازها مغرم

فأرسل

فارسل باكمه جلابة * به صمم أغطش أبكم
ودع عنك كل رسول سوى * رسول يقال له الدرهم

وكان كثيرا ما ينشد

ان لله عبادا فطنا * طلقوا الدنيا وخافوا الفتنا
فكروا فيها فلما علموا * انها ليست لحى وطنا
جعلوها لجة واتخذوا * صالح الاعمال فيها سفنا

وقال رحمه الله تعالى كنت ليلة نائما بالبيت المقدس اذ سمعت فى الليل صوتا حزينا ينشد

أخوف ونوم ان ذا لعجيب * ثكلتك من قلب فانت كذوب
أما وجلال الله لو كنت صادقا * لما كان للاغماض منك نصيب

قال فأيقظ النوام وأبكى العيون وكان رحمه الله تعالى زاهدا عابدا متورعا متقللا من الدنيا قوالا بالحق وكان يقول اذا عرض لك أمر دنيا وأخرى فبادر بأمر الاخرى يحصل لك أمر الدنيا والاخرى وله طريقة فى الخلاف ودخل مرة على الافضل بن أمير الجيوش فوعظه وقال له ان الامر الذى أصبحت فيه من الملك انما صار اليك بموت من كان قبلك وهو خارج عن يدك بمثل ما صار اليك فاتق الله فيما خولك من هذه الامة فان الله عزوجل سائلك عن النقير والقطمير والفتيل واعلم ان الله عزوجل آتى سليمان بن داود ملك الدنيا بحذافيرها فسخر له الانس والجن والشياطين والطير والوحوش والبهائم وسخر له الريح تجرى بأمره رخاء حيث أصاب ورفع عنه حساب ذلك أجمع فقال عزمن قائل هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب فما عد ذلك نعمة كما عددتموها ولا حسبها كرامة كما حسبتموها بل خاف أن يكون استدراجا من الله عزوجل فقال هذا من فضل ربى ليبلونى أأشكر أم أكفر فافتح الباب وسهل الحجاب وانصر المظلوم وكان الى جانب الافضل رجل نصرانى فأنشده

ياذا الذى طاعته قربة * وحقه مفترض واجب
ان الذى شرفت من أجله * يزعم هذا أنه كاذب

وأشار الى النصرانى فأقامه الافضل من مكانه والطرطوشى بضم الطاءين نسبة الى طرطوشة من بلاد الاندلس وقد تفتح الطاء الاولى وعبر عنه ابن الحاجب فى مختصره الفقهى فى باب العتق بالاستاذ وكان رحمه الله تعالى صحب القاضى أبا الوليد الباجى رحمه الله تعالى بسرقسطة وأخذ عنه مسائل الخلاف وسمع منه وأجازه وقرأ الفرائض عليه والحساب بوطنه وقرأ الادب على أبى محمد بن حزم بمدينة اشبيلية ثم رحل الى المشرق سنة ست وسبعين وأربعمائة ودخل بغداد والبصرة فتفقه هنالك عند أبى بكر الشاشى وأبى محمد الجرجانى وسمع بالبصرة من أبى على التسترى وسكن الشام مدة ودرس بها وكان راضيا باليسير وقال الصفدى فى ترجمة الطرطوشى ان الافضل بن أمير الجيوش أنزله فى مسجد شقيق الملك بالقرب من الرصد وكان يكرهه فلما طال مقامه به ضجر وقال لخادمه الى متى نصبر اجمع لى المباح فجمعه وأكله ثلاثة أيام فلما كان عند صلاة المغرب

فى الامد المحلى بمصر وكان يخضب بسواد الرمان قوله

اخلط العفص فيه يا أحوج النا * س الى العفص حين يعكس عفص

*(ومنهم القاضى الشهيد أبو على الصدفى وهو حسين بن محمد بن فيرة بن حيون ويعرف بابن سكرة وهو من أهل سرقسطة سكن مرسية وروى بسرقسطة عن الباجى وأبى محمد عبد الله ابن محمد بن اسمعيل وغيرهما وسمع بلنسية من أبى العباس العذرى وسمع بالمرية من أبى عبد الله محمد بن سعدون القروى وأبى عبد الله بن المرابط وغيرهما ورحل الى المشرق أول المحرم من سنة احدى وثمانين وأربعمائة وحج من عامه ولقى بمكة أبا عبد الله الحسين بن على الطبرى وأبا بكر الطرطوشى وغيرهما ثم سار الى البصرة فلقى بها أبا يعلى المالكى وأبا العباس الجرجانى وأبا القاسم بن شعبة وغيرهم وخرج الى بغداد فسمع بواسط من أبى المعالى محمد بن عبد السلام الاصبهانى وغيره ودخل بغداد سنة اثنتين وثمانين وأربعمائة وأطال الاقامة بها خمس سنين كاملة وسمع بها من أبى الفضل بن خيرون مسند بغداد ومن أبى الحسين المبارك بن عبد الجبار الصيرفى وطراد الزينبى والحميدى وغيرهم وتفقه عند أبى بكر الشاشى وغيره ثم رحل منها سنة سبع وثمانين فسمع بدمشق من أبى الفتح نصر المقدسى وأبى الفرج الاسفرايني وغيرهما وسمع بمصر من القاضى أبى الحسن الخلعى وأبى العباس أحمد بن ابراهيم الرازى وأجازله الحبال مسند مصر فى وقته ومكثرها وسمع بالاسكندرية من أبى القاسم الوراق وشعيب بن سعيد وغيرهما ووصل الى الاندلس فى صفر من سنة سبعين وأربعمائة وقصد مرسية فاستوطنها وقعد يحدث الناس بجامعها ورحل الناس من البلدان اليه وكثر سماعهم عليه وكان عالما بالحديث وطرقه عارفا بعلله وأسماء رجاله ونقلته وكان حسن الخط جيد الضبط وكتب بخطه علما كثيرا وقيده وكان حافظا لمصنفات الحديث قائما عليها ذاكرا لمتونها وأسانيدها ورواتها وكتب منها صحيح البخارى فى سفر وصحيح مسلم فى سفر وكان قائما على الكتابين مع مصنف أبى عيسى الترمذى وكان فاضلا دينا متواضعا حليما وقورا عالما عاملا واستقضى بمرسية ثم استعفى وأعفى وأقبل على نشر العلم وبثه وقد ذكره أبو القاسم بن عساكر فى تاريخه لدخوله الشام قال وبعد أن استقرت به النوى واستمرت افادته بما قيد وروى رفعته ملوك أوانه وشفعته فى مطالب اخوانه فأوسعته رعيا وأحسنت فيه رأيا ومن أبنائهم من جعل يقصده لسماع مسنده وعلى وقاره الذى كان به يعرف ندرله مع بعضهم ما يستطرف وهو أن فتى يسمى يوسف لازم مجالسه معطرا أنجته ومنظما ملابسه ثم غاب لمرض قطعه أوشغل منعه ولما فرغ أوأبل عاود ذلك النادى المبارك والمحل وقبل افصاحه اليه دل طيبه عليه فقال الشيخ على سلامته من المجون وخلاصه من الفتون انى لاجد ريح يوسف لولا أن تفندون وهى من طرف نوادره رحمة الله عليه ولما قلد قضاء مرسية وعزم عليه صاحب الامر فيه فر الى المرية فأقام بها سنة خمس وبعض سنة ست وخمسمائة وفى سنة ست قبل قضاءها على كره الى أن استعفى آخر سنة سبع فى قصة يطول ايرادها واطول مقامه بالمرية أخذ الناس عنه بها فلما كانت وقعة كتندة

كل من يلقاه لا يعرفه * مستغيثا بين عجم وعرب
لهف نفسي أين هاتيك العلا * واصباعاه ويا غبن الحسب
والذي قد كان دحراوبه * أرتجي المال وادراك الرتب
صار لي أجلس ما أعددته * بين قوم ما دروا طعم الادب
يا أخلاى اسمعوا بعض الذي * يتلقاه الطريد المغترب
ولكن ربحا الكم عن غربة * يرجع الرأس لديها كالذنب
واحملوا طعنا وضربا دائما * وهو عندي بين قومي كالضرب
وان قاسيت ما قاسيته * فيما أبصر لحظي من عجب
ولقد أخبركم ان ألتقي * بكم حتى تقولوا قد كذب

واجتاز بدمشق فقال من ابيات رحمه الله تعالى

دمشق جنة الدنيا حقيقا * ولكن ليس تصلح للغريب
بها قوم لهم عدد ومجد * وصحبتهم تؤول الى حروب

ثم انه ودع الشرق بلاسلام وحل بحضرة دانية لدى ملكها مجاهد العامري في مجموعة عزلا يخشى فيه الملام واستقبل الاندلس بخاطر جديد ونال بها بعد من بلوغ الآمال ماليس له عليه مزيد وقال

وكم قد لقيت الجهد قبل مجاهد * وكم أبصرت عيني وكم سمعت أذني
ولاقيت من دهري وصرف خطوبه * كما جرت السكباء في معطف الغصن
فلا تسألوني عن فراق جهنم * ولكن سلوني عن دخولي الى عدن

(وله من كتاب) وحامل كتابي سلمه الله تعالى وأعانه ممن أخنى عليه الزمان وأدار عليه وما صحا الى الآن كؤس الهوان وقد قصد على بعد جنابك الرحيب الخصيب قصد الحسن محل الناصيب ويمم جناب ابن طاهر حبيب واني لارجو أن يرجع منك رجوع نصيب عن سليمان ويستعين في شكرك بكل لسان وأنت عليم بأن الثناء هو الخلف وقد قال الاول

أرى الناس أحدوثة * فكوني حديثا حسن

وأنا القائل

فلا تزهدن في الخير قدمات حاتم * وأخباره حتى القيامة تذكر

ومع هذا فهو عليه بقدر ما يحتمل من التكليف هذا الاوان عارف وجوه الاعذار غير ذي عجل في العتب قبل البيان وعند سيدي من التصدي للايفاء ما يحقق فيه جميل الرجاء دامت أرجاؤه مؤملة ولا برحت نعمه سابغة مكملة *(ومنهم الكاتب أبو عبد الله محمد بن عبد ربه المالقي) وقال بعضهم انه من الجزيرة الخضراء له رحلة الى الديار المصرية صنع فيها مقامة يقول فيها

وفي جنبات الروض نهر ودوحة * يروقك منها سندس ونضار
تقول وضوء البدر فيه مغربا * ذراع فتاة دار فيه سوار

ومن شعره

مقولات وكان رحمه الله تعالى اذا كتب اسمه فيما يحرره أو غير ذلك يكتب ابن دحية ودحية معا المشبه به جبريل وجبرائيل ويذكر ما ينيف على ثلاث عشرة لغة مذكورة في جبريل ويقول عند فاطر السموات والارض وهذا فرع انفرد به عن عداه من أهل العلم . قال صاحب عنوان الدراية رأيت له تصنيفا في رجال الحديث لا بأس به وارتحل الى المشرق في دولة بني أيوب فرفعوا شأنه وقربوا مكانه وجمعوا له علماء الحديث وحضروا له مجالسا أقروا له بالتقدم وعرفوا انه من أولى الضبط والاتقان والتفهم وذكروا أحاديث بأسانيد حولوا متونها فأعاد المتون المحولة وعرف عن تغييرها ثم ذكر الاحاديث على ما هي عليه من متونها الاصلية ومثل هذه الحكاية اتفق لابي عمر بن عات في كتاب مسلم مع أكابر بعض الطلبة منها ومن شعر أبي الخطاب ما كتب به الى الكامل بن العادل بن أيوب

مالي اسائل برق بارق عنكم * من بعد ما بعدت دياري منكم
فمحلكم قلبي وأنتم بالحشا * لا بالعقيق ولا برامة أنتم
وأنا المقيم على الوفاء بعهدكم * ياما لكين وفيتم أو خنتم

وهي طويلة ومنها

رفعت له الاملاك منه بحية * ملك السماك الرمح وهو محرم

ومنها

لذوي النهى والفهم سر حكومة * قد حار فيها كاهن ومنجم
فاقصد مرادك حيث سرت مظفرا * والله يكلأ والكواكب توأم
وليهنك الشهر السعيد تصومه * وتفوز فيه بالثواب وتغنم
فلانت في الدنيا كليلة قدره * قدرا وقدرك في الملوك معظم

فأجابه السلطان مكافئه بنثر ونظم فمن النظم

وهيجني شوقي للاجارع باللوى * وأين اللوى مني وأين الاجارع
مرابع لو أن المرابع أنجم * لكان نجوم الارض تلك المرابع
رعى الله أيامها ولو أنها * الي وقد ولى الشباب رواجع
ليالي لا ليلى ادارت وصلها * يلوح لها من صبح شيبي مواقع في جملة أبيات

(ومن النثر) الحمد لله ولي الحمد وقف ولده على الابيات التي حسن شعرها وصفا دررها وليس من البديع أن يقذف البحر درا أو ينظم الخليل شعرا وقد أخذت الورقة لا تنزه في معانيها واستمد بما أودعه فيها فالله تعالى لا يخليها من فوائد فكرته وصالح أدعيته والسلام فأجابه الحافظ أبو الخطاب عن الابيات بقوله من قصيدة

شجتني شواج في الغصون سواجع * ففاضت هوام للجفون هوامع

وأكثر فيها من التغزل الى أن قال

ولا حاكم أرضاه بيني وبينها * سوى حاكم دهري له اليوم طائع
يدافع عني الضيم قائم سيفه * اذا عز من للضيم عني يدافع
هو الكامل الاوصاف والملك الذي * تشير اليه بالكمال الاصابع

و من أياديه الكريمة في الورى * قلائد في الاعناق وهي الصنائع
ونعماه يوما القناة همامها * اذا ... على الملوك الجوامع

ومنها

فما روضة غناء جاد رب الحيا * ونمّ بريّاها النسيم الذائع
له من سنى الزهر بردة مفوّف * ابيح له من أرض صنعا صانع
ترى الطلّ منها أحمر النور ناضر * وسائل منها اصفر اللون فاقع
وأحمر قان للخدود ورد * وأبيض كالثغر المفلّج ناصع
بأحسن من توشيع مدحي الذي له * بدائع من وشي البديع روائع
وما نافح من نشر مسكي الذي به * تأرّج الارجا عند الصانع
ولولم يكن مدحي به الدهر كاذبي * لحال شيح في السطلة واسع
فأنت الذي لي والاعادي كثيرة * وريّ مكان الصم في الاذن دافع

ومنها

نسبت لعبد حد ... الذي * نبابه حمى ... له ... نازع
وجدته الزهرا بنت محمد * عليه السلام الدائم المتتابع
ولاعدمت ... الممالك ... * ... للآمال ... واسع
ومنك عيون للمهمات سط * وعنك عيون الحادثات هواجع

وقال المقري في ترجمة الملك الكامل انه كان مستوفيا سماع الحديث النبوي وتقدم عنده أبو الخطاب بن دحية وبني له دار الحديث الكاملية بين القصرين بالقاهرة انتهى وقال أبو الخطاب بن دحية أنشدني أبو القاسم السهيلي لنفسه وذكر انه ما سأل الله تعالى بها حاجة الا أعطاه

يا من يرى ما في الضمير ويسمع * أنت المعد لكل ما يتوقع
يا من يرجى للشدائد كلها * يا من اليه المشتكى والمفزع
يا من خزائن رزقه في قول كن * امنن فان الخير عندك أجمع
مالي سوى فقري اليك وسيلة * فبالافتقار اليك فقري أدفع
مالي سوى قرعي لبابك حيلة * فلئن رددت فأي باب أقرع
ومن الذي أدعو وأهتف باسمه * ان كان فضلك عن فقيرك يمنع
حاشا لجودك أن يقنط عاصيا * الفضل أجزل والمواهب أوسع

ومن نظم السهيلي رضي الله تعالى عنه

أسائل عن جيرانه من لقيته * وأعرض عن ذكراه والحال ينطق
ومالي الى جيرانه من صبابة * ولكن نفسي عن صبوح ترفق

وله

لما رأيت فلا فطمعت توصلا * أدعوك لا حرمان معصمان
وكذا انتم نعيم وصل آدب * نعم ولا في اللفظ ...

ولد أبو الخطاب بن دحية في ذي القعدة سنة سبع أو ثمان وأربعين وخمسمائة وتوفي انفجار الفجر ليلة الثلاثاء رابع عشر ربيع الاول سنة ثلاث وثلاثين وستمائة بالقاهرة ودفن بسفح المقطم وتكلم فيه جماعة فيما ذكره ابن النجار وقدره أجل مما ذكروه وقد روى رحمه الله تعالى بالمغرب ومصر والشام والعراق وخراسان وعراق العجم وكل ذلك في طلب الحديث وسمع بالاندلس من ابن بشكوال وابن زرقون في جمع كثير وببغداد من أبي الفرج بن الجوزي وبأصبهان من أبي جعفر الصيدلاني معجم الطبراني ومن غيره وبنيسابور من أبي سعيد بن الصفار ومنصور بن الفراوي والمؤيد الطوسي وحصل الكتب والاصول وحدث وأفاد وكان من أعيان العلماء ومشاهير الفضلاء متقنا لعلم الحديث وما يتعلق به عارفا بالنحو واللغة وأيام العرب وأشعارها وصنف كتبا كثيرة مفيدة جدا منها كتاب التنوير في مولد السراج المنير صنفه عند قدومه الى اربل سنة أربع وستمائة وهو متوجه الى خراسان لما رأى ملك اربل مظفر الدين كوكبري معتنيا بعمل المولد النبوي في شهر ربيع الاول كل عام مهتما به غاية الاهتمام وكمله وقرأه عليه بنفسه وختمه بقصيدة طويلة فأجازه بألف دينار وصنف أيضا العلم المشهور في فضائل الايام والشهور والآيات البينات في ذكر ما في اعضاء رسول الله صلى الله عليه وسلم من المعجزات وكتاب شرح أسماء النبي صلى الله عليه وسلم وكتاب النبراس في أخبار خلفاء بني العباس وكتاب الاعلام المبين في المفاضلة بين أهل صفين وولي قضاء بلد أصوله دانية مرتين ثم صرف عن ذلك لسيرة نسبت اليه فرحل عنها وحدث بتونس سنة ٥٩٥ ثم حج وكتب بالمشرق عن جماعة بأصبهان ونيسابور وعاد الى مصر فاستأدبه العادل لولده الكامل وأسكنه القاهرة فنال بذلك دنيا عريضة ثم زادت حظوته عند الكامل وأقبل عليه اقبالا عظيما وكان يعظمه ويحترمه ويعتقد فيه الخير ويتبرك به حتى كان يسوي له المداس حين يقوم وهو بلنسي كما قاله ابن خلكان وغيره والبلنسية مشهورة بشرق الاندلس ثلث سنة بالتصحيف * (ومنهم خلف بن القاسم بن سهل بن الدباغ الحافظ الاندلسي) رحل الى المشرق وكان حافظا فهما عارفا بالرجال حدث حديث مالك وشعبة وأشياء في الزهد وسمع بمصر أبا الحسن بن الورد البغدادي ومسلم بن الفضل والحسن بن رشيق وجماعة وسمع بدمشق علي بن أبي العقب وأبا الميمون بن راشد وبمكة من بكير الحداد وأبي الحسن الخراتي والآجري وبقرطبة من أحمد بن يحيى بن الشاهد ومحمد بن معاوية وتوفي سنة ٣٩٣ * (ومنهم خلف بن سعيد بن عبد الله بن زرارة أبو القاسم بن المرابط الكلبي) من ذرية الابرش الكلبي ويعرف بالمبرقع المحتسب القرطبي رحل الى المشرق مرتين أولاهما سنة ٣٢٣ وهو ابن ثلاث وعشرين سنة وسمع أبا سعيد بن الاعرابي وابن الورد وأبا بكر الآجري وروى عنه أبو اسحق بن شنظير وأبو جعفر الزاهري وقال ابن شنظير انه توفي في نحو الاربعمائة رحمه الله تعالى ورضي عنه * (ومنهم سابق فضلاء زمانه أبو الصلت أمية بن عبد العزيز بن أبي الصلت الاشبيلي) يقال ان عمره ستون سنة منها عشرون في بلده اشبيلية وعشرون في افريقية عند ملوكها الصنهاجيين وعشرون

في مصر ثم وسُجن في خزانة الكتب وكان وجّهه صاحب المهدية الى ملك مصر فحبس بها طول ملك الملك في خزانة الكتب فخرج في فنون العلم إماما وأتقن علوم الفلسفة والطب والتلحين وله في ذلك تواليف تشهد بفضله ومعرفته وكان يلقب بالأديب الحكيم وهو الذي لحّن الأغاني الإفريقية قال ابن سعيد وإليه تنسب الى الآن وذكر العماد في الخريدة وله كتاب الحديقة على أسلوب يتيمة الثعالبي وتوفي سنة ٥٢٩ وقيل سنة ٥٢٨ بالمهدية وقيل مستهل السنة بعدها ودفن بها وله في ابنه واصل

يا هاجراً سمّوه عمداً واصلا * وبضدها تتميّز الأشياء
ألغيتني حتى كأنك واصل * وكأنني من طول هجرك راء

وقوله وهو من بدائعه

لا غرو إن سبقت لهاك مدائحي * وتدفّقت جدواك ملء إنائها
يكسى القضيب ولم يحن إثماره * وتطوّق الورقاء قبل غنائها

وقال في الأجل

ردي بكل فتى إذا اشتد الوغى * نثر الرماح على الدروع كعوبا
قد لوّحته يد الهواجر فاغتدى * مثل القناة نحافة وشحوبا
يغدو القنا أشطانهم واستنبطوا * في كل قلب بالطعان قليبا

ومنها

يعطي الذي أعطتكه سمر القنا * أبداً فيغدو سائلاً مسلوبا

ومنها

وأنا الغريب مكانه وبيانه * فاجعل صنيعك في الغريب غريبا

وله

ومهفهف شربت محاسن وجهه * ما مجّه في الكأس من إبريقه
ففعالها من مقلتيه ولونها * من وجنتيه وطعمها من ريقه

أخذه من ابن حمديس وقصّر عنه في قوله

وبمهفهف يغني لحظ جفونه * عن كأسه الملأى وعن إبريقه
فعل المدام ولونها ومذاقها * في مقلتيه ووجنتيه وريقه

ولأبي الصلت فيمن اسمه محسن

أيها الظالم المسي * ء مدى دهره بنا
ما لهم أخطؤوا الصوا * ب فسمّوك محسنا

وله في لابس قرمزية حمراء

أقبل يسعى أبو الفوارس في * مرأى عجيب ومنظر أنق
أرفل في قرمزية عجب * قد صبغت لون خدّه الشرق
كأنما خدّه وغرّته * بدر تمام بدا في شفق
عود نضير من فوقه زهر * دارت به قطعة من الشفق

وله فى ثقيل وقد أجاد

لى جليس عميت كيف استطاعت * هذه الارض والجبال تقله
أنا أرعاه مكرها وبقلبى * منه ما يقلق الجبال أقله
فهو مثل المشيب أكره مرآ * ه ولكن أصونه وأجله

أخذه من قول أبى الحسن جعفر بن الحاج الميورقى وهما فى عصر واحد

لى صاحب عميت على شؤنه * حركاته مجهولة وسكونه
يرتاب بالامر الجلى توهما * فاذا تيقن نازعته ظنونه
انى لاهواه على شرقى به * كالشيب تكرهه وأنت تصونه

وأوصى أن يكتب على قبره أبو الصلت المذكور مما نظمه قبل موته

سكنتك يا دار الفناء مصدقا * بأنى الى دار البقاء أصير
وأعظم ما فى الامر انى صائر * الى عادل فى الحكم ليس يجور
فياليت شعرى كيف ألقاه عندها * وزادى قليل والذنوب كثير
فان أك مجزيا بذنبى فاننى * بشر عقاب المذنبين جدير
وان يك عفو ثم عنى ورحمة * فثم نعيم دائم وسرور

وله

اذا كان أصلى من تراب فكلها * بلادى وكل العالمين أقاربى
ولا بد لى أن أسأل العيس حاجة * تشق على شم الذرى والغوارب

وقال

دب العذار بخده ثم انثنى * عن لثم مبسمه البرود الاشنب
لا غرو أن خشى الردى فى لثمه * فالريق سم قاتل للعقرب

وقد ذكروا أن من خواص ريق الانسان أنه يقتل العقرب وهو مجرب

وقال

لا تدعنى ولتدع من شئته * اليك من عجم ومن عرب
نحن أكالون للسحت فى * ذرا السماعون للكذب

وقال

لا تسألنى عن صنيع جفونها * يوم الوداع وسل بذلك من نجا
لو كنت أملك خدها للثمته * حتى أعيد به الشقيق بنفسجا
أو كنت أجمع لاحتضنت خيالها * ومنعت ضوء الصبح أن يتبلجا
وبثثت فى الظلماء كحل جفونها * وعقدت هاتيك الذوائب بالدجا

وقال مهنئا بمولود

يلوح فى المهد على وجهه * تجهم البأس وبشرى الندى
والشمس والبدر اذا استجمعا * لم يلبثا أن يلدا فرقدا
فابق له حتى ترى نجله * وان عرا خطب فنحن الفدا

لا تنكرن فهذه أسبابه * لكن منها بداءة وجواب

*(ومنهم الامام المحدث الحافظ جمال الدين أبو بكر محمد بن يوسف بن موسى الاندلسى المعروف بابن مسدى وهو من الائمة المشهورين بالمشرق والمغرب قال رحمه الله تعالى أنشدنى رئيس الاندلس وأديبها أبو الحسن سهل بن مالك الازدى الغرناطى لنفسه سنة ٦٣٧ فى شوال بداره بغرناطة

من غص العيش لا يأوى الى دعة * من كان ذا بلد أو كان ذا ولد

والساكن النفس من لم ترض همته * سكنى مكان ولم يسكن الى أحد

*(ومنهم الامام الحافظ أبو عبد الله محمد بن فتوح بن عبد الله الازدى الحميدى نسبة لجده حميد الاندلسى ولد أبوه بقرطبة وولد هو بالجزيرة بلدة بالاندلس قبل العشرين وأربعمائة وكان يحمل على الكتف للسماع سنة ٤٢٥ فاول ما سمع من الفقيه أبى القاسم أصبغ قال وكنت أفهم من يقرأ عليه وكان قد لقى ابن أبى زيد وقرأ عليه وتفقه وروى عنه رسالته ومختصر المدونة ورحل سنة ٤٤٨ وقدم مصر وسمع بها من الضراب والقراعى وغير واحد وكان سمع بالاندلس من ابن عبد البر وابن حزم ولازمه وقرأ عليه مصنفاته وأكثر من الاخذ عنه وشهر بصحبته وصار على مذهبه الا انه لم يكن يتظاهر به وسمع بدمشق وغيرها وروى عن الخطيب البغدادى وكتب عنه أكثر مصنفاته وسمع بمكة من الزنجانى وأقام بواسط مدة بعد خروجه من بغداد ثم عاد الى بغداد واستوطنها وكتب بها كثيرا من الحديث والادب وسائر الفنون وصنف مصنفات كثيرة وعلق فوائد وخرج تخاريج للخطيب ولغيره وروى عنه أبو بكر الخطيب أكثر مصنفاته وابن ماكولا وكان اماما من أئمة المسلمين فى حفظه ومعرفته واتقانه وثقته وصدقه ونبله وديانته وورعه ونزاهته حتى قال بعض الاكابر ممن لقى الائمة لم ترعيناى مثل أبى عبد الله الحميدى فى فضله ونبله ونزاهة نفسه وغزارة علمه وحرصه على نشر العلم وبثه فى أهله وكان ورعا ثقة اماما فى علم الحديث وعلله ومعرفة متونه ورواته محققا فى علم الاصول على مذهب أصحاب الحديث متبحرا فى علم الادب والعربية ومن تصانيفه كتاب جذوة المقتبس فى أخبار علماء الاندلس وكتاب تاريخ الاسلام وكتاب من ادعى الامان من أهل الايمان وكتاب الذهب المسبوك فى وعظ الملوك وكتاب تسهيل السبيل الى علم الترسيل وكتاب مخاطبات الاصدقاء فى المكاتبات واللقاء وكتاب ما جاء من النصوص والاخبار فى حفظ الجار وكتاب ذم النميمة وكتاب الامانى الصادقة وغير ذلك من المصنفات والاشعار الحسان فى المواعظ والامثال وكان من كثرة اجتهاده ينسخ بالليل فى الحر ويجلس فى اجانة ماء يتبرد به ومن مشهور مصنفاته كتاب الجمع بين الصحيحين وذكره الحجارى فى المسهب وقال عنه انه أظهر العلم فى طرق ميورقة بعد ما كانت عطلا من هذا الشان وترك لها ذكرا تسارى به خواص البلدان وهو من علماء أئمة الحديث ولازم أبا محمد بن حزم فى الاندلس واستفاد منه ورحل الى بغداد وبها ألف كتاب الجذوة ومن شعره قوله رضى الله تعالى عنه

ألفت النوى حتى أنست بوحشها * وصرت بها لا فى الصبابة مولعا

لم أحص كم راحة من مراحي * ولم أحص كم سعي في الأرض وضعا
ومن بعد جوب الأرض شرقاً ومغرباً * فلا بد لي من أن أوافي مصرعا

وقال رحمه الله تعالى

لقاء الناس ليس يفيد شيئاً * سوى الهذيان من قيل وقال
فأقلل من لقاء الناس إلا * لأخذ العلم أو إصلاح حال

وذكر ابن بشكوال في الصلة وتوفي ببغداد سنة ثمان وثمانين وأربعمائة رحمه الله تعالى قال ابن ماكولا أخبرنا صديقنا أبو عبد الله الحميدي وهو من أهل العلم والفضل والتيقظ لم أر مثله في عفته ونزاهته وورعه وتشاغله بالعلم وكان أوصى مظفر بن رئيس الرؤساء أن يدفنه عند قبر بشر الحافي فخالف وصيته ودفنه في مقبرة باب أبرز فلما كان بعد مدة رآه مظفر في النوم كأنه يعاتبه على مخالفته فنقل في صفر سنة ٤٩١ الى مقبرة باب حرب ودفن عند قبر بشر وكان كفنه جديداً وبدنه طرياً تفوح منه رائحة الطيب ووقف كتبه على أهل العلم رحمه الله تعالى ومن مناقبه أنه قال لمن دخل عليه فوجده مكشوف الفخذ فقرب ثوبه إلى موضع لم ينظر أحد منه عليه انتهى ومن شعر الحميدي أنشده له

طريق الزهد أفضل ما طريق * وتقوى الله بادية الحقوق
فثق بالله يكفك واستعنه * يعنك ودع بنيات الطريق

وقوله

كلام الله عز وجل قولي * وما صحت به الآثار ديني
وما اتفق الجميع عليه بدءاً * وعوداً فهو عن حق مبين
فدع ما صد عن هذا وخذها * تكن منها على عين اليقين

*(ومنهم الكمال أبو العباس أحمد الشريشي وهو أحمد بن عبد المؤمن بن موسى بن عيسى ابن عبد المؤمن القيسي من أهل شريش روى عن أبي الحسن بن لبال وأبي بكر بن أزهر وأبي عبد الله بن زرقون وأبي الحسن بن جبير وغيرهم وأقرأ العربية وله تواليف أفاد بها منها شرح الإيضاح للفارسي والجمل للزجاجي وله في العروض تواليف وجمع مشاهير قصائد العرب واختصر نوادر أبي علي القالي قال ابن الأبار لقيته بدار شيخنا أبي الحسن بن حريق من بلنسية ثم تحول إلى إشبيلية في سنة ست عشرة وستمائة وهو إذ ذاك يقرأ عليه شرحه للمقامات فسمعت عليه بعضه وأجاز لي سائره مع روايته وتواليفه وأخذ عنه أصحابنا ثم لقيته ثانية بعده من سنته انتهى ومن بديع نظمه وهو بمصر يتشوق إلى الشام

يا جيرة الشام هل من نحوكم خبر * فإن قلبي بنار الشوق يستعر
بعدت عنكم فلا والله بعدكم * ما لذ للعين لا نوم ولا سهر
إذا تذكرت أوقاتاً نعمت بها * مرت بكم كادت الأحشاء تنفطر
كأنني لم أكن بالنيربين ضحى * والغيم يبكي ومنه تضحك الزهر
والورق تشدو والأغصان راقصة * والدوح يطرب بالتصفيق والنهر

والنسيم

والسفح أين عشياتي التي سلفت * لي منه فهي لعمري عندي العمر
سقاك ياسفح سفح الدمع منهملا * وقل ذاك له ان أعوز المطر

وله رحمه الله تعالى شروح لمقامات الحريري كبير ووسط وصغير وفي الكثير من الآداب مالا كفاءله وكان رحمه الله تعالى محبا بالشام وقال ابن الابار عند ما ذكره انه شرح مقامات الحريري في ثلاث نسخ كبراها الادبية ووسطاها اللغوية وصغراها المختصرة انتهى وتوفي بشريش بلده سنة تسع عشرة وستمائة رحمه الله تعالى *(ومنهم أبو بكر يحيى بن سعدون ابن تمام بن محمد الازدي القرطبي الملقب بضياء الدين أحد الائمة المتأخرين في القرآت وعلوم القرآن الكريم والحديث والنحو واللغة وغير ذلك قال القاضي الشمس بن خلكان انه رحل من الاندلس في عنفوان شبابه وقدم مصر فسمع بالاسكندرية أبا عبد الله محمد بن أحمد بن ابراهيم الرازي وبمصر أبا صادق مرشد بن يحيى بن القاسم المدني المصري وأبا طاهر أحمد بن محمد الاصبهاني المعروف بالسلفي وغيرهم ودخل بغداد سنة ٥١٧ وقرأ بها القرآن الكريم على الشيخ أبي محمد عبد الله بن علي المقرى المعروف بابن بنت الشيخ أبي منصور الخياط وسمع عليه كتبا كثيرة منها كتاب سيبويه وقرأ الحديث على أبي بكر محمد بن عبد الباقي البزار المعروف بقاضي المارستان وأبي القاسم بن الحصين وأبي العز وغيرهم وكان دينا ورعا عليه وقار وسكينة وكان ثقة صدوقا ثبتا نبيلا قليل الكلام كثير الخير مفيدا أقام بدمشق مدة واستوطن الموصل ورحل منها الى أصبهان ثم عاد الى الموصل وأخذ عنه شيوخ ذلك العصر وذكره الحافظ ابن السمعاني في كتاب الذيل وقال انه اجتمع به بدمشق وسمع عنه مشيخة أبي عبد الله الرازي وانتخب عليه أجزاء وسأله عن مولده فقال ولدت سنة ٤٨٦ في مدينة قرطبة ورأيت في بعض الكتب أن مولده سنة ٤٨٧ والاول أصح وكان شيخنا القاضي بهاء الدين يوسف بن رافع بن تميم المعروف بابن شداد قاضي حلب رحمه الله تعالى يفتخر بروايته وقراءته عليه وقال كانقرأ عليه بالموصل ونأخذ عنه وكنا نرى رجلا يأتي اليه كل يوم فيسلم عليه وهو قائم ثم يمد يده الى الشيخ بشئ ملفوف فيأخذه الشيخ من يده ولا نعلم ما هو ويتركه ذلك الرجل ويذهب ثم تقصينا ذلك فقلنا انها دجاجة مسموطة كانت ترسم للشيخ في كل يوم يبتاعها له ذلك الرجل ويسمطها ويحضرها واذا دخل الشيخ الى منزله تولى طبخها بيده وذكر في كتاب دلائل الاحكام انه لازم القراءة عليه احدى عشرة سنة آخرها سنة ٥٦٧ وكان الشيخ أبو بكر القرطبي المذكور كثيرا ما ينشد مسندا الى أبي الخير الكاتب الواسطي

جرى قلم القضاء بما يكون * فسيان التحرك والسكون
جنون منك أن تسعى لرزق * ويرزق في غشاوته الجنين

وتوفي القرطبي المذكور بالموصل يوم عيد الفطر سنة ٥٦٧ رحمه الله تعالى انتهى كلام ابن خلكان ببعض اختصار *(ومنهم الوزير أبو عبد الله محمد ابن الشيخ الاجل أبي الحسن بن عبد ربه وهو من حفدة صاحب كتاب العقد المشهور حدث الشيخ الاجل أبو عبد الله محمد بن علي اليحصبي القرموني رفيقه قال اصطحبت معه في المركب من المغرب

فى شعراء الملك الناصر صاحب الشام ومقطعاته العراقية قلائد أهل الغرام صحبته بمصر ودمشق وحلب وجريت معه طلق الجوح فى ميادين الادب وأنشدنى بدمشق

أنا من سكر هواهم ثملى * لا أبالى هجروا أم وصلوا
فبشعرى وحديثى فيهم * زمزم الحادى وسار المثل
ان عشاق الحمى تعرفنى * والحمى يعرفنى والطلل
رحلوا عن ربع عينى ولذا * أدمعى عن مقلتى ترتحل
مالها قد فارقت أوطانها * وهى ليست لحماهم تصل
لا تظنوا أننى أسلوهما * مذهبى عن حبكم ينتقل

وقوله رحمه الله تعالى

بالله يا بانة الوادى اذا خطرت * تلك المعاطف حيث الشيح والغار
فعانقيها عن الصب الكئيب فما * على معانقة الاغصان انكار
وعرّ فيها بأنى فيك مكتئب * فبعض هذى لها بالحب أخبار
وأنتم جيرة الجرعاء من اضم * لى فى حماكم أحاديث وأسمار
وأنتم أنتم فى كل آونة * واما حماكم فى الكون أطوار
ويا نسيما سرى تحدو ركائبه * لى بالعوير لبانات وأوطار

وله

يا رعى الله أنسنا بين روض * حيث ماء السرور فيه يجول
تحسب الزهر عنده يتثنى * وتخال الغصون فيه تميل

وله

هات المدام فقد ناح الحمام على * فقد الظلام وجيش الصبح فى غلب
وأعين الزهر من طول البكا رمدت * فكحلتها يمين الشمس بالذهب
والكأس حلتها حمراء مذهبة * لكن أزرتها من لؤلؤ الحبب
كم قلت للافق لما أن بدا صلفا * بشمسه عند ما لاحت من الحجب
ان تهت بالشمس يا أفق السماء فلى * شمسان وجه نديمى وابنة العنب
قم اسقنيها وثغر الصبح مبتسم * والليل تبكيه عين البدر بالشهب
والسحب قد لبست سود الثياب وقد * قامت لترثيه الاطيار فى القضب

وله

عليك من ذلك الحمى يا رسول * بشرى علامات الرضا والقبول
جئت وفى عطفيك منهم شذى * يسكر من خمر هواه العذول

ومنها

أحبابنا ودعتم ناظرى * وأنتم بين ضلوعى نزول
حللتم قلبى وهو الذى * يقول فى دين الهوى بالحلول
انا الذى حدّث عنى الهوى * بأننى عن حبكم لا أحول

وقال

أحاجيك ما شيء اذا ما سرقته * وفيه نصاب ليس يلزمك القطع
على ان فيه القطع والحدثات * ولاحد فيه هكذا حكم الشرع

انتهى كلام ابن سعيد من كتابه القدح المعلى فيما أظن ويعني والله سبحانه أعلم بقوله وبهذه الحضرة العلية حضرة تونس المحروسة فانها كانت محط رحال الافاضل من الاواخر والاوائل حتى ان قاضي القضاة ابن خلدون أقام بها مدة ومنها ارتحل الى مصر وكذلك الخطيب الجليل سيدي أبو عبد الله بن مرزوق رحمه الله تعالى ومنها خاطب الوزير لسان الدين بن الخطيب وسلطانه في الشفاعة له عند سلطان المغرب فكتب لسان الدين عن سلطانه في ذلك ما نصه المقام الذي نؤكد اليه برسلمه الوداد ونغرى بتخليد فخره وأمره القلم والمداد ونصل به الاستظهار على عدو الله تعالى والاستعداد ونخطب له من الله عز وجل أعطاه للخير والتوفيق والسداد والاعانة منه والامداد مقام محل أخينا الذي اشتهر فضله ودينه ووضح سعده متألقة براهينه وحياه الصنع الجميل وبداه مشرقا جبينه السلطان الكذا ابن السلطان الكذا ابن السلطان الكذا أبقاه الله يرعى الذمم ويسلك من الفضائل المنهج الاهم ويعلى الصنائع النافقة عند الله تعالى ويعلى الهمم معظم قدره وملتزم بره الحريص على توفير أجره وتخليد فخره فلان أما بعد حمد الله تعالى بأمر الامرة المطاعة المحافظة على السنة والجماعة وحافظها من الاضاعة الى قيام الساعة الذي جعل المودة فيه أنفع الوسائل النفاعة والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسوله المخصوص بمقام الشفاعة على العموم والاشاعة متمم مكارم الاخلاق من الفضل والبذل والحياء والشجاعة والرضا عن آله وصحبه الذين اقتدوا بهديه بحسب الاستطاعة وزرعوا الخير في العاجلة فمازوا في الآجلة بفائدة تلك الزراعة والدعاء لمقامكم الاعلى بصنع يروى فيه عن الاشعث التابر خبر النصر المتواتر لسان البراعة وتأييد لا ترضى فيه القنا بمقام تلك القناعة فانا كتبناه اليكم كتب الله تعالى لمثابتكم العاطر بتخليد المفاخر منشور الاذاعة في أيدي المواسم الموقاعة من حمراء غرناطة حرسها الله تعالى عن خير هامي السحاب وبشر مفتح الابواب وعز للاسلام ببركة الاعتداد بمقامكم المنصور الاعلام مقتبل الشباب وعن ضافي الجلباب والحمد لله على تظافر الايدي في ذاته وتوفر الاسباب وجانبكم الرفيع الامل المنتاب اذا حدت الحداة ذوات الاقتاب ومطمح الوسائل المطردة المسائل بتصحيح الود اللباب والى هذا وصل الله تعالى سعيكم بسوابغ نعمه وآلائه دائمة الانسكاب وجعل ما عل لكم من نعمه وآلائه كفيلة بالزلفى وحسن المئاب وألهمكم تقييد شواردها بالشكر قولا وعملا فالشكر مستدعى لمزيد كما ورد في الكتاب فانه من المنقول الذي اشتهر وراق فضله وبهر قوله اشفعوا تؤجروا وما في معناه من المعتبر في الخبر وتنفيس كربة عن مسلم وسماع شكوى من متظلم ولولا أن مقامكم السني أغنى بالجليل الكثير من هذا المعنى ولما تحقق ما أنتم عليه من سلوك سبيل الخير واقامة رسوم الدين والاهتداء عن هديه

بالنور المبين حتى علمنا أن سعدكم بالسعادات مع الساعات وتجر لكم مع الله بأنفس
الصناعات فبأعظم من ذلك شكرنا الله تعالى عليه حمد منه وشكرنا لكم عليه شرعته وما
بأجزاء صنعنا كم صنعه عذرا نستدر نعمه وعلمنا أن الله تعالى لم يأذن في تعجيله وسألناه
في تيسيره وتسهيله سوا الدنيا في ذلك ما عاد بإعانة عامة وإمداد وساهم في قصد جهاد
وما لم نعد علينا حد وصار على المسلمين عموما بإعانة ولا إرفاد أعلمنا أن تجاب الحجر
الباقي والأجر الراقي إلى بابكم ويدل عليه كريم جنابكم عسى ودادكم صحيحة باد وتجمل
طرفي ذلكم المبين واعتماد سلم تجليه وتسهيله من إسعاد وذلك أن الشيخ الخطيب
الفقيه الكبير الشهير الصدر الأوحد العلامة سلالة الصالحين وخطيب والدكم كبير
الخلفا والسلاطين وبالهاشمين مرشد ميادين أبا عبد الله بن مرزوق جبر الله تعالى على
تذكر الدر حاله وشفى بن ما يكم السني آماله جرى عليه من المحن وسارح الإحن
ما لم كل ذي مروءة وعقل واجتهاد وهل أن ذلك من الجنايات على والدكم السلطان
محسوب وإلى منابته منسوب ولو كان ذنوبه زهوى وشرا لاستدعى إلى بعدها
عفوا كثيرا وعفا الدائك الإمام الصالح الذي كثر حلمه واحترم وشيد وسلم وأمن عين
دعائه وتشبث بهما لواهب الله تعالى وآلائه وأسبل لطفه وعطفه وأوجب المزية
لسعة حيطه وعدونه لطفه فأحيط ذلك من أحبط الأعمال الصالحة وعطل المتاجر الرابحة
وأسف الملك المذكور بعدم ولد واجتراح أمه وعدد وتغيير رسومه وحدوده
وإحاطته وإحاطة النقمة وذه إلى أن ظهر بسفكم الملك من عار وأحدثته ثار
وشرب إلى الله وإلى السلف الكريم غير آثار والحمد لله على ما خصه من إيثار وتدارك
الإسلام بإقالة عثار وإنه خاطبنا الآن من حضر تونس شرح من حاله ما نصب الفؤاد
وأوجب الامتعاض له والاجتهاد بطلب منا الإعانة بيديكم والإنجاد وشكوا العيلة
والأولاد والغربة إلى أجلته الأقطار النازحة والبلاد والحوادث إلى سلبه الطارف
والتلاد وإن تذكركم بوسيلته وضعف حيلته فبادرنا لذلك عملا بالواجب وسلوكا
من بر ورعي حقه على السنن اللاحب وإن كان تلوثه في أمر بأعد البادية علينا عسيرا
ولا نشكر إلا الله وليا ونصيرا جعله علينا أوجب فهو الذي لا يجحد ولا يحجب ولا يلتبس
منه المذهب وكيف لا نشفع من جده السلف إلى الله تعالى شفيعا وأحله محلا منيعا
رفيعا إلى وليه الذي حفظ ملكه شريعا وصير جنابه بعد المحول مريعا وخدد شرفه
باب لا إلها وشريعا وما ملككم بن أعظم نعمة في شهر مطلوم وشيم مكارم وإعدا كريم
على لوم وهي ماد كرى تنفع وشفيع على أجزم يشفع وإسعاف أن سال ما يعلي بين
قدركم ويرفع وبإرادة طي سلفكم الذي يوري عوده والإبلاغ بتجديد سعده إلى مجدكم
الذي لا ينقصه عن المحامد ولا يعوقه وطلبه في حسب مالكم الكريم جميع وهو به
إلى ما منح الله تعالى به على يد صدقتكم يشير ومن لكم الأروى وبابكم في الخير أطول
وساعدكم أدوى وما تعملوا من خير تجدوه عند الله وتزودوا فإن خير الزاد التقوى والله عز
وجل يبلغ بكم المسالك إلى عقد باعج لذكركم ونعلم عبد الله أجركم فأعاد الله حر

للإبرار

للابرار والدنيا دار الغرور والآخرة دار القرار وهو سبحانه يصل سعدكم ويحرس مجدكم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته انتهى * والسلطان المخاطب بهذا هو أبو فارس عبد العزيز ابن السلطان الكبير الشهير أبي الحسن المريني وكان ابن مرزوق غالبا على دولة السلطان أبي سالم أخي أبي فارس المذكور فقتله الوزير عمر بن عبد الله الودودي وتغلب على الملك ونصب أخا لابي سالم معتوها وسجن ابن مرزوق ورام قتله فخلصه الله تعالى منه ثم ان السلطان أبا فارس ثار على الوزير المتغلب وقتله واستقل بالملك فخوطب في شأن ابن مرزوق بما ذكر *(رجع الى ما كنا فيه من ذكر الراحلين من أعلام الاندلسيين الى البلاد المشرقية المحروسة بالله سبحانه وتعالى فنقول *(ومنهم أبو الوليد وأبو محمد عبد الله بن محمد بن يوسف بن نصر الازدي القرطبي المعروف بابن الفرضي الحافظ المشهور وكان فقيها عالما عارفا بفنون علم الحديث ورجاله بارعا في الادب وغيره وله من التصانيف تاريخ علماء الاندلس وقفت عليه بالمغرب وهو بديع في بابه وهو الذي ذيل عليه ابن بشكوال بكتاب الصلة وله كتاب حسن في المؤتلف والمختلف وفي مشتبه النسبة وكتاب في أخبار شعراء الاندلس وغير ذلك ورحل من الاندلس الى المشرق سنة ٣٨٣ فحج وسمع من العلماء وأخذ عنهم وكتب من أماليهم وروى عن شيوخ عدة من أهل المشرق ومن شعره

أسير الخطايا عند بابك واقف * على وجل مما به أنت عارف

يخاف ذنوبا لم يغب عنك غيبها * ويرجوك فيها فهو راج وخائف

ومن ذا الذي يرجى سواك ويتقى * ومالك في فصل القضاء مخالف

فيا سيدي لا تخزني في صحيفتي * اذا نشرت يوم الحساب الصحائف

وكن مؤنسي في ظلمة القبر عندما * يصد ذوو القربى ويجفو المؤالف

لئن ضاق عني عفوك الواسع الذي * أرجي لاسرافي فاني لتالف

وكان رحمه الله تعالى حسن الشعر والبلاغة ومن شعره أيضا رحمه الله تعالى

ان الذي أصبحت طوع يمينه * ان لم يكن قمرا فليس بدونه

ذلي له في الحب من سلطانه * وسقام جسمي من سقام جفونه

وله شعر كثير ومولده في ذي القعدة ليلة الثلاثاء لتسع بقين منه سنة ٣٥١ وتولى القضاء بمدينة بلنسية في دولة محمد المهدي المرواني وقتله البربر يوم فتح قرطبة يوم الاثنين لست خلون من شوال سنة ٤٠٣ وبقي في داره ثلاثة أيام ودفن متغيرا من غير غسل ولا كفن ولا صلاة رحمه الله تعالى وروى عنه انه قال تعلقت بأستار الكعبة وسألت الله تعالى الشهادة ثم انحرفت وفكرت في هول القتل فندمت وهممت أن أرجع فأستقيل الله سبحانه وتعالى فاستحييت وأخبر من رآه بين القتلى ودنا منه فسمعه يقول بصوت ضعيف لا يكلم أحد في سبيل الله والله أعلم بمن يكلم في سبيله الا جاء يوم القيامة وجرحه يثعب دما اللون لون دم والريح ريح المسك كأنه يعيد على نفسه الحديث الوارد في ذلك قال ثم قضى على اثر ذلك وهذا الحديث أخرجه مسلم في صحيحه وقد ساق في المطمح حكايته فقال كان حافظا عالما كلفا بالرواية رحل في طلبها وتبحر في المعارف بسببها مع حظ من الادب

كبير واستفاد الناس منه وشهر وبرع في الزهد والورع فعلى أستار الكعبة سأل الله السداد ثم فكر في الفضل ومزاياه والشرف ومزاره فأراد أن يرجع ويستقيل الله تعالى فاستخار وآثر نعيم الآخرة على متاع الدنيا فأصبح في تلك البقعة مكرما وقيل مظلوما ثم ذكر لي أمره وتمثل في طريقه متشوقا إلى أهل صقعه

فقلبي يثور قد عدم لأنه • وما قلبي إلا إذا غبتم مهرا
ومالي حياة بعدكم أستلذها • ولو كان هذا لم أكن في الهوى حرا
ولم يسلني طول التنائي عنكم • بلى زادني وجدا وجدد لي ذكرا
يمثلكم لي طول شوقي إليكم • ويدنيكم حتى أناجيكم سرا
سأستعتب الدهر المفرق بيننا • وهل نافعي أن صرت أستعتب الدهرا
أعلل نفسي بالتي في لقائكم • وأستسهل البر الذي جبت والبحرا
ويؤنسني طي المراحل عنكم • أروح على أرض وأغدو على أخرى
ووالله ما فارقتكم عن قلى لكم • ولكنها الأقدار تجري كما تجري
رعتكم من الرحمن عين بصيرة • ولا كشفت أيدي النوى عنكم سترا

وقد عرف به ابن حيان في المقتبس وذكر قصة شهادته رحمه الله تعالى ● (ومنهم الشيخ أبو بكر محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله البكري الشريشي المالكي ولد بشريش سنة ٦٠١ ورحل إلى العراق فسمع به المشايخ كالقطيعي وابن روزبه وابن الكبير وغيرهم واشتغل وساد أهل زمانه واشتهر بين أقرانه ثم عاد إلى مصر ودرس بالفاضلية ثم انتقل إلى القدس الشريف فأقام به شيخ الحرم ثم جاء إلى دمشق المحروسة بالله وولي مشيخة الحديث بتربة أم الصالح ومشيخة الرباط الناصري ومشيخة المالكية وعرض عليه القضاء فلم يقبل وكانت وفاته يوم الاثنين الرابع والعشرين من رجب بالرباط الناصري ودفن بسفح قاسيون رحمه الله تعالى وذلك سنة خمس وثمانين وستمائة رحمه الله تعالى وليس هو بشارح المقامات بل هو غيره وقد اشتبه كون البلد نسبة ذلك فوقع في الأذهان الوهم في أمرهما فشارح المقامات أحمد وهذا محمد وقد ترجمنا صاحب شرح المقامات فيما تقدم من هذا الباب فليراجع والله سبحانه وتعالى أعلم ● (ومنهم أبو محمد عبد العزيز بن أحمد بن السيد بن المغلس القيسي الأندلسي البلنسي كان من أهل العلم باللغة والعربية مشارا إليه فيهما رحل من الأندلس وسكن مصر واستوطنها وقرأ الأدب على أبي العلاء صاعد اللغوي صاحب الفصوص وعلى أبي يعقوب يوسف بن سرهان بمصر ودخل بغداد واستفاد وأفاد وله شعر حسن فمن ذلك قوله

مريض الجفون بلا علة • ولكن قلبي به ممرض
أعان السهاد على مقلتي • بفيض الدموع فما تغمض
وما زار شوقا ولكن أتى • يعرض لي أنه معرض

وله أشعار كثيرة وتوفي يوم الأربعاء لست بقين من جمادى الأولى سنة ٤٢٧ وقيل سنة ٤٢٩ بمصر وكان استوطنها وصلى عليه الشيخ أبو الحسن علي بن إبراهيم الحوفي صاحب

التمير في مصلى الصدفي ودفن عند أبي اسحق رحمه الله تعالى ومغلس بضم الميم وفتح الغين وتشديد اللام المكسورة وبعدها سين مهملة وكانت بينه وبين أبي الطاهر اسمعيل بن خلف صاحب كتاب العنوان معارضات في قصائد ومن شعر ابن المغلس أيضا قوله في حمام

ومنزل أقوام اذا ما اغتدوا به * تشابه فيه وغده ورئيسه
يخالط فيه المرء غير خليطه * ويضحى عدو المرء وهو جليسه
يفرج كربي ان تزايد كربه * ويؤنس قلبي ان يعد أنيسه
اذا ما أعرت الجو طرفا تكاثرت * على مائه أقماره وشموسه

*(ومنهم أبو الحكم عبيد الله بن المظفر بن عبد الله الحكيم الاديب المعروف بالمغربي وهو من أهل المرية وانتقل الى المشرق وكان كامل الفضيلة وجمع بين الادب والحكمة وله ديوان شعر جيد والخلاعة والمجون غالبة عليه وذكر العماد في الخريدة أنه كان طبيب المارستان في معسكر السلطان السلجوقي حيث حل وخيم وكان السديد يحيى بن سعيد المعروف بابن المرخم الذي صار أقضى القضاة ببغداد في أيام المقتفي فاصدا وطبيبا في هذا المارستان وأثنى العماد على أبي الحكم المذكور وذكر فضله وما كان عليه وان له كتابا سماه نهج الوضاعة لاولي الخلاعة ثم ان أبا الحكم انتقل الى الشام وسكن دمشق وله فيها أخبار ومايريات طريفة تدل على خفة روحه قال ابن خلكان رأيت في ديوانه أن أبا الحسين أحمد بن منير الطرابلسي كان عند الامراء بني منقذ بقلعة شيزر وكانوا مقبلين عليه وكان بدمشق شاعر يقال له ابو الوحش وكانت فيه دعابة وبينه وبين أبي الحكم المذكور مداعبات وسأل منه كتابا الى ابن منير بالوصية عليه فكتب أبو الحكم

أبا الحسين اسمع مقال فتى * عوجل فيما يقول فارتجلا
هذا أبو الوحش جاء ممتدحا * للقوم فاهنأ به اذا وصلا
واتل عليهم بحسن شرحك ما * أنقله من حديثه جملا
وخبر القوم انه رجل * ما أبصر الناس مثله رجلا
تنوب عن وصفه شمائله * لا يبتغي عاقل به بدلا

ومنها

وهو على خفة به أبدا * معترف أنه من الثقلا
يمت بالشلب والرقاعة والسخف وأما بغير ذلك فلا
ان أنت فاتحته لتخبر ما * يصدر عنه فتحت منه خلا
فنبه ان حل خطة الخسف والـ*ـهون ورحب به اذا رحلا
وأسقه السم ان طرقت به * وامزح له من لسانك العسلا

وله أشياء مستملحة منها مقصورة هزلية ضاهى بها مقصورة ابن دريد من جملتها

وكل ملوم فلا بد له * من فرقة لو ألزقوه بالغرا

وله مرثية في عماد الدين بن يحيى بن آق سنقر الاتابكي شاب فيها الجد بالهزل والغالب على شعره الانطباع وتوفي ليلة الاربعاء رابع ذي القعدة سنة ٥٤٩ وقيل في السنة التي

فلقاه منصور رحمه الله تعالى * والقاضي ابن المرخي المذكور هو الذي قال فيه أبو القاسم هبة الله بن الفضل الشاعر لما رجف بأن القضاء

يا ابن المرخي صرت فينا قاضيا * خرف الزمان تراه أم جن الفلك

إن كنت تحكم بالنجوم فربما * أما شريعة أحمد فأبى لك

وكان أبو الحكم المذكور فاضلا في العلوم الحكمية متقنا للصناعة الطبية حسن النادرة كثير الدعابة محبا للهو والخلاعة والشراب وكان يعرف صنعة الموسيقى ويلعب بالعود وعاش في ذلك عمرا ويحكى بالنادر وأتى في ديوانه من الوقاعة بكل غريب يدل على أنه أديب سامحه الله تعالى وغفر له * (ومن الراحلين من الأندلس إلى المشرق) * من هو الأحق بالتقديم والسبق الشهير عند أهل الغرب والشرق الحافظ المقرئ الإمام الرباني أبو عمرو الداني عثمان بن سعيد بن عثمان بن سعيد بن عمر الأموي مولاهم القرطبي صاحب التصانيف التي منها التيسير والتيسير وعرف بالداني لسكناه دانية وولد سنة ٣٧١ وابتدأ بطلب العلم سنة ٣٨٧ ورحل إلى المشرق سنة ٣٩٧ فمكث بالقيروان أربعة أشهر ودخل مصر في شوال من السنة وحج ورجع إلى الأندلس في ذي القعدة سنة ٣٩٩ وقرأ بالروايات على عبد العزيز بن جعفر الفارسي وغيره بقرطبة وعلى أبي الحسن بن غلبون وخلف بن خاقان المصري وأبي الفتح فارس بن أحمد وسمع من أبي مسلم الكاتب وهو أكبر شيخ له ومن عبد الرحمن بن عثمان القشيري وحاتم بن عبد الله البزاز وغير واحد من أهل مصر وسواها وسمع من الإمام أبي الحسن القابسي وجال كتبه بالحجاز ومصر والمغرب والأندلس وتلا عليه خلق منهم مفرج الإقبالي وأبو داود بن نجاح صاحب التنزيل في الرسم وهو من أجل تلامذته وحدث عنه خلق كثير منهم خلف بن إبراهيم الطليطلي قال أبو محمد عبد الله الحجري ذكر بعض الشيوخ أنه لم يكن في عصر الحافظ أبي عمرو الداني ولا بعد عصره أحد يضاهيه ولا يضاهيه في حفظه وتحقيقه وكان يقول ما رأيت شيئا قط إلا كتبته ولا كتبته إلا حفظته ولا حفظته فنسيته قال ابن بشكوال كان أبو عمرو أحد الأئمة في علم القرآن ورواياته وتفسيره ومعانيه وطرقه وإعرابه وجمع في ذلك كله تواليف حسانا وله معرفة بالحديث وطرقه وأسماء رجاله وكان حسن الخط والضبط من أهل الحفظ والذكاء والتفنن وكان دينا فاضلا ورعا سنيا وقال بعضهم وأظنه المغامي كان أبو عمرو مجاب الدعوة مالكي المذهب وقال بعض أهل العلم إن أبا عمرو الداني قرئ ما تقدم وإليه المنتهى في علم القرآن وإسناد القرآن والقراء خاضعون لتصانيفه واثقون بنقله في القرآن والرسم والتجويد والوقف والابتداء وغير ذلك له مائة وعشرون مصنفا وروى عنه بالإجازة رجلان أحمد بن محمد بن عبد الله الخولاني وأبو العباس أحمد بن عبد الملك بن أبي حمزة وكانت وفاته رحمه الله تعالى بدانية في نصف شوال سنة أربع وأربعين وأربعمائة * (ومنهم أبو محمد عبد الله بن عيسى بن عبد الله بن أحمد بن أبي حبيب الأندلسي من بيت علم ووزارة صرف عمره في طلب العلم في الفقه والحديث والأدب وولي القضاء بالأندلس ثم دخل الإسكندرية ومصر وسافر إلى مكة

المشرق ثم قدم العراق وأقام ببغداد مدة ثم وافى خراسان فأقام بنيسابور وبلخ وكانت ولادته ببلاد الاندلس وتوفي بهراة في شعبان سنة ٥٤٨ رحمه الله تعالى ورضي عنه *(ومنهم أبو العباس أحمد بن علي بن محمد بن علي بن شكر الاندلسي المقرى رحل وأخذ القراآت عن أبي الفضل جعفر الهمداني وسمع من أبي القاسم بن عيسى وسكن الفيوم واختصر التيسير وصنف شرحا للشاطبية وتوفي سنة ٦٤٠ رحمه الله تعالى *(ومنهم العلامة ذو الفنون علم الدين القاسم بن أحمد المرسي اللورقي المقرى النحوي ولد سنة ٥٧٥ وقرأ القراآت وأحكم العربية وبرع فيها واجتمع بالجزولي وسأله عن مسئلة في مقدمته وقرأ علم الكلام والاصولين والفلسفة وكان خبيرا بهذه العلوم مقصودا باقرائها وولي مشيخة قراءة العادلية ودرس بالعزيزية نيابة وصنف شرحا للشاطبية وشرحا للمفصل في عدة مجلدات وشرح الجزولية وغير ذلك وكان مليح الشكل حسن البزة رحمه الله تعالى وتوفي سنة ٦٦١ رحمه الله تعالى ورضي عنه *(ومنهم أبو عبد الله بن أبي الربيع القيسي الاندلسي الغرناطي قدم مصر سنة ٥١٥ او بعدها فسمع على السلفي وبقراءته على جماعة من شيوخ مصر وكان لديه فقه وأدب ثم سافر الى باب الابواب وكان حيا سنة ٥٥٦ ومن نظمه يمدح كتاب الشهاب

انّ الشهاب له فضل على الكتب * بما حوى من كلام المصطفى العربي
كم ضمّ من حكمة غرّا وموعظة * ومن وعيد ومن وعد ومن أدب
أمّا القضاعي فالرحمن يرحمه * كما حماه من التأليف بالعجب

*(ومنهم الحافظ أبو عامر محمد بن سعدون بن مرجى القرشي العبدري من أهل ميورقة من بلاد الاندلس سكن بغداد وسمع بها من أبي الفضل بن خيرون وطراد الزينبي وأبي عبد الله الحميدي وجماعة ولم يزل يسمع الى حين وفاته وكتب بخطه كثيرا من الكتب والاجزاء وجمع وخرّج وكان صحيح النقل معتمد الضبط مرجوعا اليه في الاتقان وكفاه فخرا وشرفا أن روى عنه الحافظان أبو طاهر السلفي وأبو الفضل محمد بن ناصر وكان فهامة علامة ذا معرفة بالحديث متعففا مع فقره وكان يذهب الى أنّ المناولة والعرض كالسماع وقال السلفي فيه انه من أعيان علماء الاسلام بمدينة السلام متصرف في فنون من العلم أدبا ونحوا ومعرفة بأنساب العرب والمحدثين وكان داودي المذهب قرشي النسب وقد كتب عني وكتبت عنه وسمعنا معا كثيرا على شيوخ بغداد ومولده بقرطبة من مدن الاندلس وقبل اجتماعي به كنت أسمع اسمعيل بن محمد بن الفضل الحافظ بأصبهان يثني عليه فلما اجتمعنا وجدته فوق ما وصفه انتهى وقال ابن عساكر كان أحفظ شيخ لقيته وربما حكى عنه بعضهم كابن عساكر أمورا منكرة فالله أعلم وتوفي في ربيع الآخر سنة ٥٢٤ ببغداد رحمه الله تعالى *(ومنهم أبو عبد الله محمد بن سعدون الباجي سمع بمصر من ابن الورد وابن السكن وابن رشيق وبمكة من الآجري وكان صالحا فاضلا زاهدا ورعا حدّث ومات ببطليوس فجاءة سنة ٣٩٢ ومولده سنة ٣٢٢ *(ومنهم أبو بكر محمد بن سعدون التميمي الجريري المتعبد كانت آدابه كثيرة وحج غير مرة ورابط ببلاد المغرب وكان حسن الصوت

بالقرآن سمع بمصر من جماعة وبمكة وصحب الفقراء وطاف بالشام وغيرها وبرز من نهاوند وبرز من علمه وساح على الشط وذكر أنه صلى خلف الشيخ أبي عمر ركعتين ثم نام فرأى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله إن مالكاً والليث اختلفا في الشيء فمالك يقول فيما غير ركبتيه والليث يقول عانته فضرب عليه الصلاة والسلام بين وركي ابن سعدون وقال رأي مالك هو الصواب بلا ريب قال وكان في وركي وسمع من ابن اللباد وابن عيسى وكان له راهب من يرتدي عليه إذا صلى وبقي وأنشد

محن اللسان هو السلامة للفتى • من كل نازلة لها استئصال
إن اللسان إذا حللت عقاله • ألقاك في شنعاء ليس تقال

توفي سنة ٣٤٤ •(ومنهم أبو عبد الله محمد بن سعيد الأعرج الطائي قاضي الحماب وقال فيه ابن سعيد سمع بمصر ابن الورد وابن السكن وحدث مولده سنة ٢٩٣ وتوفي في ربيع الآخر سنة ٣٨٤ •(ومنهم أبو عبد الله محمد بن سعيد بن إسحاق بن يوسف الأموي القرطبي وأصله من لبلة ولكن سكن قرطبة وقدم مصر وحج وسمع في طريقه من الشيخ أبي محمد بن أبي زيد صاحب الرسالة وأحمد بن إبراهيم الهمداني وعن جماعة من علماء مصر والحجاز ومولده سنة ٣٥٢ ورحلته سنة ٤١٨ •(ومنهم أبو عبد الله محمد بن سعيد بن حسان ابن الحكم بن هشام القرطبي سمع من أبيه ويحيى بن يحيى وعبد الملك بن حبيب ورحل فسمع من أشهب بن عبد العزيز وعبد الله بن نافع وعبد الله بن عبد الحكم وعاد إلى الأندلس وبها توفي سنة ٢٦ رحمه الله تعالى •(ومنهم أبو عبد الله محمد بن سليمان المعافري الشاطبي نزيل إسكندرية ويعرف بابن أبي الربيع أحد أولياء الله تعالى الشيخ الصالح صاحب الكرامات المشهور جمع بين العلم والعمل والورع والزهد والانقطاع إلى الله تعالى والتخلي عن الناس والتمسك بطريق السلف قرأ القرآن ببلده بالقراءات السبع على أبي عبد الله محمد بن سعادة الشاطبي وغيره وقرأ بدمشق على الواسطي وسمع عليه الحديث ورحل فسمع من الزاهد أبي يوسف يعقوب خادم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بمنبر ومصر سنة ٦١٧ وسمع بدمشق على أبي القاسم بن صصرى وأبي المعالي بن صصرى وأبي الوفاء بن عبد الحق وغيرهم وانقطع لعبادة الله تعالى في رباط سوار من الإسكندرية تربة أبي العباس الرازي وتلقب بالشاطبي لذلك الرائي وصنف كتباً حسنة منها كتاب المسلك القريب في ترتيب الغريب وكتاب اللمعة الجامعة في العلوم النافعة في تفسير القرآن العزيز وكتاب شرف المراتب والمنازل في معرفة العالي في القراءات والنازل وكتاب المباحث السنية في شرح الحصرية وكتاب الحرزية في الناس المزنية وكتاب المنهج المفيد فيما يلزم الشيخ والمريد وكتاب اللمعة الجلية في ألفاظ اصطلح عليها الصوفية وكتاب زهر العريش في تحريم الحشيش وكتاب الزهر المضي في مناقب الشاطبي وكتاب الأربعين المضية في الأحاديث النبوية ومولده بشاطبة سنة ٥٨٥ ووفاته بالإسكندرية في رمضان سنة ٦٧٢ ودفن بتربته المجاورة لزاويته رحمهما الله تعالى ونفع بهما •(ومنهم أبو عبد الله محمد بن شريح الرعيني الإشبيلي قدم مصر وسمع بها من ابن نفيس

وأبي

وأبي علي الحسن البغدادي وأبي جعفر النحوي وأبي القاسم بن الطيب البغدادي الكاتب وبمكة من أبي ذر الهروي قال ابن بشكوال كان من جلة المقرئين وخيارهم ثقة في روايته وكانت رحلته الى المشرق سنة ٤٢٣ وولد سنة ٣٩٢ وتوفي سنة ٤٧٦ وعمره أربع وثمانون سنة الاخمسة وخمسين يوما وروى باشبيلية عن جماعة رحمه الله تعالى

*(ومنهم أبو عبد الله محمد بن صالح الانصاري المالقي قال السلفي هو شاب من أهل الادب له شاعر سمع كان يحضر عندي بالاسكندرية كثير السماع للحديث وذكر أنه قرأ الادب على أبي الحسين بن الطراوة النحوي بالاندلس وعلى نظرائه وأنشدني لنفسه

كم ذا تقلقلني النوى وتسوقني * والى متى أشقى بها وأسام
ألفت ركائبي الفلا فكانما * للبين عهد بيننا وذمام
ياويح قلبي من فراق أحبة * أبدا تصدعه به الايام

*(ومنهم أبو عبد الله محمد بن صالح القحطاني المعافري الاندلسي المالكي رحل الى المشرق فسمع بالشام من خيثمة بن سليمان وبمكة أبا سعيد بن الاعرابي وببغداد محمد بن اسمعيل بن محمد الصفار وسمع بالمغرب بكر بن حماد التاهرتي ومحمد بن وضاح وقاسم بن اصبغ وغيرهم وبمصر جماعة من أصحاب يونس والمزني روى عنه أبو عبد الله الحاكم وقال اجتمعنا به بهمذان مات ببخارى سنة ٣٨٣ وقيل سنة ثمان وقيل سنة تسع وسبعين وقال فيه أبو سعيد الاندلسي انه كان من أفاضل الناس ومن ثقاتهم وقال غنجار انه كان فقيها حافظا جمع تاريخا لاهل الاندلس وقال السمعاني فيه كان فقيها حافظا رحل في طلب العلم الى المشرق والمغرب رحمه الله تعالى *(ومنهم أبو عبد الله محمد بن طاهر علي بن عيسى الخزرجي الداني النحوي أخو أبي العباس بن عيسى سمع بدانية من أبي داود المقري وغيره وقدم دمشق سنة ٥٥٤ حين خرج حاجا وأقرأ بدمشق النحو مدة ثم خرج الى بغداد وأقام بها الى أن مات سنة ٦١٩ وولد سنة ٥١٢ وقدم مصر سنة ٥٧٢ وله من المصنفات كتاب تحصيل عين الذهب من معدن جوهر الادب في علم مجازات العرب ومن كلامه ليست هيبة الشيخ لشيبه ولا لسنه ولا لشخصه ولكن لكمال عقله والعقل هو المهاب ولو رأيت شخصا جمع جميع الخصال وعدم العقل لما هبته وقال من جهل شيأ عابه ومن قصر عن شئ هابه *(ومنهم القاضي الشهير محمد بن بشير وهو محمد بن سعيد بن بشير بن شراحيل المعافري وقيل في آبائه غير ذلك كما يأتي ولما أشير على الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل بتقديم ابن بشير الى خطة القضاء بقرطبة وجه اليه بياجة فأقبل ولا يعلم ما دعي اليه ونزل على صديق له من العباد فحدث في شأن استدعائه وقدم أنه يعرف فن الكتابة فقال له العابد ما أراه بعث فيك الا للقضاء فان القاضي بقرطبة مات وهي الآن دون قاض فقال ابن بشير فأنا أستشيرك في ذلك ان وقع فقال أسألك عن أشياء ثلاثة وأعزم عليك أن تصدقني فيها ثم أشير بعد ذلك عليك فقال ماهي فقال كيف حبك لأكل الطيب واللباس اللين وركوب الفاره فقال والله لا أبالي ما رددت به جوعي وسترت به عورتي وحملت به رحلي فقال هذه واحدة فكيف حبك للتمتع بالوجوه الحسان والتبطن للكواعب

العبد وما شاكل ذلك من الشهوات فقال هذا حال والله ما استفزتني قط الهوى ولا خطرت
ببالي ولا اكترثت لفقدها فقال وهذه ثانية فكيف حبك لمدح الناس لك وتسليمهم عليك
وكيف حبك للولاية وكراهتك للعزل فقال والله ما أبالي في الحق من مدحني أو ذمني
وما أسر للولاية ولا أستوحش للعزل فقال وهذه الثالثة أهل الولاية فلا بأس عليك فقدم
قرطبة وولاه الأمير الحكم القضاء والصلاة قال ابن وضاح أخبرني من كان يرى محمد بن
بشير القاضي داخلا على باب المسجد الجامع يوم الجمعة وعليه رداء معصفر وفي رجله نعل
صرار وله جمة مفرقة ثم يقوم فيخطب ويصلي وهو في هذا الزي وقد كان يطلب للقضاء من
الناس فإن رام أحد أن يذمه سببا وجده أبعد من الثريا وأتاه رجل لا يعرفه فلما رأى ما هو
فيه من زي الملاهي من الجمة المفرقة والرداء المعصفر وظهور الكحل والسواك والحناء
في يديه توقف وقال دلوني على القاضي فقيل له ها هو وأشير إليه فقال إني رجل غريب
وأراكم تستهزئون بي أنا أسألكم عن القاضي وأنتم تدلوني على زامر فحصر إليه أنه القاضي
فتقدم إليه واعتذر فأدناه وتحقق منه ووجد عنده من العدل والإنصاف فوق ما ظنه
فكان يحدث بشيء منه وعوتب في إرسال لمته ولباسه الخز والمعصفر فقال حدثني مالك
ابن أنس أن محمد بن المنكدر وكان سيد القراء كانت له لمة وأن هشام بن عروة فقيه
هذا البلد يعني المدينة كان يلبس المعصفر وأن القاسم بن محمد كان يلبس الخز ولقد سئل يحيى
ابن يحيى عن لباس العمائم فقال هي لباس الناس في المشرق وعليه كان أمرهم في القدم
فقيل له لو لبستها لاتبعك الناس في لباسها فقال قد لبس محمد بن بشير الخز فما تبعه الناس فيه
وكان ابن بشير أهلا أن يقتدى به فلعلي لو لبست العمامة لتركني الناس ولم يتبعوني كما تركوا
ابن بشير وكان أول ما نظر فيه محمد بن بشير حين ولي القضاء التسجيل على الخليفة الحكم
في أرحي القنطرة ادعيت عليه فيها وثبت عنده حق المدعي وأعذر إلى الحكم فلم يكن عنده
مدفع فسجل فيها وأشهد على نفسه فانتصف منه حتى ابتاعها الحكم ابتياعا صحيحا
فسر بذلك وقال رحم الله محمد بن بشير لقد أحسن فيما فعل بنا على كره منا كان
في أيدينا شيء فيه شبهة فصار حلالا طيب الملك في أعقابنا وحكم على ابن فطيس
الوزير ولم يعرفه بالشهود فرفع الوزير ذلك إلى الحكم وتظلم من ابن بشير وما الحكم إليه
أن الوزير ذكر أنك حكمت عليه بشهادة قوم لم تعرفه بهم ولا أعذرت إليه فيهم وأن أهل العلم
يقولون إن ذلك له فكتب إليه ابن بشير ليس ابن فطيس ممن يعرف من شهد عليه لأنه
إن لم يجد سبيلا إلى تجريحهم لم يتحرج عن طلب أذاهم في أنفسهم وأموالهم فيدعون
الشهادة ومن أين لي بهم وتضيع أموال الناس . وأكثر ومشى بن جماعة أحد خواص
الأمير الحكم في ابن بشير الشكاية وأنه يجور عليه فقال له الحكم أنا أمتحن قولك الساعة
فاخرج إليه فورا واستأذن عليه فإن أذن لك عزلته وصدقت قولك فيه وإن لم يأذن لك
دون خصمك ازددت بصيرة فيه فلبس وعمد التجار على بال وأمنا يقصده الحق في كل
ما يتصرف فيه فخرج نحو دار ابن بشير وقد أمر الحكم من يثق به من الفتيان الصقالبة
أن يقفوا أثره ويعلموا ما يكون منه فلم يكن إلا ريثما بلغ ثم انصرف فحكى للحكم أنه لما خرج

الاّذن الى موسى وعلم القاضى بمكانه عاد اليه فقال له ان كانت لك حاجة فاقصد فيها اذا
جلس القاضى بمجلس القضاء فتبسم الحكم وقال قد أعلمته أن ابن بشير صاحب حق
لاهوادة فيه عنده لاحد * وولى القضاء مرتين فلما عزل المرة الاولى انصرف الى بلده وكان
بعض اخوانه يعاتبه فى صلابته ويقول له أخشى عليك العزل فيقول له ليته قد رأت
الشقراء يعنى بغلته تقطع الطريق بى حادة نحو باجة ماضى الا يسير حتى عتب عليه الامير
فى قصة اشتد فيها على بعض خاصته فكانت سببا لعزله وانصرف كما تمنى فلم يمكث الا يسيرا
حتى أتى فيه رقاص من قبل الامير الحكم والرقاص عند المغاربة هو الساعى عند المشارقة
فعاد الى قرطبة وجبره على القعود للقضاء الامير الحكم فلاذ منه باليمين بطلاق زوجته
وبصدقة ما يملك فى سبيل الله تعالى ان حكم بين اثنين فلم يعذره وأخرجه من ماله وعوضه من
طيب ما عنده ووهب له جارية من جواريه فعاد الى القضاء ثانية * ومما يحكى عنه
فى العدل أن سعيد الخير ابن السلطان عبد الرحمن الداخل وكل عند ابن بشير وكيلا يخاصم
عنه لشئ اضطر اليه وكانت بيده فيه وثيقة فيها شهادات شهود قد ماتوا ولم يكن فيها من
الاحياء الا الامير الحكم وشاهد آخر مبرز فشهد لسعيد الخير ذلك الشاهد وضربت على
وكيله الآجال فى شاهد ثان وجد به الخصام فدخل سعيد الخير بالكتاب الى الحكم وأراه
شهادته فى الوثيقة وقد كان كتبها قبل الخلافة فى حياة أبيه وعرفه مكان حاجته الى ادائها
عند قاضيه خوفا من بطلان حقه وكان الحكم يعظم سعيد الخير عمه ويلتزم مبرته فقال له
يا عم انا لسنا من أهل الشهادات وقد التبسنا من هذه الدنيا بما لا يجهل ونخشى أن نوقفنا
مع القاضى موقف مخزاة كنا نفديه بملكنا فصر فى خصامك حيث صيرك الحق اليه وعلينا
خلف ما انتقصك فأبى عليه وقال سبحان الله وما عسى أن يقول قاضيك فى شهادتك
وأنت وليته وهو حسنة من حسناتك وقد لزمك فى الديانة أن تشهد لى بما علمته ولا تكتمني
ما أخذ الله عليك فقال بلى ان ذلك لمن حقك كما تقول ولكنك تدخل علينا به داخلة فان
أعفيتنا منه فهو أحب الينا وان اضطررتنا لم يمكنا عقوقك فعزم عليه عزم من لم يشك أن قد
ظفر بحاجته وسابقته الآجال فألح عليه فأرسل الحكم عند ذلك الى فقيهين من فقهاء
زمانه وخط شهادته بيده فى قرطاس وختم عليها بخاتمه ودفعها الى الفقيهين وقال لهما
هذه شهادتى بخطى تحت ختمى فأدياها الى القاضى فأتياه الى مجلسه وقت قعوده للسماع
من الشهود فأدياها اليه فقال لهما قد سمعت منكما فقوما راشدين فى حفظ الله تعالى وجاء
وكيل سعيد الخير وتقدم اليه مدلا واثقا وقال له أيها القاضى قد شهد عندك الامير أصلحه
الله تعالى فما تقول فأخذ كتاب الشهادة ونظر فيه ثم قال للوكيل هذه شهادة لا تعمل عندى
فجئنى بشاهد عدل فدهش الوكيل ومضى الى سعيد الخير فأعلمه فركب من فوره الى الحكم
وقال ذهب سلطاننا وأزيل بهاؤنا أيجترئ هذا القاضى على رد شهادتك والله سبحانه قد
استخلفك على عباده وجعل الامر فى دمائهم وأموالهم اليك هذا ما يجب أن تحمله عليه
وجعل يغريه بالقاضى ويحرضه على الايقاع به فقال له الحكم وهل شككت أنا فى هذا يا عم
القاضى رجل صالح والله لا تأخذه فى الله لومة لائم فعل ما يجب عليه ويلزمه وسد دونه بابا

الكامل للمبرد وقال الحكم المستنصر لم يصح كتاب الكامل عندنا من روايه الامن قبل ابن ابى قلاعة وكان ابن جابر الاشبيلى قد رواه قبل بعصر مدة وماعلمت أحدا رواه غيرهما وكان ابن الاحمر القرشى يذكر انه رواه وكان صدوقا ولكن كتابه ضاع ولو حصر ضاهى الرجلين المتقدمين *(ومنهم محمد بن حزم بن بكر التنوخى من أهل طليطلة وسكن قرطبة يعرف بابن المديني سمع من أحمد بن خالد وغيره وصحب محمد بن مرة الجلي قديما واختص عرافقته فى طريق الحج ولازمه بعد انصرافه وكان من أهل الورع والانقباض وحكى عن ابن مسرة أنه كان فى سكناه المدينة يتتبع آثار النبي صلى الله عليه وسلم قال ودله بعض أهل المدينة على دار مارية أم ابراهيم سرية النبي صلى الله عليه وسلم فقصد اليها فاذا هى دويرة لطيفة بين البساتين بشرقي المدينة عرضها وطولها واحد قد شق فى وسطها بحائط وفرش على حائطها خشب غليظ يرتقى الى ذلك الفرش على خارج لطيف وفى أعلى ذلك بيتان وسقيفة كانت مقعد النبي صلى الله عليه وسلم فى الصيف قال ورأيت أبا عبد الله بعد ما صلى فى البيتين والسقيفة وفى كل ناحية من نواحى تلك الدار ضرب أحد البيتين بشبره ومكشفته بعد انصرافى وهو ساكن فى الجبل عن ذلك فقال هذا البيت الذى ترانى فيه بنيته على تلك الحكاية فى العرض والطول بلا زيادة ولا نقصان انتهى *(ومنهم محمد بن يحيى ابن مالك بن يحيى بن عائذ ولد أبى زكريا الراوية من أهل طرطوشة يكنى أبا بكر تأدب بقرطبة وسمع بها من قاسم بن أصبغ ومحمد بن معاوية القرشى وأحمد بن سعيد ومنذر بن سعيد وأبى على القالى وغيرهم وكان حافظا للنحو واللغة والشعر يفوت من جاراه على حداثة سنه شاعرا مجيدا مترسلا بليغا ورحل مع أبيه الى المشرق سنة تسع وأربعين وثلثمائة فسمع بمصر من ابن الورد وابن السكن وحمزة الكنانى وغيرهم وسمع أيضا بالبصرة وبغداد كثيرا وخرج الى أرض فارس فسمع هنالك وجمع كتبا عظيمة وأقام بها الى أن توفى بأصبهان مع مطالع الستين وثلثمائة ومولده بطرطوشة صدر ذى القعدة سنة ثلاث وعشرين وثلثمائة ذكره ابن حيان رحمه الله تعالى *(ومنهم محمد بن عبدون الجبلى العدوى من أهل قرطبة أدب بالحساب والهندسة ورحل فى سنة سبع وأربعين وثلثمائة فدخل مصر والبصرة وعنى بعلم الطب فمهر فيه ودبر مارستان الفسطاط ثم رجع الى الاندلس فى سنة ستين وثلثمائة فاتصل بالمستنصر بالله وابنه المؤيد بالله وله فى التكسير تأليف حسن رحمه الله تعالى *(ومنهم أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن الازدى المقرئ القرطبى صحب أبا بكر بن يحيى بن مجاهد واختص به ولطف محله منه وقرأ عليه القرآن ورحل صحبته لاداء فريضة الحج وكان رجلا صالحا كثير التلاوة للقرآن والخشوع اذا قرأ بكى ورتل وبين فى مهل ويقول أبو بكر علمني هذه القراءة وحكى أنه سرد الصوم اثنتى عشرة سنة قبل موت ابن مجاهد مفطرا لكل ليلة وقت الافطار ثم تمادى على ذلك بعد موته معطرا عقب العشاء الآخرة لالتزامه الصلاة من المغرب اليها تزيدا من الخير واجتهادا فى العمل *(ومنهم أبو عبد الله محمد بن صالح المعافرى الاندلسى رحل الى المشرق فسمع خيثمة بن سليمان وأبا سعيد بن الاعرابى واسمعيل بن محمد الصفار و بكر بن حماد التاهرتى وغيرهم

روى عنه أبو عبد الله الحاكم وقال اجتمعنا ببغداد سنة احدى وأربعين يعني وثلثمائة
ثم وجدته بها الى أصبهان وكان قد جمع في البلاد وعمر من أصحاب يونس وبالحجاز وبالشام
وبالجزيرة من أصحاب علي بن حرب وببغداد وورد نيسابور في ذي الحجة سنة احدى
وأربعين فسمع الكثير ثم خرج الى مرو ومنها الى بخارى فتوفي بها في رجب سنة
ثلاث وأربعين وثلثمائة وروى عنه أيضا أبو القاسم بن حبيب النيسابوري وغيره وممن
ذكر ابن عساكر وأنشد له قوله

ودعت قلبي ساعة التوديع ❊ وأطعت قلبي وهو غير مطيع
ان لم أشيعهم فقد شيعتهم ❊ بمشيعين تنفسي ودموعي

وذكر ابن الفرضي وقال انه استوطن بخارى وحمل رفاته منها سنة ثمان وستين والأول
قول الحاكم وهو أصح ❊(ومنهم أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري السرقسطي) روى
عن الباجي وابن عبد البر ورحل حاجا فقدم دمشق وحدث بها عن شيوخه الأندلسيين
وعن أبي نصر عمر بن أبي القاسم بن أبي زيد القفصي وذكر ابن عساكر وقال سمع منه
أبو محمد الأكفاني وحكى عنه بدلالة صفة ما وتوفي سنة ٤٧٧ ❊(ومنهم أبو عبد الله
محمد بن عيسى بن بقاء الأنصاري من بلد الثغر الشرقي) أحد القراء بالسبع وأخذ عنه
جماعة من أهلها وكان شيخا فاضلا حافظا للحكايات قليل التكلف في اللباس ذكر ابن عساكر
وقال رأيته وسمعته ينشد قصيدة يوم خروج الناس للاستسقاء على المنبر أولها

أستغفر الله من ذنبي وان كبرا ❊ وأستقيل لمسكر ان كثرا

وكان يسكن في دار الحجارة ويقرئ بالمسجد الجامع وتوفي ليلة الثاني والعشرين من شعبان
سنة أربع وخمسين وأربعمائة وتوفي يوم الأربعاء عند صلاة العصر ودفن يوم الخميس
لصلاة الظهر الثاني من ذي الحجة سنة اثني عشر وخمسمائة ودفن في مقابر الصحابة
بالقرب من قبر أبي الدرداء رضي الله تعالى عنه قال وحضرت أنا غسله والصلاة عليه ودفنه
وذكر السلفي ❊(ومنهم أبو عبد الله محمد بن طاهر بن علي بن عيسى الأنصاري الخزرجي)
من أهل دانية سمع كتاب التقصي لابن عبد البر ولقي أبا الحسن الحصري ثم خرج
حاجا فقدم دمشق سنة أربع وخمسمائة وأقام بها مدة يقرئ العربية وكان شديد الوسوسة
في الوضوء ذكر ابن عساكر وقال أنشدني أخي أبو الحسين هبة الله بن الحسن الفقيه
قال أنشدنا ابن طاهر الأندلسي بدمشق قال أنشدني الحصري لنفسه

عرفت من في الأنام طرا ❊ من طيب كان ومن خبيث
فمنهم فج ومنه راح ❊ منه كما جاء في الحديث

قال وأنشدني الحصري لنفسه

لو كنت تحت الأرض أو فوق الذرى ❊ حتى أتيح له العدو لودى
فاحذر عدوك وهو أهون هين ❊ ان البعوضة أدمت النمرودا

❊(ومنهم محمد بن أبي سعيد الفرج بن عبد الله البزاز من أهل سرقسطة) لقي بدانية المقرئ
وغيره بعد مطولة ورحل حاجا فأدى الفريضة ودخل العراق فسمع من جماعة

واشاروا

وأجازوا له منهم ابن خيرون والحميدي وأبو زكريا التبريزي وابن المبارك عبد الجبار وثابت ابن بندار وهبة الله بن الاكفاني وغيرهم ودخل الاسكندرية وحدث بها وأخذ الناس عنه وتوفي هنالك وأنشد للحصري

الناس كالارض ومنها هم * من خشن اللمس ومن لين
وتشتكي الارجل منها الوجى * واثمد يجعل في الاعين

وروى عنه ابن الحضرمي وابن جارة وغيرهما *(ومنهم أبو بكر محمد بن الحسين الشهير بالميورقي لان أصله منها وسكن غرناطة وروى عن أبي علي الصدفي ورحل حاجا فسمع بمكة من أبي الفتح عبد الله بن محمد البيضاوي وأبي نصر عبد الملك بن أبي مسلم النهاوندي في شوال وذي القعدة من سنة ٥١٧ وبالاسكندرية من أبي عبد الله الرازي وأبي الحسن ابن مشرف وأبي بكر الطرطوشي وغيرهم وعاد الى الاندلس بعد مدة طويلة فحدث في غير ما بلد لتجوله وكان فقيها ظاهريا عارفا بالحديث وأسماء الرجال متقنا لما رواه يغلب عليه الزهد والصلاح روى عنه أبو عبد الله النميري الحافظ ويقول فيه الازدي تدليسا لان الانصار من الازد وأبو بكر بن رزق وأبو عبد الله بن عبد الرحيم وابن عبد المنعم وسواهم وصار أخيرا الى بجاية دار بلاد صاحب المغرب حينئذ بعد أن حمل اليه هو وأبو العباس بن العريف وأبو الحكم بن برجان وحدث هنالك وسمع منه في سنة ٥٣٧ رحمه الله تعالى *(ومنهم أبو الحسن محمد بن عبد الرحمن بن الطفيل العبدي الاشبيلي ويعرف بابن عظيمة أخذ القراآت عن أبي عبد الله السرقسطي وروى عن أبي عبد الله الخولاني وأبي عبد الله بن فرج وأبي علي الغساني وأبي داود المقرى وأبي جعفر بن عبد الحق وأبي الوليد بن طريف ورحل حاجا فروى بمكة عن رزين بن معاوية ثم بالاسكندرية عن ابن الحضرمي أبي عبد الله محمد بن منصور وأبي الحسن بن مشرف الانماطي وبالمهدية عن المازري وكانت رحلته مع أبي علي منصور بن الخير الاحدب للقاء أبي معشر الطبري فاعترضهما نعيه بمصر فلما قفلا من حجهما قعد منصور يقول قرأت على أبي معشر واقتصر أبو الحسن في تصدره للاقراء على التحديث عمن لقي لعرف مكانه من الصدق والعدالة وولي الصلاة ببلده وتقدم في صناعته واشتهر بها وتلاه أهل بيته فيها وأخذ عنهم الناس وله ارجوزة في القراآت السبع وأخرى في مخارج الحروف وشرح قصيدة الشقراطسي وله أيضا كتاب الفريدة الحمصية في شرح القصيدة الحصرية واليه والى بنيه بعده كانت الرياسة في هذا الشان ومن جلة الرواة عنه أبو بكر محمد بن خير قرأ عليه الشهاب القضاعي وأجازله جميع رواياته وتواليفه في رجب سنة ٥٣٦ وتوفي في حدود الاربعين وخمسمائة وروى عنه أبو الحجاج الدراري *(ومنهم أبو عبد الله محمد بن أحمد بن ابراهيم بن عيسى بن هشام بن جراح الخزرجي من أهل جيان ويعرف بالبغدادي لطول سكناه اياها روى عن أبي علي الغساني وأبي محمد بن عتاب ورحل حاجا ولقي أبا الحسن الطبري المعروف بالكيا وأبا طالب الزينبي وأبا بكر الشاشي وغيرهم وكان فقيها مشاورا حدث عنه أبو عبد الله النميري وأبو محمد بن عبيد الله وأبو عبد الله بن حميد وأبو القاسم

عبد الرحيم بن الملوم وغير واحد وتوفي بفاس سنة ٥٤٧ *(ومنهم أبو عبد الله محمد بن علي بن
ابن ياسر الانصاري الجياني نزيل حلب يكنى أبا بكر رحل الى المشرق وأدى فريضة
وقدم دمشق قبل العشرين وخمسمائة وسكن قنطرة سنان منها وكان يلقن القرآن ويتردد
الى أبي عبد الله نصر الله بن محمد يسمع الحديث منه ثم رحل صحبة أبي القاسم بن عساكر
صاحب تاريخ الشام الى بغداد سنة عشرين وكان زميله فسمع بها معه من هبة الله بن
الحصين وغيره ثم خرج الى خراسان فسمع بها من تميم الجرجاني وأبي عبد الله الفراوي وأبي
القاسم الشحامي وغيرهم وسمع ببلخ جماعة منهم أبو محمد الحسن بن علي الحسيني وأبو النجم
مصباح بن محمد المكي وغيرهما وبلغ الموصل فأقام بها مدة يسمع منه ويؤخذ عنه ثم انتقل
الى حلب فاستوطنها ووقف بها خزانة الكتب الموروثة وأجرى عليه خزانة وكان ثقة غير
في الرواية والاخبار معا ووقف كتبه على أصحاب الحديث وله عوال خرجه من حديثه
ساوى بعض شيوخه البخاري ومسلما وأبا داود والترمذي والنسائي روى عنه أبو حفص
المياسي وأبو المنصور ظافر بن سوار اللخمي وأبو محمد عبد الله بن علي بن سويد وابن أبي
السمان وغيرهم ذكره ابن عساكر في تاريخه وقال سمعت منه ومات في جمادى الاولى
سنة ثلاث وستين وخمسمائة على ما بلغني وقال ابن نقطة حدث عن جماعة منهم أبو القاسم
سهل بن ابراهيم النيسابوري وأبو يعقوب يوسف بن ابراهيم الهمداني حدثنا عنه أبو محمد
عبد الرحمن بن عبد الله بن علوان الحلبي وأخوه أبو العباس أحمد وحكى عن الحسن بن هبة
الله ابن صصرى أنه توفي بحلب في جمادى الاولى سنة ثلاث وستين كما تقدم وقد بلغ الستين
فالله أعلم *(ومنهم أبو عبد الله محمد بن يوسف بن سعادة مرسي سكن شاطبة ودار سلفه
بلنسية سمع أبا علي الصدفي واختص به وأكثر عنه والله صاهره وأخذ عنه وأصوله العتاق
وأمهات كتبه الصحاح لصهره كان يسمعها وسمع أيضا أبا محمد بن أبي جعفر ولازم حضور
مجلسه للمناظرة وحمل ما كان يرويه ورحل الى غرب الاندلس فسمع محمد بن عتاب وأبا بحر
الاسدي وأبا الوليد بن رشد وأبا عبد الله بن الحاج وأبا بكر بن العربي وغيرهم وكتب اليه
أبو عبد الله الخولاني وأبو الوليد بن طريف وأبو الحسن بن عفيف وأبو القاسم بن صواب
وأبو محمد بن السيد وغيرهم ثم رحل الى المشرق سنة عشرين وخمسمائة فلقي بالاسكندرية أبا
الحجاج بن نادر الميورقي وصحبه وسمع منه وأخذ عنه الفقه وعلم الكلام وأدى فريضة الحج
في سنة احدى وعشرين ولقي بمكة أبا الحسن رزين بن معاوية العبدري امام المالكية
بها وأبا محمد بن صدقة المعروف بابن غزال من أصحاب كريمة المروزية فسمع منهما وأخذ
عنهما وروى عن أبي حسن علي بن محمد بن عباس الغساني ثم حل على أبي حامد الغزالي
من نصها عنه ثم انصرف الى ديار مصر فصحب ابن نادر الى حين وفاته بالاسكندرية ولقي أبا
طاهر بن عوف وأبا عبد الله بن مسلم الرازي وأبا طاهر السلفي وأبا زكريا الرماني وغيرهم
فأخذ عنهم وكان قد كتب اليه منها أبو بكر الطرطوشي وأبو الحسن بن مشرف الانماطي
ولقي في صدره بالمهدية أبا عبد الله المازري فسمع منه بعض كتاب المعلم وأجازه باقيه وعاد
الى مرسية في سنة ست وعشرين وقد حصل في رحلته علوما جمة ورواية فسيحة وكان

عارفا بالسنن والآثار مشاركا في علم القرآن وتفسيره حافظا للفروع بصيرا باللغة والغريب ذا حظ من علم الكلام مائلا الى التصوف مؤثرا له أديبا بليغا خطيبا فصيحا ينشئ الخطب مع الهدى والسمت والوقار والحلم جميل الشارة محافظا على التلاوة بالخشوع راتبا على الصوم وولي خطة الشورى بمرسية مضافة الى الخطابة بجامعها وأخذ في اسماع الحديث وتدريس الفقه ثم ولي القضاء بها بعد انقراض دولة الملثمة ونقل الى قضاء شاطبة فاتخذها وطنا وكان يسمع الحديث بها وبمرسية وبلنسية ويقيم الخطب أيام الجمع في جوامع هذه الامصار الثلاثة متعاقبا عليها وقد حدث بالمرية وهناك أبو الحسن بن موهب وأبو محمد الرشاطي وغيرهما وسمع منه أبو الحسن بن هذيل جامع الترمذي وألف كتابه شجرة الوهم المترقية الى ذروة الفهم ولم يسبق الى مثله وليس له غيره وجمع فهرسة حافلة ووصفه غير واحد بالتفنن في العلوم والمعارف والرسوخ في الفقه وأصوله والمشاركة في علم الحديث والادب وقال ابن عياد في حقه انه كان صليبا في الاحكام مقتفيا للعدل حسن الخلق والخلق جميل المعاملة لين الجانب فكه المجالسة ثبتا حسن الخط من أهل الاتقان والضبط وحكى انه كانت عنده أصول حسان بخط عمه مع الصحيحين بخط السلفي في سفرين قال ولم يكن عند شيوخنا مثل كتبه في صحتها واتقانها وجودتها ولا كان فيهم من رزق عند الخاصة والعامة من الحظوة والذكر وجلالة القدر ما رزقه وذكره أبو سفيان أيضا وأبو عمرو بن عات ورفعوا جميعا بذكره وتوفي بشاطبة مصروفا عن قضائها آخر الحجة سنة خمس ودفن أول يوم من سنة ست وستين وخمسمائة ودفن بالروضة المنسوبة الى أبي عمر بن عبد البر ومولده في رمضان سنة ٤٩٦ *(ومنهم محمد بن ابراهيم بن وضاح اللخمي من أهل غرناطة ونزل جزيرة شقر يكنى أبا القاسم وأخذ القراءة عن أبي الحسن بن هذيل وسمع منه كثيرا ورحل حاجا فأدى الفريضة وأخذ القرا آت بمكة عن أبي علي بن العرجاء في سنة ست وأربعين وخمسمائة وسنة سبع بعدها وحج ثلاث حجات ودخل بغداد وأقام في رحلته نحوا من تسعة أعوام وقفل الى الاندلس فنزل جزيرة شقر من أعمال بلنسية وأقرأ بها القرآن نحوا من أربعين سنة لم يأخذ من أحد أجرا ولا قبل هدية وولي الصلاة والخطبة بجامعها وكان رجلا صالحا زاهدا مشاورا يشار اليه باجابة الدعوة معروفا بالورع والانقباض وتوفي في صفر سنة ٥٨٧ *(ومنهم أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن التجيبي نزيل تلمسان من أهل القنت عمل مرسية وسكن أبوه أوريولة رحل الى المشرق فأدى الفريضة وأطال الاقامة هنالك واستوسع في الرواية وكتب العلم عن جماعة كثيرة أزيد من مائة وثلاثين من أعيانهم المشرقيين أبو طاهر السلفي صحبه واختص به وأكثر عنه وحكى عنه انه لما ودعه في قفوله الى المغرب سأله عما كتب عنه فأخبره انه كتب كثيرا من الاسفار ومئين من الاجزاء فسر بذلك وقال له تكون محدث المغرب ان شاء الله تعالى قد حصلت خيرا كثيرا قال ودعا لي بطول العمر حتى يؤخذ عني ما أخذت عنه وقد جمع في أسماء شيوخه على حروف المعجم تأليفا مفيدا أكثر فيه من الآثار والحكايات والاخبار وقفل من رحلته وله أربعون حديثا في المواعظ وأخرى في الفقر وفضله وثالثة

في الطب في الله تعالى وراية في فضل الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم وسلسلة بن حجر وكتاب اتمام الإلمام الملازمة رجب وسبعة انوار مبان وكتاب فضل عشر ذي الحجة وكتاب سبب السمطين وكتاب الفوائد الكبرى مجلد والفوائد الصغرى جزء وكتاب الترغيب في الجهاد خمسون بابا في مجلد وكتاب المواعظ والرقائق أربعون مجلسا سمعها ابن وكتاب مسند السلفي وغير ذلك وولد بالقصبة الصغرى في نحو الاربعين وخمسمائة وتوفي سنة عشر وستمائة رحمه الله تعالى *(ومنهم الشيخ الأكبر ذو المحاسن التي تبهر سيدي محي الدين بن عربي محمد بن علي بن محمد بن احمد بن عبدالله الطائي من ولد عبدالله بن حاتم اخي عدي بن حاتم الصوفي الفيلسوف المشهور الظاهري ولد بمرسية يوم الاثنين سابع عشر رمضان سنة ٥٦٠ وقرأ القرآن على ابي بكر بن خلف باشبيلية وقرأ مع كتاب الكافي وحدثه به عن ابن المؤلف ابي الحسن شريح بن محمد بن شريح الرعيني عن ابيه وقرأ به السبع بالكتاب المذكور على ابي القاسم الشراط القرطبي وحدثه به عن ابن المؤلف وسمع على ابي بكر محمد بن ابي جمرة كتاب التيسير للداني عن أبيه عن المؤلف وسمع على ابن زرقون وأبي محمد عبدالحق الاشبيلي الازدي وغير واحد من أهل المشرق والمغرب يطول تعدادهم وكان ابتداء الطلب من سنة لاشبيلية سنة ٥٦٨ وأقام بها الى سنة ٥٩٨ ثم ارتحل الى المشرق وأجاز جماعة منهم الحافظ السلفي وابن عساكر وابو الفرج بن الجوزي ودخل مصر واقام بالحجاز ودخل بغداد والموصل وبلاد الروم ومات بدمشق سنة ٦٣٨ ليلة الجمعة الثاني والعشرين من ربيع الآخر ودفن بسفح قاسيون وأنشد في لفظه مورخا وفاته الشيخ محمد بن سعد الكلبي سنة ٦٣٧ ا رحمه الله تعالى

> اعا الطائي في الكون فرد * وهو غوث وسيد وامام
> كم علوم أتى بها من غيوب * من بحار التوحيد يا سهام
> ان سألتم متى توفي حميدا * قلت ارخت مات قطب همام

وقال ابن الابار هو من اهل المرية وقال ابن النجار اقام باشبيلية الى سنة ٥٩٨ ثم دخل بلاد المشرق وقال ابن الابار انه أخذ عن مشيخة بلده ومال الى الآداب وكتب لبعض الولاة ثم رحل الى المشرق حاجا ولم يعد بعدها الى الاندلس وقال ابن الندري ذكر أنه سمع بقرطبة من أبي القاسم بن بشكوال وجماعة سواه وطاف البلاد وسكن بلاد الروم مدة وجمع مجاميع في الطريقة وقال ابن الابار انه اخذ عنه جماعة من العلماء والعباد من وأحد واعيه وقال غيره انه قدم بغداد سنة ٦٠٨ وكان يومأ اليه بالفضل والمعرفة والغالب عليه طريق اهل الحقيقة وله قدم في الرياضة والمجاهدة وكلام على لسان أهل التصوف ووصفه غير واحد بالتقدم والمكانة من أهل هذا الشأن بالشام والحجاز وله اصحاب وأتباع ووقفت له على مجموع ضمنه منامات رأى فيها النبي صلى الله عليه وسلم وما سمع منه ومنامات قد حدث بها عمن رأى النبي صلى الله عليه وسلم قال ابن النجار وكان قد صحب الصوفية وأرباب القلوب وسلك طريق الفقر وحج وجاور وكتب في علم القوم وفي اخبار مشايخ المغرب وزهادهم وله أشعار حسنة وكلام مليح

اجتمعت به فى دمشق فى رحلتى اليها وكتبت عنه شيأ من شعره ونعم الشيخ هو ذكر لى انه دخل بغداد سنة ٦٠١ فأقام بها اثنى عشر يوما ثم دخلها ثانيا حاجا مع الركب سنة ٦٠٨ وأنشدنى لنفسه

أيا حائرا ما بين علم وشهوة * ليتصلا ما بين ضدين من وصل
ومن لم يكن يستنشق الريح لم يكن * يرى الفضل للمسك الفتيق على الزبل

وسألته عن مولده فقال ليلة الاثنين ١٧ رمضان سنة ٥٦٠ بمرسية من بلاد الاندلس انتهى وقال ابن مسدى انه كان جميل الجملة والتفصيل محصلا لفنون العلم أخص تحصيل وله فى الادب الشأو الذى لا يلحق والتقدم الذى لا يسبق سمع ببلاده من ابن زرقون والحافظ ابن الجد وأبى الوليد الحضرمى وبسبتة من أبى محمد بن عبد الله وقدم عليه اشبيلية أبو محمد عبد المنعم بن محمد الخزرجى فسمع منه وأبو جعفر بن مضا وذكر انه لقى عبد الحق الاشبيلى وفى ذلك عندى نظر انتهى قلت لا نظر فى ذلك فان سيدى الشيخ محيى الدين ذكر فى اجازته للملك المظفر غازى ابن الملك العادل أبى بكر بن أيوب ما معناه أو نصه ومن شيوخنا الاندلسيين أبو محمد عبد الحق بن عبد الرحمن بن عبد الله الاشبيلى رحمه الله تعالى حدثنى بجميع مصنفاته فى الحديث وعين لى من أسمائها تلقين المهتدى والاحكام الكبرى والوسطى والصغرى وكتاب التهجد وكتاب العاقبة ونظمه ونثره وحدثنى بكتب الامام أبى محمد على بن أحمد بن حزم عن أبى الحسن شريح بن محمد بن شريح عنه انتهى وقال ان الحافظ السلفى أجازله انتهى قال بعض الحفاظ وأحسبها الاجازة العامة وكان ظاهرى المذهب فى العبادات باطنى النظر فى الاعتقادات وكان دفنه يوم الجمعة بجبل قاسيون واتفق انه لما أقام ببلاد الروم ركب ذات يوم الملك فقال هذا تذل له الاسود أو كلاما هذا معناه فسئل عن ذلك فقال خدمت بمكة بعض الصلحاء فقال لى يوما الله يذل لك أعز خلقه وأمر له ملك الروم مرة بدار تساوى مائة ألف درهم فلما نزلها وأقام بها مر به فى بعض الايام سائل فقال له شئ لله فقال مالى غير هذه الدار خذها لك فتسلمها السائل وصارت له وقال الذهبى فى حقه انه توسع فى الكلام وذكاء وقوة خاطر وحافظة وتدقيقا فى التصوف وتواليف جمة فى العرفان لولا شطحه فى كلامه وشعره ولعل ذلك وقع منه حال سكره وغيبته فيرجى له الخير انتهى وقال القطب اليونينى فى ذيل مرآة الزمان عن سيدى الشيخ محيى الدين رضى الله تعالى عنه ونفعنا به انه كان يقول انى أعرف اسم الله الاعظم وأعرف الكيمياء انتهى وقال ابن شودكين عنه انه كان يقول ينبغى للعبد أن يستعمل همته فى الحضور فى مناماته بحيث يكون حاكما على خياله يصرفه بعقله نوما كما كان يحكم عليه يقظة فاذا حصل للعبد هذا الحضور وصار خلقا له وجد ثمرة ذلك فى البرزخ وانتفع به جدا فليهتم العبد بتحصيل هذا القدر فانه عظيم الفائدة باذن الله تعالى وقال ان الشيطان ليقنع من الانسان بأن ينقله من طاعة الى طاعة ليفسخ عزمه بذلك وقال ينبغى للسالك انه متى حصر له أنه يعقد على أمر ويعاهد الله تعالى عليه أن يترك ذلك الامر الى أن يجئ وقته فان يسر الله تعالى فعله فعله وان لم ييسر الله فعله يكون

عاملة في كتب الهند ولا كبير معناه من المعاني وفي نظم الشيخ محيي الدين رحمه الله تعالى

بين التذلل والتدلل نقطة * فيها يتيه العالم النحرير
هي نقطة الأكوان إن جاوزتها * كنت الحكيم وعلمك الإكسير

وقوله أيضاً رحمه الله

يا درة بيضاء لاهوتية * قد ركبت صدفاً من الناسوت
جهل البسيطة قدرها لشقائهم * وتنافسوا في الدر والياقوت

وحكى العماد بن النحاس الأطروش أنه كان في سفح جبل قاسيون على مشترف وعنده الشيخ محيي الدين والعفيف والسحاب عليهم وقد مشى الناس عليه ماشين قال فقلت للشيخ أما ترى هذا الحال فقال كنت بمراكش وعندي ابن خروف الشاعر أي أبا الحسن علي بن محمد القرطبي الوراق وقد أتى الحال مثل هذا فقلت له قل في هذه المقالة فأنشدني

يطوف السحاب بمراكش * طواف الحجيج ببيت الحرم
يروم نزولاً فلا يستطيع * لسفك الدما وهتك الحرم   انتهى

وحكى المقريزي في ترجمة سيدي عمر بن الفارض أفاض الله علينا من أنواره أن الشيخ محيي الدين بن العربي بعث إلى سيدي عمر يستأذنه في شرح التائية فقال كتابك المسمى بالفتوحات المكية شرح لها انتهى وقال بعض من عرف به إنه لما صنف الفتوحات المكية كان يكتب كل يوم ثلاث كراريس حيث كان وحصلت له دنيا عريضة كثيرة فما ادخر منها شيئاً وقيل إن صاحب حمص رتب له كل يوم مائة درهم وابن الزكي كل يوم ثلاثين درهماً فكان يتصدق بالجميع واشتغل الناس بمصنفاته ولها ببلاد اليمن والروم صيت عظيم وهو من عجائب الزمان وكان يقول إنه يعرف الكيميا بطريق المنازلة لا بطريق الكسب ومن نظمه رضي الله تعالى عنه

حبيبتي هيفتها * وما رآها بصري
ولو رآها لغدا * قتيل ذاك الحور
فعندما أبصرتها * صرت بحكم النظر
فبت مسحوراً بها * أهيم حتى السحر
يا حذري من حذري * لو كان يغني حذري
والله ما هيمني * جمال ذاك الخفر
يا حسنها من ظبية * ترعى بذات الخمر
إذا رنت أو عطفت * تسبي عقول البشر
كأنما أنفاسها * أعراف مسك عطر
كأنها شمس الضحى * في النور أو كالقمر
إن أسفرت أبرزها * نور صباح مسفر
أو سدلت غيهبها * سواد ذاك الشعر

ياقمرا تحت دجى * خذى فؤادى وذرى
عينى لكى أبصر كى * اذ كان حظى نظرى

وقال الحوفى قال الشيخ سيدى محيى الدين بن عربى رضى الله تعالى عنه رأيت بعض الفقهاء فى النوم فى رؤيا طويلة وسألنى كيف حالك مع أهلك فقلت

اذا رأت أهل بيتى الكيس ممتلئا * تبسمت ودنت منى تمازحنى
وان رأته خليا من دراهمه * تجهمت وانثنت عنى تقابحنى

فقال لى صدقت كلنا ذلك الرجل * وذكر الامام العالم بالله تعالى لسان الحقيقة وشيخ الطريقة صفى الدين حسين ابن الامام العلامة جمال الدين أبى الحسن على ابن الامام مفتى الانام كمال الدين أبى منصور ظافر الازدى الانصارى رضى الله تعالى عنه فى رسالته الفريدة المحتوية على من رأى من سادات مشايخ عصره بعد كلام ما صورته ورأيت بدمشق الشيخ الامام العارف الوحيد محيى الدين بن عربى وكان من أكبر علماء الطريق جمع بين سائر العلوم الكسبية وماوقر له من العلوم الوهبية ومنزلته شهيرة وتصانيفه كثيرة وكان غلب عليه التوحيد علما وخلقا وحالا لا يكترث بالوجود مقبلا كان أو معرضا وله علماء أتباع أرباب مواجيد وتصانيف وكان بينه وبين سيدى الاستاذ الحرار اخاء ورفقة فى السياحات رضى الله تعالى عنهما فى الآمال والمكرات ومن نظم سيدى الشيخ محيى الدين رضى الله تعالى عنه قوله

يامن يرانى ولا أراه * كم ذا أراه ولا يرانى

قال رحمه الله تعالى قال لى بعض اخوانى لما سمع هذا البيت كيف تقول انه لا يراك وأنت تعلم أنه يراك فقلت له مرتجلا

يامن يرانى مجرما * ولا أراه آخذا
كم ذا أراه منعما * ولا يرانى لائذا

قلت من هذا وشبهه تعلم أن كلام الشيخ رحمه الله تعالى مؤول وأنه لا يقصد ظاهره وانما له محامل تليق به وكفاك شاهدا هذه الجزئية الواحدة فأحسن الظن به ولا تنتقد بل اعتقد وللناس فى هذا المعنى كلام كثير والتسليم أسلم والله سبحانه بكلام أوليائه أعلم ومن النظم المنسوب لمحاسن الشيخ سيدى محيى الدين رضى الله تعالى عنه فى ضابط ليلة القدر

وانا جميعا ان نصم يوم جمعة * ففى تاسع العشرين خذ ليلة القدر
وان كان يوم السبت أول صومنا * فحادى وعشرين اعتمده بلا عسر
وان كان صوم الشهر فى أحد فخذ * ففى سابع العشرين ماشئت فاستقر
وان هل بالاثنين فاعلم بأنه * يوافيك نيل المجد فى تاسع العشر
ويوم الثلاثا ان بدا الشهر فاعتمد * على خامس العشرين فاعمل بها تدرى
وفى الاربعا ان هل يامن يرومها * فدونك فاطلب وصلها سابع العشر
ويوم خميس ان بدا الشهر فاجتهد * ففى ثالث العشرين تظفر بالنصر
وضابطها بالقول ليلة جمعة * توافيك بعد النصف فى ليلة الوتر انتهى

فلتنسب على هذا من نسبه هذا النظم الى الشيخ رحمه الله تعالى فان نسبه أعلى من هذا النظم ولكني ذكرته لما فيه من الفائدة ولأن بعض الناس نسبه اليه فالله تعالى أعلم بصحة ذلك ومما نسبه اليه رحمه الله تعالى غير واحد قوله

فلي نطقي وقالي اذ هما بي * سرى سري وعنه غرقاني

روحي هرون وكليمي موسى * نفسي فرعون والهوى هاماني

وذكر بعض الثقات أن هذين البيتين يكتبان لمن به القولنج في كفه ويلحسهما فانه يبرأ باذن الله تعالى قال وهو من المجربات وقد تأول بعض العلماء قول الشيخ رحمه الله تعالى بأن فرعون ان مراده فرعون النفس بدليل ما سبق ويحكى في ذلك حكاية عن بعض الاولياء ممن كان ينتصر للشيخ رحمه الله تعالى * وولد للشيخ محيي الدين رحمه الله تعالى ابنه محمد المدعو سعد الدين بملطية في رمضان سنة ٦١٨ وسمع الحديث ودرس وقال الشعر المجود وله ديوان شعر مشهور وتوفي بدمشق سنة ٦٥٦ سنة دخل هولاكو بغداد وقتل الخليفة المستعصم ودفن المذكور عند والده الشيخ بقاسيون وكان قدم القاهرة وسكن حلبا ومن شعره

لما تبدى عارضا في خطه * خلت ظلام الليل صبحا اخطط

وقد سطر الحسن في خده خط * وقيل على نور صباح اسقط

وقد لم ... ووردة نقط * وقال قوم انما اللام نقط

فلتذكر بهذا ما قاله الكاتب أبو عبد الله بن جزي الاندلسي كاتب سلطان المغرب أبي عنان حين تنازع الكتاب أرباب الاقلام والرؤساء أصحاب السيوف في تشبيه العذار وقالت كل فرقة لا يشبه الا بما يناسب صنعتنا فلما تنازعوا قال ابن جزي

أرى أولي الكتب والسيف الألى عرفوا * من بعد سبقي على جري واقدامي

تشاكل معنى تنازع في العذار على * ما تقتضي منهم أفكار أحلام

فقال ذو الكتب لا أرضى الحاذق في * تشبيهه لا وإنشائي وأقلامي

وقال ذو الحرب لا أرضى الكتابة في * تشبيهه ومطلاني واعلامي

فقلت أجمع بين المذهبين معا * باللام فاستحسنوا التشبيه باللام

وهذه الغاية التي لا تدرك مع البديهة ولزوم ما لا يلزم * (رجع) ومن نظم سعد الدين قوله

سري من الحمرة أصبح مرسلا * وأرى مسلسلا بعض مدامع

قال الحبيب بأن ريقي نافع * فاسمع رواية مالك عن نافع

ومن نظمه أيضا قوله

وقالوا تصبر عن من قد هويته * فقلت دعوني لا أرى منه مخلصا

شجاه بمن قد علق عمري قد * فلا تحسب الظل أن يتخلصا

وقوله

ورب قاص لنا مليح * يعرب عن حسن لين قد

اذا رمانا بسهم لحظ * فليما له دائم القعود

وقوله

وقوله

لك والله منظر * قل فيه المشارك
ان يوما نراك فيه * ليوم مبارك

ومن نظمه أيضا ما كتب به الى أخيه عماد الدين أبي عبد الله محمد بن الشيخ الاكبر محيي الدين ابن عربي أفاض الله تعالى علينا من فتوحاته

ما للدوي رقة ترثي لمكتئب * حران في قلبه والدمع في حلب
قد أصبحت حلب ذات العماد بكم * وجلق ارم هذا من العجب

وتوفي الشيخ عماد الدين بالصالحية سنة ٦٦٧ ودفن بسفح قاسيون عند والده بتربة القاضي ابن الزكي رحم الله تعالى الجميع ومن نظم سعد الدين المذكور في وسيم رآه بالزيادة في دمشق

يا خليلي في الزيادة ظبي * سلبت مقلتاه جفني رقاده
كيف أرجو السلو عنه وطرفي * ناظر حسن وجهه في الزياده

وله

علقت صوفيا كبدر الدجى * لكنه في وصلي الزاهد
يشهد وجدي بغرامي له * وديت صوفيا له شاهد

وله

صبوت الى حريري مليح * تكرر نحو منزله مسيري
أقول له ألا ترثي لصب * عديم للمساعد والنصير
أقام ببابكم خمسين شهرا * فقال كذا مقامات الحريري

وله

وغزال من اليهود أتاني * زائرا من كنيسه أوكناسه
بت أجني الشقيق من وجنتيه * وأشم العبير من أنفاسه
واعتنقنا اذلم نخف من رقيب * وأمنا الوشاة من حراسه
من رآني يظنني لنحولي * واصفراري علامة فوق راسه

وله

لي حبيب بالنحو أصبح مغرى * فهو مني بما أعانيه أدرى
قلت ماذا تقول حين تنادي * يا حبيبي المضاف نحوك جهرا
قال لي يا غلام أو يا غلامي * قلت لبيك ثم لبيك عشرا

وله أيضا

سألتني عن لفظة لغوية * فأجبت مستدنا بغير تذكر
خاطبتني متبسما فرأيتها * من نظم ثغرك في صحاح الجوهري

وله

وعلمت أن من الحديد فؤاده * لما انثنى من مقلتيه مهندا

من أهل اشبيلية وأصله من مرسية يكنى أبابكر ويعرف بابن العربي وبالحاتمي أيضا أخذ عن مشيخة بلده ومال الى الآداب وكتب لبعض الولاة بالاندلس ثم رحل الى المشرق حاجا فأدى الفريضة ولم يعد بعدها الى الاندلس وسمع الحديث من أبي القاسم الخرستاني ومن غيره وسمع صحيح مسلم من الشيخ أبي الحسن بن أبي نصر في شوال سنة ٦٠٦ وكان يحدث بالاجازة العامة عن أبي طاهر السلفي ويقول بها وبرع في علم التصوف وله في ذلك تواليف كثيرة منها الجمع والتفصيل في حقائق التنزيل والجذوة المقتبسة والخطرة المختلسة وكتاب كشف المعنى في تفسير الاسماء الحسنى وكتاب المعارف الالهية وكتاب الاسرا الى المقام الاسرى وكتاب مواقع النجوم ومطالع أهلة اسرار العلوم وكتاب عنقاء مغرب في صفة ختم الاوليا وشمس المغرب وكتاب في فضائل مشيخة عبد العزيز ابن أبي بكر القرشي المهدوي والرسالة الملقبة بمشاهد الاسرار القدسية ومطالع الانوار الالهية في كتب اخر عديدة وقدم على المرية من مرسية مستهل شهر رمضان سنة خمس وتسعين وخمسمائة وبها ألف كتابه الموسوم بمواقع النجوم انتهى ولاخفاء أن مقام الشيخ أعظم بعد ابتداله من المغرب وقد كرر رحمه الله تعالى في بعض كتبه ان مولده بمرسية وفي الكتاب المسمى بالاغتباط بمعالجة ابن الخياط تأليف شيخ الاسلام قاضي القضاة مجد الدين محمد بن يعقوب بن محمد الشيرازي الفيروزابادي الصديقي صاحب القاموس قدس الله تعالى روحه الذي ألفه بسبب سؤال سئل فيه عن الشيخ محيي الدين ابن عربي الطائي قدس الله تعالى سره العزيز في كتبه المنسوبة اليه ماصورته ماتقول السادة العلماء شد الله تعالى بهم أزر الدين ولم بهم شعث المسلمين في الشيخ محيي الدين ابن عربي في كتبه المنسوبة اليه كالفتوحات والفصوص هل تحل قراءتها واقراؤها ومطالعتها وهل هي الكتب المسموعة المقروءة أم لا أفتونا مأجورين جوابا شافيا لتحوزوا جميل الثواب من الله الكريم الوهاب والحمد لله وحده *(فأجابه بما صورته الحمد لله اللهم أنطقنا بما فيه رضاك الذي اعتقده في حال المسؤل عنه وأدين الله تعالى به انه كان شيخ الطريقة حالا وعلما وامام الحقيقة حقيقة ورسما ومحيي رسوم المعارف فعلا واسما

اذا تغلغل فكر المرء في طرف * من بحره غرقت فيه خواطره

وهو عباب لاتكدره الدلاء وسحاب لاتتقاصر عنه الانواء كانت دعواته تخترق السبع الطباق وتفترق بركاته فتملأ الآفاق وانى أصفه وهو يقينا فوق ماوصفته وناطق بما كتبته وغالب ظني انى ماأنصفته

وماعلي اذا ماقلت معتقدي * دع الجهول يظن العدل عدوانا
والله والله والله العظيم ومن * أقامه حجة للدين برهانا
بأن ماقلت بعض من مناقبه * مازدت الا لعلي زدت نقصانا

وأما كتبه ومصنفاته فالبحار الزواخر التي جواهرها وكثرتها لايعرف لها أول ولا آخر ماوضع الواضعون مثلها وانما خص الله سبحانه بمعرفة قدرها أهلها ومن خواص كتبه أن من واظب على مطالعتها والنظر فيها وتأمل مافي مبانيها انشرح صدره لحل

المشكلات وبذا أملات وهذا الشأن لا يكون إلا لإنسان نفعه الله تعالى
بالعلوم اللدنية الربانية ووقفت على إجازة كتبها للملك المعظم فقال في آخرها وأجزته
أنه أراد أن يروي عني مصنفاتي ومن جملتها كذا وكذا حتى عد نيفا وأربعمائة مصنف منها
التفسير الكبير الذي بلغ فيه إلى سورة الكهف عند قوله تعالى وعلمناه من لدنا علما وتوفي
ولم يكمل وهذا التفسير كتاب عظيم كل سفر بحر لا ساحل له ولا غرو فإنه صاحب الولاية
العظمى والصديقية الكبرى فيما نعتقده وندين الله تعالى به وثم طائفة في الغي
عامهة يعظمون عليه النكير وربما بلغ بهم الجهل إلى حد التكفير وما ذاك إلا لقصور
أفهامهم عن إدراك مقاصد أقواله وأفعاله ومعانيها ولم تصل أيديهم لقصرها إلى اقتطاف
مجانيها

علي نحت القوافي من معادنها * وما علي إذا لم تفهم البقر

هذا الذي نعتقده وندين الله تعالى به في حقه والله سبحانه وتعالى أعلم وصورة استشهاد
كتبه محمد الصديقي الملتجي إلى حرم الله تعالى عفا الله عنه انتهى وأما حكاية
قول شيخ الإسلام عز الدين بن عبد السلام شيخ مشايخ الشافعية فغير صحيح بل كذب
وزور فقد روينا عن شيخ الإسلام صلاح الدين العلائي عن جماعة من المشايخ كلهم
عن خادم الشيخ عز الدين بن عبد السلام أنه قال كنا في مجلس الدرس بين يدي الشيخ
عز الدين بن عبد السلام فجاء في باب الردة ذكر لفظة الزنديق فقال بعضهم هل هي عربية
أو عجمية فقال بعض الفضلاء إنما هي فارسية معربة أصلها زن دين أي على دين المرأة
وهو الذي يضمر الكفر ويظهر الإيمان فقال بعضهم مثل من فقال آخر إلى جانب الشيخ
مثل ابن عربي بدمشق فلم ينطق الشيخ ولم يرد عليه قال الخادم وكنت صائما ذلك
اليوم فاتفق أن الشيخ دعاني للإفطار معه فحضرت ووجدت منه إقبالا ولطفا فقلت له
يا سيدي هل تعرف القطب الغوث الفرد في زماننا فقال ما لك ولهذا كل فعرفت أنه يعرفه
فتركت الأكل وقلت له لوجه الله تعالى عرفني به من هو فتبسم رحمه الله تعالى وقال لي الشيخ
محيي الدين بن عربي فأطرقت ساكتا متحيرا فقال ما لك فقلت يا سيدي قد تحيرت قال لم قلت
أليس اليوم قال ذلك الرجل إلى جانبك ما قال في ابن عربي وأنت ساكت فقال اسكت
ذلك مجلس الفقهاء هذا الذي روي لنا بالسند الصحيح عن شيخ الإسلام عز الدين بن
عبد السلام وأما قول غيره من أقران الشيخ عز الدين فكثير كان الشيخ كمال الدين
الزملكاني من أجل مشايخ الشام أيضا يقول ما يجهل هؤلاء ينكرون على الشيخ
محيي الدين بن عربي لأجل كلمات وألفاظ وقعت في كتبه قد قصرت أفهامهم عن درك
معانيها فليأتوني لأحل لهم مشكله وأبين لهم مقاصده بحيث يظهر لهم الحق ويزول
عنهم الوهم وهذا القطب سعد الدين الحموي سئل عن الشيخ محيي الدين بن عربي لما رجع
من الشام إلى بلاده كيف وجدت ابن عربي فقال وجدته بحرا زخارا لا ساحل له وهذا
الشيخ صلاح الدين الصفدي له كتاب جليل وضعه في تاريخ علماء العالم في مجلدات كثيرة
وهي موجودة في خزانة السلطان سطر في باب الميم ترجمة محمد بن عربي له رد مذاهب أهل

العلم

العلم الذين باب صدورهم مفتوح لقبول العلوم اللدنية والمواهب الربانية وقوله في شيء من الكتب المصنفة كالفصوص وغيره انه صنفه بأمر من الحضرة الشريفة النبوية وأمره باخراجه الى الناس قال الشيخ محيي الدين الذهبي حافظ الشام ما أظن المحيي يتعمد الكذب أصلا وهو من أعظم المنكرين وأشدهم على طائفة الصوفية ثم ان الشيخ محيي الدين رحمه الله تعالى كان مسكنه ومطهره بدمشق وأخرج هذه العلوم اليهم ولم ينكر عليه أحد شيأ من ذلك وكان قاضي القضاة الشافعية في عصره شمس الدين أحمد الخوبي يخدمه خدمة العبيد وقاضي القضاة المالكية زوجه بابنته وترك القضاء بنظرة وقعت عليه من الشيخ * وأما كراماته ومناقبه فلا تحصرها مجلدات وقول المنكرين في حق مثله غثاء وهباء لا يعبأ به والحمد لله تعالى انتهى ما نقلته من كلام العارف بالله تعالى سيدي عبد الوهاب الشعراني رضي الله تعالى عنه * وقد حكى الشيخ رضي الله تعالى عنه عن نفسه في كتبه ما يبهر الالباب وكفى بذلك دليلا على ما منحه الله الذي يفتح لمن شاء الباب وقد اعتنى بتربته بصالحية دمشق سلاطين بني عثمان نصرهم الله تعالى على توالي الازمان وبنى عليه السلطان المرحوم سليم خان المدرسة العظيمة ورتب له الاوقاف وقد زرت قبره وتبركت به مرارا ورأيت لوائح الانوار عليه ظاهرة ولا يجد منصف محيدا الى انكار ما يشاهد عند قبره من الاحوال الباهرة وكانت زيارتي له بشعبان ورمضان وأول شوال سنة ١٠٣٧ * وقال في عنوان الدراية ان الشيخ محيي الدين كان يعرف بالاندلس بابن سراقة وهو فصيح اللسان بارع فهم الجنان قوي على الايراد كلما طلب الزيادة يزداد رحل الى العدوة ودخل بجاية في رمضان سنة ٥٩٧ وبها لقي أبا عبد الله العربي وجماعة من الافاضل ولما حل بجاية في التاريخ المذكور قال رأيت ليلة اني نكحت نجوم السماء كلها فما بقي منها نجم الا نكحته بلذة عظيمة روحانية ثم لما كملت نكاح النجوم أعطيت الحروف فنكحتها ثم عرضت رؤياي هذه على من قصها على رجل عارف بالرؤيا بصير بها وقلت للذي عرضتها عليه لا تذكرني فلما ذكر الرؤيا استعظمها وقال هذا هو البحر الذي لا يدرك قعره صاحب هذه الرؤيا يفتح الله تعالى له من العلوم العلوية وعلوم الاسرار وخواص الكواكب ما لا يكون فيه أحد من أهل زمانه ثم سكت ساعة وقال ان كان صاحب هذه الرؤيا في هذه المدينة فهو ذلك الشاب الاندلسي الذي وصل اليها ثم قال صاحب العنوان ما ملخصه ان الشيخ محيي الدين رحل الى المشرق واستقرت به الدار وألف تواليفه وبها ما فيها ان قيض الله تعالى من يسامح ويتأول سهل المرام وان كان ممن يشعر بالظاهر فالامر صعب وقد نقد عليه أهل الديار المصرية وسعوا في اراقة دمه فخلصه الله تعالى على يد الشيخ أبي الحسن البجائي فانه سعى في خلاصه وتأول كلامه ولما وصل اليه بعد خلاصه قال له الشيخ رحمه الله تعالى كيف يحبس من حل منه اللاهوت في الناسوت فقال له يا سيدي تلك شطحات في محل سكر ولا عتب على سكران * وتوفي الشيخ محيي الدين في نحو الاربعين وستمائة وكان يحدث بالاجازة العامة عن السلفي رحمه الله تعالى انتهى * ومن موشحات الشيخ محيي الدين رضي الله تعالى عنه

وقال الامام الصفي بن ظافر الازدي في رسالته رأيت بدمشق الشيخ الامام العارف الوحيد محيي الدين بن عربي وكان من أكبر علماء الطريق جمع بين سائر العلوم الكسبية وما وقر له من العلوم الوهبية ومنزلته شهيرة وتصانيفه كثيرة وكان غلب عليه التوحيد علما وخلقا وحالا لا يكترث بالوجود مقبلا كان أو معرضا وله علماء اتباع أرباب مواجيد وتصانيف وكان بينه وبين سيدي الاستاذ الحرار اخاء ورفقة في السياحات رضي الله تعالى عنهما انتهى * وذكر الامام سيدي عبد الله بن سعد اليافعي اليمني في الارشاد أنه اجتمع مع الشهاب السهروردي وأطرق كل واحد منهما ساعة ثم افترقا من غير كلام وقيل للشيخ ابن عربي ما تقول في السهروردي فقال مملوء سنة من قرنه الى قدمه وقيل للسهروردي ما تقول في الشيخ محيي الدين فقال بحر الحقائق ثم قال اليافعي ما ملخصه ان بعض العارفين كان يقرأ عليه كلام الشيخ ويشرحه فلما حضرته الوفاة نهى عن مطالعته وقال انكم لا تفهمون معاني كلامه ثم قال اليافعي وسمعت أن العز بن عبد السلام كان يطعن عليه ويقول هو زنديق فقال له بعض أصحابه أريد أن تريني القطب أو قال وليا فاشار الى ابن عربي فقال له وأنت تطعن فيه فقال أصون ظاهر الشرع أو كما قال وأخبرني بهذه الحكاية غير واحد من ثقات مصر والشام ثم قال وقد مدحه وعظمه طائفة كالنجم الاصبهاني والتاج بن عطاء الله وغيرهما وتوقف فيه طائفة وطعن فيه آخرون وليس الطاعن بأعلم من الخضر عليه السلام اذ هو أحد شيوخه وله معه اجتماع كثير ثم قال وما ينسب الى المشايخ له محامل الاول أنه لم تصح نسبته اليهم الثاني بعد الصحة يلتمس له تأويل موافق فان لم يوجد له تأويل في الظاهر فله تأويل في الباطن لم نعلمه وانما يعلمه العارفون الثالث أن يكون ذلك صدر منهم في حال السكر والغيبة والسكران سكرا مباحا غير مؤاخذ ولا مكلف انتهى ملخصا وممن ذكر الشيخ محيي الدين الامام شمس الدين محمد بن مسدي في معجمه البديع المحتوي على ثلاث مجلدات وترجمه ترجمة عظيمة مطولة اذ كرمنها أنه قال انه كان ظاهري المذهب في العبادات باطني النظر في الاعتقادات خاض بحار تلك العبارات وتحقق بمحيا تلك الاشارات وتصانيفه تشهد له عند أولي البصر بالتقدم والاقدام ومواقف النهايات في مزالق الاقدام ولهذا ما ارتبت في أمره والله تعالى أعلم بسره انتهى * ونقلت من خط ابن علوان التونسي رحمه الله تعالى قال الشيخ محيي الدين

بالمال ينقاد كل صعب * من عالم الارض والسماء
يحسبه عالم حجابا * لم يعرفوا لذة العطاء
لولا الذي في النفوس منه * لم يجب الله في الدعاء
لا تحسب المال ما تراه * من عسجد مشرق الضياء
بل هو ما كنت يا بني * به غنيا عن السواء
فكن برب العلا غنيا * وعامل الخلق بالوفاء

وقال

تِه على البدر ولا عتبه • فالروح بالسر له نسبه

على الذي بيديه أمره • واكتمه حتى تصل الوصل

وقال

قد بان عما أتى علينا • فالنأي والوجود قدر

أذابنا صبر روحا • مالي على ما أراه صبر

هذا هو الدهر يا خليلي • من نفسه نهيه وبر

ونظم الشيخ محيي الدين هو البحر الذي لا ساحل له ولنختم ما أوردناه منه بقوله

يا حبذا المسجد من مسجد • وحبذا الروضة من مشهد

وحبذا طيبة من بلدة • فيها ضريح المصطفى أحمد

صلى عليه الله من سيد • لولاه لم نفلح ولم نهتد

قد قرن الله به ذكره • في كل يوم فاعتبر ترشد

عشر خفيات وعشرا إذا • أعلن بالأذان في المسجد

فهذه عشرون مقرونة • بأفضل الذكر إلى الموعد

(ومنهم الصوفي الشهير أبو الحسن الششتري) وهو علي بن عبد الله النميري عروس الفقهاء وأمير المتجردين وبركة لابسي الخرقة وهو من قرية ششتر من عمل وادي آش وزقاق الششتري معلوم بها وكان مجود القرآن قائما عليه عارفا بمعانيه من أهل العلم والعمل جال في الآفاق ولقي المشايخ وحج حجات وآثر التجرد والعبادة • وذكر القاضي أبو العباس الغبريني في عنوان الدراية فقال الفقيه الصوفي من الطلبة المحصلين والفقراء المنقطعين له علم بالحكمة ومعرفة بطريق الصوفية وتقدم في النظم والنثر على طريقة التحقيق وأشعاره وموشحاته وأزجاله الغاية في الانطباع أخذ عن القاضي محيي الدين محمد بن إبراهيم بن الحسين بن سراقة الأنصاري الشاطبي وغيره من أصحاب السهروردي صاحب عوارف المعارف واجتمع بالنجم بن إسرائيل الدمشقي سنة ٦٥ وقدم أبا محمد بن سبعين وتلمذ له وكان ابن سبعين دونه في السن لكن استمر باتباعه وعوّل على ما لديه حتى صار يعبر عن نفسه في منظوماته وغيرها بعبد ابن سبعين وقال لما لقيه يريد المشايخ إن كنت تريد الجنة فسر إلى أبي مدين وإن كنت تريد رب الجنة فهلم إلي ولما مات أبو محمد انفرد بعده بالرياسة والإمامة على الفقراء المتجردين فكان يتبعه في أسفاره ما ينيف على أربعمائة فقير فيقسمهم الترتيب في وظائف خدمته وصنف كتبا منها كتاب العروة الوثقى في بيان السنن وإحصاء العلوم وما يجب على المسلم أن يعمله ويعتقده إلى وفاته وله كتاب المقاليد الوجودية في أسرار الصوفية والرسالة القدسية في توحيد العامة والخاصة والمراتب الإيمانية والإسلامية والإحسانية والرسالة العلمية وغير ذلك وله ديوان شعر مشهور ومن نظمه قوله رحمه الله تعالى

لقد تهت عجبا بالتجرد والفقر • فلم أندرج تحت الزمان ولا الدهر

وقال

وجاءت لقلبي نفحة قدسية * فغبت بها عن عالم الخلق والامر
طويت بساط الكون والطي نشره * وما القصد الا الترك للطي والنشر
وغمضت عين القلب غير مطلق * فألفيتني ذاك الملقب بالغير
وصلت لمن لم تنفصل عنه لحظة * ونزهت من أعني عن الوصل والهجر
وما الوصف الا دونه غير أنني * أريد به التشبيب عن بعض ما أدري
وذلك مثل الصوت أيقظ نائما * فأبصر أمرا جل عن ضابط الحصر
فقلت له الاسماء تبغي بيانه * فكانت له الالفاظ سترا على ستر

وقال

من لامني لو أنه قد أبصرا * ماذقته أضحى به متحيرا
وغدا يقول لصحبه ان أنتم * أنكرتم ما بي أتيتم منكرا
شذت أمور القوم عن عاداتهم * فلاجل ذاك يقال سحر مفترى

وقال وهي من أشهر ما قال

أرى طالبا منا الزيادة لا الحسنى * بفكر رمى سهما فعدى به عدنا
وطالبنا مطلوبنا من وجودنا * نغيب به عنا لدى الصعق ان عنا

وهي طويلة مشهورة بالشرق والغرب وقد شرحها شيخ شيوخ شيوخنا العارف بالله تعالى سيدي أحمد زروق نفعنا الله تعالى ببركاته وأشار ابن الخطيب في الاحاطة الى أنها لا تخلو عن شذوذ من جهة اللسان وضعف في العربية قال ومع ذلك فهي غريبة المنزع أشار بها الى مراتب الاعيان الاعلام من أهل هذه الطريقة وكانها مبنية على كلام شيخه الذي خاطبه به عند لقائه حسبما قدمنا اذ الحسنى الجنة والزيادة مقام النظر وقوله فيها

وأظهر منها العافقي لما جنى * وكشف عن أطواره الغيم والدجنا

هو شيخه أبو محمد بن سبعين لانه مرسي الاصل غافقيه ولما وصل الششتري من الشام الى ساحل دمياط وهو مريض مرض موته نزل قرية بساحل البحر الرومي فقال ما اسم هذه القرية فقيل الطينة فقال حنت الطينة الى الطينة وأوصى أن يدفن بمقبرة دمياط اذ الطينة مفازة وأقرب المدن اليها دمياط فحمله الفقراء على أعناقهم الى دمياط وكانت وفاته يوم الثلاثاء سابع عشر صفر سنة ٦٦٨ ودفن بدمياط رحمه الله تعالى ورضي عنه *(ومنهم سيدي أبو الحسن علي بن أحمد الحرالي الاندلسي وحرالة قرية من أعمال مرسية غير أنه ولد بمراكش وأخذ بالاندلس عن أبي الحسن بن خروف وغير واحد ورحل الى المشرق وأخذ عن أبي عبد الله القرطبي امام الحرم وغيره ولقي جلة من المشايخ شرقا وغربا وهو امام ورع صالح زاهد كان بقية السلف وقدوة الخلف وقد زهد في الدنيا وتخلى عنها وأقام في تفسير الفاتحة نحوا من ستة أشهر يلقي في التعليل قوانين تتنزل في علم التفسير منزلة أصول الفقه من الاحكام حتى من الله تعالى ببركات ومواهب لا تحصى وعلى أحكام تلك القوانين وضع كتابه مفتاح اللب المقفل على فهم القرآن المنزل وهو ممن جمع العلم والعمل وصنف في كثير من الفنون كالاصول والمنطق والطبيعيات والالهيات وكان يقرأ النجاة لابن سينا

جنان يا جنان * اجنِ من البستان * الياسمين
واترك الريحان * بحرمة الرحمن * للعاشقين

فسأل بعض عن معناه فقال بعض الحاضرين أراد به العذار وقال آخر انما أشار الى دوام العهد لان الازهار كلها ينقضى زمانها الا الريحان فانه دائم فاستحسن الشيخ هذا ووافق عليه * (ومنهم ولى الله العارف به الشيخ الشهير الكرامات الكبير المقامات سيدى أبو العباس المرسى) نفعنا الله تعالى به وهو من أكابر الاولياء صحب سيدى الشيخ الفرد القطب الغوث الجامع سيدى أبا الحسن الشاذلى أعاد الله تعالى علينا من بركاته وخلفه بعده وكان قدم من الاندلس من مرسية وقبره بالاسكندرية مشهور باجابة الدعوات وقد زرته مرارا كثيرة ودعوت الله عنده بما أرجو قبوله وقد عرّف به الشيخ العارف بالله ابن عطاء الله فى كتابه لطائف المنن فى مناقب الشيخ سيدى أبى العباس وشيخه سيدى أبى الحسن رضى الله تعالى عنهما وقال الصفدى فى الوافى أحمد بن عمر بن محمد الشيخ الزاهد الكبير العارف أبو العباس الانصارى المرسى وارث شيخه الشاذلى تصوفا الاشعرى معتقدا توفى بالاسكندرية سنة ٦٨٦ ولاهل مصر ولاهل الثغر فيه عقيدة كبيرة وقد زرته لما كنت بالاسكندرية سنة ٧٣٨ قال ابن عزام سبط الشاذلى ولولا قوة اشتهاره وكراماته لذكرت له ترجمة طويلة كان من الشهود بالثغر انتهى وكان سيدى أبو العباس يكرم الناس على نحو رتبهم عند الله تعالى حتى انه ربما دخل عليه مطيع فلا يحتفل به وربما دخل عليه عاص فأكرمه لان ذلك الطائع أتى وهو متكثر بعمله ناظر لفعله وذلك العاصى دخل بكسر معصيته وذل مخالفته وكان شديد الكراهة للوسواس فى الصلاة والطهارة ويثقل عليه شهود من كان على صفته وذكر عنده يوما شخص بانه صاحب علم وصلاح الا انه كثير الوسوسة فقال وأين العلم العلم هو الذى ينطبع فى القلب كالبياض فى الابيض والسواد فى الاسود وله كلام بديع فى تفسير القرآن العزيز من ذلك انه قال قال الله سبحانه وتعالى الحمد لله رب العالمين علم الله عجز خلقه عن حمده فحمد نفسه بنفسه فى أزله فلما خلق الخلق اقتضى منهم أن يحمدوه بحمده فقال الحمد لله رب العالمين أى الحمد الذى حمد به نفسه بنفسه هو له لا ينبغى أن يكون لغيره فعلى هذا تكون الالف واللام للعهد وقال فى قوله تعالى اياك نعبد واياك نستعين اياك نعبد شريعة واياك نستعين حقيقة اياك نعبد اسلام واياك نستعين احسان اياك نعبد عبادة واياك نستعين عبودية اياك نعبد فرق واياك نستعين جمع وله فى هذا المعنى وغيره كلام نفيس يدل على عظيم ما منحه الله سبحانه من العلوم اللدنية وقال رضى الله تعالى عنه فى قوله تعالى اهدنا الصراط المستقيم بالتثبيت فيما هو حاصل والارشاد لما ليس بحاصل وهذا الجواب ذكره ابن عطية فى تفسيره وبسطه الشيخ رضى الله تعالى عنه فقال عموم المؤمنين يقولون اهدنا الصراط المستقيم معناه نسألك التثبيت فيما هو حاصل والارشاد لما ليس بحاصل فانهم حصل لهم التوحيد وفاتهم درجات الصالحين والصالحون يقولون اهدنا الصراط

المستقيم فيما سأله التثبيت فيما هو حاصل والارشاد لما ليس بحاصل لانهم حصل لهم الصلاح وفاتهم درجات الشهداء والشهداء يقولون اهدنا الصراط المستقيم أي بالتثبيت فيما هو حاصل والارشاد لما ليس بحاصل فانهم حصل لهم درجة الشهادة وفاتهم درجة الصديقية والصديقون كذلك يقولون اهدنا الصراط المستقيم اذ حصلت لهم درجة الصديقية وفاتتهم درجة القطبانية والقطب كذلك يقول اهدنا الصراط المستقيم فانه حصلت له رتبة القطبانية وفاته علم اذا شاء الله تعالى أن يطلعه عليه أطلعه وقال رضي الله تعالى عنه الفتوة الايمان قال الله سبحانه وتعالى انهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى وقال رضي الله تعالى عنه في قوله سبحانه وتعالى حاكيا عن الشيطان ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم الآية ولم يقل من فوقهم ولا من تحتهم لان فوقهم التوحيد وتحتهم الاسلام وقال رضي الله تعالى عنه التقوى في كتاب الله عز وجل على أقسام تقوى النار قال الله سبحانه وتعالى واتقوا النار وتقوى اليوم قال الله تعالى واتقوا يوما ترجعون فيه الى الله وتقوى الربوبية قال الله تعالى يا أيها الناس اتقوا ربكم وتقوى الالوهية وتقوى الله وتقوى الانية واتقون يا أولي الالباب وقال رضي الله تعالى عنه في قول رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا سيد ولد آدم ولا فخر أي لا أفتخر بالسيادة وانما الفخر لي بالعبودية لله وكان كثيرا ما ينشد

يا عمرو ناد عبد زهرا * يعرفه السامع والرائي
لا تدعني الا بيا عبدها * فانه أشرف أسمائي

وقال رضي الله تعالى عنه في قول سمنون المحب

وليس لي في سواك حظ * فكيفما شئت فاختبرني

الاولى أن يقول فكيفما شئت فاعف عني اذ طلب العفو أولى من طلب الاختبار وقال رضي الله تعالى عنه الزاهد يسافر من الدنيا الى الآخرة والعارف يسافر من الآخرة الى الدنيا وقال رضي الله تعالى عنه العارف لا دنيا له لان دنياه لآخرته وآخرته لربه وقال الزاهد غريب من الدنيا لان الآخرة وطنه والعارف غريب في الآخرة قال بعض العارفين معنى الغربة في كلام الشيخ رضي الله تعالى عنه ان الزاهد يكشف له عن ملك الآخرة فتبقى الآخرة وطن قلبه ومعشش روحه فيكون غريبا في الدنيا اذ ليست وطنا لقلبه عاين الآخرة فأخذ قلبه فيما عاين من ثوابها ونوالها وفيما شهد من عزتها ويكون كالغريب في هذه الدار وأما العارف فانه غريب في الآخرة اذ كشف له عن صفات معروفه فأخذ قلبه فيما هنالك فصار غريبا في الآخرة لان سره مع الله تعالى بلا أين فهؤلاء العباد يصير الحضر معششا لقلوبهم اليها يأوون وبها يسكنون فان تنزلوا الى سماء الحقوق أو أرض الحظوظ فبالاذن والتمكين والرسوخ في اليقين فلم ينزلوا الى الحظوظ بالشهوة ولم يصعدوا الى الحقوق بسوء الادب والغفلة بل كانوا في ذلك كله بآداب الله تعالى وآداب رسله وأنبيائه متأدبين وبما اقتضى منهم مولاهم عاملين رضي الله تعالى عنهم ونفعنا بهم آمين * وكلام سيدي الشيخ أبي العباس رضي الله تعالى عنه

بحر لا ساحل له وكراماته كذلك وليراجع كتاب تلميذه ابن عطاء الله فان فيه من ذلك ما يشفي ويكفي وما بقي أكثر * ومن كراماته رضي الله تعالى عنه انه عزم عليه انسان وقدم اليه طعاما يختبره به فأعرض عنه ولم يأكله ثم التفت الى صاحب الطعام وقال له ان الحارث المحاسبي رضي الله تعالى عنه كان في اصبعه عرق اذا مديده الى طعام فيه شبهة تحرك عليه وأنا في يدي سبعون عرقا تحرك علي اذا كان مثل ذلك فاستغفر صاحب الطعام واعتذر الى الشيخ رضي الله تعالى عنه ونفعنا به * (ومنهم أبو اسحق الساحلي المعروف بالطويجن بضم الطاء المهملة وفتح الواو وسكون التحتية وكسر الجيم وقيل بفتحها العالم المشهور والصالح المشكور والشاعر المذكور من أهل غرناطة من بيت صلاح وثروة وأمانة وكان أبوه أمين العطارين بغرناطة وكان مع أمانته من أهل العلم فقيها متقاما متفننا وله الباع المديد في الفرائض وأبو اسحق هذا كان في صغره موثقا بسماط شهود غرناطة وارتحل عن الاندلس الى المشرق فحج ثم سار الى بلاد السودان فاستوطنها ونال جاها مكينا من سلطانها وبها توفي رحمه الله تعالى انتهى ملخصا من كلام الامير ابن الاحمر في كتابه نثير الجمان فيمن نظمني واياه الزمان * وقال أبو المكارم منديل بن آجروم حدثني من يوثق بقوله ان أبا اسحق الطويجن كانت وفاته يوم الاثنين ٢٧ جمادى الاخيرة سنة ٧٤٧ بتنبكتو موضع بالصحراء من عمالة مالي رحمه الله تعالى ثم ضبط الطويجن بكسر الجيم قال وبذلك ضبطه بخط يده رحمه الله تعالى قال ومن نسبه للساحلي فانه نسبه لجده للام انتهى * (ومنهم الشيخ الاديب الفاضل المعمر ضياء الدين أبو الحسن علي بن محمد بن يوسف بن عفيف الخزرجي الساعدي من أهل غرناطة ويشهر بالخزرجي مولده ببيعة رحل عن الاندلس قديما واستقر أخيرا بالاسكندرية وبها لقيه الحافظ ابن رشيد غير مرة وقد أطال في رحلته في ترجمته الى أن قال وذكره صاحبنا أبو حيان وهو أحد من أخذ عنه ولقيه فقال تلا القرآن بالاندلس على أبي الوليد هشام ابن واقف المقرى وسمع بها من أبي زيد الفازازي العشرينيات وسمع بمكة من شهاب الدين السهروردي صاحب عوارف المعارف وتلا بالاسكندرية على أبي القاسم بن عيسى ولا يعرف له نظم في أحد من العالم الا في مدح رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن شعره يعارض الحريري

أهن لاهل البدع * والهجر والتصنع * ودن بترك الطمع ولذ بأهل الورع

وعد عن كل بذي * لم يكترث بالبذ * والهج بين جهبذ وعالم متضع

واندب زمانا قد سلف * ولم تجد منه خلف * وابعث بأنواع الاسف رسائل التضرع

وهي طويلة فلتراجع في ملء العيبة لابن رشيد رحمه الله تعالى * (ومنهم الفقيه الجليل العارف النبيل الصادق الفصيح البارع أبو محمد عبد الحق بن ابراهيم بن محمد بن نصر الشهير

ابن سبعين العكي المرسي الأندلسي" ويلقب من الألقاب المشرقية بقطب الدين قال الشيخ
المؤرخ ابن عبد الملك درس العربية والآداب بالأندلس ثم انتقل إلى سبتة وانتحل
التصوف وعكف برهة على مطالعة كتبه والتكلم على معانيها فمالت إليه العامة ثم رحل
إلى المشرق وحج حججا وشاع ذكره وعظم صيته وكثر أتباعه وصنف أوضاعا كثيرة
تلقوها منه ونقلوها عنه وهي بأمور الله تعالى أعلم أو تعميها وكان حسن
الأخلاق صبورا على الأذى آية في الإيثار انتهى وقال غير واحد إن إعراض الناس عنه
مبني على بعد عن الاعتدال فمنهم المرضي المكفر ومنهم الملد المعظم الموقر وحصل بهذين
الطرفين من الشهرة والاعتقاد والنفور والانتقاد ما لم يقع لغيره والله تعالى أعلم بحقيقة
أمره ولما ذكر الشريف الغرناطي عنه أنه كان يكتب عن نفسه ابن ٥ يعني الدارة التي هي
كالصفر وهي في بعض طرق المغاربة في حساب سبعين ومن أجل ذلك بان دار ضمن بيت
الشعر المشهور ككا البيت ما قال ابن دارة أجمعا * حسبما ذكر الشريف في شرح مقصورة
حازم وقد طال عهدي به فليراجعه في طرته وقال صاحب درر الأسلاك في سنة ٦٦٩
فاه وربه و ... الشيخ قطب الدين أبو محمد عبد الحق بن سبعين المرسي صوفي متفلسف
مزهد متقشف يتكلم على طريق أصحابه ويدخل البيت ولكن من غير أبوابه شاع
أمره واشتهر ذكره وله تصانيف وأتباع وأقوال تميل إليها بعض القلوب وتملها بعض
الأسماع وكانت وفاته بمكة المشرفة عن نحو خمسين سنة تغمده الله تعالى برحمته انتهى
وقال بعض الأعلام في حق ابن سبعين إنه كان رحمه الله تعالى عزيز النفس قليل التصنع
يتولى خدمته الكبراء من الفقراء والسفار أصحاب الشارات والدعاة من سهمه ويعظمون به
في السكك ولما توفرت دواعي النقد عليه من الفقهاء كثر عليه التأويل ووجهت لألفاظه
المعاريض وفليت موضوعاته وتعاورته الوحشة وجرت بينه وبين الكثير من أعلام المشرق
والمغرب خطوب يطول ذكرها ووقع في رسالة لبعض تلامذة ابن سبعين المذكور وأظن
اسمه يحيى بن محمد بن أحمد بن سليمان وسماها بالوراثة المحمدية والفصول الذاتية ما صورته
فإن قيل ما الدليل على أن هذا الرجل الذي هو ابن سبعين هو الوارث المشار إليه قلنا
عدم النظير واستخراج الوجب إليه وظهور الكلمة المشار إليها عليه ونصيحته لأهل الله
ورحمته المطلقة للعالم المطلق ومحبته لأعدائه وقصده إحياءهم مع كونهم يقصدون أذاه
وعفوه عنهم مع قدرته عليهم وجذبهم إلى الحق مع كونهم طالبين هلاكه ووجد كل هذا من
علامات الوراثة والنعمة المحمدية التي لا يمكن أحدا أن يتصف بها إلا بعهد أزلي وتخصيص
إلهي وها أنا أصف لك بعض ما خصه الله سبحانه وتعالى به من الأمور التي هي خارقة للعادة
ولنبي عن الأمور الخفية التي لا ... وبعد الأمور الظاهرة التي نعلمها والتي لا يمكن أحدا
أن يتركها إلا بأمر الله تعالى وأعلمها ولا يجحدها إلا حسود قد أذهب الله تعالى
عليه وأنساه رشده ونعوذ بالله من عاند من الله تعالى ساعده وأيده وعن معه نصر وعزه
ما أنت عابده وما أعبد مراده وما أكتب مراده فيها ذكر ما وعدنا فنقول
الأول في مرتبة واستحقاقه لما ذكرناه كونه خلقه الله تعالى في أشرف البقوع التي في بلاد

المغرب

المغرب وهو بنوسبعين قرشيا هاشميا علويا وأبواه وجدوده يشار اليهم ويعوّل في الرياسة والحسب والتعين عليهم والثاني كونه من بلاد المغرب والنبي عليه السلام قال لا يزال طائفة من أهل المغرب ظاهرين الى قيام الساعة وما ظهر من بلاد المغرب رجل أظهر منه فهو المشار اليه بالحديث ثم نقول أهل المغرب أهل الحق وأحق الناس بالحق وأحق المغرب بالحق علماؤه لكونهم القائمين بالقسط وأحق علمائه بالحق محققهم وقطبهم الذي يدور الكل عليه ويعوّل في مسائلهم ونوازلهم السهلة والعويصة عليه فهو حق المغرب والمغرب حق الله تعالى والمسئلة حق العالم فهو المشار اليه بالوراثة ثم نقول أهل المغرب ظاهرون على الحق أي على الدين والحق سر الدين والمحقق سر الحق فالمحقق سر الدين فهو المشار اليه بالوراثة ثم نقول أهل الله خير العالم وأهل الحق هم خير أهل الله والمحقق خير أهل الحق فالمحقق خير العالم فهو المشار اليه ثم نقول انظر في بدايته وحفظ الله سبحانه له في صغره وضبطه له من اللهو واللعب واخراجه من اللذة الطبيعية التي هي في جملة البشرية وتركه للرياسة العرضية المعوّل عليها عند العالم مع كونه وجدها في آبائه وهي الآن في اخوته وخروجه عن الاهل والوطن الذي قرنه الحق مع قتل الانسان نفسه وانقطاعه الى الحق انقطاعا صحيحا تعلم تخصيصه وخرقه للعادة ثم انظر في تأيده وفتحه من الصغر وتأليف كتاب بدء العارف وهو ابن خمس عشرة سنة وفي جلالة هذا الكتاب وكونه يحتوي على جميع الصنائع العلمية والعملية وجميع الامور السنية والسنية تجده خارقا للعادة وفي نشأته في بلاد الاندلس ولم يعلم له كثرة نظر وظهوره فيها بالعلوم التي لم تسمع قط تعلم أنه خارق للعادة وفي تواليفه واشتمالها على العلوم كلها ثم انفرادها وغرابتها وخصوصيتها بالتحقيق الشاذ عن أوهام الخلق تعلم أنه مؤيد بروح القدس وفي شجاعته وقوة توكله في عزمه ونصره اصابعه وظهور حجته على خصمائه واقامة حقه وبرهانه وفصاحة كلامه وبيان سلطانه تعلم أن ذلك بقوة الهية وعناية ربانية وفي امتحان أهل المغرب له واجتماعهم عليه في كل بلد معتبر للمناظرة ويظهر الله تعالى حجته ويقمع خصمه ويكبت عدوه ويعجز معارضه ويفحم معترضه وفي غيرة الحق عليه وهلاك من تعرض بالاذى اليه يعلم العاقل المخصوص أنه عند الله مخصوص وفي خلقه وقهره لقواه الروعية والعضبية واسلام قرينه وجلالة قوته الحافظة التي لا تنسى شيأ والمفكرة التي تتصور الذوات المجردة والمعلومية من عين الطيف وكذلك الذاكرة وسرعة ظهوره وانتشار آيته واستجلاب شأنه في الجهات كلها وبالجملة جميع ما ذكرت فيه هو خارق للعادة البشرية ومعجز لمعارضه من كل الجهات ولولا خوف التطويل لكنت أفصل كل صفة ذكرت فيه بالكلام الصناعي ونقيم الادلة القطعية على تحريرها ولكن أعطيت الاوضح وعرفت ان النبيه يغني فكره ويجد ذلك كله كما قلته وبالجملة جميع جزئياته اذا تؤملت توجد خارقة للعادة وتشهد لها ماهية الوجود بالتخصيص فصح انه هو المشار اليه والمعوّل في جملة الامور عليه وانما أعطيت الامر المشهور وتركت ما يعلم منه من خرق العوائد في ظهور الطعام والشراب والسمن والتمر وأخذ الدراهم من الكون واخباره عن وقائع قبل وقوعها بسنين كثيرة وظهرت

كما أخبر فصح أنه هو المذكور انتهى ما تعلق به الغرض مما في الرسالة في شأن الشيخ
ابن سبعين وقد ذكر غير واحد من المؤرخين ومنهم لسان الدين بن الخطيب في الإحاطة
كما سيأتي قريبا أن ابن سبعين عادته الخوف من أمير المدينة عن القدوم إليها فعظم عليه ذلك
الحال وقصد الأخذ بثأره منه انتهى لكن قال شهاب الدين بن أبي حجلة التلمساني الأديب
الشهير وهو صاحب كتاب السكردان وديوان الصبابة ومنطق الطير والاعتراض على
العارف بالله تعالى ابن الفارض ما معناه أخبرني الشيخ الصالح أبو الحسن بن برغوث
التلمساني شيخ المجاورين بمكة وكانت له معرفة تامة بهذا الرجل أنه صد عن زيارة رسول
الله صلى الله عليه وسلم وأنه كان إذا قرب من باب من أبواب مسجد المدينة على ساكنها
الصلاة والسلام يهراق منه دم كدم الحيض والله تعالى أعلم بصحة أمره انتهى وقال غير
ثم زار النبي صلى الله عليه وسلم مستخفيا على طريق المشاة حذرا بذلك أمير مكة انتهى
وقال لسان الدين أما شهرته وعلمه من الإدراك والآراء والأوضاع والأسماء والوقوف على
الأقوال والتعمق في الفلسفة والقيام على مذاهب المتكلمين فما يقضى منه بالعجب
وقال الشيخ أبو البركات بن الحاج البلفيقي رحمه الله تعالى حدثني بعض أشياخنا من
أهل المشرق أن الأمير أبا عبد الله بن هود سالم طاغية النصارى فنكث به ولم يف بشرطه
فاضطر ذلك إلى مخاطبة القس الأعظم برومية فوكل أبا طالب بن سبعين أخا أبي محمد عبد
الحق بن سبعين في التكلم عنه والاستظهار بين يديه قال فلما بلغ ذلك القس برومية
وهو بلد لا تصل إليه المسلمون ونظر إلى ما بيده وسئل عن نفسه فأخبر بما يعني كلم ذلك
القس من دامنه بكلام مترجم يترجم لأبي طالب ما معناه اعلموا أن أخا هذا ليس للمسلمين
اليوم أعلم بالله منه انتهى وقال غير واحد إنه ظهر منه واشتهر عنه أشياء كثيرة الله تعالى
أعلم بحقيقتها ونسبتها إليه ما ادعاه منها فهادرته نفثات عبرا وقد جرى ذكر الشيخ ولي الله
سيدي أبي مدين نفعنا الله تعالى ببركاته بمجلس عبد الحق وهو عند حسير ومن حكى هذا
لسان الدين في الإحاطة وقد ذكر ابن خلدون في تاريخه الكبير ترجمة السلطان
المستنصر بالله تعالى أبي عبد الله محمد ابن السلطان زكريا ابن عبد الواحد بن أبي حفص ملك
إفريقية وما اتفق له أن أهل مكة بايعوه وخطبوا له بعرفة وأرسلوا له بيعتهم وهي من إنشاء
ابن سبعين وسردها ابن خلدون بجملتها وهي طويلة وفيها من البلاغة والتلاعب
بأطراف الكلام ما لا يستطيع ورا غير أنه يشير فيها إلى أن المستنصر هو المهدي المبشر به
في الأحاديث الذي يحثو المال ولا يعده وحمل حديث مسلم وغيره عليه وذلك ما لا يخفى
ما فيه فليراجع كلام ابن خلدون في محله ولابن سبعين رسالة سلام عليك ورحمة الله
سلام عليك ثم سلام مناجاتك سلام الله ورحمة الله الممتد على عوالمك كلها السلام عليك
يا أيها النبي ورحمة الله تعالى وبركاته وصلى الله عليك كما صلى على إبراهيم من حيث شريعتك
وكما صلى عليه لا يتكل من حيث حقيقتك وكما صلى به من حيث حقيقته ورسالته السلام
عليك يا حبيب الله السلام عليك يا قياس الكمال ومقدمة العلم ونتيجة الحمد وبرهان
المحمود ومن إذا نظر الذهن إليه قرأ نعم العبد السلام عليك يا حد الشرط في كمال

الاوايا

الاولياء وأسرار مشروطات الادكياء الاتقياء السلام عليك يامن جاور فى السموات مقام الرسل والانبياء وزادك رفعة واستعلا على ذوات الملا الاعلى * ود كر قوله تعالى سبح اسم ربك الاعلى * وقال بعضهم عند ايراده جملة من رسائله التى منها هذه انها تشتمل على مايشهد له بتعظيم النبوة وايثار الورع انتهى * وقال بعض العلماء الاكابر عند تعرضه لترجمة الشيخ ابن سبعين المترجم به ما نصه ببعض اختصار هو أحد المشايخ المشهورين بسعة العلم وتعدد المعارف وكثرة التصانيف ولد سنة ٦١٤ ودرس العربية والادب بالاندلس ونظر فى العلوم العقلية وأخذ عن أبى اسحق بن دهاق وبرع فى طريقه وجال فى البلاد وقدم القاهرة ثم حج واستوطن مكة وطار صيته وعظم أمره وكثر أتباعه حتى أنه ترجم له أمير مكة فبلغ من التعظيم الغاية وله كتاب الدرج وكتاب السفر وكتاب الاجوبة اليمنية وكتاب الكد وكتاب الاحاطة ورسائل كثيرة فى الاذكار وترتيب السلوك والوصايا والمواعظ والعقائد ومن شعره

كم ذا تموه بالشعبين والعلم * والامر أوضح من نار على علم
وكم تعبر عن سلع وكاظمة * وعن زرود وجيران بذى سلم
ظللت تسأل عن نجد وأنت بها * وعن تهامة هذا فعل متهم
فى الحى حى سوى ليلى فتسأله * عنها سؤالك وهم جر للعدم

ونشأ رحمه الله تعالى ترفا مبجلا فى ظل جاه ونعمة لم تفارق معها نفسه البأو وكان وسيما جميلا ملوكى البزة عزيز النفس قليل التصنع وكان آية من الآيات فى الايثار والجود بما فى يده رحمه الله تعالى * وقال فى الاحاطة للناس فى أمره اختلاف بين الولاية وضدها ولما وجه الى كلامه سهام الناقدين قصر أكثرهم عن مداه فى الادراك والخوض فى تلك البحار والاطلاع وساءت منهم فى الممازجة له السيرة فانصرفوا عنه مكلومين ينذرون عنه فى الآفاق من سوء المقالة ما لا شئ فوقه وجرت بينه وبين أعلام المشرق خطوب وعاقه الخوف من أمير المدينة عن الدخول اليها الى أن توفى وعظم بذلك الحمل عليه وقبحت الاحدوثة عنه ولما وردت على سبتة المسائل الصقلية وكانت جملة من المسائل الحكمية وجهها علماء الروم تبكيتا للمسلمين انتدب للجواب المقنع عنها على فتاء من سنه وبديهة من فكرته رحمه الله تعالى انتهى * وقال بعض من عرف به انه من أهل مرسية وله علم وحكمة ومعرفة ونباهة وبراعة وفصاحة وبلاغة * وقال فى عنوان الدراية رحل الى العدوة وسكن بجاية مدة ولقى من أصحابنا ناسا وأخذوا عنه وانتفعوا به فى فنون خاصة له مشاركة فى معقول العلوم ومنقولها وله فصاحة لسان وطلاقة قلم وفهم جنان وهو أحد العلماء الفضلاء وله أتباع كثيرة من الفقراء ومن عامة الناس وله موضوعات كثيرة هى موجودة بأيدى أصحابه وله فيها ألغاز واشارات بحروف أبجد وله تسميات مخصوصة فى كتبه هى نوع من الرموز وله تسميات ظاهرة هى كالاسامى المعهودة وله شعر فى التحقيق وفى مراقى أهل الطريق وكتابته مستحسنة فى طريق الادباء وله من الفضل والمزية ملازمته لبيت الله الحرام والتزامه الاعتمار على الدوام وحجه مع الحجاج فى كل عام

فوجده يذاكر بعض أهل العلم فاستحسن منه ايراده للعلم واستعماله لمحاضرة الفهم فاعتقد شيابختمه وتقديمه ثم نوى أن يؤثر الفقراء من ماله بعشرين دينارا اشكرا لله تعالى ويأتيهم بمأكول فلما يسر جميع ما اهتم به أراد أن يقسمه فيعطيه شطره ويدع الشطر الثاني الى حين انصراف الشيخ ليكون للفقراء زادا فلما كان فى الليل رأى فى منامه النبى صلى الله عليه وسلم ومعه أبو بكر وعلى رضى الله تعالى عنهما قال الرجل فنهضت اليه بسرور رؤية النبى صلى الله عليه وسلم وقلت يارسول الله ادع الله تعالى لى فالتفت لابى بكر رضى الله تعالى عنه وقال يا أبابكر أعطه فاذا به رضى الله تعالى عنه قسم رغيفا كان بيده وأعطانى نصفه ثم أفاق الرجل من منامه وأخذه وجد من هذه الرؤية المباركة فأيقظ أهله واستعمل نفسه فى العبادة فلما كان من الغد سار وأتى الشيخ ببعض الطعام ونصف الدراهم المحتسب بها فلما دفعها للشيخ قال له الشيخ ياعلى اقرب فلما قرب قال له ياعلى لو أتيت بالكل لاخذت منه الرغيف بكماله انتهى *(ومنهم أبو عبد الله محمد بن ابراهيم الشهير بابن غصن الاشبيلى من ولد شداد بن أوس الانصارى الجريرى نسبة الى الجريرة الخضراء الامام المقرى الزاهد عرض على الاستاذ ابن أبى الربيع الموطأ من حفظه وأخذ عنه النحو وكان من أولياء الله تعالى الصالحين وعباده الناصحين آمرا بالمعروف ناهيا عن المنكر قوالا بالحق لا تأخذه فى الله لومة لائم عارفا بعيون الحديث وأحكامه فقيها عارفا منقلا لمذاهب الائمة الاربعة والصحابة والتابعين لا يقبل من أحد شيأ مخلصا لله تعالى يتكلم على المنبر على عادة أهل العلم من تعليم المسائل الدينية وأقرأ القرآن بمكة مدة بالقرا آت وبالمدينة وبيت المقدس وممن قرأ عليه خليل امام المالكية بالحرم والشهاب الطبرى امام الحنفية بالحرم وله مصنفات فى القرا آت منها مختصر الكافى وكتاب فى معجزات النبى صلى الله عليه وسلم ومولده سنة ٦٣٠ تخمينا وتوفى ببيت المقدس آخر سنة ٧٢٣ رحمه الله تعالى *(ومنهم الشيخ الفقيه الاستاذ النحوى التاريخى اللغوى أبو جعفر أحمد بن يوسف الفهرى اللبلى يكنى أبا العباس وأبا جعفر قرأ بالاندلس على مشايخ من أفضلهم الاستاذ أبو على عمر الشلوبين ثم ارتحل الى العدوة وسكن ببجاية وأقرأ بها مدة وارتحل الى المشرق فحج ثم رجع الى حضرة تونس واتخذها وطنا واشتغل بها بالاقراء الى أن مات كان يتبسط لاقراء سائر كتب العربية وله علم جليل باللغة وله تواليف كثيرة منها على الجمل وشرح الفصيح لثعلب ولم يشذ فيه شئ من فصيح كلام العرب قال الغبرينى رحمه الله تعالى ورأيت له تأليفا فى الاذكار وله عقيدة فى علم الكلام ورأيت له مجموعا سماه الاعلام بحدود قواعد الكلام تكلم فيه على الكلم الثلاث الاسم والفعل والحرف وله تواليف أخر وكان من أساتيذ افريقية فى وقته وممن أخذ عنه واستفيد منه انتهى * وذكر الشيخ أبو الطيب بن علوان التونسى عن والده أحمد التونسى الشهير بالمصرى أن المذكور تآليفا سماه التجنيس وله شرح أبيات الجمل سماه وشى الحلل رفعه للملك المستنصر الحفصى بتونس فدفعه المستنصر للاستاذ أبى الحسن حازم وأمره أن يتعقب عليه ما فيه من خلل وجدمه فحكى أبو عبد الله

السلطان المستنصر وكان يقدم حازماً قال فكنت يوماً بدار أبي الحسن حازم وبين يديه هذا
الكتاب فجعلت أقلب الباب فخرجت فإذا بالقاضي أبي جعفر فخرجت وأخبرت أبا الحسن
فأمر بإدخاله فدخل وتلقاه بالبر والإكرام فرأى الكتاب بين يديه فقال له يا أبا الحسن
قال الشاعر وبين الرصافة كل عيب كائنه فقال له بأنه نفسه أنا [illegible] فرأيت سيدي
وأخي ولكن هذا أمر الملك لا يمكن فيه الا قول الحق والعلم لا يحمل المداهنة فقال له أخبرني
عما ترى فيه قال له نعم فأظهره له واصبح فسألها أبو جعفر ونسبها فأصلحها كلها وأصل
هذا الذي ذكرناه الاندلس أجمع في رحلته للمشرق بالقاضي ابن دقيق العيد وكان يوماً
فلما دخل عليه الا ان قال له القاضي من قدم ثم سأله بعد من تصدر قدم فقال له
الآن لي المصدر وهو من المصادر التي لا تظهر أفعالها وقد ذكر سيبويه ثم سرد
عليه الباب من أوله الى آخره فإنه كان يحفظ أكثر فأكرمه القاضي وعظمه ثم قال ابن
علوان وذكر والدي انصار رحمه الله تعالى ومن حفظه المدارك على ابن الاستاذ أبا جعفر
اللبلي المذكور رحمه الله تعالى قرأ عليه يوماً قول امرئ القيس

* حتى الحول من العزل * اذا لا لم يسكنها شكلي *

فقال لطلبته ما العامل في هذا الظرف الذي أنا فيه فتنازعوا القول فقال حسبكم فرأى هذا
البيت على استاذنا أبي علي الشلوبين فسألناه هذا السؤال وكان أبو الحسن بن عصفور قد
برع واستقل وجلس للتدريس وكان الشلوبين يعضن فيه فالنادا أخرجهم فاسألوا ذلك
الفاضل يعني ابن عصفور فلما حضرنا سألناه تجمعنا ودخلنا المصدر أستاذ قد دارت به
حلقة كبيرة ولم يسكن يعرف التحو على غيره على سؤاله لم يعد وأسر فاهم جميعاً بعد على
عادة سأله على قد فتى حتى فرى عليه قول النابغة * فقد ميما أرى ادلالا ارتجاع له *
فذكر وقال ما نعلم في سؤال ابن عصفور قصد فقاله الحد ب فأقسم ان لا يحضرنا
ما العامل فيه ثم قال الشلوبين لطلبته وأنا أقول لكم مثل ذلك فانظروا لا أنسكم
قالوا فنظرنا فإذا المسألة مسلك خفي ونظر كلنا حكمنا يحكم فقد ساعيه قول ابن
عرفة حتى يصف مد ظل نافذ غلبنا سوء من الحسن فيه أحد طلبة أبي الربيع
وكان ابن أبي الربيع هذا سألناه فيه وهو أحد طلبة الشلوبين النبهاء ومن كان هذه
الطلبة الى أن يبلغ حد قالوا فقد ذكر أنه هذا الطالب في سائل عنه بدر
هذا البيت في قوله تعالى اذ ويكم رب العالمين فقال هذا الطالب ان هذا الظرف وقع
موقع لام العلة فعلماً أن هذا هو الذي أراد الاستاذ أبو علي ثم ناقشنا الطالب وقلت له
اذا جعلته ظرفاً فلا بد من العامل واذا جعلته واقعاً موقع الحرف كان هذا على مذهب قول
الكوفيين والذي يقول ركبه على مذهب الجميع وأما الاولى أن يقال اذ حرف معنا
التعليل مستزل فيه الاسماء كما أسرف شيء والله أعلم بعينه انتهى * (ومنهم أبو
عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح القرطبي قال الحافظ الذهبي ودرج ليكون الزاهد
وقال الحافظ عبد الكريم في حقه انه كان من عباد الله الصالحين والعلماء العارفين
الورعين الزاهدين في الدنيا المشغلين بما يعنيهم من أمور الآخرة فيما بين توجه وعبادة

وتصنيف جمع فى تفسير القرآن كتابا خمسة عشر مجلدا وشرح أسماء الله الحسنى فى مجلدين وله كتاب التذكرة فى أمور الآخرة فى مجلدين وشرح التقصى وله تآليف غير ذلك مفيدة وكان مطرح التكليف يمشى بثوب واحد وعلى رأسه طاقية سمع من الشيخ أبى العباس أحمد بن عمر القرطبى صاحب المفهم فى شرح مسلم بعض هذا الشرح وحدث عن أبى الحسن على بن محمد بن على بن حفص اليحصبى وعن الحافظ أبى على الحسن بن محمد بن محمد البكرى وغيرهما وتوفى بمنية ابن خصيب ليلة الاثنين التاسع من شوال سنة ٦٧١ ودفن بها رحمه الله تعالى * وفى تاريخ الكتبى فى حقه ما نصه كان شيخا فاضلا وله تصانيف مفيدة تدل على كثرة اطلاعه ووفور علمه منها تفسير القرآن مليح الى الغاية اثنا عشر مجلدا انتهى * وكتب بعض تلامذته على الهامش ما صورته قد أجحف المصنف فى ترجمته جدا وكان متفننا متبحرا فى العلم انتهى * وكتب بعض باثر هذا الكلام ما نصه قال الذهبى رحل وكتب وسمع وكان يقظا فهما حسن الحفظ مليح النظم حسن المذاكرة ثقة حافظا انتهى * وكتب آخر اثر ذلك الكلام ما صورته مشاحة شيخنا للمصنف فى هذه العبارة ما لها فائدة فان الذهبى قال فى تاريخ الاسلام العلامة أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبى بكر بن فرح الامام القرطبى امام متفنن متبحر فى العلم له تصانيف مفيدة تدل على كثرة اطلاعه ووفور عقله وفضله ثم ذكر موته وقال بعده وقد سارت بتفسيره العظيم الشان الركبان وله الاسنى فى شرح الاسماء الحسنى والتذكرة وأشياء تدل على امامته وذكائه وكثرة اطلاعه انتهى * وكتب آخر باثر هذا الكلام ما نصه غفر الله لك اذا كان الذهبى ترجمه بما ذكرت وهو والله فوق ذلك فكيف تقول ان مشاحة شيخك لا فائدة فيها وتسىء الادب معه وتقول ان كلامه لا فائدة فيه فالله يستر عليك انتهى *(ومنهم أبو القاسم بن حاضر الجزيرى الخزرجى محمد بن أحمد من جزيرة شقر قدم مصر وسكن قوص بعد ما كان من عدول بلنسية وكان فصيحا عالما بصناعة التوريق وله نظم لم يحضرنى الآن شىء منه ومات بالقاهرة سنة تسع وثلاثين وستمائة رحمه الله تعالى *(ومنهم أبو القاسم التجيبى محمد بن أحمد التجيبى من أهل بلش قرأ على ابن مفرج وابن أبى الاحوص ورحل فاستوطن القاهرة وكان شيخا فاضلا خيرا له أدب وشعر فمنه قوله من أبيات

أحوى الجفون له رقيب أحول * الشىء فى ادراكه شيآن
ياليته ترك الذى أنا مبصر * وهو المخير فى الغزال الثانى

ولد ببلش سنة ٦٢٣ وتوفى بالحسينية خارج القاهرة سلخ المحرم سنة ٦٩٥ وممن روى عنه نحوى الزمان اثير الدين أبو حيان وغيره رحمهم الله تعالى الجميع *(ومنهم أبو بكر الخزرجى محمد بن أحمد بن حسن وقيل محمد بن عيسى المالقى المالكى قال الشريف أبو القاسم انه كان أحد الزهاد الورعين وعباد الله المتقين مشتغلا بنفسه متخليا عما فى أيدى الناس يأكل من كسب يده ولا يقبل لاحد شيأ مع وجد وعلم وعمل وفضل وأدب ولم يكن فى زمانه من اجتمع فيه ما اجتمع له وقال الحافظ عبد الكريم انه دخل اشبيلية واشتغل

بالمدرسة في التلاوين وقرأ القرآن بالسبع ثم قدم مصر واشتغل بمذهب مالك وكان
والد عثراً وكان لا يأكل الا من كسب يده بخط المصاحف فازدحم الناس عليه لبركته فترك
ذلك وصار يدق القصدير ويأكل منه ويتصدق بما فضل عنه وكان شديد الزهد كثير
العبادة لا يسلم يده الى أحد ليقبلها وما يحصل قدر يده عليه في أجرة مسكنه ليدفع الى
صاحب الدار أن لا يقبل الزائد ويمضي الى صاحب الدار ويعطيه الزائد فشهر وعلم بذلك
الساكن بعد ذلك فقال له يا سيدي ما سألتك الإقامة وأسرت عني فقال له رجل له دار
بالحدادين ثم باعها الجوزي فطلع عليه منه والله ما دفع هذا الا أنا لم يزل يدفع
الزائد الى أن انتقل الساكن الى غيرها ومات ليلة الاثنين الثامن والعشرين من شهر
ربيع الآخر سنة ٦٥١ عن خمس وأربعين سنة ودفن بالقرافة رحمه الله تعالى ونفعنا به
● (ومنهم أبو بكر محمد بن أحمد بن خليل بن فرج الهاشمي مولاهم لأن ولاءه لبني العباس
من أهل قرطبة ولد في شهر رمضان سنة ٢٢٢ بقرطبة وسمع بها من وهب بن مسرة
وخالد بن سعد وغيره ورحل فحج وأدرك بمصر ابن الورد وابن رشيق وأبا علي بن السكن
ونظراءهم في سنة ٣٤٩ وعاد الى بلده ومات بها في شهر رمضان سنة ست وأربعمائة
قال ابن بشكوال كان رجلاً صالحاً فاضلاً من أهل الاجتهاد في العبادة مائلاً الى
التقشف والزهادة قديم الطلب حسن المذهب متقللاً من ● (ومنهم أبو عبد الله محمد بن
سليمان بن أحمد بن إبراهيم الزهري الأندلسي الإشبيلي ولد بمالقة وطاف الأندلس وطلب
العلم وحصل طرفاً صالحاً من علم الأدب ودخل جزيرة الشقر وحصل بها سمع الحديث
بها ودخل الشام والبلاد الجزرية وقدم بغداد سنة ٥٩ وعمره ثلاثون سنة وأقام
بها مدة وسمع من شيوخها كأبي الفرج بن كليب وغيره وقرأ ودخل عليه وسافر الى أصبهان
وبلاد الجبل وكان فاضلاً حسن المعرفة بالأدب يقول الشعر وينشئ المقامات وصنف كتاب
البيان والتبيين في أنساب المحدثين سبعة أجزاء وكتاب البيان فيما أبهم من الأسماء في القرآن
مجلد وكتاب أقسام البلاغة وأحكام الصناعة في مجلدين وكتاب شرح الإيضاح لأبي علي
الفارسي في خمسة عشر مجلداً وكتاب شرح المقامات مجلد وكتاب شرح اللمع في مجلد
قال المنذري توفي بمدينة الشابري رجب وقال ابن النجار في سابع عشر رجب سنة
٦١٧ رحمه الله تعالى ● (ومنهم أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عبد الأعلى بن القاسم
القرطبي المقرئ المعروف بالنوري نسبة الى قرية ورش لاشتهاره بها وهو أحد القراء
المعروفين قال الحاكم هو من الفاضلين المذكورين بالتقدم في علم القرآن سمع بمصر والشام
والحجاز والعراقين والجبال وأصبهان وورد نيسابور ودخل خراسان فسمع علي ابن المرزبان
بأصبهان وبالأهواز عبد الواحد بن خلف الجنديسابوري و فارس بن أحمد بن عبد الرحمن
ابن الجارود الرقي وقال ابن النجار قدم بغداد وحدث بها وتوفي بسجستان في ربيع الأول
سنة ٣٩٢ ● (ومنهم أبو عبد الله محمد بن أحمد الناجي اللخمي قال ابن بشكوال مولده
في صفر سنة ٣٥٦ وسمع من جد ورحل الى المشرق وقال ابن علون في مشيخته
إنه كان من أهل العلم والحديث والرواية والحفظ للمسائل فاعتنى بها وأتقنها علماً فاعتدا

للشروط

للشروط محسنا لها عارفا وبيتهم بيت علم ونشأ فيه هو وأبوه وجده وكان جميعهم في الفضل والتقدم على درجاتهم في السن وعلى منازلهم في السبق وكانت رحلته مع أبيه وروايتهما واحدة وشاركه في السماع والرواية عن جده وسمع بمصر من أبي الحسن أحمد بن عبد الله ابن حميد بن زريق المخزومي * وقال ابن بشكوال كان من أجل الفقهاء عندنا دراية ورواية بصيرا بالعقود ومتقدما على أهل الوثائق عارفا بعللها وألف فيها كتابا حسنا وكتابا في السجلات الى ما جمع فيه من أقوال الشيوخ والمتأخرين مع ما كان عليه من الطريقة المثلى وتوفية العلم حقه من الوقار والتصون توفي في المحرم سنة ٤٢٣ لعشرين بقين منه *(ومنهم أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عبد العزيز العتبي الاندلسي القرطبي الفقيه المالكي المشهور صاحب العتبية سمع بالاندلس من يحيى بن يحيى وسعيد ابن حسان وغيرهما ورحل الى المشرق فسمع من سحنون وأصبغ بن الفرج وغيرهما وكان حافظا للمسائل جامعا لها عالما بالنوازل وهو الذي جمع المستخرجة من الاسمعة المسموعة غالبا من مالك بن أنس وتعرف بالعتبية وأكثر فيها من الروايات المطروحة والمسائل الغريبة الشاذة وكان يؤتى بالمسئلة الغريبة فاذا سمعها قال أدخلوها في المستخرجة ولذا روى عن ابن وضاح انه كان يقول المستخرجة فيها خطأ كثير كذا قال ولكن الكتاب وقع عليه الاعتماد من علماء المالكية كابن رشد وغيره * قال ابن يونس توفي بالاندلس سنة ٢٥٥ والعتبي نسبة الى عتبة بن أبي سفيان بن حرب وقيل الى جد للمذكور يسمى عتبة وقيل الى ولاء عتبة بن يعيش *(ومنهم أبو عبد الله محمد بن أحمد ابن زكريا المعافري الشري المرضي الاديب ولد بالاندلس سنة ٥٩١ ونشأ بها ثم أقام بالاسكندرية وقرأ القرآن على أصحاب ابن هذيل ونظم قصيدة في القراآت على وزن الشاطبية لكن أكثر أبياتا وصرح فيها أسماء القراء ولم يرمز كما فعل الشاطبي وكانت له يد في الفرائض والعروض مع معرفة القراآت والادب ومن شعره

اذا ما اشترت بنت أباها فعتقه * بنفس الشرا شرعا عليها تأصلا

وميراثه ان مات من غير عاصب * ومن غير ذي فرض لها قد تأثلا

لها النصف بالميراث والنصف بالولا * فان وهب ابنا أو شراه تفصلا

فأعتق شرعا ذلك الابن مالها * سوى الثلث والثلثان للاخ أصلا

وميراثها فيه اذا مات قبلها * كميراثها في الاب من قبل يجتلي

ومولى أبيها مالها الدهر فيه من * ولاء ولا ارث مع الابن فاعقلي

وهذه المسئلة ذكر الغزالي في الوسيط انه قضى فيها أربعمائة قاض وغلطوا وصورتها ابنة اشترت أباها فعتق عليها ثم اشترى الاب ابنا فعتق عليه ثم اشترى عبدا وأعتقه ثم مات الاب فورثه الابن والبنت للذكر مثل حظ الانثيين ثم مات العبد المعتق فلمن يكون ولاؤه وفرضها المالكية على غير هذا الوجه وهي مشهورة *(ومنهم محمد بن أحمد بن محمد بن سهل أبو عبد الله الاموي الاندلسي الطليطلي المعروف بالنقاش نزل مصر وقعد للاقراء بجامع عمرو بن العاصي وأخذ عنه جماعة وتوفي بمصر سنة ٥٢٩ *(ومنهم أبو عبد الله محمد بن أحمد

الغني المقرئ القرطبي المؤدب رحل من الأندلس سنة ٣٤٢ فسمع بمصر من أبي محمد ابن الورد وأبي قتيبة سالم بن الفضل البغدادي وغيره وكان صالحا خيرا وقد سمع منه الناس وتوفي سنة ٣٦٢ والقبري بفتح القاف وسكون الباء الموحدة ثم راء مهملة نسبة إلى قبرة بلد بالأندلس بقرب قرطبة نحو ثلاثين ميلا * (ومنهم جمال الدين أبو بكر الوائلي محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله بن سحمان الشريشي المالكي ولد بشريش سنة ٦٠١ ورحل فسمع بالإسكندرية من ابن عماد الحراني وبدمشق من ابن كرم ابن أبي الصقر وعلق عن أبي البقاء يعيش بن علي النحوي وسمع بإربل وبغداد وأقام بالمدرسة الفاضلية من القاهرة مدة يقرئ الناس فتخرج به جماعة وولي مشيخة المدرسة بالقدس ومشيخة الرباط الناصري بالجبل وأقام بدمشق يفتي ويدرّس وكان من العلماء الزهاد كثير العبادة والورع والزهد أحد الأئمة المبرزين المتصرّفين في العربية والفقه على مذهب الإمام مالك والتفسير والأصول وصنف كتابا في الاشتقاق وشرح ألفية ابن معطي وأخذ عنه الناس وطلب لقضاء دمشق فامتنع منه زهدا وورعا وبقي المنصب لأجله شاغرا إلى أن مات رحمه الله سنة ٦٨٥ ودفن بقاسيون وسحمان بسين مهملة مضمومة ثم حاء ساكنة بعدها ميم مفتوحة ونون * (ومنهم أبو عبد الله محمد بن أحمد ابن يحيى بن مفرّج القرطبي المعروف والده بالقنوري وكان جده أبو مفرج صاحب الركاب للحكم بن عبد الرحمن الداخل وكان أبو أحمد بن يحيى رجلا صالحا وولد هو سنة ٣٢٨ وكان سكناه بقرطبة بقرب عين قنت أوربة وسمع بقرطبة من قاسم بن أصبغ كثيرا ومن ابن دليم والخشني ورحل سنة ٣٣٧ فسمع بمكة من ابن الأعرابي ولزمه حتى مات وسمع بها من جماعة غيره وسمع بجدة وبالمدينة النبوية على ساكنها الصلاة والسلام ودخل صنعاء وزبيد وعدن وسمع بها من جماعة وسمع بمصر من البرقي صاحب أحمد البزار وسمع من الوراق وجماعة كثيرة وسمع بغزة وعسقلان وطبرية ودمشق وطرابلس وبيروت وصيدا وأنطاكية وصور وقيسارية والقلزم والفرما والإسكندرية فبلغ عدد شيوخه إلى مائتين وثلاثين شيخا وروى عنه أبو عمر الطلمنكي وجماعة وكتب تاريخ مصر عن ولده أبي سعيد بن يونس وروى عنه ابن يونس وهو من أقرانه وعاد إلى الأندلس من رحلته سنة ٣٤٥ واتصل بالحكم المستنصر وصارت له عنده مكانة وألف له عدة كتب واستعمله على إستجة ثم على المرية ومات رحمه الله سنة ٣٤٨ قال الحميدي هو محدث حافظ جليل صنف كتابا في فقه الحديث وفي فقه التابعين منها فقه الحسن البصري في سبع مجلدات وفقه الزهري في أجزاء كثيرة وجمع مسند ابن الفرضي وحدث قاسم ابن أصبغ قال ابن الفرضي وكان عالما بالحديث بصيرا برجاله صحيح النقل حافظا جيد الكتابة على كثرة ما جمع وقال ابن عفيف في حقه إنه كان من أعنى الناس بالعلم وأحفظهم للحديث وأبصرهم بالرجال ما رأيت مثله في هذا الفن من أوثق المحدثين بالأندلس وأجودهم كتبا وأشدهم تقييدا للرواية وأجودهم ضبطا للكتب وأكثرهم تصحيحا لها لم يدع فيها شبهة رحمه الله تعالى * (ومنهم أبو عبد الله التيمي الوشاحي محمد بن أحمد بن موسى رحل إلى المشرق

وسمع من السلفي وغيره جملة صالحة ثم عاد الى الاندلس بعد الحج وسكن المرية مدة وبها مات سنة ٥٣٩ وقيل في التي بعدها وكان من أظرف الناس وأحسنهم أدبا فقيها فاضلا ثقة ذا فنون ذا حجة عفيفا معتنيا بالعلم * (ومنهم أبو عبد الله محمد بن أحمد بن موسى بن هذيل العبدري البلنسي ولد سنة ٥١٩ وسمع من أبيه وجماعة ورحل حاجا فسمع من السلفي وابن عوف والحضرمي والتنوخي والعثماني وغيرهم ورجع بعد الحج الى الاندلس فحدث وكان غاية في الصلاح والورع وأعمال البر وله حظ من علم العبارة ومشاركة في اللغة وكتب بخطه على ضعفه كثيرا رحمه الله تعالى * (ومنهم أبو عبد الله محمد بن أحمد بن نوح الاشبيلي ومولده سنة احدى وثلاثين وستمائة باشبيلية وجال في بلاد المغرب والمشرق وقرأ على الشيوخ الفضلاء وحصل كثيرا في علم القراآت والادب وله نظم ونثر وكان كثير التلاوة للقرآن جيد الاداء له وأقام بدمشق حتى مات بها سنة ٦٩٩ رحمه الله تعالى * (ومنهم محمد بن أسباط المخزومي القرطبي روى عن يحيى بن يحيى وقدم مصر فسمع من الحرث بن مسكين وكان حافظا للفقه عالما توفي سنة ٣٧٩ * (ومنهم أبو بكر محمد بن اسحق الشهير بابن السليم قاضي الجماعة بقرطبة مولده سنة ٣٠٦ روى عن قاسم بن أصبغ وطبقته ورحل سنة ٣٣٢ فسمع بمكة من ابن الاعرابي وبمصر من الزبير وابن النحاس وغيرهما وعاد الى الاندلس فأقبل على الزهد ودراسة العلم وحدث فسمع منه الناس وكان حافظا للفقه بصيرا بالاختلاف حسن الخط والبلاغة متواضعا وتوفي بجمادى الاولى سنة ٣٦٧ وسليم بفتح السين مكبرا * (ومنهم موسى بن بهيج المغربي الاندلسي الواعظ الفقيه العالم من أهل المرية نزل مصر يكنى أبا عمران كان من أهل العلم والادب وله في الزهد وغيره أشعار حملت عنه وحدث المرشاني عنه بخمسة في الحج وأعماله كلها ولقيه بمصر وقرأها عليه ولابن بهيج هذا قوله

اعمل لنفسك ساعه * فاجعل الساعة طاعه
واحذر التقصير فيها * واجتهد ما قدر ساعه
واذا أحببت عزا * فالتمس عز القناعه

* (ومنهم أبو عمران موسى بن سعادة مولى سعيد بن نصر من أهل مرسية سمع صهره أبا علي بن سكرة الصدفي وكانت ابنته عند أبي علي ولازمه وأكثر عنه وروى عن أبي محمد ابن مفوز الشاطبي وأبي الحسن بن شفيع قرأ عليهما الموطأ ورحل وحج وسمع السنن من الطرطوشي وعني بالرواية وانتسخ صحيحي البخاري ومسلم بخطه وسمعهما على صهره أبي علي وكانا أصلين لا يكاد يوجد في الصحة مثلهما حكى الفقيه أبو محمد عاشر بن محمد أنه سمعهما على أبي علي نحو ستين مرة وكتب أيضا الغريبين للهروي وغير ذلك وكان أحد الافاضل الصلحاء والاجواد السمحاء يؤم بالناس في صلاة الفريضة ويتولى القيام بمؤن صهره أبي علي وبما يحتاج اليه من دقيق الاشياء وجليلها واليه أوصى عند توجهه الى غزوة كتندة التي فقد فيها سنة أربع عشرة وخمسمائة وكانت له مشاركة في علم اللغة والادب وقد حدث عنه ابن أخيه القاضي أبو عبد الله محمد بن يوسف بن سعادة بكتاب أدب

قوله ـ بسنة

الكتاب لابن سيده وبالفصيح لثعلب *(ومنهم أبو محمد عبد الله بن طاهر الأزدي من أهل وادي آش) له رحلة إلى المشرق أدى فيها الفريضة وأخذ بدمشق عن أبي طاهر الخشوعي مقامات الحريري وابن عساكر وغيرهما ثم قفل إلى بلده انتهى ملخصاً من ابن الأبار *وحكى الصفدي أن ابن السكري اجتمع بالمتنبي بمصر وروى عنه شيئاً من شعره وعما روى عنه أنه قال أنشدني المتنبي لنفسه

لا عتب بالحمام إنسانه * كل يدري الدجى الساجم
وكلما حاولت أحدى له * من البنان المترف الناعم
ألقمه في فيها فعلت اطربا * وذهب الحمام في الحمام

*(ومن الراحلين من الأندلس إلى المشرق) أبو عبد الله بن مالك صاحب التسهيل والألفية وهو جمال الدين محمد بن عبد الله بن مالك الإمام العلامة الأوحد الطائي الجياني المالكي حين كان بالمغرب الشافعي حين انتقل إلى المشرق النحوي نزيل دمشق ولد سنة ستمائة أو إحدى وستمائة بجيان وسمع بدمشق من مكرم وأبي صادق الحسن بن صباح وأبي الحسن السخاوي وغيرهم وأخذ العربية عن غير واحد فممن أخذ عنه بجيان أبو المظفر وقيل أبو الحسن ثابت بن خيار ويعرف بابن الطيلسان وأبو رزين بن ثابت بن محمد بن يوسف ابن خيار الكلاعي من أهل لبلة وأخذ القراآت عن أبي العباس أحمد بن نوار وقرأ كتاب سيبويه على أبي عبد الله بن مالك المرشاني وجالس بحلب ابن عمرون وغيره بحلب وتصدر بها لإقراء العربية وصرف همته إلى إتقان لسان العرب حتى بلغ فيه الغاية وأربى على المتقدمين وكان إماماً في القراآت وعالماً بها وصنف فيها قصيدة دالية مرموزة في قدر الشاطبية وأما اللغة فكان إليه المنتهى فيها قال الصفدي أخبرني أبو الثناء محمود قال ذكر ابن مالك يوماً ما انفرد به صاحب المحكم عن الأزهري في اللغة قال الصفدي وهذا أمر معجز لأنه يحتاج إلى معرفة جميع ما في الكتابين وأخبرني عنه أنه كان إذا صلى في العادلية لأنه كان إمام المدرسة يشيعه قاضي القضاة ابن خلكان إلى بيته تعظيماً له وقد روى عنه الألفية شهاب الدين محمود المذكور ورواها الصفدي حلبل عن شهاب الدين محمود قراءة ورواها إجازة عن ناصر الدين شافع بن عبد الظاهر وعن شهاب الدين بن غانم بالإجازة عنهما عنه وأما النحو والتصريف فكان فيهما ابن مالك بحراً لا يشق لجه وأما اطلاعه على أشعار العرب التي يستشهد بها على النحو واللغة فكان أمراً عجيباً وكان الأئمة الأعلام يتحيرون في أمره وأما الاطلاع على الحديث فكان فيه آية لأنه كان أكثر ما يستشهد بالقرآن فإن لم يكن فيه شاهد عدل إلى الحديث وإن لم يكن فيه شيء عدل إلى أشعار العرب هذا مع ما هو عليه من الدين والعبادة وصدق اللهجة وكثرة النوافل وحسن السمت وكمال العقل وأقام بدمشق مدة يصنف ويشتغل بالجامع وبالتربة العادلية وتخرج به جماعة وكان نظم الشعر عليه سهلاً رجزه وطويله وبسيطه وصنف كتاب تسهيل الفوائد قال الصفدي ومدحه سعد الدين محمد بن عربي بأبيات ملح فيها إلى الغاية وهي

ان الامام جمال الدين جمله * رب العلا ونشر العلم أهله
أملى كتابا له يسمى الفوائد لم * يزل مفيدا لذي لب تأمله
وكل مسئلة في النحو يجمعها * ان الفوائد جمع لانظيرله

قال وفي هذه الابيات مع حسن التورية فيها مالا يخلو من ايراد ذكرته في كتابي فص الخاتم انتهى قلت أجاب المجيسي عن ذلك بأن الابيات ليست في التسهيل وانما هي في كتاب له يسمى الفوائد وهو الذي لخصه في التسهيل فقوله في اسم التسهيل تسهيل الفوائد معناه تسهيل هذا الكتاب وذكر أيضا أنه مثل التسهيل في القدر على ماذكره من وقف عليه وقال واليه يشير سعد الدين محمد بن عربي بقوله ان الامام الى آخره وسعد الدين بن الشيخ محيي الدين صاحب الفصوص وغيرها ثم قال المجيسي وذكر غير واحد من أصحابنا أن له كتابا آخر سماه بالمقاصد وضمنها تسهيله فسماه لذلك تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد فعلى هذا لا يصح قول الصفدي ان المدح المذكور في التسهيل الابارتكاب ضرب من التأويل انتهى كلام المجيسي قلت وذكر غيره أن قوله في الالفية مقاصد النحو بها محوية اشارة لكتاب المقاصد وتعقب بقوله محوية فانه لو كان كذلك لقال محوى واجاب بعضهم بأنه من باب الاستخدام وفيه تعسف (رجع) ومن تصانيف ابن مالك الموصل في نظم المفصل وقد حل هذا النظم فسماه سبك المنظوم وفك المختوم ومن قال ان اسمه فك المنظوم وسبك المختوم فقد خالف النقل والعقل ومن كتب ابن مالك كتاب الكافية الشافية ثلاثة آلاف بيت وشرحها والخلاصة وهي مختصر الشافية واكمال الاعلام بمثلث الكلام وهو مجلد كبير كثير الفوائد يدل على اطلاع عظيم ولامية الافعال وشرحها وفعل وأفعل والمقدمة الاسدية وضعها باسم ولده الاسد وعدة اللافظ وعمدة الحافظ والنظم الاوجز فيما يهمز والاعتضاد في الظاء والضاد مجلد واعراب مشكل البخاري وتحفة المودود في المقصور والممدود وغير ذلك كشرح التسهيل وروى عنه ولده بدر الدين محمد ومحب الدين بن جعوان وشمس الدين بن أبي الفتح وابن العطار وزين الدين أبو بكر المزي والشيخ أبو الحسين اليونيني وأبو عبد الله الصيرفي وقاضي القضاة بدر الدين بن جماعة وشهاب الدين محمود وشهاب الدين بن غانم وناصر الدين بن شافع وخلق كثير سواهم ومن نظمه في الحلبة

خيل السباق المجلى يقتفيه مصل * والمسلي وتال قبل مرتاح
وعاطف وحظي والمؤمل والـ * لطيم والفسكل السكيت ياصاح

وله من هذه الضوابط شئ كثير وكان يقول عن الشيخ ابن الحاجب انه أخذ نحوه من صاحب المفصل وصاحب المفصل نحوه صغيران وناهيك من يقول هذا في حق الزمخشري وكان الشيخ ركن الدين بن القويع يقول ان ابن مالك ماخلى للنحو حرمة وحكى عنه أنه كان يوما في الحمام وقد اعتزل في مكان يستعمل فيه الموسى فهجم عليه فتى فقال ماتصنع فقال أكنس لك الموضع للقعود قال بعضهم وهذا انما يستبعد على دين ابن مالك والعهدة على ناقله قال الصفدي ولا يستبعد ذلك من لطف النحاة وطباع

أهل الاندلس وتوفي ابن مالك بدمشق سنة اثنتين وسبعين وستمائة وقال بعضهم من أحسن شعر ابن مالك

ادار دنياي بداوت منكم * بنظر حسن أو سمع كلام

فان لم أجد ما تشتهي أنفسكم * وصلت فرضي والديار أمامي

وأخلصت تكبيري عن الغير عرضا * وقابلت أعلام السوى بسلام

ولم أر الانوار دانك لايقا * فهل يدع الشمس امتداد ظلام

وقدم رحمه الله تعالى القاهرة ثم رحل الى دمشق وبها مات كما علم * وقال الشرف الحصني ره

يا شتات الاسما والافعال * بعد موت ابن مالك المفضال

وانحراف الحروف من بعد ضبط * منه في الانفصال والاتصال

مصدرا كان للعلوم باذن الله من غير شبهة ومحال

عدم النعت والتعطف والتو * كيد مستبدلا من الابدال

الم اعترا أسكن منه * حركات كانت بغير اعتلال

فالها سكنة لهم قضا * أورثت طول مدة الانفصال

ربعه في نعته فاتصفا * تحت تمييز كيف سر الحال

جمعوا عند الصلا بدل * فاملت أمرار للدلال

صرفوا با عظم مابعلو * وهو عدل معرف بالجمال

أدغموه في الترب بعد غير مثل * سالما من تغير الانتقال

وقفوا عند قبر ساعة الدفن وفوقا ضرورة الامثال

وقدنا الاكف تطلب نصرا * مسك للمرتل من ذي الجلال

آخر الآي من سبا الخطبة * حظه منها اول الانفال

يا لسان الاعراب يا جامع الاعراب يا مفهما لكل مقال

يا فريد الزمان في النظم والنثر وفي نقل مسندات العوالي

كم علوم بثثتها في أناس * فأرانا ماسب عند الزوال

انتهى ملخصه قال الصفدي وما رأيت مرثية في نحوي أحسن منها على طولها انتهى

ودفن ابن مالك بسفح قاسيون بتربة القاضي عز الدين بن الصائغ وقال الحصني مرثية ان حموان وربا السيف بها الدين بن النحاس بقوله

قل لابن مالك ان جرت بك أدمعي * حمرا يحاكيها العقيق القاني

فلقد جرحت القلب حين نعيت لي * وتدفقت بدمائه أجفاني

لكن يهون ما أجن من الاسى * علمي بنقلته الى رضوان

فسقى ضريحا ضمه صوب الحيا * يهمي به بالروح والريحان

وابن النحاس المذكور أحد تلامذة ابن مالك وهو القائل يخاطب رضي الدين الشاطبي الاندلسي وقد كلفه أن يشتري له دارا

ايها الاوحد الرضى الذى طا * ل علاء وطاب فى الناس نشرا
أنت بحر لاغرو ان نحن وافيـ * ـناك راجين من نداك القطرا

وابن النحاس المذكور له نظم كثير مشهور بين الناس وهو بهاء الدين أبو عبد الله محمد ابن ابراهيم بن محمد بن نصر الحلبى الاصل المعروف بابن النحاس وهو شيخ أبى حيان ولم يأخذ أبو حيان عن ابن مالك وان عاصره نحو ثلاثين سنة * وقال بعض من عرف بابن مالك انه تصدر بحلب مدة وأم بالسلطانية ثم تحول الى دمشق وتكاثر عليه الطلبة وحاز قصب السبق وصار يضرب به المثل فى دقائق النحو وغوامض الصرف وغريب اللغات وأشعار العرب مع الحفظ والذكاء والورع والديانة وحسن السمت والصيانة والتحرى لما ينقله والتحرير فيه وكان ذا عقل راجح حسن الاخلاق مهذبا ذا رزانة وحياء ووقار وانتصاب للافادة وصبر على المطالعة الكثيرة تخرج به أئمة ذلك الزمان كابن المنجى وغيره وسارت تصانيفه الركبان وخضع لها العلماء الاعيان وكان حريصا على العلم حتى انه حفظ يوم موته ثمانية شواهد * وقال بعض الحفاظ حين عرف بابن مالك يقال ان عبد الله فى نسبه مذكور مرتين متواليتين وبعض يقول مرة واحدة وهو الموجود بخطه أول شرحه لعمدته وهو الذى اعتمده الصفدى وابن خطيب داريا محمد بن أحمد بن سليمان الانصارى وعلى كل حال فهو مشهور بجده فى المشرق والمغرب * وحكى بعضهم أن ولادته سنة ثمان وتسعين وخمسمائة وعليه عول شيخ شيوخنا ابن غازى فى قوله

قد خرج ابن مالك فى خبعا * وهو ابن عه كذا وعى من قد وعى

وقيل كما تقدم ان مولده سنة ستمائة أو بعدها بجيان الحرير مدينة من مدن الاندلس جبرها الله كسرها وهى مفتوحة الجيم وياؤها مشددة تحتانية وتصدر ابن مالك بحماة مدة وانتقد بعضهم على ابن خلكان اسقاطه من تاريخه مع كونه كان يعاصره الى الغاية وقدم رحمه الله تعالى اصحاب دمشق قصة يقول فيها عن نفسه انه أعلم الناس بالعربية والحديث ويكفيه شرفا أن من تلامذته الشيخ النووى والعلم الفارقى والشمس البعلى والزين المزى وغيرهم ممن لا يحصى * وكان رحمه الله تعالى كثير المطالعة سريع المراجعة لا يكتب شيأ من محفوظه حتى يراجعه فى محله وهذه حالة المشايخ الثقات والعلماء الاثبات ولا يرى الا وهو يصلى أو يتلو أو يصنف أو يقرى وكذا كان الشيخ أبو حيان ولكن كان جده فى التصنيف والاقراء * وحكى أنه توجه يوما مع أصحابه للفرجة بدمشق فلما بلغوا الموضع الذى أرادوه غفلوا عنه سويعة فطلبوه فلم يجدوه ثم فحصوا عنه فوجدوه منكبا على أوراق وأغرب من هذا فى اعتنائه بالعلم ما مر أنه حفظ يوم موته عدة أبيات حدها بعضهم بثمانية وفى عبارة بعض أو نحوها لقنه ابنه اياها وهذا مما يصدق ما قيل بقدر ما تتعنى تنال ما تتمنى فجزاه الله خيرا عن هذه الهمة العلية * وذكر أبو حيان فى الجوازم من تذييله وتكميله أنه لم يصحب من له البراعة فى علم اللسان ولذا تضعف استنباطاته وتعقباته على أهل هذا الشان وينفر من المنازعة والمباحثة والمراجعة قال وهذا شأن من يقرأ بنفسه ويأخذ العلم من الصحف بفهمه ولقد طال تحصى وتنقيرى عمن قرأ عليه واستند

في العلم الذي لم أجد بعد كبري شيئاً من ذلك وابتدأت يوماً مع صاحبنا المحدث علم الدين سليمان بن أبي حرب الفارقي الحنفي فقال ذكر لنا أنه قرأ على ثابت بن خيار من أهل بلد جيان وأنه خطيب في طلبة الإسناد أبي علي الشلوبين عن ثلاثة عشر يوماً وثابت بن خيار ليس من أهل الجلالة والشهرة في هذا الشأن وإنما جلالته وشهرته في إقراء القرآن هذا حاصل ما ذكر أبو حيان ۞ قال بعض الحفاظ وهو العلامة عز الدين العيني وليس ذلك منه بإنصاف ولا يحمل على مثله إلا هوى النفس وسرعة الانحراف فحقه المسند عنه والمتبع شهادته فلا يسمع ولا يسمع ويكفي ما سطر في حقه بقوله في أثنا نظم في هذا العلم كثيراً ونثر وجمع بإعكاف على الاشتغال به ومراجعة الكتب ومطالعة الدواوين العربية وطول النفس من هذا العلم غرائب وحوى مصنفاته منها نوادر وعجائب واقتبسنا كثيراً استخرجه من أشعار العرب وكتب الأئمة وذهن من تبعه الأكابر النقاد وأرباب النظر والاجتهاد وقوله في موضع آخر من تذييله لا يكون تحت السما أنحى ممن عرف ما في تسهيله وقربه في عمر غضب شبوبه فانتهى له أن ابتدعه ولأن يحط عليه ولأن يتبع فما وقع فيه فإنه تجري على أصالة الغي والسفه والظلم والشبه وما هذا إلا سبيل السلف من الخلف والدون من الصدف والمدمن الخف أو ما نظر إلى شيخه أبي عبد الله ابن الصائغ فإنه لا يذكر إلا بأحسن ذكر كما هو دأب خيار الناس ومن كلامه في حقه عنه وهو النفقه فيما ينقل والفاضل حين يقول وإلى بلد أبي الفتح الحافظ المصري حيث يقول فيه أعني في أبي حيان

هو الأوحد الفرد الذي عم علمه ۞ وسار مسير الشمس في الشرق والغرب

ومن غاية الإحسان مبدأ أصله ۞ فلا غرو أن يسمو على العجم والعرب

ومن غاية الإحسان في هذا الشأن المصنفات التي سارت بها الركبان في جميع الأوطان واعترف بحسنها الحاضر والبادي والداني والقاصي والصديق والعدو فقابلها بالقبول والإذعان فسامح الله تعالى أبا حيان فإن كلامه بحق في قول القائل كما تدين تدان ورحم الله تعالى ابن مالك فلقد أحيا من العلم رسوماً دارسة وبين معالم طامسة وجمع من ذلك ما تفرق وحقق ما لم يكن منه تبين ولا تحقق ورحم شيخه ثابت بن الخيار وهو أبو المظفر ثابت بن محمد بن يوسف بن الخيار الكلاعي تمم الكتاب على ما كان نصا سند فيما حكاه ابن الخطيب في الإحاطة وأصله من لبلة وتصدر في أهل جيان وتوفي بغرناطة سنة ٦٢٨ وكان أبو حيان يغض من هذا الكتاب ويقول ما فيه من الفوائد والقواعد جامد عن تتبع الصواب والسداد وكثيراً ما يشير إلى ذلك في شرحه المسمى منهج السالك ومن غضه منه بالنظم في ملأ من الناس من جملتهم شيخنا الدين بن الصائغ والاسرائي تحاربه مصنفاته وما سماه سواد القرطاس

ألفية ابن مالك ۞ مطموسة المسالك

وكم بها من مشتغل ۞ أوقع في المهالك

ولا يضر أن يسهد الغرد فإنه ما كل نبات أبرق عطر ولا كل عود أورق مثمر

وقيل معارضة للقوم وتنبيها لهم عما فيه من النوم

ألفية ابن مالك * مشرقة المسالك
وكم بها مشتغل * علا على الارائك

وما أحسن قول ابن الوردى في هذا المعنى

يا عائبا ألفية ابن مالك * وغائبا عن حفظها وفهمها
أما تراها قد حوت فصائلا * كثيرة فلا تجر في ظلمها
وازجر لمن جادل من يحفظها * برابع وخامس من اسمها

يعني صه فانه عند الاستقلال بمعنى اسكت انتهى ملخصا وقال أيضا عند ذكره مصنفات ابن مالك وهي كما قيل غزيرة المسائل ولكنها على الناظر بعيدة الوسائل وهي مع ذلك كثيرة الافادة موسومة بالاجادة وليست هي لمن هو في هذا الفن في درجة ابتدائه بل للمتوسط يترقى بها درجة انتهائه انتهى * واعلم ان الالفية مختصرة الكافية كما تقدم وكثير من أبياتها فيها ابداعها ومتبوعه فيها ابن معطى ونظمه أجمع وأوعب ونظم ابن معطى أسلس وأعذب وذكر الصفدى عن الذهبي أن ابن مالك صنف الالفية لولده تقي الدين محمد المدعو بالاسد واعترضه العلامة الحيسى بأن الذى صنفه له عن تحقيق المقدمة الاسدية قال وأما هذه يعني الالفية فذكر لي من أثق بقوله أنه صنفها برسم القاضي شرف الدين هبة الله بن نجم الدين عبد الرحيم بن شمس الدين بن ابراهيم بن عفيف الدين هبة الله بن مسلم بن هبة الله بن حسان الجهني الحموى الشافعي الشهير بابن البارزى ويقال ان هذه النسبة الى باب أبرز أحد أبواب بغداد ولكن خفف لكثرة دوره على الالسنة انتهى مختصرا وقال بعض من عرف بابن مالك هو مقيم أود وقاطع لدد ومزين سماء موحت الاصائل ديباجتها وشعشعت البكر زجاجتها وجاءت أيامه صافية من الكدر ولياليه وما بها شائبة من الكبر قد خلقها العشى بردعه وخلفها الصباح بربعه فكان كل متعين حول مسجده وكل عين فاخرة بمسجده هذا وزمر الطلاب وطلبة الاجلاب لا تزال ترجى اليه القلاص وتكثر من سربه الاقتناص كان أوحد وقته في علم النحو واللغة مع كثرة الديانة والصلاح انتهى وقال بعض المغاربة

لقد مزقت قلبي سهام جفونها * كما مزق اللخمى مذهب مالك
وصال على الاوصال بالقد قدها * فأضحت كأبيات بتقطيع مالك
وقلدت اذ ذاك الهوى لمرادها * كتقليد أعلام النحاة ابن مالك
وملكتها رقي لرقة لفظها * وان كنت لا أرضاه ملكا لمالك
وناديتها يا منيتي بذل مهجتي * ومالي قليل في بديع جمالك

ويعني بقوله بتقطيع مالك مالك بن المرحل السبتي رحمه الله تعالى ولما سئل ابن مالك عن قول النبي صلى الله عليه وسلم الحور بعد الكور هل هو بالراء أو بالنون أنكر النون فقيل له ان في الغريبين للهروى رواية بالنون فرجع عن قوله الاول وقال انما هو بالنون انتهى وقد ذكر في المشارق النون والراء فقال الحور بعد الكور بالراء رواه العذرى وابن الحذاء

وللتابعين بالنون معنيان الفقهاء بعد الزهاد وبسل من السجود بعد الجماعة وبسل من
الفساد بعد الصلاح وقيل من القلة بعد الكثرة كأن عمامته إذا لفها على رأسه واجتمعت
وجارها إذا انتقضت انتشرت وقال جابر إذا رجع عن أمر كان عليه وقوم يصحفونه رواية
النون وقيل معناها رجع إلى الفساد بعد النقص أي بعد أن كان على خير فأرجع إليه
وقال عياض في موضع آخر بعد الكون كذا للعذري والكون للفارسي والسجزي وابن
ماهان وقول عاصم في تفسير جابر بعد ما كان هي رواية وقال إن عاصما وهم فيه انتهى
والسائل لابن مالك عن اللفظة هو ابن خلكان لأن ابن الأثير قال ابن خلكان عما سأل
هو ابن مالك رحمه الله تعالى الجميع وقد عرف الحافظ الذهبي بابن مالك في تاريخ الإسلام
وذكره وترجم لولده بدر الدين محمد وأنه كان حاد الذهن ذكيا إماما في النحو وعلم المعاني
والمنطق جيد المشاركة في الفقه والتدريس وأنه تصدر بعد والده للتدريس ومات شابا قبل
الكهولة سنة ٦٨٦ ومن أجل تصانيفه شرحه على ألفية والده وهو كتاب في غاية الإغلاق
ويقال إنه تكلم الرمي في شرح الكافية وللناس عليه حواش كثيرة رحمهم الله تعالى
أجمعين * (ومنهم أبو عبد الله محمد بن طاهر القيسي التدميري ويعرف بالشهيد كان عظيم
القدر جدا بالأندلس بعيد الأثر في الخير والصلاح والعلم والنسك والانقطاع إلى الله تعالى
وكان في صدر أهل كورته قد تردى بالثوب الرفيعة ونزع عن ضلالة المجون فكان في نشأته
مقبلا على ما أراد أخذا بالحظ مستقلا نشأ على الاستقامة والصلاح والاهتداء والدعة وطلب
العلم في حداثة سنه ورحل إلى قرطبة فروى الحديث وتفقه وناظر وأخذ بحظ وافر من علم
المسائل والجواب وكان أكثر علمه وعمله الورع والزهد فيه والتحفظ بدينه ومكسبه ورسخ
في علم السنة ثم ارتحل إلى المشرق فحج وجاور بالحرمين ثمانية أعوام يتعيش فيهما من
عمل يده بالنسخ ثم سار إلى العراق فلقي أبا بكر الأبهري وأخذ عنه وأكثر من لقاء الصالحين
وأهل العلم ولبس الصوف وقنع وتورع جدا وأعرض عن الشهوات وكان إذا نسخ من
النسخ الذي يتعيش به ثمنه آخر سنة في الخدمة وباعه إنما فأصبح عابدا متقشفا متنسكا
عالما عاملا منقطع القرين قد جربت له دعوات مجابة وحفظت له كرامات ظاهرة ثم عاد إلى
بلده تدمير سنة أربع وستين وثلثمائة وبها أبو أبو الحسام طاهر حسان نزل خارج
مدينة مرسية بدور عامر سكناها وعن الصلاة في جامعها فأنجد له فاستعفيته من خطبة البلد
فأبى الله وأعز حسبته قد نفذت بها وصار وقمع المنصور محمد بن أبي عامر ثم تحول
من مرسية بعدها إلى الثغر وواصل الرباط ونزل مدينة طلبيرة وكان يدخل منها إلى السرايا
إلى بلد العدو ويغزو ويعرف بتمنيه الشهادة وقد قتل على فرس له ارتبطه لذلك وكان له بأس
ونجدة وشجاعة وبداية يعتب عليه فيها فكان يتمنى إلى أن استشهد مقبلا غير مدبر سنة
٣٧٩ أوفى على ملها على انس وأربعين سنة وأولى حق رحمه الله تعالى الجميع * (ومنهم
أبو عبد الله القضاعي محمد بن عبد الجليل بن عبد الله بن جهور مولده سنة ٥٩
بشاطبة وكتب عنه الحافظ السلفي ومن شعره قوله

إذا كنت مهوى من بات عيدار * فحسبك ما تلقى من الشوق والوجد

ميناو يح صب قد تصرم ناره * وواخر قلب ذاب من شدة الوجد

*(ومنهم أبو عبد الله ويقال أبو حامد محمد بن عبد الرحيم المازني القيسي الغرناطي ولد سنة ٤٧٣ ودخل الاسكندرية سنة ٥٠٨ وسمع بها من أبي عبد الله الرازي وبمصر من أبي صادق مرشد بن يحيى المديني وأبي الحسن الفراء الموصلي وأبي عبد الله محمد بن بركات بن هلال النحوي وغيرهم وحدث بدمشق وسمع أيضا بها وببغداد وقدمها سنة ٥٥٦ ودخل خراسان وأقام بها مدة ثم رجع الى الشام وأقام بحلب سنين وسكن دمشق وكان يذكر أنه رأى عجائب في بلاد شتى ونسبه بعض الناس بسبب ذلك الى ما لا يليق وصنف في ذلك كتابا سماه تحفة الالباب وكان حافظا عالما أديبا وتكلم فيه الحافظ ابن عساكر ونسبه بالكذب وقال ابن النجار ما علمته الا أمينا ومن شعره قوله

تكتب العلم وتلقي في سفط * ثم لا تحفظ لا تفلح قط

انما يفلح من يحفظه * بعد فهم وتوق من غلط

وقوله العلم في القلب ليس العلم في الكتب * فلا تكن مغرما باللهو واللعب

فاحفظه وافهمه واعمل كي تحوز به * فالعلم لا يجتني الا مع التعب

توفي بدمشق في صفر سنة ٥٦٥ *(ومنهم أبو عبد الله محمد بن عبد السلام القرطبي من ذرية أبي ثعلبة الخشني صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم رحل قبل الاربعين ومائتين فحج وسمع بالبصرة من محمد بن بشار وأبي موسى الزمن ونصير بن علي الجهضمي ولقي أبا حاتم السجستاني والعباس بن أبي الفرج الرياشي وسمع ببغداد من أبي عبيد القاسم بن سلام وبمكة من محمد بن يحيى العدني وبمصر من سلمة بن شبيب صاحب عبد الرزاق والبرقي وغيرهما وأدخل الاندلس علما كثيرا من الحديث واللغة والشعر وكان فصيحا جزل المنطق صارما أبو فاء منقبضا عن السلطان أراده على القضاء فأبى وقال اباية اشفاق لا اباية عصيان فأعفاه وكان ثقة مأمونا توفي في رمضان سنة ٢٨٦ عن ثمان وستين سنة رحمه الله تعالى

*(ومنهم أبو عبد الله محمد بن عبد الملك بن أيمن بن فرح القرطبي سمع من محمد بن وضاح وأكثر عنه وأخذ عن محمد الخشني وقاسم بن أصبغ وابراهيم بن قاسم بن هلال ورحل سنة ٢٧٤ فسمع بمصر المطلب بن شعيب والمقدام بن داود الرعيني وأدرك بالعراق اسمعيل القاضي وعبد الله بن أحمد بن حنبل قال الحميدي حدث بالمغرب وبالمشرق وصنف السنن وممن روى عنه خالد بن سعد وقال لنا أبو محمد بن حزم مصنف ابن أيمن مصنف رفيع احتوى من صحيح الحديث وغريبه على ما ليس في كثير من المصنفات وتوفي في ذي القعدة سنة ٣٣٠ بقرطبة رحمه الله تعالى *(ومنهم أبو عبد الله محمد بن عبد الملك بن ضيفون اللخمي الرصافي القرطبي الحدادي سمع بقرطبة من عبد الله بن يونس وقاسم بن أصبغ وحج سنة ٣٣٩ سنة رد القرامطة الحجر الاسود الى مكانه وسمع بمكة من ابن الاعرابي وبمصر من ابن الورد وأبي علي بن السكن وعبد الكريم النسائي وغيرهم وسمع بأطرابلس والقيروان من جماعة وكان رجلا صالحا عدلا حدث وكتب عنه الناس وعلت سنه وتوفي بشوال سنة ٣٩٤ وولد فيما أطلق سنة ٣٠٢ وكانت وفاته بقرطبة وقد اضطرب في أشياء

ترب عليه وهي أخذ عنه الحافظ أبو عمر بن عبد البر رحمه الله تعالى الجميع *(ومنهم
أبو عبد الله محمد بن عبد الملك الخزرجي السعدي القرطبي روى عن أبي الحسن علي
ابن هشام وروى عنه أبو القاسم بن بشكوال وقدم مصر وحدث بها وممن سمع منه بها
ابن وردان وأبو الرضى المسراتي في آخرين واستوطن مصر وتوفي سنة ٥٨٨ *(ومنهم
أبو بكر بن السراج النحوي سبديد الرا وهو محمد بن عبد الملك بن محمد بن السراج
الشنتري أخذ عنه العربية المرء بن ... ويكتبه جزأته إسناد أبي محمد عبد الله بن
بري المصري اللغوي النحوي وحدث عن أبي القاسم عبد الرحمن بن محمد الصقلي وقرأ
العربية بالأندلس على ابن أبي العافية وابن الأخضر وقدم مصر سنة ٥١٥ وأقام بها
وأقرأ الناس العربية ثم انتقل إلى اليمن وروى عنه أبو حفص عمر بن إسماعيل وأبو الحسن
علي والد الرشيد العطار وله تواليف منها كتاب تنبيه الألباب في فصل الإعراب وكتاب
في العروض وكتاب مختصر العمدة لابن رشيق وفيه إغلاط قال السلفي كان من
أهل الفضل الوافر والصلاح الظاهر وكانت له حلقة في جامع مصر لإقراء النحو وكثيرا
ما كان يحضر عندي رحمه الله تعالى ... داري بالفسطاط توفي بمصر سنة ٥٤٩ وقيل
سنة خمس وأربعين وقيل خمس وخمسمائة في شعبان والأول أثبت *(ومنهم أبو عبد الله
محمد بن عبد الله بن أحمد بن علي بن سعيد القيسي ويكنى أيضا أبا القاسم القرطبي سمع من
أهله بمصر والإسكندرية ودمشق وبغداد منهم الحراني أبو عبد الله وأبو محمد عبد الصمد بن
داود بدمشق وكتب الحديث وعني بالرواية ثم غاب وفقد بأصبهان حين استولى عليها التتار
قبل الثلاثين وستمائة *(ومنهم أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن الدباغ بالدال وقيل بالرا
قرطبي سمع عبد الملك بن حبيب ورحل فسمع بمصر من الحرث بن مسكين وغيره وكان زاهدا
فاضلا وتوفي سنة ٢٨١ رحمه الله تعالى *(ومنهم أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد
ابن عابد المعافري القرطبي ولد بقرطبة سنة ٣٥٨ ودخل مصر فسمع من أبي بكر بن
المهندس وأبي بكر المصري وروى عن أبي عبد الله بن مفرج وأبي محمد الأصيلي وجماعة
ولقي الشيخ أبا محمد بن أبي زيد في رحلته سنة ٣٨١ فسمع منه رسالته في الفقه وغيرها
وحج من عامه ثم عاد من مصر إلى المغرب سنة ٣٨٢ وكان معتنيا بالأخبار والآثار
ثقة فيما رواه وعني به كثيرا فاضلا دينا متواضعا متقللا مقبلا على ما يعنيه صاحب حظ
من الفقه وبصرا بالمسائل ودعي إلى الشورى بقرطبة فأبى ومات سنة ٤٣٩ وعابد
بالباء الموحدة رحمه الله تعالى الجميع *(ومنهم أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سليمان
ابن عثمان بن هاجر الأنصاري اللبلي أخذ القراآت عن جماعة من أهل بلده وحج
حاجا سنة ٥٥٦ فجاور بمكة وسمع بها وبالإسكندرية من السلفي وعاد إلى بلده سنة
٥٧١ وحدث وكان من أهل الصلاح والفضل والورع كثير البر ومفاديا الأسرى
ويعرف بالتجارة وولد بعد سنة ٥٢ ومات سنة ٥٩٨ عمره رحمه الله تعالى
*(ومنهم أبو الوليد محمد بن عبد الله بن محمد بن خيرة القرطبي المالكي الحافظ ولد سنة
٤٧٩ وأخذ الفقه عن القاضي أبي الوليد بن رشد والحديث عن ابن عتاب وروى

الموطأ عن أبي بحر سفيان بن العاص بن سفيان وأخذ الادب عن أبي الحسين سراج بن عبد الملك بن سراج الاموي وعن مالك بن عبد الله العتبي وخرج من قرطبة في الفتنة بعد ما درس بها وانتفع الناس به في فروع الفقه وأصوله وأقام بالاسكندرية خوفا من بني عبد المؤمن بن علي ثم قال كأني والله عن قريب بهم قد وصلت الى الاسكندرية ثم سافر الى مصر بعد ما روى عنه السلفي وأقام بها مدة ثم قال والله ما مصر والاسكندرية عنهما ببعيدين ثم سافر الى الصعيد وحدث في قوص بالموطأ ثم قال والله ما يصلون الى مصر ويتأخرون عن هذه البلاد فمضى الى مكة وأقام بها ثم قال وتصل الى هذه البلاد ولا تحج ما أنا الا هربت منه اليه ثم دخل اليمن فلما رآها قال هذه أرض لا يتركها بنو عبد المؤمن فتوجه الى الهند فأدركته وفاته بها سنة ٥٥١ وقيل بل مات بزبيد من مدن اليمن وكان من جلة العلماء الحفاظ متفننا في المعارف كلها جامعا لها كثير الرواية واسع المعرفة حافل الادب من كبار فقهاء المالكية يتصرف في علوم شتى حافظا للآداب عارفا بشعراء الاندلس وكان علمه أوفر من منطقه ولم يرزق فصاحة ولا حسن ايراد قال ابن نقطة خيرة بكسر الخاء المعجمة وفتح الياء المنقوطة من تحتها باثنتين * (ومنهم أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن أبي الفضل السلمي المرسي) قال ابن النجار ولد بمرسية سنة ٥٧٠ وقال غيره في التي قبلها وخرج من بلاد المغرب سنة ٦٠٧ ودخل مصر وسار الى الحجاز ودخل مع قافلة الحجاج الى بغداد وأقام بها يسمع ويقرأ الفقه والخلاف والاصلين بالنظامية ثم سافر الى خراسان وسمع بنيسابور وهراة ومرو وعاد الى بلاد بغداد وحدث بكتاب السنن الكبرى للبيهقي عن منصور بن عبد المنعم الفراوي وبكتاب غريب الحديث للخطابي وقدم الى مصر فحدث بالكثير عن جماعة منهم أم المؤيد زينب وأبو الحسن المؤيد الطوسي وخرج من مصر يريد الشام فمات بين الزعقة والعريش من منازل الرمل في ربيع الاول سنة ٦٥٥ ودفن بتل الزعقة وكان من الائمة الفضلاء في جميع فنون العلم من علوم القرآن والحديث والفقه والخلاف والاصلين والنحو واللغة وله فهم ثاقب وتدقيق في المعاني مع النظم والنثر المليح وكان زاهدا متورعا حسن الطريقة متدينا كثير العبادة فقيرا مجردا متعففا نزه النفس قليل المخالطة لا وقاته طيب الاخلاق متوددا كريم النفس قال ابن النجار ما رأيت في فنه مثله وكان شافعي المذهب وله كتاب تفسير القرآن سماه ري الظمآن كبير جدا وكتاب الضوابط الكلية في النحو وتعليق على الموطأ وكان مكثرا شيوخا وسماعا وحدث بالكثير بمصر والشام والعراق والحجاز وكانت له كتب في البلاد التي ينتقل اليها بحيث لا يستصحب كتبا في سفره اكتفاء بماله من الكتب في البلد الذي يسافر اليه وكان كريما قال أبو حيان أخبرني الشرف الجزائري بتونس انه كان على رحلة وكان صعيعا فقال له خذ ما تحت هذه السجادة أو البساط فرفعت ذلك فوجدت تحته أكثر من أربعين دينارا ذهبا فأخذتها قال الجمال اليغموري أنشدني لنفسه بالقاهرة

فالوا فلان قد أزال بهاءه * ذاك العذار وكان بدر تمام
فأجبتهم بل زاد نور بهائه * ولذا تضاعف فيه فرط غرامي

استضربت ألحاظه فتكاتها • فأتى العذار عذبها بسهام

ومن شعره قوله

من كان يرغب في النجاة فماله • غير اتباع المصطفى فيما أتى
ذاك السبيل المستقيم وغيره • سبل الغواية والضلالة والردى
فاتبع كتاب الله والسنن التي • صحت فذاك اذا اتبعت هو الهدى
ودع السؤال بكم وكيف فانه • باب يجر ذوي البصيرة للعمى
الدين ما قال النبي وصحبه • والتابعون ومن مناهجهم قفا

•(ومنهم أبو بكر محمد بن عبد الله البنتي* الاندلسي الانصاري) قدم مصر وأقام بالقرافة مدة وكان شيخا صالحا مباركا زاهدا فاضلا وتوجه الى الشام فهلك قال الرشيد العطار كان من فضلاء الاندلسيين ونبهائهم ساح في الارض ودخل بلاد العجم وغيرها من البلاد البعيدة وكان يتكلم بالفارسي ومن شعره قوله

اذا امل ممكن السعي فالعزم ناشد • وكل مكان في مرادك واحد
توجه تصدق وائت المنى واقصد • تجد رشاء النجاح المساعد

والبنتي بضم الباء وسكون النون نسبة الى بنت حصن بالاندلس وشمال بوب رباد واد

•(ومنهم أبو عبد الله محمد بن عبد الله الخولاني الباجي ثم الاشبيلي المعروف بابن الفرق) سمع بقرطبة من جماعة ورحل الى المشرق سنة ٢٦٦ فسمع بمكة من علي بن عبد العزيز وغيره وبمصر من محمد بن عبد الحكم وابن أخيه سعد وكان بصيرا بالرأي حافظا له عاقدا للشروط قال ابن الفرضي كان رجلا صالحا ورعا ثقة وكان خالد بن سعد يدخل اليه ويسمع منه وكان يقول اذا حدث عنه كان من معادن الصدق توفي سنة ٣ ٨ •(ومنهم أبو عبد الله محمد بن عبد الله اللوشي* الطبيب) اشتغل بالطب وبرع فيه وأقام بمصر مدة ومات في عشر الستين وستماية •(ومنهم أبو عبد الله محمد بن عبدون العذري القرطبي) رحل سنة ٣٢٧ فدخل مصر والبصرة وعني بعلم الطب ودبر مارستان مصر ثم رجع الى الاندلس سنة ٣٦ واتصل بالحكم المستنصر وابنه المؤيد وله في التكسير كتاب حسن قال صاعد مهر في الطب ونبل فيه وأحكم كثيرا من أصوله وعانى صنعة المنطق عناية صحيحة وكان شيخه فيه أبو سليمان محمد بن محمد بن طاهر بن بهرام السجستاني البغدادي وكان قبل أن يطب مؤدبا بالحساب والهندسة وأخبرني أبو عثمان سعيد البلنطي* أنه لم يلق في قرطبة من يلحق محمد بن عبدون في صناعة الطب ولا يجاريه في ضبطها وحسن دربته فيها واحكامه لغوامضها رحمه الله تعالى •(ومن الراحلين الى المشرق من أهل الاندلس)• أبو مروان عبد الملك بن أبي بكر محمد بن مروان بن زهر الايادي الاندلسي صاحب الطب الشهير بالاندلس رحل المذكور الى المشرق وتطبب به زمانا وتولى رياسة الطب ببغداد ثم بمصر ثم بالقيروان ثم استوطن مدينة دانية وطار ذكره منها الى أقطار الاندلس والمغرب واشتهر بالتقدم في علم الطب حتى فاق أهل زمانه ومات في مدينة دانية رحمه الله تعالى ووالده محمد بن مروان كان عالما بالرأي حافظا للأدب فقيها حاذقا بالفتوى متقدما فيها بصيرا

للعلوم فاضلا جامعا للدراية والرواية وتوفى بطليرة سنة ٤٢٢ وهو ابن ست وثمانين سنة حدث عنه جماعة من علماء الاندلس ووصفوه بالدين والفضل والجود والبذل رحمه الله تعالى وأما أبو العلاء زهر بن عبد الملك المذكور فقال ابن دحية فيه انه كان وزير ذلك الدهر وعظيمه وفيلسوف ذلك العصر وحكيمه وتوفى ممتحنا من نغلة بين كتفيه سنة ٥٢٥ بمدينة قرطبة انتهى وكانت بينه وبين الفتح صاحب القلائد عداوة ولذلك كتب فى شأنه الى أمير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين ماصورته أطال الله تعالى بقاء الامير الاجل سامعا للنداء دافعا للتطاول والاعتداء لم ينظم الله تعالى بلبتك الملك عقدا وجعل لك حلا للامور وعقدا وأوطأك عقبا وأصار من الناس لعونك منتظرا ومرتقبا الا أن تكون للبرية حائطا وللعدل فيهم باسطا حتى لا يكون فيهم من يضام ولا ينال أحدهم اهتضام ولتقصر يد كل معتد فى الظلام وهذا ابن زهر الذى أجررته رسنا وأوضحت له الى الاستطالة سننا لم يتعد من الاضرار الاحيث انتهيته ولا تمادى على غيه الاحين لم تنهه أو نهيته ولما علم أنك لا تنكر عليه نكرا ولا تغير له متى ما مكر فى عباد الله مكرا جرى فى ميدان الاذية ملء عنانه وسرى الى ما شاء بعدوانه ولم يراقب الذى خلقه وأمد فى الخطوة عند ذلك طلقه وأنت بذلك مرتهن عند الله تعالى لانه مكنك لئلا يتمكن الجور والتسكن بك الفلاة والغور فكيف أرسلت زمامه حتى جرى من الباطل فى كل طريق وأخفق به كل فريق وقد علمت أن خالقك الباطش الغيور يعلم خائنة الاعين وما تخفى الصدور وما تحقى عليه بجوانك ولا يستتر عنه تقلبك ومثوانك وستقف بين يدى عدل حاكم يأخذ بيد كل مظلوم من ظالم قد علم كل قضية قصاها ولا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها فبم تحتج معى لديه اذا وقفت أنا وأنت بين يديه أترى ابن زهر يجيبك فى ذلك المقام أو يحميك من الانتقام وقد أوضحت لك المحجة لتقوم عليك الحجة والله سبحانه المصير وهو بكل خلق بصير لا رب غيره والسلام انتهى * وقد تذكرت هنا بذكر الفتح ما كتب به وقد مات بعض اخوانه غريقا

أتانى ورحلى بالعراق عشية * ورحل المطايا قد قطعن بنا نجدا
نعى أطار القلب عن مستقره * وكنت على قصد فأغلطنى القصدا

نعوا والله باسق الاخلاق لا يخاف ورموا قلبى بسهم أصاب صميمه فما أخاف لقد سام الردى منه حسنا وجمالا ووسامة وطوى بطيه نجدة وتهامة فعطل منه الندى والندى وأثكل فيه الهدى والهدى كم فل السيوف طول قراعه ودل عليه الضيوف موقد ناره بيفاعه وكم تشوف اليه السرير والمنبر وتصرف فيه الثناء والخبر وكم راع البدر ليلة ابداره وروع العدو فى قعر داره وأى فتى غدا له البحر ضريحا وأعدى عليه الحين ماء وريحا فبدل من طائل على ومفاخر بقعر بحر طامى اللجج زاخر وبدل من صهوات الخيل بلهوات اللجج والليل غريق حكى مقلتى فى دمعها وأسأء نفسى فى سمعها وبى حزن لا أستسقى له الغمام فماله قبر تجوده ولا ترى تروى به تهائمه ونجوده وقد آليت أن لا أودع الريح تحية ولا يورثنى هبوبها أريحية فهى التى أثارت من الموج حنقا ومشت عليه

جناه وغيثا حتى أعاده كالكثبان وأودعه قضبانا فما أسار الزلال غاص في أمواج ولا سال الا غاص عليه شرب قدّاح وما كان الا شوه راداب الى عنصر وقد فار عن عين قرة لقد آن للحسام أن يغمد فلا يشام وللغمام أن يسكبه بكل اراكة وبشام وللعذارى أن لا تختفي أي الخدور والاكمام فقد بدى ما درت الشمس الاسرار أو قمع ويكفيه من لم يدع فقد في العيش من متمتع فكم نفعا دنو وشمائل الاسى في رواحه وغدو وأحيا روضة موشية ووفينا بالمبرات عشية وأدرنا حادثها أسانيه وسطرنا هاويتي بسانيه لم يرم السهر ولم يشم رقا الا الكاس والزهر ولو غير الحمام رجف الله حسبه أو غير الصبر رجف به ارتعاجه وملبسه لسدا من أسرته كل أروع ان عاجله المكروه قطعه أو رماه السرّ أسلمه ولكنها المنايا لا تردها الصوارم والاسل ولا تقوم لها دنيا الهضبة العسل فقد رمت بني مالك وعمل وأسرفت بعدهما بحذيفة والحسام المصقل انتهى وقد غرقنا بالمحو في بحر هذا الموضع فلنراجع •(رجع الى بيت بني زهر رحمهم الله تعالى) وأما أبو بكر محمد بن أبي مروان عبد الملك بن أبي العلاء زهر المذكور فهو عين ذلك البيت وان كانوا كلهم أعيانا علماء رؤساء حكماء وزراء وقد نالوا المراتب العلية وتقدموا عند الملوك ونفذت أوامرهم قال الحافظ أبو الخطاب بن دحية في المطرب من أشعار أهل المغرب كان شيخنا الوزير أبو بكر بن زهر بمكان من اللغة مكين ' و مورد من الطب عذب معين وكان يحفظ شعر ذي الرمة وهو ثلث لغة العرب مع الاشراف على جميع أقوال أهل الطب والمنزلة العليا عند أصحاب المغرب مع سمو النسب وكثرة الاموال والنشب صحبته زمانا طويلا واستفدت منه أدبا جليلا وأنشد من شعره المشهور قوله

وموسدين على الاكف خدودهم * قد غالهم نوم الصباح وغالني
ما زلت أسقيهم وأشرب فضلهم * حتى سكرت ونالهم ما نالني
والخمر تعلم كيف تأخذ ثأرها * اني أملت اناءها فأمالني

ثم قال ابن دحية وسألته عن مولده فقال ولدت سنة سبع وخمسمائة قال وتوفي رحمه آخر سنة ٥٩٥ رحمه الله تعالى انتهى وزعم ابن خلكان أن ابن زهر الم في الابيات المذكور قول الرئيس أبي غالب عبد الله بن هبة الله

عاقرتهم قهوة لو سالمت * شرابها ما سميت بالعقار
ذكرت ثاراتها القديمة اذ * صرعها دائسها بأرجل العصار
لانت لهم حتى انتشوا وعدت * منهم وصاحت فيهم بالثار

وفي المنسوب الى أبي بكر بن زهر قوله في كتاب جالينوس المسمى حيلة البرء وهو من أجل كتبهم وأكبرها

حيلة البرء صنفت لعليل * يترجى الحياة أو لعليله
فاذا جاءت المنية قالت * حيلة البرء ليس في البرء حيله

ومن شعره رحمه الله تعالى يتشوق ولدا له صغيرا باشبيلية وهو بمراكش

ولي واحد مثل فرخ القطا * صغير تخلف قلبي لديه

وأفردت

وأفردت عنه فيا وحشتا * لذاك الشخيص وذاك الوجيه
تشوقني وتشوقته * فيبكي علي وأبكي عليه
وقد تعب الشوق ما بيننا * فمنه الي ومني اليه

وأخبرني الطبيب الماهر الثقة الصالح العلامة سيدي أبو القاسم بن محمد الوزير الغساني الاندلسي الاصل الفاسي المولد والنشأة حكيم حضرة السلطان المنصور بالله الحسني صاحب المغرب رضي الله تعالى عنه ان ابن زهر لما قال هذه الابيات وسمعها أمير المؤمنين يعقوب المنصور سلطان المغرب والاندلس أواخر المائة السادسة أرسل المهندسين الى اشبيلية وأمرهم أن يحتاطوا علما ببيوت ابن زهر وحارته ثم يبنوا مثلها بحضرة مراكش ففعلوا ما أمرهم في أقرب مدة وفرشها بمثل فرشه وجعل فيها مثل آلاته ثم أمر بنقل عيال ابن زهر وأولاده وحشمه وأسبابه الى تلك الدار ثم احتال عليه حتى جاء الى ذلك الموضع فرآه أشبه شيء ببيته وحارته فاحتار لذلك وظن أنه نائم وأن ذلك أحلام فقيل له ادخل البيت الذي يشبه بيتك فدخله فاذا ولده الذي تشوق اليه يلعب في البيت فحصل له من السرور ما لا مزيد عليه ولا يعبر عنه هكذا هكذا والا فلا ومن نظم ابن زهر المذكور حيث شاخ وغلب عليه الشيب

اني نظرت الى المرآة قد جليت * فأنكرت مقلتاي كل ما رأتا
رأيت فيها شويخا لست أعرفه * وكنت أعهده من قبل ذاك فتى
فقلت أين الذي بالامس كان هنا * متى ترحل عن هذا المكان متى
فاستضحكت ثم قالت وهي معجبة * ان الذي أنكرته مقلتاك أتى
كانت سليمى تنادي يا أخي وقد * صارت سليمى تنادي اليوم يا أبتا

والبيت الاخير ينظر الى قول الاخطل

واذا دعونك عمهن فانه * نسب يزيدك عندهن خبالا
واذا دعونك يا أخي فانه * أدنى وأقرب خلة ووصالا

وقال ابن دحية في حقه أيضا والذي انفرد به شيخنا وانقاد لطباعه وصارت السهاء فيه من خوله وأتباعه الموشحات وهي زبدة الشعر ونسبته وخلاصة جوهره وصفوته وهي من الفنون التي أغرب بها أهل المغرب على أهل المشرق وظهروا فيها كالشمس الطالعة والضياء المشرق انتهى ومن مشهور موشحات ابن زهر قوله ما للموله من سكره لا يفيق وهذا مطلع موشح يستعمله أهل المغرب الى الآن ويرون أنه من أحسن الموشحات ومن موشحاته قوله

سلم الامر للقضا * فهو للنفس أنفع
واغتنم حين أقبلا * وجهه بدرتم لا * لا تقل بالهموم لا
كل ما فات وانقضى * ليس بالحزن يرجع
واصطبح بابنة الكروم * من يدي شادن رخيم * حين يفتر عن نظيم
فيه برق قد أومضا * ورحيق مشعشع
أنا أفديه من رشا * أهيف القد والحشا * سقي الحسن فانتشى

ولى مولد من بعد عشرين حجة * ثمان على الست المئين ابتدا عمرى
وبالله توفيقى عليه توكلى * له الحمد فى الحالين فى العسر واليسر

ومولد أبى الحجاج المذكور سنة ٦٦٢ وتوفى سنة ٧٠٢ رحمه الله تعالى انتهى باختصار *(وممن ارتحل من الاندلس الى المشرق)* شاعر الاندلس يحيى بن حكم البكرى الجيانى الملقب بالغزال لجماله وهو فى المائة الثالثة من بنى بكر بن وائل قال ابن حيان فى المقتبس كان الغزال حكيم الاندلس وشاعرها وعرافها عمر أربعا وتسعين سنة ولحق أعصار خمسة من الخلفاء المروانية بالاندلس أولهم عبد الرحمن بن معاوية وآخرهم الامير محمد بن عبد الرحمن بن الحكم ومن شعره

أدركت بالمصر ملوكا أربعه * وخامسا هذا الذى نحن معه

وله على أسلوب ابن أبى حكيمة راشد بن اسحق الكاتب

خرجت اليك وثوبها مقلوب * ولقلبها طربا اليك وجيب
وكأنها فى الدار حين تعرضت * ظبى تعلل بالسلام رعوب
وتبسمت فأتتك حين تبسمت * بجمان در لم يشنه ثقوب
ودعتك داعية الصبا فتطربت * نفس الى داعى الضلال طروب
حسبتك فى حال الغرام كعهدها * فى الدار اذ غصن الشباب رطيب
وعرفت ما فى نفسها فضممتها * فتساقطت بهنانة رعبوب
وقبضت ذات الشيء منها شاهى * فنزا الى لعصه حلوب
بيدى الشمال ولا شمال لطاقة * ليست لاحرى والاديب أريب
فاصاب كفى منه حين لمسته * بلل كماء الورد حين يسيب
وتحللت نفسى للذة شمه * حتى خشيت على الفؤاد يذوب
فتقاعس الملعون عنه وربما * ناديته خيرا فليس يجيب
وأبى لحقـــق فى الاباء كأنه * جبان يقاد الى الردى مكروب
وتغصت جسانه فكأنه * كير تقادم عهده مثقوب
حتى اذا ما الصبح لاح عموده * قبسا وحان من الظلام ذهوب
سألتها جلا أمالك حاجة * عندى فقالت ساخر وحروب
قالت سرأملك اذ أردت وداعها * قرن وفيه عوارض وشعوب

وذكرها ابن دحية بحالفة لما سردناه قال عتبة التاجر وجهنى الامير الحكم وابنه عبد الرحمن الى المشرق وعبد الله بن طاهر أمير مصر من قبل المأمون فلقيته بالعراق فسألنى عن هذه القصيدة هل أحفظها للغزال قلت نعم فاستنشدنيها فأنشدته اياها فسر بها وكتبها قال عتبة ونلت بها حظا عنده والبهنانة المرأة الطيبة النفس والارج كما فى الصحاح وقيل اللينة فى منطقها وعملها وقيل الضحاكة المتهللة والرعبوب البسطة البيضاء والسبطة الطويلة وقال سامحه الله تعالى

سالت فى النوم أبى آدما * فقلت والقلب به وامق

أيسد بابه أبو حازم * على طلب الملك الحالي

فقال لي إن كان من وصي * فبلى حدوا أمكم طالق

وقال رضي الله تعالى عنه

أرى أهل اليسار إذا توفوا * بنوا تلك المقابر بالصخور

أبوا إلا مباهاة وفخرا * على الفقراء حتى في القبور

فإن يكن التفاضل في ذراها * فإن العدل فيها في القعور

رضيت بمن تأنق في بناها * فسالمه تضر به الدهور

المايصمروا ماخرته الشدة ومن المدائن والقصور

لعمر أبيهم لو أبصروهم * لما عرفوا الغني من الفقير

ولا عرفوا العبيد من الموالي * ولا عرفوا الإناث من الذكور

ولا من كان يلبس ثوب صوف * من البدن المباشر للحرير

إذا أكل الثرى هذا وهذا * فما فضل الكبير على الصغير

وقال رضي الله تعالى عنه

لا ترم أعمال المطايا إنه * كل من يرجى إليه نصيبا

ما أرى فيها من الناس إلا * ثعلبا يطلب الدجاج وذيبا

أو شبيها بالقط ألقى بعينيه إلى فأره يريد الوثوبا

وقال رضي الله تعالى عنه

قالت أحبك قلت كاذبة * غري بذا من ليس ينتقد

هذا كلام لست أقبله * الشيخ ليس يحبه أحد

سيان قولك ذا وقولك إن الريح نعقدها فتنعقد

أو أن تقول النار باردة * أو أن تقول الماء يتقد

وحكى أبو الخطاب بن دحية في كتاب المطرب أن العراقي أرسل إلى بلاد الفرس وقد فارق الحسن وقد وخطه الشيب ولكنه كان يجمع الأسد فسألته زوجة الملك يوما عن سنه فقال مداعبا لها عشرون سنة فقالت وما هذا الشيب فقال وما تنكرين من هذا ألم تري المهر يطهر فتح وهو أشهب فأعجبت بقوله فقال في ذلك واسم الملكة نود

كلفت بالحب حتى صرت معصبا * قالت به الصمم الأعلما

إلى تعلب بحرسه * تأبى لشمس الحسن أن تغربا

أصبح بلا دالله في حبلا * يلقى إليه ذاهب مذهبا

يا نود يا وردة السماء الذي * يطلع من أزرارها الكوكبا

بأبي الشخص الذي لا أرى * أحلى على قلبي ولا أعذبا

إن قلت يوما إن عيني رأت * مشبهه لم أعد أن أكذبا

قالت أرى فوديه قد نورا * دعابة توجب أن أدعبا

قلت لها بأبي أنه * قد يطلع المهر كذا أشهبا

فاستضحكت عجبا بقولي لها * وانما قلت لكي تعجبا

قال ولما فهمها الترجمان شعر الغزال ضحكت وأمرته بالخضاب فغدا عليها وقد اختضب وقال

بكرت تحسن لي سواد خضابي * فكان ذلك أعادني لشبابي
ما الشيب عندي والخضاب لواصف * الا كشمس جللت بضباب
تخفى قليلا ثم يقشعها الصبا * فيصير ما سترت به لذهاب
لا تنكري وضح المشيب فانما * هو زهرة الافهام والالباب
فلدي ما تهوين من زهو الصبا * وطلاوة الاخلاق والآداب انتهى

*(وحكى ابن حيان في المقتبس ان الامير عبد الرحمن بن الحكم المرواني وجه شاعره الغزال الى ملك الروم فأعجبه حديثه وخف على قلبه وطلب منه أن ينادمه فامتنع من ذلك واعتذر بتحريم الخمر وكان يوما جالسا عنده واذا بزوجة الملك قد خرجت وعليها زينتها وهي كالشمس الطالعة حسنا فجعل الغزال لا يميل طرفه عنها وجعل الملك يحدثه وهو لاه عن حديثه فأنكر ذلك عليه وأمر الترجمان بسؤاله فقال له عرفه أني قد بهرني من حسن هذه الملكة ما قطعني عن حديثه فاني لم أر قط مثلها وأخذ في وصفها والتعجب من جمالها وأنها شوقته الى الحور العين فلما ذكر الترجمان ذلك للملك تزايدت حظوته عنده وسرت الملكة بقوله وأمرت الترجمان ان يسأله عن السبب الذي دعا المسلمين الى الختان وتجشم المكروه فيه وتغيير خلق الله مع خلوه من الفائدة فقال للترجمان عرفها أن فيه أكبر فائدة وذلك أن الغصن اذا زبر قوي واشتد وغلظ وما دام لا يعمل به ذلك لا يزال رقيقا ضعيفا فضحكت وفطنت لتعريضه انتهى ومن شعر الغزال قوله

يا راجيا ود الغواني ضلة * وفؤاده كلف بهن موكل
ان النساء لكالسروج حقيقة * فالسرج سرجك ريثما لا تنزل
فاذا نزلت فان غيرك نازل * ذاك المكان وفاعل ما تفعل
أو منزل المجتاز أصبح غاديا * عنه وينزل بعده من ينزل
أو كالثمار مباحة أغصانها * تدنو لاول من يمر فيأكل
أعط الشبيبة لا أبالك حقها * منها فان نعيمها متحول
واذا سلبت ثيابها لم تنتفع * عند النساء بكل ما تستبدل

وقال

قال لي يحيى وصرنا * بين موج كالجبال
وتولتنا رياح * من دبور وشمال
شقت القلعين وانبتت * عرى تلك الحبال
وتمطى ملك المو * ت الينا عن حيال
فرأينا الموت رأي الـ * ـعين حالا بعد حال
لم يكن للقوم فينا * يا رفيقي رأس مال

الشيخ وما الذى يصنع مفعول مع فاعل فقال له كيف تقول فقال كنت أقول فليس لعاجز ولا حازم فقال له عباس والله يابنى لقد طلبها عمك فما وجدها وأنشد يوما قوله من قصيدة

بقرت بطون الشعر فاستفرغ الحشى * بكفى حتى آب خاويه من بقرى

فقال له بكر بن عيسى الشاعر أما والله يا أبا العلى لئن كنت بقرت الحشى لقد وجدت بديك بقرته وملأتهما بدمه وخشت هسك نتنه وخشمت أنفك بعرره فاستحيى عباس وأحجم عن جوابه *(ومنهم الشهير بالمغارب والمشارق المحلى بجواهره صدور المهارق أبو الحسن على بن موسى بن سعيد العنسى متمم كتاب المغرب فى اخبار المعرب قال فيه وأنا اعتذر فى ايراد ترجمتى هنا بما اعتذر به ابن الامام فى كتاب سمط الجمان وبما اعتذر به الحجارى فى كتاب المسهب وابن القطاع فى الدرة الخطيرة وغيرهم من العلماء من نظمه عند ما ورد الديار المصرية

أصبحت أعترض الوجوه ولا أرى * ما بينها وجها لمن أدريه
عودى على بدء ضلالا بينهم * حتى كانى من بقايا التيه
ويح الغريب توحشت ألحاظه * فى عالم ليسوا له بشبيه
ان عاد لى وطنى اعترفت بحقه * ان التغرب ضاع عمرى فيه

وله من قصيدة يمدح ملك افريقية أبا زكريا يحيى بن عبد الواحد بن أبى جعفر

الافق طلق والنسيم رخاء * والروض وشت برده الانداء
والنهر قد مالت عليه غصونه * فكانما هو مقلة وطماء
وبدا انشار الجلنار بصفحه * فكانما هو حية رقطاء
والشمس قد رقمت طرازا فوقه * فكانما هى حلة زرقاء
فأدر كؤسك كى يتم لك المنى * واسمع الى ما قالت الورقاء
تدعو لحى على الصبوح فلا تنم * فعلى المنام لدى الصباح عفاء

وله

كم جفانى ورمت أدعو عليه * فتوقفت ثم ناديت قائل
لاشفى الله لحظه من سقام * وأرانى عذاره وهو سائل

وله من قصيدة كتب بها الى ملك سبتة الموفق ابى العباس أحمد بن أبى الفضل الينشتى شافعا لشخص رغب فى خدمته

بالعدل قت وبالسماح فدن وجد * لافارقتك كفاية وعطاء
ما كل من طلب السعادة نالها * وطلاب ما يأبى القضاء شقاء

ومنها

وقد استطار بأسطرى نحو الندى * من أنهضته لحولك العلياء
طلب المساهمة فى ذراك فماله * الا لديك تأمل ورجاء
وهو الذى بعد التجارب أحمدت * أحواله وجرى عليه ثناء

فثنت على قوامها بتعانق * أحيي فؤادا مات بالبرحاء
ووجدتها لما ملكت عنانها * عذراء مثل الدرة العذراء
جاءت الى كوردة محمرة * فتركتها كعرارة صفراء
وسلبتها ما احمر منها صفوه * فجرى مداباه مجارى جاى

وقوله من أبيات

أحبابنا عودوا علينا عودة * ما منكم بعد التفرق مرغب
كم ذا أداريكم بنفسى جاهدا * وكانما أرضيكم كى تغضبوا
وأزيد بعدا ما اقتربت اليكم * كالسهم أبعد ما يرى اذ يقرب
وأجوب نحوكم المنازل جاهدا * ومع اجتهادى فاتنى ما أطلب
كالبدر أقطع منزلا فى منزل * فاذا انتهيت الى دراكم أغرب

وقوله من أبيات

سألتك يا من يستلان فيصعب * ومن يترضى بالحياة فيغضب
أما خدك البدر المنير فلم غدت * تحل به ضد القضية عقرب

وقوله وقد داعبه أحد الفقهاء وسرق سكينه من حرز

أيا سارقا ملكا مصونا ولم يجب * على يده قطع وفيه نصاب
ستقدبه الاقلام عند عثارها * ويكبه ان بعد الصواب كتاب

وقوله فى تفاحة عنبر أهديت للملك الصالح نجم الدين أيوب

أنا لون الشباب والخال أهديـ * ـت لمن قد كسا الزمان شبابا
ملك العالمين نجم بن أيوب لازال فى المعالى شهابا
جئت ملأى من الثناء عليه * من شكور احسانه والثوابا
لست ممن له خطاب ولكن * قد كفانى أريج عرفى خطابا

وقوله من قصيدة

فالحمد لله على ساعة * قد قربتنى من علا الصاحب
وليعذر المولى على اننى * قد كنت من علياه فى جانب
كمن أتى نافلة أولا * ثم أتى من بعد بالواجب

وقوله من أبيات

فان كنت فى أرض التغرب غاربا * فسوف ترانى طالعا فوق غارب
فصمصام عمرو حين فارق كفه * رموه ولا ذنب لعجز المضارب
وما عزة الضرغام الا عرينه * ومن مكة سادت لؤى بن غالب

وقوله فى فرس أصفر أغر أكحل الحلية

وأجرد تبرى أثرت به الثرى * وللفجر فى خصر الظلام وشاح
له لون ذى عشق وحسن معشق * لذلك فيه ذلة ومراح
عجبت له وهو الاصيل بعرفه * ظلام وبين الناظرين صباح

لله فرسان غدت راياتهم * مثل الطيور على عداً تحلق
السمر تنقط ما تسطر بيضهم * والنقع يترب والدماء تخلق

وقال ارتجالا بمصر زكى الدين بن أبي الاصبغ وجمال الدين بن أبى الحسين الجزار المصرى الشاعر ونجم الدين بن اسرائيل الدمشقى بظاهر القاهرة وقد مشى أحدهم على بساط نرجس

يا واطئ النرجس ما تستحى * أن تطأ الاعين بالارجل

فتهافتوا بهذا البيت وراموا اجازته فقال ابن أبى الاصبغ مجيرا

فقلت دعنى لم أزل محرجا * على لحاظ الرشأ الاكحل

وكان أمثل ما حضرهم ثم أبوا أن يجيره غيره فقال

قابل جفونا بجفون ولا * تبتذل الارفع بالاسفل

وقوله فى الجزيرة الصالحية بمصر وهى الشهيرة الآن بالروضة

تأمل لحسن الصالحية اذ بدت * مناظرها مثل النجوم تلالا
وللقلعة الغراء كالبدر طالعا * تبجر صدر الماء عنه هلالا
ووافى اليها النيل من بعد غاية * كما زار مشغوف يروم وصالا
وعانقها من فرط شوق بحسنها * فمد يمينا نحوها وشمالا
جرى قادما بالسعد فاختط حولها * من السعد أعلاما بذلك دالا

وقوله من أبيات فى ملك أفريقية وقد جهز ولده الامير أبا يحيى بعسكر

وقد أرسلته نحو الاعادى * كما جردت من غمد حساما

وقوله فى قوس

أيا مثل الهلال فى ظلم النقع سهامى تنقض مثل النجوم
تقصر القضب والقناعن مجالى * عند رجى بهم لكل رجيم
قد كستها الطيور لما رأتها * كاولات لها برزق عميم

وقوله من أبيات

وأشقر مثل البرق لونا وسرعة * قصدت عليه عارض الجود فانهمى

(ولنذكر ترجمته من الاحاطة ملخصة) * فنقول قال لسان الدين على بن موسى بن عبد الملك ابن سعيد بن محمد بن سعيد بن عبد الله بن سعيد بن الحسن بن عثمان بن عبد الله بن سعد بن عمار بن ياسر ابن كنانة بن قيس بن الحصين العنسى المدلجى من أهل قلعة يحصب غرناطى قلعى سكن تونس أبو الحسن بن سعيد وهذا الرجل وسطى عقد بيته وعلم أهله ودرة قومه المصنف الاديب الرحالة الطرفة الاخبارى العجيب الشان فى التجول فى الاقطار ومداخلة الاعيان المتمتع بالخزائن العلمية وتقييد الفوائد المشرقية والمغربية أخذ من أعلام اشبيلية كأبى على الشلوبين وأبى الحسن الدباج وابن عصفور وغيرهم وتواليفه كثيرة منها المرقصات والمطربات والمقتطف من أزاهر الطرف والطالع السعيد فى تاريخ بنى سعيد تاريخ بيته وبلده والموضوعان الغريبان المتعدد الاسفار وهما المغرب فى حلى المغرب والمشرق

في حلى المشرق وعند ذلك تم ما يتعلق بها فلقد حدثني الوزير أبو بكر بن الحكيم أنه
علق كتابا سماه المرزمة يشتمل على وقر بعير من رزم الكراريس لا يعلم ما فيه من
الفوائد الأدبية والأخبارية إلا الله تعالى وتعاطى نظم الشعر في حد من السن يحكى
فيه من ملحه فيذكر أنه خرج مع أبيه إلى إشبيلية وفي صحبته سهل بن مالك فجعل سهل بن مالك
يباحثه عن نظمه إلى أن أنشد في صفحة نهر والنسيم يردده والغصون تميل عليه

كأنما النهر صفحة كتبت * أسطرها والنسيم منشئها
لما أبانت عن حسن منظرها * مالت عليها الغصون تقرؤها

فطرب وأثنى عليه ثم ناب عن أبيه في أعمال الجزيرة ومازج الأدباء ودون كثيرا من نظمه
ودخل القاهرة فصنع له أدباؤها صنيعا في ظاهرها وانتهت بهم الفرجة إلى صور نرجس
وكان فيهم أبو الحسين الجزار فجعل يدوس النرجس برجله فقال أبو الحسن

ما وطئ النرجس ما تستحي * أن تطأ الأعين بالأرجل

فهاموا بهذا البيت ورأوا الجارية فقال ابن أبي الإصبع

فقال دعني لم أزل شغفا * على لحاظ الرشأ الأكحل

وكان أمثل ما حضرهم أبو ابن عمر عمر فقال

قال هو ما تعهدون ولا * تعدل الأربع بالأسفل

ثم استدعاه شمس الدين بن سناء الملك إلى مجلس بقبة النيل مفروش بالورد وقد قامت حوله
شمامات نرجس فقال في ذلك

من فضل النرجس فهو الذي * يرضى بحكم الورد إذ يرأس
أما ترى الورد غدا قاعدا * وقام في خدمته النرجس

ولقي في ذلك الملك الترك وهو قادم على عادة المسارة فطرب الحاضرون ولقي بمصر
أيدمر التركي والبهاء زهيرا وجمال الدين بن مطروح وابن نعم ووغيرهم ورحل صحبة كمال
الدين بن العديم إلى حلب فدخل على الناصر صاحب حلب وأنشده قصيدة أولها

جد لي بما ألقى الخيال من الكرى * لا بد للضيف الملم من القرى

فقال كمال الدين هذا رجل عارف ورّى بمقصوده من أول كلمة وهي قصيدة طويلة فاستحلاه
السلطان وسأله عن بلاده ومقصود رحلته فأخبره أنه جمع كتابا في الحلى البلادية والحلى
العبادية المختصة بالمشرق وأخبره أنه سماه المشرق في حلى المشرق وجمع مثله سماه
المغرب في حلى المغرب فقال نعينك على ما عندنا من الخزائن ونوصلك إلى ما ليس عندنا كخزائن
الموصل وبغداد وتصنف لنا فتقدم على عادتهم وقال أمر مولاي بذلك إنعام وأنس
ثم قال له السلطان مداعبا إن شعراء بلادكم يلقبون بأسماء الطيور وقد اخترت لك لقبا من
حسن صوتك وإدلالك بالشعر فإن كنت ترضى به وإلا لم نخط أحدا غيرها وهو البلبل فقال قد
رضي المملوك لما حوى من حسن السلطان وقال له أنشدني أخبر واحد من لا بنابا
القيافة إلى ذكرتها أول شعرك واما سائر القصيد واما حسن الاسم فقال بأخير المملوك
ثم الاعجمي يسير لهم لأنه معرفي الكول وكيف ملات فطرب السلطان وقال هذا معرفي

طرب

طريف ثم أتبعه من الدنانير والخلع والتواقيع بالارزاق مالا يوصف ولقي بحضرته عون الدين العجمي وهو بحر لا ينزفه الدلاء والشهاب التلعفري والتاج بن شقير وابن نجيم الموصلي والشرف بن سليمان الاربلي وطائفة من بني الصاحب ثم تحول الى دمشق ودخل الموصل وبغداد ودخل مجلس السلطان المعظم بدمشق وحضر مجلس خلوته وكان ارتحاله الى بغداد في عقب سنة ثمانية وأربعين وستمائة في رحلته الاولى اليها ثم رحل الى البصرة ودخل ارجان وحج ثم عاد الى المغرب وقد صنف في رحلته مجموعا سماه بالنفحة المسكية في الرحلة المكية وكان نزوله بساحل مدينة أقليبية من افريقية في احدى جمادى سنة اثنين وخمسين وستمائة واتصل بخدمة الامير أبي عبد الله المستنصر فنال الدرجة الرفيعة من حظوته حدثني شيخنا الوزير أبو بكر بن الحكيم ان المستنصر جفاه في آخر عمره وقد أسن لجراءة خدمة ماليه أسندها اليه وقد كان يلازمه قبل جموة أعقبها انتشال وعناية فكتب اليه بنظم من جملته لا ترعني بالجفا ثانية فرق له وعاد الى حسن النظر فيه الى أن توفي تحت بر وعناية مولده بغرناطة ليلة الفطر سنة عشر وستمائة ووفاته بتونس في حدود خمسة وثمانين وستمائة انتهى باختصار * وذكرت حكاية اجازة بيته في المرجس وان تقدمت لاتصال الكلام قلت قد كنت وقفت على بعض ديوان شعره المتعدد الاسفار ونقلت منه قوله من قصيدة يهني ابن عمه الرئيس أبا عبد الله بن الحسين بقدومه من حركة هوارة

أما واجب أن لا يحول وجيب * وقد بعدت دار وحان حبيب
وليس أليف غير ذكر وحسرة * ودمع على من لا يرق صبيب
وخفق فؤاد ان هفا البرق خافقا * وشوق كما شاء الهوى ونحيب
ويعذلني من ليس يعرف ما الهوى * وعذل مشوق في البكاء عجيب
الا تعس اللوام في الحب قد عموا * وصموا ودائي ليس منه طبيب
يرومون أن يثني الملام صبابتي * ولست الى داعي الملام أجيب
وفائي اذا ما غبت عنكم مجدد * وغيري ذو غدر وان يغيب
ولو لم يكن مني الوفاء سجية * لكنت لغير ابن الحسين أنيب
سموأل هذا العصر حاتم جوده * مهلبه ان مارسته حروب
فتى سير الامداح شرقا ومغربا * أبو دلف من دونه وخصيب
اذا رقم القرطاس قلت ابن مقلة * وان نظم الاشعار قلت حبيب
وان نثر الاسجاع قلت مهيبة * وان سرد التاريخ قلت غريب
وما أحرز الصولي آدابه التي * اذا ما تلاها لم يجبه أديب

ومنها

وأما اذا ما الحرب أخمد نارها * ففيه تلظى مارح ولهيب
فكم قارع الابطال في كل وجهة * شجاها وكم لاقت عليه حروب
وكان له بالغرب من موقف له * حديث اذا يتلى تطير قلوب

وما ان ضربت الدهر زيدا بعمره * ولم يك لي بين الكرام ضريب
أأشكوك أم أشكو الليالي ان عدت * عداتي حتى حان منك وثوب
سأشكر ما أوليت واصبر للذي * توالى على ان العزاء سليب
فدم في سرور ما بقيت فانني * وحقك مذ دب الوشاة كئيب

قال وكان سبب التغير بيني و بين ابن عمي الرئيس المذكور أن ملك افريقية استوزر لاشتغال الموحدين أبا العلى ادريس بن علي بن أبي العلى بن جامع فاشتمل علي وأولاني من البر ما قيدني وأمال قلبي اليه مع تأكيد ما بينه و بين ابن عمي من الصحبة فلم يزل ينهض بي و يرفع أمداحي للملك و يوصل اليه رسائلي منبها على ذلك مرشحا الى أن قبض الملك على كاتب عسكره وكان يقرأ بين يديه كتب المظالم فاحتيج الى من يخلفه في ذلك فنبه الوزير علي وأرشدني مع اني كنت من كتاب الملك فقلدني قراءة المظالم المذكورة وسفر الى الوزير عنده في دار الكاتب المؤخر فانتهبها أو وجد الوشاة مكانا متسعا للقول فقالوا أو زوروا من الاقاويل المختلفة ما مال بهما حيث مالوا وظهرت منه مخايل التغير فجعلت اداريه وأستعطفه فلم ينفع فيه قليل ولا كثير الى أن سعى في تأخير والدي عن الكتب للامير الاسعد أبي يحيى بن ملك افريقية ثم سعى في تأخيري فأخرت عن الكتابة وعن قراءة المظالم فانفردت بالكتابة للوزير المذكور وفوض الي جميع أموره وأولاني من التأنيس ما أنساني تلك الوحشة ومن العز ما أنقذني من تلك الذلة

فرد علي العيش بعد ذهابه * وآنسني بعد انفرادي من الاهل
وقالوا اذا ما الوبل فاتك فاقتنع * بما قد نسي عندك الآن من طل
ووالله ما نعماه طل وانما * تأدبه غيث يجود على الكل
رآني ظمآ في الهجيرة صاحيا * فرق وآواني الى الماء والظل

ولم أزل عنده في أسر حال مالها تكدير الا ما يبلغني من أن ابن عمي لا يزال يسعى في حقي بما أخشى معبته وخفت أن يطول ذلك فيسمع منه ولا ينفع دفاع الوزير المذكور عني فرغبت له في أن يرفع للملك أني راغب في السراح الى المشرق برسم الحج

ومن لله الغيث في بطن واد * وبات فلا يأمن السيولا

فلم يسعفني في ذلك ولامني على تحوفي وقلة ثقتي بحمايته فرفعت له هذه القصيدة

هل الهجر الا أن يطول التجنب * ويبعد من قد كان منه التقرب
وتقطع رسل بيننا ورسائل * ويمنع لقيانا نوى وتحجب
و لو أنني أدري لنفسي زلة * جعلت لكم عذرا ولم أك أعتب
ولكنكم لما ملكتم هجرتم * وذنبتم في الحب من ليس يذنب
الى الله أشكو غدركم وملالكم * وقلبا له ذاك التعذب يعذب
فلو أنه يجزى بكم بفعالكم * لكان له عنكم مراد ومطلب
ولكن أبى أن لا يحن لغيركم * وأن لا يرى عنكم مدى الدهر مذهب
فهلا رعيتم أنه في ذراكم * غريب وليس الموت الا التغرب

لمن أرتجي عند الامير بمنطق * يجيء به حولي المنى والمواهب

وهي طويلة ومنها قبيل الختم

وقد كنت أختار الترحل قبل أن * يصيبك سهم للمنية صائب

ولكن قضاء الله من ذا يرده * فصبرا فقد يرضى الزمان المغاضب

ومنها وهو آخرها

واني لادري أن في الصبر راحة * اذا لم تكن فيه علي مثالب

وان لم يؤب من كنت أرجو انتصاره * عليك فلطف الله نحوي آيب

قال رحمه الله تعالى ولما قدمت مصر والقاهرة أدركتني فيهما وحشة وأثارت تذكرما كنت أعهد بجزيرة الاندلس من المواضع المبهجة التي قطعت بها العيش غضا خصيبا وصحبت بها الزمان غلاما والبست الشباب بردا قشيبا فقلت

هذه مصر فأين المغرب * مذ نأى عني دموعي تسكب

فارقته النفس جهلا انما * يعرف الشيء اذا ما يذهب

أين حمص أين أيامي بها * بعدها لم ألق شيأ يعجب

كم بعيش لي بها من لذة * حيث للنهر خرير مطرب

وحمام الايك تشدو حولنا * والمثاني في ذراها تضرب

أي عيش قد قطعناه بها * ذكره من كل نعمي أطيب

ولكم بالمرج لي من لذة * بعدها ما العيش عندي يعذب

والنواعير التي تذكارها * بالهوى عن مهجتي لا تسلب

ولكم في شنتبوس من منى * قد قضيناه ولاس يعتب

حيث هاتيك الشراجيب التي * كم بها من حسن بدر معجب

وغناء كل ذي نغمة له * سامع غصبا ولاس يغضب

بلدة طابت ورب غافر * ليتني مارات فيها أذنب

أين حسن النيل من نهربها * فكل نغمات لديه تطرب

كم به من زورق قد حله * قمر ساق وعود يضرب

لذة الناظر والسمع على * شم زهر وكؤس تشرب

كم ركبناها فلم تجمح بنا * ولكم من جامح اذ يركب

طوعنا حيث اتجهنا لم نجد * تعبا منها اذا ما نتعب

قد أثارت عنبرا بشبهه * نثر سلك فوق بسط ينهب

كلما رشنا لها أجنحة * من قلاع ظلت منها تعجب

كطيور لم تجد ريا لها * فبدا للعين منها مشرب

بل على الخضراء لا تنفك من * زهرة في كل حين تلهب

حث للبحر زئير حولها * تنصر الاغصان منه ترهب

كم قطعنا الليل فيها مشرقا * بحبيب ومدام يسكب

فقالوا ألا قد خان عهدك قلت لم * يخن من اذا قرّبته يتقرّب
وكم دونه من صارم ومثقف * فيا من رأى بدرا بهذين يحجب
على أنه يستسهل الصعب عندما * يزور فلا يجدى حجى مترقب
وكم حيلة تترى على اثر حيلة * وذو الوجد من يحتال أو يتسبب
على أنه لو خان عهدى لم أزل * له راعيا والرعى للصب أوجب
فأين زمان لم يجئ ساعة * به وهو منى فى التنعم أرغب
ولا فيه من بخل ولا بى قناعة * كلانا بلذات التواصل معجب
ويا رب يوم لا أقوم بشكره * على أننى ما زلت أثنى وأطنب
على نهر شنيل وللقضب حولنا * منابر ما زالت بها الطير تخطب
وقد قرعت منه سنابك فضة * خلال رياض بالاصيل تذهب
شربنا عليها قهوة ذهبية * غدت تشرب الالباب أيان تشرب
كأن ياسمينا وسط درّ تفتحت * أزاهره أيان فى الكاس تسكب
اذا ما شربناها لنيل مسرة * تبسم عن درّ لها فتقطب
أتت دونها الاحقاب حتى تخالها * سرابا بآفاق الزجاجة يلعب
نعمنا بها واليوم قد رق برده * الى أن رأينا الشمس عنا تغرب
فقالوا ألا هاتوا السراج فكل من * درى قدر ما فى الكاس أقبل يعجب
وقال ألا تدرون ما فى كؤسكم * فلا كاس الا وهو فى الليل كوكب
كواكب أمست بين شرب ولم تحل * بأن النجوم الزهر تدنو وتغرب
ظللنا عليها عاكفين وليلنا * نهارا الى أن صاح بالايك مطرب
فلم نثن عن دين الصبوح عناننا * الى أن غدا من ليس يعرف يندب
صرعنا فأمسى يحسب السكر قد قضى * علينا وذاك السكر أشهى وأعجب
وكم ليلة فى اثر يوم وعذلى * وعذل من يصغى القول لى حيب
فيا ليت ما ولى معاد نعيمه * وأى نعيم عند من يتغرب

قال وقلت باشبيلية ذاكرا الوادى الطلح وهو بشرق اشبيلية ملتف الاشجار كثير مترنم الاطيار وكان المعتمد بن عباد كثيرا ما ينتابه مع رميكته وأولى أنسه ومسرته

سائل بواد الطلح ريح الصبا * هل سحرت لى فى زمان الصبا
كانت رسولا بينه ما بيننا * لى بأمن الرسل ولى تكتبا
يا قاتل الله أناسا اذا * ما استؤمنوا خانوا لها أعجبا
هلا رعوا أنا وثقنا بهم * وما اتخذنا عنهم مذهبا
يا قاتل الله الذى لم يتب * من غدرهم من بعد ما جرّبا
والهم لا يعرف ما طعمه * الا الذى وافى لأن يشربا
ودعنى من ذكر الوشاة الألى * لما يزل فكرى بهم ملهبا
واذكر بوادى الطلح عهدا لنا * لله ما أحلى وما أطيبا

هامت به الاحداق لما ادمت * منها الحديقة ساقيا لا يشرب
نصبته فوق النهر أيد قدرت * ترويحه الارواح ساعة تنصب
فكانه وهو الطليق مقيد * وكانه وهو الحبيس مسيب
للماء فيه تصعد وتحدر * كالمزن يستسقى البحار ويسكب

حلف أبو عبد الله بن أبى الحسين ابن عمى أن يصنع فى ذلك شيأ فقال

ومحنية الاضلاع تحنو على الثرى * وتسقى نبات الترب در الترائب
تعد من الافلاك ان مياهها * نجوم لرجم المحل ذات ذوائب
واعجب بها رقص الغصون ذوابلا * فدارت بأمثال السيوف القواضب
وتحسبها والروض ساق وقينة * فما برحا ما بين شاد وشارب
وما خلتها تشكو بتحملها الصدا * ومن فوق متنيها اطراد المذانب
تخذ من مجاريها ودهمة لونها * بياض العطايا فى سواد المطالب

ثم كلفت فى أن أقول فى ذلك وأنا أعتذر بأن هذين لم يتركا لى ما أقول

وذات حنين لا تزال مطيفة * تئن وتبكى بالدموع السواكب
كأن أليفا بان عنها فأصبحت * عن ربعه كالصب بعد الحبائب
اذا ابتسمت فيها الرياض شمائة * ترعها بأمثال القسى القواضب
فكم رقصت أغصانها فرمت لها * نثارا كما بدرت حلى الكواعب
لقد حظت منها الثغور وأرضت الـ * ـقدود ولم تحفل بتثريب عاتب
شربت على تحنانها ذهبية * ذخيرة كسرى فى العصور الذواهب
فهاجت لى الكاس ادكار مغاضب * فهاجيتها وجدا بذاك المغاضب
فلا تدع التبريح فى كثرة الهوى * فلولاى كانت فيه احدى العجائب

قال وقلت بغرناطة

باكر اللهو ومن شاء عتب * لا يلذ العيش الا بالطرب
ما ترانى من رأى الزهر زها * والصبا عربدة فى الروض خبب
وشذاه صانه حتى اغتدى * بين أيدى الريح غصبا ينتهب
يا نسيما عطر الارجاء هل * بعثوا منك مايشفى الكرب
هم أعلوه وهم يشفونه * لا شفاه الله من ذاك الوصب
خلع الروض عليه زهره * حين وافى من ذرا كم فعل صب
فأبى الاشتداء فانثنى * حاملا من عرفه ماقد غصب
لست ذا نكر لان يشبهكم * من بعثتم غير ذا منه العجب
غالب الاغصان فى بدأته * ثم لما زاد أعطته الغلب
فبكى الطل عليها رحمة * أو بكى من وعظ طير قد خطب
كل هذا قد دعانى للتى * ملكت رقى على مر الحقب
قهوة أبسم من عجب لها * عندما تبسم عجبا عن حبب

سا كب الجر فلما سعب * فلسب مالقعر بالما الهيب
ودب من كمها لى دصه * ملب ادحدب دون الدهب
اسعبها من ندى مسبها * مالدى بحوبه طرف وسب
لا حعلب الدهر ملى عيرها * لدلى من ردبي بعر كالضرب
لا حعلب الدهر ريحانى وى * ما تحتديه من الورد النحب
لم ازل أطلع دهرى هكذا * وكذا أطلع سه المرتب
حسدا عيس وطعما لدى * عطب الحاور ماقسه نصب
مع من لم تدر يوما ما الطما * من أراح الصب سه من تعب
كل ما تصدر منه حسن * لم يدى فى الهوى مر الغضب
اى عيش مع الدهر به * كل نعمى ده سب لما دهب

قال وقد حلب نوبين مع ابى العباس الغسانى حماما فحط ربالى على بن لى بهابه الحسن وتعومه الابدان فعلب مخاطبا له

دخلب حماما وقد نديه * نعيم حسم فعدالى عداب
طلب لظى فاعترضب نور * وطلب عدن فمهالى الهابه
وأنت فى الفصل امام فكن * فى الحكم من حاز فصل الخطاب

فقال

لا بأس الحمام فى فعله * فليس ما تأبيه عندى صوابه
ما أرى أحدع منه ولا * اكذب الا ان تكون السرابه
يبدى لك النعيم مذكور الذى * ولبس الشرح رود الثيابه
طبق به النار فلا حنه * للعيش الا ما حويه السحابه

(ومن فوائده) أعنى ابن سعيد رحمه الله تعالى فى كتابه الحلى بالاشعار سلاعين الدرطى قصة شار الهودج روضة مصر وهو من متنزهات الخلفا الفاطميين العظيمة الحسنة البناء البديعة وذلك أنه قال ان الباني له الخليفة الآمر باحكام الله للبدوية التى علق عليها حبا حوار الاستان الحمار وكان يتردد اليه كثيرا وقتل وهو متوجه اليه وما زال متنزها للخلفا من بعد * وقد اكثر الناس فى حديث البدوية وابن مياح من بنى عمها وما يتعلق بذلك من ذكر الآمر حتى صارت رواياتهم فى هذا الشان كحديث البطال وألف ليلة وليلة وما أشبه ذلك والاختصار منه ان قال ان الآمر قد كان بنى بعض الجوارى المترسات وصارت له عيون فى البوادى فبلغه أن بالصعيد جارية من أكمل العرب وأظرفهم شاعرة جميلة فقال انه ربا زى بداة الاعراب وكان يجول فى الاحياء الى أن انتهى الى حيها وبات هنالك وتحيل حتى عاينها فما ملك صبره ورجع الى مقر ملكه وارسل الى اهلها يخطبها وتزوجها فلما وصلت اليه صعب عليها مفارقة ما اعتادت وأحبت أن تسرح طرفها فى الفضاء ولا تنقبض نفسها تحت حيطان المدينة فبنى لها البناء المشهور فى جزيرة الفسطاط المعروف بالهودج وكان غريب الشكل على شط النيل وبقيت معلقة الخاطر بابن عم لها ربت

معه يعرف بابن مياح فكتبت اليه من قصر الآمر

يا ابن مياح اليك المشتكى * مالك من بعد كم قد ملكا
كنت في حي طليقا آمرا * نائلا ماشئت منكم مدركا
فأنا الآن بقصر موصد * لا أرى الا حبيسا ممسكا
كم تثنينا كاغصان النقا * حيث لا تخشى علينا دركا

فأجابها فقال

بنت عمي والتي غذيتها * بالهوى حتى علا واحتنكا
بحت بالشكوى وعندي ضعفها * لو غدا ينفع منا المشتكى
مالك الامر اليه يشتكى * هالك وهو الذي قد هلكا

قال وللناس في طلب ابن مياح واختفائه أخبار تطول وكان من عرب طيء في عصر الآمر طراد بن مهلهل فقال وقد بلغته هذه الابيات *

ألا ابلغوا الآمر المصطفى * مقال طراد ونعم المقال
قطعت الاليفين عن ألفة * بها سمر الحي حول الرحال
كذا كان آباؤك الاكرمون * سألت فقل لي جواب السؤال

فقال الخليفة الآمر لما بلغته الابيات جواب سؤاله قطع لسانه على فضوله فطلب في أحياء العرب فلم يوجد فقيل ما أخسر صفقة طراد باع عدة أبيات بثلاثة أبيات وكان بالاسكندرية مكين الدولة أبو طالب أحمد بن عبد المجيد بن أحمد بن الحسين بن حديد له مروءة عظيمة ويحتذي أفعال البرامكة وللشعراء فيه أمداح كثيرة ومدحه ظافر الحداد وأمية أبو الصلت وغيرهما وكان له بستان يتفرج فيه به جرن كبير من رخام وهو قطعة واحدة ينحدر فيه الماء فيبقى كالبركة من كبره وكان يرى في نفسه برؤيته زيادة على أهل النعم والمباهاة في عصره فوشى به للبدوية محبوبة الآمر فسألت الآمر في حمل الجرن اليها فأرسل الى ابن حديد في احضار الجرن فلم يجد بدا من حمله من البستان فلما صار الى الآمر أمر بحمله الى الهودج فقلق ابن حديد وصارت في قلبه حرارة من أخذ الجرن فأخذ يخدم البدوية وجميع من يلوذ بها بأنواع الخدم العظيمة الخارجة عن الحد في الكثرة حتى قالت البدوية هذا الرجل أخجلنا بكثرة تحفه ولم يكلفنا قط أمرا نقدر عليه عند الخليفة مولانا فلما قيل له عنها هذا القول قال مالي حاجة بعد الدعاء لله بحفظ مكانها وطول حياتها في عز غير ردّ السقية التي قلعت من داري التي بنيتها في أيامهم من نعمتهم ترد الى مكانها فتعجبت من ذلك وردّتها عليه فقيل له قد حصلت في حد أن خيرتك البدوية في جميع المطالب فنزلت همتك الى قطعة حجر فقال أنا أعرف بنفسي ما كان لها أمل سوى أن لا تغلب في أخذ ذلك الحجر من مكانه وقد بلغها الله تعالى أملها وكان هذا المكين متولي قضاء الاسكندرية ونظرها في أيام الآمر وبلغ من علو همته وعظيم مروءته أن سلطان الملوك حيدرة أخا الوزير المأمون بن البطائحي لما قلده الآمر ولاية ثغر الاسكندرية سنة سبع عشرة وخمسمائة وأضاف اليها الاعمال البحرية ووصل الى الثغر وصف له الطبيب دهن

سمعت للملك الناصر كتاب ملوك الشعر جعلت ملك شعر الشهاب البيت الرابع من المقطوعة
المتقدمة فانه كان كثيرا ما ينشده وينوه به والتشفى من ذكر الشهاب ومحاسن شعره له
مكان بكتاب الغرة الطالعة فى فضلاء المائة السابعة وهو الآن عند الملك المنصور صاحب
حماه قد عات سنه وما فارقه غرامه ودنه انتهى ولما أجرى ابن سعيد فى بعض مصنفاته ذكر
الملك العادل بن ايوب قال ما نصه وكان من أعظم السلاطين دهاء وحزما وكان يضرب
به المثل فى افساد القلوب على أعدائه واصلاح احواله ويحكى انه بشره شخص بأن أميرا من
امراء الافضل بن صلاح الدين قد عليه فأعطاه مالا جزيلا وأرسل مستخفيا الى المذكور
يزيده بصيرة فى الانحراف عن الافضل ويعده بما يفسد الصالح فكيف الفاسد قال وكان يمنع
حتى يوصف بالبخل ويجود فى مواضع الجود حتى يوصف بالسماح وكان صلاح الدين
وهو السلطان يأخذ برأيه وقدم له أحد المصنفين كتابا مصورا فى مكايد الحروب ومنازلة
المدن وهو حينئذ على عكا محاصرا للفرنج فقال له ما نحتاج الى هذا الكتاب ومعنا أخونا
أبو بكر وكان كثير المداراة والحزم ومن حكاياته فى ذلك ان أحد الاشياخ من خواصه
قال له يوما وهو على سماطه يأكل ياخوند ما وفيت معى ولا رعيت سابق خدمتى وكلمه
بدالة السن وقدم الصحبة قبل الملك فقال لمماليكه أنظروا وسطه حلوا الكمران وقال
خذوا الصرة التى فيه فوجدوا صرة فقال افتحوها ففتحوها فاذا فيها درور فقال العادل
كل من هذا الدرور فتوقف وعلم أنه مطلع على انه سم فقال كيف نسبتنى الى قلة
الوفاء وأنا منذ سنين اعلم أنك تريد أن تسمنى بهذا السم وقد جعل لك الملك الفلانى على
ذلك عشرة آلاف دينار فلا أنا أمكنتك من نفسى ولا أشعرتك لئلا يكون فى ذلك مالا
شداء به وتركتك على حالك وأنا مع هذا لا أغير عليك نعمة ثم قال ردوا سمه الى كرانه لا أبقى
الله تعالى عليه ان قدر وأبقى على فجعل يقبل الارض ويقول هكذا والله كان وأنا تائب
لله تعالى ثم ان الشيخ جدد توبة واستأنف أدبا آخر وخدمة أخرى وكانت هذه الفعلة من
احدى عجائب العادل قال وكان كثير المصانعات حتى انه يصوغ الحلى الذى يصلح لنساء
الفرنج ويوجهه فى الخفية اليهن حتى يسكن أزواجهن عن الحركة وله فى ذلك مع ملوك
الاسلام ما يطول ذكره ولما خرج ابن أخيه العز اسمعيل بن طغتكين باليمن وخطب لنفسه
بالخلافة وكتب له أن يبايعه ويخطب له فى بلاده كان فى الجماعة من أشار الى النظر فى توجيه
عسكر له فى البر والبحر وانفاق الاموال قبل أن يتفاقم أمره فضحك وقال من يكون عقله
هذا العقل لا يحوج خصمه الى كبير مؤنة أنا أعرف كيف أفسد عليه حاله فى بلاده فضلا عن
أن يتطرق فساده لبلادى ثم انه وجه فى السر لاصحاب دولته بالوعد والوعيد وقال لهم أنتم
تعلمون بعقولكم أن هذا لا يسوغ لى فكيف يسوغ له وقد أدخل نفسه فى أمر لا يخرج
منه الا بهلاكه فاحذروا ان تهلكوا معه واتعظوا بالآية ولا تركنوا الى الذين ظلموا فتمسكم
النار وما لهذا عقل يدبر به نفسه فكيف يفضل عن تدبير خاصته الحكم ولتعلمن نبأه بعد حين
فعند ما وعت أسماعهم هذا وتدبروه بعقولهم قبضوا عليه وقتلوه وعادت البلاد للعادل
وقال للمشيرين عليه فى أول الامر بتجهيز العسكر قد كفينا المؤنة بأيسر شىء من المال

فاثنى عزمه عن الحركة ثم بلغ ما أمله دون سفر وقال ابن سعيد في ترجمة المنتجب أحمد بن عبد الكريم الدمشقي المعروف بدفترخوان وهو الذي يقرأ الدفاتر بين أيدي الملوك والاكابر انه كان يقرأ الدفاتر بين يدي العادل بن أيوب وكان يكتب له بالاشعار في المواسم والفصول فينال من خيره وكتب له مرة وقد أطل الشتاء في دمشق وقال

مولاي جاء الشتاء * والكيس منه خلاء
لازال يجري عمارة * ضي علاك القضاء
وكل كاف اليه * يحتاج فيه الدواء

فقال له العادل هذا الضمير الذي في البيت الاول على ماذا يعود قال بحسب مكارم السلطان ان شئت على الدراهم وان شئت على الدنانير فضحك وقال هات كيسك فأخرج له كيسا يسع قدر مائة دينار فملأه له وقال أطمعه كان معتادا عندك فقال مثل السلطان من يكون جوده مظنونا وكتب اليه مرة وقد أملق

أنظر الى بعين جودك مرة * فلعل محروم المطالب يرزق
طير الرجاء على علاك محلق * وأظنه سيعود وهو محلق

فأعطاه جملة دنانير وقال له اشتريهذه ما تحلق به طير رجائك انتهى وأنشد ابن سعيد رحمه الله تعالى لبعض المغاربة وهو أبو الحسن علي بن مروان الرباطي الكاتب

أنس أخي الفضل كتاب أنيق * أوصاحب يعنى بود وثيق
فان تعسره دون رهن به * تخسره أوتخسر وداد الصديق
وربما تخسر هذا وذا * فاسمع رعاك الله نصح الشفيق

قال وأجابه الحاطب بهذه الابيات وهو ابن الربيب بنثر نصه مثلك يفيد تجربة قد نفق عليها عمره وضل عن فوائدها غره وقد أعذرت وهذا لايسمع باحراجه الا لديك فتفصل بتوجيه الجزء الاول وأنا أعلم أنه عندك مثل ولدك قال فوجهه ومعه بطاقة صغيرة فيها يا أخي ان عرضت بولدي فكذلك كنت مع والدي وقد توارثنا العقوق كابرا عن كابر فكن شاكرا فاني صابر ثم قال ابن سعيد وتعاقم أمر ولده فقيده بقيد حديد وقال فيه

لي ولد يا ليته * لم يك عندي يخلق
يجهد في كل الذي * يرغم وهو يعشق
وان أكن قيدته * دمعي عليه مطلق

وذكر ابن سعيد أن الكاتب أبا الحسن المذكور كان كثيرا ما يستعير الكتب فاذا طلبت منه نكث أنها ما كانت فذكر لبعض أصحابه وهو ابن الربيب المؤرخ أن عنده نسخة جليلة من تاريخ غريب الذي لخص فيه تاريخ الطبري واستدرك عليه ما هو من شرطه وذيل ما حدث بعده فأرسل اليه في استعارتها فكتب اليه يا أخي سدد الله آراءك وجعل عقلك أمامك لا وراءك ما يلزمني من كونك مضيعا أن أكون كذلك والنسخة التي رمت اعارتها هي مؤنسي اذ أوحشني الناس وكاتم سري اذ خانوني فما أعيرها الا بشيء أعلم أنك تتأذى بفقده اذا فقدجزء من النسخة وأنا الذي أقول أنس أخي الفضل كتاب أنيق الى آخره

هكذا العيش ودع عيش الذي * خاف من نقد اذا يفتضح

وقلت بشمريش

طاب الشراب لمعشر * سلبوا المروءة فاستراحوا

لا يعرفون تسترا * السكر عندهم مباح

متهتكون لدى المنى * وفسادهم فيها صلاح

ساقيهم متبذل * هل يمنع الماء القراح

غصن يميل به الصبا * ردته طوع الراح راح

طوع الاماني كلما * يأتي به فهو اقتراح

ما ان يبالي ان بدا * الا يلوح لنا الصباح

مازلت أرشف ثغره * وعليه من عضدي وشاح

والقلب يهفو طائرا * ولعا ولا يخشى افتضاح

ولو اننا نخشاه كا * ن لنا من الطلبا جناح

ابكيا في عصبة * ما في تركهم جناح

لا ينكرون سوى ثقيل لا يميل به مزاح

أفني الذي قد جمعو * ه الكاس والحدق الملاح

وقلت بزا كين

قم هاتها الاح الصباح * ما العيش الا الاصطباح

مع فتية ما دأبهم * الا المروءة والسماح

جربتهم فوجدتهم * ما للمنى عنهم براح

يثنيهم نحو الصبي * نقر المثاني والمراح

ما نادموا شخصا فكا * ن لهم بخدمته استراح

بل يعرفون مكانه * فله اذا شاء اقتراح

هم يتعبون وضيفهم * ما دام عندهم يراح

مالان يملون العزيـ * ـل وبالرصانه السراح

يدعونه بأجل ما * يدعى به الحر الصراح

حتى اذا ما بان كد * ر عيشهم منه انتزاح

فعلى مثالهم يبا * ح لي المدامع والنواح

كرها فقدتهم فحا * لي بعد بعدهم ارتياح

لله شوقي ان هفت * من نحو أرضهم الرياح

فهناك قلبي طائر * لهم ومن شوقي جناح

قال وقلت بمدينة ابن السليم في وصف كلب صيد أسود في عنقه بياض

وأدهم دون حلي ظل حالي * كأن ليلا يقلده صباح

يطير وماله ريش ولكن * متى يهوفأربعه جناح

أسقتها الغمام ريا ولاحت * في رداء ومئـــزر ووشاح
أم جفته وصيرته هشيما * تركتـه تذروه هوج الرياح
يا زماني بالحاجبيـة اني * لست من سكر ما سقيت بصاحي
آه مما لقيت بعـدك من هـم وشوق وغـــربة وانتزاح
أين قوم ألفتهم فيك لما * قرب الدهـر آذنوا بالرواح
تركوني أسير وجد وشوق * مالقلبي من الجوى من سراح
أسلموني للويل حتى تولوا * وأصاخوا لطالما القول اللواحي
أعرضوا ثم عرضوني لشوق * ترك القلب مثخنا بجراح
أسهر الليل لست أغفا لصبح * أترى النوم ذاهبا بالصباح
قد بدا يظهر النجوم حليا * وهو من لبسة الصبا في براح
مسبلا ستره منيع نال * وجموني من سهده في كفاح
أيها الليل لا تؤمل خلودا * عن قريب يحوط لامك ماحي
ويلوح الصباح مشرق نور * فيه للمستهام بدء نجاح
ان يوم الفراق يقدح لي * طائرا ليتـه بغير جناح
حالك اللون شبه لونك فاعرف * عن عياني يا شبه طير البراح
واذا ما بدا الصباح فما يشبـه الا لون الخدود الملاح

وقلت بالجزيرة الخضراء

قد رفعت راية الصباح * تدعو الندامى للاصطباح
فبادروا للصبوح اني * قد بعت في غيه صلاحي
ولا تميلوا عن رشف ثغر * وسمع شدو وشرب راح
وأنت يا من يروم نصحي * قد يئس القوم من فلاحي
لست أصغي الى نصيح * ما هزت بالكؤس راحي

قال وقلت أمدح ملك افريقية وأهنيه بقتل ثائر من رباتة يدعي أنه من نسل يعقوب المنصور

برح بي من ليس عنه براح * ومن رأى قتلي حلالا مباح
من صرح الدمع بحبي له * ومالقلبي عن هواه سراح
ظبي عدمت الصبح مد صدني * وكيف لا يعدم وهو الصباح
مورد الخد شهي اللما * صعب الردف جديب الوشاح
تظنه من قلبه جلمدا * ومنه للماء بجفني انسياح
لردفه أضعف من صبه * ولم أزل من لحظه في كفاح
نشوان من ريقته عربدت * أجفانه بالمرهفات الصفاح
فها أبي خافت مثل ما * أنا أسير مثخن بالجراح
يا قاتلي صدا أما تستحي * أن تلزم الجذل بأرض السماح

قال وقلت بيونش موضع الفرجة سبتة

اشرب على بيونش * بين الـوادى والبطاح
مع فتية مثل النجو * م لهم اذا سـروا جماح
ساقيهم متبذل * لايمسح الماء القراح
كل يمد عينه * ماذا الذى يأتى جناح
هبوا عليه كلما * هبت على الروض الرياح
طوع الامانى كلما * يأتى به مهو اقتراح
عانقته حتى تركت بخصره أثر الوشاح

وقلت باشبيلية

أوجه صبح أم الصباح * ولحظها أم ظبى الصفاح
وثغرها أم نظيم در * وريقها أم سلاف راح
وقدها أم قوام غصن * وعرفها أم شذا المطاح
يا حبذا زورة تأتت * منها على غفلة اللواح
فلم أصدق بها سرورا * وطلت نشوان دون راح
أما منعت السلام دهرا * ولا رسول سوى الرياح
قالت ألا فانس ما تقضى * من يدع ما مضى استراح
يا حبذاها وقد تأتت * من دون وعد ولا اقتراح
زارت ومن نورها دليل * والليل قد أسبل الجناح
أخفت سراها فباح نشر * لها بعرف شذا وفاح
وافت فأمسى فى مداما * وساعدا ى لها وشاح
كأغصان بين روض * والغصن والورد والاقاح
فبينما الشمل فى انتظام * اذ سمعت داعى الفلاح
فغادرتنى فقلت عذرا * قالت أما تحذر افتضاح
ولت وما خلت من صباح * يبدو على اثره صباح

قال وقلت بتونس

لامرحبا بالتين لما بدا * يسحب من ليل عليه الوشاح
ممزق الجلباب يحكى ضحى * هامة زنجى عليها جراح
وان تصفه فلاحبذا * ماقد أتى تصحيفه باقتراح

وقلت بالجزيرة الخضراء وقد كلفت ذلك

غرامى بأقوال العدى كيف ينسخ * وعهدى وقد أحكمته كيف يفسخ
كلامكم لايدخل السمع نصحه * ولكن اذا حر ضنتم ليس يرسخ
وبى بدر تم قد ذللت لحسنه * فمن ذا الذى فيما أتيت يوبخ
اذا خاصمونى فى هواه خصمتهم * ويغدون تنقيصى بذاك فأشمخ

يا رحمة للعالمين بعثت والدنيا بجنح الكفر ليل أربد
أطلعت صبحا ساطعا فهديت للايمان الامين يحمد ويحمد
لم تخش في مولاك لومة لائم * حتى أقر به الكفور الملحد
ونصرت دين الله غير محاذر * ودعوت في الاخرى الالى قد أصعدوا
ولقيت من حرب الاعادى شدة * لو كابدوها ساعة لتبددوا
ابان لا أحد عليهم عاضد * الا الاله ولم يخش من يعضد
فحماك بالغار الذي هو من أدل المعجزات وخاب من يترصد
ووقاك من سم الذراع بلطفه * كيما يغاظ بك العدا والحسد
والجذع حن اليك والماء انهمى * ما بين خمسك والصحابة شهد
والذئب أنطق للبدوي أضحى به * يهدى الى سبل النجاح ويرشد
وبليلة الاسرا حباك وسمى الصديق من أضحى بقولك يسعد
وحباك بالخلق العظيم ومعجز الكلام الذي يهدى به اذ يورد
وبعثت بالقرآن غير معارض * فيه وأمسى من غناه يعدد
فتوالت الاحقاب وهو مبرأ * من أن يكون له مثال يوجد
ولكم بليغ جال فصل خطابه * والسرج في ضوء الغزالة تهمد
رؤيت لك الارض التي لا زال يو * م الحشر ربك في ذراها يعبد
ونصرت بالرعب الذي لما يزل * يترى كان ما عين شخصك تفقد
فمتى تعرض طاعن أو حاد عن * حرم الهداية فالحسام مجرد
يا من تخير من ذؤابة هاشم * نعم الفخار لها ونعم المحتد
لسناك حين بدا يا آدم أقبلت * زعما الاخراه الملائك تسجد
لم أستطع حصر المنا أعطيته * فذكرت بعضا واعتذاري منشد
ماذا أقول اذا وصفت محمدا * نفد الكلام ووصفه لا ينفد
فعليك يا خير الخلائق كلها * مني التحية والسلام السرمد

قال وقلت باشبيلية

هل تمنع النهود * ما أبدت الخدود
نعم وكم طعين * بطعنها شهيد
يا ربة المحيا * حفت به السعود
لم تسكر الحميا * بل ريقك البرود
لله يا عذولي * ما تكتم البرود
مازلت فيه أدنى * والوجد مستزيد
يا هل ترى زمانا * مضى لنا يعود
لدى الغروس سقت * جنابها العهود
حيث الغصون مالت * كأنها قدود

وزمان السرور سمح مطيع * ورسول الحبيب غاد ورائح
ولكم ليلة أتاني بلا طيب ولكن يزري بأذكى الروائح
هو طيبي فليس يحتاج طيبا * قد كفاه عرف من المسك فائح
مثل علياء محمد لم تكن كسبا * ومالا يكون في الطبع فاضح
يا كريما أتى من الجود مالا * كان يدري فوحدته المدائح
وعلا كل ذي علاء وأضحى * نحوه مالا يرومه الناس طامح
قد أتاني احسانك الغمر في اثر سواه فكنت أكمل مادح
فاض بحر النوال منك ولا سا * حل يبدو ولم أزل فيه سابح
حال مثل ما تكون تلك في المد * ح تميت العدا ومال وسائح
أورد الورد منطقي كل شكر * حين أضحى طوع البنان مسامح
لون خد الحبيب حين كسوه * حلة الحسن بالعيون اللوامح
شفق سال بين عينيه صبح * حسنه قيد اللحاظ السوارح
لم أجد فيه من جماح ولكن شأني عليك مازال جامح
لك يا ابن الحسين ذكر جميل * صير الكل نحو بابك جانح
قد هدى نحوك الثناء كما يهدى الى الروض باسمات النوافح
فاعذر الناس ان أتوا لك أفوا * جا فكل بقصد فضلك رائح
ما هدتهم اليك الا الاماني * لم تحلهم الا عليك القرائح
قل لذي المفخر الحديث تأخر * ليس مهر في شأوه مثل قارح
أي أصل وأي فرع أقاما * شرفا طاول النجوم يناطح
قد حوت مذحج من الفخر لما * كنت منها ما ليس يحويه شارح
أفق مجد قد زانه منك بدر * في ظلام الخطوب مازال لائح
بدر تم حفت به هالة من * بيت مجد علاؤها الدهر واضح
يا سماكا عسكه القلم الاعلى بدا بين أنجم الملك رامح
رفع الله للكتابة قدرا * بعد ما كابدت توالي الفضائح
يا أعز الانام نفسا وأعلا * همم لا زال أمرك راجح
أين أعداؤك الذين رعى سيفك فيهم فأشبهوا قوم صالح
أفسد الدهر حالهم لترى حا * لك رغما بين يناويك طامح
دمت في عزة وسعد مدى الدهر ولا زال طائر منك سانح

وابن عمه المذكور قال في حقه في المغرب ما لخصه انه الرئيس الاعلى ذو الفضائل الجمة أبو عبد الله محمد بن الحسين بن أبي الحسين سعيد بن الحسين بن سعيد بن خلف بن سعيد قال واجتماع نسبنا مع هذا الرئيس في سعيد بن خلف وهو الآن قد اشتمل عليه ملك افريقية اشتمال المقلة على انسانها * وقدمه في مهماته تقديم الصعدة لسنانها * وأقام لنفسه مدينة حذاء حضرة تونس واعتزل فيها بعسكر الاندلس الذين صيرهم الملك

فكتب الى هذه الابيات وكان متمرضا وبعث الى بما يذكر

أكف الصبا احفت جنى زهر الربى * سؤالك عن مضنى يساميك الزهرا
بعثت بمثل الزهر فى مثل صفحة * لذلك ما قلدتها الشذر والدرا
معان لها أعنو وأعنى باحكم * وقفت عليها العين والسمع والفكرا
فلو عرضت للبحر لم يلفظ الدرا * ولو عارضت هاروت لم ينفث السحرا
أبا حسن هبت ما قد منحته * ضروبا من الآداب تحلى بها الدهرا
ودونك بحرا من ودادى تلاطمت * به زاخرات المد لا يعرف الجزرا
فان خطرت فى جانب منك هفوة * فلا تحسبن انى أضيق بها صدرا
يزل جواد عندما يبلغ المدى * ويعثر بالرمث النسيم اذا أسرى
فدع ذا وخذها شائمات كرومها * عروبا لعوبا جائزا حكمها بكرا
ولو غادرت أوصافها متردما * لشيدت من أشعارها اذن الشعرا
ألا فاجتنها عن صديق مصمم * فان قصارى العمر أن يبكى العمرا
ومن كان ذا حجر ونبل ورقة * فلا يحملون الا على الحمرة الحمرا
قرنت بها صفراء لم تعرف الهوى * ولا ألفت وصلا ولا عرفت هجرا
ولا ضمنت نفح العبير وان غدت * توجره لونا وتفضحه نشرا
فان خلتها بنت الطليم أطلها * فقد فرش الاذحى من تحتها تبرا
لها نسب بين الثريا والثرى * وسل بربا ها المزن والغصن النضرا
فشربادها فا وانتشاقا ولا ترم * عن البيت فترا أو تقيم به شهرا

وله فى الخشكلان

هو الاهلة لكن * تدعونه خشكلانا
فان تماءات صحف * تجد جميلك لانا

انتهى باختصار

وحظى المذكور جدا عند السلطان ملك افريقية أبى زكريا يحيى بن عبد الواحد بن أبى حفص ولما مات السلطان المذكور وحدثت فتنة بموته واختلاف ثم استقرت الدولة لابنه الشهير الكبير القدر أبى عبد الله المستنصر محمد وحجبه بالمقصورة وقاتل ابن الابار القضاعى سخط على الرئيس ابن الحسين المذكور وقبض على دياره وأمواله وصيره كالمحبوس فكتب اليه رقعة يطلب الاجتماع به فى مصلحة للدولة فاحضره وسأله فأخبره بأن أباه صنع دارا عظيمة تحت الارض وأودع فيها من أنواع المال والسلاح ما جعله عدة وذخيرة لسلطانه ولم يترك على وجه الارض من له علم بهذا الموضع الذى أودعه نفائس أمواله غيرى وأوصانى انه اذا انتقل الى جوار ربه اذ توقع أن تقع فتنة بين أقاربه انه اذا انقضت سنة واستقر الامر لاحد من ولدى أو من يتيقن انه يصلح لامور المسلمين وأطلعه على هذه الذخائر ربما فنيت الاموال بالفتنة فلا يجد القائم بالامر ما يصلح به الدولة اذا تفرغ للتدبير والسياسة ففرح السلطان وبادر الى تلك الدار فرأى ما ملأ عينه وسر قلبه وخرج الرئيس ابن الحسين والخيل تجنب امامه وبدر الاموال بين يديه وأعاده الى أحسن

فاذا رأيته فعل ذلك فانزعه من عنقك وقبله وقل له هذا هدية مني اليك لانه من آدابنا مع ملوكنا أن كل ما وقع نظر الملك عليه وعاود النظر اليه بالقصد فلا بد أن يكون له ويحرم علينا أن نمسكه لان ما أحبه المولى على العبيد حرام وتكرار النظر اليه دليل على حبه له ففرح النصراني بذلك وأسرع الرسول العود الى سلطانه فسل النصراني السيف فتمكن فيه السم بالنظر ومات في الحين وفرج الله تعالى عن المسلمين *(رجع) الى أخبار أبي الحسن علي بن سعيد قال ابن العديم في تاريخ حلب أنشد في شرف الدين أبو العباس أحمد بن يوسف التيفاشي بالقاهرة في أبي الحسن علي بن موسى بن سعيد الغرناطي يشير الى كتاب أبي الحسن الذي جمعه في محاسن المغرب وسماه المغرب

سعد الغرب وازدهى الشرق عجبا * وابتهاجا بمغرب ابن سعيد
طلعت شمسه من الغرب تجلى * وأقامت قيامة التقييد
لم يدع للمؤرخين مقالا * لا ولا للرواة بيت نشيد
ان تلاه على الحمام تغنت * ما على ذا في حسنه من مزيد

وأنشد أبو العباس التيفاشي لنفسه فيه

يا طيب الاصل والفرع الزكي كما * يبدو جنى ثمر من أطيب الشجر
ومن خلائقه مثل النسيم اذا * يهفو على الزهر حول النهر في السحر
ومن محياه والله الشهيد اذا * يبدو الى بصري أبهى من القمر
أثقلت ظهري ببر لا أقوم به * لو كنت أتلوه قرآنا مع السور
أهديت للغرب مجموعا بعالمه * في قاب قوسين بين السمع والبصر
كأنني الآن قد شاهدت أجمعه * بكل من فيه من بدو ومن حضر
نعم ولاقيت أهل الفضل كلهم * في مدتي هذه والاعصر الاخر
ان كنت لم أرهم في الصدر من عمري * فقد رددت على الصدر من عمري
وكنت لي واحدا فيهم جميعهم * ما يعجز الله جمع الخلق في بشر
جزيت أفضل ما يجزى به بشر * مفيد عمر جديد الفضل مبتكر انتهى

ومن نظم أبي الحسن بن سعيد قوله

وعشية بلغت بنا أيدي النوى * منها محاسن جامعات للعجب
فحدائق ما بينهن جداول * وبلابل فوق الغصون لها طرب
والنخل أمثال العرائس لبسها * حرو حليتها قلائد من ذهب

ومن نظمه رحمه الله تعالى في حلب قوله

حادي العيس كم تنيخ المطايا * سق فروحي من بعدهم في سياق
حلب انها مقر غرامي * ومرامي وقبلة الاشواق
لا خلا جوسق وبطياس والسعـ * ـدى من كل وابل غيداق
كم بها مرتع لطرف وقلب * فيه يسقى المنى بكاس دهاق
وتغني طيوره لارتياح * وتثني غصونه للعناق

أحد الاسلم من اعتراض الناس على أى حالة كان اعتراضهم انتهى وقال فى أثناء خطبة المغرب مانصه والحمد لله الذى جعل الادب أفضل ما اكتسب وأفضل ما انتحب اذ هو ذخر لا يخاف كساده وكنز لا يخشى انتقاصه وان كثر من تاده ولله در القائل

رأيت جميع الكسب يفقده الفتى * ويبقى له أخلاقه والتأدب
اذا حل فى أرض أقام لنفسه * بآدابه قدرا به يتكسب
وأومأ كل نحوه واعتلى له * الى غير أهل للنباهة ينسب

وقال فى أثناء الكلام لبعض المغاربة

فأنت فى كل المواطن همة * الى طلب العلم الذى كان مطرح
وصيرت من قد كان بالنظم جاهلا * يحاوله كيما يجود لك المدح

وقال أيضا فى الخطبة وبعد فهذا كتاب راحة قد تعبت فى جمعه الاسماع والابصار والافكار وكل عن سهل اذا أنجح القصد وقد دئ فيه من سنة ثلاثين وخمسمائة ومنتهاه الى غرة سنة احدى وأربعين وستمائة قال وأول من كان السبب فى ابتداء هذا الكتاب جد والدى عبد الملك بن سعيد وهو اذ ذاك صاحب قلعة بنى سعيد تحت طاعة على ابن يوسف بن تاشفين أمير المسلمين ملك البربر الى أن استبد بها سنة تسع وثلاثين وخمسمائة وقصده فى سنة ثلاثين وخمسمائة حافظ الاندلس أبو محمد عبد الله بن ابراهيم بن الحجارى وصنف له كتاب المسهب فى غرائب المغرب فى نحو ستة أسفار وابتدأ فيه من فتح الاندلس الى التاريخ الذى ابتدأ فيه وهو سنة ثلاثين وخمسمائة ثم ثار فى خاطر عبد الملك أن يضيف اليه ما أغفله الحجارى وتوابع عطا لعنته ابناه أبو جعفر ومحمد وأضافاه ما استمداه ولم يزل يريد الى أن استبد به محمد فاعتنى به أشد اعتناء ثم استبد به والدى وكان أعلمهم بهذا الشان وبلغ من اجتهاده فى هذا الكتاب أنى أذكره يوما وقد نزل بها ابن هود وهو ملك الاندلس وولاه الجزيرة الخضراء وأعلمه شخص ان عند أحد المسوبين الى بيت نباهة كراريس من شعر شعرائها وأخبار رؤسائها الذين تحتوى عليهم دولة بنى عبد المؤمن فأرسل اليه راغبا فى استعارتها فأبى وقال على يمين أن لا تخرج عن منزلى وقال ان كانت له حاجة يأتى على رأسه وكان جاهلا فلما سمع والدى ضحك وقال لى سر معى اليه فقلت له ومن يكون هذا حتى تمشى له على هذه الصورة فقال انى لا أمشى له ولكن أمشى للفضلاء الذين تضمنت الكراريس أشعارهم وأخبارهم أتراهم لو كانوا أحياء مجتمعين فى موضع أنفت أن أمشى اليهم قلت لا قال فإن الاثر ينوب عن العين فمشينا الى منزل الرجل فوالله ما أنصفنا فى اللقاء فلما قضينا منها الغرض صرفها اليه والدى وشكره وقال هذه فائدة لم أجدها عند غيرك جزاك الله تعالى خيرا ثم انفصل وقال ألم تعلم يا بنى انى سررت بهذه الفائدة أكثر من الولاية وان هذا والله أول السعادة وعنوان نجاحها والقلعة التى كان بها بنو سعيد تعرف بهم فيقال لها قلعة بنى سعيد وكانت تعرف قبل بقلعة اسطلير وهو عين لها وقال الملاحى فى تاريخه انها تعرف بقلعة يحصب قيل من اليمن نزل بها عند فتح الاندلس

ومما كان من جمع الحجاري كتاب المسهب لصاحبه عبد الملك بن سعيد وفي سعيد قول الحجاري

يوم الهم في مقرهم * شرف المجد مع القدم
ورثوا الندى والباس والعلياء كابرا عن كرم
من كل وضاح به * يجلى دجى الليل البهيم

وكان أول من دخل الأندلس من ولد عمار بن ياسر رضي الله تعالى عنه عبد الله بن سعد ابن عمار وقد ذكر ابن حيان في مقتبسه واخبر أن يوسف بن عبد الرحمن الفهري صاحب الأندلس آخر دولة بني أمية بالمشرق كتب اليه أن يدافع عبد الرحمن بن معاوية المرواني الداخل للأندلس وكان اذذاك أميرا على اليمانية من جند دمشق واعنا وكان الذي ضار به عبد الرحمن للناس بني عمار بن ياسر أنه من الثار بسبب قتل عمار بصفين على يد عسكر معاوية رضي الله تعالى عنه وكان عمار من شيعة علي رضي الله تعالى عنهما وقال الحجاري أنشدني أبو بكر بن محمد بن سعيد صاحب أعمال غرناطة في مدة الملثمين لنفسه مما يلوي بنفسه

إن لم أكن للعلا أهلا * فما أراني أكون
وكل ما أبتغيه دوني * ولي على همتي ديون
وإن يرم ما أصل عنه * فذاك من فعله جنون
فرع أبي السماء سام * وأصله راسخ مكين

ومن نظمه قوله أيضا

الله يعلم أني * أحب كسب المعالي
وإنما أتوانى * عنها لسوء المآل
فصاح للكد والبذ * ل واصطلاء الرحال
دع كل من شاء يسمو * لها بكل احتيال
فما لهم بانتكاس * فيها وما لي مالي

ولما ذكر ابن سعيد في المغرب ترجمة الكاتب الرئيس المجيد أبي العباس أحمد الغساني كتب على طرته قال عاد أتممه ولو أن العمر يصرم بنا لما كتب أتممه وكمال أبي اشرف الفضلاء من البحر المحيط الى حضرة القاهرة فما رأيت أحسن ولا أفضل عشرة منه ولما فارقته لم أشعر إلا برسالة وردت علي بالإسكندرية من تونس وفيها قصيدة بديعة منها

إنه أبا الحسن اسمع سيدي نفد * تصغي الحمام إذا الحمام رعا

ثم سرد تمام القصيدة وسيأتي ان شاء الله تعالى زيادة على ما ذكرتم الى المغرب
(رجع) وجد بخطه رحمه الله تعالى آخر الجزء من كتاب المغرب ما نصه أخبرني الشيخ الفاضل الأجل أبا الفضل أحمد بن الشيخ القاضي أبي يعقوب التيفاشي أن روى عني مصنفي هذا وهو المغرب في محاسن المغرب وروايته من شاء فهمه واستيفائه الى غاية

وكذلك أجزت لفتاه النبيه جمال الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن خطلخ الفارسي الارموي أن يرويه عني ويرويه من شاء وكتبه مصنفه علي بن موسى بن محمد بن عبد الملك ابن سعيد في تاريخ الفراغ من نسخ هذا السفر انتهى وقال في وسيم من أبناء العجم صحبه في الطريق من حلب الى بغداد فمات وكان طريفا أديبا

لهفي على غصن ذوى * أفقدته لما استوى
ريان من ماء الصبا * ومن المدامع ما ارتوى
لا تعذلوني ان نطقت * الدهر فيه عن الهوى
كم ضل صاحبه بسحر اللحظ منه وكم غوى
أما لا أفيق الدهر فيه * من الصبابة والجوى
ان الهوى حيا وميتا لا يزال به سوى
كم قد نويت به النعيم * فقدر الله النوى
دار السلام حويت من * كل المحاسن قد حوى
مجموع حسن قد ثوى * في جنة وبها ثوى

وولد أبو الحسن علي بن موسى بن محمد يوم الثلاثاء الثاني والعشرين من شهر رمضان عام عشرة وستمائة وهو علي بن موسى بن محمد بن عبد الملك بن سعيد بن خلف بن سعيد ابن محمد بن عبد الله بن سعيد بن الحسن بن عثمان بن محمد بن عبد الله بن سعيد بن عمار ابن ياسر رضي الله تعالى عنه وقال في المغرب لما عرف بوالده الكاتب الشهير أبي عمران موسى بن محمد بن عبد الملك بن سعيد ما لخصه لولا أنه والدي لأطنبت في ذكره ووفيته من الوصف حق قدره لكن كفاه وصفا ما أثبت له في هذه الترجمة وما مر له ويمر في أثناء هذا الكتاب وكون كل من اشتغل بهذا التأليف نهرا وهو بحر واشتهاره في حفظه التاريخ والاعتناء بالآداب في بلاده بحيث لا يحتاج الى تنبيه ولا اطناب وله من النظم والنثر ما تضج الاقلام من كثرته ويستمد القطر من درته ومما شاهدت من عجائبه أنه عاش سبعا وستين سنة ولم أره يوما تخلى عن مطالعة كتاب أو كتب ما يخلده حتى ان أيام الاعياد لا يخليها من ذلك ولقد دخلت عليه في يوم عيد وهو في جهد عظيم من الكتب فقلت له يا سيدي أفي هذا اليوم لا تستريح فنظر الي كالمغضب وقال أظنك لا تفلح أبدا أترى الراحة في غير هذا والله لا أحسب راحة تبلغ مبلغها ولوددت ان الله تعالى يضاعف عمري حتى أتم كتاب المغرب على غرضي قال فأثار ذلك في خاطري أن صرت مثله لا ألتذ بنعيم غير ما ألتذ به من هذا الشان ولولا ذلك ما بلغ هذا التأليف الى ما تراه وكان أولع الناس بالتجول في البلدان ومشاهدة الفضلاء واستفادة ما يرى وما يسمع وفي تولعه بالتقييد والمطالعة للكتب يقول

يا مصيبا عمره في الكاس والوتر * وراعيا في الدجى للانجم الزهر
يبكي حبيبا جفاه أو ينادم من * يهواه لديه كغصن باسم الزهر
منعما بين لذات يحققها * ولا يخلد من خبر ولا سير

وعاد لائى فى ماطلبت أكتبه * يبدى العجب من صبرى ومن مكرى
سوال مالا مـد أصبت عزلى * حبر وطرس عن الاغصان والطر
وطلب سهر وطول الليل فى تعب * ولا ى أمد الايام فى قصر
أتصرفانى أدرى بالذى طمعت * لامه همى واسال عن الاثر
واسمع لقول الذى بلى محاسنه * من بعد ماصار مثل الترب كالـدر
جمال ذى الارض كانوا فى الحياة وهم * بعد الممات جمال الكتب والسير انتهى

وولد ابو عمران موسى بن محمد فى الخامس من رجب عام ثلاثة وستين وخمسمائة وتوفى بثغر الاسكندرية يوم الاثنين الثامن من شوال عام أربعين وستمائة وولد ابو محمد بن عبد الملك صاحب أعمال غرناطة وأعمال اشبيلية عام أربعة عشر وخمسمائة وتوفى بشعبان عام سبعة وتسعين وخمسمائة بغرناطة وكان محمد بن عبد الملك وزيرا جليلا بعيد الصيت عالى الذكر واسع الهمة كثير الاموال وذكر ابن صاحب الصلاة فى كتابه تاريخ الموحدين ونبه على مكانته منهم فى الحظوة والاخذ فى امور الناس وأثنى عليه وذكر السهيلى فى شرح السيرة انه حين ذكر الكتاب الواصل من رسول الله صلى الله عليه وسلم الى هرقل وأن محمد بن عبد الملك عاينه عند أذفونش مكرما مضمرا به والقصة مشهورة ومدحه الرصافى بقصيدة أولها

دعها تقص وخاطرا مسهدا * ماذا عسى تثنى على علم الهدى

ولما أنشد قصيدته فيه التى أولها

لك الترفيع والتعظيم * ولوجهك التقديس والتكريم

قال لا تسمعها وقال على انا رجل ولكن طباعى لا تحتمل مثل هذا فسأل له الرصافى من مثل بنت هذا فى الوصف عزله فقال له دعنى من هذا على أنا وما اعليه من طى وأنشد له فى الطابع السعد

فلا تظهرن ما كان فى الصدر كامنا * ولا تركبن بالغيظ فى مركب وعر
ولا تعتبن فى غدر من خان ماسا * فليس كريما من يعاتب فى الغدر

وولى للموحدين أعمال الكبرى عرا كثيرا وسلا واشبيلية وغرناطة واتصلت ولايته على أعمال غرناطة وكان من شيوخها اعواما وكتب عليه عنده ان فى داره من الحلى واصنافه مالا يكون الا فى دار الملك وانه ادرك فى فلا الضمير فوقع عليه تاج الكلاب فأمر المنصور بالقبض عليه وعلى ابن عمه صاحب أعمال اوريسه أبى الحسن سنة ٥٩٣ م رضى عنهما وأمر محمد بن عبد الملك أن يكتب بخطه كلما أخذ منه فصيره عليه ولم ينقص منه شيئا وعزم له ما فات منه وهذا يدل على ان سعد محمد بن عبد الملك المذكور وساقه بدره وحسنه من الشعر مدح اديب الاندلس وشاعرها ابى عبد الله الرصافى له وهو من مدح الخلفاء فى ذلك العصر رحمه الله تعالى وولد ابو عبد الملك بن سعيد عام ستة وتسعين وأربعمائة وتوفى بحضرة مراكش عام اثنين وستين وخمسمائة قال الحجارى لما مات على ابن عايشة الملثم ملك الاندلس بحضرة غرناطة وكان وزيرا ومدبر دولته عبد الملك بن سعيد

بادر الفرار الى غرناطة عند ما سمع عوته الى قلعته وثار بهما وطلبه خليفة يحيى بن غانية طلحة بن
العنبر فوجده قد فاته وقد قدمنا أن عبد الملك هذا هو السبب في تأليف كتاب المغرب
في أخبار المغرب ثم تممه ابنه محمد بن عبد الملك ثم تمم ما بقي منه ابنه موسى بن محمد ثم أربى
على الكل في اتمامه أبو الحسن علي بن موسى الذي قصدناه بالترجمة في هذا الكتاب
وقد ذكرنا من أحواله جملة كافية ومن فوائد ابن سعيد أبي الحسن ما حكاه عن صاحب
كتاب الكمائم وهو فأما فسطاط مصر فان مبانيها كانت في القديم متصلة بمباني مدينة
عين شمس وجاء الاسلام وبها بناء يعرف بالقصر حوله مساكن وهو الذي عليه نزل عمرو بن
العاص وضرب فسطاطه حيث المسجد الجامع المنسوب اليه ثم لما فتحها قسم المنازل
على القبائل ونسب المدينة اليه فقيل فسطاط عمرو وتداولت عليها بعد ذلك ولاة مصر
فاتخذوها سرير السلطنة وتضاعفت عمارتها وأقبل الناس من كل جانب اليها وقصروا
أمانيهم عليها الى أن رسخت بها دولة بني طولون فبنوا الى جانبها المنازل المعروفة
بالقطائع وبها كان مسجد ابن طولون الذي هو الآن الى جانب القاهرة وهي مدينة
مستطيلة يمر النيل مع طولها وتحط في ساحلها المراكب الآتية من شمال النيل وجنوبه
بأنواع الفوائد وبها متنزهات وهي في الاقليم الثالث ولا ينزل فيها مطر الا في النادر وترابها
ينتن الارجل وهو قبيح اللون تستكدر منه ارجاؤها ويسوء بسببه هواؤها ولها
أسواق ضخمة الا أنها ضيقة ومبانيها بالقصب والطوب طبقة على طبقة ومذ بنيت
القاهرة ضعفت مدينة الفسطاط وفرط في الاعتناء بها بعد الافراط وبينهما نحو ميلين
وأنشدت فيها للشريف العقيلي

أحن الى الفسطاط شوقا واننى * لأدعو لها أن لا يحل بها القطر
وهل في الحيا من حاجة لجنابها * وفي كل قطر من جوانبها نهر
تبدت عروسا والمقطم تاجها * ومن نيلها عقد كما انتظم الدر

وقال عن كتاب اجار الفسطاط هو قصبة مصر والجبل المقطم شرقيها وهو متصل بجبل
الزمرد وقال عن كتاب ابن حوقل الفسطاط مدينة عظيمة ينقسم النيل لديها وهي كبيرة
ومقدارها نحو فرسخ على غاية العمارة والطيب واللذة ذات رحاب في محالها وأسواق
عظام فيها ضيق ومتاجر فخام ولها ظاهر أنيق وبساتين نضرة ومتنزهات على ممر الايام
خضرة وفي الفسطاط قبائل وخطط للعرب تنسب اليها كالكوفة والبصرة الا انها أقل من
ذلك وهي سبخة الارض غير نقية التربة وتكون الدار بها سبع طبقات وخمسا وستا
وربما يسكن في الدار المائتان من الناس ومعظم بنائهم بالطوب وأسفل دورهم غير مسكون
وبها مسجدان للجمعة بنى أحدهما عمرو بن العاص في وسط الفسطاط والآخر على
الموقف بناه ابن طولون وكان خارج الفسطاط أبنية بناها أحمد بن طولون ميلا في ميل
يسكنها جنده وتعرف بالقطائع كما بنى بنو الاغلب خارج القيروان رقادة وقد خربتا في وقتنا
هذا وأخلف الله بدل القطائع بظاهر مدينة الفسطاط القاهرة قال ابن سعيد ولما استقررت
بالقاهرة تشوقت الى معاينة الفسطاط فسار معي اليها أحد أصحاب القرية فرأيت عند

فات روّ الله من الجيزة إلى ركوب من يسير إلى الفسطاط فلقيت عظمة لا عهد لي بمثلها في بلد
وركبت فيها حمارا وأشار إلى أن أركب حمارا آخر فأبيت من ذلك جريا على عادة
ما خلفته في بلاد المغرب فأخبرني أنه غير معيب على أعيان مصر وعاينت الفقهاء وأصحاب
البز والشارة الظاهرة يركبونها فركبت وعندما استويت راكبا أشار المكاري إلى الحمار
فطار بي وأثار من الغبار الأسود ما أعمى عيني ودنس ثيابي وعانيت ما كرهته ولقلة معرفتي
بركوب الحمار وشدة عدوه على قانون لم أعهده وقلة رفق المكاري وقفت في تلك الظلمة المثارة
من ذلك العجاج فقلت

لقيت بمصر أشد البوار • ركوب الحمار وكحل الغبار
وخلفي مكار يفوق الرياح • لا يعرف الرفق مهما استطار
أناديه مهلا فلا يرعوي • إلى أن سجدت سجود العثار
وقد مد فوقي رواق الثرى • وألحد فيه ضياء النهار

فدفعت إلى المكاري أجرته وقلت له إحسانك أن تتركني أمشي على رجلي ومشيت إلى أن
بلغتها ووقفت في الطريق بين الفسطاط والقاهرة وحققت بعد ذلك عقوبتي ولما أقبلت
على الفسطاط أدبرت عني المسرة وتأملت أسوارا مثلمة سودا وآفاقا مغبرة ودخلت من
بابها وهو دون غلق مفض إلى خراب مغمور بعمارة مستحدثة الوضع غير مستقيمة الشوارع
قد بنيت من الطوب الأدكن والقصب والنخل طبقة فوق طبقة وحول أبوابها من التراب
الأسود والأزبال ما يقبض نفس النظيف ويغض طرف الطرف فسرت وأنا معاين
لاستصحاب تلك الحال إلى أن صرت في أسواقها الضيقة فقاسيت من ازدحام الناس فيها
لحوائج السوق والروايا التي على الجمال ما لا يفي به إلا مشاهدته ومقاساته إلى أن انتهيت
إلى المسجد الجامع فعاينت من ضيق الأسواق التي حوله ما ذكرته متقدما في جامع إشبيلية
وجامع مراكش ثم دخلت إليه فعاينت جامعا كبيرا قديم البناء غير مزخرف ولا
محتفل في حصره التي تدور مع بعض حيطانه وتبسط فيه وأبصرت العامة رجالا ونساء قد
جعلوا صحنه معبرا بأوطئة أقدامهم يجوزون فيه من باب إلى باب ليقرب عليهم الطريق والباعة
يبيعون فيه أصناف المكسرات والكعك وما سوى ذلك والناس يأكلون في عدة أمكنة
منه غير محتشمين لجري العادة عندهم بذلك وعدة صبيان بأواني ماء يطوفون على كل من
يأكل قد جعلوا ما يحصل لهم من رزقهم وفضلات ما يأكلون مطروحة في صحن الجامع
وفي زواياه والعنكبوت قد عظم نسجه في السقف والأركان والحيطان والصبيان يلعبون
في صحنه وحيطانه مكتوبة بالفحم والحمرة بخطوط قبيحة مختلفة من كتب فقراء العامة إلا أن
مع ذلك على الجامع المذكور من الرونق وحسن القبول وانبساط النفس ما لا تجده
في جامع إشبيلية مع زخرفته والبستان الذي في صحنه ولقد تأملت ما وجدت فيه من
الارتياح والأنس دون منظر يوجب ذلك فعلمت أن ذلك سر مودع من وقوف الصحابة رضي
الله تعالى عنهم في ساحته عند بنائه واستحسنت ما أبصرته فيه من حلق المتصدرين لإقراء القرآن
والفقه والنحو في عدة أماكن وسألت عن موارد أرزاقهم فأخبرت أنها من فروض

الزكاة

الزكاة وما أشبه ذلك ثم أخبرت أن اقتضاء ذلك يصعب الا بالجاه والتعب ثم انفصلنا من هنالك الى ساحل النيل فرأيت ساحلا كدر التربة غير نظيف ولا متسع الساحة ولا مستقيم الاستطالة ولا عليه سور أبيض الا أنه مع ذلك كثير العمارة بالمراكب وأصناف الارزاق التي تصل من جميع أقطار النيل ولئن قلت أني لم أبصر على نهر ما أبصرته على ذلك الساحل فاني أقول حقا والنيل هنالك ضيق لكون الجزيرة التي بنى فيها سلطان الديار المصرية الآن قلعة قد توسطت الماء ومالت الى جهة الفسطاط وبحسن سورها الابيض الشامخ حسن منظر الفرجة في ذلك الساحل وقد ذكر ابن حوقل الجسر الذي يكون ممتدا من الفسطاط الى الجزيرة وهو غير طويل ومن الجانب الآخر الى البر الغربي المعروف ببر الجيزة جسر آخر من الجزيرة اليه وأكثر جواز الناس بأنفسهم ودوابهم في المراكب لان هذين الجسرين قد احترما بحصولهما في حيز قلعة السلطان ولا يجوز أحد على الجسر الذي بين الفسطاط والجزيرة راكبا احتراما لموضع السلطان وبتنا في ليلة ذلك اليوم بطيارة مرتفعة على جانب النيل فقلت

نزلنا من الفسطاط أحسن منزل * بحيث امتداد النيل قد دار كالعقد
وقد جمعت فيه المراكب سحرة * كسرب قطا أضحى يرف على ورد
وأصبح يطفو الموج فيه ويرتمي * ويطرب أحيانا ويلعب بالنرد
حلا ماؤه كالريق ممن أحبه * فمدت عليه حلية من حلى الخد
وقد كان مثل الهجر من قبل مده * فأصبح لما زاده المد كالورد

وقلت هذا لاني لم أذق في المياه أحلى من مائه وأنه يكون قبل المد الذي يزيد به ويفيض على أقطاره أبيض فاذا كان عباب النيل صار أحمر وأنشدني علم الدين فخر الترك أيدمر عتيق وزير الجزيرة في مدح الفسطاط

حبذا الفسطاط من والدة * جنبت أولادها در الجفا
يرد النيل اليها كدرا * فاذا مازج أهليها صفا
لطفوا فالمزن لا تألفهم * خجلا لما رأتهم ألطفا

ولم أر في أهل البلاد ألطف من أهل الفسطاط حتى انهم ألطف من أهل القاهرة وبينهما نحو ميلين والحاصل ان أهل الفسطاط في نهاية من اللطافة واللين في الكلام وتحت ذلك من الملق وقلة المبالاة ورعاية قدر الصحبة وكثرة الممازحة والالفة ما يطول ذكره وأما ما يرد على الفسطاط من متاجر البحر الاسكندراني والبحر الحجازي فانه فوق ما يوصف وبه مجمع ذلك لا بالقاهرة ومنها يجهز الى القاهرة وسائر البلاد وبالفسطاط مطابخ السكر والصابون ومعظم ما يجري هذا المجرى لان القاهرة بنيت للاختصاص بالجند كما أن جميع زي الجند بالقاهرة أعظم منه بالفسطاط وكذلك ما ينسج ويصاغ وسائر ما يعمل من الاشياء الرفيعة السلطانية والخراب في الفسطاط كثير والقاهرة أجد وأعمر وأكثر زحمة باعتبار انتقال السلطان اليها وسكنى الاجناد فيها وقد نفخ روح الاعتناء والنمو في مدينة الفسطاط الآن لمجاورتها للجزيرة الصالحية وكثير من الجند قد انتقل اليها للقرب من الخدمة وبنى على

نورها جامعة منهم ناظر بهج الناظر انتهى قال المقريزي يعني ابن سعيد دخلت على مدينة مصر من جهة النيل انتهى وقال ابن سعيد المذكور في المغرب من حلى المغرب والجزيرة الروضة أمام الفسطاط فيما بينها وبين مناظر الجزيرة وبها مقياس النيل وكانت منتزها لأهل مصر فاختارها الملك الصالح ابن الملك الكامل سرير السلطنة وبنى فيها قلعة مسورة بسور ساطع اللون محكم البناء عالي السمك لم تر عيني أحسن منه وفي هذه الجزيرة كان الهودج الذي بناه الخليفة الآمر لزوجته البدوية التي هام في حبها والمختار بستان الإخشيد وقصره وله ذكر في شعر تميم بن المعز وغيره وللشعراء مصر في هذه الجزيرة أشعار منها قول أبي الفتح بن قادوس الدمياطي

أرى سرح الجزيرة من بعيد * كأحداق تغازل في المغازل
كأن مجرة الجوزاء خطت * وأثبتت المنازل في المنازل

قال وكنت أبيت بعض الليالي بالفسطاط فيزدهيني ضحك البدر في وجه النيل مع سور هذه الجزيرة الدري اللون ولم أنفصل عن مصر حتى كمل سور هذه القلعة وفي داخله من الدور السلطانية ما ارتفعت الهمة في بنائه وهو من أعظم السلاطين في البناء وأبصرت في هذه الجزيرة إيوانا للجلوس لم تر عيني مثاله ولا أقدر ما أنفق عليه وفيه من صفائح الذهب والرخام الآبنوسي والكافوري والمجزع ما يذهل الأفكار ويستوقف الأبصار ويفضل عما أحاط به السور أرض طويلة في بعضها بستان ينظر به أصناف الوحوش التي يتفرج عليها السلطان وبعدها مروج تقطع فيها النيل فتنظر بها أحسن منظر قال وقد تفرجت كثيرا في طرف هذه الجزيرة مما يلي بر الفسطاط فقطعت به عشيات مذهبات لم تزل لأحزان الغربة مذهبات وإذا زاد النيل فصل ربعها عن بر الفسطاط من جهة خليج القاهرة وبنى وضع الجسر يكون فيه المراكب انتهى وأورد الصفدي في تذكرته لابن سعيد المذكور في هذه الجزيرة

انظر إلى سور الجزيرة في الدجى * والبدر يلثم منه ثغرا أشنبا
تتضاحك الأنوار في جنباته * فتريك وجه النيل أصبح معجبا
يا ليلة قضيتها في جانب * أبصرت منه في سوا مذهبا
لله من رأى ما رآه ناظري * إلا تمنى له المقام تطربا

وقال في المغرب نقلا عن بعضهم ما صورته وأما مدينة القاهرة فهي الخالدة الباهرة التي تفنن فيها الفاطميون وأبدعوا في بنائها واتخذوها وطنا لخلافتهم ومركزا لأرجائها فنسي الفسطاط وزهد فيه بعد الاغتباط وسميت القاهرة لأنها تقهر من شذ عنها ورام مخالفة أمرها قال ابن سعيد هذه المدينة اسمها أعظم منها وكان ينبغي أن تكون في ترتيبها ومبانيها على خلاف ما عاينته لأنها مدينة بناها المعز أعظم خلفاء العبيديين وكان سلطانه قد عم جميع طول المغرب من أول الديار المصرية إلى البحر المحيط

وسارت مسير الشمس في كل بلدة * وهبت هبوب الريح في البر والبحر

لا سيما وقد عاين مباني أبيه المنصور في مدينة المنصورية إلى جانب القيروان وعاين المهدية

مدينة جددها عبيد الله المهدي لكن الهمة السلطانية ظاهرة على قصور الخلفاء بالقاهرة وهي ناطقة الى الآن بألسن الآثار ولله در القائل

همم الملوك اذا أرادوا ذكرها * من بعدهم فبألسن البنيان
ان البناء اذا تعاظم شأنه * أضحى يدل على عظيم الشان

وتهمم من بعده الخلفاء المصريون في الزيادة في تلك القصور وقد عاينت فيها ايوانا يقولون انه بني قدر ايوان كسرى الذي بالمدائن وكان يجلس فيها خلفاؤهم ولهم على الخليج الذي بين الفسطاط والقاهرة مبان عظيمة جليلة الآثار وأبصرت في قصورهم حيطانا عليها طاقات عديدة من الكلس والجبس ذكر لي أنهم كانوا يجددون تبييضها في كل سنة والمكان المعروف بالقاهرة ببين القصرين هو من الترتيب السلطاني لان هنالك ساحة متسعة للعسكر والمتفرجين ما بين القصرين ولو كانت القاهرة كلها كذلك كانت عظيمة القدر كاملة الهمة السلطانية ولكن ذلك أمد قليل ثم تسير منه الى أمد ضيق وتمر في ممر كدر حرج بين الدكاكين اذا ازدحمت فيه الخيل مع الرجالة كان مما يضيق به الصدور وتسخن منه العيون ولقد عاينت يوما وزير الدولة وبين يديه الامراء وهو في موكب جليل وقد لقي في طريقه عجلة بقر تحمل حجارة وقد سدت جميع الطرق بين يدي الدكاكين ووقف الوزير وعظم الازدحام وكان في موضع طباخين والدخان في وجه الوزير وعلى ثيابه وقد كاد يهلك المشاة وكدت أهلك في جملتهم وأكثر دروب القاهرة ضيقة مظلمة كثيرة التراب والازبال والمباني عليها من قصب وطين مرتفعة قد ضيقت مسلك الهواء والضوء بينها ولم أر في جميع بلاد المغرب أسوأ منها حالا في ذلك ولقد كنت اذا مشيت فيها يضيق صدري وتدركني وحشة عظيمة حتى أخرج الى بين القصرين ومن عيوب القاهرة انها في أرض النيل الاعظم ويموت الانسان فيها عطشا لبعدها عن مجرى النيل لئلا يصادرها ويأكل ديارها واذا احتاج الانسان الى فرجة في نيلها مشى في مسافة بعيدة بظاهرها بين المباني التي خارج السور الى موضع يعرف بالمقس وجوها لا يبرح كدرا بما تثيره الارض من التراب الاسود وقد قلت فيها حين أكثر علي رفاقي من الحض على العود فيها

يقولون سافر الى القاهره * ومالي بها راحة ظاهره
زحام وضيق وكرب وما * تثير بها أرجل سائره

وعندما يقبل المسافر عليها يرى سورا أسود كدرا وجوا مغبرا فتنقبض نفسه ويفر انسه وأحسن موضع في ظواهرها للفرجة أرض الطبالة لاسيما أرض القرط والكتان وقلت

سقى الله أرضا كلما زرت روضها * كساها وحلاها بمنظره القرط
تجلت عروسا والمياه عقودها * وفي كل قطر من جوانبها قرط

وفيها الخليج لا يزال يضعف بين خضرتها حتى يصير كما قال الرصافي

ما زالت الامحال تأخذه * حتى غدا كذؤابة النجم

وقلت في نوار الكتان على جانبي الخليج

انظر الى النهر والكتان يرمقه * من جانبيه بأجفان لها حدق
رأته سيفا عليه للصبا شطب * فقابلته بأحداق بها أرق
وأصبحت في يد الارواح تنسجه * حتى غدت حلقا من فوقها حلق
فزرها ووجه الارض متضح * أو عند صفرته ان كنت تغتبق

وأعجبني في ظاهرها بركة الفيل لانها دائرة كالبدر والمناظر فوقها كالنجوم وعادة السلطان أن يركب فيها بالليل وتسرج أصحاب المناظر على قدر هممهم وقدرتهم فيكون لها بذلك منظر عجيب وفي ذلك قلت

انظر الى بركة الفيل التي اكتنفت * بها المناظر كالاهداب للبصر
كأنما هي والابصار ترمقها * كواكب قد أداروها على القمر

ونظرت اليها وقد قابلتها الشمس بالغدو فقلت

انظر الى بركة الفيل التي نحرت * لها الغزالة نحرا من مطالعها
وخل طرفك محفوفا بنعمتها * تهيم وجدا وحبا في بدائعها

والفسطاط أكثر أرزاقا وأرخص أسعارا من القاهرة لقرب النيل من الفسطاط والمراكب التي تصل بالخيرات تحط هناك ويباع ما يصل فيها بالقرب منها وليس يتفق ذلك في ساحل القاهرة لانه بعيد عن المدينة والقاهرة هي أكثر عمارة واحتراما وحشمة من الفسطاط لانها أجل مدارس وأضخم خانات وأعظم ديار السكنى الامراء فيها لانها المخصوصة بالسلطنة لقرب قلعة الجبل منها فأمور السلطنة كلها فيها أيسر وأكثر وبها الطراز وسائر الاشياء التي تتزين بها الرجال والنساء الا أن في هذا الوقت لما اعتنى السلطان ببناء قلعة الجزيرة التي أمام الفسطاط وصيرها سرير السلطنة عظمت عمارة الفسطاط وانتقل اليها كثير من الامراء وضخمت أسواقها وبني فيها السلطان أمام الجسر الذي للجزيرة قيسارية عظيمة نقل اليها من القاهرة سوق الاجناد التي يباع فيها الفراء والجوخ وما أشبه ذلك الى أن قال وهي الآن عظيمة آهلة يجبى اليها من الشرق والغرب والجنوب والشمال ما لا يحيط بعلمه الا خالق الكل جل وعلا وهي مستحسنة للفقير الذي لا يخاف طلب زكاة ولا ترسيما ولا عذابا ولا يطالب برفيق له اذا مات فيقال له ترك عندك مالا فربما سجن في شأنه أو ضرب وعصر والفقير الفرد فيها مستريح من جهة رخص الخبز وكثرته ووجود السماع والفرج في ظواهرها ودواخلها وقلة الاعتراض عليه فيما تذهب اليه نفسه يحكم فيها كيف شاء من رقص في وسط السوق أو تجريد أو سكر من حشيشة أو صحبة مردان وما أشبه ذلك بخلاف غيرها من بلاد المغرب وسائر الفقراء لا يعترضون بالسفر في البحر للاسطول الا المغاربة فذلك وقف عليهم لمعرفتهم بمعاناة الحرب والبحر وقد عم ذلك من يعرف معاناة البحر منهم ومن لا يعرف وهم في القدوم عليها بين حالين ان كان المغربي غنيا طولب بزكاة وضيق عليه وان كان مجردا فقيرا حمل الى السجن حتى يجيء وقت الاسطول وفي القاهرة أزقة كثيرة ضيقة قليلة الاتساع وهذا البنيان في الديار المصرية متصل كثيرا من البلاد وفي اختراع الترجيس والورد فيها أدركت

من فضل النرجس وهو الذى * يرضى بحكم الورد اذ يرأس
أما ترى الورد غدا قاعدا * وقام فى خدمته النرجس

وأكثر مافيها من الثمرات والفواكه الرمان والموز أما التفاح والاجاص فقليل غال وكذلك الخوخ وفيها الورد والنرجس والنسرين والنيلوفر والبنفسج والياسمين والليمون الاخضر والاصفر وأما العنب والتين فقليل غال ولكثرة ما يعصرون العنب فى أرياف النيل لا يصل منه الا القليل ومع هذا فشرابه عندهم فى غاية الغلاء وعامتها يشربون المزر الابيض المتخذ من الحنطة حتى ان الحنطة يطلع سعرها بسبب ذلك فينادى المنادى من قبل الوالى بقطعه وكسر أوانيه ولا ينكر فيها اظهار أوانى الخمر ولا آلات الطرب ذوات الاوتار ولا تبرج النساء العواهر ولا غير ذلك مما ينكر فى غيرها من بلاد المغرب وقد دخلت فى الخليج الذى بين القاهرة ومصر وتعظم عمارته فيما يلى القاهرة فرأيت فيه من ذلك العجائب وربما وقع فيه قتل بسبب السكر فيمنع فيه الشرب وذلك فى بعض الاحيان وهو ضيق عليه من الجهتين مناظر كثيرة العمارة بعالم التهكم والطرب والمخالفة حتى ان المحتشمين والرؤساء لا يجيزون العبور به فى مركب وللسرج فى جانبيه بالليل منظر وكثيرا ما يتفرج فيه أهل الستر فى الليل وفى ذلك أقول

لا تركبن فى خليج مصر * الا اذا أسدل الظلام
فقد علمت الذى عليه * من عالم كلهم طغام
صفان للحرب قد أطلا * سلاح ما بينهم كلام
ياسيدى لا تسر اليه * الا اذا هوم النيام
والليل ستر على التصابى * عليه من فضله لثام
والسرج قد بددت عليه * منها دنانير لا ترام
وهو قد امتد والمبانى * عليه فى خدمة قيام
لله كم دوحة جنينا * هناك أثمارها الآثام

قال المقريزى وفيه تحامل كثير انتهى ومن نظر بعين الانصاف علم أن التحامل فى نسبة التحامل اليه والله تعالى الموفق * (قال ابن سعيد ومعاملة الفسطاط والقاهرة بالدراهم المعروفة بالسوداء كل درهم منها ثلاث من الدراهم الناصرية وفى المعاملة بها مشقة وخسارة فى البيع والشراء ومخاصمة بين الفريقين وكان بها قديما الفلوس فقطعها الملك الكامل فبقيت الآن مقطوعة منها وهى فى الاقليم الثالث وهواؤها ردىء لاسيما اذا هب المريسى من جهة القبلة وأيضا فرمد العين فيها كثير والمعايش فيها متعذرة نزرة لاسيما أصناف الفضلاء وجوامك المدارس قليلة كدرة وأكثر ما يتعيش بها اليهود والنصارى فى كتابة الطب والخراج والنصارى بها يمتازون بالزنار فى أوساطهم واليهود بعمائم صفر ويركبون البغال ويلبسون الملابس الجليلة ومأكل أهل القاهرة البطارخ ولا تصنع حلاوة القمح الا بها وبغيرها من الديار المصرية وفيها جرار طباخات أصول تعلمهن من قصور الخلفاء الفاطميين ولهن فى الطبخ صنائع عجيبة ورياسة متقدمة ومطابخ السكر

مايقضى ذلك المجد ولما كان احسانك يبشر به الصادر والوارد ويحرص عليه الغائب والشاهد مد أمله نحوك ووصل هذه الفاتحة وليس له وسيلة ولا بضاعة الا الادب وهى عند بيتك الكريم رابحة وهو من شتت خطوب هذا الزمان شمله وأبانت نوائبه صبره وفضله وماطمح بصره الا الى أفقك ولا وجه رجاءه الا نحو طرقك والرجاء من فضلك أن يعود وقد أثنت حقائبه وأعتقت من الجدر كائبه دمت غرة فى الزمن البهيم مخصوصا بأفضل التحية والتسليم انتهى ＊ وابن عسكر المذكور عالم بالتاريخ متبحر فى العلوم وله كتاب فى أنساب بنى سعيد أصحاب هذه الترجمة ومن شعره

أهوى الثنايا بدرو أهوى الذى ＊ يعذلنى فيك وأهوى الرقيب
والجار والدار ومن حلها ＊ وكل من مر بها من قريب
وكل مبدشبها منكم ＊ وكل من يلفظ باسم الحبيب

＊(رجع) قال ابنه على لما أردت النهوض من ثغر الاسكندرية الى القاهرة أول وصولى الى الاسكندرية رأى أن يكتب لى وصية أجعلها اماما فى الغربة فبقى فيها أياما الى أن كتبها عنه وهى هذه وكنى بها دليلا على ما اختبر وعلم

أودعك الرحمن فى غربتك ＊ مرتقبا رحماه فى اوبتك
وما اختيارى كان طوع النوى ＊ لكننى أجرى على بغيتك
فلا تطل حبل النوى انى ＊ والله أشتاق الى طلعتك
من كان مفتونا بأبنائه ＊ فاننى أمعنت فى خبرتك
فاختصر التوديع أخذا بما ＊ لى ناظر يقوى على فرقتك
واجعل وصاتى نصب عين ولا ＊ تبرح مدى الايام من فكرتك
خلاصة العمر التى حنكت ＊ فى ساعة زفت الى فطنتك
فللتجاريب أمور اذا ＊ طالعتها تشحذ من غفلتك
فلا تنم عن وعيها ساعة ＊ فانها عون الى يقظتك
وكل ما كابدته فى النوى ＊ اياك أن يكسر من همتك
فليس يدرى أصل ذى غربة ＊ وانما تعرف من شيمتك
وكل ما يفضى لعذر فلا ＊ تجعله فى الغربة من اربتك
ولا تجالس من فشا جهله ＊ واقصد لمن يرغب فى صنعتك
ولا تجادل أبدا حاسدا ＊ فانه أدعى الى هيبتك
وامش الهوينا مظهرا عفة ＊ وابغ رضا الاعين عن هيئتك
أفش التحيات الى اهلها ＊ ونبه الناس على رتبتك
وانطق بحيث العى مستقبح ＊ واصمت بحيث الخير فى سكتتك
ولا تزل مجتمعا طالبا ＊ من دهرك الفرصة فى وثبتك
وكلما أبصرتها أمكنت ＊ ثب واثقا بالله فى مكنتك
ولج على رزقك من بابه ＊ واقصد له ما عشت فى بكرتك

وأنس من الود الذي ماسد * صد وبأسه على خطلك
وذر التهـ...دد وصده * فصدك لا نعمة في فصلك
ووف كلا حقه ولكن * تكسر عند العز من حدك
ولا تكن عند رداً ربه * فانه أسرع في عز تبدلك
وحاجب بالصد التي * نفسه من رجوه في نصرك
ولا ترانا وسـ...ـه مالها * الا الذي ندخر من عدلك
ولا تهل أسبل في وحدى * تعد نفسي الذل في وجدك
والزم الاحوال وربما ولا * ترجع الى ما دام في سرك
ولتجعل العقل شكار جنة * فكلاغا تظهر في بعدك
واعتبر الناس بالفاظهم * واطلب أخا رغب في فضلك
بعد اختبار منك يبدي غنا * يحسن في الآخذ من حاطك
كم من صديق مظهر نصحه * ومكره وقف على عثرتك
اياك أن تقربه انه * عون مع الدهر على كرتك
واتبع اذا مالم تجد مطمعا * واطمع اذا ابصرت من عسرتك
وانم عزاً المستقدرا * عن الذي وانم الى قدر له
وان سما دهر فوطن له * جأشك وانظره الى مدتك
فكل ذي أمر له دولة * فوقتا واياك في دولتك
ولا تصع زمانا مكنا * يذكاره يذكى لظى حسرتك
والسر مهما استطعت لا تبه * فانه حور على مهجتك

فاني الذي لا يابع له مثلي ولا مصرح لي بـ... وقد قدمت لك في هذا المقام ما ان احضرته خاطرك في كل أوان تجوب لك حسن العاقبة ان شاء الله تعالى وان أحسن ما لم صط وأعلق بالفكر وأحق بالتقدم قول الاول

يزين الغريب اذا ما اغترب * ثلاث فمن حسن الادب
وثانية حسن أخلاقه * وثالثه اجتناب الريب

واذا اعتبرت هذه الثلاثة ولزمتها في الغربة رأيتها جامعة نافعة لا يلحقك ان شاء الله تعالى مع استعمالها ندم ولا يفارقك بر ولا كرم ولله در القائل

يعدّ رفيع القوم من كان عاقلا * وان لم يكن في قومه بحسيب
اذا حل أرضا عاش فيها بعقله * وما عاقل في بلدة بغريب

وما قصر القائل حيث قال

واصبر على خلق من تعاشره * وداره فاللبيب من دارا
واتخذ الناس كلهم سكنا * ومثل الارض كلها دارا

واصغ يا بني الى البيت الذي هو يتيمة الدهر وسلم الكرم والصبر

ولو أن أوطان الديار نبت بكم * لسكنتم الاخلاق والآدابا

اذ حسن الخلق أكرم نزيل والادب أرحب منزل ولتكن كما قال بعضهم في أديب
متغرب وكان كلما طرأ على ملك فكأنه معه ولد واليه قصد غير مستريب بدهره ولا منكر
شيأ من أمره واذا دعاك قلبك الى صحبة من أخذ بجامع هواه فاجعل التكلف له سلما
وهب في روض أخلاقه هبوب النسيم وحل بطرفه حلول الوسن وانزل بقلبه نزول
المسرة حتى يتمكن لك وداده ويخلص فيك اعتقاده وطهر من الوقوع فيه لسانك
وأغلق سمعك ولا ترخص في جانبه لحسود لك منه يريد ابعادك عنه لمنفعته أو حسود له يغار
لتجمله بصحبتك ومع هذا فلا تغتر بطول صحبته ولا تتمهد بدوام رقدته فقد نبهه الزمان
ويغير منه القلب واللسان ولذا قيل اذا أحببت فأحبب هونا ما فمن الممكن أن ينقلب
الصديق عدوا والعدو صديقا وانما العاقل من جعل عقله معيارا وكان كالمرآة يلقى كل
وجه بمثاله وجعل نصب ناظره قول أبي الطيب

ولما صار ود الناس خبا * جزيت على ابتسام بابتسام

وفي أمثال العامة من سبقك بيوم فقد سبقك بعقل فاحتذ بأمثلة من جرب واستمع
الى ما خلد الماضون بعد جهدهم وتعبهم من الاقوال فانها خلاصة عمرهم وزبدة
تجاربهم ولا تتكل على عقلك فان النظر فيما تعب فيه الناس طول أعمارهم وابتاعوه غاليا
بتجاربهم يربحك ويقع عليك رخيصا وان رأيت من له مروءة وعقل وتجربة فاستفد منه
ولا تضيع قوله ولا فعله فان فيما تلقاه تلقيحا لعقلك وحثا لك واهتداء واياك أن تعمل بهذا
البيت في كل موضع والحر يخدع بالكلام الطيب فقد قال أحدهم ما قيل أضر من هذا
البيت على أهل التجمل وليس كل ما تسمع من أقوال الشعراء يحسن بك أن تتبعه حتى
تتدبره فان كان موافقا لعقلك مصلحا لحالك فراع ذلك عندك والا فانبذه نبذ النواة فليس
لكل أحد تبسم ولا لكل شخص بكلام ولا الجود بما يجد به ولا حسن الظن وطيب
النفس مما يعامل به كل أحد ولله در القائل

ومالي لا أوفي البرية قسطها * على قدر ما يعطي وعقلي ميزان

واياك أن تعطي من نفسك الا بقدر فلا تعامل الدون بمعاملة الكفء ولا الكفء بمعاملة
الاعلى ولا تضيع عمرك فيمن يعاملك بالمطامع ويثيبك على مصلحة حاضرة عاجلة بغائبة آجلة
واسمع قول الاول وبع آجلا منك بالعاجل وأقلل من زيارة الناس ما استطعت ولا تجفهم
بالجملة ولكن يكون ذلك بحيث لا يلحق منه ملال ولا ضجر ولا جفاء ولا تقل أيضا أقعد في كسر
بيتي ولا أرى أحدا وأستريح من الناس فان ذلك كسل داع الى الذل والمهانة واذا علم
عدوك أو صديقك منك ذلك عاملاك بحسبه فازدراك الصديق وجسر عليك العدو واياك
أن يغرك صاحب واحد عن أن تدخر غيره للزمان وتطعمه في عداوة سواه فمن الممكن أن
يتغير عليك فتطلب اعانة عليه او استغناء عنه فلا تجد ذخيرة قدمتها وكان هو في أوسع حال
وأعلى رأي يجادبه بحيلته في انقطاعك عن غيره فلو اتفق لك أن تصحب من كل صناعة
وكل رياسة من يكون لك عدة لكان ذلك أولى وأصوب وسائر فاني خبير طال والله ما صحبت
الشخص أكثر عمري لا أعتمد على سواه ولا أعتد الايام مخدعا برايه موثوقا في حبائل

سطايه الى أن لا يحصل في منه عثر النقص على الناس ويقول لو كان ولو كان ولا تعمل لك
أيضا هذا القول أن تقله في شكل أحد ويحل المكافأة ولكن حسن الظن عند ارما
واستر عند ارما والعقل لا يخفى عليه مخايل الاحوال وفي الوجوه دلالات وعلامات
وما أحسن قول القائل

ليس دار حمه من نعمت ولا نه * رى ولا ندمع الادى عن حرم

من تكن له وجه مثل هذا الوجه قول وجهل عنه فعله رضاها واحرص جهدك على
أن لا تغضب أو تعدم الادب جنبه وتعمه ومن شأن في رفاهيته ومر و فانك ام معه
في مهاد العافيه وان العادة على أعراقها تجرى واهل الاحساب والمروآت يتركون
ما تعهم من كان علمهم تهاونهم ومد نقل في مجلس عبد الملك بن مروان أمر مصعب
ابن الزبير فقال عبد الملك وهو عدوه محارب له على الملك لو علم مصعب أن الماء يفسد مروءته
ما شربه والعقل ما تم دليه الاعداء نابى وقد علمت أن الدنيا دار مفارقة وتغير وقد
قيل انصف من نفسك فانك مفارقه حتى فارقت اسدا فعلى حسن في القول والعمل
فانك لا تدرى هل انت راجع اليه فلذلك قال الاول وللمامى فلم تكن على ملح وانا له
والبيت السائر

وكنت اذا حللت بدار قوم * رحلت بخزيه وتركت عارا

واحرص على ما تسمع قول القائل فلانه تبنى لك الود في صدر أخيك أن تبدأه بالسلام
وتوسع له في المجلس وتدعوه بأحب الاسماء اليه واحذر كل ما يجنيه لك اللسان كل ما تدرسه
عنه الا ابن آدم فانك اذا عرسته سلمك ويقول الآخر ابن آدم تمكن حتى تمكن
ويقول الآخر ابن آدم دب مع النعمة أشد مع العدو واياك أن تسب على صحبه أحد مثل
ابن بطيل احسان فحكى أن ابن المقفع خطب من الخليل صحبه فجاوبه ان الصحبه رق
ولا أضع رقي في يدك حتى أعرف كيف ملكتك واسأل من عن من تعاشر وتعتمد
في ملمات الا لسن وصعاب الاوجه ولا تعدلك الحياء على السكوت فانه يسر لك أن لا تسبه
فان الكلام سلاح السلم وبالانين تعرف ألم الجرح واجعل لكل امر أحدث فيه عادته انها
نهاية لك وأحكد ما أوصيك به أن تطرح الافكار وتسلم للاقدار واسأل من الدهر
ما أنا لك من رفاهيته بمعه اذا الافكار جلب الهموم وتضاعف الغموم وملازمه
المطلوب عنوان المصائب والطرب تسر به الصاحب وتسمع القدر الحاسد
ولا تصير بالوساوس الامتك لا بل تصيرها الدهر عليك ولله در القائل

اذا ما كنت للاحزان عونا * عليك مع الزمان فمن تلوم

مع أنه لا يرد عليك الفائت الحزن ولا يرعوى بطول عتبك الزمن ولقد شاهدت بعز امله
فما ندأ لمه الهموم وصفته الغموم من صغره الى كبره لا يرا أبدا خاليا من فكره
حتى لقب بصدر الهم ومن أعجب ما رأيت منه انه تنكد في السنه ولا يبال بان تكون
بعدها فرج وتنكد في الرخاء خوفا من أن لا يدوم و قد قيل توقع زوالا اذا قيل تم
و قد وعد الباقي بضر المتطاول وله من الحكايات في هذا الباب أن غابت

ومثل هذا عمره مخسور وسعيه ضائع ومتى رفعك الزمان الى قوم يذمون من العلم ما تحسنه حسدا لك وقصدا لتصغير قدرك عندك وتزهيدا لك فيه فلا يحملك ذلك على أن تزهد في علمك وتركن الى العلم الذى مدحوه فتكون مثل الغراب الذى أعجبه مشى الحجلة فرام أن يتعلمه فصعب عليه ثم أراد أن يرجع الى مشيه فنسيه فبقى مخبل المشى كما قيل

حسد القطا وأراد يمشي مشيها * فأصابه ضرب من العقال

فأضل مشيته وأخطأ مشيها * فلذاك سموه أبا مرقال

ولا يفسد خاطرك من جعل يذم الزمان وأهله ويقول ما بقى في الدنيا كريم ولا فاضل ولا مكان يرتاح فيه فان الذين تراهم على هذه الصفة أكثر ما يكونون ممن صحبه الحرمان واستحقت طلعته للهوان وأبرموا على الناس بالسؤال فمقتوهم وعجزوا عن طلب الامور من وجوهها فاستراحوا الى الوقوع في الناس واقامة الاعذار لانفسهم بقطع أسبابهم وتعذر أمورهم ولا تزل هذين البيتين من فكرك

لى اذا ما نلت عزا * فأخو العز يلين

فاذا نابك دهر * فكما كنت تكون

وقول الآخر

ته وارتفع ان قيل أقتر والخفض ان قيل اثرى

كالغصن يسفل ما اكتسى * ثمرا ويعلو ما تعرى

ولا قول الآخر

الخير يبقى وان طال الزمان به * والشر أخبث ما أوعيت من زاد

واعتقد في الناس ما قاله القائل

ومن يلق خيرا يحمد الناس أمره * ومن يغو لا يعدم على الغى لائما

وقريب منه قول القائل

بقدر الصعود يكون الهبوط * فاياك والرتب العاليه

وكن في مكان اذا ما سقطت * تقوم ورجلاك في عافيه

وتحفظ مما تضمنه قول الآخر

ومن دعا الناس الى ذمه * ذموه بالحق وبالباطل

ولله در القائل

ما كل ما فوق البسيطة كافيا * فاذا اقتنعت فكل شئ كافي

والامثال يضربها لذى اللب الحكيم وذو البصر يمشى على الصراط المستقيم والفطن يقنع بالقليل ويستدل باليسير والله سبحانه خليفتي عليك لا رب سواه * تمت الوصية *

ويكفيك عنوانا على طريقته في النثر وله رسالة كتب بها الى ملك المغرب أبي محمد عبد الواحد ابن أبي يعقوب بن عبد المؤمن مهنئا له بالخلافة حين بويع بها بمراكش وكان اذ ذاك باشبيلية وكان قبل ذلك كاتبا له ومختصا به الحضرة العليه السامية السنيه الطاهرة المقدسه حضرة الامامه وجنة دار الاقامه مد الله على الاسلام ظلالها وأنمى

في ما السعادة عامة وكافلها وهنأ المؤمنين باستصحاب أمورها وأدام لهم بركة صلاحها حتى يبدأ بأدانيها وبديم بإدنائها التوسل بتقديم الخدمة التي هي في تتميم النعمة وتكريم الحرمة المقصد بإظهار البشرى حتى أطلع الزمان هذا الفجر

أتته الخلافة منقادة • إليه تجرر أذيالها
فلم تك تصلح إلا له • ولم يك يصلح إلا لها

وفي بقية وقد فرّ محمد لا زال هذا الأمر الذي تجود السعد ولا برح سعيد زمانا مسعودا

فانعمه الله ندي • ان كان ملك مرتدي

سلام الله الكريم يخص حضرة الإجلال والتعظيم والتقديس والتكريم ورحمته وبركاته وبعد حمد الله الذي بلغ الإسلام من الخلافة آماله وحلى بعهد الولاية السعيد أحواله والصلاة والسلام على سيدنا محمد نبيه الكريم الذي أذهب الله تعالى به الكفر وضلاله وعلى آله وصحبه الطاهرين الذين نموا أحواله ووصلوا أعماله والرضا عن الإمام المهدي المعلوم الذي أفاء الله به على الدين الحنيف ظلاله وأذهب عنه طواغيه وضلاله والدعاء للإمام العالي الكريم بالسعد المتوالي والنصر الجسيم وكتب العبد وقد ملأ يد هذه البشرى المسير أمده ووقعت عليه هذه المرتبة العلية طربه

فهذه تحسه مارك أرضها • فاليوم أبسط آمالي وأحكم

ولا أسمع من أن افتخرت على السما دارا والهلال للسير سوارا والنجوم عقدا والصباح تبدأ حتى أمر كل أحد بشكله وأمال كل مقصر عمله

ومن خدم الأقوام يرجو نوالهم • فإني لم أخدمك إلا لأخدما

وما بعد الخلافة رتبة ودون تيسر تصطف كل همة فالحمد لله رب العالمين وهنأ لعباده المؤمنين حسن نظرائهم بظل رحمته فأسبل عليهم ستر هذه النعمة

ولقد علمت بأن ذلك معصم • ما كان يتركه بغير سوار

والله أعلم حيث يجعل رسالاته وإلى من يسر بأن يأتيه صباح ذلك اليوم السعيد وليلته لقد سهرت وحسبي من البشرى أماني الآمال في سرها وعرفا عرفه ولقد أحجم آراء السداد حتى أتت الإسلام بالمراد فأخذ القوس باريها وحل بالدار بانيها فما زادت الرجوى لطفا وحسرا ولا برحت المسرة أن تسر البلد سرا وهل تصلح السور إلا للمعل وهل يليق بالشمس إلا الحلل فالآن تمهد الله الدين وأفاض العدل على العدوتين وقد قطع من لا يعرب عن خطبه مكان ولا يقصر عن خطبه إنسان دون إنسان حلية النفس العمرية والآراء العمرية والفراسة الإياسية ولا يستغل حين يقصد ساعد المجد إلا عمر بن مسير ولعمري لقد صار الصباح في إشراق النهار ولم تخف عمامة أراد الله من الخصماء والنار وقلب الناس هذه البشائر وعم كل باد وحاضر وأما شيوخ القبائل أصحابه الذين لم يبادهم وأعطوه الهيالي ومكن من اصطناع الناس لإعادتهم وأما العبد فقد أخذ غبطته حتى خاف أن يغلب السرور على قلبه ويحطه

(ومن فرح النفس ما يقتل) وهذه نعمة يقصر عنها النثر والنظم ويحسد عليها الهلال والنجم بل يعلمان لما استحقته من المراتب ويخضعان اليها خضوع المفترض الواجب أقر الله بها عيون المسلمين وأفاض حسبها على الناس أجمعين وحفظها بعينه التي لا تنام ووقف على خدمتها الليالي والايام * ولما قدم من الاندلس على تونس مدح سلطانها أبا زكريا بقوله

بشرى وبشرى قد أنار المطلع * نجما وقد وضح الصباح المعلم
ورنت عيون الامن وهي قريرة * وبدت ثغور السعد وهي تبسم
فارحل الى تونس واعتقد أعلام من * قوى الضعيف به وأثرى المعدم
حيث المعالي والمعاني والندى * والفضل والقوم الذين هم هم
أجروا الى الغايات مل عنانهم * سبقا وبدهم الجواد المتيم
ساد الامام الملك يحيي سادة * أعطى الورى انهم القادة وسلموا
ان الامارة مذ غدا يقتادها * يقظى وأجفان الحوادث نوم
لله منك مباركا ذو فطنة * برعت فأحجم عندها من يقدم
يقظان لا وان ولا متقاعس * كالدهر يبقي ما يشاء ويهدم
ان صال فالليث الهصور المقدم * أو سال فالغيث المغيث المثجم
أعلى منار الحق حين أماله * قوم تبرأت المنابر منهم
أعلى الاله مكانه وزمانه * والنصر يقدم والسعادة تخدم

* (وقال يخاطب ملك المغرب مأمون بني عبد المؤمن حين أخذ البيعة لنفسه باشبيلية وكان المذكور بمراكش ولبني سعيد بهذا الملك اختصاص قديم

الحزم والعزم موجودان والظفر * واليمن والسعد مضمونان والظفر
والنور فاض على ارجاء أندلس * والزور ليس له عين ولا أثر
حث الركاب الى هذا الجناب فقد * ضلوا فما تنفع الآيات والنذر
واعزم كما عزم المأمون اذ نشزت * أرض العراق فزال الوهن والضرر

* (ولما قدم العادل القائم بمرسية المتولي على مملكة البرين الى اشبيلية كان في جملة من خرج للقائه ورفع له قصيدة منها

لقائه للبر والشكر مجمع * الى يومه كنا نخب ونوضع
لقد يسر الرحمن صعب مرامه * فأبصرت أضعاف الذي كنت أسمع

وله

يا منعما قد جاءني بره * من غير أن أجري له ذكرا
ان أحسب الخير ما جاءني * عفوا ولم أعمل به فكرا

وله في غلام واعظ وهو من حسناته

وشادن طل للوعـ * ـظ تائبين جمع
متعت طرفي بمرآ * ه في خمارة سمعي

لو رضيتم بى عبدا * ما رضيت الدهر عتقا

وقال ما سمعت ولا وقفت على شئ أبدع من قول الجزار وقد تردد الى جمال الدين بن يغمور رئيس الديار المصرية فلم يقدر له الاجتماع به

أسأل الله أن يديم لك العز ويبقيك ما أردت البقاء

كل يوم أرجو النعيم بلقيا * لك فألقى بالبعد عنك شقاء

علم الدهر أننى أشتكيه * لك اذ نلتقى فعاق اللقاء

فبعث له بما أصلح حاله من الاحسان وكتب فى حقه الى ولاة الصعيد كتبا أغنته مدة عن شكوى الزمان انتهى * وقال أيضا ولم أسمع فى وضع الشئ موضعه أحسن من قول المتنبى

وأصبح شعرى منهما فى مكانه * وفى عنق الحسناء يستحسن العقد

ولم أسمع فى وضع الشئ غير موضعه أحسن من قول أبى الفرج

مرمدحى ضائعا فى لؤمه * كضياع السيف فى كف الجبان

ومن تآليف النور بن سعيد كتاب عدة المستنجز وعقلة المستوفز وذكر فيه انه ارتحل من تونس الى المشرق رحلته الثانية سنة ٦٦٦ وأورد فى هذا الكتاب غرائب وبدائع وذكر فيه أنه لما دخل الاسكندرية لم يكن عنده آكد من السؤال عن الملك الناصر فأخبر بحاله وما جرى له مع الططر حتى قتلوه بعد الامان ثم ساق فيه دخول هولاكو حلب فقال بعد كلام كثير وارتكب فى أهل حلب الططر والمرتدون ونصارى الارمن ما تصم عنه الاسماع وكان فيمن قتل بتلك الكائنة البدر بن العديم الذى صدر عنه من الطبقة العالية فى الشعر مثل قوله

واها لعشرب صدغه * لو لم تكن للماء تحمى

ولغفل خط عذاره * لو بت أعجمه بلثمى

وابن عمه الافتخار بن العديم الذى وقع له مثل قوله

والغصن فيه الماء مطرد * والماء فيه الغصن منعكس

ثم قال لما ذكر أحوال الناصر بعد استيلاء الططر على بلاده حلب والشام وما يليهما ما نصه قال من دخل على الملك الناصر وقد نزل عيذان دمشق قبلت يده وجعلت أدعو له وأظهر تعزيته على ما جرى من تلك المصائب العظيمة فأضرب عن ذلك وقال لى فيم تتغزل اليوم ثم أنشدنى قوله فى مملوك فقده فى هذه الكائنة

والله ما أبكى لملك مضى * ولا لحال ظاعن أو مقيم

وانما أبكى وقد حق لى * لفقد من كنت به فى نعيم

يطلع بدرا ينثنى بانة * يرتميا رمته كالنسيم

فى خاطرى أبصره خاطرا * فألتوى مثل التواء السقيم

ياعاذلى دعنى وما حل بى * فسوف الله بحالى عليم

ان مت من حزن له أسترح * وان أعش عشت بهم عظيم

عجائبها من الهول والتشكيك ثم صعدت الى القاهرة قاعدة الديار المصريه لمعاينة الهرمين ومافيهما من المعالم الازليه وعاينت القاهرة المعزية ومافيها من الهمم العلية الملوكيه غيراني أنكرت مبانيها الواهيه على ماحوت من أولى الهمم العاليه وكونها حاضرة العسكر الجرار وكرسي الملك العظيم المقدار وقلت أصداف فيها جواهر وشوك يحدق بأزاهر ثم ركبت النيل وعاينت تماسيحه وجرت بجرجة وذقت نبار يحه وقضيت الحج والزياره وملت الى حاضرة الشام دمشق والنفس بالسوء أماره فهنالك دعت الزيارة بالازورار وآلت تلك التجارة الى ماحكمت به الاقدار ادهى كما قال أحد من عاينها

أما دمشق فجنات معجلة * للطالبين بها الولدان والحور

فلله ما تضمن داخلها من الحور والولدان وما زين به خارجها من الانهار والجنان وبالجملة فانها حمى يتقاصر عن ادراكها أعناق الفصاحه ويقصر عن مناولتها في ميدان الاوصاف كل راحه ولم أزل أسمع عن حلب أنها دار الكرم والادب فأردت أن يحظى بصري بما حظي به سمعي ورحلت اليها وأقمت جارا بالمذاكرة والمطايبة صدعي ثم رحلت الى الموصل فألفيت مدينة عليها رونق الاندلس وفيها الطلاوة وفي مبانيها طلاوة ترتاح لها الانفس ثم دخلت الى مقر الخلافة بغداد فعاينت من العظم والضخامة مالا يفي به الكتب ولو أن البحر مداد ثم تغلغلت الى بلاد العجم بلدا بلدا غير مقتنع بغاية ولا قاصدا أمدا الى أن حللت بخارى قبة الاسلام ومجمع الامام فألقيت بها عصا التسيار وعكفت على طلب العلم واصلا في اجتهاده سواد الليل وبياض النهار انتهى * وكتب اليهم أيضا من هذه الرسالة كتبت وقد حصلتني السعاده وحط الامل والاراده بحضرة بخارى قبة الاسلام * وأجابه أهله من الغرب بكلام من جملته وان كنت قد تحصنت بقبة الاسلام فقد تعجلت لما وراك الهمد قبل وقت الحمام وأتبعوا ذلك بما دعاه لان خاطبهم بشعر منه

عتبتم على حين المطى وقلتم * تعجلت نقدا قبل وقت حمام
اذا لم يكن حالي مهيا لديكم * سواء عليكم رحلتي ومقامي

وقتل المذكور ببخارى حين دخلها الططر وهو عم علي بن سعيد الشهير وكان لعبد الرحمن المذكور أخ يسمى يحيى قد غاب الجندية فلما بلغه أن أبا القاسم عبد الرحمن قتل ببخارى قال لا اله الا الله كان أبدا يسفه رأيي في الجندية ويقول لو اتبعت طريق النجاة كما صنعت أنا لكان خيرا لك فها هو بقلم قد قتل شر قتلة بحيث لا ينتصر وسلب سلاحه وأنا مارات أغازي في عباد الصليب وأخاطر فما يقدر أحد أن يحسن لنفسه عاقبة انتهى * قال أبو الحسن علي بن سعيد ثم ان يحيى المذكور بعد خوضه في الحروب صرعه في طريقه غلام كان يخدمه فذبحه على نزر من المال أملت به فانظر الى تقلب الاحوال كيف يجرى في أنواع الامور لا على تقدير ولا احتياط انتهى * ومن شعر أبي القاسم عبد الرحمن المذكور ما خاطب به نقيب الاشراف ببخارى وقد أهدى اليه فاختا مع زوجه

انكار غير معروف والله تعالى أعلم * ومن فوائده ما نقله تلميذه أبو حيان النحوي عنه قال أنشدنا للمعري ونقلته من خطه

اذا ما شئت معرفة * لما حار الورى فيه
تخذ خمسا لاربعة * ودع للثوب رافيه

وهو لغز في ورد قال وأنشدنا لبعضهم

لا رعى الله عزمة ضمنت لي * سلوة الصبر والتصبر عنه
ما وفت غير ساعة ثم عادت * مثل قلبي تقول لا بد منه

قال وأنشدنا لغيره

وكان غريب الحسن قبل التحائه * فلما التحى صار الغريب المصنفا

وأنشدنا لغيره

طب على الوحدة نفسا * وارض بالوحشة أنسا
ما عليها من يساوي * حين يستخبر فلسا

وقرأ الرضي ببلده على ابن صاحب الصلاة آخر أصحاب ابن هذيل وسمع منه كتاب التلخيص للواني وسمع بمصر من ابن المقير وجماعة وروى عنه الحافظ المزني واليونيني والطاهري وآخرون وانتهت اليه معرفة اللغة وغريبها وكان يقول أحرف اللغة على قسمين قسم أعرف معناه وشواهده وقسم أعرف كيف أنطق به فقط رحمه الله تعالى * ومن فوائد الرضي الشاطبي المذكور ما ذكره أبو حيان في البحر قال وهو من غريب ما أنشدنا الامام اللغوي رضي الدين أبو عبد الله محمد بن علي بن يوسف الانصاري الشاطبي لزينب بنت اسحق النصراني الرسعني

عدي وتيم لا أحاول ذكرهم * بسوء ولكني محب لهاشم
وما يعتريني في علي ورهطه * اذا ذكروا في الله لومة لائم
يقولون ما بال النصارى تحبهم * وأهل النهى من أعرب وأعاجم
فقلت لهم اني لاحسب حبهم * سرى في قلوب الخلق حتى البهائم

ومن نظم الرضي المذكور

منغص العيش لا يأوي الى دعة * من كان في بلد أو كان ذا ولد
والساكن النفس من لم ترض همته * سكنى بلاد ولا سكنى الى أحد

وله

لولا بناتي وسيئاتي * لطرت شوقا الى الممات
لانني في جوار قوم * يغصني قربهم حياتي

وقرأ عليه أبو حيان كتاب التيسير وأثنى عليه ولما توفي أنشد ارتجالا

نعى لي الرضي فقلت لقد * نعى لي شيخ العلا والادب
نعى للغات ومن للثقات * ومن للنحاة ومن للنسب
لقد كان للعلم بحرا فغار * وان غؤور البحار العجب

فقدت من عالم عامل * أثار لشجوي لما ذهب

وحاكم الى رضي الدين المذكور الجزار والسراج الوراق أنهما أسرا وأرسل اليه الجزار بيتا فقال هذا الشعر حرّك من نمط شعر العرب فبلغ ذلك الجزار فأرسل اليه شيئا فقال هذا الشعر سلس وآخر الأمر قال ما أحكم بشكاره رحمه الله تعالى * فلقد رأيت بخطه كتبا كثيرة بمصر وحواشي مفيدة في اللغة وعلى دواوين العرب رحمه الله تعالى * (ومنهم محمد الزاهد وهو الأديب الفاضل الزاهد أبو بكر محمد بن أبي محمد عبد الله بن الحسن بن أحمد بن يحيى بن عبد الله الأنصاري القرطبي نزيل مالقة قال الرضي الشاطبي المذكور فيما أنشدني محمد بالقاهرة لأبيه أبي محمد وقد ناهز تسعين في علو سنه

وهل نافعي إن أخطأ الشيب مفرقي * وقد شاب أترابي وشاب لداتي

إذا كان خط الشيب يوجد عندهم * سيقرى فيها يوم بذاتي

والأبيات من وادعة في زمان واحد انتهى وقد ذكر أنه قال هذين البيتين لما قال له القاضي عياض شبنا ولم نشب وقال الرضي أيضا أنشدني محمد لنفسه فيمن يكتب في الورق بالقص وهو غريب

وكاتب وفي طرسه حبر * لم يسقها حبر ولا قلمه

لكن بمقراضه يقسمها * نسمة الروض جاده ديمه

يوجد بالقطع أثر ما عدمت * فاعجب لشيء وجوده عدمه

والرقم المذكور قال وتوفي محمد الزاهد هذا عصر دخل الظهر من يوم الثلاثاء وصلى عليه خارج مصر بجامع راشد بعد صلاة العصر من يوم الثلاثاء المذكور ودفن بسفح المقطم بتربة الشيخ الفاضل الزاهد أبي بكر محمد الخزرجي الذي يدعى الرصاص هذا ورحلته في الثالث والعشرين من ربيع الأول سنة اثنين وخمسين وستمائة ومولده سنة ست وستمائة انتهى * (ومنهم الشيخ بن عيسى بن حزم بن عبد الله بن الشيخ بن عبد الله الغافقي من أهل لبلة وأصله من جيان وسكن المرية ومالقة يكنى أبا علي كتب لبعض الأمراء بشرق الأندلس وله تاريخ في علماء المغرب وأخبار محاسن أهل المغرب جمعه للسلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب بالديار المصرية بعد أن رحل من الأندلس سنة ستين وخمسمائة وتوفي يوم الخميس التاسع عشر من رجب سنة خمس وستين وخمسمائة رحمه الله تعالى * (ومنهم محمد بن عبد الرحمن بن علي بن محمد التجيبي يكنى أبا عبد الله من أهل اشبيلية تجول في بلاد الأندلس طالبا للعلم ثم حج ولقي الحافظ السلفي وغيره واستوطن تلمسان وبها توفي في جمادى الأولى سنة عشر وستمائة وله تواليف كثيرة * (ومنهم أبو مروان محمد بن أحمد بن عبد الملك اللخمي الباجي من أهل اشبيلية ولي القضاء بها وأصله من باجة أدرك بقية دخل المشرق لأداء الفريضة فحج وتوفي بمصر بعد ما دخل الشام في اليوم الثاني والعشرين من ربيع الأول سنة خمس وثلاثين وستمائة ومولده عام أربعة وستين وخمسمائة وكانت رحلته من المغرب أول يوم من المحرم عام أربعة وعشرين وستمائة * (ومنهم وليد بن بكر بن مخلد ابن زياد العمري من أهل سرقسطة يكنى أبا العباس له كتاب سماه الوجازة في صحة القول

بالإجازة

بالاجازة ولهرحلة لقى فيها ألف شيخ ومحدث وفقيه توفى بالدينور سنة اثنتين وتسعين وثلثمائة يروى عنه أبى ذر الهروى وعبد الغنى الحافظ وكفاه فخرا بهذين الامامين العظيمين رحم الله تعالى الجميع *(ومنهم عيسى بن سليمان بن عبد الملك بن عبد الله بن محمد الرعينى الرندى يكنى أبا محمد استوطن مالقة ورحل الى المشرق وحج ولقى جماعة من العلماء وقفل الى المغرب أواخر عام واحد وثلاثين وستمائة وولى الامامة بالمسجد الجامع بمالقة وبها توفى فى ربيع الاول سنة اثنتين وثلاثين وستمائة ولقب فى المشرق برشيد الدين وولد فى ربيع الاول سنة احدى وثمانين وخمسمائة بقرية من قرى الاندلس يقال لها بابالتين كورة بشتغيرذكر ذلك ابن المستوفى فى تاريخ اربل *(ومنهم أبو الربيع سليمان بن أحمد البنيى من أهل الاندلس استوطن المشرق ومدح الملك الكامل ومن شعره رحمه الله تعالى قوله

لولا تحديه بآية شعره * ما كنت ممتثلا شريعة أمره
رشأ أصدقه وكاذب وعده * يبدى لعاشقه أدلة غدره
ظهرت نبوة حسنه فى فترة * من جفنه وضلالة من شعره

*(ومنهم أبو جعفر أحمد بن يحيى الضبى رحل حاجا فلقى ببجاية عبد الحق الاشبيلى وبالاسكندرية أبا الطاهر بن عوف ولقى غير واحد فى رحلته كالغزنوى وأبى الثناء الحرانى وأبى الحسين الحريثى وللحريثى أحاديث ساوى بها البخارى ومسلما ولقى جماعة ممن شارك السلفى فى شيوخه *(ومنهم أبو الحسين محمد بن أحمد بن جبير الكنانى صاحب الرحلة وهو من ولد ضمرة بن بكر بن عبد مناة بن كنانة أندلسى شاطبى بلنسى مولده ليلة السبت عاشر ربيع الاول سنة أربعين وخمسمائة ببلنسية وقيل فى مولده غير ذلك وسمع من أبيه بشاطبة ومن أبى عبد الله الاصيلى وأبى الحسن بن أبى العيش وأخذ عنه القرآآت وعنى بالادب فبلغ الغاية فيه وتقدم فى صناعة القريض والكتابة ومن شعره قوله وقد دخل الى بغداد فاقتطع غصنا نضيرا من أحد بساتينها فذوى فى يده

لا تغترب عن وطن * واذكر تصاريف النوى
أما ترى الغصن اذا * ما فارق الاصل ذوى

وقال رحمه الله تعالى يخاطب الصدر الخجندى

يا من حواه الدين فى عصره * صدرا يحل العلم منه فؤاد
ماذا يرى سيدنا المرتضى * فى زائر يخطب منه الوداد
لا يبتغى منه سوى أحرف * يعقدها أشرف حبر يساد
ترسمها أنمله منه لما * نمق زهر الروض كف العهاد
فى رقعة كالصبح أهدى لها * يد المعالى مسك ليل المداد
اجازة يورثها العلا * جائزة تبقى وتفنى البلاد
يستصحب الشكر خديمالها * والشكر للامجاد أسنى عتاد

فأجابه الصدر الخجندى

لك الله من خاطب خلتي * ومن فارس عندي مطرودي

أجرت له ما أثاره لي * وما جدته وما صح عندي

وكاتب هذي السطور إلي * يراهن عند الثقات الجدي

وراوي ابن جبير في هذه الرحلة أبو جعفر أحمد بن الحسين بن أحمد بن الحسين القضاعي وأصله من أنده من عمل بلنسية رحل مع أبيه إلى المشرق وسمع بمكة من ابن أبي الطاهر السروجي وأجازاه وما أبو محمد بن أبي عصرون وأبو محمد القاسم بن عساكر وغيرهما ودخل بغداد وغير لامه ثم رجع هو وأبوه إلى المغرب فسمع كل منهما بعض ما كان عندهما وكان أبو جعفر هذا متحققا بعلم الطب وله فيه تصانيف مع المشاركة الكاملة في فنون العلم ومنهم السيد أبو سعيد بن عبد المؤمن وحدث عنه القاضي أبو محمد عبد الحق بن عطية وتوفي أبو جعفر هذا إثر سنة ثمان أو تسع وتسعين وخمسمائة ولم يبلغ الخمسين في سنه رحمه الله تعالى *(رجع إلى ابن جبير)* قال لسان الدين بن الخطيب إنه من علماء الأندلس بالفقه والحديث والمشاركة في الآداب وله الرحلة المشهورة واشتهر في السلطان الناصر صلاح الدين بن أيوب له قصيدتان أحداهما أولها

أطلت على أفقك الزاهر * سعود من الفلك الدائر

ومنها

رفعت مغارم مكس الحجاز * بإنعامك الشامل الغامر

وأمنت أكناف تلك البلاد * فهان السبيل على العابر

وسحب أياديك فياضة * على وارد وعلى صادر

فكم لك بالشرق من حامد * وكم لك بالغرب من شاكر

والإشارة فيها إلى المكوس من ابن سكر الذي كان أخذ المكس من الناس في الحجاز

وما نال الحجاز بكم صلاحا * وقد نالته مصر والشآم

ومن شعره

أهل هذا الزمان الحزين * توالت عليهم حروف العلل

فنصب المعجب من مالهم * ورفع أطامع باب البدل

وقوله

عجبت لمدكر أوطانه * تهيج بالذكر أشجانه

يحل عرى صبره بالأسى * ويعقد بالنجم أجفانه

وقال رحمه الله تعالى لما رأى البيت الحرام زاده الله شرفا ومهابة وتعظيما

بدت لي أعلام بيت الهدى * بمكة والنور باد عليه

فأحرمت شوقا له بالهوى * وأهديت قلبي هديا إليه

وقوله عاطفا من أهدى إليه موردا

يا مهدي الورد سقيا * ومحبة لك ما

أراه عن قرب * لما تمادى ما

وقال رحمه الله تعالى

قد ظهرت فى عصرنا فرقة * ظهورها شؤم على العصر
لا تقتدى فى الدين الا بما * سن ابن سينا وأبو نصر

وقال

يا وحشة الاسلام من فرقة * شاغلة أنفسها بالسفه
قد نبذت دين الهدى خلفها * وادعت الحكمة والفلسفه

وقال

ضلت بأفعالها الشنيعه * طائفة عن هدى الشريعه
ليست ترى فاعلا حكيما * يفعل شيأ سوى الطبيعه

وكان انفصاله رحمه الله تعالى من غرناطة بقصد الرحلة المشرقية أول ساعة من يوم الخميس الثامن لشوال سنة ٥٧٨ ووصل اسكندرية يوم السبت التاسع والعشرين من ذى القعدة الحرام من السنة فكانت اقامته على متن البحر من الاندلس الى الاسكندرية ثلاثين يوما ونزل البر الاسكندرانى فى الحادى والثلاثين رح رحمه الله تعالى وتجول فى البلاد ودخل الشام والعراق والجزيرة وغيرها وكان رحمه الله تعالى كما قال ابن الرقيق من أعلام العلماء العارفين بالله كتب فى أول أمره عن السيد أبى سعيد بن عبد المؤمن صاحب غرناطة فاستدعاه لان يكتب عنه كتابا وهو على شرابه فمديده اليه بكاس فاظهر الانقباض وقال يا سيدى ما شربتها قط فقال والله لتشربن منها سبعا فلما رأى العزيمة شرب سبع أكوس فملأ له السيد الكاس من دنانير سبع مرات وصب ذلك فى حجره فحمله الى منزله وأضمر أن يجعل كفارة شربه الحج بتلك الدنانير ثم رغب الى السيد وأعلمه أنه حلف بأيمان لا خروج له عنها أنه يحج فى تلك السنة فأسعفه وباع ملكا له تزوّد به وأنفق تلك الدنانير فى سبيل البر ومن شعره فى جارية تركها بغرناطة

طول اغتراب وبرح شوق * لا صبر والله لى عليه
اليك أشكو الذى الاقى * يا خير من يشتكى اليه
ولى بغرناطة حبيب * قد غلق الرهن فى يديه
ودعته وهو بارتماض * يظهر لى بعض ما لديه
فلو ترى طل نرجسيه * ينهل فى ورد وجنتيه
أبصرت درا على عقيق * من دمعه فوق صفحتيه

وله رحلة مشهورة بأيدى الناس ولما وصل بغداد تذكر بلده فقال

سقى الله باب الطاق صوب غمامة * ورد الى الاوطان كل غريب انتهى

وقال فى رحلته فى حق دمشق جنة المشرق ومطلع حسنه المونق المشرق هى خاتمة بلاد الاسلام التى استقريناها وعروس المدن التى اجتليناها التى قد تحلت بأزاهر الرياحين وتجلت فى حلل سندسية وحلت من موضع الحسن بمكان مكين وتزينت فى منصتها أجمل تزيين وتشرفت بأن آوى الله تعالى المسيح وأمه منها الى ربوة ذات قرار

التى اذا رجع البصر فيها انقلب وهو حسير وقد أطنب الناس فيها وما بقى أكثر مما ذكروه وقد دخلتها أواخر شعبان من سنة سبع وثلاثين وألف للهجرة وأقمت بها الى اوائل شوال من السنة وارتحلت عنها الى مصر وقد تركت القلب فيها رهينا وملأت هواها منى فكرا وذهنا فكانها بلدى التى بها دار بيت وقرارى الذى لى به أهل وبيت لان أهلها عاملونى بما ليس لى بشكره يدان وها أنا الى هذا التاريخ لا ارتاح لغيرها من البلدان ولا يشوقنى ذكر أرض بابل ولا بغدان فالله سبحانه وتعالى يعطر منها بالعافية الاردان *وقد عن لى أن اذكر جملة مما قيل فيها من الامداح الرائقه وأسرد ما خاطبنى به أهلها من القصائد الفائقه فاقول قال البدر بن حبيب

بهم دمشق وملّ الى غربيها * والمح محاسن حسن جامع بلغا
من قال من حسد رأيت نظيره * بين الجوامع فى البلاد فقد لغا

وقال فى كتاب شنف السامع بوصف الجامع

لله ما أحلى محاسن جلق * وجهاتها اللاتى تروق وتعذب
بريد ربوتها المرات وجسكها * ياصاح كم كانخوض ونلعب

وقال فيه أيضا

لله ما أجمل وصف جلق * وما حوى جامعها المفرد
قد أطرب الناس بصوت صيته * وكيف لا يطرب وهو معبد

وقال فى ذكر باب الجامع المعروف بالزيادة

يا راغبا فى غير جامع جلق * هل يستوى الممنوع والممنوح
أقصر عنالك وفى غلوك لا ترد * ان الزيادة بابها مفتوح

وقال فى منارته المعروفة بالعروس

معبد الشام يجمع الناس طرّا * واليه شوقا تميل النفوس
كيف لا يجمع الورى وهو بيت * فيه تجلى على الدوام العروس

ومنه فى ذكر بانيه الوليد

تالله ما كان الوليد عابثا * فى صرفه المال وبذل جهده
لكنه أحرز ملك معبد * لا ينبغى لاحد من بعده

ومن أبيات فى آخره

بجامع جلق رب الزعامه * أقم تلق العناية والكرامه
ويمم نحوه فى كل وقت * وصل به تصل دار الاقامه
مصلى فيه للرحمن ذكر * ومثوى للقبول به علامه
محل كمل البارى حلاه * وبيت أبدع البارى نظامه
دمشق لم تزل للشام وجها * ومسجدها الوجه الشام شامه
وبين معابد الآفاق طرّا * له أمر الامارة والامامه
ادام الله بهجته وأبقى * محاسنه الى يوم القيامه انتهى

ولم أقف على كل هذا الكتاب المذكور بل على بعضه ومن قصيد القاضي المهذب ابن الزبير

ما قبة بارع الجما • ل اذا استقل الزند زندا
وحلت من عرف الثرا • ى ما اغتدى للند ندا
ونسيت ما بين الغصو • ن اذا اغتدين هوى وودا
وهززت عند الصبح ر • اعطافها قدا فقدا
وسرت دون الماء من • أجيادها للزهر عقدا
فلاث صفحة وجهه • حتى اكتسى آسا وورد
وكأنما العنب فيه مهما • صدعا وخدا
مرى على بردى عشا • ء ريد في مسرا ... بردا
ثم ركضت الشمس ... كسر منه الازهار عمدا
فمتى أصاب النسيم • عرفهن فلن تصدا

ومنها

أحبابنا بالكريم • بما من الاعدا أعدى
وحياة حبكم وحر • مة أهلكم ما خنت عهدا

وقال الكمال الشريشي

يا جيرة الشام هل من نحوكم خبر • فان قلبي بنار الشوق يستعر
بعدت عنكم فلا والله بعدكم • ما لذ للعين لا نوم ولا سهر
اذا تذكرت أوقاتا نأت وصفت • لديكم كادت الاحشاء تنفطر
كأنني لم أكن بالنيرين ضحى • والغيم يبكي ومنه يضحك الزهر
والورق تنشد والاغصان راقصة • والدوح يطرب بالتصفيق والنهر
والسفح أين مغانيه الي ذهبت • لي فيه وي لعمري عندي الذكر
فقال بالسفح سفح الدمع منهمرا • وقل ذا لذاك ان أعوزك المطر

•(وحكى ابن سعيد وغيره) ان غرناطة تسمى دمشق الاندلس لنزول أهل دمشق الشام بها عند دخولهم الاندلس وشبهوها بها لما رأوا كثرة الماء والاشجار وقد أطل عليها جبل الثلج وفي ذلك يقول ابن جبير صاحب الرحلة

يا دمشق الغرب هاتيك لقد زدت عليها
تحتك الانهار تجري • وهي تنصب اليها

قال ابن سعيد أشار ابن جبير الى ان غرناطة في مكان مشرف وغوطتها تجري فيها الانهار ودمشق في وهدة تنصب اليها الانهار وقد قال الله تعالى في وصف الجنة تجري من تحتها الانهار انتهى • وقال الصفدي في تذكرته انشدني المولى الفاضل البارع شمس الدين محمد بن يوسف بن عبد الله الخياط بقلعة الجبل من الديار المصرية حرسها الله تعالى لنفسه في شعبان المكرم سنة ٧٣٣

قصدت مصر من رباجلق * بهمة تجري بتجريبي
فلم أر الطرة حتى جرت * دموع عيني بالمزريب

وأنشد لنفسه أيضا

خلفت بالشام حبيبي وقد * يممت مصرا لعنا طارق
والارض قد طالت فلا تبعدي * بالله يامصر على العاشق

وأنشد لنفسه أيضا

يا أهل مصر أنتم للعلا * كواكب الاحسان والفضل
لو لم تكونوا الى سعود الما * وانيتكم أضرب في الرمل انتهى

وذكرته بقصيدة طويلة في وصف دمشق يعارض بها قصيدة للطبري وتحسن مغراه وقال الشيخ مجد الدين محمد بن أحمد المعروف بابن الظهير الحنفي الازبكي

لعل سنى برق الحمى يتألق * على النأى أوطيفا الاسماء يطرق
فلا نارها تبدو لمرتقب ولا * وعود الاماني الكواذب تصدق
لعل الرياح الهوج تدني لمارج * من الشام عرفا كاللطيمة تعبق
ديار قضينا العيش فيها منعما * وأياما تحنو علينا وتشفق
سحبنا بها ردا الشباب وشربنا * لدينا كما شئنا الديذ مروق
مواطن فيها النسيم سمي وطله * تخب مطايا اللهو فيه وتعنق
بجلاجانبيه معلم متجعد * من الماء في أطلاله يتدفق
اذا الشمس حلت متنه فهو مذهب * وان حجبتها دوحه فهو أزرق
وان مرح الاوراق سادت بورها * فرقم اجادته الاكف منمق
يظل عليه قاسيون كأنه * غمام مطلي أو نعام معلق
تساور عنه الشمس قبل غروبها * وترجف اجلالا له حين تشرق
وتصفر من قبل الاصيل كأنها * محب من البين المشتت مشفق
وفي النيرب الميمون للب سالب * من المنظر الزاهي وللطرف مومق
بدائع من صنع القديم وصائع * تأنق فيها المحدث المتأنق
رياض كوشى للنور يشقها * جداولها فالنور بالماء يشرق
فمن نرجس يخشى فراق فريقه * ترى الدمع في أجفانه يترقرق
ومن كل ريحان مقيم وزائر * يصافح رياه الرياض فتعبق
كأن قدود السرو فيه مواشيا * قدود عذارى ميلها مترفق
اذا ما تدانت لشقائق صدها * عيون من النور المفتح ترمق
وقصر يكل الطرف عنه كأنه * الى النسر نسر في السماء معلق
وكم جدول جار يطارد جدولا * وكم جوسق عال يواريه جوسق
وكم بركة فيها تصاحل بركة * وكم قسطل للماء فيه تدفق
وكم منزل يعشي العيون كأنما * تألق فيها بارق يتألق

وضياعها ضاع النسيم بها فكم * أضحى له من بين روض مطلب
وحات بقايي من عسا كر جمة * فيها الارباب الخلاعة ملعب
ولكم رقصت على السماع بجمكها * وغدا بر بوتها اللسان يشبب
فمتى ازور معالما أبوابها * بسماحها كتب السماح تبوب

وقال الصفي الحلي عند وروده بدمشق مسمطا القصيدة السموأل بالحماسة

قبيح بمن ضاقت عن الرزق أرضه * وطول الفلا رحب لديه وعرضه
ولم يبل سربال الدجى فيه ركضه * اذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه
فكل رداء يرتديه جميل

اذا المرء لم يحجب عن العين نومها * ويغل من النفس النفيسة سومها
أضيع ولم تأمن معاليه لومها * وان هو لم يحمل على النفس ضيمها
فليس الى حسن الثناء سبيل

رفعنا على هام السماك محلنا * فلا ملك الا تغشاه ظلنا
لقد هاب جيش الاكثرين أقلنا * ولا قل من كانت بقاياه مثلنا
شباب تسامى للعلا وكهول

يوازى الجبال الراسيات وقارنا * وتبنى على هام المجرة دارنا
ويأمن من صرف الزمان جوارنا * وما ضرنا أنا قليل وجارنا
عزيز وجار الاكثرين ذليل

ولما حللنا الشام تمت اموره * لنا وحبانا مالكه ووزيره
وبالشرب الاعلى الذى عز طوره * لنا جبل يحتله من نجيره
منيع يرد الطرف وهو كليل

يريك الثريا من خلال شعابه * وتحدق شهب الافق حول هضابه
ويقصر خطو السحب دون ارتكابه * رسا أصله تحت الثرى وسما به
الى النجم فرع لا ينال طويل

وقصر على الشقراء قد فاض نهره * وفاق على فخر الكواكب فخره
وقد شاع ما بين البرية شكره * هو الابلق الفرد الذى سار ذكره
يعز على من رامه ويطول

اذا ما غضبنا فى رضا المجد غضبة * لندرك ثأرا أو لنبلغ رتبة
نزيد غداة الكر فى الموت رغبة * وانا القوم لا نرى الموت سبة
اذا ما رأته عامر وسلول

وكتب الشيخ محب الدين الحموى ترجمة للشيخ اسمعيل النابلسى شيخ الاسلام من مصر

لواء التهانى بالمسرة يخفق * وشمس المعالى فى سما الفضل تشرق
وسعد واقبال ومجد مخيم * وأيام عز بالوفا تتعلق
فيا أيها المولى الذى جل قدره * ويا أيها الحبر اللبيب المدقق

قوله

أدح من نزح ماء البئر يوما * فقد أفضى الى تعب وعى
من القاضي بوضع يديه فيه * وقد أضحى كراس زرنعى

يعنى أقرع وسبب قوله البيتين أن المعظم أمر بنزح ماء بقلعة دمشق فأعياهم ذلك ومن هجوه قوله

شكا شعرى الى وقال تهجو * بمثلى عرض ذا الكلب اللئيم
فقلت له تسل فرب نجم * هوى فى اثر شيطان رجيم

وقال فيمن خرج حاجا فسقط عن الهجين فتخلف

اذا ما ذم وصل النوق يوما * فانى شاكر فعل النياق
أراد الله بالحجاج خيرا * فشط عنهم أهل النفاق

وقال

وراجل سرت فى ركب أودعه * تبارك الله ما أحلى الاجينا
جئنا الى بابه لاجين نسأله * فليتنا عاقنا موت ولا جينا
راجين نسأل ميتا لا حراك به * مثل النصارى الى الاصنام لاجينا

وقال

وصلت منك رقعة ساءتنى * صيرت صبرى الجميل قليلا
كنهار المصيف حرا وكربا * وكليل الشتاء بردا وطولا

وأول مقراض الاعراض قوله

أضالع تنطوى على كرب * ومقلة مستهلة الغرب
شوقا الى ساكنى دمشق فلا * عدت رباها مواطر السحب
مواطن مادعا بوطنها * الا ولبى نداءها لبى

ثم ذكر من الهجو ما تصم عنه الآذان وهو القائل فى دمشق

ألا ليت شعرى هل أبيتن ليلة * وظلك يا مقرى على ظليل
وهل أرين بعد ما شطت النوى * ولى فى ذرى روض هناك مقيل

ومنها

دمشق بنا شوق اليك مبرح * وان لج واش أو ألح عذول
بلاد بها الحصباء در وتربها * عبير وأنفاس الشمال شمول
تسلسل فيها ماؤها وهو مطلق * وصح نسيم الروض وهو عليل

وقد تقدم التمثل بهذه الابيات الثلاثة فى خطبة هذا الكتاب ومن هذه القصيدة

وكيف أخاف الفقر أو أحرم الغنى * ورأى ظهير الدين فى جميل
من القوم أما أحنف فسفه * لديهم وأما حاتم فبخيل
فتى المجد أما جاره فممنع * عزيز وأما ضده فذليل
وأما عطايا كفه فمباحة * حلال وأما مطله فطويل

وظهير الدين الممدوح هو طغتكين بن أيوب أخو السلطان صلاح الدين وكان ملك اليمن وأحسن إلى ابن عنين احسانا كبيرا وافرا وخرج ابن عنين من اليمن بمال جم وطغتكين بضم الطاء المهملة وسكون الغين المعجمة ثم تاء مثناة من فوقها مكسورة ثم كاف مكسورة ثم ياء ساكنة ثم نون وكان يلقب بالملك العزيز ولذلك قال ابن عنين لما رجع من اليمن الى مصر أيام العزيز عثمان بن صلاح الدين فألزمه أرباب الديوان ابن عنين بدفع الزكاة من المتاجر التي وصلت صحبته

ما كل من يسمى بالعزيز لها ٭ أهل ولا كل برق سحبه غدقه
بين العزيزين فرق في فعالهما ٭ هذاك يعطي وهذا يأخذ الصدقه

ومن شعر ابن عنين قوله في فقيهين يلقب أحدهما بالبغل والآخر بالجاموس

البغل والجاموس في جدليهما ٭ قد أصبحا مثلا لكل مناظر
برزا عشية ليلة فتناظرا ٭ هذا بقرنيه وذا بالحافر
ما أتقنا غير الصياح كأنما ٭ لقنا جدال المرتضى بن عساكر
جدلان ما لهما شبيه ثالث ٭ الا الأفادع يدلو به الشاعر
لفظ طويل تحت معنى قاصر ٭ كالعقل في عقد الأطم الناظر

(رجع الى دمشق) وقال العز الموصلي

الله حاش حامات مصر ٭ ولا تشكري عندي من
حاش الشام أحلى مثلما ٭ وأطهر وهي دون الفلس

وهذا البيت جواب عن قول ابن سناء

أحواض حمام الشا ٭ م ألا اسعي في كلس
لا تذكري أحواض مصر فانها دون الفلس

وأما قول النواجي سامحه الله تعالى

مصر فاقت دمشق لا ٭ تعتبر قط ناسيها
لو رأت قوس روضتي ٭ مصر راحت تسميها

فهو من باب تفضيل الوطن بحبه ومنه قول الوداعي

ربع بمقري دمشق شكا لها ٭ شوقي وشد عهدي الخالي
وارولنا أسعد عن ملها ٭ حدث صفوان بن عسال
فهو مرادي لا أريد لا ٭ سور وان زر ورق لي

ومن ذلك النمط قول الشهاب الحجازي

قالوا دمشق قد زهت أزهارها ٭ فامض وشاهد نورها ونورها
فقلت لا أبدل طيبة بها ٭ ولست أرضى زهرها ونورها

وقول الخفاجي قاضي مصر وان لم تكن في دمشق لكن في السياق في النظم

قد بين العاشقين جرى بدا ٭ تلوه كالهلال أزرارها
طير له سادت على سمه ٭ كالورد في الآس جنى طرزها

وقول الآخر

قد قال وادى جلق للنيل اذ * كسروه أعين جبهتى لك ترفع

فأجاب بحر النيل لما أن طغى * عندى مقابل كل عين اصبع

وقد تذكرت هنا قول بعضهم

ماذا يصيد المعنى * من الاذى المتتابع

بمصر ذات الايادى * ونيلها ذى الاصابع

وقد شاع الخلاف قديما وحديثا فى المفاضلة بين مصر والشام وقد قال بعضهم

فى حلب وشامنا * ومصر طال اللغط

فقلت قول منصف * خير الامور الوسط

وأما قول بعضهم

تجنب دمشق ولا تأتها * وان راقك الجامع الجامع

فسوق الفسوق بها قائم * وبدر الفجور بها طالع

فلا يلتفت اليه ولا يعول عليه اذ هو مجرد دعوى خالية عن الدليل وهى من نزغات بعض الهجائين الذين يعمدون الى تقبيح الحسن الجميل ومازالت الاشراف تهجى وتمدح ولا يقابل ألف متن عدل بفاسق يقدح

وفى تعب من يحسد الشمس نورها * ويأمل أن يأتى لها بضريب

وأخف من هذا قول بعض الاندلسيين وهو الكاتب أبو بكر محمد بن قاسم

دمشق جنة الدنيا حقيقا * ولكن ليس تصلح للغريب

بها قوم لهم عدد ومجد * وصحبتهم تؤول الى الحروب

ترى أنهارهم ذات ابتسام * وأوجههم تولع بالقطوب

أقمت بدارهم ستين يوما * فلم أطعم بها بقى أديب

والجواب واحد ولا يضر الحق الثابت انكار الجاحد وأخف من الجميع قول العارف بالله تعالى سيدى عمر بن الفارض رضى الله تعالى عنه

جلق جنة من تاهى وباهى * وربا ها أربى لولا وباها

قال غالٍ بردا كوثرها * قلت غال بردا ها برداها

وطنى مصر وفيها وطرى * ولنفسى مشتهاها مشتهاها

ولعينى غيرها ان سكنت * يا خليلى سلاها ماسلاها

وأخف منه قول ابن عبد الظاهر

لا تلوموا دمشق ان جئتموها * فهى قد أوضحت لكم مالديها

انها فى الوجوه تضحك بالزهـ * ـر لمن جاء فى الربيع اليها

وتراها بالثلج تبصق فى لحـ * ـية من مر فى الشتاء عليها

وقول ابن نباتة وهو بالشام يتشوق الى المقياس والنيل

أرق له بالشام سيل مدامع * يجريه ذكر منازل المقياس

يرنحني لوزا بن كلاب مزهرا * وتهتز في أغصانه وهو مثمر
وأبي الى زهر السفرجل شيق * اذا ما بدا مثل الدراهم ينثر
غياض يفيض الماء في عرصاتها * فتزهو جمالا عند ذاك وتزهر
ترى بردى فيها يجول كأنه * وحسام او سيف صقيل مجوهر
وبي أحور لاح العذار بخده * يسامح قلبي في هواه ويعذر
يجاورني فيه على الصبر صاحبي * وكيف أطيق الصبر والطرف أحور
اذا اشتقت وادي المرتين لحسنه * فأنظر مغناه به وهو أنضر
حوى الشرف الاعلى من الحسن خده * على أن ميدان العوارض أخضر

وما أحسن قوله رحمه الله تعالى

واديه حق الحبيب نزول * حيا معاهده الحيا والنيل
واديه فوح المسك من جنباته * ويصح فيه للنسيم عليل
يشتاقه ويود لثم ترابه * شوقا ولكن ما اليه سبيل
متقلقل الاحشاء مسلوب الكرى * طلق الدموع فؤاده متبول
يصبو الى الاثلات من وادي الغضى * ويحن ان خطرت هناك شمول
قالوا تبدل قلت يا أهل الهوى * والناس فيهم غادر وجهول
هل بعد قطع الاربعين مسافة * للعمر فيها يحسن التبديل
ولقد هما لي في دمشق مهفهف * يسبي العقول رضابه المعسول
يهتز ان مر النسيم بقده * ويميل بي نحو الصبا فأميل
أبدى لنا بردا تبسم ثغرها * واذا انثنى فقوامه الجدول
لزم التسلسل مدمعي وعذاره * فانظر الى المهجات كيف تسيل
وسقمت من سقم الجفون لانها * هي علة وفؤادي المعلول
لا تحسبوا ان راعني بدوائب * فالليل هول والمحب دليل
ما صح لي أن الدوائب حية * حتى سعت في الارض وهي تجول

وقال ناظر الجيش عون الدين بن العجمي

يا سائقا يقطع البيداء معتسفا * بضامر لم يكن في سيره واني
ان جزت بالشام شم تلك البروق ولا * تعدل بلغت المنى عن دير مران
واقصد أعالي قلاليه فان بها * ما تشتهي النفس من حور وولدان
من كل بيضاء هيفاء القوام اذا * ماست فواخجل المران والبان
وكل أسمر قد دان الجمال له * وكل الحسن فيه فرط احسان
ورب صدغ بدا لي حين مرسله * في فترة فتنت من سحر أجفان
فليت ريقته وردي ووجنته * وردي ومن صدغه آسي وريحاني
وعج على دير متى ثم حي به الـ * ـربان بطرس فالربان رباني
فهمت منه اشارات فهمت بها * وصنت مشهورها في طي كتمان

ان بعدت عن غربه شرقنا * فالفضل فينا نسب أقرب
كم طالت تشريفه شامنا * بشرى لها فيها المطلب
قد سبقت لى معه صحبة * فى حرم يؤمن من يرهب
اخوة فى الله من زمزم * رضاعها طاب لها المشرب
أنهلنى ثم وداد الى * بالشام منه علل أعذب
أهديت ذا النظم امتثالا له * وقد هجرت الشعر مذ أحقب
نشط قلبى لطفه فانثنى * والقلب فى أهل الهوى قلب
ضاء دجى العلم به للورى * مالاح فى جنح الدجى كوكب

انتهى وأجبته بما نصه تحية الفقير الداعى عبد الرحمن العمادى

ماتبر راح كأسها مذهب * ماللنهى عن حسنها مذهب
تستدفع الاكدار من صفوها * وتنهل الافراح اوتنهب
تسعى بها هيفاء من ثغرها * أو شعرها النور أو الغيهب
فتانة الاعطاف بسامة * سحرا بألباب الورى يلعب
فى روضة قد كالت بالندى * والزهر راس الغصن اذ يعصب
برودها بالنور قد نمنمت * كالوشى من صنعاء ل أعجب
والماء يجرى تحت جناتها * والنار من نارنجها تلهب
والظل صاف والنسيم انبرى * والجو ذاكى العرف مستعذب
والطير للعشاق بالعود قد * غنت فهاجت شوق من يطرب
أبهى ولا أبهج فى منظر * من نظم من تقديمه الاصوب
مفتى دمشق الشام صدر الورى * من فى العلا تم به المطلب
علامة الدهر ولا مرية * وملجأ الفضل ولا مهرب
لله ماامتاز به من حلى * بغير من الله لا تكسب
أبدى به الرحمن فى عبده * مظاهر المنح التى تحسب
جود بلا من وعلم بلا * دعوى به التحقيق يستجلب
وبيت مجد مستدركه * الى عماد الدين اذ ينسب
فبرقه الشامى من شامه * نال مراما والسوى خلب
وماعسى أبديه فى مدحه * أو وصف أبناء له أنجبوا
تسابقوا للمجد حتى حووا * سبقا لما فى مثله يرغب
أعيذهم بالله من شر ما * يخشى من الاغيار أو يرهب
وأسأل الله لهم عزة * بادية الاضواء لا تحجب

ولما دخلت دمشق المحروسه وطلبت موضعا للسكنى يكون قريبا من الجامع الاموى الذى يحار البليغ وصفه وان ملا طروسه أرسل الى أديب الشام فرد الموالى المدرسين ساحب أذيال الفخار المولى أحمد الشاهينى حفظه الله تعالى بمفتاح المدرسة الجقمقية

وما كان ديك الجن مدرك بابها * اذا ما صر صر البازى ولا ديك يصرح
ولو جاد فكر البحترى بمثلها * لكان على الطائى بالانف يشمخ
ولو أن نظام ابن الحسين أتى بها * اما زبسـق كمه ليس ينسخ
فلا زال محروطا بعين عناية * وكتب التهانى عن علاه تؤرخ

أجابنى بما نصه

أأسماس عيسى ماروى ينفخ * أم الطرس أنحى بالعبير يضمخ
وهذى قواف أم هى الشمس انثى * أراها على الجوزاء بالانف تشمخ
بلى هى نص من ودادك محكم * تزول الرواسى وهى لم تك تنسخ
أتتنى عدح محمل فكانها * لهرط حيائى قد أتتنى توبخ
وهل أنا الا الخادم نعل سيدى * وبينى وبين المدح فى الحق برزخ
وما هى الا غرة حرت فخرها * وانى بها بادى المحاسن أشدخ
فلا در درى وانحرفت عن العلا * اذا كان ودى عن معاليك ينسخ
وحبك مهما طار شرقا ومغربا * بوكر ابن شاهين الوفى يفرخ
وانى وان ارخت مجد الماجد * فانى باسم المقرى أؤرخ
سمى ومولاى الذى راح مدحه * لرأس الاعادى بالمعاريض يرضخ
ودم يا نظير البدر ترقى بأوجه * ولا زلت فى طرفى وقلبى ترسخ

وكنت يوما أروم الصعود لموضع عال فوقعت وانفكت رجلى وألمت فكتب الى

لاألمت رجلك ياسيدى * وصانها الله من الشين
ماهى الاقدم للعلا * لا احتاج ذاك الصل للقين
رانت دمشق الشام فى حلها * فلا رأت فيها سوى الرين
بانت عن الاهل لتشريفنا * لا جمعت أينا الى بين
عجبت من راحة فى العلا * والعلم اذ راغت من العين
انى أعاف البين بين الورى * ولست والله أخا مين
للمقرى المجتبى أحمد * دين الهوى والمدح كالدين
وأحمد الله على أننى * رأيته حاز الفريقين
فلا أراه الله فى عمره * بؤسا يؤديه الى أين

تعويذ المحب العبد الحقير الداعى أحمد بن شاهين انتهى * وأهديت اليه حفظه الله تعالى سبحة وخاتما وكتبت اليه

يا مجمل شاهين الذى * أحيا المعالى والمعالم
يامن به ريشت من المجد الخوافى والقوادم
يامن دمشق بطيبه ما * بيديه عاطرة النواسم
فالنهر منها ذو صفا * والزهر مفتر المباسم
والغصن يثنى عطفه * طربا بالتغريد الحمائم

هذى نوافل ياأما * م الدهر ليست بالاوازم
العذر عنها مجمل * عبدا لمعالك جد خادم
بل أنت فوق العذر قد * أصبحت للشعرى تنادم
لازال دهرك سيدى * يلقاك منه ثغر باسم
يهدى اليك من المرا * حم والمكارم والعنائم
مالا يساوم مثله * ذو الحظ فى اسنى المواسم

العبد الحقير الداعى لاستاذه مولاى الاجل بالتمكين أحمد بن شاهين حامدا مصليا مسلما انتهى وقال مستخبرا

الشيخ يشرب ماء * ونحن نشرب قهوه

فقلت

لانه ذو قصور * فغط بالعذر سهوه

ولما أزمعت العود الى مصر أوائل شوال سنة ١٠٣٧ خاطبنى بقوله

أبدا اليك تشوقى وحنينى * والى جنابك ماعلمت سكونى
ولديك قلبى لايزال رهينة * علقت وتعلم دمعة المرهون
وعليك قد حبست شوارد مدحتى * لما رأيتك دون كل قرين
قلبى كقلبك فى المحبة والهوى * اذ كان فى الاشواق دينك دينى
وليته بهواك أرفع رتبة * وغدوت تعزل عنه كل خدين
واطاع أمرك فى الوداد وانما * منه وحاشا سلوة يعصينى
ما كنت أحسب قبل طبعك أن أرى * يوما عطارد ناطقا بفنون
حتى رأيتك فاستبنت بأنه * يروى أحاديث العلا بشجون
و يفيد معنى محراب النهى * ويرى عيونى آية التكوين
يامن غدا يحيى القلوب بلطفه * ويرد الاماس عن جبرين
أحييت بالوحى المبين قلوبنا * وحلى لعمر الله جد مبين
هذى دمشق لعمر حلقك روضة * قد جاد طبعك دوحها بعيون
قد زارها غيث الندى فنهارها * أضحى يلوح بحله السرين
لولم تكن بدرا لما أحرزت ما * قد خص فى الانوار بالتلوين
حققت ماقد قيل حين حللتها * ان المكان مشرف بمكين
هى غادة حليتها فتزينت * ما كان أحوجها الى التزيين
مولاى أحمد ياسليل بنى العلا * يادون مدحى فيك أو تحسينى
أغنى وجودك وهو عين الدين عن * علامة الدنيا لسان الدين
انظره تستغنى به عن غيره * والى العيان ارغب عن المظنون
تلقى علوم الناس فى أوراقهم * وعلومه فى صدره المشحون
فعلمه اعبركل بحر زاخر * وبفهمه اسرع غامض المخزون

حمائمك ان الدمع بالود معرب * وانى فى شرق وأنت مغرب
ورحالك لى ابى قتيل صبابة * بمن هو أوفى فى الفؤاد وأنجب
ووعدك لى بالعود ابى معلل * به مهجة قد أوشكت تتصوب
وهبتك قلبى ماحييت ولم أقل * ولكن من الاشياء ماليس يوهب
فلو كنت شيخا واحدا هدمته * فكيف بشيخ لم يكن مثله أب
وانا بحمد الله لما حصصتنا * بزورة ذى ود دعاه التحبب
حرسها الله من الحدود مواطنا * وعدنا به شوقا نجىء ونذهب
وقل لدمشق أنت فيها بحكم * وأشرافها ودوا وجدوا ورحموا
وأنت لها روح ومولى ومفخر * وقدريت شرقا مثل ما ازدان مغرب
ونفخر اعظيما يا ابن شاهين انه * غدا وكرنا نسر السماء فيه يرغب
فحسن ونحن الناس خدام نعله * فلا غرو أن يقلى الغضنفر أكلب
وما نقموا منه سوى انه امرؤ * ليأكل فيما قدروه ويشرب
هو الشيخ شيخ الدهر أحمد من غدت * دمشق ومن فيها اعلياه تخطب
هو المقرى العالم العلم الذى * اليه تناهى الفضل والمجد ينسب
وما هو الا الشمس أزمع رحلة * وانا الى ليل اداهى تغرب
أو الغيث قد وافى فأمرعت النهى * به واشى والصدر بالود معشب
أو الطائر العنقاء جاء مشرقا * فأغرب والعنقاء فى الطير معرب
وانك للعلل الوفى وانه * هو الواحد المطلوب ان عز مطلب
وانك بالتحقيق فى كل حالة * لاسنى وأندى ثم أوفى وأغرب
رعى الله وجهاات ترغب نحوه * وأى أخى جد له أنت ترغب
وحما الحيا أرضا وطئت ترابها * فأصبح مسكا وهى بالمجد تخصب
ولا فارقت يوما علاك كلاءة * من الله أنى كنت والله أغلب
مدى الدهر ماحنت حوائج واله * مشوق فأمسى للحقيقة يطرب

ولما قرأ على أدام الله تعالى عزته وحرس حوزته عقيدتى المسماة باضاءة الدجنه فى عقائد أهل السنه سألنى أن أجيزه فيها وفى غيرها فكتبت اليه ما نصه

أحمد من أطارفى حوالعلا * صيت ابن شاهين الذى زان الحلى
ووراش منه للمعالى أجنحه * نال بها فضلا عدا مستنجحه
وأسكن البيان من أوكار * أبهامه بقنة الافكار
واصطاد كل شارد بعقاب * أبحاثه ومن يعارض يغلب
والصقر لا يقاس بالبغاث * والحق ممتاز عن الاضغاث
نشكر من بلغه مناه * على نواله الذى سناه
ونهدى نهج صلاة باديا * لخير من جاء الانام هاديا
مبينا دلائل التوحيد * وموضحا طرائق التسديد

كذاك ما ألفت فى عمامه * من خص بالاسراء والامامه
والفقه والحديث والنحو وفى * أسرار وفق وهو بالقصد وفى
وغيرها مما به الوهاب من * على فقير عاجز فى غير فن
وما أخذت فى بلاد المغرب * عن كل فذ فى العلوم مغرب
ولى أسانيد اذا سردتها * طالت وفى كتبى قد أوردتها
وقد أخذت الجامع الصحيحا * وغيره عمن حوى الترجيحا
عمى سعيد عن سمين وهو عن * القلقشندى عن الواعى السنن
العسقلانى الشهاب بن حجر * بماله من الروايات اشتهر
وقد أجزته بكل مالى * يصح من ذاك بلا احتمال
على شروط قرروها كافيه * ليست على أفكاره بخافيه
وقال هذا المقرى الخطا * والعى عم لفظه والخطا
عام ثلاثين وألف بعدها * سبع أتت فى السنين عدها
وكان ذا فى رمضان السامى * بحضرة السعد دمشق الشام
والله نرجو أن يتيح الختما * بالخير كى نعطى القبول حتما
بجاه خير العالمين أحمدا * صلى عليه الله ما طال المدى
وآله وصحبه ومن زكا * ما نال من حسن الختام مدركا

وتذكرت بهذه الاجازة نظيرتها التى سألنى فيها مولانا عين الاعيان مفتى الانام فى مذهب النعمان مولانا الشيخ عبد الرحمن العمادى مفتى الشام حفظه الله تعالى لاولاده الثلاثة وكتب لى أصغرهم سنا استدعاء لذلك

أحمد من شيد بالاسناد * بيت العلوم السامى العماد
وعم من خصص بالروايه * بنورها النافى دجى الغوايه
وزان صدر النبها كل زمن * بجوهر الاجازة العالى الثمن
نحمده سبحانه أن عرفا * من الحديث ما به قد شرفا
ونسأل المزيد من صلاته * لمن أتيح القصد من صلاته
والجوهر المعصوم أعلى سند * لنا رغم جاحد مفند
كهف الضعيف والقوى المرتجى * باب الهدايات وليس مرتجا
من جاءنا بالجامع الصحيح من * كلامه الهادى الى نهج أمن
من فضله ما شك فيه مسلم * من حمده بكل خير معلم
نبينا المرسل ذو الخلق الحسن * والمعجز المفحم أرباب اللسن
محمد المرفوع قدره على * سائر خلق الله جل وعلا
صلى عليه ربنا وسلما * أزكى صلاة ننتحيها معلما
مع آله وصحبه ومن روى * آثاره عن صحة وما غوى
وبعد فالعلم عظيم القدر * وليس من يدرى كمن لا يدرى

وما أخذت عن شيوخ المغرب * وغيرهم من كل حبر مغرب
ولي أسانيد يطول شرحها * شيد على تقوى الاله صرحها
ولو سردت كل مروياتي * هنا لطال القول في الابيات
وكل طول غالبا مملول * وحد من يعني به مفلول
فلنقتصر اذن على القليل * تبركا بالمطلب الجليل
وقد أخذت جامع البخاري * عن عمي الحائز للفخار
المقري سعيد الامام عن * محمد يدعى شريفا حين عن
التونسي الطيب الانفاس * نزيل حضرة الملوك فاس
عن الكمال القادري المرتضى * عن الحجازي عن الحبر الرضا
نجل أبي المجد عن الحجاري * عن الزبيدي بنقل جاري
عن مسند الاسلام عبد الاول * عن الشهير الداودي المعتلي
عن السرخسي عن الفربري * عن البخاري الامام الحبر
وفضله أظهر من أن يذكر * وعلمه المعروف غير المنكر
ومسلم بدا الى الكمال * عن علم الدين أخي الجلال
منسوب بلقين عن التنوخي * عن ابن حمزة عن الشيوخي
كابن المقير عن ابن ناصر * عن ابن منده اللبيب الناصر
عن جوزقي قد روى عن مكي * عن مسلم نافي دياجي الشك
فليعتبر واعني بدا والباقي * من ستة حائزة السباق
كذا موطأ الامام مالك * امامنا منير كل حالك
ومسند الفذ الرضا ابن حنبل * والدارمي ذي الثناء الاجل
والطبراني وما أرويه * من المعاجم بما تحويه
وكلها تشمله الاجازه * بشرطها عند الذي أجازه
فلتقبلوها فهي من جهد المقل * اذ لست بالمطلوب مني أستقل
ومن أسانيدي عن القصار * مفتي الانام بهجة الاعصار
عن شيخه معروف الراقي الدرج * عن الشريف الطحطحاني ذي فرج
قال سمعت المصطفى في النوم * صلى عليه الله كل يوم
يقول من أصبح يعني آمنا * في سربه الحديث فاعرف كامنا
وأمسك العنان في هذا الارب * مصليا على الذي زان العرب
وآله وصحبه الاعلام * ومن تلا من أنجم الاسلام
وخط هذا المقري العاصي * أحمد يوم الاخذ بالنواصي
سنة سبع وثلاثين تلت * ألفا لهجرة بياسين علت
عليه أزكى صلوات تستتم * نرجو بها الزلفى وحسن المختتم

ونص الاستدعاء المشار اليه هو

الاوزعي الالمعي يحيي * لا زال رسم المجد منه يحيا
وهو الذي أعزاه حسن الظن * على ائتمانه لاخذ عني
وكان قارئ الحديث النبوي * لدى في الجامع أعني الاموي
بمحضر الجمع العزيز الوافر * من وجوه اصحابهم سوافر
وبعد ذا استمطر الاجازه * من نوء وعدي واقتضى انجازه
فلم أجد بدا من الاجابه * مع أني لست بذي النجابه
وان أكن أجبت أمرا يمتثل * منه ففي ذلك تصديق المثل
فمن دري شيأ وغابت أشيا * عنه ومن أهدي اصغاوشيا
وليروعني كل مايصح لي * بشرطه الذي يزين كالحلي
وقد أخذت جامع البخاري * عن عمي الامام ذي الفخار
سعيد الذي أخذ عن دأس * عن شيخه الحبر الشهير التنسي
أعني أبا عبد الاله وهو عن * والده محمد راوي السنن
عن ابن مرزوق محمد الرضا * عن جده الخطيب عن بدر اضا
الفارقي عن امام يدعى * بابن عساكر الجليل المسعى
عماله من الروايات التي * عليه علو قدره قد دلت
وليروعني ما نمي للنووي * بذا الى السابق ذي المنهج السوي
أعني ابن مرزوق الخطيب الراوي * عن شيخه يحيي الرضى المغراوي
وهو روى عن صاحب التمكين * النووي الشيخ محيي الدين
وخطه هذا أحمد الذي الوجل * المقري المالكي على عجل
في عام ألف وثلاثين خلت * من هجرة الهادي وسبعة تلت
أسأله الله السرور الصافيه * من منه وعفوه والعافيه
بجاه سيد البرايا طرا * طه من الى الكروب اضطرا
عليه أسنى صلوات تسدى * حتى الختام بلوغ القصد انتهى

وسأل مني بعض ساكني دمشق المحروسة أن أقرظ له على شرحه لرسالة العارف بالله تعالى سيدي الشيخ ارسلان فكتبت ما صورته

أحمد من خصص بالاسرار * قدما من الصوفية الابرار
أتاحهم عوارف المعارف * والحكم السابغة المطارف
فهم بهم تستمطر الانواء * وتظهر الانوار والاضواء
ومن أجلهم سناء وسنى * من ذاد عن المعالي الوسنا
شيخ الشيوخ العارف الكبير * الشيخ أرسلان الشهير
وكم اشارات له أبانا * بها علوما من حلاها ازدانا
وكم عبارات تلا آياتها * تعيا العقول عن مدى غاياتها
ومن رأى رسالة التوحيد * له انتحى مناهج التسديد

هو قطب دائرة الفضائل فى الورى * فيكاد يخبرنا بكل مغيب
فى الفضل ما طاولت يوما مثله * كلا ولا قست البدور بكوكب
أنى يجارى فى الفضائل من له انـ * ـقاد الزمان بأدهم وبأشهب
سنن لمدح الغير تسقط عندنا * فله العلا تقضى بفرض أوجب
ما روضة حلى أزاهرها الحيا * فافتر فيها كل ثغر أشنب
ومشت بها خود الصبا فتعطرت * أذيالها من كل عرف طيب
للنور فيها جدول أخذت به * شهب المجرة حيرة المتعجب
باتت تناشدنى بها ذكر الهوى * ورق الاراك بكل صوت مطرب
تشكو الى بمثل ما أشكو لها * شكوى المعذب فى الهوى لمعذب
فعلت ما قد حل من وجد بها * وجهلن وهو الفرق ما قد حل بى
لم تلق فيها من عليل يشتكى * الا النسيم وذا الهوى ان تطلب
بأعض حسنا من رياض آداب من * حيا رياض حجاه ألطف صيب
طبع أرق من النسيم ومنطق * مستعذب وكذاك كل مهذب
لو جاد صوب حجاه قفرا مجدبا * لنعمت منه بكل روض معشب
مولاى عذرا فالزمان يعوقنى * عن مطلبى والآن مدحك مطلبى
عفوا اذا أخرت مدحك سيدى * فعوائق الايام عذر المذنب
وكذاك يفعل بالاديب زمانه * فلذا يطول على الزمان تعتبى
لم ألق يوما من يديه مهربا * الا ثناك وحبذا من مهرب
لولاك ما جال القريض بخاطرى * فالدهر يوجب للقريض تجنبى
لولاك لم ينهض جواد قريحتى * فى كل واد للصلالة متعب
فاسمع ولست بآمر نظما غدا * فى عقد مدحك لؤلؤا لم يثقب
كالراح يلعب بالعقول للطفه * لكن بغير مسامع لم يشرب
من كل قافية غدت من حسنها * مثلا لغيرك فى العلا لم يضرب
خود تقلد من ثناك قلائدا * بكر لغيرك فى الورى لم تخطب
غنيت عند حلك زينة ولربما * يغنى الجمال عن الوشاح المذهب
هى بعض أوصاف لذاتك قد غدت * كالبحر عذبا ماؤه لم ينضب
جاءتك تسأل القبول وحسبها * فخرا قبولك وهو جل المطلب
وتروم منك اجازة فاقت بما * ترويه بالسند القوى عن النبى
حسبى الاجازة منك جائزة ولم * أك قبل غير الفضل بالمتطلب
لابدع والاعجاز اطنابا غدا * فى مدحه ان لم أطل أو أسهب
هيهات لا تحصى مآثر فضله * بالمدح ان أطنب وان لم أطنب

خدمة الداعى محمد بن يوسف الكريمى انتهى فأجزته بما نصه

أحمد من أطلع شمس الدين * فى أفق الرواية المبين

فأجزته بما نصه

أحمد من أطلع من محاسن * دمشق ما أربى على المحاسن
وزانها بالجلة الاعيان * الرافلين فى حلى التبيان
الراغبين فى الحديث السوى * السالكين فى الهدى النهج السوى
وبعد فالعلم أجل زينه * وسبله فى الرشد مستبينه
وان علم السنة الشريفه * ظلاله ضافية وريفه
لذاك كان باعتناء أجدرا * من كل ما عليه من تصدرا
وان ذا الفضل الاديب البارع * سابق ميدان الذكا المسارع
الماجد المسدد السامى الحسب * محمد من للمحاسن انتسب
ابن الشهير الصدر تاج الدين * لازال فى عز وفى تمكين
وجده لامه الشيخ الحسن * وذا الذى ورينيهم معطى اللسن
سألنى اجازة بكل ما * أرويه عنوانا بحالى معلما
وها أنا أجبته غير بطل * مستغفرا من خطا ومن خطل
فليروعنى كل ما يصح * على شروط عندها يصح
وهى عن الشروط لن ترعيا * وليس يخفى علمه الكريما
وكل ما ألفت أو جمعت * نظما ونثرا مثل ما أسمعت
ولى أسانيد يضيق الوقت * عن سردها وبعضها قد سقت
فى غير هذا اليحق ذلك * مقتبسا لاوضح المسالك
وقد أخذت جامع البخارى * ومسلم عن حائز الفخار
عمى سعيد وهو عمن يدعى * بالتنسى قد أفادا لجمعا
عن حافظ الغرب الرضا أبيه * عن ابن مرزوق عن النبيه
الحافظ المبجل العراقى * وقد سما فى سلم المراقى
وماله من الروايات علم * من كتبه التى حوت خير الكلم
وخط هذا المقرى عن عجل * مؤملا من ربه عز وجل
غفران ما جنى من الذنوب * والصفح عن معرة العيوب
بجاه خير العالمين أحمدا * صلى عليه الله دأبا سرمدا
وآله وصحبه الاخيار * ومن تلا لآخر الاعصار

ولما سألنى فى الاجازة الفاضل الاديب سيدى محمد بن على ابن مولانا عالم الشام الشهير الذكر شيخ الاسلام سيدى ومولاى الشيخ عمر القارى حفظه الله تعالى وأنا مستوفز للسفر كتبت له عن عجل ما صورته

أحمد من زين بالآثار * جيدا من الراوى النبيه التارى
وشاد للعلياء فى أوج السند * منازلا لم يلهها طول الامد
وميز الواعين للحديث * بالفضل فى القديم والحديث

فلتبروها ان شابلا استنماء * والله أرجو نيل قصد نائي
بجاه من شرف بالادناء * صلى عليه الله فى الآناء
أحمد خير المرسلين الهادى * غوث البرايا ملجأ الاشهاد
عليه أسنى صلوات زاكيه * مع صحبه ذوى المزايا الزاكيه
ومن تلا ممن أطاب عمله * فنال من رجائه ما أمّله
وشم من عرف قبول أرجا * ونال من حسن الختام مارجا

وخاطبنى من أهلها أيضا خادم الشيخ الاكبر ابن عربى محيى الدين وهو الشيخ الاكرمى سيدى ابراهيم سالك الله بى وبه سبل المهتدين بقوله

فكرت فى وصل الاما * م المقرى الحبر حينا
فوجدته بكرا لزما * ن وواحد الدنيا يقينا
ماان رأيت ولا سمعت * مثله فى العالمينا
وافى دمشقا زائرا * ألوانه أضحى قطينا
وأتى بحب الاتما * ق بعطر شهر الصائمينا
فكان غرته الهلا * ل ونحن كنا ناظرينا
والعلم قال مؤرخا * أدى بها وصلا مبينا

وخاطبنى أيضا منهم الفقيه النبيه سيدى مصطفى بن محب الدين حفظه الله تعالى بقوله

فضائل قطب الغرب فى العلم والفضل * هو المقرى الاصل حائزة الخصل
حوى كل علم كل عن بعضه السوى * فلا غرو ان أضحى فريدا بلا مثل
وحاز فنونا من ضروب معارف * ومن فضل تحقيق ومن منطق فصل
توخى دمشق الشام فافتر ثغرها * سرورا به وازينت من حلى الفضل
وشرف مصرا قبلها فاكتست به * ملابس فخر رامها أكرم الاصل
لقد أشرقت من أفق غرب شموسه * وناهيك أفقا نوره قدره يعلى
نفاسته فيها تنافست الورى * عاقد غدا من در ألفاظه يملى
ملى من التحقيق ان عن مشكل * تكفل بالتبيان والشرح والحل
اذا ما أدار الدر من كاس لفظه * سقانا عقارا الفصل علا على نهل
نظام له يحكى قلائد عسجد * وثغر مليح فائق الحسن والدل
وأسجاعه ان حاك وشى نسيجها * حكت حبرا حيكت عارق من غزل
له القلم الاعلى بشرق ومغرب * له الموضع الاسنى على الكل فى الكل
فيا سيدا حاز المفاخر والعلا * وفاقت حلى الآداب منه على الحلى
اليك من العبد الحقير تحية * لقد نشأت عن خالص الود من خل
موال يوالى الحب والقرب منكم * بظاهر غيب لا يحيد عن الوصل
فلا زلت محفوفا بسابغ نعمة * وفضل نعيم وافر وارف الظل

وهاك عروسا تجتلى فى حليها * اليك أتت فى زى عذراء ناهد
تهنى بعيد الفطر من بعد صومكم * بخير جزيل من لذيذ الموائد
وترجو جميل الستر ان هى مثلت * بحضرتك العلياء يا خير ماجد
وعش فى أمان الله بالعز دائما * مدى الدهر ما ضح الحيائى العدائد
ومادارت الافلاك من فوق قطبها * ومابزغت شمس الضحى للمشاهد

وقال أيضا اراده الله تعالى من فضله

طبى بوسط الفؤاد قائل * أعجز بالوصف كل قائل
طبى بأجفانه سبانى * وسحرها ينتمى لبابل
يرمى بسهم اللحاظ لما * يرنو فيصمى الفؤاد عاجل
قد دق العقل مذ تجنى * على حتى غدوت ذاهل
له قوام كغصن بان * أو كالقنا السمهرى عادل
بدر بدا كامل المعانى * فى القلب والطرف عادنازل
قد أسر القلب فى هواه * بقيد حسن وفرع سابل
ومابقى منه لى خلاص * سوى مديح رضا الافاضل
أعنى به المقرى من قد * سما على البدر فى المنازل
أحمد مولى له أياد * كالغيث يهمى لكل سائل
علامة حاز كل فضل * سبقا ومن بالعلوم عامل
من قد نشا فى العلوم طرا * وحاز علم البيان كامل
طويل باع بسيط فضل * مديد جود لكل آمل
وافر العقل راح يهدى * سريع فضل لكل فاضل
وجامع العلم فى ابتهاج * بمطلق فى الاصول حافل
وهكذا فى الكلام مهما * أفاده فى الدروس شامل
يروى صحيح الحديث دأبا * بالسند الواصل الدلائل
وكم علوم أفاد من قد * أتاه فى مشكل المسائل
وحل ابهام كل شكل * من فن وفق الى الوسائل
وغاص فى لجة المعانى * واستخرج الدر فى المحافل
وفى فنون البديع أضحى * بجناسه قد حوى رسائل
وكم دليل أقام لما * برهانه ابهت المعارل
ان كان وافى لنا أخيرا * فهو الذى فاخر الاوائل
بحر محيط يفيض منه * على رياض بكل ساحل
وافى من الغرب نحو شرق * يجوب من فوق متن بازل
فى مهمه صحصح سهول * وحزنه كم به غوائل
وحث فيه السير حتى * حل به من وراء كاهل

وما بالحسن في أمان * وصحبه الحشم والشمائل
وحل في الشام عند قوم * من أكرم الناس في القبائل
فالشام ساهر ذو المعالي * رب الندى للألوف باذل
كأنه الشمس حين تبدي * للمستدير نورا وليس آفل
لو كان غيثا لهم وكانوا * روضا لزادت بالشكر وابل
فصافوه وعظموه * وأدركوا عاجلا لآجل
جزاهم الله كل خير * وصانهم من حدال ساهل
وأحمد دام في أمان * المقري الرضا الفاضل
لأنه في دجى الليالي * ويرشد الناس في المسائل
لا زال في نعمة وخير * وفي أمان بعود عاجل

وخاطبني الأديب الفاضل الشيخ أبو بكر العمري شيخ الأدباء بدمشق حفظه الله تعالى بقوله

يا من طال على بدر الهدى * عالم في العالمين محمد
المقري أحمد رب الحجا * الكامل الحبر الخضم المزبد
مالك هذا العصر شافعيه * أحمد نعمانه المسدد
قد حل مصر الدمشق أعلى بها * أهله وحلوا وتحمدوا
وفي دمشق الشام دام سعدها * كان لها المقام الأسعد
العلماء أجمعوا جميعهم * على معاليه التي لا تجحد
أقام شهرا أو يزيد وانثنى * وفي الحشا منه الهيام المرقد
سالت على فراقه دموعنا * وفي القلوب زفرة لا تخمد
لو قيل من تحمد في تاريخه * ما ذاك إلا المقري أحمد
لا برحت أوقاته مسعدة * ما صاح ورق عوده مغرد

فقد ذكري لكلام أعيان دمشق حفظهم الله تعالى ومدحهم لي ليس علم الله لاعتمادي في ذلك سبيلا بل لأن فيه دلالة على فضلهم الباهر حيث عاملوا مثلي من القاصرين بهذه المعاملة وكونهم حالوا لي الحالة مع كوني لست في الحقيقة بأهل لما قالوه من الخطأ والخطل والجهل * وأما ما خاطبني به من خير مغني الشام صدر الأكابر وارث المجد كابرا عن كابر صاحب أذيال الكمال صاحب الجلال المبلغه الآمال مولانا شيخ الإسلام الشيخ عبد الرحمن العمادي المفتي بكتاب لم يحضرني منه الآن غير بيتين في أوله وهما

يا هادي الأظعان نحو الشام * بلغ تحياتي لذلك المقام
وابدأ بعدها العمادي الرضا * دام بفضل الهنا في الشام

فأجابني عما نصه

الى أهالى مصر أهدى السلام * مبتدئا بالمقرى الهمام
من ضاع نشر العلم من عرفه * ولم يضع منه الوفا للدمام

أهدى تحف التحيه الى حضرته العليه وذاته ذات الفضائل السنيه الاحمدية التى من صحبها لم يزل موصولا بطرائف الصلات والعوائد الاوحدية الجامعة التى لها منها عليها شواهد

وليس لله بمستنكر * أن يجمع العالم فى واحد

فما من جذب قلوب أهل عصره الى مصره وأعجز عن وصف فضله كل بليغ ولو وصل الى النثرة بنثره أو الى الشعرى بشعره ومن زرع حب حبه فى القلوب فاستوى على سوقه وكاد كل قلب يذوب بعد بعده من حر شوقه وطهرت شمس فضله من الجانب الغربى فبهرت بالشروق وأصبح كل صب وهو الى بهجتها مشوق زار الشام ثم ما سلم حتى ودع بعد أن فرع بروضها أفنان الفنون فأبدع وأسهم لكل من أهلها نصيبا من وداده فكان أوفرهم منها هذا المحب الذى رفع بصحبته سمك عماده وعلق بمحبته شغاف فؤاده فانه دنا من قلبه فتدلى وفاز من حبه بالسهم المعلى أدام الله تعالى لك البقا وأحسن لنا بك التلاقى ومن علينا منك بنعمة قرب اللقا آمين بمنه ويمنه هذا وقد وصل من ذلك الجناب الوفى كتاب كريم هو اللطف الخفى بل هو من عزيز مصر القميص اليوسفى جابه البشير ذو الفصل السنى الخل الاعز الاجل التاج المحاسنى مشتملا على عقود الجواهر بل النجوم الزواهر بل الآيات البواهر تكاد تقطر البلاغة من حواشيه ويشهد بالوصول الى طرفها الاعلى لموشيه فليت شعرى بأى لسان أثنى على فصوله الحسان العالية الشان الغالية الاثمان التى هى أنفس من قلائد العقيان وأبدع من مقامات بديع الزمان فطفقت أرتع من معانيها فى أمتع رياض وأقطع بأن فى منشئها اعتياضا لهذا العصر عن عياض

ليت الكواكب تدنو لى فأنظمها * عقود مدح فلا أرضى لها كلمى

ولاسيما فصل التعزية والتسليه المشتمل على عقد التحليه بل عقود التحليه لتلميذكم الولد ابراهيم فانه كان له كرقية السليم بعد أن كاد يهيم بجاه والله درة فى أحسن المحال ووقع الموقع حتى كان الولد نشط ببركته من عقال

واذا الشئ أتى فى وقته * زاد فى العين جمالا لجمال

فجزاكم الله تعالى عنا أحسن الجزاء ثم أحسن لكم جميل العزاء فيمن ذكرتم من كريمى الاصل والفرع وأبقى منكم ما مكثنا فى الارض من به للناس أعم النفع وأما مصيبة من كان ولى وسميى ومنجدى الشهيد السعيد المرحوم الشيخ عبد الرحمن المرشدى فانها وان أصابت منا ومنكم الاخوين فقد عمت الحرمين بل طمت الثقلين ولقد عد مصابه فى الاسلام ثلمه وفقد به فى حرم الله تعالى من كان يدعى للملمه ولم يبق بعده الا من يدعى اذا بحاس الحيس واستحق أن ينشد فى حقه وان لم يقس به قيس

وما كان قيس هلكه هلك واحد * ولكنه بنيان قوم تهدما

فالله تعالى يرفع درجاته في عليين ويقي وجودكم للاسلام والمسلمين ولا عدمكم الاولاد يرجون من بركات أدعيتكم أعظم الامداد ويهدون أكمل التحية الى حضرتكم العلية ويبلغكم دعا صاحب السعادة أدام الله تعالى اسعادكم واسعاده ومن في صحبته البهية في رياض دون أدنيه أبهاها المعاني تحاضره في ذكر سماتكم الجليلة نور المجالس وأبهاها نسمات تحاور نشر صفاتكم الجليلة بعطر المجالس وسلام جملة الاصحاب من أهل الشام وعامة الخواص والعوام والدعا على الدوام المخلص الداعي عبد الرحمن العمادي مفتي الحنفية بدمشق المحمية *(وورد علي مع المكتوب المذكور مكاتبات لجماعة من أعيان الشام حفظهم الله تعالى منها من الصدر الجليل الزائل في حال الجد الصميم الخطيب الاديب سيدي الشيخ الحاجي يحيى أبقى الله تعالى قدره في الدين والدنيا كانات نص أولها ما نصه بحاله

لئن حكمت أيدي النوى أو تعرضت * عوارض بيننا وشرق وطرقي الى رؤياكم حروف * ودائي الى أشباحكم مشوق

يقبل الارض المشرفة لا زالت مركز الدائرة الباهرة ونقطة الفلك تجري الجوزاء على مجرته على الدوائر والنوادي ولا برحت ألسن البلاغة عن عمر بلاغة يرتاحي جباهها معرفة ولا زال الآداب على الاغصان في رياض فصله تعانق السما صادحة وبالحان سجعها مطربة

أرض بها فلك المعالي دائر * والشمس تشرق والبدور نجوم ولها من الزهر المنضد أنجم * ولها على أفق السما تحوم

عمر الله تعالى بالمسرات محلها وعم بالخيرات أهلها ويهدي سلاما تخبر عن صحيح ود السالم ومزيد غرام تؤكده الذي هو للولا جازم وتشوقا تحرك ما سكن صميم الضمير في صدق حب سلم جمعه من التكسير ونؤكد السلام بتوابع المدح والثنا ونعرب عن محبة مستند البنا ونبدي أن السبب في سطرها والباعث على تحريرها اشواق أضرم نارها في الفؤاد ومحبة لو قسمت لملأت البلاد

شوقي اليك لا زال أرى * أحد بالامام العصر أقدمه ولي فم كاد ذكر الشوق يحرقه * لو كان في قال نارا حرقته

هذا وان تفضل المولى بالسؤال عن حال هذا العبد فهو باق على ما شيدته الذات العلية في صدق المحبة وحق العبودية ولم يزل بين أولي المجالس يذكركم ولا تعطف عن الخاطر الامين ذكركم ولم ينس حلاوة العيش في تلك الاوقات التي مضت في خدمتكم المحروسة بعناية الملك المتعال وتلك الليالي التي هي لما كانت بالعراق لنا الليالي

وامالها من ليال هل تعود كما * كانت وأي ليال عاد ماضيها لم أنسها مذ نأت عني بهجتها * وأي أنس من الايام ينسيها

ونسأل الله تعالى ان يمن بالتلاقي ويتفضل بانعكاس الجمع بعد تشتيت العراق انه قادر على الله

بسير وهو على جمعهم اذا يشاء قدير وبعد فالمعروض على مسامع سيدي الذي الكريمه لازالت من كل سوء سليمه انه وصلنا مكتوبكم الكريم صحبة العم المحب القديم فحصل لهذا العبد به جبر عظيم وانس جسيم كما شهد بذلك السميع العليم فعزمت على ترك الاجابه لعدم الاجاده ومتى تبلغ الالفاظ المذمومة ما بلغته الالفاظ المقربه وأين يصل صاحب الزمن كما قيل الى الدقات الخليليه ولكني خشيت من ترك الاجابة توهم نقص ما أبنيه من رق العبوديه وصحة الوداد ومن انقطاع برق شيمي الذي هو لميث شرفي العمدة والعماد فلزم من ذلك أن كتبت لجنابه الشريف الجواب وان كان خطؤه أكثر من الصواب وأرسلته قبل ذلك بعشرة أيام ومكتوب هذا العبد صحبته مكتوبان أحدهما من محبكم شيخ الاسلام المفتي العمادي والآخر من محبكم أحمد أفندي الشاهيني وهما وبقية أكابر البلدة وأعيانها يبلغونكم السلام التام ولا تؤاخذونا في هذا المكتوب فاني كتبته عجلا ومن جنابكم خجلا دام خيركم على الدوام الى قيام الساعة وساعة القيام وحرر يوم الاثنين ١١ جمادى الثانية سنة ١٠٣٨ الفقير الداعي يحيى المحاسني انتهى *(ونص الكتاب الثاني من المذكور أسماه الله باسمه سبحانه مخلصك الذي محض لك وداده ومحبك الذي أسلم لمحبتك قياده بل عبدك الذي لا يروم الخروج عن رقك وتلميذك الذي لم يزل معترفا من فيض علومك معترفا بحقك من أسكنك لبه وأخلص لك حبه واتخذك من بين الانام ذخرا نافعا وكهفا مانعا ومولى رفيعا وشهابا ساطعا وتشبث باسباب علومك وتمسك يهدي اليك سلاما كأنما تعطر بسك شمائلك وتمسك واكتسب من لطف طبعك الرقه واستعار من سنى وجهك حله مستحقه وتحية لم يكن مناه الآن تكون بالمواجهه والمحاضرة والمشافهه على أن فؤاده لم يبرح لك سكنا وأحشاءه لك موطنا ويبدي دعوات يحقق الفضل انها من القضايا المنتجه وأن أبواب القبول لها غير مرتجه مقبلا أياديك التي وكفت بوابل جودها وكفت المهم نتائج سعودها وحاكت الوشي المرقوم وسلكت الدر المنظوم فهذا يرفل في حلاها وهذا يتحلى بعقودها

فهي التي تعنو الرياض لرقها * ويغار منها الدر في تنضيدها

ويحار أرباب البيان لنظمها * فهم بحضرتها كبعض عبيدها

متمسكا من ولائك بوثيق العرى متمسكا من شمائلك الذي لا يزال الكون منه معنبرا متشوقا للقاء انك الذي بالمهج يستام وبالنفوس يشترى متشوقا الى ما يرد من أنبائك التي تسر خبرا وتحمد اثرا أعني بذلك المولى الذي أقام بفناء الفسطاط مخيما وانتجع جاورا لذالفضل ميمما وشدت لقصده الرحال ووقفت عندها بل دونها فحول الرجال وطلعت شموس علومه في سماء القاهره فاختفت نجوم فضلائها والاشعة باهره

هو الشمس علياء والجميع كواكب * اذا ظهرت لم يبد منهن كوكب

نور العالم الذي سرى ذكره في الآفاق مسير الصبا جاذبة ذيلها النسيم الخافق الذي أطلع

يجني الخصوص من أدويته، وأظهر درّ التدقيق في بيانه، فلهذا عقدت عليه الخناصر
بين علماء عصره، وانعطفت إليه الأواصر في فضلاء مصره، فلا إصابة أسدّ في رمايته
وتبيين ما تسمه من درّ ومرجانه، فهو المعول عليه في مشكلات العلوم معقولها
ومنقولها والمطلوب والمفهوم الذي لم تسمح بمثله الأزمان والعصور، ولم تأت بنظيره
في تتابع الأعصار والدهور، من عجز لسان القلم عن التصريح بأنه السرّ في هذا الرقم
لا زالت المدارس مشرقة بآياته فيها الدروس، ولا برحت النعم عامرة بوجود بعد
الدروس، ما سطرت آيات الأشواق في الصحائف والطروس، وأرسلت من لدن أستاذ
يستنبه الخجل على المطلوب في معرفة العروس، هذا والذي يبدي لحضرتكم
ويبين لعلمكم أن الرافع لهذه الصحيفة المشرفة بعض أوصافكم الطيبة
المرسلة لساحة فضائلكم المنيفة، هو تلميذكم في معرفة تدريسكم، والمفتخر بآثاركم
يبدي لكم بلوعة لهيب أشواقه إلى القرب، وأسفه على الأيام السالفة مدته
في خدمتكم لا ذهبت، ووجهه لهذه الأزمان التي أمرّ حجبت بالقذعة من دمه
ما وهبت، وتطلعه إلى ما يتسبب به الاجتماع من وصالكم إلى نيل المقبول وإتيهت
فلم يزل يسأل الزوار عنها ليتعطفها ووجده في أن يراها لا تأتي لها ناطق ولا يدرك
كنهها، وكيف لا ومنها نهل الفاضل اللبيب والماهر المفيد، ووجد الحبيب
وعلم أنه من أين العميد، ولم يعلل رأسه في درج المريد، وعن بذلك بعد الجيد، وعلم
سيدي محمد بن عبد الحق بعض واستعمالها، وقد حرصني على تحصيل فوائد، ولا نار أقتبسها
وأني لا أزال ذاكر الخاصة التي لنسبي في غير مجموعة، ومتطلعا على غيار أفكار
التي هي لا مقطوعة ولا ممنوعة، وخاطر المشرف على الخصيصة يشهد بذلك، فلا يحتاج هذا
العبد إلى تنبيه مولانا الأستاذ المالك، ويخفى على من فارق تلك الأخلاق الغر
والشمائل الزهر والغرر المعروفة والسجايا الموصوفة والفضائل المأثورة والمآثر
المشهورة أن يتوجب الصبر ويعدل النار حشو الصدر

وإني لتعروني لذكراك هزة * كما انتفض العصفور بلله القطر

ولو ملكت مرادي لما أخّر الأمن دراه مرادي، بل لو دار الفلك على اختياري
لما بعدت الأعين لليلي ونهاري

ولو يعطى الخيار لما افترقنا * ولكن لا خيار مع الزمان
وعيب ضلوعي لوعة لو كتمتها * لشق على الأحشاء أن يتضرما
ولو عشت في كتبي بما في جوانحي * لأنطقها نارا وأبكيتها دما

وأنا لا أقترح على الدهر إلا اللقاء، ولا أطلع خاطر الوقت إلا مذكراه، وما أعداني إلى
سعدنا بنهايتنا بها الاصطباح السرور، ومطالع السعود والحبور، ولست أعدمها الإقبال
البقا ومسرعة الانقضا، وكذلك عمر السرور قصير، والدهر بفرق الأحبة بصير، وربما
يسر العود بعد الذبول، وطلع النجم بعد الأفول، وأذن الوصال من الفراق، وعاد
العيش المرحل للتدان

وما أنا من أن يجمع الله شملنا * كأحسن ما كنا عليه بآيس

وأما الآن فلا أرجى الوقت الا بقلب شديد الاضطراب وجوانح لا تفيق من التوقد والالتهاب وكيف لا وحالي حال من ودّع صفو الحياة يوم وداعه وانقطع عنه الانس ساعة انقطاعه وطوى الشوق جوانحه على غليل وحل اضلاعه على كبد دخيل وأغرى بي فارمني ولزمته وألف بيني وبين الوجد فآلفني وألفته فلا أسلك للعزاء طريقا الا وجدته مسدودا ولا أقصد للصبر بابا الا القيته مردودا ولا أعد اليوم بعد فراق سيدي الا شهرا والشهر دون لقائه الا دهرا ولست بناس اياما التي هي تاريخ زماني وعنوان الاماني اذ ماء الاجتماع عذب وغصن الارديار رطب وأعين الحواسد راقده وأسواق صروف الدهر كاسده فما كانت الا لمحة الطرف ووثبة الطرف ولمعة البرق الخاطف وزورة الخيال الطائف وما تذكرت تلك الايام في أكناف فضائله ونضرتها ورياض علومه في طله وخضرتها الا أوجب على عينه أن تدمع وانثنى على كبده خشية أن تصدع ثم لما ورد على عبدكم مكتوبكم الكريم صحبة حضرة العم المحب القديم فكان كالعافية للصب السقيم كما يشهد بذلك السميع العليم فوقف له متصبا وحفي عنه برؤيته وصبا وذكر أيام الجمع فهام وجدا بها وصبا فاستخفه الاعجاب طربا وشاهد صدوره فقال هكذا تكون الرياض وعاين الطافه فقال هكذا تكون الصبا وقبل كل حرف منه ووضعه على الراس وحصل له بعد ترقبه غاية الجبارة والاستئناس وعند ذلك أنشد قول بعض الناس

ورد الكتاب فكان عند وروده * عيدا ولكن هيج الاشواقا
نونانه قد عانقت صاداته * كعناق مشتاق يخاف فراقا
فكأنما النونات فيه أهلة * وكأنما صاداته أحداقا
فعسى الاله كما قضى بفراقنا * يقضي لنا يوما بأن نتلاقى

فجعلته نصب عيني اتسلى به عند استيلاء الشوق على قلبي وأطفئ بتأمله نيران وجدى اذا التهبت في صدري وسررت به سرور من وجد ضالة عمره وأدرك جميع أمانيه من دهره وأنست بتصفحه أنس الرياض بانهلال القطر والساري بطلوع البدر والمسافر بتعريسة الفجر وكيف لا وقد أصبح في وجه الاماني خدا بل في خدها وردا وصار حسنة من حسنات دهري لا يعوض ورا الايام موضعها من صدري وطلعت طوالع السرور وكانت آفله واهتزت غصون الفرح وكانت ذابله لا سيما ما تضمن من البشارة السارة بصحة المولى وسلامته وحلوله في منازل عزه وكرامته وموعده الكريم بعوده الى دمشق الشام كساها نوب الغمام مرة ثانيه ويتم افتخارها على غيرها فلا تزال مفاخرة مباهيه نسأل الله تعالى أن يحقق ذلك وأن يسلك بسيدي أحسن المسالك انه سبحانه وتعالى سامع الاصوات ومجيب الدعوات فان عودكم يا سيدي والله مرة أخرى هو الحياة الشهيه والامنية التي ترتجي النفس بلوغها قبل المنيه وما أنا من الله بآيس من أن يتيح سببا يعيد المزار مقتربا والشمل مجتمعا وحبل البين منقطعا ثم ليعرض

الى نونيماه

يرنحنى اليك الشوق حتى * أميل من اليمين الى الشمال
ويأخذنى لذكراك اهتزاز * كما نشط الاسير من العقال

ولى على صدق هذه الدعوى من نباهته لديه شاهد معدل ومن نزاهة قلبه منزل غير ملوم ولا معذل كيف لا ومطالع البيان مشرقها من أفلاك فهومه وجواهر التبيان مقذفها من بحار علومه وهو بحر العلم الذى لا يقتحم بسفن الافكار وجبل الحلم الذى رجح بالهيبة والوقار

لو اقتسمت أخلاقه الغرّ لم تجد * معيبا ولا خلقا من الناس عائبا

وماذا عسى أصف به مولانا وقد عجز عن وصفه لسان كل واصف وحار فى بث فضائله أرباب المعارف والعوارف

فلو نظمت الثريا * والشعر بين قريضا
وكاهل الارض ضربا * وشعب رضوى عروضا
وصفت للدر ضدا * وللهواء نقيضا

ولكننى أقول الثناء منحصر أنى سلك والسخى جوده بما ملك وان لم يكن نحر فخل وان لم يصبها وابل فطل هذا وقد أوصلنا مكاتيبكم الشريفة لاربابها فكانت لديهم أكرم قادم وأشرف منادم وقد تداولها الافاضل وشهدوا انها من بنات الافكار التى لم يكشف عنها الغير سيدى حجب الاستتار وقد وجدنا كلا منهم ملتهبا بجمرات الشوق متجاوزا حد الصبابة والتوق ليس لهم شغل الا ذكر أوصافكم الحميده وبث ما أبديتموه بدروسكم المفيده وما منهم الا ويرجو بل الصدى ونقع الظما برؤية ذلك المحيا والتملى بتلك الطلعة العليا وان سأل سيدى عن أخبار دمشق المحروسه دامت ربوعها المأنوسه فهى ولله الحمد منتظمة الاحوال امنها الله من الشرور والاهوال ولم يتجدد من الاخبار ما نعلم به ذلكم الجناب لا زال ملحوظا بعين عناية رب الارباب وأنا أسأل الله تعالى أن يصون جوهر تلك الذات من عوارض الحدثان وأن يحمى تلك الحضرة العلية من طوارق حكم الدوران

آمين آمين لا أرضى بواحدة * حتى أضيف اليها ألف آمينا

* وهذا دعاء للبرية شامل * العبد الداعى بجميع البواعث والدواعى تاج الدين المحاسنى عفا الله تعالى عنه انتهى وبالهامش ما صورته وكاتب الاحرف العبد الداعى محمد المحاسنى يقبل يدكم الشريفة ويخصكم بالسلام الوافر ويبث لديكم الشوق المتكاثر غير انه قد نازعته نفسه فى تلك المعاتبه لسيده الذى لم يسعد عبده منه بالمكاتبه على انها مكاتبة تحكم عقد العبوديه ولا تخرج رقبته من طوق الرقيه والمطلوب أن يخصه سيده بدعواته المستطابه التى لا شك انها مستجابه كما هو عليه فى سائر أوقاته وحسان ساعاته ودمتم * فى رابع جمادى الثانية سنة ١٠٣٨ انتهى * وكتب سيدى التاج المذكور لى ضمن رسالة من بعض الاصحاب ما صورته

يا فاضل العصر يا من • للشرق والغرب شرّف
يا أوحد الناس ظرا • في كل ما تصرف
يهدي إليك تحية • دموعه تتذرف
شوقا وودا وقدعا • شكرا له وتعرف

وانتهى خطاب أهل دمشق لي فيما كتبه لي أوحد الموالي الكرام الشريف شمس الاعيان
صدر أرباب البلاغة والبيان مولانا أحمد الشاهيني الشاهد الذكر في هذا التأليف
مرات ضاعف الله تعالى لديه أنواع المبرات والمسرات أمين لتكون مسك الختام إذ
محاسنه ليس يباريها ولا لها اكتتام ونص محل الحاجة منه هو العماس

يا سيدا أحرز حمل العلا • بالباس والرأي السديد السدد
ومن على أهل النهى قد علا • بطبعه السامي الحميد الجدد
ومن رأى الدهر منه حلى • نزل بطبع كالفريد المنضد
ومن غدا فكري منه حلا • بطبعه الملك محمد محمد
ومن له من يوم مالوا إلى • في نهي حب جديد مزيد
ومن غدا من جمع الملا • بالعلم والحلم الوحيد الفريد
أفديك بالنفس مع الأهل لا • بالمال والمال عتيد عديد

أقسم بالله الذي علت كلمته وعمت رحمته ومن جرت العقول والمعقول رأفته ونعمته
وحل الأرواح حدودا محمد عباد بارئ منها ما ائتلف وما تناكر منها اختلف أني
أشوق إلى تقبيل أقدام شيخي من الظمآن للما ومن الساري لطلعة ذكا ولا تسل عن
الاقدام عما يدفع عن السرور الاوام وقد كانت الحال هذه ولم يبق ونية ساحر
الا الانشاد إذ كان حفظه الله تعالى جار الدار فكيف الآن بالعزام وهو حفظه الله
تعالى بمصر وأنا بالشام وأمن عنه مولانا بالانشاد عما الاعنة العائقة عن الجسم
المعنى لعسه الروح عن الجسد البالي المطروح ولا العشية بعد فراقه وهجرانه
ورماه الا كما قال بديع الزمان عنه الحوت في البر والنخل في الحر ولبس البوس اليه
وعاهر والعظم الكسير والنزع العسير والسم يسري ويسير ولمن الصبر عنه
بصبر واعاده الماء والماب والكبد بذا العصاب والصبر حيث الاوصاب
والبين الحادث وأين ذهاب ولا أعرف كيف أصف شرف الوقت الذي ورد فيه كتاب شيخي
بخطه من سار بخطه لي فذكان شرف عطارد حتى اجمع من أنواع البلاغة عند
كل شارد وأما خطه فكما قال الصاحب بن عباد أهذا خط قابوس أم جناح الطاوس
أو كما قال أبو الطيب

من خطه في كل قلب شهوة • حتى كأن مداده الاهواء

وأنا لا أدري ما هو أبدع وأبرع وفي هذا الباب أنفع وأجمع له وحفظ أمان من الزمان
والغير من طوارق الحدثان والحزن الحرير والكلام الجزل الارير والجوهر الفرد من
العرر وأما الكتاب منه فقد حدى عليه احوالي واستخبره أهلي وحلالي

وكان تقبيلي لا ماليه أكثر من نظري فيه شوقا الى تقبيل يد وشمته وحشمته واعتيادا للثم أنامل بسمته وسمته وأما البراعة فلا شك انها موع البراعة حتى جرى من سحر البلاغة منها ما جرى فجاء الكتاب كسحر العيون * بما راح يسبي عقول الورى وينادي باحراز خصل السبق من الثريا الى الثرى ولم أر كتابا قبل تكون محاسنه متداخلة مترادفه ولطائفه وبدائعه متضاعفة متراصفه وذلك لانه سرد من غرر درره الاحاسن وورد على يد رأس أحبابنا تاج بني محاسن

اولئك قوم أحرزوا الحسن كله * فما منهم الا فتى فاق في الحسن

وكما قلت فيهم أيضا

فبنو المحاسن بيننا * كبرق النجم في السحابه

فهم القرابة ان عدمت من الانام هوى القرابه

فيهم محاسن جمة * منها الخطابة والكتابه

ثم لم يكتف سيدي وشيخي بما أنعم به وأحسن بكتبه من كتابه المزين بخطه المبين بضبطه المسمى بين أهل الوفاء بكتاب الاكتفاء والاصطفاء حتى أضاف اليه كتاب الشفاء في بديع الاكتفاء كانه لم يرض طبعه الشريف المفرد المستثنى الا أن تكون حسناته لدى أحبابه مثنى مثنى حتى كان مراده بتضعيف هذا الاكرام والاحسان تحجير العبد عن أداء خدمة الحمد بحصر البيان وعقد اللسان اذ لست ذا السانين حتى أؤدي شكر احسانين وغاية المليح في هذا المضمار الخطير أن يعترف بالقصور ويلتزم بالتقصير ومن فصول هذا الكتاب ما نصه ومن باب ادخال السرور على سيدي وشيخي وبركتي خبر المدرسة الداخلية التي تصدى لها ذلك المولى العظيم والسيد الحكيم صدر الموالي وورونق الايام والليالي سيدي وسندي وعمادي ومعتمدي الفهامة شيخي أفندي المعروف بالعلامة حفظه الله ووقاه وأبقاه الذي صدق عليه وعلي قول الاول

ولي صديق ما مسني عدم * مذ وقعت عينه على عدمي

أغنى وأقنى فما يكلفني * تقبيل كف له ولا قدم

قام بأمري لما قعدت به * ونمت عن حاجتي ولم ينم

وقول الثاني

صديق لي له أدب * صداقة مثله نسب

رعى لي فوق ما يرعى * وأوجب فوق ما يجب

فلو نقدت خلائقه * لبهرج عندها الذهب

ولعمري انه كذلك قد تصدى لحاجتي فقضاها ولحتي فأمضاها ولم يكن لي في الروم سواه وسواها وما أصنع بالروم اذا تخلف عني ما أروم أبى الله الا أن ينفعني ذلك الحر الكريم بنهيه وأمره وأن يكون بياني وبناني مرتبطين بحمده وشكره وهذه حاجة في نفسي قضيتها وأمنية رضيت بها وأرضيتها ولله الحمد ولست أحصي ولا أستقصي ياسيدي ومولاي شوق أحبكم سيدي ومولاي المفتي العمادي حفظه الله تعالى واياكم وقد بلغ به

وقلت الزمان علما غاية شرب قولا وما يجد فعلا

قلت هذه والله حلى مولانا الاستاذ الذى عرف للزمان فعله وفهم قوله قد استعارها أبو الطيب وحلى بها مخدومه سيف الدولة وكيف استطيع ارشاد شيخي لطريق الصبر وأذكره بالثواب والاجر وكيف وأنا الذى استقيت من ديمه واهتديت الى سبيل المعروف بشيمه وسلكت جادة البراعة بهداية ألفاظه وارتقيت الى سماء البلاغة برعاية الحاظه وهل يكون التلميذ معلما وهل يرشد الفرخ قشعما وكيف يعضد الشبل الاسد وهو ضعيف المنة والمدد ومن يعلم الثغر الابتسام والصدر الالتزام ويختبر الحسام وهو مجرب صمصام وهل تفتقر الشمس فى الهداية الى مصباح وهل يحتاج البدر فى سراه الى دلالة الصباح ذلك مثل شيخي ومثل من يرشده الى فلاح أو نجاح وانما نأخذ عنه ما ورد فى ذلك من الكتاب والسنه ونحذو حذوه فى الطريق الموصلة الى الجنه ثم لما وصلت فى هذه القصيدة الى قول أبى الطيب

ان خير الدموع عينا الدمع * بعثته رعاية فاستهلا

رأيته قد أبدع فيه كل الابداع ونظم ما يكاد يجري الدمع من طريق السماع فقلت انا لله وأكثرت الاسترجاع وقلت فى نفسي ان ذلك الدمع الذى بعثته رعاية الحقوق هو دمع شيخي الذى حمى الله قلبه الشفوق من العقوق للمصيبة فى الام التى حزنها يعم ومصابها يهم وكيف لا يهمنا مصابها وقد كل للمصيبة كفاها الله بيومها نصابها هذا مع الفقد للسلالة الجليله والكريمة الجليله وأى دمع لم تبعثه تلك الرعايه وأى نفس لا تتمنى أن تكون لسيدنا من كل ما يكره وقايه وأى كبد قاسيه لم تكن لاحبابها مواسيه وأنى يتسنى للعبيد المعنى تسلية شيخه وهو الصبور الشكور العارف بالامور العالم بتصاريف الدهور وما ظننت أن بنانى يساعدنى على تحرير بيانى العزيه لشيخي حفظه الله تعالى فى أصله وفرعه وضرعه وزرعه وقرعه ونبته وأمه وبنته أما الوالدة الماجدة فانى ان أمسكت عن بيان كرم أصلها يسمو بها كرم فرعها ونسلها فرحم الله تعالى سلفها وأبقى خلفها ولا حرم سيدى ثمرة رضاها ورضى عنها وأرضاها وأما المخدرة الصغيره فالمصيبة بها كبيره اذ العمومة مقربه والخؤلة وفائيه فهى ذات النجارين وجائزة الفخارين كان سيدى أعزه الله تعالى لم يرض لها كفؤا ومهرا فاختار القبر أن يكون له صهرا وخطبة الحمام لا يمكن ردها وسطوة الايام لا يستطاع صدها كما قال أبو الطيب المتنبي أيضا

خطبة للحمام ليس لها رد وان كانت المسماة ثكلا
واذا لم تجد من الناس كفؤا * ذات خدر أرادت الموت بعلا

اسأل الله تعالى أن تكون هذه الطيبة وافية المطلوب وهذا الندب المبرح آخر الندوب وأن يعوض سيدي عن حبيبه المبرقع المقنع حبيبا معمما تعزى النجابة منه المصقع وأن يديله عن ذات الخمار والجلباب من يصول بالحراب ويسطو باليراع ويشتغل بالكتاب

(شعر)

من تسمية المرحوم القاضي التنوخي كتابه نشوار المحاضره حتى ظفرت بأصلها في القاموس في مادة نشر فاذا هي عربية محضة فانه قال ونشورت الدابة نشوارا أبقت من علفها ولقد تعجبت من بلاغة هذه التسمية وعذوبتها وحسن المجاز فيها مع سلاستها وسهولتها وأحببت عرضها على شيخي حفظه الله تعالى ليفرح لي بين تلامذته كما فرح طبق به حفظه الله تعالى بين أساتذته وليعلم أني لم أنس ما أفاديه في خلال المحاوره أيام المؤانسة والمجاوره فوالله ما صبري في صبري وكلبي ما بين عطيي وأديمي

يديرونني عن سالم وأديرهم * وجلدة بين العين والانف سالم

الطرس طما ومامضت قصتنا * لاذنب لنا حديثنا قد طال

وحرر يوم السبت المبارك عزة جمادى الآخرة من شهور سنة ثمان وثلاثين بعد الالف أحسن الله ختامها بحرمة محمد وآله الطيبين الطاهرين وحسبنا الله ونعم الوكيل نعم المولى ونعم النصير والحمد لله وحده عبده الفقير الحقير المشتاق المذنب المقصر لسيده عن اللحاق الذي لم يبرح عن العهد المتين أحمد الشامي بن شاهين انتهى ولو تتبعت ماله حفظه الله تعالى من النظم والنثر اللذين غلب فيهما بلغاء أهل العصر بالشام ومصر وغيرهما من الاقطار لازال مقامه مقضى الاوطار لاستوعبت الاسفار * وفي الاشارات ما يغني عن الكلام * وقد تقدم في خطبة هذا التأليف ذكر شيء من نظمه ونثره وأنه هو السبب الداعي الى جمع هذا التصنيف والله سبحانه يديم جنابه السري الشريف ويبوئه من العز الظل الوريف فالقصد أوفى من الحقوق ما لا تؤدى بعضه فضلا عن كله وناهيك بما جلبناه من كلامه دليلا على شرفه وفضله ورسالته هذه التي كانت جوابا عن مكتوب كتبته اليه من جملته

يا من له طائر صيت علا * في الجو فاصطاد الثمر يد الشديد

يا نجل شاهين البديع الحلى * تمل بالعز الطويل المديد

وفز بخصل السبق بين الملا * وسر بنهج للمعالي سديد

ورد مع الاحباب عذبا حلا * منظما من الاماني السديد

وارفل على طول المدى في ملا * مسرة راقت وعز جديد

والوالد المحروس بالله لا * بعدة الخلق ولا بالعديد

ومن نثرها سيدي الذي في الاجياد من عوارفه أطواق وفي البلاد من معارفه ما تشهد به الفطر السليمة والاذواق وتشتد الى مجده المطنب الذي لا يحيط له رواق الاشواق وتعمر بفوائده وفرائده من الآداب الاسواق وتنقطع دون نداه السحب السواكب وتقصر عن مداه في السمو الكواكب والله سبحانه واق المولى الذي ألقت اليه البلاغة افلاذها واتخذت البراعة طاعته عصمتها وملاذها اذ بذ أفرادها وأفذاذها وأمطرت سماء أفكاره على كل محب أوكاره طائر في جو أو مستقر في أوكاره صيبها ورذاذها وفاخرت دمشق بعلاه وحلاه أقطار البسيطة وبغداذها * ومنها أبقاه الله تعالى وحقيقة وعوده ينقها المجاز وحقيقة سعوده لايطرقها المجاز * ومنها فأنت

مقامكم في النفس وكدت لا أتكلم الا بالرمز اجلالا لمقامكم الرفيع واشفاقا من التقصير المطيع وقد كنت كتبت أعزكم الله تعالى اليكم قبل هذا بكتب أربعة أو خمسة فيها عجالة قصائد كالعصائد لا كالثريد من الكلام ككلامكم السامي الكثير الفوائد فعذرا من كان أخرس من سمكه وأشد تخبطا من طائر في شبكه فما عرفت أوصل شيء من ذلك أم حصل في أيدي المعاطب والمهالك وما رأيت غير رجل من صعاليك الحجاج التقيت به يوما بالحضرة المراكشية وقال لي الشيخ الامام المقري يسأل عنك وقد أرسل معي كتابا اليك فوقع في البحر مع جملة ما وقع فقلت له لا غرابة في ذلك فقد رجع الى أصله ومن طلبة البحار تستخرج الدرر وقد جاءني كتاب من بعض الاخلاء الصديقين وهو الحاج الصالح السيد أبو بكر من مكة المكرمة شرفها الله تعالى وذكر لي فيه انه متعه الله تعالى بلقائكم وأخبرني بسؤالكم عني كثيرا والى الآن يا أيها السيد ما عرفته مما كتبته لسيادتكم تعريفه تذكرا لا تعريفا منه فأصفو باقي الحكم عليكم في عدم الجواب بما ألفته الادباء شريعة وسنه وبالجملة ففؤادي لمجدكم صحيح لا سقيم واعتقادي بودكم مقيم غير عقيم والله تعالى يجعل الحب في ذاته الكريمه ويقضي من الاحبة دين المحبة ويوفي كل غريم غريمه ويصلكم ان شاء الله تعالى هذا المرقوم وبه سؤال منظوم لتتفضلوا بالجواب عنه بعد حمد الله والصلاة والسلام على مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم

إلى المقري الحبر صدر الأئمة * من المخلص الوداد أزكى تحية
فدالك يا صدر الصدور عجالة * المسمى بالجواب عما أكنت
فتى قد رأى عند العذي الى فتية * محرمة عند الزوال تحلت
وعادت حراما عند عصر فعندما * عشاء أتى عادت حلالا تجلت
وفي صبح ثاني اليوم عادت محرما * وزالت زوالا منه من غير مرية
وفي ظهره حلت وطابت قريرة * وفي عصره محرما قد تبدت
وعند العشاء بالضرورة حلت * وذلك بعد غرم مال كفدية
وفي صبحه عادت حراما ترى به * بروق سيوف لامعات بسنة
وكان يضيق حسرة وتأسفا * وحلت له وقت العشاء وتمت
وعن أمة أبصا وبشر بها * قد أولدها في ملكه بعد وطأة
وعادت الملوك السيرى حليلة * بعقد نكاح بعد من غير شبهة
فجاءت ببنت هل لها من تزوج * بحل السرى بينوا لي قصتي
فان السيوري مانع من تزوج * له بابنة منها بتلك القضية
وما الفرق بينها وبين التي أتى * بها ابن أبي زيد بأوضح حجة
وعن مشتر مملوكه غير محرم * ومسلمة شرا صحيحا بشرعة
وليس عليه لها وطؤها يرى * جوازا على التأييد من حين حلت
وما طالق من عدة خرجت ولا * يجوز على التأبيد في خير ملة
نكاح لها من واحد ومطلق * لها غير معصوم ترى في الشريعة

وبث عبد الله عبده لحبكم • سلاما كما ابداه في صدر طلعه

وتقرير السؤال الثاني أمة أولدها سيدها فصارت حرة فبان عنها السيد ثم زوجها
عبد سيدها إذ مات سيدها أم الولد فسيدها أن يزوج عبده الذي فإن الرجل له أن يزوج
بنت زوجته أمه من رجل غيره وقد مر تنبيه فإن الإمام السنوسي منع عقد المسألة
وما الفرق بينهما ونسألكم أبقاكم الله تعالى بمنه وكرمه في مآثركم السنية تحفيها
إسفارا من الأئمة فتفضلوا بالإغضاء وحسن الدعاء أن يجمع الله شملنا بكم في تلك
الأماكن المشرفة ثم إنا أول من يفد دنا ومولانا أن يتفضل علينا بكتاب طبقات
القرا للإمام الحافظ الداني إذ ليس عندنا منه نسخة وأما بالحكم الكبير الفوائد المسمى
بأزهار الرياض في أخبار عياض وما يناسبها مما يحصل به للنفس ارتياح وللعقل ارتياض
فقد اشتهر هذا الاشتهار المراكشية واستخرجت منه نسخ عديدة من نسخة المرحوم سيدي
أحمد بن عبد العزيز ابن الولي سيدي أبي عمرو وكتب الله سبحانه بالحكم المذكور حليات
الفحول فقرأت أحد الأشياخ وعندي النسخة التي كتبها بخطه السيد أحمد المذكور
بخط حسن وعلى هامشها في بعض الأماكن خطكم الرائق وبعض التنبيهات من كلامكم
الفائق وأعلمونا بالحكم الذي يشير بطيف المهجر من أعيان المجتمع هل خرج من
المسودة أم لا وودنا لو أرسلتم منه نسخة وقد استفدنا منهما هذا الإلمام الغاية كالنعمة
فأمن النفاثة كم سيدي عيسى وغيره من أهل حلب في كل مجلس حلل إلى أن
قال وأنا أعمل بكلام مولانا علي كرم الله وجهه حيث يقول من أبياته

رضيت بما قسم الله لي • وفوضت أمري إلى خالقي

كما أحسن الله فيما مضى • كذلك يحسن فيما بقي

ولي حفظكم الله تعالى تخميس على البيتين وذلك أنه نزلت بي شدة لا يمكن الخلاص منها
عادة فانزعجت بسببها الأرض الفرج في الحين وقيله

إذا أزمة نزلت بي فسلي • رضيت وصابرت فيها حلي

تذكرت بيت الإمام علي • رضيت بما قسم الله لي

وفوضت أمري إلى خالقي

لأن الإله اللطيف قضى • على خلقه حكمه المرتضى

فسلم وقل قول من قد رضا • كما أحسن الله فيما مضى

كذلك يحسن فيما بقي

فعذرا أعزكم الله سبحانه ونفع بأنسابكم على إعياب المراسلة بالمكاتبة عذرا وصبرا على
بعد اللقا صبرا فإن سيدي هذه الدار بلادها نائية والأهل بعدم يحصل الله مراده
المنى ولما لا يبدو لا ينبغي مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهدا
والصالحين وحسن أولئك رفيقا إنما بالوعد وعسى من أوجب له عسى أن يدخله
جنته فأسمى مأدبته وكذلك منه جعلنا الله من المتحابين في جلاله بكرمه
وإفضاله وكتب محبكم ومعظمكم الواصل حبل وده وودكم المشرف بعهدكم المنوه

بفخركم ومجدكم العبد الفقير الحقير المشفق على نفسه من التقصير والذنب الكبير محمد ابن يوسف التاملي غفر الله ذنبه وستر عيبه وجبر قلبه وجمعه بن أحبه بالنبي صلى الله عليه وسلم في عاشوراء المحرم فاتح سنة ثمانية وثلاثين وألف انتهى وصحبة هذا المكتوب ورقة نصها بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

لله درّ العالم الجياني * كانما ينظر بالعيان
للمقرى العالم المفضال * منظرا بأحسن المثال
وعالم بأني من بعده * أشير في نظامنا لقصده
وها أنا بالله أستعين * مضمنا وربنا المعين
بالشطر من ألفية ابن مالك * أيدنا الله لنسج ذلك
قال محمد عبيد المالك * وسالك الاحسن من مسالك
نشير بالتضمين للنحرير * المقرى الفاضل الشهير
ذاك الامام ذو العلاء والهمم * كعلم الاشخاص لفظا وهو عم
فلن ترى في علمه مثيلا * مستوجبا ثنائي الجميلا
ومدحه عندي لازم أتى * في النظم والنثر الصحيح مثبتا
أوصاف سيدي بهذا الرجز * تقرب الاقصى بلفظ موجز
فهو الذي له المعالي تعتري * وتبسط البذل بوعد منجز
رتبته فوق العلا يا من فهم * كلامنا لفظ مفيد كاستقم
وكم أفاد دهره من تحف * مبدى تأول بلا تكلف
لقد رقى على المقام الطاهر * كطاهر القلب جميل الظاهر
وفضله للطالبين وجدا * على الذي في رفعه قد عهدا
قد حصل العلم وحرّر السير * وما بالا أو باغا انحصر
في كل فن ماهر صفه ولا * يكون الا غاية الذي تلا
سيرته جرت على نهج الهدى * ولا يلي الا اختيارا أبدا
وعلمه وفضله لا ينكر * عمابه عمه مبينا يخبر
يقول دائما بصدر انشرح * اعرف بنا فاننا نلنا المنح
يقول مرحبا القاصديه من * يصل الينا يستعن بنا يعن
صدق مقالاتي وكن متبعا * ولم يكن تصريفه ممتنعا
وانهض اليه فهو بالمشاهده * الخبر الجزء المتم الفائده
والزم جنابه واياك الملل * ان يستطل وصل وان لم يستطل
واقصد جنابه ترى ما سرّه * والله يقضي بهبات وافره
وانسب له فانه ابن معطي * ويقتضي رضا بغير سخط
واجعله نصب العين والقلب ولا * تعدل به فهو يضاهي المثلا

بفاس بجبير وعافيه ونعم صافيه سوى ما أدركهم من طول الغيبه نسأل الله تعالى أن علا بقدومكم العيبه ومحكم الاكبر ووليكم الاصغر سيد أهل المغرب اليوم وشيخ الطريقه والمربي في سلوك أهل الحقيقه العارف بالله الشيخ الرباني ذو الكرامات والمقامات سيدي محمد بن أبي بكر الدلائي يحييكم ويعظم قدركم ولسانه لكم ذاكر ناشر شاكر وهو على خير وقد اجتمعت من بركتكم في مدينة سلا على جماعة من طلاب العلم وفتح الله تعالى على بتآليف عديدة منها كفاية الطالب المبدل في حل ألفاظ مختصر خليل ومنها شرح على المنهج المنتخب للزقاق في قواعد مالك ومنظومة في أكثر من ألف بيت في السير والشمائل ومنها في رجال البخاري ولا كنسج الكلاباذي ومنها خطب وغير ذلك والكل من بركتكم ونسبته اليكم في صحيفتكم والسلام من ولدكم المقر بفضلكم تراب نعالكم على بن عبد الواحد الانصاري لطف الله تعالى به وحامله كبير كبراء قومه من يحبكم ويعرفكم وما تفعلوا معه من خير فلن تكفروه والسلام انتهى * ومنها كتاب وافاني من عالم قسنطينه وصالحها وكبيرها ومفتيها سلالة العلماء الاكابر ووارث المجد كابرا عن كابر المؤلف العلامة سيدي الشيخ عبد الكريم الفكون حفظه الله نصه بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على من أنزل عليه في القرآن وانك لعلى خلق عظيم وآله وصحبه وسلم أفضل التسليم من مدنس الازار المتسربل بسرابيل الخطايا والاوزار الراجي للتنصل منه رحمة العزيز الغفار عبد الله سبحانه عبد الكريم بن محمد الفكون أصلح الله بالتقوى حاله وبلغه من متابعة السنة النبوية آماله الى الشيخ الشهير الصدر النحرير ذي الفهم الثاقب والحفظ العزيز الاحب في الله المؤاخي من أجله سيدي أبي العباس أحمد المقري أحمد الله عاقبتي وعاقبته وأسبل على الجميع عافيته أما بعد فاني أحمد الله اليك وأصلي على نبيه سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ولا زائد الا صالح الدعاء وطلبه منكم فاني أحوج الناس اليه وأشدهم في طي الجناح عليه لما تحققت من أحوال نفسي الامّاره واستنطقت من دخلاتها المثابرة على حب الدنيا الغرّاره كلها عميت عن الاهوال التي أشابت رؤس الاطفال وقطعت أعناق كمل الرجال فتراها في لجج هواها خائضه وفي ميدان شهواتها راكضه طغت في غيها ومالات وجمحت فما انقادت ولا استقامت فويلي ثم ويلي من يوم تبرز فيه القبائح وتنشر الفضائح ومنادي العدل قائم بين العالمين وان كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين فالله أسأل حسن الالطاف والستر عما ارتكبناه من التعدي والاسراف وأن يجعلنا من أهل الحظ العظيم وممن يحشر تحت لواء خلاصته الكريم سيدنا ومولانا وشفيعنا النبي الرؤف الرحيم ولنكف من القلم عنانه لما أرجو من أجله ثواب الله سبحانه وقد اتصل بيدي جوابكم أطال الله في العلم بقاءكم فرأيت من عذوبة ألفاظكم وبلاغة خطابكم ما يذهل من العلماء فحولها ونبلها الذي ابتذلت لسماعه سؤلها ومأمولها بيد ما فيه من أوصاف من أمره قاصر وعن الطاعة والاجتهاد فاتر وأصدق قول فيه عند مخبره ومرآه أن تسمع بالمعيدي خير من أن تراه لكن يجاريكم المولى

وكم أورث ظباء بني اوار * أوار الشوق بالريق الشهي
وجئت بجاية جلت بدورا * يضيق بوصفها حرف الروي
وفي أرض الجزائر هام قلبي * بمعسول المراشف كوثري
وفي مليانة قد ذبت شوقا * بلين العطف والقلب القسي
وفي تنس نسيت جميل صبري * وهمت بكل ذي وجه وضي
وفي مازونة مازلت صبا * بوسنان المحاجر لوذعي
وفي وهران قد أمسيت رهنا * بطاوي الخصر ذي ردف وري
و أبدت لي تلمسان بدورا * جلبن الشوق للقلب الخلي
ولما جئت وجدة همت وجدا * بغصن المعاطف معنوي
وحل رشا الرباط رشار باطني * و تيمني بطرف بابلي
وأطلع قطر فاس لي شموسا * مغاربهن في قلب الشجي
ومامكناسة الاكناس * لاحوى الطرف ذي حسن سني
وان تسأل عن أرض سلا فتيها * ظباء كاسرات للكمي
وفي مراكش ياويح قلبي * أتى الوادي فطم على القري
بدور بل شموس بل صباح * بهي في بهي في بهي
أبحن مصارع العشاق لما * سعين به فكم ميت وحي
بقامة كل أسمر سمهري * ومقلة كل أبيض مشرفي
اذا انسيتني حسنا فاني * أنسيهم هوى غيلان مي
فها أنا قد تحدث العرب دارا * وأدعى اليوم بالمراكشي
على أن اشتياقي نحو زيد * كشوقك نحو عمرو بالسوي
تقسمني الهوى شرقا وغربا * فيا للمشرقي المغربي
فلي قلب بأرض الشرق عان * وجسم حل بالغرب القصي
فهذا بالعدو يهيم غربا * وذاك يهيم شرقا بالعشي
فلولا الله مت هوى وشوقا * وكم لله من لطف خفي

وقد خرجنا بالاستطراد الى الطول وذلك منا استرسال مع جاذب الادب فلنمسك العنان والله المستعان وما عددناه من القصائد والمقطعات في مدح دمشق الشام فهو غيض من فيض وفي نيتي أن أجمع في ذلك كتابا حافلا أسميه نشق عرف دمشق أو مشق قلم المدح لدمشق ولسان حالي الآن ينشد قول بعض الاكابر

نحن في مصر رهن شوق اليكم * هل لديكم بالشام شوق الينا
فعجزنا عن أن تروا لديكم * وأبيتم عن أن نرا كم لدينا
حفظ الله عهد من حفظ العهد * ووفى به كما قد وفينا

وقول ابن الصائغ

*وكان أبو الحسين بن جبير المترجم به قد نال بالادب دنيا عريضة ثم رفضها وزهد فيها وقال صاحب الملتمس في حقه الفقيه الكاتب أبو الحسين بن جبير ممن لقيته وجالسته كثيرا ورويت عنه وأصله من شاطبة وكان أبوه أبو جعفر من كتابها ورؤسائها ذكره أبو الربيع في تاريخه ونشأ أبو الحسين على طريقة أبيه وتولع بغرناطة فسكنها قال ومما أنشدنيه لنفسه قوله يخاطب أبا عمران الزاهد باشبيلية

أبا عمران قد خلفت قلبي * لديك وأنت أهل للوديعه
صحبت بك الزمان أخا وفاء * فها هو قد تمرر للقطيعه

قال وكان من أهل المروآت عاشقا في قضاء الحوائج والسعي في حقوق الاخوان والمبادرة لايناس الغرباء وفي ذلك يقول

يحسب الناس بأني متعب * في الشفاعات وتكليف الورى
والذي يتعبهم من ذاك لي * راحة في غيرها لن أفكرا
وبودي لو أقضي العمر في * خدمة الطلاب حتى في الكرى

قال ومن أبدع ما أنشده رحمه الله تعالى أول رحلته

طال شوقي الى بقاع ثلاث * لا تشد الرحال الا اليها
ان للنفس في سماء الاماني * طائرا لا يحوم الا عليها
قص منه الجناح فهو مهيض * كل يوم يرجو الوقوع لديها

وقال

اذا بلغ العبد أرض الحجاز * فقد نال أفضل ما أمّله
فان زار قبر نبي الهدى * فقد أكمل الله ما أمّله

وعاد رحمه الله تعالى الى الاندلس بعد رحلته الاولى التي حل فيها دمشق والموصل وبغداد وركب الى المغرب من عكا مع الافرنج فعطب في خليج صقلية الضيق وقاسى شدائد الى أن وصل الاندلس سنة ٥٨١ ثم أعاد المسير الى المشرق بعد مدة الى أن مات بالاسكندرية كما تقدم ومن شعره أيضا

لي صديق خسرت فيه ودادي * حين صارت سلامتي منه ربحا
حسن القول سيء الفعل كالجزار سمى وأتبع القول ذبحا

وحدث رحمه الله تعالى بكتاب الشفاء عن أبي عبد الله محمد بن عيسى التميمي عن القاضي عياض ولما قدم مصر سمع منه الحافظان أبو محمد المنذري وأبو الحسين يحيى بن علي القرشي * وتوفي ابن جبير بالاسكندرية يوم الاربعاء السابع والعشرين من شعبان سنة ٦١٤ والدعاء عند قبره مستجاب قاله ابن الرقيق رحمه الله تعالى وقال ابن الرقيق في السنة بعدها * وقال أبو الربيع بن سالم أنشدني أبو محمد عبد الله بن التميمي البجائي ويعرف بابن الخطيب لابي الحسين بن جبير وقال وهو مما كتب به الي من الديار المصرية في رحلته الاخيرة لما العه ولا يتي قصا سبتة وكان أبو الحسين سكنها قبل ذلك وتوفيت هنالك زوجته بنت أبي جعفر الوقشي فدفنها بها

ليت لي شكوى في البرى * وتحمل كرم الهوى

فلو أستطيع ركبت الهوا * فزرت بها الحي والمنا

وأنشد ابن جزي رحمه الله تعالى لنفسه عند صدوره من الرحلة الاولى الى غرناطة اول طرقها قوله

لغرناطة أرض الى من شرق اندلس * سقى ودقها من المنا والسنى

الى آخرها ومن شعره قوله

يا خير مولى دعاه عبد * أجهل في الباطل اجتهاده

هب لي ما قد علمت مني * يا عالم الغيب والشهاده

وقال رحمه الله تعالى

وإني لأوثر أن أصطفي * وأعصم عن زلة العاثر

وأهوى الزيارة عن أجنب * لاعتقاد الفضل للزائر

وقال رحمه الله تعالى

عجبت للمرء في دنياه تطمعه * في العيش والأجل المحتوم يقطعه

يمسي ويصبح في عشواء يخبطها * أعمى البصيرة والآمال تخدعه

يغتر بالدهر مسرورا بصحبته * وقد تيقن أن الدهر يصرعه

ويجمع المال حرصا لا يفارقه * وقد درى أنه للغير يجمعه

تراه يشفق من تضييع درهمه * وليس يشفق من دين يضيعه

وأسوأ الناس تدبيرا لعاقبة * من أنفق العمر فيما ليس ينفعه

وقال

صبرت على غدر الزمان وحقده * وشابت لي السم الذعاف شهده

وجربت أحوال الزمان فلم أجد * صديقا حال العيش في حال بعده

وكم صاحب عاشرته وألفته * فما دام لي يوما على حسن عهده

وكم غرني بحسن ظني به فتى * نفى لي على طول اقتداحي زنده

وأغرب من عنقا في الدهر ترتجي * أخو ثقة يسخو بصافي وده

فصل صارما كل أمر تريده * فليس مضاء السيف الا بحده

وعز ملك حر عنده كل همة * بها تاج ملك الشام يعقد

وسافر في الاسفار كل عجيبة * ولم أر من قد نال مجدا بجده

ولكن ذا المقادير زد كلها * فأحسن أحوال الفتى حسن قصده

وما يحرم الانسان رزقا لعجزه * كما لا ينال الرزق يوما بكده

حظوظ الفتى من سعده وسعاده * ضروب قضا لا يستطيع لرده

وقال

الناس مثل ظروف حشوها صبر * وفوق أفواهها شيء من العسل

تغر ذائقها حتى إذا كشفت * له تبين ما تحويه من دخل

وقال

تغير اخوان هذا الزمان * وكل صديق عراه الخلل
وكانوا قديما على صحة * فقد داخلتهم حروف العلل
قضيت التعجب من أمرهم * فصرت أطالع باب البدل

وقد تقدم بيتان من هذه الثلاثة على وجه آخر أول ترجمة المذكور ورأيت بخط ابن سعيد البيتين على وجه آخر وهو قوله

شكات أخلاء هذا الزمان * فعندي مما جنوه خلل
قضيت التعجب من شأنهم * فصرت أطالع باب البدل   انتهى

ولابن جبير رحمه الله تعالى

من الله فاسأل كل أمر تريده * فما يملك الانسان نفعا ولا ضرا
ولا تتواضع للولاة فانهم * من الكبر في حال تموج بهم سكرا
واياك أن ترضى بتقبيل راحة * فقد قيل عنها انها السجدة الصغرى

وهو نحو قول القائل

قل لنصر والمرء في دولة السلـ * ـطان أعمى ما دام يدعى أميرا
فاذا زالت الولاية عنه * واستوى بالرجال عاد بصيرا

وقال ابن جبير رحمه الله تعالى

أيها المستطيل بالبغي أقصر * ربما طأطأ الزمان الرؤسا
وتذكر قول الاله تعالى * ان قارون كان من قوم موسى

وقال وقد شهد العيد بطندته من قرى مصر

شهدنا صلاة العيد في أرض غربة * بأحواز مصر والاحبة قد بانوا
فقلت لخلي في النوى جد بدمع * فليس لنا الا المدامع قربان

وقال

قد أحدث الناس امورا فلا * تعمل بها انى امرؤ ناصح
فما جماع الخير الا الذي * كان عليه السلف الصالح

وقال

رب ان لم تؤتني سعة * فاطو عني فضلة العمر
لا أحب اللبث في زمن * يحوجني فيه الى البشر
فهم كسر لمجبر * ما هم جبر لمنكسر

ولما وصل ابن جبير رحمه الله تعالى الى مكة ١٢ ربيع الآخر سنة ٥٧٩ أنشد قصيدته التي أولها

بلغت المنى وحللت الحرم * فعاد شبابك بعد الهرم
فأهلا بمكة أهلا بها * وشكرا لمن شكره يلتزم

وهي طويلة وسيأتي بعضها وقال رحمه الله تعالى عند تحركه للرحلة الحجازية

سرعة وخذه في طريق الاحسان واغذاذه ثم قال وأخبرني انه دخل مصر وهو سار في طمر الـبوس عار من كل لبوس قد خلا من النقد كيسه وتخلى عنه الا تعذيره وتنكيسه فنزل بأحد شوارعها لا يفترش الا نكده ولا يتوسد الا عضده وبات بليلة ابن عبدل تهب عليه صرصر لا ينفع منها عنبر ولا مندل فلما كان من السحر دخل عليه ابن الطوفان فأشفق لحاله وفرط انحلاله وأعلمه أن الافضل بن أمير الجيوش استدعاه ولو ارتاد جوده بقطعة يغنيه الله لاخصب مرعاه فصنع له في حينه

قل للملوك وان كانت لهم همم * تأوي اليها الاماني غير متئد
اذا وصلت بشاهنشاه لي سببا * فلن أبالي بمن منهم نفضت يدي
من واجه الشمس لم يعدل بها قمرا * يعشو الى ضوئه لو كان ذا رمد

فلما كان من الغد واها فدفع اليه خمسين مثقالا مصرية وكسوة وأعلمه انه غناه وجود الاطهار لفظه ومعناه وكرره حتى أثبته في سمعه وقرره فسأله عن قائله فأعلمه بقلته وكله في رفع خلته فأمر له بذلك وله أيضا رحمه الله تعالى

قصدت على أن الزيارة سنة * يؤكدها فرض من الود واجب
فألفيت بابا سهل الله اذنه * ولكن عليه من عبوسك حاجب
مرضت ومرضت الكلام تثاقلا * الي الى أن خلت انك عاتب
فلا تتكلف للعبوس مشقة * سأرضيك بالهجران اذ أنت غاضب
فلا الارض تدمير ولا أنت أهلها * ولا الرزق ان أعرضت عني جانب

وله يستعتبني

كتبت ولو وفيت برك حقه * لما اقتصرت كفي على رقم قرطاس
وناب عن الخط الخطا وتبادرت * فطورا على عيني وطورا على راسي
سل الكاس عني هل أديرت فلم أضع * مديحك الحانا يسوغ بها كاسي
وهل نافح الآس الندامي فلم أذع * ثناء ارق من منافحة الآس

*(ومن الراحلين من الاندلس الى المشرق أبو مروان الطبني وهو عبد الملك بن زيادة الله قال في الذخيرة كان أبو مروان هذا أحد حماة سرح الكلام وحملة ألوية الاقلام من أهل بيت اشتهروا بالشعر اشتهار المنازل بالبدر أراهم طرأوا على قرطبة قبل افتراق الجماعة وانتثار شمل الطاعة وأناخوا في ظلها ولحقوا بسروات أهلها وأبو مضر أبوه زيادة الله بن علي التميمي الطبني هو أول من بني بيت شرفهم ورفع في الاندلس صوته بنباهة سلفهم قال أبو حيان وكان أبو مضر نديم محمد بن أبي عامر أمتع الناس حديثا ومشاهدة وأنصعهم ظرفا وأحذقهم بأبواب الشحذ والالطفة وآخذهم بقلوب الملوك والجلة وأنظمهم لشمل افادة وتجعة انتهى المقصود منه ثم قال في الذخيرة فأما ابنه أبو مروان هذا فكان من أهل الحديث والرواية ورحل الى المشرق وسمع من جماعة من المحدثين بمصر والحجاز وقتل بقرطبة سنة سبع وخمسين وأربعمائة انتهى وقد ذكر قصة قتله المستبشعة واتهم باغتياله ابنه ومن نظم أبي مروان الطبني المذكور ما وجده

أطفأ مصباحه ونام وقد كان بات ليلته يتململ لانه رأى أنه قد بلغ حاجته وشفى غيظه قال الراعي فخرجنا من البصرة فما وردنا ماء من مياه العرب الا وسمعنا البيت قد سبقنا اليه حتى أتينا حاضر بني نمير فخرج الينا النساء والصبيان يقولون قبحكم الله وقبح ما جئتمونا به * والقسم الثاني هو السباب الذي أحدثه جرير أيضا وطبقته وكان يقول اذا هجوتم فأضحكوا وهذا النوع منه لم يهدم قط بيتا ولا عيرت به قبيلة وهو الذي صنا هذا المجموع عنه وأعفيناه أن يكون فيه شيء منه فان أبا منصور الثعالبي كتب منه في يتيمته ما شانه اسمه وبقي عليه اثمه * ومن مليح التعريض لاهل أدبنا قول بعضهم في غلام كان يصحب رجلا يسمى بالبعوضة

أقول لشادنكم قولة * ولكنها رمزة غامضه

لزوم البعوض له دائما * يدل على انها حامضه

وأنشدت في مثله قول بعض أهل الوقت

بيني وبينك سر لا أبوح به * الكل يعلمه والله غافره

* وحكى أبو عامر بن شهيد عن نفسه قال عاتبت بعض الاخوان عتابا شديدا عن أمر أوجع فيه قلبي وكان آخر الشعر الذي خاطبته به هذا البيت

واني على ماهاج صدري وغاظني * ليأمنني من كان عندي له سر

فكان هذا البيت أشد عليه من عض الحديد ولم يزل يقلق به حتى بكى الي منه بالدموع وهذا الباب ممتد الاطناب ويكفي ما مر ويمر منه في أضعاف هذا الكتاب انتهى كلام ابن بسام في الذخيرة بلفظه ولا خفاء انه عارض بالذخيرة يتيمة الثعالبي ولذا قال في خطبة الذخيرة أما بعد حمد الله ولي الحمد وأهله والصلاة على سيدنا محمد خاتم رسله فان ثمرة هذا الادب العالي الرتب رسالة تنثر وترسل وأبيات تنظم وتفصل تنثال تلك انثيال القطار على صفحات الازهار وتتصل هذه اتصال القلائد في نحور الخرائد ومازال في أفقنا هذا الاندلسي القصي الى وقتنا هذا من فرسان الفنين وأئمة النوعين قوم هم ما هم طيب مكاسر وصفاء جواهر وعذوبة موارد ومصادر لعبوا بأطراف الكلام المشقق لعب الدجى بجفون المؤرق وحدوا بفنون السحر المنمق حداء الاعشى ببنات المحلق فصبوا على قوالب النجوم غرائب المنثور والمنظوم وباهوا غرر الضحى والاصائل بعجائب الاشعار والرسائل نثر لو رآه البديع لنسي اسمه أو اجتلاه ابن هلال لولاه حكمه ونظم لو سمعه كثير مانسب ولا مدح أو تتبعه جرول ما عوى ولا نبح الا أن أهل هذا الافق أبوا الا متابعة أهل المشرق يرجعون الى أخبارهم المعتاده رجوع الحديث الى قتاده حتى لو نعق بتلك الآفاق غراب أو طن بأقصى الشام والعراق ذباب لجثوا على هذا صنما وتلوا ذلك كتابا محكما وأخبارهم الباهره وأشعارهم السائره مرمى القصيه ومناخ المزيه لا يعمر بها جنان ولا خلد ولا يصرف فيها لسان ولا يد فغاظني منهم ذلك وأنفت مما هنالك وأخذت نفسي بجمع ما وجدت من حسنات

دهري وتشبع بمحاسن أهل بلدي وعصري غيرة لهذا الأفق الغريب أن تعود بدوره أهلة وتصبح بحوره ثمادا مضمحلة مع كثرة أدبائه ووفور علمائه وقديما ضيعوا العلم وأهله ورب محسن مات إحسانه قبله وليت شعري من قصر العلم على بعض الزمان وخص أهل المشرق بالإحسان وقد كتبت لأرباب هذا الشأن من أهل الوقت والزمان محاسن تبهر الألباب وتسحر الشعراء والكتاب ولم أعرض لشيء من أشعار الدولة المروانية ولا المدائح العامرية إذ كان ابن فرج الجياني قد رأى رأيي في النصفة وذهب مذهبي من الأنفة وأملى في محاسن أهل زمانه كتاب الحدائق معارضا لكتاب الزهرة للأصبهاني فأضربت أنا عما ألف ولم أعرض لشيء مما صنف ولا تعديت أهل عصري مما شاهدته بعمري أو لحقه أهل دهري إذ كل مردد ثقيل وكل متكرر مملول وقد مجت الأسماع يا دارمية بالعلياء فالسند وإن قال بعد كرامة أبوي جملة من المشارقة مثل الشريف المرتضى والقاضي عبد الوهاب والوزير المغربي وغيرهم من طول ما صورته وأعاد ذكره ولولا اتساقنا بالتصور في الأئمة المشهورة المترجم بيتيمة الدهر في محاسن أهل العصر انتهى المقصود منه قلت وقد ذكرت بما أنشد في الهجاء قول النابغة الشاعر المشهور أبي العباس أحمد القعوري الشهير بالمذاني وعامة العرب يقولون الغراوي يهجو فرقة من قومه وهم بنو زياد لا سوء صدر منهم إليه في فاس بني الملوم ومستطردا في ذلك ما هو في اطراده كالمثل السائر وهو

يا ابن السبيل إذا مررت بسادلا * لا تنزلن على بني عثعوم
أرض أعارتها العبيد ولن ترى * الا خيانة الصديق للقوم
قوم طوى زاد كرامة بيتهم * لكنهم نشروا لواء اللوم
لا حظ في أموالهم ونوالهم * للسائل العافي ولا المحروم
لا يعلمون إذا استمع حريمهم * إلا الصراخ بدعوة المظلوم
بالله من غيرهم ولوائي * من أرض فاس بني الملوم

وقد ذكر غير واحد من المؤرخين أن أحد بني الملوم تصاهر فاس وأصلابها اورات كتبه التي هي عين كلامه بل معرفته الآن تذكار وتكملة ذلك في معرفة قدر القوم ومع ذلك فمقامهم لا والله سبحانه تعمر الرقاب *(رجع إلى ما كنا فيه من ذكر من ارتحل من علماء الأندلس إلى البلاد المشرقية المحروسة فنقول *(ومنهم حبيب بن الوليد ابن حبيب الداخل إلى الأندلس ابن عبد الملك بن عمر بن الوليد بن عبد الملك بن مروان بن أهل قرطبة ويعرف بدحون رحل إلى المشرق وكان نبيها عالما أديبا شاعرا محسنا ورحل إلى المشرق أيام عبد الرحمن بن الحكم وحج ولقي أهل العلم فسمع منهم وقدم ولم يزل وكان له حلقة بجامع قرطبة يسمع الناس منه وهو يلبس الوشي الشامي إلى أن أوصى إليه إلا بعبد الرحمن بترك ذلك فتركه وتوفي بعد الماتين ومن شعر قوله

قال القدول وإنما ذا كلما * ترى أهدى لم نزل مقصرا

قلت اتئد فالقلب أول خائن * لما تغير من هويت تغيرا
ورأى فبان الصبر عنى جملة * وبقيت مسلوب العزاء كما ترى

ومن ولده سعيد بن هشام وكان أديبا عالما فقيها رحمه الله تعالى الجميع ودخل دمشق
وطنهم الاقدم وعاملها يومئذ للمعتصم بن الرشيد عمر بن فرج الرخجى فوافق دخوله اياها
غلاء شديدا ومجاعة أشكت أهلها فضجوا الى الرخجى أن يخرج عنهم من عندهم من الغرباء
القادمين عليهم من البلاد فأمر بالنداء فى المدينة على كل من بها من طارئ وابن سبيل
ليخرجوا عنها وضرب لهم أجلا ثلاثة أيام أوعد من تخلف منهم بعدها بالعقاب فابتدر
الغرباء الخروج عنها وأقام سعدون لم يتحرك فجىء به الى الرخجى بعد الاجل فقال له ما بالك
عصيت أمرى أوما سمعت ندائى فقال له سعدون ذلك النداء الذى وقفنى فقال له وكيف
فاتنى له فقال له الرخجى صدقت والله انك لاحق بالاقامة فيها منا فأقم ما أحببت وانصرف
اذا شئت وكان لسعدون هذا ابن يقال له بشر بن حبيب ويعرف بالحبيبى وهو من المشهورين
بقرطبة وأمه المدنية الراوية عن مالك بن أنس رضى الله تعالى عنه وبنته عبدة بنت بشر
مشهورة ولها رواية عنه رحم الله تعالى الجميع *(ومنهم بهلول بن فتح من أهل اقليش له
رحلة حج فيها وكان رجلا صالحا خيرا حكى عن نفسه انه رأى فى منامه بعد قدومه من الحج
كأنه بمكة وقائل يقول انطلق بنا نصلى مع النبى صلى الله عليه وسلم قال فكنت أقول لرجل
من جيرانى باقليش يا أبا فلان انطلق بنا نصلى مع النبى صلى الله عليه وسلم فيقول لى لست
أجد الى ذلك سبيلا وكنت أتوجه وأصلى مع الناس والنبى صلى الله عليه وسلم امامنا
فلما سلم من الصلاة رجع الى وقال لى من أين أنت قلت له من الاندلس فكان يقول من أى
موضع فكنت أقول من مدينة اقليش فيقول لى أتعرف أبا اسحق الوالى فكنت أقول
هو جارى وكيف لا أعرفه فيقول لى أقرئه منى السلام *(ومنهم أبو الحسن ثابت بن أحمد
ابن عبد الولى الشاطبى روى عن أبى زيد عبد الرحمن بن يعيش المهرى ورحل حاجا فسمع
منه بالاسكندرية أبو الحسن بن المفضل المقدسى وحدث عنه بالحديث المسلسل فى الاخذ
باليد عن ابن يعيش المذكور عن أبى محمد عبد العزيز بن عبد الله بن سعيد بن خلف
الانصارى عن أبى الحسن طاهر بن مفوز وعليه مداره بالاندلس عن نصر السمرقندى
باسناده وفيه بعد قال الحافظ ابن الابار وقد رويته مسلسلا من طرق بعضها عن ابن المفضل
وأنبأنى به ابن أبى حمزة عن أبى بحر الاندلسى عن نصر السمرقندى فصار ابن المفضل بمنزلة
من سمعه من سمعه منى والحمد لله تعالى انتهى *(ومنهم أبو أحمد جعفر بن ابي بن محمد بن عبد
الرحمن بن يونس بن ميمون التجيبى سكن شاطبة وأصله من انشيان عملها ويكنى أبا الفضل
أيضا وسمع أبا طاهر بن عوف والحافظ السلفى وأبا عبد الله بن الحضرمى وأبا الثناء
الحرانى وبدر بن عبد الله الحبشى والحسن بن المفضل وغيرهم وكان من أهل العناية
بالرواية مع الصلاح والعدالة حسن الخط جيد الضبط سماه التجيبى فى معجم مشيخته وهو
فى عداد أصحابه لاشتراكهما فى السماع باسكندرية وتركه هنالك ثم قدم عليه تلسان
من شاطبة فى أضحى سنة ست وثمانين وخمسمائة وحكى عما أفاده عن ابن المفضل أن أبا

عبد الله الكراني وكان شاعرا مجيدا أتته امرأة مات ولدها فسألته أن يرثيه فقال

تبكي عليه بشجو * فقلت لا تبكيه
هذا زمان عجيب * قد عاش من مات فيه

وأخذ عنه الحافظ أبو الربيع بن سالم وقال إنه توفي بعد الستين وخمسمائة رحمه الله تعالى (ومنهم أبو أحمد جعفر بن عبد الله بن محمد بن سيدبونه الخزاعي العابد من أهل قسطنطانية عمل دانية أخذ القراآت عن ابن هذيل وغيره ومن ابن النعمة ببلنسية ورحل حاجا فأدى الفريضة ودخل الإسكندرية مرادا أن يسمع من السلفي ولم يسمع منه شيئا قال ابن الأبار فيما علمت وقفل إلى بلده مائلا إلى الزهد والإعراض عن الدنيا وكان شيخ الصوفية في وقته وعلا ذكره وبعد صيته في البلاد إلا أنه كان فيه غفلة قال ابن الأبار شاهدت قدومه بلنسية لإحياء ليلة النصف من شعبان سنة إحدى عشرة وستمائة وتوفي عن سن عالية سادس المائة منتصف ذي القعدة سنة أربع وعشرين وستمائة وشهد جنازته بشر كثير من جهات شتى وأصاب الناس مطر ذهراطو لم يتركوا زيارته إلى حين أجلى الروم من كان بشاركهم من المسلمين بلد شرق الأندلس إلى تغلبوا عليها وذلك في شهر رمضان سنة ثمان وأربعين وستمائة (ومنهم أبو جعفر النحوي الأندلسي نزيل مصر وكان من رؤساء أهل العلم بالنحو وعنه أخذ حلبة ذكر الطبني فيما حكاه ابن الأبار (ومنهم أبو الحسن جابر بن أحمد بن عبد الله الخزرجي القرطبي وكان يعرف بأبي الفضل سمع ببلده من أبي محمد بن عتاب وغيره ورحل حاجا فأدى الفريضة وكان أديبا شاعرا كتب عنه أبو محمد العثماني بالإسكندرية بعض شعره (ومنهم أبو الحسن جوهر بن خلف بن أبي عمر بن قاسم بن ثابت المعافري رحل حاجا إلى المشرق فأدى الفريضة وسمع بالإسكندرية من أبي طاهر السلفي سنة سبع وثلاثين وخمسمائة وسمع أيضا من غيره وطال مكثه هنالك وذكر في تاريخه بعضهم من أهل غرب الأندلس (ومنهم أبو علي الحسن بن حفص ابن الحسن الهوزني الأندلسي رحل وتجول ببلاد المشرق وسمع أبا محمد عبد الله بن حيويه وأبا حامد أحمد بن محمد بن رجاء بسرخس وأبا محمد بن أبي شريح بهراة وأبا عبد الله الحسين بن عبد الله المطلبي بالأهواز وأبا بكر أحمد بن جعفر البغدادي وأبا حامد أحمد بن الخليل وأبا حاتم حامد بن العباس وأبا محمد الحسن بن رشيق بمصر وقدم دمشق فروى عنه من أهلها تمام بن محمد ونيسابور أحمد بن منصور بن خلف المغربي وغيره وذكر ابن عساكر قال أخبرنا أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن علي بن فطيمة وأبو القاسم زاهر بن طاهر قالا أنا أبو بكر أحمد بن منصور أنا أبو علي الحسن بن جعفر القضاعي أنا الحسن بن رشيق بمصر أنا المفضل بن محمد الجندي أنا أبو مصعب أحمد بن أبي بكر الزهري قال سمعت مالك بن أنس يقول لا تحمل العلم عن أهل البدع كلهم ولا تحمل العلم عمن لم يعرف بالطلب ومجالسة أهل العلم ولا تحمل عمن يكذب في حديث الناس وإن كان في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم صادقا لأن الحديث والعلم إذا سمع من العالم فقد جعل حجة بين الذي سمعه وبين الله تبارك وتعالى وإنما قال فيه القضاعي لأنه من نزار بن

قضاعة

قضاعة *(ومنهم أبو علي الحسن بن خلف بن يحيى بن ابراهيم بن محمد الاموي من أهل دانية ويعرف بابن برنجال سمع من أبي بكر بن صاحب الاحباس وأبي عثمان طاهر بن هشام وغيرهما وله رحلة حج فيها وسمع من أبي اسحق ابراهيم بن صالح القروي وببيت المقدس من أبي الفتح نصر بن ابراهيم سنة خمس وستين وأربعمائة وبعسقلان من أبي عبد الله محمد بن الحسن بن سعيد التجيبي وأخذ عنه كتاب الوقف والابتداء لابن الانباري بسماعه من عبد العزيز الشعيري عن مؤلفه وكان فقيها على مذهب مالك وولي الاحكام ببلده وحدث وأخذ عنه وسمع الناس منه بالاسكندرية سنة تسع وستين ثم بدانية سنة اثنتين وسبعين وأربعمائة وتوفي في نحو الخمسمائة رحمه الله تعالى *(ومنهم أبو علي الحسن بن ابراهيم ابن محمد بن بقي الجذامي المالقي روى بقرطبة عن أبي محمد بن عتاب وعن أبي سكرة الصدفي بمرسية سنة ثمان وخمسمائة وصحب أبا مروان بن مسرة وكان من أهل الرواية والتقييد وكانت له رحلة سمع فيها من أبي الطاهر السلفي مجالسه التي أملاها بسلماس في رجب سنة خمس عشرة وخمسمائة حسبما ألفي بخط السلفي وفي رحلته لقيه أبو علي الحسن بن علي البطليوسي نزيل مكة وحدث عنه أبو طالب أحمد بن مسلم المعروف بالتنوخي من أهل الاسكندرية بكتاب الاستيعاب لابن عبد البر وأجاز له اجازة عامة في السنة السابقة وقال ابن عساكر في تاريخه وذكر أبا ذر الهروي سمعت أبا الحسن علي بن سليمان المرادي الحافظ الاندلسي بنيسابور يقول سمعت أبا علي الحسن بن علي الانصاري البطليوسي قال ابن عساكر وقد لقيته ولم أسمعها منه قال سمعت أبا علي الحسن بن ابراهيم بن بقي الجذامي المالقي يقول سمعت بعض الشيوخ يقول قيل لابي ذر الهروي أنت من هراة فمن أين تمذهبت لمالك والاشعري فقال اني قدمت بغداد أطلب الحديث فلزمت الدارقطني فلما كان في بعض الايام كنت معه فاجتاز به القاضي أبو بكر بن الطيب فأظهر الدارقطني من اكرامه ما تعجبت منه فلما فارقه قلت أيها الشيخ الامام من هذا الذي أظهرت من اكرامه ما رأيت فقال أوما تعرفه قلت لا فقال هذا سيف السنة أبو بكر الاشعري فلزمت القاضي منذ ذلك واقتديت به في مذهبه انتهى *(ومنهم أبو علي الحسن بن علي بن الحسن بن عمر الانصاري البطليوسي رحل الى المشرق فأدى الفريضة وتجول هنالك ولقي أبا الحسن ابن الفرج الصقلي وأبا عبد الله القراوي فسمع منهما الصحيحين بعلو وسمع من أبي الفتح ناصر بن أبي علي الطوسي سنن أبي داود وحدث بالموطا عن أبي بكر الطرطوشي وله أيضا رواية عن زاهر بن طاهر الشحامي وعبد المنعم بن عبد الكريم القشيري وأبي محمد الحريري سمع منه مقاماته الخمسين بسنة ثلاث من بغداد ونزل بمكة وجاور بها وحدث فيها وفي غيرها وأسن وكان ثقة مسندا روى عنه أبو عبد الله بن أبي الصيف اليمني وأبو حفص ابن شراحيل الاندلسي وأبو عبد الله محمد بن ابراهيم الاربلي وسمع منه في صفر سنة ست وستين وخمسمائة وقد لقيه أبو القاسم بن عساكر الحافظ وروى عنه *(ومنهم أبو علي الحسن بن محمد بن الحسن الانصاري من أهل المرية عمل بلنسية ويعرف بابن الرهبيل سمع من أبي الحسن بن النعمة كثيرا واختص به وعنه أخذ القرآآت وسمع من ابن هذيل أيضا

وثلثمائة *(ومنهم أبو القاسم خلف بن محمد بن خلف الغرناطي له رحلة روى فيها بالاسكندرية عن مهدي بن يوسف الوراق وحدث عنه أبو العباس بن عيسى الدالي بالتلقين لاقاضي عبد الوهاب *(ومنهم أبو القاسم خلف بن فرج بن خلف بن عامر بن فحلون القنطري من قنطرة السيف وسكن بطليوس ويعرف بابن الروية رحل حاجا فأدى الفريضة ولقي بمكة رزين بن معاوية الاندلسي فحمل عنه كتابه في تجريد الصحاح سنة خمس وخمسمائة وصاحبه وقفل الى بلده بعد ذلك وكان فقيها مشاورا حدث عنه ابن خير في كتابه اليه من بطليوس في نحو الثلاثين وخمسمائة *(ومنهم زرارة بن محمد بن زرارة الاندلسي رحل حاجا الى المشرق وسمع بمصر أبا محمد الحسن بن رشيق سنة سبع وستين وثلثمائة وأبا بكر سمرة بن مسلم الصدفي حدث وأخذ عنه *(ومنهم طاهر الاندلسي من أهل مالقة يكنى أبا الحسين رحل الى قرطبة وخرج منها لما دخلها البرابر عنوة سنة ثلاث وأربعمائة ولم يزل بمكة الى حدود الخمسين وأربعمائة وكان من أصحاب أبي عمر الطلمنكي وملازمه لقراءة القرآن وطلب العلم مع أبي محمد الشنتجالي وأبي أيوب الزاهد امام مسجد الكوانين بقرطبة وجاور بمكة طويلا وأقرأ على مقربة من باب الصفا وكان الشيبيون يكرمونه ويفرجون له لصعفه عند دخوله البيت الحرام ذكره الطبني قال ابن الابار وأحسبه المذكور في برنامج الحرلاني والذي قرأ لهم أكثر المدونة على أبي عمر أحمد بن محمد الرياث انتهى *(ومنهم أبو الطاهر الاندلسي من أهل لبلة نزل مصر وكانت له حلقة بجامع عمرو بن العاص وكان رحمه الله تعالى نحويا له شعر وترسيل وتعلق بالملوك للتأديب بالنحو ثم ترك ذلك *(ومنهم أبو محمد طارق بن موسى بن يعيش المنصفي المخزومي والمنصفي نسبة الى قرية بغربي بلنسية ويكنى أيضا أبا الحسن رحل في العشرين وخمسمائة فأدى الفريضة وجاور بمكة وسمع بها من أبي عبد الله الحسين ابن علي الطبري ومن الشريف أبي محمد عبد الباقي الزهري المعروف بشقران أخذ عنه كتاب الاحياء للغزالي تأليفه وسمع بالاسكندرية من أبي بكر الطرطوشي وأبي الحسن ابن مشرف وأبي عبد الله الرازي وأبي طاهر السلفي وغيرهم ثم قفل الى بلده فحدث وأخذ الناس عنه وسمعوا منه وكان شيخا صالحا عالي الرواية ثقة قال ابن عياد لم ألق أفضل منه وكان مجاب الدعوة وحدث عنه بالسماع والاجازة جلة منهم أبو الحسن بن هذيل وأبو محمد القلني وأبو مروان بن الصيقل وأبو العباس الاقليشي وأبو بكر بن خير وابن سعد الخير وأبو محمد عبد الحق الاشبيلي وأبو بكر بن جري وغيرهم ثم رحل ثانية الى المشرق مع صهره أبي العباس الاقليشي وأبي الوليد بن خيرة الحافظ سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة وقد نيف على الستين فأقام بمكة مجاورا الى أن توفي بها عن سن عالية رحمه الله تعالى سنة تسع وأربعين وخمسمائة *(ومنهم محمد بن ابراهيم بن مزين الاودي من أهل اكشونية غربي الاندلس يكنى أبا عمير ولاه عبد الرحمن بن معاوية قضاء الجماعة بقرطبة وذلك في المحرم سنة سبعين ومائة وأقام أشهرا ثم استعفى فأعفاه ورحل حاجا فأدى الفريضة وسمع في رحلته امامنا مالك بن أنس وانصرف ومات

عن من قاله سنة ثلاث وثمانين وثمانمائة وذكر ابن سعيد أن أبي الزوا بن مالك وشكرانه
روى عنه بن قطع لسانه اسوتي به تماما وإن ما تكلم قال له قد ناهى أن بالأندلس من قطع
لسانه فإن لم ينبت أبيد انتهى *(ومنهم أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عمار الساباني
الزوبي قدم مصر وكان أخذ عن ابن رحالة وابن البرا وغيرهما وعمل فهرسة بشيوخه
على حروف المعجم وحج وعاد إلى بلده ومات يوم الجمعة حادي عشر رجب سنة ثمان
عشرة وستمائة رحمه الله تعالى وغفر له *(ومنهم القاضي أبو مروان محمد بن أحمد بن
عبد الملك بن عبد العزيز بن عبد الملك بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن علي بن شريعة بن
رفاعة بن صخر بن سماعة اللخمي الأندلسي الباجي قال أبو شامة هو من بيت كبير
بالأندلس إذ هم في الباجيين مشهورون كثير العلماء والفضلاء وأصلهم من ناحية المروان
وليس منهم القاضي أبو الوليد الباجي الفقيه فإنه من بيت آخر من ناحية الأندلس وقدم أبو
مروان هذا من بلاد في الغرب إلى عكا من ساحل دمشق ثم دخل دمشق وحدث بها سنة ثمان
سنة أربع وثلاثين وستمائة ونزل بها بالمدرسة العادلية وجده الأعلى أحمد بن عبد الله
ابن محمد بن علي قدم إلى الديار المصرية وحج منها وعمر وولد محمد أخو عبد الملك وهو عرف
بصاحب الوثائق وعلمها بجماعة من العلماء وذكر أبو عبد الله الحميدي أحمد بن عبد الله
هذا في المقتبس وكناه أبا عمر وذكر أنه سكن إشبيلية وأثنى عليه كثيرا وقال مات في حدود
الأربعمائة وروى عنه ابن عبد البر وغيره وأبو عبد الله بن محمد بن علي يعرف بالزراوية
ذكر الحميدي أيضا وذكره ابن بشكوال في الصلة وعبد الملك بن عبد العزيز جد هذا
الشيخ القادم وأثنى عليه وقال توفي سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة وكان هذا الشيخ
أبو مروان حسن الأخلاق فاضلا من أصحابنا وبه نعرف وننقل أعاريف
فبادر إليه ثم قال سيدي في قوله تعالى ويمنعون الماعون هو كل ما انتفع به فأين هذا
الشيخ فإذا حليلة وهي مثابة قدر مد النبي صلى الله عليه وسلم وهو عندهم وارث
وقد أسند عن ذلك أبو محمد بن حزم في كتابه المحلى وعاين ذلك المد الذي لا يدنس
حسده وهو الكيل الأكبر وحدث به بأربع صاعي الإسرا وحده به تمويها
ربع صاعا ونصفا وشيئا فيكون مدا ان تمو حال ثلاثة آصع زائد وقرأت في كتاب
المحلى لابن حزم قال أبو محمد وخرطالي مد على عنق المد المتوارث عند آل عبد الله بن علي
الباجي وهو عندنا كثيرهم لا تفارق دار أخرجه إلى بني الذي كان عنده ذلك علي بن عبد الله
ابن أحمد بن عبد الله بن علي المذكور وذكر أنه مد أبيه وأن جده أحمد خرطه على مد
أحمد بن خالد وأخبره أحمد بن خالد أنه خرطه على مد يحيى بن يحيى على مد مالك قال أبو محمد
ولا شك أن أحمد بن خالد صححه أيضا على مد محمد بن وضاح الذي صححه ابن وضاح بالمدينة
النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام قال أبو محمد ثم كلته بالقمح الطيب ثم وزنته
فوجدته رطلا واحدا ونصف رطل بالبغدادي لا يزيد حبة وكلته بالشعير إلا أنه لم يكن بالطيب
فوجدته رطلا واحدا ونصف أوقية وشيئا من الرطل البغدادي فصل لي هو ست عشرة
أوقية كل أوقية عشرة دراهم وفي تقدير ابن حزم نظر وتوفي هذا الشيخ بالقاهرة سنة

خمس وثلاثين وستمائة بعد رجوعه من الحج رحمه الله تعالى انتهى كلام أبي شامة وبعضه بالمعنى *(ومنهم أبو العباس أحمد بن محمد الواعظ الاشبيلي ثم المصري) فاضل شرح الصدور بلفظه ومتكلم أحيا القلوب بوعظه أحواله مشهوره ومجالسه بالذكر معموره وله معرفة بالادب وخبرة بالشعر والخطب وكلام وجيه حسن ونظم يتنازه على كثير من أرباب اللسن قاله ابن حبيب الحلبي قال وهو القائل

من أنت محبوبه من ذا يعيره * ومن صفوت له من ذا يكدره
هيهات عنك ملاح الكون تشغلني * والكل أعراض حسن أنت جوهره

وقال

اكشف البرقع عن بكر العقار * واخل في ليلك مع شمس النهار
وانهب العيش ودعه غلطا * ينقضي ما بين هتك واستتار
ان تكن شيخ خلاعات الصبا * فالبس الصبوة في خلع العذار
وارض بالعار وقل قد آن لي * في هوى جبار كاسي لبس عار

وقال

حثوا الى نجد نياق الهوى * فثم وادجوه معشب
وانتظروا حتى يلوح الحمى * فالعيش فيه طيب طيب

وتوفي سنة أربع وثمانين وستمائة هكذا ذكر ترجمته ابن حبيب ثم بعد كتبها حصل لي شك هل هو ممن ارتحل بنفسه من الاندلس أو ولد بمصر وانما ارتحل اليها بعض سلفه والله تعالى أعلم وكذا ذكر آخر يقول في سنة سبع وثمانين وستمائة وفيها توفي الامام زكي الدين أبو اسحق ابراهيم بن عبد العزيز بن يحيى بن علي الاشبيلي المالكي محدث عالم زاهد فيما لبس بدائم كثير الخير جزيل المير كان حسن المناهج قاضيا للحوائج محسنا الى الصامت والمعرب مقصد الى من يرد من الحجاز والمغرب سمع بمصر ودمشق وحلب وأفتى ودرس مفيدا لذوي الطلب ولم يبرح بعين بأياديه ويعيث وهو أول من باشر بظاهرية دمشق مشيخة الحديث وكانت وفاته بدمشق عن نيف وسبعين سنة انتهى *(ومنهم الاحق بالسبق والتقدم بقي بن مخلد بن يزيد أبو عبد الرحمن القرطبي) الاندلسي الحافظ أحد الاعلام وصاحب التفسير والمسند أخذ عن يحيى بن يحيى الليثي ومحمد بن عيسى الاعشى وارتحل الى المشرق ولقي الكبار وسمع بالحجاز مصعبا الزهري وابراهيم بن المنذر وطبقتهما وبمصر يحيى بن بكير وزهير بن عباد وطائفة وبدمشق ابراهيم بن هشام الغساني وصفوان بن صالح وهشام بن عمار وجماعة وببغداد أحمد بن حنبل وطبقته وبالكوفة يحيى بن عبد الحميد الحماني ومحمد بن عبد الله بن نمير وأبا بكر بن أبي شيبة وطائفة وبالبصرة أصحاب حماد بن زيد وعني بالاثر عناية عظيمة لا مزيد عليها وعدد شيوخه مائتان وأربعة وثلاثون رجلا وكان اماما زاهدا صواما صادقا كثير التهجد مجاب الدعوة قليل المثل مجتهدا لا يقلد بل يفتي بالاثر ولد في رمضان سنة احدى ومائتين وتوفي في جمادى الآخرة سنة ست وسبعين ومائتين قال ابن حزم

أقطع أنه لم يؤلف في الإسلام مثله ثم لابن سنجر محمد بن سنجر ولده عمر وكان محمد بن عبد الرحمن الأموي صاحب الأندلس محبا للعلوم عارفا فلما دخل بقي بن مخلد الأندلس بمصنف ابن أبي شيبة وقرئ عليه أنكر جماعة من أهل الرأي ما فيه من الخلاف واستشنعوه وبسطوا العامة عليه ومنعوه من قراءته فاستحضره الأمير محمد وإياهم وتصفح الكتاب كله جزءا جزءا حتى أتى على آخره ثم قال لخازن كتبه هذا الكتاب لا تستغني خزانتنا عنه فانظر في نسخه لنا وقال لبقي انشر علمك وارو ما عندك ونهاهم أن يتعرضوا له قال ابن حزم مسند بقي روى فيه عن ألف وثلاثمائة صاحب ونيف ورتب حديث كل صاحب على أبواب الفقه فهو مسند ومصنف وما أعلم هذه الرتبة لأحد قبله مع ثقته وضبطه وإتقانه واحتفاله في الحديث وله مصنف في فتاوى الصحابة والتابعين فمن دونهم أربى فيه على مصنف أبي بكر بن أبي شيبة وعلى مصنف عبد الرزاق وعلى مصنف سعيد ابن منصور ثم ذكر تفسيره فقال فصارت تصانيف هذا الإمام الفاضل قواعد الإسلام لا نظير لها وكان متخيرا لا يقلد أحدا وكان جاريا في مضمار البخاري ومسلم والنسائي وذكر القشيري أن امرأة جاءته فقالت له إن ابني قد أسره الفرنج وإني لا أنام الليل من شوقي إليه ولي دويرة أريد أن أبيعها لأستفكه فإن رأيت أن تشير إلى من يأخذها ويسعى في فكاكه فليس لي ليل ولا نهار ولا صبر ولا قرار فقال نعم انصرفي حتى ننظر في ذلك إن شاء الله تعالى وأطرق الشيخ وحرك شفتيه يدعو الله عز وجل لولدها بالخلاص فذهبت فما كان غير قليل حتى جاءت وابنها معها فقالت اسمع خبره يرحمك الله تعالى فقال كيف كان أمرك فقال إني كنت فيمن يخدم الملك ونحن في القيود فبينا أنا ذات يوم أمشي إذ سقط القيد من رجلي فأقبل علي الموكل بي فشتمني وقال فككت القيد من رجلك فقلت لا والله ولكن سقط ولم أشعر فجاؤوا بالحداد فأعاده وسمر مسماره وأيده ثم قمت فسقط أيضا فسألوا رهبانهم فقالوا ألك والدة فقلت نعم فقالوا إنه قد استجيب دعاؤها فقالوا أطلقناك فأطلقوني وخفروني إلى أن وصلت إلى بلاد الإسلام فسأله بقي عن الساعة التي سقط القيد من رجله فإذا هي الساعة التي دعا له فيها رحمه الله تعالى •(ومن الراحلين من الأندلس إلى المشرق يوسف بن يحيى بن يوسف الأزدي المعروف بالمغامي) من أهل قرطبة وأصله من طليطلة وهو من ذرية أبي هريرة رضي الله تعالى عنه سمع من يحيى بن يحيى وسعيد بن حسان وروى عن عبد الملك بن حبيب مصنفاته وارتحل إلى مصر وسمع من يوسف بن يزيد القراطيسي وعاد إلى الأندلس وكان فقيها نبيلا فصيحا بصيرا بالعربية ثم بعد عوده من مصر أقام بقرطبة أياما ثم عاد إلى مصر وأقام بها وانتفع الناس به وعظم أمره بالبلاد المشرقية ثم إنه عاد إلى المغرب فتوفي بالقيروان سنة ثمان وثمانين ومائتين وله مختصر الواضحة لابن حبيب ومصنف سماه الرد على الشافعي في عشر أجزاء وإن كان يناضل عن مالك رضي الله تعالى عنه والذي ينبغي أن من قلد إماما من المجتهدين لا ينبغي له أن يتعرض في غيره وإن كان ولا بد من الانتصار لمذهبه فليكن ذلك بحسن أدب مع الأئمة رضي الله تعالى عنهم فإنهم على هدى من ربهم وقد ضل بعض الناس

حمله التعصب لمذهبه على التصريح بما لا يجوز في حق العلماء الذين هم نجوم الملة ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم وقد حكى أبو عبد الله الوادي آشي حسبما رأيته بخطه أن القاضي عبد الوهاب بن نصر البغدادي المالكي ألف كتابا نصرة مذهب مالك على غيره من المذاهب في مائة جزء وسماه النصرة لمذهب امام دار الهجرة فوقع الكتاب بخطه بيد بعض قضاة الشافعية بمصر فغرقه في النيل فقضى الله تعالى أن السلطان فرج بن برقوق سافر الى الشام ومعه القضاة الاربعة وغيرهم من الاعيان لدفع تيمورلنك عن البلاد فلم يستطع شيأ وهزم الى مصر وتفرقت العساكر وأخذ القضاة والعلماء أسارى ومن جملتهم ذلك القاضي فبقي في اسر تيمورلنك الى أن ارتحل عن الشام فأخذه معه أسيرا الى أن وصل الى الفرات فغرق فيه أعني القاضي فرأى بعض الناس أن ذلك بسبب تغريقه الكتاب المذكور والجزاء من جنس العمل والله تعالى أعلم وقد نجى الله تعالى من هذه الورطة قاضي القضاة أبا زيد عبد الرحمن بن خلدون الحضرمي المالكي صاحب كتاب العبر وديوان المبتدا والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الاكبر فانه كان من جملة القضاة الحاضرين في الهزيمة فلما أدخلوا على تيمورلنك قال لهم ابن خلدون قدموني للكلام تنجوا ان شاء الله تعالى والا فأنتم أخبر فقدموه وعليه زي المغاربة فلما رآه تيمورلنك قال له ما أنت من هذه البلاد وتكلم معه فغلبه ابن خلدون بلسانه وكان آية الله الباهرة ثم قال لتيمورلنك اني ألفت كتابا في تاريخ العالم وحليته بذكرك أو كما قال ويقال ان تيمورلنك هو الذي قال له بلغني انك ألفت كتابا في تاريخ العالم ثم قال له تيمورلنك كيف ساغ لك أن تذكرني فيه وتذكر بخت نصر مع أنا خربنا العالم فقال له ابن خلدون أفعالكما العظيمة ألحقتكما بالذكر مع ذوي المراتب الجسيمة أو نحو هذا من العبارات وأعجبه ذلك وقيل انه لما أنس بابن خلدون قال له يا خوند ما أسفي الا على كتاب ألفته في التاريخ وأنفقت فيه أيام عمري وقد تركته بمصر وان عمري الماضي ذهب ضياعا حيث لم يكن في خدمتك وتحت ظل دولتك والآن أذهب فآتي بهذا الكتاب وأرجع سريعا حتى أموت في خدمتك ونحو هذا من الكلام فأذن له فذهب ولم يعد اليه وقال بعض العلماء انه لم ينج من يد ذلك الجبار أحد من العلماء غير ابن خلدون ورجل آخر وقد ذكر ذلك ابن عربشاه في عجائب المقدور وقد طال عهدي به فليراجع وحكى غير واحد أن تيمورلنك لما أخذ حلب على الوجه المشهور في كتب التاريخ جمع العلماء فقال لهم على عادته في التعنت قتل منا ومنكم جماعة فمن الذي في الجنة قتلانا أو قتلاكم وكان مراده ابراز سبب لقتلهم لانهم ان قالوا أحد الامرين هلكوا فقال بعض العلماء وأظنه ابن الشحنة دعوني أجبه والا هلكتم فتركوه فقال له يا خوند هذا السؤال أجاب عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم حين سئل عنه فغضب وقال كيف يمكن أن يجيب عن هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن لم نكن في زمانه أو كلاما هذا معناه فقال العالم المذكور روينا في الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل عن الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حمية ويقاتل ليذكر ويرى مكانه فمن الذي في الجنة فقال من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو الذي في الجنة

أو كما قال صلى الله عليه وسلم فتعجب تيمورلنك من هذا الجواب المفحم المسكت وخوله أن يجيب بمثله فإن هذا من الأجوبة التي تقل نظائرها ومنها المخلص على كل حال بالإنصاف وقد وفق الله تعالى هذا العالم لهذا الجواب حتى يخلص على يد أوبش الأقوام من الطاغية الجبار العنيد الذي جعل الله تعالى نقمته في الإسلام وقومه جنكزخان وأولاد من أعظم المحن التي وقع بها المسلمون وذكر بعض العلماء أن ابن خلدون لما اجتمع على تيمورلنك قال له ادع لي فأرسل يده فسأل ولم يسأله لأنه أمسك الإمام بعد أن رأى أنه مع جهة العالم وأصابع يد جسمه فلكل إصبع ألم وهذا الشامي دعا ابن خلدون وقد كدنا نخرج عن المقصود في هذه الترجمة فلنصرف العنان والله سبحانه المستعان * (ومن الراحلين من الأندلس الإمام الحافظ أبو بكر بن عطية رحمه الله تعالى قال الفتح شيخ العلم وحامل لوائه وحافظ حديث النبي صلى الله عليه وسلم وكوكب سمائه شرح الله تعالى لحفظه صدره وطاول به عمره مع كونه في كل علم وافر النصيب مياسراً بالمعلى والرقيب ورحل إلى المشرق لأداء الفرض لابس برد من العمر الغض فروى وقيد ولقي العلماء وأسند وأبقى بتلك المآثر رسماً خلداً تبلى الليالي وهو باق لا يبلى وأورد منها بالمشرق غرراً قومه لم يزل بها على وجه الزمان أعلام علم وأرباب عقد حصيم فرقد سما ترتسم الكتب والعلوم النوارج كالشهب ومارج الفقه أو تكرتهم كرأهل المعارف وعوارفها وتقيد شوارد المعاني وغرائبها لاستطلاعه بالأدب الذي أحكم أصوله وفروعه وعمر بفنيته ربوعه وتر وقيه بين الجواد المستولي على الأمد وجلى عن نفسه كما جلى الصقال عن النصل الفرد وشاهد ذلك ما ثبت من نظمه الذي يروق حلاه وتقصر عنه عن نور العارضة دليلا في ذلك قوله يحذر من خطط الزمان وينبه على التحفظ من الإنسان

كن بذئب صائد مستأنساً * وإذا أبصرت إنساناً ففر

إنما الإنسان بحر ماله * ساحل فاحذره إياك الغرر

واجعل الناس كشخص واحد * ثم كن من ذلك الشخص حذر

وله في الزهد

أيها المطرود من باب الرضا * كم يراك الله تلهو معرضا

كم إلى كم أنت في جهل الصبا * فدمعي عمر الصبا وانقرضا

قم إذا الليل دجا ظلمته * واستلذ الجفن أن يغتمضا

فضع الخد على الأرض ونح * واقرع السن على ما قد مضى

وله في هذا المعنى

قلبي يا قلبي المعنى * كم أنا أدعى فلا أجيبه

كم أعادي على ضلال * لا أرعوي لا ولا أنيبه

ولا من سر ما دهاني * يسوء غيري ولا أتوب

وا أسفي كيف برء دائي * دائي كأساً والطبيب

لو كنت ادنو لكنت اشكو * ما أنا من بابه قريب
أبعدني منه سوء فعلي * وهكذا يبعد المريب
فمالي قدر وأي قدر * لمن أحلت به الذنوب

وله في هذا المعنى أيضا

لا تجعلن رمضان شهر فكاهة * تلهيك فيه من القبيح فنونه
واعلم بأنك لا تنال قبوله * حتى تكون تصومه وتصونه

وله في مثل ذلك

اذا لم يكن في السمع مني تصاون * وفي بصري غض وفي مقولي صمت
فحظي اذا من صومي الجوع والظما * وان قلت اني صمت يوما فما صمت

وله في المعنى الاول

جفوت أناسا كنت آلف وصلهم * وما في الجفا عند الضرورة من باس
بلوت فلم أحمد وأصبحت آيسا * ولا شيء أشفى للنفوس من اليأس
فلا تعذلوني في انقباضي فانني * رأيت جميع الشر في خلطة الناس

وله يعاتب بعض اخوانه

وكنت أظن أن جبال رضوى * تزول وأن ودك لا يزول
ولكن الامور لها اضطراب * واحوال ابن آدم تستحيل
فان يك بيننا وصل جميل * والا فليكن هجر طويل

وأما شعره الذي اقتدحه من مرخ الشباب وعفاره وكلامه الذي وشحه بعرف الغزل وأوطاره فانه نبذ الى ما تناساه وتركه حين كساه العلم والورع من ملابسه ما كساه فمما وقع من ذلك قوله

كيف السلو ولي حبيب هاجر * قاسي الفؤاد يسومني تعذيبا
لما درى أن الخيال مواصلي * جعل السهاد على الجفون رقيبا

وله أيضا

يا من عهودي له تراعى * انا على عهدك الوثيق
ان شئت أن تسمعي غرامي * من مخبر عالم صدوق
فاستخبري قلبك المعنى * يخبرك عن قلبي المشوق

انتهى كلام الفتح وأبو بكر بن عطية المذكور هو والد الحافظ القاضي أبي محمد عبد الحق بن عطية صاحب التفسير الشهير رحم الله تعالى الجميع قال في الاحاطة في حقه ما ملخصه الشيخ الامام المفسر عبد الحق بن غالب بن عطية المحاربي فقيه عالم بالتفسير والاحكام والحديث والفقه والنحو واللغة والادب حسن التقييد له نظم ونثر ولي قضاء المرية سنة تسع وعشرين وخمسمائة في المحرم وكان غاية في الذكاء والدهاء والتهمم بالعلم سري الهمة في اقتناء الكتب توخى الحق وعدل في الحكم وأعز الخطة روى عن أبيه وأبوي علي الغساني والصدفي وطبقتهما وألف كتابه الوجيز في التفسير فأحسن فيه وأبدع وطار

عز الدين بن عبد السلام قليلا وسمع من شيخ الشيوخ شرف الدين الانصارى الحموى والمعين أحمد بن زين الدين واسمعيل بن عزوز والنجيب بن الصيقل وابن علان وبدمشق من ابن عبد الدائم وخلق وعنى بالحديث واتقن ألفاظه وعرف رواته وحفاظه وفهم معانيه واتقى لبابه ومبانيه قال الصفدى وكان من كبار أئمة هذا الشان وممن يجرى فيه وهو طلق اللسان هذا الى ما فيه من ديانه وورع وصيانه وكانت له حلقة اشتغال بكرة بالجامع الاموى يلازمها ويحوم عليه من الطلاب حوائمها سمع عليه الشيخ شمس الدين الذهبى واستفاد منه وروى فى تصانيفه عنه وعرضت عليه مشيخة دار الحديث النورية فأباها ولم يقبل حباها وكان بزى الصوفيه ومعه فقاهة بالشافعيه ولم يزل على حاله حتى أحزن الناس ابن فرح وتقدم الى الله وسرح وشيع الخلق جنازته وتولوا وضعه فى القبر وحيازته وتوفى رحمه الله تعالى تاسع جمادى الآخرة سنة تسع وتسعين وستمائة ومولده سنة خمس وعشرين وستمائة وله قصيدة غزلية فى ألقاب الحديث سمعها منه الدمياطى واليونينى وسمع منه البرزالى والمقاتلى والنابلسى وأبو محمد ابن الوليد ومات بتربة أم الصالح بالاسهال والقصيدة المذكورة هى

غرامى صحيح والرجا فيك معضل * وحزنى ودمعى مطلق ومسلسل
وصبرى عنكم يشهد العقل أنه * ضعيف ومتروك وذلى أجمل
ولا حسن الا سماع حديثكم * مشافهة يملى على فأنقل
وأمرى موقوف عليك وليس لى * على أحد الا عليك المعول
ولو كان مرفوعا اليك لكنت لى * على رغم عذالى ترق وتعدل
وعذل عذولى منكر لا أسيغه * وزور وتدليس يرد ويهمل
أقضى زمانى فيك متصل الاسى * ومنقطعا عما به أتوصل
وها أنا فى أكفان هجرك مدرج * تكلفنى مالا أطيق فأحمل
وأجريت دمعى بالدماء مدبجا * وما هو الا مهجتى تتحلل
فمتفق سهدى وجفنى وعبرتى * ومفترق صبرى وقلبى المبلبل
ومؤتلف شجوى ووجدى ولوعتى * ومختلف حظى وما منك آمل
خذ الوجد عنى مسندا ومعنعنا * فغيرى موضوع الهوى يتحيل
وذى نبذ من مبهم الحب فاعتبر * وغامضه ان رمت شرحا أطول
عزيز بكم صب ذليل لعزكم * ومشهور أوصاف المحب التذلل
غريب يقاسى البعد عنك وماله * وحق الهوى عن داره متحول
فرفقا بمقطوع الوسائل ماله * اليك سبيل لا ولا عنك معدل
فلا زلت فى عز منيع ورفعة * وما زلت تعلو بالتجنى فأنزل
أورى بسعدى والرباب وزينب * وأنت الذى تعنى وأنت المؤمل
فخذ أولا من آخر ثم أولا * من النصف منه فهو فيه مكمل
أبر اذا أقسمت انى بحبه * أهيم وقلبى بالصبابة يشعل

وقد ذكرت شرحها في الجزء الثالث من هذا الكتاب انتهى كلام المهدي وظاهر كلامهما أن شرح ابن الزا والذي تلقيناه عن شيوخنا أنه يكون الزا وقد شرح هذه القصيدة جماعة من أهل المشرق والمغرب بطول امتدادهم وفي وجه قصاده على عكس الرحل رحمه الله تعالى •(ومنهم عبد العزيز بن عبد الملك بن نصر أبو الأصبغ الأموي الأندلسي سمع بمكة ودمشق ومصر وغيرها وحدث عن سليمان بن أحمد بسنده إلى جابر بن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن لكل بني أب عصبة ينتمون إليها إلا ولد فاطمة فأنا وليهم وأنا عصبتهم وهم عترتي خلقوا من طينتي وويل للمكذبين بفضلهم من أحبهم أحبه الله ومن أبغضهم أبغضه الله وحدث عن أبي العباس أحمد بن محمد البرذعي بسنده إلى عبد الله بن المبارك قال كنت عند مالك بن أنس وهو يحدثنا فجاءت عقرب فلدغته ست عشرة مرة ومالك يتغير لونه ويصفر ولا يقطع حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما فرغ من المجلس وتفرق الناس عنه قلت له يا أبا عبد الله لقد رأيت منك عجبا قال نعم أنا صبرت إجلالا لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وولد أبو الأصبغ المذكور بقرطبة وتوفي ببخارى سنة ٣٦٥ قال الحاكم أبو عبد الله رأيت أبا الأصبغ في المنام في بستان فيه خضر وفيه جارية وفرس كبير وكان أول ليلة دفن فقلت يا أبا الأصبغ عافاك الله وقلت إنه بالحديث فقال أي والله وهل تعرف إلا الحديث قال ورأيته أيضا وهو على بزي الحسن ما ذكرته لم أشأ أبو الأصبغ فقال ثم قلت ادع الله تعالى أن يجعلني وإياك في الجنة فقال إن أمام الجنة أهوالا ثم رفع يده وقال اللهم اجعل له مني في الجنة بعد عمر طويل انتهى •(ومنهم القاضي أبو البقا خالد البلوي الأندلسي رحمه الله تعالى وهو خالد بن عيسى بن أحمد بن إبراهيم بن أبي خالد البلوي ووصفه الشاطبي بأنه الشيخ الفقيه القاضي الأعدل انتهى وهو صاحب الرحلة المسماة تاج المفرق في تحلية أهل المشرق ومما أنشد رحمه الله تعالى من إنشائه

ولقد جرى يوم النوى دمعي دما * حتى أشاع الناس أنك قاني
والله إن عاد الزمان بقربنا * لأكففن عن ذكر النوى وكفاني

وهذه الرحلة المسماة تاج المفرق مشحونة بالفوائد والزوائد وفيها من العلوم والآداب ما لا يجاوز الزائد وقد قال رحمه الله تعالى في رحلته الولي نجم الدين الخباري رضي الله تعالى عنه ما نصه وذكر لي رضي الله تعالى عنه قال مما أوصى به الجد الأكبر أبو الحجاج يوسف المذكور جدي سيدي أبا الحجاج يوسف بن عبد الرحيم الأقصري القطب الغوث رضي الله تعالى عنه وأعاد علينا من بركاته وسراية أسراره قال إذا أدركتم الضرورة والفاقة فقولوا يا حي الله ربي الله لم أشرك به شيئا قال وذكر لي أيضا رضي الله تعالى عنه قال رأى هذا الجد يوسف المذكور النبي صلى الله عليه وسلم في النوم بعد أن سأل الله تعالى ذلك وقد كان أصابته فاقة فشكا إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم قل يا رب يا رحيم يا رب يا رحيم الطف بي في قضائك ولا تول أمري أحدا سواك حتى أسألك فلما قالها أذهب الله تعالى عنه فاقته قال وكان رحمه الله تعالى يوصي من أصحابه

وأحبابه انتهى ونسب بعضهم القاضي خالد المذكور الى انتحال كمال العماد في البرق الشامي لان خالدا أكثر في رحلته من الاسجاع التي للعماد فلذا قال لسان الدين بن الخطيب فيه

خليلي ان يقض اجتماع بخالد * فقولا له قولا وان تعدوا الحقا
سرقت العماد الاصبهاني برقه * وكيف ترى في شاعر سرق البرقا

وأظن أن لسان الدين كان منحرفا عنه ولذلك قال في كتابه خطرة الطيف ورحلة الشتاء والصيف عندما جرى ذكر منتورية وقاضيها خالد المذكور ماصورته لم يتخلف ولد عن والد وركب قاضيها ابن أبي خالد وقد شهرته النزعة الحجازيه ولبس من خشن الحجازيه وأرخى من البياض طيلسانا وتشبه بالمشارقة شكلا ولسانا والبداوة تسمه على الخرطوم وطمع الماء والهواء يقوده قود الجمل المخطوم انتهى ومن نظم أبي البقاء خالد البلوي المذكور قوله

أتى العيد واعتاد الاحبة بعضهم * ببعض وأحباب المتيم قد بانوا
وأضحى وقد ضحوا بقربانهم وما * لديه سوى حر المدامع قربان

وقال في رحلته انه قال هذين البيتين بديهة بمصلى تونس في عيد النحر من سنة سبع وثلاثين وسبعمائة ومن نظمه أيضا قوله رحمه الله تعالى

ومستنكر شيبي وماذهب الصبا * ولا جف ايناع الشبيبة من غصني
فقلت فراقي للاحبة مؤذن * بشيبي وان كنت ابن عشرين من سني

ومحاسنه رحمه الله تعالى كثيرة وفي الرحلة منها جملة *(ومنهم برهان الدين أبو اسحق بن الحاج ابراهيم النميري الغرناطي وهو أيضا مذكور في ترجمة ابن الخطيب بما يغني عن تكرير اسمه هنا وقال رحمه الله تعالى في رحلته أخبرني شيخنا ولي الشيخ الامام الصالح أبا عبد الله محمد المعروف بخليل التوزري امام المالكية بالحرم الشريف رضي الله تعالى عنه قال اعتكفت بجامع عمرو بن العاص كما انشرتني عن الناس خصوصا أذى العيبة نحو خمس ليلة أردت أن أدعو لطائفة من أصحابي بمطالب مختلفة كل بحسب ظني فيه يومئذ فأدركتني حيرة في التمييز والتخصيص وألهمت أن قلت بديهة

شهدنا بتقصير أمانيا * فخس اختيارك أولى بنا
وأنت البصير بأعدائنا * وأنت البصير بأحبابنا

قال ثم أردفتها بدعاء وهو اللهم يا من لا يعلم خيرهم الاهو أنت أعلم بأعدائنا وأودائنا فافعل بكل منهم ما يناسب حسن اختيارك لنا حسبما علمته مني وكفى بك عليما وكفى بك قديرا وكفى بك بصيرا وكفى بك لطيفا وكفى بك خبيرا وكفى بك نصيرا وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا كثيرا * وقال ابن الحاج المذكور في الرحلة المذكورة اذا التقى الرجل بعدوه وهو على خوف منه فليقرأ هذه الحروف كهيعص حمعسق وليعقد بكل حرف منها اصبعا يبدأ بابهام يده اليمنى ويختم بابهام يده اليسرى فاذا قرب من عدوه فليقرأ في نفسه سورة الفيل فاذا وصل الى قوله ترميهم

انتهى ما اختصرته من كلام الخطيب بن مرزوق وأنشد الرحالة ابن جابر الوادي آشي لابي حيان قوله

وقصر آمالي مآلي الى الردى * واني وان طال المدى سوف أهلك
فصنت ماء الوجه نفسا أبية * وجادت يميني بالذي كنت أملك

ووقفت على أعيان العصر وأعوان النصر للصفدي فوجدت فيه ترجمة أبي حيان واسعة فرأيت أن أذكرها بطولها لما فيها من الفوائد وهي الشيخ الامام العالم العلامة الفريد الكامل حجة العرب مالك أزمة الادب أثير الدين أبو حيان الاندلسي الجياني بالجيم والياء آخر الحروف مشددة وبعد الالف نون كان أمير المؤمنين في النحو والشمس السافرة شتاء في اليوم الصحو والمتصرف في هذا العلم فاليه الاثبات والمحو لو عاصر أئمة البصرة لبصرهم أو أهل الكوفة لكف عنهم اتباعهم السواد وحذرهم نزل منه كتاب سيبويه في وطنه بعد أن كان طريدا وأصبح به التسهيل بعد تعقيده مهيدا وجعل مرحة شرحه جنة زاقت المواطر توريدا ملأ الزمان تصانيف وأمال عنق الايام بالتآليف تخرج به أئمة في هذا الفن وروق لهم في عصره منه سلافة الدن فلو رآه يونس بن حبيب لكان بغيضا غير محبب أو عيسى بن عمر لاصبح من تقصيره وهو مخدب أو الخليل لكان بعيبه قذاه أو سيبويه لما تردى من مسئلته الزنبورية برداه أو الكسائي لاعراه حلة جاهه عند الرشيد وأناسه أو الفراء لفرّ منه ولم يقتسم ولدا المأمون تقديم مداسه أو اليزيدي لما ظهر نقصه من مكامنه أو الاخفش لاخفى جملة من محاسنه أو أبو عبيدة لما تركه ينصب لشعب الشعوبية أو أبو عمرو لاشغله بتحقيق اسمه دون التعلق بعربيته أو السكري لما راق كلامه في المعاني ولا حلا أو المازني لما زانه قوله ان مصابكم رجلا أو قطرب لما دب في العربية ولا درج أو ثعلب لاستكن بمكره في وكره ولما خرج أو المبرد لاصبحت كواه مسعره أو الزجاج لامست قواريره مكسره أو ابن الوراق لعدم نقده أو الثمانيني لما تجاوز حده أو ابن باب لعلم أن قياسه ما اطرد أو ابن دريد ما بلع ريقه ولا ازدرد أو ابن قتيبة لاضاع رحله أو ابن السراج لمشى اذ رأى وحله أو ابن الخشاب لاضرم فيه نارا ولم يجد معه نورا أو ابن الخمار لما سجر له تنورا أو ابن القواس لما أغرق في نزعه أو ابن يعيش لا وقعه في نزعه أو ابن خروف لما وجد له مرعى أو ابن اياز لما وجد لاوازه وقعا أو ابن الطراوة لم يكن نحوه طريا أو الدباج لكان من حلته الرائعة عريا وعلى الجملة فكان امام النحاة في عصره شرقا وغربا وفريد هذا الفن الفذ بعدا وقربا وفيه قلت

سلطان علم النحو استاذنا الشيخ اثير الدين حبر الانام
فلا تقل زيد وعمرو فما * في النحو معه لسواه كلام

خدم هذا العلم مدة تقارب الثمانين وسلك من غرائبه وغوامضه طرقا متشعبة الافانين ولم يزل على حاله الى أن دخل في خبر كان وتبدلت حركاته بالاسكان وتوفي رحمه الله تعالى بمنزله خارج باب البحر بالقاهرة في يوم السبت بعد العصر الثامن والعشرين من صفر سنة

خمس وأربعين وسبعمائة ودفن بالمقبرة الصوفية خارج باب النصر وصلي عليه بالجامع الأموي بدمشق صلاة الغائب في شهر ربيع الآخر ومولده بمدينة مطخشارش في أخريات شوال سنة أربع وخمسين وستمائة وقلت أرثيه رحمه الله تعالى

مات أثير الدين شيخ الورى • فاستعر البارق واستعبرا
ورق من حزن نسيم الصبا • واعتل في الأسحار لما سرى
وصادحات الأيك في نوحها • رثته في السجع على حرف را
يا عين جودي بالدموع التي • يروي بها ما ضمه من ثرى
واجري دما فالخطب في شأنه • قد اقتضى أكثر مما جرى
مات إمام كان في علمه • يرى إماما والورى من ورا
أمسى منادى للبلى مفردا • فضمه القبر على ما ترى
يا أسفا كان هدى ظاهرا • فعاد في تربته مضمرا
وكان جمع الفضل في عصره • صح فلما أن قضى كسرا
وعرف الفضل به برهة • والآن لما أن مضى نكرا
وكان ممنوعا من الصرف لا • يطرق من وافاه خطب عرا
لا أفعل التفضيل ما بينه • وبين من أعرفه في الورى
لا بدل عن نعته بالتقى • فعله كان له مصدرا
لم يدغم في اللحد إلا وقد • فك من الصبر وثيق العرى
بكى له زيد وعمرو فمن • أمثلة النحو ومن قد قرا
ما عمدة التسهيل من بعده • فكم له من عسرة يسرا
وجسر الناس على خوضه • إذ كان في النحو قد استبحرا
من بعده قد حال تمييزه • وحاله قد رجع القهقرى
شارك من قد ساد في فنه • وكم له فن به استأثرا
دأب بني الآداب أن يغسلوا • بدمعهم فيه سنا الكرا
والنحو قد سار الردى نحوه • والصرف للتصريف قد غيرا
واللغة الفصحى غدت بعده • يلقى الذي في ضبطها قصرا
تفسيره البحر المحيط الذي • يهدي إلى وراده الجوهرا
فوائد من فضله جمة • عليه فيها نعقد الخنصرا
وكان ثبتا نقله حجة • مثل ضيا الصبح إذا أسفرا
ورحلة في سنة المصطفى • أصدق من يسمع إن أخبرا
له الأسانيد التي قد علت • فاستفلت عنها سوامي الذرا
ساوى بها الأحفاد أجدادهم • فاعجب لماض فاته من طرا
وشاعرا في نظمه مفلقا • كم حرر اللفظ وكم حبرا
له معان كلما خطها • يستر ما رقم في تسترا

أعدَّ به من ماض لامر الردى * مستقبلا من ربه بالقرى
مابات في أبيض أكفانه * الا وأضحى سندسا أخضرا
تصانيف الحور له راحة * كم تعبت في كل ما سطرا
ان مات فالذكر له خالد * يحيا به من قبل أن ينشرا
جاد ثرى واراه غيث اذا * مساه بالسقى له بكرا
وخصه من ربه رحمة * توردهُ في حشره الكوثرا

وكان قد قرأ القرآ آت على الخطيب أبي محمد عبد الحق بن علي بن عبد الله نحوا من عشرين ختمة افرادا وجمعا ثم على الخطيب الحافظ أبي جعفر أحمد الغرناطي المعروف بالطباع بغرناطة ثم قرأ السبعة الى آخر سورة الحجر على الخطيب الحافظ أبي علي الحسين بن عبد العزيز بن محمد بن أبي الاحوص بمالقة ثم انه قدم الاسكندرية وقرأ القرآ آت على عبد النصير بن علي بن يحيى المريوطي ثم قدم مصر فقرأ بها القرآ آت على أبي الطاهر اسمعيل بن هبة الله المليجي وسمع الكثير على الجم الغفير بجزيرة الاندلس وبلاد افريقية والاسكندرية وديار مصر والحجاز وحصل الاجازات من الشام والعراق وغير ذلك واجتهد في طلب التحصيل والتقييد والكتابة ولم أر في أشياخي أكثر اشتغالا منه لاني لم أره قط الا يسمع أو يشتغل أو يكتب ولم أره على غير ذلك وله اقبال على الطلبة الاذكياء وعنده تعظيم لهم ونظم ونثر وله الموشحات البديعة وهو ثبت فيما ينقله محرر لما يقوله عارف باللغة ضابط لالفاظها وأما النحو والصرف فهو امام الناس كلهم فيهما لم يذكر معه في أقطار الارض غيره في حياته وله اليد الطولى في التفسير والحديث والشروط والفروع وتراجم الناس وطبقاتهم وحوادثهم خصوصا المغاربة وتقييد أسمائهم على ما يتلفظون به من امالة وترقيق وتفخيم لانهم يجاورون بلاد الافرنج وأسماؤهم قريبة من لغاتهم وألقابهم كذلك وقيد ذلك وحرره وسأله شيخنا الذهبي أسئلة فيما يتعلق بذلك وأجابه عنها وله التصانيف التي سارت وطارت وانتشرت وما انتثرت وقرئت ودريت ونسخت وما فسخت أخلقت كتب الاقدمين وألهت المقيمين بمصر والقادمين وقرأ الناس عليه وصاروا أئمة وأشياخا في حياته وهو الذي جسر الناس على مصنفات ابن مالك رحمه الله تعالى ورغبهم في قراءتها وشرح لهم غامضها وخاض بهم لججها وفتح لهم مقفلها وكان يقول عن مقدمة ابن الحاجب هذه نحو الفقهاء وكان التزم أن لا يقرئ أحدا الا ان كان في كتاب سيبويه أو في التسهيل لابن مالك أو في تصانيفه ولما قدم من بلاده لازم الشيخ بهاء الدين رحمه الله تعالى كثيرا وأخذ عنه كتب الادب وكان شيخنا حسن العمة مليح الوجه ظاهر اللون مشرب الحمرة منور الشيبة كبير اللحية مسترسل الشعر فيها لم تكن كثة عبارته فصيحة بلغة الاندلس يعقد القاف قريبا من الكاف على انه لا ينطق بها في القرآن الا فصيحة وسمعته يقول ما في هذه البلاد من يعقد حرف القاف وكانت له خصوصية بالامير سيف الدين أرغون كافل الممالك ينبسط معه ويبيت عنده في قلعة الجبل ولما توفيت ابنته نضار طلع الى السلطان الملك الناصر محمد وسأل منه أن يدفنها في بيته داخل القاهرة في البرقوقية فأذن له في ذلك وكان أولا

استعرته من خزائن الاوقاف واذا أردت من أحد أن يعيرني دراهم ما أجد ذلك وأنشدني له اجازة

ان الدراهم والنساء كلاهما * لا تأمنن عليهما انسانا
ينزعن ذا اللب المتين عن التقى * فترى اساءة فعله احسانا

وأنشدني له من أبيات

أتى بشفيع ليس يمكن رده * دراهم بيض للجروح مراهم
تصير صعب الامر أهون ما يرى * وتقضي لبانات الفتى وهو نائم

ومن حزمه قوله عداتي لهم وصل البيتين وقد مدحه كثير من الشعراء والكبار الفضلاء فمنهم القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر بقوله

قد قلت لما أن سمعت مباحثا * في الذات قررها أجل مفيد
هذا أبو حيان قلت صدقتم * وبررتم هذا هو التوحيدي

وكان قد جاء يوما الى بيت الشيخ صدر الدين بن الوكيل لم يجده فكتب بالجص على مصراع الباب فلما رأى ابن الوكيل ذلك قال

قالوا أبو حيان غير مدافع * ملك النحاة فقلت بالاجماع
اسم الملوك على النقود وانني * شاهدت كنيته على المصراع

ومدحه شرف الدين بن الوحيد بقصيدة مطولة أولها

اليك أبا حيان أعملت أينقي * وملت الى حيث الركائب تلتقي
دعاني اليك الفضل فانقدت طائعا * ولبيت أحدوها بلفظي المصدق

ومدحه نجم الدين اسحق بن الملك التركي وسأله تكملة شرح التسهيل وأرسلها اليه من دمشق وأولها

تبدى فقلنا وجهه فلق الصبح * وكمله باليمن فيه وبالنجح
وسهلت تسهيل الفوائد محسنا * فكن شارحا صدري بتكملة الشرح

ومدحه مجير الدين عمر بن الملطي بقصيدة أولها

يا شيخ أهل الادب الباهر * من ناظم يلفى ومن ناثر

ومدحه نجم الدين يحيى الاسكندري بقصيدة أولها

ضيف ألم بنا من أبرع الناس * لا ناقض عهد أيامي ولا ناسي
عار من الكبر والادناس ذو شرف * لكنه من سرابيل العلا كاسي

ومدحه نجم الدين الطوفي بقصيدتين أول الاولى

أتراه بعد هجران يصل * ويرى في ثوب وصل مبتذل
قمر جار على أحلامنا * اذ تولاها بقد معتدل

وأول الثانيه

اعذروه فكريم من عذر * قرنه ذات وجه كالقمر

ومدحه بهاء الدين محمد بن شهاب الدين الخيمي بقصيدة أولها

وأنشدته لنفسي أيضا

وتينا حسنه بديع * وفيه بدر السماء مغرى

ماحل برا الارقاما * ياليت أنا نحلت برا

وأعجباه رحمه الله تعالى وزهزه لهما وأنشدني هو لنفسه في مليح أحدب

تعشقته أحدبا كيسا * يحاكي محيا حسين النعام

اذا كدت أسقط من فوقه * تعلقت من ظهره بالسنام

وأنشدته لنفسي

وأحدب رحت به مغرما * اذ لم تشاهد مثله عيني

لا غرو ان هام فؤادي به * وخصره ما بين ردفين

وأنشدني من لفظه لنفسه في أعمى

ما ضر حسن الذي أهواه أن سفكت * كريمتيه بلا شين قد احتجبا

قد كانتا زهرتي روض وقد ذوتا * لكن حسنهما الفتان ما ذهبا

كالسيف قد زال عنه صقله صدا * أنكى وآلم في قلب الذي ضربا

وأنشدته لنفسي في ذلك

ورب أعمى وجهه روضة * تنزهي فيها كثير الديون

في خده ورد غنينا به * عن نرجس ما تحته العيون

وأنشدته أيضا لنفسي في ذلك

فيا حسن أعمى لم يخف حد طرفه * محب غدا سكران فيه وصاحيا

اذا صاد خلي بات يرعى خدوده * غدا آمنا من مقلتيه الجوارحا

وكتب اليه استدعاء وهو المسؤول من احسان سيدنا الامام العالم العلامة لسان العرب ترجمان الادب جامع الفضائل عمدة وسائل السائل حجة المقلدين زين المقلدين قطب المؤملين أفضل الآخرين وارث علوم الاولين صاحب اليد الطولى في كل مكان ضيق والتصانيف التي تأخذ بمجامع القلب فكل ذي لب اليها شيق والمباحث التي أثارت الادلة الراجحة من مكامن أماكنها وقنصت أوابدها الجامحة من مواطئ مواطنها كشاف معضلات الاوائل سباق غايات قصر عن شأوها سحبان وائل فارع هضبات البلاغة التي اجتلاء اجتلابها وهي في مرقى مرقدها سالب تيجان الفصاحة في اقتضاء اقتضابها من فوق فرقدها حتى أبرز كلامه جمان فضل جنان من بعده عن الدخول الهاجيان وأتى ببراهين وجوه حورها لم يطمثهن انس قبله ولا جان وأبدع جائل نظم ونثر لا تصل الى أفنان فنونه يد جان أثير الدين أبي حيان لازال ميت العلم يحييه وهل عجب ذلك من أبي حيان

حتى ينال بنو العلوم مرامهم * ويحلهم دار المنى بأمان

اجازة كاتب هذه الاحرف مارواه فسح الله تعالى في مدته من المسانيد والمصنفات والسنن والجاميع الحديثية والتصانيف الادبية نظما ونثرا الى غير ذلك من أصناف العلوم على

اختلاف أوضاعها وتباين أجناسها وأنواعها مما لها ببلاد الأندلس وإفريقية
والاسكندرية والديار المصرية والبلاد الحجازية وغيرها من البلدان قراءة أو سماعا
أو مناولة أو إجازة خاصة أو عامة كيفما تأدى ذلك اليه وإجازة ماله أدام الله إفادته
من التصانيف في تفسير القرآن العظيم والعلوم اللسانية والأدبية وغيرها وماله من نظم ونثر
إجازة عامة وأن يثبت بخطه تسمية الى حين هذا التاريخ وأن يجيز إجازة عامة لمن يتجدد
له من بعد ذلك على رأي من يراه ويجوّز مجمع التسمية فلان أثابه الله تعالى فكتب الجواب رحمه
الله تعالى أعزك الله وشرط مابيان جميلا فعالك وأندت من الإحسان جزلا نوالك
وصفت من هو الشام دون الناس سماه والسراب يحسبه الظمآن ماء ما أنت الكرام
وما أنصرمن نسيم أمع الروض المصر في الهشيم أما علمت وصالك وتواصلك
ومعارفك وعوارفك عن بعيه من داما وريه من ظمأ لقد سلك المهارق في نور
صحائف وبان جيب الأكوان في أرج صحائف ولأني أعترف بقصد للدراية
وأد من تعمد له في الرواية لكيلا أردت أن أكون من مطارفك وتحمل من تالد
وطارفك وتعلو الحاصل في منصة إشادته ويمد من لكن الفهاهة لست لذلك ذكرا
ولست له قدرا ولم تعطك الأشغال فيما طلبت والخاطر فيما انتدبت فإن المسالك
لا تعمى والمفضل المحسن لا يسمى وقد أخرجت لك أيدك الله بيانا يجمع ما رويته عن
أشياخي من أهل الأندلس والديار المصرية ودمار مصر والحجاز وغير ذلك قراءة أو سماعا
أو مناولة وإجازة مشافهة وكتابة ووجادة وجميع ما أخبرني أن أرويه بالشام والعراق
وغير ذلك وجميع ماصنفته واختصرته وجمعته وأنشأته نظما ونثرا وجميع ماآلت
في هذا الأمد على مرويات الكتاب العزيز قرأته السبع على جماعة من أعلامهم
الشيخ المسند المعمر فخر الدين أبو الطاهر إسمعيل بن هبة الله بن علي بن هبة الله المصري
المليجي آخر من روى القرآن بالتلاوة على أبي الجود والكتب الستة والموطأ ومسند
ابن حنبل ومسند الدارمي ومسند الشافعي ومسند الطيالسي والمعجم الكبير
للطبراني والمعجم الصغير وسنن الدارقطني وغير ذلك وأما الأجزاء فكثير جدا
ومن كتب النحو والآداب فأروي بالقراءة كتاب سيبويه والإيضاح والتكملة
والمفصل وجمل الزجاجي وغير ذلك والأشعار الستة والحماسة وديوان حبيب والمتنبي
والمعري وأما شيوخي الذين رويت عنهم بالسماع أو القراءة فهم كثير وأذكر
الآن منهم جماعة فمنهم القاضي أبو علي الحسين بن عبد العزيز بن أبي الأحوص
القرشي والمقري أبو جعفر أحمد بن سعد بن أحمد بن بشير الأنصاري وإسحق بن
عبد الرحيم بن محمد بن عبد الملك بن درياس وأبو بكر بن عباس بن يحيى بن غريب
الدواس البغدادي ورضي الدين الحسن بن أبي منصور بن طاهر الدرزنجي وأبو الحسن
محمد بن يحيى بن عبد الرحمن بن ربيع الأشعري ووجيه الدين محمد بن عبد الرحمن بن أحمد
الأزدي ابن الدهان وقطب الدين محمد بن أحمد بن علي بن محمد بن القسطلاني ورضي
الدين محمد بن علي بن يوسف الأنصاري الشاطبي اللغوي ومحب الدين محمد بن

أحمد بن محمد بن المؤيد الهمداني وبكى بن محمد بن أبي القاسم بن حامد الاصبهاني
المدار ومحمد بن عمر بن محمد بن علي السعدي الضرير بن الفارض وزين الدين أبو بكر
محمد بن اسمعيل بن عبد الله الانماطي ومحمد بن ابراهيم بن ترحم بن حازم المارني ومحمد بن
الحسين بن الحسن بن ابراهيم الدارمي بن الخليلي ومحمد بن عبد المنعم بن محمد بن يوسف
الانصاري بن الخيمي ومحمد بن عبد الله بن محمد بن عمر العنسي عرف بابن التين وعبد الله
ابن محمد بن هرون بن عبد العزيز الطائي القرطبي وعبد الله بن نصر الله بن أحمد بن رسلان
ابن فتيان بن كامل الحزمي وعبد الله بن أحمد بن اسمعيل بن ابراهيم بن فارس التميمي
وعبد الرحمن بن يوسف بن يحيى بن يوسف بن خطيب المزة وعبد العزيز بن عبد الرحمن بن
عبد العلي المصري السكري وعبد العزيز بن عبد المنعم بن علي بن نصر بن الصيقل
الحراني وعبد العزيز بن عبد القادر بن اسمعيل العيالي الصالحي الكتاني وعبد المعطي
ابن عبد الكريم بن أبي المكارم بن منجي الخزرجي وعلي بن صالح بن أبي علي بن يحيى
ابن اسمعيل الحسيني البهسي المجاور وغازي بن أبي الفضل بن عبد الوهاب الحلاوي
والفضل بن علي بن نصر بن عبد الله بن الحسين بن رواحة الخزرجي ويوسف بن اسحق
ابن أبي بكر الطبري المكي واليسر بن عبد الله بن محمد بن خلف بن اليسر القشيري
ومؤنسة بنت الملك العادل أبي بكر بن أيوب بن شادي وشامية بنت الحافظ ابي علي
الحسن بن محمد بن محمد التيمية وزينب بنت عبد اللطيف بن يوسف بن محمد بن علي
البغدادي وممن كتبت عنه من مشاهير الادباء أبو الحكم مالك بن عبد الرحمن بن علي
ابن الفرج المالقي بن المرحل وأبو الحسن بن حازم بن محمد بن حازم الانصاري
القرطاجني وأبو عبد الله بن أبي بكر بن يحيى بن عبد الله الهذلي التطيلي وأبو عبد الله
محمد بن محمد بن محمد بن رنون المالقي وأبو عبد الله محمد بن عمر بن جسير الجلياني العكي
المالقي وأبو الحسين يحيى بن عبد العظيم بن يحيى الانصاري الجزار وأبو عمرو
عثمان بن سعيد بن عبد الرحمن بن تولو القرشي وأبو حفص عمر بن محمد بن أبي علي
الحسن المصري الوراق وأبو الربيع سليمان بن علي بن عبد الله بن ياسين الكومي
التلمساني وأبو العباس أحمد بن أبي الفتح نصر الله بن باتكين القاهري وأبو عبد الله
محمد بن سعيد بن محمد بن حماد بن محسن الصنهاجي البوصيري وأبو العباس أحمد بن عبد
الملك بن عبد المنعم الغرزي وممن أخذت عنه من النحاة أبو الحسن علي بن محمد بن محمد
ابن عبد الرحمن الحشني الابذي وأبو الحسن علي بن محمد بن علي بن يوسف الكتامي
ابن الصائغ وأبو جعفر أحمد بن ابراهيم بن الزبير بن محمد بن الزبير الثقفي وأبو جعفر
أحمد بن يوسف بن علي بن يوسف الفهري اللبلي وأبو عبد الله محمد بن ابراهيم بن محمد
ابن نصر الحلبي بن النحاس وممن اديته من الظاهرية أبو العباس أحمد بن علي بن خالص
الانصاري الاشبيلي الزاهد وأبو الفضل محمد بن محمد بن سعدون الفهري الشنتري
وجملة الذين سمعت منهم نحو من أربعمائة شخص وخمسين وأما الذين أجازوني فعالم كثير
جدا من أهل غرناطة ومالقة وسبتة وديار افريقية وديار مصر والحجاز والعراق والشام

بهرت كل مليح بالبهاء فما * فى العالمين شبيه الباهر الباهى
لهجت بالحب لما أن لهوت به * عن كل شئ فويح اللاهج اللاهى

وأنشدنى من لفظه لنفسه

راض حبيبى عارض قد بدا * ياحسنه من عارض رائض
وظن قوم أن قلبى سلا * والاصل لا يعتد بالعارض

وأنشدنى من لفظه لنفسه

تعشقته شيحا كأن مشيبه * على وجنتيه ياسمين على ورد
أخا العقل يدرى ما يراد من الهوى * أمنت عليه من رقيب ومن صد
وقالوا الورى قسمان فى شرعة الهوى * لسود اللحى ناس وناس الى المرد
الا انى لو كنت أصبو لامرد * صبوت الى هيفاء مائسة القد
وسود اللحى أبصرت فيهم مشاركا * فأحببت أن أبقى بأبيضهم وحدى

وأنشدنى من لفظه لنفسه

الا ان أحاطا بقلبى عوابثا * أطبن بها هاروت أصبح نافثا
اذا رام ذو وجد سلوا منعنه * وكن على دين التصابى بواعثا
وقيدن من أضحى عن الحب مطلقا * وأسرعن للسلوى عن كان رائثا
بروحى رشا من آل خاقان راحل * وان كان ما بين الجوانح لابثا
غدا واحدا فى الحسن للنصل ثانيا * وللبدر والشمس المنيرة ثالثا

وأنشدنى لنفسه ومن خطه نقلت

أسحر لتلك العين فى القلب أم وحر * ولين لذاك الجسم فى اللمس أم حرير
وأملود ذاك القد أم أسمر غدا * له أبدا فى قلب عاشقه هبز
فتاة كساها الحسن أحسن حلة * فصار عليها من محاسنها طرز
وأهدى اليها الغصن لين قوامه * فماس كأن الغصن خامره العز
يضوع أديم الارض من نشر طيبها * ويحسد من آثارها تربه الخرز
وتختال فى برد الشباب اذا مضت * فيقصها قد ويقعدها عجز
أصابت فؤاد الصب منها بنظرة * فلا رقية تجدى المصاب ولا حرز

وأنشدنى اجازة فى مليح ابرص ومن خطه نقلت

وقالوا الذى قد صرت طوع جماله * ونفسك لاقت فى هواه بلاءها
به وضح نابا عن أولى النهى * وأوضع داء ما يشانى طباعها
فقلت لهم لا عيب فيه يشينه * ولا علة فيه يروم دفاعها
ولكنها شمس الضحى حين قابلت * محاسنه ألقت عليه شعاعها

وأنشدنى من لفظه لنفسه فى حمام

وعلقته مسود عينين ووفرة * وثوب يعانى صنعة الفحم عن قصد
كأن خطوط الفحم فى وجناته * لطاخة مسك فى حنى من الورد

دبت من حبيه بالكلف
لم يزل يسعى الى تلفى
بركاب الذل والصلف
آه لولا أعين الحرس * نلت منه الوصل مقتدرا
يا أميرا جار مذ وليا
كيف لا ترثى لمن بليا
فبثغر منك قد جليا
قد حلا طعما وقد حليا
وبما أوتيت من كيس * جد فما أبقيت مصطبرا
بدر تم فى الجمال سنى
وله‍ذا اقمره سنى
قد سبانى لذة الوسن
عجبا باهر حسن
هو خشنى وهو مفترسى * فارو عن أعجوبتى خبرا
لك خد يا أبا المرح
زين بالتوريد والصرج
وحديث عاطر الارح
كم سبى قلبا بلا حرج
لورآك الغصن لم يمس * أورآك البدر لاستترا
يا مذيبا مهجتى كمدا
وقت فى الحسن البدور مدى
يا كحيلا كحله اعتمدا
عجبا أن تبرى الرمدا
وبسقم الناظرين كسى * جفنك السحار وانكسرا
وأنشدنى من لفظه لنفسه أيضا
ان كان ليل داج * وخاننا الاصباح * فنورها الوهاج * يغنى عن المصباح
سلافة تبدو * كالكوكب الازهر
مزاجها شهد * وعرفها عنبر
ويبذا الورد * منها وان اسكر
قلبى بها قد هاج * فما ترى صاح * عن ذلك المنهاج * وعن هوى يا صاح
وبى رشا أهيف * قد لج فى بعدى
بدر ولا يخسف * منه سنى الخد
بلحظه المرهف * يسطو على الاسد

بشيء من مروياتها وحضرت على الدمياطي وسمعت على جماعة وهي بضم النون وتخفيف الصاد وأجازها من المغرب أبو جعفر بن الزبير وحفظت مقدمة في النحو ولما توفيت عمل والدها فيها كتابا سماه النضار في المسلاة عن نضار وكان والدها يثني عليها كثيرا وكانت تكتب وتقرأ قال الصفدي قال لي والدها انها اخرجت جزءا لنفسها وانها تعرب جيدا وأطمعه قال لي انها تنظم الشعر وكان يقول دائما ليت أخاها حيان كان مثلها وتوفيت رحمها الله تعالى في جمادى الآخرة سنة ٧٣٠ في حياة والدها فوجد عليها وجدا عظيما ولم يثبت وانقطع عند قبرها بالبرقوقية ولازمه سنة ومولدها في جمادى الآخرة سنة ٧٠٢ قال الصفدي وكنت بالرحبة لما توفيت فكتبت لوالدها بقصيدة أولها

بكينا باللجين على نضار ✽ فسيل الدمع في الخدين جاري
فيا لله جارية تولت ✽ فبكيها بأدمعنا الجواري

انتهى

وقال الفقيه المحدث أبو عبد الله محمد بن سعيد الرعيني الاندلسي في برنامجه عند ذكره شيخه أبا حيان زيادة على ما قدمناه ما لخصه ان أبا حيان قال سمعت بغرناطة ومالقة وبلش والمرية وبجاية وتونس والاسكندرية ومصر والقاهرة ودمياط والمحلة وطهرمس والجيرة ومنية ابن خصيب ودشنا وقنا وقوص وبلبيس وبعيذاب من بلاد السودان وينبع ومكة شرفها الله تعالى وجدة وأيلة ثم فصل من لقيه في كل بلد الى أن قال وبمكة أبا اليمن عبد الصمد بن عبد الوهاب بن الحسن بن عبد الله بن عساكر الى أن قال وهذه نبذة من شيوخي وجملة من سمعت منهم نحو خمسمائة والمجيزون أكثر من ألف وعد من كتب القراآت التي أخذ تسعة عشر كتابا وقال في حق المليحي انه أعلى شيوخي في القراآت وان آخر من روى عنه السبع أبو الجود غياث بن فارس المنذري اللخمي واجازته منه سنة ٦٠٤ قال وقرأت البخاري على جماعة أقدمهم اسنادا فيه أبو العز الحراني قرأته عليه بلفظي الا بعض كتاب التفسير من قوله تعالى ويسألونك عن المحيض الى قوله سبحانه ولولا فضل الله عليكم ورحمته في سورة النور فسمعته بقراءة غيري قال أنبأنا به أبو المعالي أحمد بن يحيى بن عبيد الله الخازن البيع سماعا عليه سنة ستمائة ببغداد أنبأنا أبو الوقت بسنده وكمل له رحمه الله تعالى جامع الترمذي بين قراءة وسماع على ابن الزبير بغرناطة وسمعه على محمد بن ترحم أنبأنا ابن البناء أنبأنا الكروخي بسنده وقرأ السنن لأبي داود بغرناطة على أبي زيد عبد الرحمن الربعي عرف بالتونسي أنبأنا به سهل بن مالك وقرأه بالقاهرة على أبي الفضل عبد الرحيم بن خطيب المزة عن أبي حفص ابن طبرزد عن أبي بدر الكروخي ومفلح الرومي عن أبي بكر بن ثابت الخطيب أنبأنا أبو عمر الهاشمي أنبأنا اللؤلؤي أنبأنا أبو داود وقرأ الموطأ على أبي جعفر بن الطباع عن أبي القاسم بن بقي عن ابن عبد الحق عن ابن الطلاع بسنده وهذا أعلى سند يوجد عن يونس ابن مغيث في عصره وسمع أبو حيان الاجزاء الخلعيات والغيلانيات والقطيعيات والنهروانيات والمحامليات والثقفيات وسداسيات الرازي بعلو قرأها على صفي الدين

عبد الوهاب بن رواج عن أبي الطاهر إسماعيل بن ياسين الحنبلي وهو آخر من حدث
عنه عن أبي عبد الله الرازي سماعا وقرأ أثير الأنصاري على أبي بكر بن الأنماطي
بسماعه جميعه وقرأ الرابعة على أبي اليمن زيد بن الحسن الكندي أنبأنا أبو بكر محمد بن عبد
الباقي البزاز سنة ٥٣٢ أنبأنا إبراهيم بن عمر بن أحمد البرمكي قرأ عليه في رجب
سنة ٤٤٥ أنبأنا عبد الله بن إبراهيم بن ماسي أنبأنا أبو مسلم الكجي البصري أنبأنا
محمد بن عبد الله الأنصاري وقرأ جميع كتاب سيبويه على البهاء بن النحاس
المشهور بالصدر في مصر والشام وقرأه على علم الدين أبي محمد القاسم بن أحمد اللورقي
وقرأه على التاج أبي اليمن الكندي أنبأنا أبو محمد عبد الله بن علي بن أحمد
البغدادي مؤلف كتاب المبهج أنبأنا أبو الكرم المبارك بن فاخر بن محمد بن يعقوب
عرف بابن الدباس أنبأنا أبو القاسم عبد الواحد بن علي بن عمر بن برهان الأسدي أنبأنا
القاسم علي بن عبد الله الرقي أنبأنا علي بن عيسى بن عبد الله الرماني أنبأنا أبو بكر
ابن السراج أنبأنا أبو العباس المبرد أنبأنا أبو عمر الجرمي وأبو عثمان المازني قالا
أنبأنا أبو الحسن الأخفش أنبأنا سيبويه قال الشيخ أبو حيان ولا أعلم راويا له بمصر
والشام والعراق واليمن والمشرق غيري ورويته عن الأستاذ أبي علي بن الصائغ وابن
أبي الأحوص وأبي جعفر اللبلي عن أبي علي الشلوبين وسنده مشهور بالمغرب ووقع
لأبي حيان تساعيات كثيرة وأغرب ما وقع له ثلاثة أحاديث بينه وبين رسول الله صلى الله
عليه وسلم ثمانية أحدها الحديث عن محمد بن أحمد بن محمد بن أبي يزيد الهمداني قرأه
عليه والملكة السلطانة مؤنسة بنت الملك العادل أبي بكر بن أيوب بن شاذي قرأ عليه
وهو يسمع قالا أنبأنا أبو الفخر أسعد بن سعيد بن روح في كتابه أخبرتنا فاطمة بنت عبد الله
ابن أحمد الجوزدانية أنبأنا أبو بكر محمد بن عبد الله بن ريذة الضبي الأصبهاني أنبأنا الحافظ
أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الطبراني أنبأنا عبيد الله بن رماحس
القيسي برمادة الرملة سنة ٢٧٤ أنبأنا أبو عمرو زياد بن طارق وقد أتت عليه عشرون
ومائة سنة قال سمعت أبا جرول زهير بن صرد الجشمي يقول لما أسرنا رسول الله صلى الله
عليه وسلم يوم هوازن أنشأت أقول

امنن علينا رسول الله في كرم • فإنك المرء نرجوه وننتظر
امنن على بيضة قد عاقها قدر • ممزق شملها في دهرها غير
أبقت لنا الدهر هتافا على حزن • على قلوبهم الغماء والغمر
إن لم تداركهم نعماء تنشرها • يا أرجح الناس حلما حين يختبر
امنن على نسوة قد كنت ترضعها • إذ فوك تملؤه من محضها الدرر
إذ أنت طفل صغير كنت ترضعها • وإذ يزينك ما تأتي وما تذر
لا تجعلنا كمن شالت نعامته • واستبق منا فإنا معشر زهر
إنا لنشكر للنعماء إذ كفرت • وعندنا بعد هذا اليوم مدخر
فألبس العفو من قد كنت ترضعه • من أمهاتك إن العفو مشتهر

يا خير

يا خير من مرحت كمت الجياد به * عند الهياج اذا ما استوقد الشرر
انا نؤمل عفوا منك تلبسه * هذى البرية اذ تعفو وتنتصر
فاعف عفا الله عما أنت راهبه * يوم القيامة اذ يهدى لك الظفر

فلما سمع صلى الله عليه وسلم هذا الشعر قال ما كان لى ولبنى عبد المطلب فهو لكم فقالت قريش ما كان لنا فهو لله ولرسوله وقالت الانصار ما كان لنا فهو لله ولرسوله قال أبو القاسم الطبرانى لا يروى عن زهير الا بهذا الاسناد وتفرد به عبيد الله بن رماحس وبالاسناد الى الطبرانى أنا أبا جعفر بن حميد بن عبد الكريم بن فروخ بن ديرح بن بلال ابن سعد بن بلال بن سعد الانصارى الدمشقى قال حدثنى جدى لامى عمر بن أبان بن مفضل بن أبان المدنى قال أرانى انس بن مالك الوضوء أخذ ركوة فوضعها عن يساره وصب على يده اليمنى فغسلها ثلاثا ثم أدار الركوة على يده اليمنى فغسلها ثلاثا ثلاثا ومسح رأسه وأخذ ماء جديدا لصماخيه فقلت له قد مسحت أذنيك فقال يا غلام هل رأيت وفهمت أو أعيد عليك فقلت قد كفانى وقد فهمت قال فكذا رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يتوضأ قال الطبرانى لم يرو عمر بن أبان عن أنس حديثا غير هذا وبالاسناد الى الطبرانى حدثنا محمد بن أحمد بن يزيد القصاص البصرى أنا أبا دينار بن عبد الله مولى أنس بن مالك حدثنى أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم طوبى لمن رآنى وآمن بى ومن رأى من رآنى وآمن بى ومن رأى من رأى من رآنى ثم قال الرعينى وتصانيف أبى حيان تزيد على خمسين ما بين طويل وقصير ثم قال الرعينى وخرج أبو حيان من الاندلس مفتتح سنة ٦٧٩ واستوطن القاهرة بعد حجه وأنشد لشيخه أبى الحسن الدباج

رضيت كفافى رتبة ومعيشة * فلست أسامى موسرا ووجيها
ومن جر أثواب الزمان طويلة * فلا بد يوما أن سيعثر فيها

وأنشد باسناده لموسى بن أبى تليد

حالى مع الدهر فى تقلبه * كطائر ضم رجله شرك
فهمه فى خلاص مهجته * يروم تخليصها فتشتبك

ثم أورد الرعينى جملة من نظم أبى حيان منها قوله

أريد من الدنيا ثلاثا وانها * لغاية مطلوب لمن هو طالب
تلاوة قرآن ونفس عفيفة * واكثار أعمال عليها أواظب

وقوله

أرحت روحى من الايناس بالناس * لما غنيت عن الاكياس بالياس
وصرت فى البيت وحدى لا أرى أحدا * بنات فكرى وكتبى هن جلاسى

وقوله

وزهدنى فى جمع المال أنه * اذا ما انتهى عند الفتى فارق العمرا
فلا روحه يوما أراح من العنا * ولم يكتسب حمدا ولم يدخر أجرا

ولا يجرى ذكر حرمه بحضرة جليسه وأن لا يطلع أحدا على عمل خير يعمله لوجه الله تعالى وأن يأخذ نفسه بحسن المعاملة من حسن اللفظ وجميل التغاضى وأن لا يركن الى أحد الا الى الله تعالى وأن يكثر من مطالعة التواريخ فانها تلقح عقلا جديدا والله سبحانه وتعالى أعلم انتهت وصية أبى حيان الجامعة النافعة وقد نقلتها من خط الشيخ العلامة أبى الطيب ابن علوان التونسى المالكى الشهير بالمصرى وهو من أحد عن تلامذة الشيخ أبى حيان رحمه الله تعالى قلت وفى هذه الوصية من نهيه عن الطعن فى صالحى الامة نفع الله تعالى بهم وأمره بالتسليم لاحوالهم وعدم الانكار عليهم تعلم أن ما نقله الصفدى عنه فيما تقدم من قوله ان الشيخ أبا مدين الى آخره كلام فيه نظر لان أبا حيان رضى الله تعالى عنه لا ينكر كرامات الاولياء كيف وقد ذكر رحمه الله تعالى منها كثيرا فمن ذلك ما حكى عنه تلميذه الرعينى بسنده الى الفقيه المقرى الصالح أبى تمام غالب بن حسن بن أحمد بن سيد بونة الخزاعى حدث انه زار قبر أبى الحسن بن جالوت ولم يكن زاره قبل فاشتد عليه فتركه فسمع النداء من قبر معين يا غالب أتغشى ومازرتنى فزار ذلك القبر وقعد عنده ثم جاء ابن أبى الحسن المذكور فسأله عن القبر فقال هو الذى قعدت عنده وغالب هذا وابن جالوت هما من أصحاب الشيخ أبى أحمد بن سيد بونة الخزاعى وهو من أصحاب الشيخ أبى مدين انتهى وكيف ينكر أبو حيان كرامات الصالحين وهو ينهى عن الطعن فيهم ويحكى كراماتهم نعم قول الصفدى قبل ذلك الكلام انه كان ينكر على فقراء الوقت كلام صحيح فى الجملة لكثرة الدعاوى الباطلة ممن ليس من أهل الصلاح وأما انكار الكرامات مطلقا فمقام أبى حيان يجل عن ذلك والله تعالى أعلم وقد أورد ابن جماعة له من قطعة قوله فى اهل عصره

ومن يك يدعى منهم صلاحا * فزنديق تغلغل فى الضلال

وأول هذه القطعة

حلبت الدهر أشطره زمانا * وأغنانى العيان عن السؤال
فما أبصرت من خل وفى * ولا ألفيت مشكور الخلال
ذئاب فى ثياب قد تبدت * رأيتها بأشكال الرجال
ومن يك يدعى منهم صلاحا * فزنديق تغلغل فى الضلال
ترى الجهال تتبعه وترضى * مشاركة بأهل أو بمال
فينهب مالهم ويصيب منهم * نساءهم بمقبوح الفعال
ويأخذ حاله زورا فيرمى * عمامته ويهرب فى الرمال
ويجرون التيوس وراء رجس * تقرمط فى العقيدة والمقال

أى اعتقدوا رأى القرامطة ومذهبهم مشهور ولا نطيل به فظهر عاد كر أن أبا حيان انما أنكر على أهل الدعاوى لا على غيرهم والله تعالى أعلم وقد أورد قاضى القضاة ابن جماعة للشيخ أبى حيان من النظم غير ما قدمناه ذكره قوله

اما انه لولا ثلاث أحبها * تمنيت أنى لا أعد من الاحيا
فمنها رجائى أن أفوز بتوبة * تكفر لى ذنبا وتنجح لى سعيا

فلازال يوضح سبل الهدى * ولازلتما تقفوان الاثر

وقال

لقد زادنى بالناس علما تجاربى * ومن جرب الايام مثلى تعلما
وانى وتطلابى من الناس راحة * لكالمبتغى وسط الجحيم تنعما
سأزهد حتى لا أرى لى صاحبا * وأبعد حتى لا ألاقى متهما

قال ابن جماعة وقال فى املاك على ابن قاضى القضاة شمس الدين السروجى الحنفى وكان جميل الصورة على أختى شقيقتى فاطمة

هنيأ بتأليف غريب نظامه * لقد حار فى أوصافه نظم عارف
غدت شمس حسن بنت بدر سيادة * تزف لبدر نجل شمس معارف
سميان للزهرا البتول وللرضا * على ونجلا الاكرمين الغطارف
فدام على عالى الجد سيدا * ولازال فى ظل من العيش وارف

وقال يخاطب شيخه ابن النحاس وقد أغب زيارته

أعين حياتى والذى ببقائه * بقائى لقد أصبحت نحوك شيقا
أقت بقلبى غير أنى لقلتى * برؤيتك الحظ الذى يذهب الشقا
وما كان ظنى أنك الدهر تاركى * ولو أنى أصبحت بين الورى لقا
لطائف معنى فى العيان ولم تكن * لتدرك الا بالتزاور واللقا

وقال يخاطب قاضى القضاة شمس الدين السروجى الحنفى وقد أعيد الى منصب القضاء وكان يتطلع اليه رجل يدعى نجم الدين

ذووا العلم فى الدنيا نجوم زواهر * وانك فيها الشمس حقا بلا لبس
اذا لحت أخفى نوركم كل نير * ألم تر أن النجم يخفى مع الشمس

وقال

لم أوحر عن أحبتى كتابى * لقلى فيه أولترك هواه
غير أنى اذا كتبت كتابا * غلب الدمع مقلتى فمحاه

وقال

تذكرى للبلى فى قعر مظلمة * أصارنى زاهدا فى المال والرتب
أنى أسر بمال سوف أسلبها * عما قريب وأبقى رمة الترب

وقال

أتيت وما أدعى وأقدمت سامعا * فوائد مولى سيد ماجد ندب
وأحصر جمعا أنت فيه جماله * أشنف سمعى منك باللؤلؤ الرطب

وقال

لنا غرام شديد فى هوى السود * نختارهن على بيض الطلا الغيد
لون به أشرقت أبصارنا وحكى * فى اللون والعرف نفح المسك والعود
لا شئ أحسن من آس تركبه * فى آبنوس ولا أشفى لمبرود

وهذى القوافى أتت كـلا * ولم تبق لى بعـدها قافيه

وقال رحمه الله تعالى أيضا

خلق الانسان فى كبد * بوجود الاهل والولد
كل عضو فيه نافعه * غـير عضو ضرّ للابد
منتج ذلا وفقـد غنى * وفراخاجـة العـدد
من يمت منهم يذقه أسى * أويعش ألقاه فى نكد
عاش فى امن فتى عرب * مستريح الفكر والجسد

وقال رحمه الله تعالى أيضا

جنّ غـيرى بعارض فترجى * أهـله أن يفيـق عما قريب
وفؤادى بعارضـين مصاب * فهو داء أعيا دواء الطبيب

وقال

سعت حية من شعره نحو صدغه * وما انفصلت من خدّه ان ذا عجب
وأعجب من ذا أنّ سلسال ريقه * برود ولكن شبّ فى قلبى اللهب

وقال

طالع تواريخ من فى الدهر قد وجدوا * تجـد خطوبا تسلى عنك ما تجد
تجـد أكابرهـم قد جرّعوا غصصا * من الرزايا بها كم فتت كبد
عزل ونهب وضرب بالسـياط وحبـس ثم قتـل وتشريد لمن ولدوا
واذ وقيت بحـمد الله شرّتهـم * فلتحمد الله فى العقبى لمن حـمدوا

وقال رحمه الله تعالى يمدح البخارى وكتابه الصحيح

أسامع أخبار الرسول لك البشرى * لقد سدت فى الدنيا وقد فزت فى الاخرى
تشـنف آذانا بعقد جواهر * تودّ الغـوانى لو تقلده النحـرا
جواهر كم حلت نفوسا نفيسة * فحلت بها صـدرا وجلت بها قدرا
هـل الدين الا ما روته أكابر * لما نقـلوا الاخبار عن طيب خبرا
وأدوا أحاديث الرسول مصونة * عن الريب والتصحيف فاستوجبوا الشكرا
وانّ البخارىّ الامام لجامع * بجامعـه منها اليواقيت والدرّا
على مفرق الاسلام تاج مرصع * أضاء به شمسـا ونار به بدرا
وبحر علوم يلفظ الدرّ لا الحصا * فأنفس بها درّا وأعظم به بحـرا
تصانيفـه نور ونور لناظـر * فقد أشرقت زهرا وقد أينعت زهرا
محاسـنة المختار ينظم شـتها * يلخصها جمعا ويخلصها تـبرا
وكم بذل النفس المصونة جاهدا * لجازلها بحـرا وجاب لها برّا
فطورا عراقيا وطورا يمانيا * وطورا حجازيا وطورا أتى مصرا
الى أن حوى منها الصحيح صحيحه * فوافى كتابا قد غدا الآية الكبرى
كتاب له من شرع أحمد شرعة * مطهـرة تعـلو السماكين والنسرا

قلت وتتصل روايتي من الامام أبي حيان بطرق عديدة منها ما عن عمي ولي الله العارف به
شيخ الاسلام مفتي الانام القطب الامام ملحق الاحفاد بالاجداد سيدي سعيد
ابن أحمد المقري التلمساني عن شيخه العالم أبي عبد الله التنسي عن والده حافظ
عصره سيدي محمد بن عبد الله بن عبد الجليل التنسي ثم التلمساني الاموي عن عالم
الدنيا أبي عبد الله بن مرزوق عن جده الرئيس الخطيب سيدي أبي عبد الله محمد بن
مرزوق عن الامام أبي حيان بكل مروياته ثم إن أبا حيان قال حدثنا ابن أبي الاحوص
عن قاضي الجماعة أبي القاسم أحمد بن يزيد بن عبد الرحمن بن أحمد بن محمد بن أحمد بن مخلد
ابن عبد الرحمن بن أحمد بن بقي بن مخلد بن يزيد القرطبي عن أبيه عن أبيه عن أبيه عن أبيه
عن أبيه عن أبيه عن أبيه عن أبيه الامام بقي بن مخلد عن أبي بكر المقدمي عن عمر
ابن علي ثنا عبد الله بن يزيد عن عبد الرحمن بن زياد عن عبد الرحمن بن رافع عن عبد الله بن
عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم مر بمجلسين أحدهما يدعون الله ويرغبون إليه والآخر
يتعلمون العلم ويعلمونه فقال كلا المجلسين خير وأحدهما أفضل من الآخر أما هؤلاء
فيتعلمون ويعلمون الجاهل فهم أفضل وأما هؤلاء فيدعون الله ويرغبون إليه إن شاء
أعطاهم وإن شاء منعهم وإنما بعثت معلما ثم جلس فيهم قال أبو حيان قلت لا أعرف
حديثا أعلى سندا برواية الأبناء عن الآباء بعدد ما اجتمع في هذا إلا ما أخبرناه أبو الحسن
محمد بن محمد بن الحسين بن تامة قراءة عليه أنبأنا أبو المعالي الارموي أنبأنا أبو بكر بن
عبد الله بن محمد بن سابور القلنسي أنبأنا أبو الفوارس طراد بن محمد بن منصور السراري
أنبأنا رزق الله بن عبد الوهاب التميمي قال سمعت أبي أبا الفرج عبد الوهاب يقول سمعت
أبي أبا الحسن عبد العزيز يقول سمعت أبي أبا بكر الحارث يقول سمعت أبي أسدا يقول سمعت
أبي الليث يقول سمعت أبي سليمان يقول سمعت أبي أبا الاسود يقول سمعت أبي سفيان
يقول سمعت أبي يزيد يقول سمعت أبي أكينة يقول سمعت أبي الهيثم يقول سمعت أبي
عبد الله يقول سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ما اجتمع قوم على ذكر
إلا حفتهم الملائكة وغشيتهم الرحمة انتهى قلت قال الحافظ ابن حجر وإنه ما اجتمع
حديث فيه من عدد الآباء أكثر من هذا انتهى ورأيت بخط الحافظ على قول أبي أكينة
ما صورته صوابه أكينة انتهى المحرر ومما أنبأنا به أبو حيان قال أنبأنا الاستاذ
أبو جعفر ابن الزبير صاحب الصلة أنبأنا القاضي أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أحمد الازدي
أنبأنا عبد الله بن محمد بن حسن بن عطية ح قال أبو حيان وأنبأنا الاصولي أبو الحسن
ابن القاضي أبي عامر بن ربيع الاشعري عن أبي الحسن أحمد بن علي الغافقي
قال أنبأنا ابن عطية ح وكتب لنا الخطيب أبو الحجاج يوسف بن أبي ركانة عن القاضي
أبي القاسم أحمد بن عبد الودود بن سمجون بن عبد الله بن عطية قال هو وابن عطية أنبأنا
القاضي أبو بكر بن العربي أنبأنا أبو محمد هبة الله الاكفاني أنبأنا الحافظ عبد العزيز
الكتاني الدمشقي أنبأنا أبو عصمة نوح بن الفرغاني قال سمعت أبا المظفر عبد الله بن محمد
ابن عبد الله بن قيس الخزرجي وأبا بكر محمد بن علي البخاري قالا سمعنا أبا ذر عمار بن

محمد بن مخلد التميمي يقول سمعت أبا المظفر محمد بن أحمد بن حامد بن الفضل البخاري
يقول لما عزل أبو العباس الوليد بن ابراهيم بن يزيد الهمداني عن قضاء الري ورد بخارى
سنة ٣١٨ لتجديد مودة كانت بينه وبين أبي الفضل البلعمي فنزل في جوارنا فحملني معلمي
أبو ابراهيم اسحق بن ابراهيم الختلي اليه فقال له أسألك أن تحدث هذا الصبي ما سمعته
من مشايخك فقال مالي سماع فقال وكيف وأنت فقيه فما هذا قال لاني لما بلغت مبلغ
الرجال تاقت نفسي الى طلب الحديث ورواية الاخبار وسماعها فقصدت محمد بن اسمعيل
البخاري ببخارى صاحب التاريخ والمنظور اليه في علم الحديث وأعلمته مرادي وسألته
الاقبال على ذلك فقال لي يابني لاتدخل في أمر الابعد معرفة حدوده والوقوف على
مقاديره فقلت عرفني رحمك الله تعالى حدود ماقصدت له ومقادير ماسألتك عنه فقال لي
اعلم أن الرجل لايصير محدثا كاملا في حديثه الابعد أن يكتب أربعا مع أربع
كاربع مثل أربع في أربع عند أربع بأربع على أربع عن أربع لاربع وكل هذه
الرباعيات لاتتم الابأربع مع أربع فاذا تمت له كلها هان عليه أربع وابتلي بأربع فاذا صبر
على ذلك أكرمه الله تعالى في الدنيا بأربع وأثابه في الآخرة بأربع قلت له فسر لي رحمك
الله تعالى ماذكرت من أحوال هذه الرباعيات من قلب صاف بشرح كاف وبيان شاف
طلبا للاجر الواف فقال نعم أما الاربع التي تحتاج الى كتبها فهي أخبار الرسول صلى الله
عليه وسلم وشرائعه والصحابة رضي الله تعالى عنهم ومقاديرهم والتابعين وأحوالهم
وسائر العلماء وتواريخهم مع أسماء رجالهم وكناهم وأمكنتهم وأزمانهم كالتحميد مع الخطب
والدعاء مع الترسل والبسملة مع السورة والتكبير مع الصلوات مثل المسندات والمرسلات
والموقوفات والمقطوعات في صغره وفي ادراكه وفي شبابه وفي كهولته عند فراغه
وعند شغله وعند فقره وعند غناه بالجبال والبحار والبلدان والبراري على الاحجار
والاصداف والجلود والاكتاف الى الوقت الذي يمكنه نقلها الى الاوراق عمن هو فوقه
وعمن هو مثله وعمن هو دونه وعن كتاب أبيه يتيقن انه بخط أبيه دون غيره لوجه الله تعالى
طالبا لمرضاته والعمل بما وافق كتاب الله عز وجل منها ونشرها بين طالبيها ومحبيها
والتأليف في احياء ذكره بعده ثم لاتتم له هذه الاشياء الابأربع هي من كسب العبد أعني
معرفة الكتابة واللغة والصرف والنحو مع أربع هي من اعطاء الله تعالى أعني القدرة
والصحة والحرص والحفظ فاذا صحت له هذه الاشياء كلها هان عليه أربع الاهل
والولد والمال والوطن وابتلي بأربع بشماتة الاعداء وملامة الاصدقاء وطعن الجهلاء
وحسد العلماء فاذا صبر على هذه المحن أكرمه الله جل وعلا في الدنيا بأربع بعز القناعة
وبهيبة النفس وبلذة العلم وبحياة الابد وأثابه في الآخرة بأربع بالشفاعة لمن أراد من
اخوانه وبظل العرش حيث لاظل الاظله ويسقي من أراد من حوض نبيه صلى الله عليه
وسلم وبجوار النبيين في أعلى عليين في الجنة فقد أعلمتك يابني بمجملات جميع ماسمعت من
مشايخي متفرقا في هذا الباب فاقبل الآن على ماقصدتني له أودع فهالني قوله فسكت
متفكرا وأطرقت متأدبا فلما رأى ذلك مني قال وان لم تطق حمل هذه المشاق كلها

سباني بجمال من مليح مصارع * عليه دليل للملاحة واضح
لئن عزمنه المثل فالكل دونه * وان خف منه الخصر فالردف راجح

وسمع العرازى نظمنا فقال وأنشدنيه

هل حكم ينصفني في هوى * مصارع يصرع أسد الشرى
مذ فزعني الصبر في حبه * حكى عليه مدمعي ما جرى
أباح قتلي في الهوى عامدا * وقال كم لي عاشق في الورى
رميته في أسر حبي ومن * أجفان عينيه أحدث الكرى

وقال لسان الدين في الاحاطة كان أثير الدين أبو حيان نسيج وحده في ثقوب الذهن وصحة الادراك والاضطلاع بعلم العربية والتفسير وطريق الرواية امام النحاة في زمانه غير مدافع نشأ في بلده غرناطة مشارا اليه في التبريز بميدان الادراك وتعبير السوابق في مضمار التحصيل ونالته نبوة لحق بسببها بالمشرق واستقر بمصر فنال بها ما شاء من عز وشهرة وتأثل وافر وحظوة وأضحى لمن حل بساحته من المغاربة ملجأ وعدة وكان شديد البسط مهيبا جهوريا مع الدعابة والغزل وطرح التسمت شاعرا مكثرا مليح الحديث لا يمل وان أطال وأسن جدا فانتفع به قال لي بعض أصحابنا دخلت عليه وهو يتوضأ وقد استقر على احدى رجليه لغسل الاخرى كما يفعل البرك والاوز وقال لي لو كنت اليوم جار شابر ما تركني اهدا العمل في هذا السن ثم قال لي بعد كلام حدثنا عنه الجلة الكثيرة من أصحابنا كالحاج أبي يزيد خالد بن عيسى والمقرى الخطيب أبي جعفر الشقوري والشريف أبي عبد الله بن راجح وشيخنا الخطيب أبي عبد الله بن مرزوق قال حدثنا شيخنا أبو حيان في الجلة سنة ٧٣٥ بالمدرسة الصالحية بين القصرين بعرله حدثنا الاستاذ أبو جعفر بن الزبير سماعا من لفظه وكتبه من خطه بغرناطة عن الكاتب أبي اسحق بن عامر الهمداني الطوسي بفتح الطاء حدثنا أبو عبد الله بن محمد العنسي القرطبي وهو آخر من حدث عنه أنبأنا أبو علي الحسن ابن محمد الحافظ الجياني أنبأنا حكم بن محمد أنبأنا أبو بكر بن المهندس أنبأنا عبد الله ابن محمد أنبأنا طالوت بن عباد بن نصال بن جعفر سمعت أبا امامة الباهلي يقول سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول اكفلوا لي بست أكفل لكم بالجنة اذا حدث أحدكم فلا يكذب واذا ائتمن فلا يخن واذا وعد فلا يخلف غضوا أبصاركم وكفوا أيديكم واحفظوا فروجكم ثم قال ابن الخطيب ان أبا حيان حملته حدة الشبيبة على التعرض للاستاذ أبي جعفر الطباع وقد وقعت بينه وبين استاذه ابن الزبير الوحشة فنال منه وتصدى للتأليف في الرد عليه وتكذيب روايته ورفع أمره للسلطان فامتعض له ونفذ الامر بتنكيله فاختفى ثم أجاز البحر مختفيا ولحق بالمشرق يلتفت خلفه ثم قال وشعره كثير يتصف بالاجادة وضدها فمن مطولاته قوله

لا تعذلاه فما ذو الحب معذول * العقل مختبل والقلب متبول
هزت له أسمرا من خوط قامتها * فما انثنى الصب الا وهو مقتول
جميلة فصل الحسن البديع لها * فكم لها جمل منه وتفصيل

أبو حيان لمسه

اذا غاب عن عينى أقول سلوته * وان لاح حال اللون فاضطرب القلب
يحيى عياه والمبسم الذى * به المسك منظوم به اللؤلؤ الرطب

وقال الشريف بن راجح رأيت أن ما وضعه الشيخ أبو حيان فى تقديم لسان الاتراك تضييع عمره وقلت

نفائس الاعمار أنفقتها * أما وأمثالى على غير شى
شروح سوء ليس يرضى بها * ترضى به من المحازى صبى

ومن نظم أبى حيان قوله

ان علما نعمت فيه زمانى * باذلا فيه طارفى وتلادى
لجدير بأن يكون عزيزا * ومصونا الا على الاجواد

وقوله

ومالك والاتعاب نفسا شريفة * وتكليفها فى الدهر ماليس يعذب
أرحها فعسى قرب تلاقى حمامها * فتنعم فى دار البقا أو تعذب

واستشكل هذان البيتان بأن ظاهرهما خلاف الشرع واجيب بأن مراده أمر الرزق لا أمر التكليف وأفاد غير واحد أن سبب رحلة الشيخ أبى حيان عن الاندلس انه نشأ شر بينه و بين شيخه أحمد بن على بن الطباع فألف أبو حيان كتابا سماه الالماع فى افساد اجازة الطباع فرفع ابن الطباع أمره للامير محمد بن نصر المدعو بالفقيه وكان أبو حيان كثير الاعتراض عليه أيام قراءته عليه فنشأ شر عن ذلك وذكر أبو حيان انه لم يقم بفاس الا ثلاثة أيام وأدرك فيها أبا القاسم المزيانى وخرج أبو حيان من الاندلس سنة تسع وسبعين وستمائة وكان جماعة من أعلام الاندلس رحلوا منها فلما وصلوا الى العدوة أقاموا بها ولم يذهبوا الى البلاد المشرقية منهم الشيخ النحوى الناظم الناثر أبو الحسن حازم بن محمد القرطاجنى وهو القائل يمدح أمير المؤمنين المستنصر بالله صاحب تونس

أمن بارق أورى بجنح الدجى سقطا * تذكرت من حل الاجارع فالسقطا
وبان وا لكن لم يبن عنك ذكره * وشط ولكن طيفه عنك ما شطا
حبيب لو ان البدر جاراه فى مدى * من الحسن لاستدنى مدى البدر واستبطا
اذا انتجعت مرعى خصيبا ركابه * غدا الحظ عينى يشتكى الجدب والقحطا
لقد أسرعت هى المطى بشادن * تسرع فى قتل النفوس وما أبطا
ظننت البلاد ار ابن ذى يزن بها * وحلت المحاريب الهوادج والغبطا
فكم دمية للحسن فيها وصورة * تروق وتمثال من الحسن قد خطا
حمائل لاحت كالحمائل بهجة * سقيط الحيا فيهن لا يسأم السقطا
توسد غزلان الاوانس والمها * به الوشى والديباج لا السدر والارطى
ولم يسب قلبى غير أبهرها سنى * وأطولها جيدا وأحسنها قرطا

فكيف ترجت عزة منه فرقة * غدا عزها ذلا وروضتها هبطا
وكم بالهدى والحلم غطى عليهم * الى أن جوا ذنبا على الحلم قد غطى
فاعطاهم دهم الحديد وطالما * أنالهم دهم الجياد وما أعطى
ورام لهم هديا ولكنهم أبوا * بغيهم الا الضلالة والخبطا
وكان لهم يبغى المثوبة والرضا * ولكن أبوا الا العقوبة والسخطا
ولو قوبلت بالشكر منه مآرب * لما اعتاض منها أهلها الاثل والخمطا
هو الناصر المنصور والملك الذى * أعاد شباب الدهر من بعد ما اشمطا
أصاخت له الايام سمعا وطاعة * وأحكمت الدنيا له عهدها ربطا
فلا بد من أن يملك الارض كلها * وأن يملأ الدنيا ايالته قسطا
ويغزو فى آفاق اندلس العدا * بجيش يحط الارض من ثقله حطا
وكل جواد خف سنبكه فما * يمس الثرى الا مخالسة فرطا
يؤم بها الاعداء ملك أمامه * من الرعب جيش يسرع السير ان ابطا
ويرمى جبال الفتح من شط سبتة * بها فتوافى سبقا ذلك الشطا
بحيث التقى بالحضرمى موسى وطارق * وموسى به رحلا لغزو العدا حطا
وسعيك ينسى ذكر سعيهما به * ويوسع سعى المشركين به حبطا
ويوقع فى الاعداء أعظم وقعة * بها تملأ الاسماع طير الملا لغطا
تجاوب بحم الطير فيه وشهبها * كما راطن الزنج النبيط أو القبطا
وتسكر فيها الجو والارض أعين * ترى الجو نارا والصعيد دما عبطا
فتحصب منهم من أشابت بخوفها * نصول ترى منها بسود الدجى وخطا
ويحسم أدواء العدا كل صارم * حسام اذا لاقى الطلى حده قطا
وكل كمى كلما خط صفحة * بسيف غدا بالرمح ينقط ما خطا
شجاع اذا التف الرماح مثل ما * تقلقل فى أسنان مشط يد مشطا
اذا ما رجت منه أعاديه غرة * رأت دون ما ترجو القتادة والخرطا
فيجدع آناف العداة بسيفه * وينشقها بالرمح ريح الردى قسطا
يبذ الاعادى سطوة ومكيدة * فيحكى الاسود الغلب والاذؤب المعطا
سرى فى طلاب المعلوات ولم يزل * يمد يدا مبسوطة وندى سبطا
ولو نازعت يمناه جذبا شماله * ابو سامن البادى لانسق وانعطا
يصول بخطى لكل مرشة * به أثر يعزوه للعبة الرقطا
فتى تبصر الاحكام فرعا كواسيا * بهن وقد أبصرن عارية مرطا
اذا نسبت للخط أو لردينة * نسبن الى العليا ردينة والخطا
كماة حماة ما يزال الى الوغى * حنين لهم ما حن نضو وما أطا
عليهم نسيج السابغات كانها * جلود عن الحيات قد كشطت كشطا
اذا لمع للشمس لاحت عليهم * رأيت صلالا ألبست حللا رقطا

السلطان أبي زكريا يحيى بن عبد الواحد بن أبي حفص ونفق من ذلك استصرخه لدفع عادية العدو وأنشد السلطان قصيدته السينية التي مطلعها

أدرك بخيلك خيل الله اندلسا * ان السبيل الى منجاتها درسا

وقد ذكرناها في غير هذا الموضع ثم لما كان من أمر بلنسية ما كان رجع بأهله الى تونس غبطة باقبال السلطان عليه فنزل منه بخير مكان ورشحه لكتب علامته في صدور رسائله وكتبها مدة ثم أراد السلطان صرفها لابي العباس الغساني لكونه يحسن كتابتها وكتبها مدة بالخط المشرقي وكان آثر عند السلطان من المغربي فسخط ابن الابار انفة من ايثار غيره عليه رافتات على السلطان في وضعها في كتاب أمر بانشائه لقصور الترسيل يومئذ في الحضرة عليه وأن يبقي موضع العلامة منه لكاتبها فجاهر بالرد ووضعها استبدادا وأنفة وعوتب على ذلك فاستشاط غضبا ورمى بالقلم وأنشد متمثلا

اطلب العز في لظى وذر الذل ولو كان في جنان الخلود

فنمى ذلك الى السلطان وأمر بلزومه بيته ثم استعتب السلطان بتأليف رفعه اليه عد فيه من عوتب من الكتاب وأعتب وسماه اعتاب الكتاب واستشفع فيه بابنه المستنصر فغفر السلطان له وأقال عثرته وأعاده الى الكتابة ولما توفي السلطان رفعه أمير المؤمنين المستنصر الى حضور مجلسه ثم حصلت له أمور معه كان آخرها انه تقبض عليه وبعث الى داره فرفعت اليه كتبه أجمع وألفى أثناءها فيما زعموا رقعة بأبيات أولها

طغى بتونس خلف * سموه ظلما خليفه

فاستشاط السلطان لها وأمر بامتحانه ثم بقتله فقتل قعصا بالرماح وسط محرم سنة ٦٥٨ ثم أحرق شلوه وسيقت مجلدات كتبه وأوراق سماعه ودواوينه فأحرقت معه وكان مولده ببلنسية سنة ٥٩٥ وقال في حقه ابن سعيد في المغرب ما ملخصه حامل راية الاحسان المشار اليه في هذا الاوان ومن شعره قوله يصف الياسمين

حديقة ياسمين لا * تهيم بغيرها الحدق

اذا جن الظلام بكى * تبسم ثغرها اليقق

فأطراف الاهلة سا * ل في أثنائها الشفق

وكتب الى الوزير أبي عبد الله بن أبي الحسين بن سعيد يستدعي منه منثورا

لك الله من مغنى بحيري روضة * لانفاسه عند الهبوم هبوب

أليس أديب الروض يجعل ليله * نهارا فيذكو نشره ويطيب

ويطوي مع الاصباح منشور نشره * كما بان عن ربع المحب حبيبه

أهيم به من نسبة أدبية * ولا غرو أن يهوى الاديب أديب

وقوله في الخسوف

نظرت الى البدر عند الخسوف * وقد شين منظره الازين

كما سفرت صفحة للحبيب * يحجبها برقع أدكن

وقوله في المعنى

فمن يك سائلا عنى فانى * غنيت بالافتقار الى الذى

وقد وجدت ترجمته فى ازهار الرياض فى أخبار عياض فليراجع ذلك فيه من شاء
(رجع الى ما كنا فيه من ذكر المرتحلين من الاندلس الى المشرق) (ومنهم الحافظ أبو المكارم جمال الدين بن مسدى وهو أبو بكر محمد ويقال أبو المكارم ابن أبى أحمد يوسف بن موسى بن يوسف بن موسى بن مسدى المهلبى الازدى الاندلسى شيخ السنة وحامل راياتها وفريد الفنون ومحكم آياتها عرف الاحاديث وميز بين شهرتها وغرابتها وكان الملقى لراية السنة بيمين عرابتها طلع بغربه شمسا اتصل بزوغه بأفق المشرق وملأ جرينه الخضراء من بحر علومه المتدفق وأفعم بها بنوته المشرق وطاف البلاد الاسلاميه العربية والمشرقيه فعقدت على كماله الخناصر وجعله أرباب الدراية ناقلة الدين الناصر ولقى أعيان الشيوخ فى القطرين وأخذ عنهم ما تقر به العين ويدفع به عن القلب الرين مع فصاحة لسان وطلاوة بيان وبنان وخلال حسان وبلاغة سحبته على سحبان وطهر أردان وفوضت اليه خطابة الحرم الشريف بمكة وكان كما يقال هذا السوار لمثل هذا المعصم فكم وشى بها من مطارف للبلاغة وكم عمم حتى يظن الرائى عود منبره من وعظه مائسا ولئن مال من سجع الحمام رطبا فقد مال من سجع هذا الامام يابسا وترجم على من لقى من الاعيان بسحر البيان ودل على أحوالهم بأحسن تبيان وعدتهم أربعة آلاف شيخ وناهيك بهذه مزية تقاد لها الفضائل فى أرسان وأرى تحقيق قول القائل جمع الله تعالى العالم فى انسان وله موضوعات مفيدة من حديث وفقه ونظم ونثر وله مسند غريب جمع فيه مذاهب العلماء المتقدمين والمتأخرين وهو أشهر من نار على علم وكان يكتب بالقلمين المغربى والمشرقى وكلاهما فى غاية الجودة ومثل هذا يعد نادرا توفى شهيدا مطعونا من أناس كانوا يحسدونه ختم الله تعالى له بالشهاده وبوّأه دار السعاده وتوفى سنة ٦٦٣ بمكة وولد سنة ٥٩٨ رحمه الله تعالى ونفعنا بأمثاله *(ومنهم الكاتب أبو القاسم خلف بن عبد العزيز بن محمد بن خلف الغافقى القبتورى بفتح القاف وسكون الباء الموحدة وفتح التاء ثالثة الحروف وسكون الواو وبعدها راء الاشبيلى المولد والمنشا ولد فى شوال سنة ٦١٥ وقرأ على الاستاذ الدباج كتاب سيبويه والسبع وله باع مديد فى الترسل مع التقوى والخير وله اجازة من الرضى بن برهان والنجيب بن الصيقل وكتب لامير سبتة وحدث بتونس عن العراقى وجاور زمانا وتوفى بالمدينة سنة ٧٠٤ وحج مرتين قال أبو حيان قدم القاهرة مرتين وحج فى الاولى وأنشد من لفظه لنفسه

أسيلى الدمع ياعينى ولكن * دما ويقل ذلك لى أسيلى
فكم فى الترب من طرف كحيل * لترب لى ومن خد أسيل

وقال

ماذا جنيت على نفسى بما كتبت * كفى فيا ويح نفسى من أذى كفى
ولو يشاء الذى أجرى على يدا * قضاءه الكف عنى كنت ذا كف

صحبته له وكان بصيرا بالحديث ورجاله كثير العناية به واختصر كتاب الدارقطني في غريب
حديث مالك وغيره أضبط منه وفاق أهل زمانه في معرفة النسب وقعد في دكان ابيه قال
ابن الابار وهنالك رأيته ولقيته غير مرة ولم آخذ عنه ولم أستجزه وسمع منه جل أصحابنا
ومولده في شهر المحرم سنة ٥٦٧ وتوفي باشبيلية ليلة الاثنين مستهل ربيع الآخر
سنة ٦٣٨ وقال ابن فرقون منسلخ شهر ربيع الاول وحكى ذلك عن والده أبي النور
محمد بن أحمد انتهى *(ومنهم أبو العباس أحمد بن عبد السلام الغافقي الاشبيلي الشهير
بالمسيلي رحل حاجا وقفل الى بلده وحدث عنه أبو بكر بن خير بوفاة القاضي ابن أبي حبيب
وروى عن أبي محمد بن أبي السعادات المروزي الخراساني وأنه أنشده بثغر الاسكندرية
عند وداعه اياه قال أنشدني أبو تراب جندل عند الوداع لبعضهم

السم من البين الافاعي * أعذب من قبله الوداع
ودعتهم والدموع تجري * لما دعا للوداع داع

*(ومنهم أبو العباس ويقال أبو جعفر أحمد بن معد بن عيسى بن وكيل التجيبي الزاهد
ويعرف بابن الاقليشي صاحب كتاب النجم من كلام سيد العرب والعجم صلى الله عليه وسلم
عارض به كتاب القضاعي وأصل أبيه من اقليش وضبطها بعضهم بضم الهمزة وسكن دانية
وبها ولد ونشأ سمع أباه وأبا بكر وأبا العباس بن عيسى وتلمذ له ورحل الى بلنسية فأخذ
العربية والآداب عن أبي محمد البطليوسي وسمع الحديث من صهره أبي الحسن طارق بن
يعيش والحافظ أبي بكر بن العربي وأبي الوليد بن خيرة وابن الدباغ ولقي بالمرية أبا القاسم بن
ورد وأبا محمد عبد الحق بن عطية وولي الله سيدي أبا العباس بن العريف ورحل الى
المشرق سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة وجاور بمكة سنين وسمع من أبي الفتح الكروخي
جامع الترمذي برباط أم الخليفة العباسي سنة سبع وأربعين ثم كر راجعا الى الغرب
فقبض في طريقه وحدث بالاندلس والمشرق وكان عالما عاملا متصوفا شاعرا مجودا مع
التقدم في الصلاح والزهد والعزوف عن الدنيا وأهلها والاقبال على العلم والعبادة وله
تصانيف منها كتاب الغرر من كلام سيد البشر وكتاب ضياء الاولياء وهو أسفار عدة
وحمل الناس عنه معشراته في الزهد وكتبها الناس وكان يضع يده على وجهه اذا قرأ
القارئ فيبكي حتى يعجب الناس من بكائه وكان الناس يدخلون عليه بيته والكتب عن
يمينه وشماله وقد وصف غير واحد امامته وعلمه وورعه وزهده وروى عنه أبو الحسن
ابن كوثر وابن بيبش وغيرهما ومن شعره قوله

أسير الخطايا عند بابك واقف * له عن طريق الحق قلب مخالف
قديما عصى عمدا وجهلا وغرة * ولم ينهه قلب من الله خائف
تزيد سنوه وهو يزداد ضلة * فها هو في ليل الضلالة عاكف
تطلع صبح الشيب والقلب مظلم * فما طاف منه من سنى الحق طائف
ثلاثون عاما قد تولت كأنها * حلوم تقضت أو بروق خواطف
وجاء المشيب المنذر المرء انه * اذا رحلت عنه الشبيبة تالف

لازمته مدة ستة أشهر ولم أر أحفظ منه وحضرت اسماع الموطا وصحيح البخاري منه فكان يقرأ من كل واحد من الكتابين نحو عشر أوراق عرضا لحفظه كل يوم عقب صلاة الصبح لا يتوقف في شئ من ذلك انتهى وقال بعض المؤرخين انه كان آخر الحفاظ للحديث يسرد المتون والاسانيد ظاهرا لا يخل بحفظ شئ منها موصوفا بالدراية والرواية عالما عليه الورع والزهد على منهاج السلف يلبس الخشن ويأكل الخشن وربما أذن في المساجد وله تآليف دالة على سعة حفظه مع حظ من النظم والنثر وشهد وقعة العقاب التي أفضت الى خراب الاندلس بالدائرة على المسلمين فيها وكانت السبب الاقوى في تحيف الروم بلادها حتى استولت عليها ففقد حينئذ ولم يوجد حيا ولا ميتا وذلك يوم الاثنين منتصف صفر سنة تسع وستمائة ومولده سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة قال ابن الابار وهو ممن أجاز له المذكور فيما رواه أو ألفه رحمه الله تعالى *(ومنهم أبو العباس أحمد بن تميم بن هشام بن أحمد بن حيون البهراني من ساكني اشبيلية وأصله من لبلة روى عن أبيه وابن الجد وابن زرقون وابن خروف وغيرهم من أعلام الاندلس ثم رحل الى المشرق فسمع ببغداد من أبي حفص عمر بن طبرزد وبخراسان من المؤيد الطوسي وبهراة من أبي روح عبد المعز وبمرو من عبد الرحيم بن عبد الكريم السمعاني ومن جماعة غير هؤلاء وسمع أيضا بدمشق من أبي الفضل الحرستاني وسواه وبها توفي قبل العشرين وستمائة فيما نقل ابن الابار عن ابن نقطة وقال غيره انه مات سنة خمس وعشرين وستمائة *(ومنهم أبو جعفر أحمد بن ابراهيم بن محمد ابن أحمد المخزومي من أهل قرطبة ويعرف أبوه بكوزان روى عن أبيه وغيره من مشيخة بلده ورحل حاجا فلقي بالاسكندرية أبا الحسن بن المقدسي وسمع منه وأنشد من لفظه بعض أصحاب الآثار قال أنشدني شرف الدين أبو الحسن علي بن الفضل المقدسي قال أنشدتني تقية بنت غيث بن علي الارمنازي لنفسها

لا خير في الخمر على انها ۞ مذكورة في صفة الجنه
لانها ان خامرت عاقلا ۞ خامره في عقله جنه
يخاف أن تقذفه من علا ۞ ولا تقي مهجته جنه

*(ومنهم أبو جعفر أحمد بن محمد بن أحمد بن عياش الكناني المرسي سمع من ابن بشكوال موطأ مالك رواية يحيى بن يحيى والقعنبي وابن بكير بقراءة محمد بن حوط الله ورحل الى المشرق سنة تسع وسبعين وخمسمائة فحج سنة ثمانين بعدها وأقام بالحجاز والشام مدة ولقي أبا الطاهر الخشوعي بدمشق فسمع منه مقامات الحريري وأخذها الناس عنه ومما أفاد وزاد في قول الحريري اذا ما حويت جنى نخلة الابيات قوله

ولا تأس في على خارج ۞ اذا ما الحمت سني الداخل
ولا تكثر الصمت في معشر ۞ وان زدت عيا على باقل

وسمع من أبي القاسم بن عساكر السنن للبيهقي ومن أبي حفص الميانشي جامع الترمذي وقفل الى الاندلس في سنة سبع وتسعين وحدث بيسير وكان يحسن عبارة الرؤيا وكف بصره سنة ثمان وعشرين وستمائة أو نحوها وتوفي على اثر ذلك ومولده سنة اثنتين

قوله الارمنازي

قوله

وخمس وخمسين وخمسمائة رحمه الله تعالى *(ومنهم ابو اسحق ابراهيم بن عبد الله بن حفص بن احمد ابن حزم الغافقي وقال فيه ابراهيم بن حفص بن عبد الله بن حفص اندلسي سكن دمشق وولي الخطبة بها ويكنى أبا اسحق سمع ببغداد من ابي بكر بن مالك القطيعي وطبقته وبدمشق من عبد الوهاب الكلابي ويوسف بن القاسم الميانجي وبمصر من أبي طاهر الذهلي وابي احمد الغطريفي وله ايضا سماع بالرملة واطرابلس والثغور وغيرها من البلدان وحدث بيسير روى عنه أبو نصر عبد الوهاب بن عبد الوهاب بن عبد الله الجبائي من شيوخ عبد العزيز بن أحمد الكتاني وكان مالكيا وقيل انه يذهب الى الاعتزال وكان صار في الخطبة ولها سنة خمس وستين وثلثمائة في ايام الحاكم العبيدي وتوفي بدمشق في ذي الحجة سنة أربع وأربعمائة قبل ابي عبد الاصبهاني وقيل غير ذلك قال ابن عساكر رحمه الله تعالى فلت ما سمعت عالكي "معتزلي" غير هذا ولعله كان مالكيا الفروع فلما دخل في خطبة الشيعة حصل منه ما حصل من نسبته لمذهب الاعتزال فالله تعالى أعلم *(ومنهم ابو امية ابراهيم بن منبه بن عمر بن احمد الغافقي من أهل المرية نزل مرسية سمع ببلده من ابن مفوز واخذ عنه القرا آت ومن الحافظ ابن سكرة وابن رفيعة وعبد القادر بن الحناط وبقرطبة من ابن عتاب وابن طريف وأبي عمر الاسدي وأبي عبد وغيرهم ورحل حاجا فسمع بمكة من ابي علي بن العرجا أحاديث جعفر بن نسطور وغيرها في شعبان سنة ست وخمسين وسمع أيضا من أبي الفتح سلطان بن ابراهيم المقدسي وقفل الى بلده واستوطن بعد الحادثة عليها الى مرسية وولي القضاء والخطبة هنالك وحدث وأخذ عنه وكان فقيها مشاورا وقال ابن ابي خميس جمع فيه الاحاديث المسطورة وأسمع صحيح البخاري آخر الخمس وخمسين وخمسمائة وكان يحدث به عن سلطان بن ابراهيم عن كريمة المروزية وحكى رحمه الله تعالى عن أبي ذر الهروي انه قال عند موته عليكم بكريمة فانها تحمل كتاب البخاري من طريق أبي الهيثم رحم الله تعالى الجميع *(ومنهم أبو القاسم بن دورس وهو اسمعيل بن يحيى بن عبد الرحمن السرقسطي واخو القاضي محمد ابن يحيى وكانا معا راحلين لهما رحلة سمعا فيها من أبي ذر الهروي بمكة وعادا الى بلدهما وولي محمد منهما القضاء وقد لقيهما القاضي الحافظ ابو علي بن سكرة ولم يسمع منهما ويرويان عن أبي عمر الطلمنكي وأبي المطرف بن درهم وتوفي أبو القاسم في نحو الخمسين واربعمائة *(ومنهم أبو الطاهر اسمعيل بن أحمد بن عمر القرشي العلوي الاشبيلي رحل حاجا ودخل العراق والموصل وبغداد الكبرى وروى وسمع من أبي حفص الميانشي بمكة سنة ٥٧ وحدث بالموطأ عن ابي الحسن علي بن هلال الانصاري عن أبي الوليد الباجي وحدث ايضا عن غير واحد على انه كان يخلط ولا يضبط وكذلك قال ابو النضر كان له في الموطأ اسناد عال حدا فيه نظر وحدثه فيه غير رجل واحد فاستريب في الرواية به بعد تحسين الظن به ولم يسمه ابو النضر لان ابن هلال وغيره من شيوخه مجهولون وأبو النضر ممن روى عن المذكور وهو أبو النضر الفتحي والله تعالى اعلم بحقيقة حال الرجل *(ومنهم أبو الروح عيسى بن عبد الله بن محمد بن موسى بن محمد بن عبد الله

ابن

ابن ابراهيم بن خليل البقرى الحميرى التاكرنى قال فى تاريخ اربل كان شابا متأدبا فاضلا قدم مصر وله شعر حسن وقال الحافظ عبد العظيم المنذرى أنشدنا المذكور لنفسه

ياقلب مالك لاتفيق من الهوى * أومايقربك الزمان قرار
ألكل ذى وجه جميل صبوة * ولكل عهد سالف تذكار

وله

يارب أصحبة سوداء حالكة * لم ترع فى البيد الا الشمس والقمرا
تخال باطنها فى اللون ظاهرها * فهى الغداة كزنجى اذا كفرا

ولد سنة ٥٩٠ بتاكرنا من بلاد الاندلس وهى من قطر قرطبة وتوفى بأرزن من ديار بكر سنة ٦٢٩ عائدا من آمد رحمه الله تعالى ومن بديع شعره

ان أودع الغارس ماوشاه خاطره * أبدى لعينيك أزهارا وأثمارا
وان تهدد فيه أو يعد كرما * بث الشبيبة آجالا واعمارا

وتاكرنا بضم الكاف والراء وتخفيفها وشد النون وورد المذكور اربل سنة سبع وعشرين وستمائة وله أبيات أجاز فيها أبيات شرف الدين عمر بن الفارض فى غلام اسمه بركات قال الاسدى الدمشقى ومن خطه نقلت كنت حاضرا هذه الواقعة بالقاهرة بالجامع الازهر اذ قال ابن الفارض

بركات يحكى البدر عند تمامه * حاشاه بل شمس الضحى تحكيه

فقال أبو الروح وأنشدنى ذلك

هذا الكمال فقل لمن قد عابه * حسدا وآية كل شئ فيه
لم تذو أحدى زهرتيه وانما * كملت بذاك ملاحة التشبيه
وكأنه رام يعالق جفنه * ليصيب بالسهم الذى يرميه

وقال ابن المستوفى فى تاريخ أربل أنشدنى أبو الروح

أوصيت قلبى أن يفر عن الصبا * طمعا بأنى قد دعوت سميعا
فأجابنى لاتخش منى بعدما * أفلت من شرك الغرام وقوعا
حتى اذا نادى الحبيب رأيته * آوى اليه ملبيا ومطيعا
كذبالة أخمدتها فاذا دنا * منها الضرام تعلقته سريعا

قال وأنشدنى

وزائر زارنى والليل معتكر * والطيب يفضحه والحلى يشهره
أمسكت قلبى عنه وهو مطرب * والشوق يبعثه والصون يزجره
فبت أصدى الى من لايعللنى * والورد صاف ولاشئ يكدره
تراه عينى وكفى لاتلامسه * حتى كأنى فى المرآة أنظره

قال وانشدنى قال انشدنى الامام أبو عمرو بن غياث الشريشى لنفسه رحمه الله تعالى

صبوت وهل عار على الحب ان صبا * وقد نغر الاربعين الى الصبا
وقالوا مشيب قلت واعبا الكم * أينكر صبح قد تخلل غيهبا

وليس سناما بارق وإنما * كست الصبا الماء الجاري عاد أسمرا

وتوفي أبو عمرو سنة ٦٢ من شعر سنة قال ابن المستوفي وأنشدني المذكور
قال أنشدني أبو عمرو وأنشدنا لنفسه

أودع فؤادي حسر أودع * يسل تودي اتى أسلى
أسد سهام اللحظ أو فارقها * أن عاري مصاب مني
موثقها القلب وأنت الذي * مكنته في ذلك الموضع

قال وأنشدني قال أنشدني مطرف الغرناطي

أناصب كأسا وبهري * ساعر ماجد كريم جواد
سنه سهاد عاجيل * وإن الحديث فلي زادوا

قال وأنشدني أيضا المطرف

رب فروع الأمل وزن إذا * بل الندى أعطافها تسجع
أوهرها نحو نسيم الصبا * سائل منها غير تردد مرع
كأعارسلها مسر * وهي حطب يرفه مصمع
ان سها في طرف لوعه * تجري لها في طرف مدمع

أنشدنا من قول عبد الوهاب بن علي المالقي الخطيب

كأن فؤادي وطرفي معا * هما طرفا غصن أخضر
إذا اشتعل البارق جانب * جرى الماء في الجانب الآخر

تم طبع الجزء الأول بعون من عليه الاعتماد والمعوّل من
كتاب نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب
وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب
وكان تمام طبعه وحسن تمثيله
ووضعه بالمطبعة الميرية
المصرية في الأيام
السعيدة

م

ويليه الجزء الثاني أوله ومن المرتحلين من الأندلس إلى المشرق
الإمام الصوفي اللغوي نور الدين أبو الحسن

هذا الجزء ناقص الكمرك